تاريخ دولة المماليك

إعداد

دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت

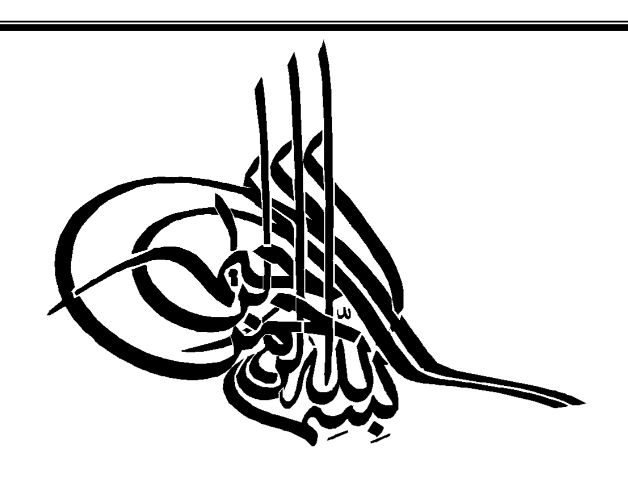
بطاقة الفهرسة

اســـم الكتـــاب:	تاريخ دولة المماليك
المؤلـــــــف:	رجب محمود إبراهيم بخيت
الطبعـــــــة:	طبعة أولى / **1431هـ – 2010** م
الناشـــــــر:	مكتبة الإيمان
رقـــم الإيـــداع:	
الترقيم الـــدولي:	

مكتبـــة الإيمـــان – المنصـــورة

أمام جامعـــة الأزهـــر

050/2257882



{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾} [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

* * *

الإهداء

إلى العابدة الصابرة... الحبيبة أمي

التي أعطتني من دمها وحياتها... وعند الله وحده ثوابها

* * *

إلى العابد الصابر... صاحب الفضل علي... الحبيب أبي

* * *

مقدمـــة

مقدمة

الحمد لله رب العزة رب العالمين، ولي التمكين للدين، الملك الحق المبين، خير الناصرين، وأحكم الحاكمين، لا إله إلا هو يقص الحق وهو خير الفاصلين، مجّدَ نفسه في كتابه بامتلاكه وحده لأسباب النصر والتمكين، فقال:{وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾} [الأعراف: ١٩٧]. وقال:{وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ } [آل عمران: ١٢٦].

وصلى الله وسلم على نبيه محمد إمام المرسلين، المقطوع بنصرهم من رب العالمين في قوله - سبحانه -:{وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾} [الصافات: ١٧١ - ١٧٢] ورضي الله عن الصحابة أنصارهم والمهاجرين، الذين تجردوا من العلائق جادين، فخرجوا من أهلهم وديارهم ينصرون الله ورسوله حتى سماهم الله بالصادقين.

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾} [آل عمران: ١٠٢].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾} [النساء: ١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾} [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد على كل حال.

أما بعد:

فسلاطين دولة المماليك قد ورثوا عن أساتذتهم في دولة الأيوبيين ممتلكاتهم ونظمهم السياسية وسياستهم الخارجية تجاه القوى المعاصرة، سواء السلمية منها أو الحربية، وتمثل فترة دولة المماليك فترة حاسمة في تاريخ الحضارة الإنسانية بصفة عامة والعربية الإسلامية بصفة خاصة، فهي تفصل بين فترتين

مهمتين في تاريخ البشرية، وبها من الأحداث الكبيرة الكثير، ففيها الحروب مع التتار، والقوى الصليبية، والتركمان ثم الدولة العثمانية، وحفلت بالكثير من السلاطين العظام الذين أثروا الحياة الفكرية والثقافية وتركوا لهم بصمات على وجه التاريخ، ولهذه الدولة الكثير من الإيجابيات وعليها مثلها أو ما يفوقها من السلبيات.

وإني لست أفضل أن أستعرض أو أتحدث عن فصول الكتاب أو ألخصها في المقدمة، وأترك القارئ والباحث، لكي يراها بعين النقد والتمحيص، ويخرج منها بالعبر والدروس، وأترك الكتاب لكي يتحدث عن نفسه ويصف أحداثه التاريخية.

وأخيـــرًا:

أسأل الله أن أكون قد وفقت في إتمام هذا العمل، وأن يكون خالصًا بوجهه الكريم، وأن يتقبله مني وأن يثيبني عليه، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم العرض عليه، وأسأل كل من قرأ هذا الكتاب وانتفع به أن يدعوا الله لي بحسن الخاتمة، وأن يرزقني الشهادة في سبيله، وأن يدخلني الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

د / رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

بعض مصطلحات الوظائف والمناصب المدنية والعسكرية في الدولة المملوكية ومعانيها التى وردت في الكتاب:

كانت مناصب الدولة - عدا منصب السلطنة - مقسمة بين نوعين من الرجال هما: المتعممون، والأمراء.

– أولاً: **المتعممـــون**: وأطلق لفظ المتعممين على المثقفين من أبناء الشعب المتخرجين من المساجد، النابغين في علم أو أدب، وهؤلاء يختار منهم: قضاة القضاة ونوابهم ومساعدوهم، وكتاب الدواوين ومعاونوهم، وكُتَّاب السر وشيوخ المدارس والخوانق، وما إلى ذلك. أى تُركَت لهم مناصب القضاء والكتابة والتعليم وما يتصل بها، ولهؤلاء أجور ورواتب وضروب من المعونة يمنحونها من أوقاف ونحوها لقاء أعمالهم.

– ثانيًا: **الأمراء**: فأصلهم من معتوقى المماليك، الذين سمت بهم همتهم وحظهم، إلى مرتبة الإمارة، ولكل واحد من هؤلاء إقطاع يمنحه فيستغله وفق هواه، أو يتناول مالاً معينًا، ويتغير إقطاعه، ويعطى أوسع منه كلما ترقي. ويرد الإقطاع إلى السلطان ليمنحه إلى آخر إذا توفى صاحبه أو عطل عن العمل.

ويعتبر الأمراء جميعًا أعضاء عاملين في الجيش " ضباطًا "، إلا من غضب عليه السلطان منهم، فنفاه وجعله " طرخانًا " أي: عاطلاً بلا عمل. ولكل أمير رئاسة على طائفة من الجنود محدودة، وحسب مرتبته. ومن هؤلاء الأمراء من يشغل - بجانب إمرته - وظيفة من وظائف الدولة، أو أكثر. ومنهم من يكون بلا وظيفة، والوظائف التى توكل إلى بعضهم، هى ما عدا وظائف القضاء والكتابة والتعليم وما يتصل به مما اختص به " المتعممون ". فغيرها، مقصور على طائفة الأمراء دون سواها، ويندر أن يوظف في إحداها متعمم، إلا إذا كانت عملاً كتابيًّا.

ومراتب الإمارة – في الغالب – أربعة:

– **أمير مائة ومقدم ألف**: ويرأس مائة فارس، وقد تزيد. ويتقدم ألف أمير ممن

دونه في المرتبة. ويبدو أنه تقدم أدبى لا غير، وهذه المرتبة أرفع مراتب الإمارة، ويختار من طبقتها نواب السلطنة، وأكابر موظفى الدولة، مثل الأتابكى وحاجب الحجاب، وبلغ عدد الأمراء المقدمين في أيام الناصر بن قلاوون أربعة وعشرين، ثم نقص هذا العدد أو زاد قليلاً. وبلغ في عهد الغورى نحو ستة وعشرين أميرًا.

– **أمير طبلخاناة**: ويرأس أربعين فارسًا، وقد تزيد، وهذه المرتبة ثانى مراتب الإمارة، ويختار من طبقتها موظفون أقل خطرًا من سابقيهم وكشاف الأعمال، وعدد أمراء هذه الطبقة لا ضابط له، وقد بلغ عددهم في عام 908هـ نحو خمسة وأربعين أميرًا، كان منهم عشرة موظفين، والباقى بغير وظيفة.

– **أمير عشرة**: ويرأس عشرة فرسان. وقد تزيد ويختار من طبقتها أصاغر الولاة والموظفين، وعدد أمراء هذه الطبقة لا ضابط له أيضًا، وبلغ في عام 908 هـ نحو مائة وثمانين أميرًا.

– **أمير خمسة**: وهم قلائل، ويعتبرون كأكابر الجنود.

ورتب الإمارة رتب عسكرية، تمنح عادة في حفل عظيم، وبخاصة عقب حفل تولية سلطان جديد. وقل أن تمنح ألقاب الإمارة لأحد أبناء السلاطين، بل يُعْرَفون بالأسياد. ويقال لأحدهم: سيدى فلان.

والمملوك إذا اكتمل شبابه وأينع، وأظهر كفاءة ونشاطًا، أعتق ومنح لقبًا من ألقاب الإمارة - وهو أمير عشرة غالبًا - ثم يعطى خيلاً وقماشًا ومالاً، ويفرد له إقطاع جديد مناسب للقبه، وبعد زمن يقضيه في نشاط مستمر يرقى إلى أمير طبلخاناة، وبعد زمن آخر يرقى إلى أمير مائة مقدم ألف. وهكذا غالبًا.

ويتكون الجيش من هؤلاء الأمراء، ومعهم الجنود. والجنود أنواع، وأهمها وأوسعها عددًا المماليك السلطانية.

أما الوظائف التى يليها بعض هؤلاء الأمراء فكثيرة، ولا نقصد هنا أن نستوعبها ونتتبع الأحوال التى تقلبت فيها. وإنما نذكر بعضها فحسب. فمنها:

– **نيابة السلطنة**: هى أرفع مناصب الدولة، ويدعى شاغلها " نائب السلطنة " ويقال له أيضًا " النائب الكافل " و " كافل الممالك الإسلامية " وهو يحكم في كل مافى يحكم فيه السلطان، ويوقع على ما ينبغى أن يوقع عليه، فهو - في الواقع - الحاكم الفعلى وليس للمملكة إلا نائب سلطنة واحد.

– **نيابة الأقـاليم**: كانت المملكة مقسمة إلى عدة أقسام، هى وتوابعها كالبلاد الشامية والحلبية ويقال لكل قسم " نيابة " ويحكم كل منها " نائب " يختار من كبار الأمراء، فكان لكل من الشام و قلعة دمشق وحلب، وصفد وطرابلس، وحماة، والكرك، والإسكندرية " نائب " وأعظمهم جميعًا " نائب الشام ".

– **نيابة الغيبـة**: وهى نادرة، ولا تكون إلا إذا خرج السلطان ونائبه في غزاة خارج البلاد. حينئذ ينصب أحد كبار الأمراء، " نائبًا للغيبة " ويقوم بالمهام حتى يؤوب السلطان.

– **الأتابكية**: ومعناها إمارة الجند. ويقال لشاغلها: " أتابك " و " أتابكى " و " أتابك العسكر" وهى تلى رتبة نيابة السلطنة في الأهمية، وقد تضارعها، وقد تتميز عنها.

– **الحجوبيـة**: ويسمى شاغلها " حاجب الحجاب " ويختار من أكابر الأمراء المقدمين، وهو حاكم وقاض كبير له أعوان. يفصل في المنازعات التى تقوم بين الجنود، والأمراء، وفى قضايا الدواوين السلطانية. ولمنصبه أهمية كبري، حتى قيل أنه يلى نيابة السلطنة في الأهمية. وقد اتسع اختصاصه بتوالى الأيام، حتى فصل في المنازعات المدنية، بل وفى بعض القضايا الشرعية، والتى تقع بين أفراد الرعية، لا بين الأمراء والجند فحسب، وذلك من باب استدرار الأموال من المتخاصمين، وقد وسوس له اتساع الاختصاص وحب المال أن يقضى وفق هواه بغير مراعاة لأحكام الشرع.

أمير مجلس: ويوكل إليه أمر الأطباء ومن إليهم.

أمير سلاح: وهو رئيس السلاح دارية من المماليك السلطانية، ويوكل إليه أمر

الأسلحة السلطانية، وحمل السلاح للسلطان في الأوقات الجامعة.

أمير خور: ويوكل إليه النظر في الإصطبلات السلطانية وخيولها.

رأس نوبة: ويوكل إليه الحكم على المماليك السلطانية، وكبح جماحهم.

الأستادار: ويوكل إليه النظر في بيوت السلطان جميعها، والإشراف على مطابخه ومشاربه وحاشيته وخدمه، وينفق على بيوته ومن فيها، ويدبر له ما يحتاج إليه.

الدوادار: يبلغ رسائل السلطان، ويقدم إليه المظالم والأخبار ونحوها، وينظر في المقابلات السلطانية، ويقدم البريد إلى السلطان مع كاتب السر وأمير جاندار، ويطلب توقيع السلطان على المناشير والرسائل ونحوها.

أمير جاندار: يعاون الدوادار وكاتم السر، ويستأذن للأمراء في الدخول إلى السلطان، وينظم موكب السلطان حين سفره، ويتسلم بعض المغضوب عليهم ويعتقلهم في الزردخاناه، وهى تحت إشرافه.

الجاشنكير: ينظر في الموائد السلطانية، مع الأستادار.

الخازندار: ينظر في خزائن الأموال السلطانية، تحت إشراف ناظر الخاص.

شاد الشرابخاناه: ينظر في المشارب السلطانية وما فيها من فاكهة وحلوى وأشربة.

أستادار الصحبة: ينظر في المطابخ السلطانية، ويشرف على الأطعمة وتنظيم الموائد.

مقدم المماليك: ويشرف على المماليك السلطانية ويحكم فيهم.

الزمام: يشرف على تربية المماليك السلطانية.

نقيب الجيش: ينظم الجند ويزينهم وقت العرض، ويحضر إلى السلطان أو نائبه من يحتاج إليه من الأمراء وغيرهم.

المهمندار: يقابل الرسل والوافدين إلى الأبواب السلطانية، من داخل البلاد أو خارجها.

شاد الدواوين: وهو يعين الوزير في عمله، ويستخلص الأموال ونحوها.

شاد العمائر: يوكل إليه العمائر السلطانية ونحوها، فيبنى ويجدد.

والى القـــاهرة: يقوم بالمحافظة على هذه المدينة، وهو بمثابة المحافظ الآن. وللنواحى الأخرى ولاة غيره.

الكاشف: وهو ضرب من حكام الأقاليم.

الـــوزير: ينظر في الأمور المالية وتحصيل المال وصرف النفقات وتعيين المباشرين، وكانت هذه الوظيفة جليلة الشأن، وكان صاحبها قريبًا من السلطان، ثم تناقص خطرها وألغيت أحيانًا، ويعاون الوزير أحيانًا: شاد الدواوين وناظر الدولة. ويقوم مقام الوزير في عمله، ومستوفى الصحبة، ويعد المراسيم ليوقع عليها السلطان.

ناظر الخاص: وظيفة أحدثها الناصر بن قلاوون لما أبطل الوزارة، وموضوعها: النظر في كل ما يتصل بمال السلطان الخاص، وأصبحت كالوزارة، ولشاغلها أتباع من كتاب ديوان الخاص، كمستوفى الخاص. وناظر الخزانة الخاص.

ناظر الجيش: وعمله النظر في أمر الإقطاعيات بمصر والشام، والكتابة بالكشف عنها، ومشاورة السلطان في أمرها، ويتصل بالنظر في شؤون المماليك السلطانية، وله أتباع.

المحتسب: ينظر في شؤون القاهرة، ويراقب الصناع والتجار والعمال، ومن إليهم، ويراقب إستقامتهم، ويضرب على يد المنحرفين منهم، وهو شبيه بـ " حكمدار العاصمة " (1).

---

(1) أبو المحاسن ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، عهد الناصر محمدًا محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، 1 / 44 - 84.

الفصل الأول

المماليك في مصر قبل قيام دولتهم

الفصل الأول:
المماليك في مصر قبل قيام دولتهم

المملوك عبد يباع ويشتري، وهو مرادف للعبودية والرق؛ لأنه يعنى أن " المملوك " ملكية خاصة لشخص آخر، غير أن التسمية اقتصرت في معظم الدول الإسلامية المتأخرة على فئة معينة من الرقيق الأبيض يشتريهم الحكام من أسواق النخاسة لتكوين فرق عسكرية خاصة أيام السلم، وإضافتها إلى الجيش العام أيام الحرب. ثم صار المملوك الأداة الحربية الوحيدة في بعض الدول مثل دولة المماليك في مصر والشام (1).

وكان العباسيون أول من استعمل العنصر المملوكى في بلاطهم وجيشهم وإدارة دولتهم، وقد اضطرهم عدم الاطمئنان للعنصر العربى أولاً، ثم تغير الخلفاء العباسيون على العنصر الفارسى الذى كان هو عماد الدولة العباسية في بداية تكوينها، ولكنهم ما لبثوا أن وجدوا أنهم وإياهم كالمستجير من الرمضاء بالنار، حيث لم يلبث العنصر التركى كثيرًا وبدأوا يتدخلون في شؤون الدولة وتولية وعزل الخلفاء بما يتوافق مع أهوائهم ورغباتهم فنقضوا أركان الخلافة من أساسها.

وكان الخليفة المعتصم العباسى (218 - 227 هـ / 833 - 842 م) أول الخلفاء العباسيين اعتمادًا على العنصر التركى في الجيش، حيث شكل منهم فرقًا عسكرية، وعنى باقتنائهم والإكثار من أبناء هذا العنصر صغارًا، وعكف على جلبهم من سمرقند وفرغانة والسند وأشروسنة والشاش وغيرها من أقاليم بلاد ما وراء النهر حتى بلغت عدة مماليكه بضعة عشر ألفًا (2).

وقد عنى المعتصم بهذا الجنس التركى في جيشه حيث ألبسهم أفخر الثياب، وسمح لهم بركوب الخيل في بغداد حتى اكتظت بهم، مما أدى إلى اصطدامهم

(1) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص 11.
(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص222، الكرماني، أخبار الدول، ص157.

بالناس في الطرقات، وإثارة سخط الناس في بغداد لدرجة اضطرت الخليفة إلى الانتقال بهم إلى سامراء التى بناها خصيصًا لتكون عاصمة لدولته ومقرًا لجيوشه لاسيما الأتراك المماليك منهم والأحرار [(1)].

ولما وجد المعتصم المنافسة المستعصية بين العرب والفرس سوف تؤدى بالخلافة العباسية إلى السقوط فأقصاهما عن الإدارة والجيش في دولته، واعتمد على العنصر التركى واشترى واستكثر منهم واعدهم للجيش اعتقادًا منه أنهم مجردون من الطموح الذى اتصف به الفرس، ومن العصبية التى عرف بها العرب، ولكن سرعان ما أخذ أولئك الأتراك المماليك في التدخل في شؤون الدولة حتى أمست في أيديهم يفعلون بها مايشاؤون [(2)].

وظهر تدخل هؤلاء المماليك في شؤون الدولة جليًّا منذ زمن الخليفة الواثق عام 232 هـ / 846 م، عندما عرض عليهم ابنه، فرفضوا توليته لصغر سنه، ثم أشير عليه بجعفر بن المعتصم فقبلوا ذلك الاختيار فبايعه الناس [(3)].

والحقيقة إن علاقة المماليك بمصر أبعد عهدًا من قيام دولتهم بها، فالدولة الطولونية التى قامت في مصر (254 - 292 هـ / 868 - 905 م) فقد اعتمد أحمد بن طولون على المماليك، حتى أنه يمكن القول أنه أول من استعمل المماليك بمصر في جيشه، وجلبهم إليها بأعداد ضخمة، قيل: إنهم بلغوا أربعة وعشرين ألف مملوك، رجاء أن يتمكن من الاستقلال بولاية مصر عن الخلافة العباسية، ولم يكن الإخشيديون أقل من أحمد بن طولون في استخدام هذا العنصر [(4)].

---

(1) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص 12.

(2) أبو شامة، الذيل على الروضتين، 3/1.

(3) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 370/5، جمال سرور، الظاهر " " بيبرس " " وحضارة مصر، ص 25- 26، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص11.

(4) على ابراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص22، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص11.

المماليك في مصر قبل قيام دولتهم:

ويرجع تاريخ وجود المماليك في مصر منذ عهد الخليفة المعتصم العباسي، إذ ظهر ميله للعنصر التركى على حساب العربى عندما كتب إلى واليه التركى على مصر ويدعى كيدر[1] نصر بن عبد الله يأمره بإسقاط العرب من ديوان الجيش وقطع أعطياتهم منه، فلما قطع كيدر الأعطيات خرج يحيى بن الوزير الجروى في جمع من العرب من لخم وجذام، وقال: هذا أمر لا نقوم في أفضل منه؛ لأنه منعنا حقنا. واجتمع إليه نحو من خمسمائة رجل، فتوجه إليهم مظفر بن كيدر وحاربهم عند بحيرة تنيس، وفرقهم بعد أن أسر يحيى بن الوزير. ومنذ صار جند مصر وولاتها من المماليك الأتراك أو ذراريهم [2]، كما صار منهم جند الولايات الأخرى وولاتها ومن أولئك أحمد بن طولون [3].

وكان ابن طولون مملوكًا تركيًا ممن أرسلهم حاكم بخارى نوح بن أسد السامانى في جملة من الرقيق والهدايا للخليفة المأمون وهو بمرو سنة 200 هـ /815 م، وتدرج ابن طولون في حياة المماليك بالمجتمع العباسى حتى صار رئيس

---

(1) كيدر، واسمه نصر بن عبد الله، وكيدر شهرة غلبت عليه، الأمير أبو مالك الصغدي؛ ولى إمرة مصر بعد عزل عيسى بن منصور في صفر سنة سبع عشرة ومائتين من قبل المأمون على الصلاة، فسكن العسكر على عادة الأمراء بعد رحيل المأمون، وجعل على شرطته ابن اسبنديار. ثم بعث المأمون برجل من العجم يسمى بابن بسطام على الشرطة فولى مدة ثم عزله كيدر لسوء سيرته لرشوة ارتشاها وضربه بالسوط في صحن الجامع، ثم ولى ابنه المظفر عوضه. ودام كيدر على إمرة مصر إلى أن ورد عليه كتاب المأمون في جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة ومائتين بأخذ الناس بالمحنة- أعنى بالقول بخلق القرآن- وكان القاضى بمصر يومئذٍ هارون بن عبد الله الزهري، فأجاب القاضى والشهود، ومن توقف منهم عن القول بخلق القرآن سقطت شهادته. وأخذ كيدر يمتحن القضاة وأهل الحديث وغيرهم، وكانت بداية ولايته مصر سنة 217 هـ. وتوفى المأمون، وهو في الإمارة، فأقره المعتصم.

وجاءه كتابه يأمر بإسقاط من في الديوان من " العرب " وقطع أعطياتهم، ففعل ذلك كيدر، فخرج عليه يحيى ابن الوزير الجروى في جمع من لخم وجذام، فتجهز لحربهم، فعاجلته منيته. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 1 / 217- 219.

(2) الكندي، الولاة والقضاة، ص193، المقريزي، الخطط، 152/1.

(3) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص 65- 66.

الحرس الخليفي، وتمكن من تربية ابنه - أو متبناه - أحمد تربية عسكرية إسلامية أهلته لأن يصبح حاكمًا على مصر سنة 254 هـ / 868 م، وكان من الطبيعي أن يعتمد ابن طولون على المماليك من بني جنسه التركي في ولايته، غير أنه طمع في شيء من الاستقلال بمصر، ولذا اهتم فيما اهتم بالجيش على وجه الخصوص. ولم يقنع هو وابنه خمارويه من بعده بالمماليك فحسب، بل جعل بجيشه فرقا من العرب الأحرار، فضلاً عن فرق من الرقيق الأسود والديلم والروم، ويجمع المؤرخون على ضخامة ذلك الجيش إلى درجة اضطرت أحمد بن طولون إلى بناء ثكنات لهم وهي القطائع، والروايات العربية وتقدر ذلك الجيش تقديرات لا تبدو بعيدة عن الحقيقة، فالمقريزي يرى في خططه أن ابن طولون استكثر من مشترى المماليك الأتراك حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك، وبلغ مشترى العبيد الزنج أربعين ألفًا، كما استكثر من العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف حر مرتزق، أما ابن إياس فإنه يقتبس من ابن واصف شاه ويقول أن مماليك ابن طولون من الديالمه فقط: بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك [1].

وسارت الدولة الإخشيدية على سنة أسلافها الطولونيين في اتخاذ المماليك الأتراك حتى أنه يقال: إن مماليك محمد الإخشيد بلغ عددهم ثمانية آلاف مملوك، وأنهم كانوا يحرسونه بالنوبة عندما كان ينام كل يوم ألف مملوك[2] ويبدو أن الجيش الإخشيدي اشتمل هو أيضًا على عدد كبير من العبيد السود بدليل حلول أحدهم وهو كافور محل الإخشيد في حكم مصر [3].

ولما قامت الدولة الفاطمية في مصر (358 - 567 هـ / 968 - 1171م) كانوا في حاجة إلى جيش كبير يستطيعون به حماية سلطانهم فلجأوا إلى الأتراك

---

(1) المقريزي، الخطط، 152/1، ابن إياس، بدائع الزهور، 37/1، أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص 67.

(2) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 256/3.

(3) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص 67.

وشراء المماليك، بل إنهم أضافوا بمصر نوعًا جديدًا من المماليك جاءوا من المغرب وهم الصقالبة، ويبدو أن الخلافة الفاطمية أكثرت من المماليك الأتراك والصقالبة، منذ قيام المعز، أول الخلفاء في مصر بدليل اختيار العزيز وهو الخليفة الثانى لكثير من هؤلاء، وأولئك لمناصب الثقة والقيادة والولاية، لأن وصولهم إلى تلك المناصب معناه: أن العزيز أعطاهم قوة في الدولة بحيث صارت المناصب العليا عندهم أهدافًا مشروعة، فولى مملوكه بنجو تكين التركى قيادة الجيش كما ولاه الشام، وولى دنيا الصقلبى عكا، وبشارة الإخشيدى طبرية، ورباحًا السيفى غزة، وبرجوان الصقلبى إمارة القصر، وليس أدل على إكثار الفاطميين من الصقالبة من تسمية أحد الشوارع الفاطمية في القاهرة باسمهم، وهو الشارع الذى امتد بين حارة زويلة وخان أبو طاقية [1].

ولقد أثار تفضيل الفاطميين للترك والصقالبة عوامل الحسد والنضال بينهم وبين المغاربة، ويظهر ذلك جليًّا أثناء عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (386 - 411 هـ /996 - 1030م) الذى استكثر من العبيد السود (السودان) للحد من نفوذ الفريقين، ثم قوى نفوذ الترك مرة أخرى في عهد الخليفة الظاهر لميله إلى الأتراك المشارقة، فصارت قيادة الجيش في أيدى أبى المنصور أنوشتكين، وهو مملوك تركى الأصل يعرف بالدزبري، وقد ولاه الظاهر فيما بعد دمشق سنة 419 هـ /1028 م، ثم جاء الخليفة المستنصر الفاطمي، فمال إلى عنصر العبيد الأسود واستكثر من شرائهم، لأن أمه كانت أمة سوداء [2]وظل هذا العنصر منبع القوة في الدولة إلى آخر عهد الدولة الفاطمية [3].

ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر عام (567 - 648 هـ / 1171 - 1250م)

---

(1) المقريزي، الخطط، 41/2- 42، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 117/4، على مبارك، الخطط التوفيقية، 28/3، أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص 68.

(2) المقريزي، الخطط، 17/3- 18، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 252/4، 268، على مبارك، الخطط التوفيقية، 9/2، أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص 68.

(3) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص 68- 69.

جلب سلاطينها أعدادًا ضخمة من المماليك واعتمدوا عليهم في جيوشهم وبناء قوتهم [(1)].

والدولة الأيوبية كما هو معروف كردية الأصل، وولدت من رحم دولة السلاجقة التركية [(2)]، ونقلت عنها الكثير من عاداتها وأنظمتها التركية المشرقية وطبقتها في مصر والشام لأول مرة.

وينبغى الإشارة إلى وجود المماليك في عهد الدولة السلجوقية حتى يمكن فهم دور المماليك في جسم الدولة الأيوبية.

لقد اعتمدت الدولة السلجوقية منذ نشأتها على المماليك من الترك، وورث هؤلاء سياستها ومراميها، والقاعدة العامة المعروفة عن السلاجقة في ضوء تاريخهم، هى أنهم اعتقدوا أنه لايمكن للفرس والعرب أن يخلصوا في خدمة سادتهم الترك الذين ربوا ونشؤوا في البلاط على مقربة من سلاطين السلاجقة وأمرائهم، وصار هؤلاء المماليك يجلبون وهم صغار السن من بلاد القبجاق ثم يربون تربية خاصة على أساس النظام التربوى المملوكى السامانى [(3)].

وحرص نظام الملك - وزير آل سلجوق - أن يحيط نفسه بجيش كبير من المماليك عرفوا بالمماليك النظامية نسبة لاسمه، فقوى بهم نفوذه إلى درجة كبيرة جعلته ينافس سيده السلطان السلجوقى ملكشاه، ومكنت مماليكه من بعده من عزل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وتولية أخيه بركيارق [(4)].

وكان نظام الملك - على أرجح الأقوال - أول من أقطع الإقطاعيات للمماليك الأتراك، فبعد أن كان عطاء الجندى يدفع نقدًا صار يعطى إقطاعًا، وسار

(1) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص11.

(2) اقرأ للمؤلف: تاريخ الدولة الأيوبية، نشر دار الإيمان بالمنصورة والقاهرة.

(3) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، 70.

(4) أبو شامة، الذيل على الروضتين، 26/1، صدر الدين أبو الحسن، أخبار الدولة السلجوقية، 69، الأصفهاني، دولة آل سلجوق، ص 76، أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص75.

سلاطين السلاجقة على هذا الدرب فمنحوا القلاع والمدن والولايات إقطاعيات للقادة من مماليكهم - الذين سموا بالأتابكة - وذلك مقابل الخدمات العسكرية التى يؤدونها لهم في وقت الحرب. وعلى هذا الأساس صار معظم أراضى فارس والجزيرة والشام مقسمًا إلى إقطاعيات عسكرية يحكمها مماليك السلاجقة بتفويض من السلطان، وهؤلاء جعلوا لأنفسهم جيوشا من المماليك في مختلف الولايات، حتى إذا دعت الحاجة إلى حضورهم للخدمة في الحروب، وسرعان ما ازداد نفوذ هؤلاء المماليك الذين أطلق عليهم لقب الأتابكة، وأسندت إليهم مهمة تربية أبناء السلاطين السلاجقة، ومنحوا مقابل ذلك الإقطاعيات الكبيرة، ومع ضعف دولة السلاجقة وتفككها صار هؤلاء أصحاب النفوذ الفعلى، واستقلوا بولاياتهم وإقطاعياتهم واقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ماعدا الفرع الرومى في آسيا الصغرى فإنه ظل في حوزة السلاجقة أنفسهم حتى أتى العثمانيون إلى تلك البلاد أواخر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى[1].

والدول الأتابكية كثيرة العدد وبيوتها شتى لاتنتهى إلى نسب واحد، إلا أنها يجمعها صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقى والنظام الإقطاعى الإسلامي. ومن المماليك السلاجقة الذين حكموا وصاروا ملوكًا:

بنو أرتق: نسبة إلى جدهم أرتق التركمانى أحد مماليك ملكشاه، وهم الذين حكموا حصن كيفا (495 - 629 هـ /1101 - 1223 م) وماردين (502 - 811 هـ / 1108 - 1408 م).

أتابكة دمشق: (497 - 549 هـ / 1103 - 1154م) وأول ملوكها " طغتكين " وأصله مملوك للملك تتش بن ألب أرسلان أول سلاجقة الشام، ثم صار لولده دقلق، وبعد موت دقلق صار ملك دمشق لطغتكين، واستمر في عقبه 52

(1) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، 77.

سنة[1].

ثم هناك شاهات خوارزم: (470 - 628 هـ / 1077 - 1231 م) وينسبون إلى أنشكين وهو مملوك تركى لأحد الأمراء السلاجقة، وعينه السلطان ملكشاه حاكمًا على خوارزم (خيوه) ورسخت أقدام هذا البيت واتسعت أملاكه، وعلى أيدى ملوكه أتمز، وتكش، وعلاء الدين، انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما إليها من بلاد الرى والجبل وما وراء النهر، وقد انتهت هذه الإمبراطورية الخوارزمية في عهد جلال الدين خوارزم شاه على أيدى المغول سنة 628 هـ /1132 م، ومن فلولها كانت بعض البذور التى نبتت منها الدولة المملوكية الأولى في مصر [2].

ومن مشاهير الأتابكة في أوائل القرن الثانى عشر الميلادى الأمير عماد الدين زنكى مؤسس أتابكة الموصل والشام وديار ربيعة ومضر، وهو ابن قسيم الدولة أقسنقر الحاجب الذى بدأ حياته مملوكًا للسلطان ملكشاه، وعن طريق زنكى وابنه نور الدين محمود كان ظهور صلاح الدين الأيوبى الذى تأثر بالنظم السلجوقية، وإليه يرجع الفضل في انتقال تلك النظم إلى مصر حيث بقيت عدة قرون زمن الأيوبيين والمماليك [3].

ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر (567 - 648 هـ /1171 - 1250م) جلب سلاطينها أعدادًا ضخمة من المماليك واعتمدوا عليهم في جيشهم وبناء قوتهم [4].

وهناك أسباب من الممكن أن تكون قد دفعت الأيوبيين إلى الاعتماد على المماليك والإكثار منهم، منها التحركات المفاجئة لعناصر آسيوية، هم المغول،

---

(1) صدر الدين أبو الحسن، أخبار الدولة السلجوقية، ص 196- 197، أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص78.

(2) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص78.

(3) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص78.

(4) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول والمماليك، ص11.

مما جعل هذا النظام يتسع اتساعًا كبيرًا، بسبب ما سببه المغول من دمار، فحينما هجم " جنكيزخان "، زعيم المغول في وسط آسيا - مجال أمم الترك خاصة - كان الآسيويون يهربون أمامه، ورغبة في الحصول على ما يقيم صلبهم كانوا يبيعون ذكور أولادهم وإناثهم [1]بسبب قسوة بيئتهم، فقد كان من عادة الشعوب الآسيوية أن تبيع أبناءهم ولم يزل الصينيون إلى عهد قريب يبيعون أبناءهم[2].

يضاف إلى ذلك أن المغول في تحركاتهم كانوا يستولون على أسرى كثيرين، ويبيعونهم كرقيق في الأسواق، فقد كان المغول يوجدون في كل مكان، ويملؤون الوديان وسفوح الجبال بجموع كثيرة، وخيولهم لا تتعب أبدًا، وليست في حاجة إلى العلف، فهى تنقب الأرض بحوافرها بحثًا عن جذور النبات الذى تقتات به، وكأنهم السيل أو الجراد، بحيث أنهم وهم يهبطون على المدن أو الأمكنة، فيملؤونها ولم يعد الناس يجدون ملجأ لهم لا في الكهوف أو الغابات أو حتى في أعماق الوديان، بل كان المغول يجمعون الأسرى في حظائرهم وكأنهم أغنام أو حيوانات، فمن لا يقتل يباع كرقيق.

كل هذا أوجد سوقًا مهمة لتجار المماليك في مصر أيام الأيوبيين، بحيث أن هؤلاء التجار ازدادوا إلى حد أنهم لم يكن يخصون الرقيق كما كانوا يفعلون من قبل، ليعملوا في البلاط في خدمة الحريم، أو ليكونوا خلصاء الأمير الذى يضع حياته بين أيديهم [3].

ولاشك أن تجار المماليك وجدوا في مشاحنات ملوك الأيوبيين وسيلة لزيادة دخلهم من بيع المماليك، ولاسيما أن السلطان الأيوبى الذى كان يشترى منهم الآلاف، حتى أن المؤرخ المصرى ابن إياس يقول: " ضاقت القاهرة بالمماليك

---

(1) سعد زغلول، الإسلام والترك، ص423.

(2) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، ص 66.

(3) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، ص66.

" [1] فكان يباع منهم للسلطان الأيوبى أو لأمرائه، فإذا كان صغير السن أعطى للحريم لتربيته، وإذا كان شابًا يتعلم ويعيش في القصر مع السلطان ثم يعتق ويحفظ الجميل لسلطانه. وقد كان لتربية المماليك تحت إشراف السلطان الأيوبى ما جعلهم يتميزون بالأخلاق العالية، والمنظر الطيب، مما كان يهيئهم لأعلى المناصب في الدولة والجيش.

وقد بدأ يظهر نفوذ المماليك في مصر بعد موت السلطان الملك الكامل، خامس السلاطين بعد صلاح الدين الأيوبي، الذى كون فرقة له من المماليك عرفت باسمه " الكاملية " فقد استطاع الكامل بهم توحيد مصر وسورية وبلاد الجزيرة، ولكن موته جعل دولته تنقسم بين ابنه العادل الثانى الذى أخذ مصر وسورية، وابنه الآخر نجم الدين أيوب، الذى تلقب بالملك الصالح، وأخذ بلاد الجزيرة، وكان العادل الثانى ضعيفًا، مع أنه كان تحت يده عدد كبير من مماليك أبيه، وقد طمع نجم الدين أيوب في ملك أخيه وتمكن من الاستيلاء على سورية ومصر، وأسر أخاه وحبسه في القلعة على جبل المقطم، ونصب نفسه سلطانًا - ملكًا - وأرسل إلى أخيه من يقتله في السجن في عام 637هـ /1240م [2].

وبعد ذلك؛ عمل نجم الدين أيوب - الذى لم يعد يثق في مماليك أخيه وقد خانوا سيدهم - على التخلص منهم، وقد كانت هناك جماعات هربت أمام تحرك المغول من خوارزم في بلاد ما وراء النهر، وجاءت مشردة إلى الشام فاستعان بهم نجم الدين أيوب لمقاومة مماليك العادل الثاني، ويبدو أن هذه الجماعات بعد ذلك عاثت فسادًا في الشام؛ لأنهم لم يسمح لهم بالنزول في مصر، وجعلهم يقيمون في غزة [3]؛ مما اضطر نجم الدين أن يذهب إلى الشام على رأس جند

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، 83/1، عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، ص67.

(2)عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، ص 67.

(3) المقريزي، السلوك، 316/1.

آخرين ليقضى على خطرهم [1].

ولذا فكر نجم الدين في تكوين فرقة أخرى من المماليك جلب معظمها من عنصر التركمان أو التركمانية، أى من فئات الترك المسلمين، حتى إن المؤرخ ابن تغرى بردى قال: إن نجم الدين أيوب هو الذى أنشأ المماليك الترك في مصر [2].

فهو فعل في دولته ما فعله المعتصم العباسي، بالاعتماد على المماليك الترك بالذات، من دون غيرهم بحيث زادوا في عهده زيادة هائلة عن أى عنصر آخر من المماليك في مصر، وكانوا أميز جنده المماليك البحرية، وبنى لهم قلعة في ساحل النيل خلف الفسطاط في منطقة الروضة، أو ما سمى بالجزيرة الصالحية، - والمقصود بالبحر النيل -، وأصبحت هذه الطائفة من المماليك تنسب إلى الصالح نجم الدين، فعرفت باسمه أيضًا: الصالحية، أو الاسمين معًا: الصالحية البحرية[3].

نهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك:

بالرغم من أن دولة المماليك قد خلفت الدولة الأيوبية بل قامت على أنقاضها؛ إلا إنه كانت توجد بينهما قواسم مشتركة، لعل أهم هذه القواسم هو أن كليهما قد ولد من رحم الأخطار، وفى ظروف غاية في الصعوبة.

فقد كان سقوط بيت المقدس في أيام صلاح الدين سنة 583 هـ /1187 م هو السبب المباشر لقيام الحملة الصليبية الثالثة بالعدوان على بلدان المشرق الإسلامي، كما كان سقوط بيت المقدس للمرة الثانية سنة 642 هـ /1244 م في يد الملك الصالح أيوب كان السبب والباعث على قدوم الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة بقيادة لويس التاسع على مصر، حيث كانت أنباء الهزائم

(1) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، ص68.

(2) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، ص68.

(3) المقريزي، الخطط، 2/216- 217، عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، ص69.

التـى مُنِـىَ بهـا الصـليبيون فـي غـزة، وتسـليمهم بيـت المقـدس، والفظـائع التـى ارتكبها الخوارزميون، وصلت أوروبا مع كثير من المبالغة المعهودة، فكان لابد لتلك الأنباء أن تثير الروح الصليبية في قلب لويس التاسع وصليبى الغرب جميعًا؛ فكان الاعتداء على مسلمى الشرق.

وبالنظر إلى الوضع العسكرى في ظروف قيام دولة المماليك يتبين لنا أن البلاد الإسلامية كانت بين مطرقة المغول شرقًا وسندان الصليبيين غربًا، فنصارى أوروبا برغم هزيمتهم على يد صلاح الدين بقيت لهم في الساحل الفلسطينى حصون ومستعمرات كثيرة، مثل: " طرابلس " و " صور " و " حيفا " و " صيدا " وغيرها، كما ظلت الحملات الصليبية تتوالى على مصر والشام وسواحل إفريقية، فكانت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ملك ألمانيا هنرى السادس سنة 594 هـ /1197 م، والحملة الرابعة بجنودها من ألمانيا وفرنسا وانجلترا سنة 598هـ /1202 م، والحملة الخامسة بقيادة لويس التاسع وجان دى بريين ملك بيت المقدس 616 هـ /1219 م، والحملة السادسة بقيادة ملك صقلية " فردريك الثاني "، بعد أن دعاه الملك الكامل محمد ليسلم إليه ثانية بيت المقدس نظير أن يساعده ضد أخيه المعظم عيسى 624 هـ /1227 م، ثم استرجع بيت المقدس منهم الناصر داود في 6 جمادى الأولى سنة 637 هـ /1241 م، والحملة الصليبية السابعة التى قادها لويس التاسع على مصر سنة 646 هـ /1248 م والتى انتهت بهزيمته وأسره (1).

وخلاصة القول أن الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع أبحرت من ميناء مرسيليا في خريف سنة 1248 م، إلى جزيرة قبرص، حيث حاول لويس التاسع - الذى قضى الشتاء هناك مع بقية أفراد الحملة - استمالة المغول وأجرى معهم الاتصالات بهدف تحويلهم إلى المسيحية والاستفادة من جهودهم في تطويق العالم الإسلامى في الشرق الأدنى، ولكن باءت جهوده بالفشل، كما

---

(1) اقرأ: تاريخ الدولة الأيوبية للمؤلف.

ستفشل حملته على ديار المسلمين.

وكانت الفكرة السائدة في أوروبا المسيحية منذ أواسط القرن الثانى عشر الميلادى أنه ما دامت مصر باقية على ما هى عليه من القوة والبأس، فإن مشاريع الصليبيين في الشام فاشلة لامحالة، ولابد من حرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة الحربية الهامة، وأصل تلك الفكرة عمورى الأول صاحب الحملات المشهورة التى مهدت لقيام الدولة الأيوبية في مصر، واتخذها " حنا دى بريين " ملك بيت المقدس محورًا لسياسته وحملته الفاشلة التى داهمت الشواطئ المصرية سنة 615 هـ/1218 م زمن السلطان الكامل، كما جعلها لويس التاسع وسيلة لتحقيق غاياته وأحلامه الصليبية [1] وهذا ما أكده ابن واصل حينما قال:

"... أن ملك فرنسا ريدا فرانس حدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس للفرنج... وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية " [2].

ولما علم الصالح أيوب أن مصر هى قبلة الحملة الصليبية ومرادها، وأن دمياط هى الهدف المباشر للولوج إلى عمق الديار المصرية، أسرع وعسكر بجنوده في بلدة " أشموم طناح " - وهى أشمون الرمان بمركز دكرنس في العصر الحاضر - وعمل على تحصين دمياط وتزويدها بالذخائر والأسلحة، ووضع فيها حامية من عرب كنانة، كما أرسل إليها جيشًا بقيادة الأمير " فخر الدين يوسف "، وأمره أن ينزل بساحلها الغربى ليحول دون نزول العدو إلى الشاطئ، فنزل هناك تجاه المدينة وأصبح النيل بينه وبينها [3].

وبينما كان الجيش السلطانى يتأهب لملاقاة الحملة الصليبية التى وصلت المياه المصرية قبالة دمياط في الرابع من يونيو سنة 1249 م، وفى اليوم التالى لوصولها اشتبكت مع القوات المصرية المدافعة عن دمياط ودارت بين الجانبين

(1) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص 101.
(2) ابن واصل، مفرج الكروب، 351/2؛ المقريزي، السلوك، 334/1، حاشية 2.
(3) ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، 231/6- 232.

حرب ضروس انسحب بعدها الأمير " فخر الدين " بجيشه وتبعته حامية المدينة إلى المعسكر السلطانى بـ " أشموم طناح "، ووقع الخوف والهلع في نفوس أهل دمياط بعد تراجع القوات المصرية؛ فخرجوا من دمياط مذعورين إلى المعسكر السلطانى هم أيضًا، واستولى الصليبيون على دمياط بسهولة بعد أن تركها أهلها وأغفلت الحامية العسكرية جسر السفن الذى يصل بين البر الغربى ودمياط قائمًا؛ فعبر عليه الصليبيون [1].

لم يكن أمام السلطان في هذا الوقت سوى الارتداد بمعسكره إلى مدينة المنصورة، حيث يمكنه استيعاب الأعداد الكبيرة التى نزحت عن دمياط، ويسهل عليه مهمة الدفاع عن البلاد.

واتبع السلطان الصالح أيوب في حربه مع الصليبيين - المسيطرين على دمياط - أسلوب حرب العصابات وشن الغارات الليلية المفاجئة على معسكرات الصليبيين، وخطف كل من تصل إليه أيدى الفدائيين، حتى أعيت هذه الطريقة الصليبيين فاضطروا إلى تسيير دوريات الحراسة الليلية، ومع ذلك تواصلت الإغارات الليلية [2].

وبعد مرور ستة أشهر على قدوم الحملة الصليبية السابعة إلى مصر والصليبيون لا يجسرون على مغادرة دمياط، حتى كان قدوم الإمدادات الفرنسية إلى دمياط بقيادة كونت دى بواتييه شقيق لويس التاسع في نوفمبر 1249 م، حيث أخذ لويس التاسع زمام المبادرة وشرع في التوجه بالجيش الصليبى نحو القاهرة [3].

وبينما استقر رأى الصليبيين على الزحف جنوبًا صوب القاهرة، توفى الملك

---

(1) المقريزي، السلوك، 336/1؛ العبادي، قيام دولة المماليك، ص 103.
(2) المقريزي، السلوك، 348/1.
(3) العبادي، قيام دولة المماليك، ص104.

الصالح أيوب، فقامت زوجته شجرة الدر [1] بتدبير شؤون الدولة بعد ان أخفت خبر موته خوفًا من حدوث فتنة في صفوف المسلمين، وفى الوقت نفسه أرسلت إلى ابن زوجها وولى عهده تورانشاه [2] تحثه على الرحيل من ولايته في حصن كيفا بأطراف العراق والقدوم إلى مصر ليعتلى السلطنة بعد أبيه [3].

ولما علم الفرنج بوفاة الصالح أيوب؛ انتهزوا الفرصة وتركوا دمياط زاحفين جنوبًا على شاطئ النيل الشرقى لفرع دمياط، وسفنهم تسير حذاءهم في النيل. وبعد عدة وقفات في فارسكور، وشارمساح، وفارامون، وصلوا إلى بحر وقناة أشموم طناح في 19 ديسمبر سنة 1249 م فصار على يمينهم فرع النيل، وأمامهم قناة أشموم طناح التى تفصلهم عن معسكرات المسلمين القائمة عند مدينة المنصورة، ولمواصلة التقدم جنوبًا تعين على الفرنسيين أن يعبروا إما فرع دمياط أو قناة أشموم، فاختار لويس التاسع القناة، وما زال حتى دله أحد الخونة على مخائضها مقابل مبلغ من المال، فعبرت الخيالة الصليبية دون أن تلقى مقاومة أثناء عبورها [4].

ولم يشعر المسلمون إلا والفرنج معهم في المعسكر، وكان الأمير فخر الدين في الحمام فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد هجموا على المعسكر، فخرج مدهوشًا

---

(1) شجرة الدر: أصلها من جوارى الملك الصالح نجم الدين أيوب، اشتراها في أيام أبيه، وحظيت عنده، وولدت له ابنه خليل، فأعتقها وتزوجها، فكانت معه في البلاد الشامية لما كان مستوليًا على الشام مدة طويلة، ثم انتقل إلى مصر وتولى السلطنة، وكانت في بعض الأحيان تدير أمور الدولة عند غيابه في الغزوات. الجبرتي، عجائب الآثار، 11/1، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 228/2، للزركلي، الأعلام، 158/3.

(2) تورانشاه: آخر سلاطين الدولة الأيوبية، كان أبوه السلطان الصالح نجم الدين أيوب قد ولاه حصن " كيفا " في الشرق، واستدعاه إلى مصر أكثر من مرة ولكن لم يكن تورانشاه ليجيب، ولذلك كان يكرهه، ولأن فيه خفة وخلاعة وهوجًا، ولذلك لم يوص إليه بالملك، بالرغم من انه لم يخلف ولدًا غيره لأن ولدًا له مات بدمشق، وولده المغيث توفى معتقلاً بها أيضًا، وولده خليل المولود من شجرة الدر لم يلبث قليلاً ومات طفلاً. انظر: العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 1/1.

(3) العصامي، سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي، 289/2؛ العبادي، قيام الدولة المملوكية، ص 105.

(4) المقريزي، السلوك، 349/1.

وركب فرسه من غير اعتداد ولا تحفظ، وساق لينظر الخبر ويأمر الناس بالركوب وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده، فلقيه بعض الفرنج الداوية، وحملوا عليه، ففر من كان معه وتركوه هو يدافع عن نفسه، فطعنه واحد برمح في جنبه واعتورته السيوف من كل جانب فمات - رحمه الله - [1] واقتحم الصليبيون بقيادة روبرت أرتوا (شقيق الملك لويس التاسع) أحد أبواب المنصورة، وتقهقرت القوات الإسلامية بسبب هذه المفاجئة ومقتل قائد الجيش الأمير فخر الدين، وهرب بعض العسكر إلى داخل المنصورة للاحتماء بها من ضربات الأعداء الذين قتلوا النساء والشيوخ والأطفال؛ فكانوا يقتلون كل من صادفوه في طريقهم دون رحمة أو هوادة[2] ووصف المقريزى الكارثة بقوله: " وما هو إلا أن قتل الأمير فخر الدين، وإذا بالفرنج اقتحموا المنصورة، فتفرق الناس وانهزموا يمينًا وشمالاً، وكادت الكسرة أن تكون، فإن الملك ريدا فرانس (لويس التاسع) وصل بنفسه إلى باب قصر السلطان، إلا أن الله تدارك بلطفه، وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية التى تعرف بالبحرية الجمدارية وفيهم ركن الدين " بيبرس " البندقداري، فحملوا على الفرنج، وأزاحوهم عن باب القصر، فلما ولوا أخذتهم السيوف والدبابيس، حتى قتل منهم في هذه النوبة نحو ألف وخمسمائة من أعيانهم وشجعانهم) [3].

واستعد المسلمون من جديد للمواجهة مع العدو في ثبات، وقد وصف ابن أيبك هذه المعركة بقولة: "... قال بعض من حضر هذه الوقعة: والله كنت أسمع زعقات الترك كالرعد القاصف، ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف. فلله درّهم لقد أحيوا في ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه أقوى من الحديد، فلم تكن إلا ساعة وإذا بالفرنج قد ولوا على

---

(1) المقريزي، السلوك، 349/1.
(2) المقريزي، السلوك، 349/1؛ جوزيف نسيم، العدوان الصليبى على مصر، ص 162- 164.
(3) المقريزي، السلوك، 349/1- 350؛ جوزيف نسيم، العدوان الصليبى على مصر، ص 162- 164.

أعقابهم منهزمين، وأسود الترك لأكتاف خنازير الفرنج ملتزمين [(1)].

وقد انتهت المعركة بالقضاء على فرقة الفرسان التى كانت تؤلف مقدمة الجيش الصليبى قضاء مبرما تقريبًا بعد قتال شديد من الجانبين، وكان من بين القتلى كونت أرتوا شقيق لويس التاسع وثلاثمائة من فرسانه، وقتل جميع الفرسان الداوية، الذين اشتركوا في المعركة، إذ قتل منهم مائتان وخمس وثمانون فارسًا؛ ولم يسلم منهم سوى أربعة أو خمسة بينما لم يفقد من الجيش الإسلامى سوى ثلاثين نفسًا، وذلك بعد أن يئس المسلمون في النصر في أول اللقاء، بعد مقتل الأمير فخر الدين [(2)].

وخلاصة معركة المنصورة الأولى في 4 ذى القعدة 647 هـ / 8فبراير1250 م أن الصليبيين استولوا على المعسكر الإسلامى الواقع جنوبى بحر أشموم، وكان هذا هو المكسب الوحيد الذى أحرزوه في معارك ذلك اليوم بعد أن فقدوا الكثير من القتلى والأسرى والجرحى، وقال المقريزى معبرًا عن نتائج هذه المعركة: " بأنها كانت أول ابتداء النصر على الفرنج " [(3)].

وبعد ذلك بقليل وصل ملك فرنسا إلى ميدان القتال، ونجح في إقامة جسر على بحر أشموم لتعبر عليه الرجالة، غير أن الروح المعنوية الجديدة التى أثارتها موقعة المنصورة (8 فبراير 1250) في صفوف المسلمين قد طغت على هذا النجاح المؤقت الذى أحرزه الفرنسيون.

وفى اليوم التالى عقد قائد الجيش الأمير فارس الدين أقطاى الصالحى مجلس حرب وعرض عليهم حال الفرنجة بعد هزيمة المنصورة الأولى، وأنهم لم يعد لهم خطر واتفق المجتمعون على مهاجمة

---

(1) ابن أيبك، كنز الدرر، 377/7- 378؛ فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، ص338.

(2) جوزيف نسيم، العدوان الصليبى على مصر، ص 169- 170؛ فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين، ص385.

(3) المقريزى السلوك، 351/1؛ جوزيف نسيم، العدوان الصليبى على مصر، 175- 177.

الفرنسيين في يوم الجمعة.

وفـى فجر يوم الجمعة الموافق 11 فبراير 1250 م أمر أقطـاى أربعة آلاف فـارس مـن فرسـانه بالتقدم حتـى حـاطوا معسكر الفرنجـة، وهذا خـلاف فـرق الاحتياطى الرابضة عن كثب استعدادًا للطـوارىء. وبعد أن انتهى أقطـاى من ترتيب جيوشه تقدم بمفرده ليشهد صفوف الصـليبيين، ومراكز القوة والضـعف فيها حتى يحرك قواته على أساسها، وشغلت هذه العمليات وقت أقطـاى حتـى منتصف النهار. ثم أمر بقرع الطبول للحرب، ومن ثم بدأ الخيالة والمشاه فـي الهجوم من جميع النـواحي، واستخدم المماليك النـار الإغريقية فـي هجومهم، ولكن الملك لويس تمكن من الثبات وإعادة خط القتال إلـى مـا كـان عليـه، ولكن بعد أن تكبد خسائر فادحة.

وبـذلك انتهت معركـة المنصـورة الثانيـة، التـى أيقن الصـليبيون بعدها أنهم لا يستطيعون البقـاء فـي مراكزهم، وأن عليهم الانسحاب إلـى دمياط قبل فوات الفرصة[1].

وبعـد أيـام مـن هـذه الوقعـة قـدم تورانشـاه إلـى مصـر (27 فبرايـر سـنة 1250) فـتم إعـلان وفـاة الصـالح نجـم الـدين أيـوب رسـميًّا، وسـلمته شـجرة الـدر مقاليد الأمـور فـي الـبلاد المصـرية حيث أعلنـت سـلطنته عليهـا، ووقـع عليـه تـدبير شـؤون الحـرب، ومواجهـة العـدو الصـليبى الـذى يحتـل جـزءًا من البلاد المصرية [2].

وكان أن حاول تورانشاه أن يقطع خط الرجعة إلى دمياط عن الصليبيين - حيث كانت السفن الصليبية تنقل المؤن والمعدات من دمياط إلـى المعسكر الصـليبى عن طريق فـرع دميـاط - فـأمر بنقل عدة سفن مفصـلة أجـزاء علـى ظهـور الجمال، وأنزلها في النيل خلف الخطوط الفرنسية، وبهذه الوسيلة تمكنت السفن

(1) قيام دولة المماليك في مصر، ص 108.

(2) المقريزي، السلوك، 1/351- 353.

المصرية من مهاجمة كثير من السفن الصليبية المحملة بالمؤن والأقوات، والاستيلاء عليها وأسر من فيها، ونتج عن ذلك حلول المجاعة بالمعسكر الفرنسى وتفشى الأمراض والأوبئة بين الجنود، فساء حالهم، واضطر الملك الفرنسى لويس التاسع إلى طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبعض بلاد الساحل، ولكن هذا المطلب قوبل بالرفض من المصريين علمًا منهم بسوء حالة الصليبيين وضعفهم، بعد أن أحكم الأسطول الإسلامى حصارهم وقطع طريق الإمدادات عنهم؛ ولهذا انقطعت المفاوضات بين الجانبين؛ فحاول لويس التاسع الانسحاب بجيوشه تحت جنح الظلام، وأمر بإزالة الجسر الذى على قناة أشموم، غير أن الخوف والهلع الذى تملك الصليبيين - بعد أن لفظتهم الأرض المصرية - قد أنساهم قطع الجسر، فعبره المصريون في الحال، وركبوا أعناق الصليبيين وأعملوا فيهم السيوف، واستمرت المطاردة حتى فارسكور حيث أحدقوا بالصليبيين من كل جانب؛ فقتلوا وأسروا منهم عددًا كبيرًا، وغنموا معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم، وأبلى المماليك البحرية بلاءً حسنًا، ولاسيما أقطاى وبيبرس البندقدارى في فارسكور؛ حتى أطلق عليهم ابن واصل " داوية الإسلام " [1] إشارة إلى ماصار لهم من قوة تشبه فرسان الداوية [2] عند الصليبيين [3].

وبعد توالى الهزائم على الفرنسيين، وضعف قوتهم، ولم تعد لهم قدرة للوقوف في وجه القوات المصرية ولا صد هجماتهم؛ فتمكن المسلمون من الإجهاز على فلول الصليبيين المدافعين عن الملك لويس التاسع أحاطوا بهم واشتدوا في

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، 370/2.

(2) فرسان الداوية أو المعبد: من أشهر جماعات الفرسان الدينية إبان الحروب الصليبية التى جمعت بين مبادئ الرهبنة ومبادئ الفروسية. وهذه الطائفة مشهورة ببسالتها وشدة بلائها في الحروب؛ فلا غرو أن شبه بها ابن واصل فرقة المماليك البحرية الصالحية. راجع العبادي، قيام دولة المماليك، ص109 حاشية 3.

(3) المقريزي، السلوك، 354/1- 356؛ العبادي، قيام دولة المماليك، ص109؛ جوزيف نسيم، العدوان الصليبى على مصر، ص199- 200.

قتالهم حتى أبادوهم عن آخرهم تقريبًا، ثم قبضوا على الملك لويس التاسع وأخذوه أسيرًا؛ ووضع في قيد من حديد، واعتقل بدار القاضي ابن لقمان بالمنصورة [1].

وبذلك تكون الحملة الصليبية السابعة قد وصلت إلى نهايتها الفاشلة بفضل المماليك البحرية الذين كانوا يشيدون بدفاعهم عن الإسلام أركان دولتهم الفتية وهم لايدرون ما يخبُه لهم القدر.

ولم يبق بعد هزيمة الصليبيين وأسر الملك الفرنسى إلا إجراء المفاوضات من أجل إبرام الصلح حيث كان مما اتفق الجانبان عليه: أن يتعهد تورانشاه بأن يطلق سراح الأسرى الصليبيين في مصر والشام، مقابل تعهد لويس التاسع ألا يقصد سواحل الإسلام مرة أخري، وأن يلتزم بدفع فدية مقدارها ثمانمائة ألف دينار بالعملة البيزنطية، يدفع نصفها مقدمًا، والنصف الآخر عند رحيله من عكا، كما تعهد بتسليم الأسرى المسلمين الذين في حوزته، ويسلم مدينة دمياط، أما ما يوجد فيها من أمتعة الفرنسيين، فترسل لهم لاحقًا، وقد حددت هذه المعاهدة بمدة عشر سنوات [2].

وبالرغم من نجاح المصريين في صد الحملة الصليبية المسعورة على البلاد إلا أن الشيء الذى يؤسف له حقًا هو أن شعور المسلمين بزوال خطر الفرنج، قد حول بأسهم فيما بينهم بعد أن كان على عدوهم، فاضطرمت المنازعات الداخلية، وحيكت المؤامرات السياسية التى أدت إلى زوال دولة، وقيام أخري.

فلم يكن تورانشاه بالشخص المناسب فقد كان سيئ التدبير غير مستقيم الأخلاق، مفتقرًا للمعارف والأنصار من المماليك والمصريين على السواء، لأنه قضى معظم حياته في حصن كيفا، وقد وصفه المؤرخون بأنه " كان سيئ التدبير

(1) المقريزي، السلوك، 1/355- 356، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 6/365؛ الحنبلي، شذرات الذهب، 5/339.

(2) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك في مصر، ص 72.

والسلوك ذا هوج وخفة ".

وكان ندماؤه لا ينفكون عن تذكيره بأنه ليس ملكًا إلا بالاسم، وأن السلطة الفعلية بيد زوجة أبيه شجر الدر والمماليك، ودفعه ذلك إلى الإساءة للمماليك الذين عليهم جل اعتماده، كبيبرس وأقطاى ورفاقهم، فأبغضوه وصاروا يخشون غدره ويتحينون فرصة القضاء عليه.

ولم يحفظ جميل شجرة الدر التى أخذت له البيعة، واستدعته من مقره البعيد، وولته السلطة، فاتهمها بإخفاء أموال كانت لأبيه، حتى اضطرت لمعاداته ومغادرته إلى القدس هربًا من مضايقاته، ثم لم تلبث أن عادت وجعلت تتصل بأنصارها من المماليك البرجية المعادين لتورانشاه، فقاموا بمهاجمته وهو في معسكره في فارسكور، وذلك في 29 محرم عام 648 هـ (1250م) مما اضطره لإلقاء نفسه في البحر من فوق برج خشبى كان قد التجأ إليه، فحرقوه عليه بعد أن قذفوه بالسهام، فمات جريحًا غريقًا حريقًا، دون أن تنفعه استعطافاته وصياحه " ما أريد ملكًا، دعونى أرجع، خذوا ملككم ودعونى أعود إلى حصن كيفا " ولكنهم لم يلقوا بالاً لأقواله وقالوا: " بعد جرح الحية لا ينبغى إلا قتلها " [1].

وكان مقتل تورانشاه إيذانًا بانتهاء عصر الأيوبيين في مصر وبداية عصر المماليك.

* * *

---

(1) المقريزي، السلوك، 1/359- 0360، أبو الفداءء، المختصر، 181/3؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 177/13.

الفصل الثاني:

الفصل الثانى

انتقال السلطة إلى المماليك البحرية الصالحية

انتقال السلطة إلى المماليك

البحرية الصالحية

الوضع السياسى في مصر بعد مقتل تورانشاه :

كان مقتل تورانشاه فاتحًا لشهية كل طامع في سلطنة البلاد المصرية بعد قطع دابر آخر الملوك الأيوبيين، وطفت على سطح الأحداث السياسية في مصر أطماع كثيرة تتنازع فيما بينها حول السلطة، فقد كان هناك الملوك الأيوبيون بالشام والذين لم يقبلوا بأن تؤول البلاد المصرية لغيرهم وطالبوا بحقهم الشرعى في حكمها، وكان من الصعب عليهم أن يقبلوا استئثار مماليك آبائهم بمصر بعد مقتل سلطانها الشرعى، وكان على رأس هذا الحزب الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبي، وكان قد تولى مملكة حلب بعد وفاة أبيه سنة 1237 م /634 هـ، والذى أخذ دمشق وأخذ يطالب بمصر ويستعد لغزوها[1].

كما أنه كان يوجد عدد من كبار المماليك الترك أو طائفة البحرية، كان كل منهم يطمع في حكم مصر ويرى أنه الأفضل لهذا المنصب، وهم: " بيبرس " قائد الجيش، وفارس الدين أقطاى مقدم المماليك [2]، وعز الدين أيبك الجاشنكير [3]، هذا إضافة إلى شجرة الدر الزوجة السابقة للصالح نجم الدين أيوب، وكل واحد من هؤلاء كانت له أطماحه وأطماعه التى لم يقدر على البوح بها خوفًا من بأس الآخرين.

وهناك رأى آخر وإن كان غريبًا ولكن يجب علينا ذكره وهى قصة غريبة مفادها أن أمراء المماليك بعد أن قتلوا سلطانهم تورانشاه، اقترحوا في مجلس المشورة أن يمنح الملك لويس التاسع سلطنة مصر، وأنه لولا علمهم بتعصبه للديانة المسيحية وخوفهم من إجباره لهم على اعتناقها، ولو وجدوا قبولاً من الملك نفسه، لنفذوا هذا الاقتراح، هذا الرأى مستبعد تمامًا، لعدة وجوه أهمها أن صاحب هذا الرأى - والذى انفرد به - هو جوانفيل الذى كان مصاحبًا للملك

---

(1) المقريزي، الخطط، 386/3.
(2) الذى يشرف على تعليم المماليك.
(3) الذى يتصدى لتذوق الطعام والشراب قبل السلطان.

لويس التاسع في حملته على مصر، ويبدوا أن خياله الواسع قد استوحاه من الاضطراب الذى حل بالمعسكر الإسلامى بعد مقتل تورانشاه في سرعة مفاجئة، وحيرة أمراء المماليك فيمن عساه يكون سلطانًا بعد أن قتل تورانشاه وطمع كل أمير في أن تؤول إليه السلطنة بعد أن أصبح المكان شاغرًا [1].

وعلى ما يبدو أن أمراء المماليك قد قرروا حل هذه العقدة - التى نجمت عن شغور العرش المصرى فجأة بالحل الوسط، فاتفقوا على إقامة شجر الدر أم خليل بن الصالح نجم الدين أيوب في السلطنة وحلفوا لها، حرصًا منهم على عدم الظهور بمظهر المغتصب للسلطة لما كان لشجرة الدر بعض الشرعية كونها كانت زوجة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، واعتاد المصريون أن يروها إلى جانبه، ومبالغة منهم في احترام الأسرة المالكة الذاهبة، وحرصًا على عدم الظهور بمظهر الخارج عليها. ثم عرضوا الأتابكية على عدد من الأمراء، ثم وقع الاختيار على أيبك التركمانى أحد أمراء البحرية الصالحية لمنصب الأتابكية[2].

ولكى تبقى شجرة الدر على سلطانها، اعتمدت كليًّا على المماليك الترك من البحرية، ولكى تضمن ولاءهم فزادت في إقطاعاتهم، وفرقت عليهم الوظائف، بحيث زادت قبضتهم على المملكة، ومع ذلك فقد كان عز الدين أيبك لا يتصرف في أمر إلا بعد مشورتها، وكانت توقع على المراسيم بعلامتها الخاصة: " والدة خليل "، ونسبت نفسها إلى الخليفة العباسى المستعصم بالله، فأصبحت تلقب بالمستعصمية الصالحية ملكة المسلمين، ويدعى لها على منابر مصر - بعد الدعاء للخليفة - بألقابها النسائية، فيقال: " واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجميل، والستر الجليل، والدة المرحوم خليل، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب "؛ كما

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 117.

(2) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص 196، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 118.

نقشت اسمها على الدينار والدرهم بالعبارة الآتية: " المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين "، بالإضافة إلى نقش ألقاب الخليفة العباسى المستعصم [1].

وعلى ما يبدو أن شجرة الدر كانت شخصية قوية فرضت على الآخرين احترامها وتوقيرها وعدم تعدى سلطتها - وإن كانت امرأة - وقد أسهب المؤرخون في وصف قوة شخصيتها وخلالها الحميدة فمن ذلك وصف إبن إياس لها بأنها: " امرأة صعبة الخلق، شديدة الغيرة، قوية البأس، ذات شهامة زائدة، وحرمة وافرة، سكراته من خمر التيه والعجب " [2].

وللحق فإن شجرة الدر كان لها من الصفات الحميدة والشخصية القوية ما أهلها لهذا المنصب، فقد اعترف جميع المعاصرين لها بدورها الفعال في الحفاظ على الجبهتين الداخلية والعسكرية من الانهيار عقب وفاة الصالح نجم الدين أيوب بإخفائها خبر الوفاة وإدارة دفة الحكم من خلف الستار، ونجاحها في التصدى - بمشاركة المماليك - للحملة الصليبية السابعة المسعورة على ديار المصريين.

على كل حال فإن شجرة الدر قد قبضت على مقاليد الأمور في بمصر بيد من حديد وانطلقت تمارس سلطتها الفعلية - التى كانت تمارسها بعد وفاة السلطان الصالح أيوب - وكان أول المهام التى تصدت لها هى تصفية الوجود الصليبى على أرض مصر وإنهاء المفاوضات التى كانت قد بدأت معهم في عهد تورانشاه، فلم يلبث المفاوض المصرى الأمير حسام الدين أبو على الهذبانى أن اتفق مع الملك لويس التاسع - الأسير - على بنود الاتفاق والتى تنص علي:

أن يتعهد تورانشاه بأن يطلق سراح الأسرى الصليبيين في مصر والشام، مقابل تعهد لويس التاسع ألا يقصد سواحل الإسلام مرة أخري، وأن يلتزم بدفع فدية مقدارها ثمانمائة ألف دينار بالعملة البيزنطية، يدفع نصفها مقدما، والنصف

---

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 374/1؛ المقريزي؛ السلوك، 362/1؛ العبادي، قيام دولة المماليك، ص 119؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى لسلاطين المماليك في مصر، ص 75.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، 89/1.

الآخر عند رحيله من عكا، كما تعهد بتسليم الأسرى المسلمين الذين في حوزته، ويسلم مدينة دمياط، أما ما يوجد فيها من أمتعة الفرنسيين، فترسل لهم لاحقًا، وقد حددت هذه المعاهدة بمدة عشر سنوات (1).

وتم تسليم دمياط للمصريين في 6 مايو سنة 1250 م وتم إطلاق سراح الملك لويس التاسع بعد أن قامت ملكة فرنسا مرجريت دى بروفانس - التى رافقت زوجها في تلك الحملة، وبقيت بدمياط مدة وجود حملة الصليبيين بالديار المصرية - بجمع المبلغ المطلوب لدفع نصف الفدية. ثم أبحرت إلى عكا ومعها ابنها الذى ولدته في دمياط وأسمته جان تريستان أي: وليد الأحزان (2).

ثم أبحر لويس التاسع وأشياعه إلى عكا في 7 مايو 1250 م / صفر سنة 648 هـ، وبذلك انتهت الحملة الصليبية التى اقترنت حوادثها بنهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى في مصر (3).

أخذت السلطانة " شجرة الدر " تتقرب إلى الخاصة والعامة من أهل الحكم والرعية، بيد أن الرأى العام المصري، بتراثه السياسى الاجتماعى الذى تشكل في إطار الحضارة العربية الإسلامية، صدمته حقيقة أن امرأة تجلس على عرش البلاد وتوجه شؤون الحكم علنًا بصورة رسمية وهو الأمر الذى يناقض اتجاهات الثقافة السائدة من ناحية والنظرية الإسلامية من ناحية أخرى (4)

---

(1) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك في مصر، ص 72.

(2) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 121.

(3) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 121؛ قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 22.

(4) ذكر الدكتور عبد المنعم ماجد أن تولية شجرة الدر الحكم في مصر لم يلق معارضة من المصريين وأورد نصوصًا لمؤرخين تؤكد حرص عامة الناس في مصر على توليتها، وقال: فالمصريون كان لا ضير عليهم من ان تحكمهم امرأة، وهم الذين تعودوا على أن يروا النساء بجانب الرجال في الملك طوال تاريخهم. فقد حكمتهم بعض النساء في العصر الفرعوني، كما أنه في أيام الفاطميين وجدت ملكات قويات سيطرن على الحكم، مثل: ست الملك أخت الحاكم بأمر الله، والملكة سلطانة أخت الظاهر لدين الله، والملكة أم المستنصر بالله، التى كانت لها مثل أخت الظاهر، علامة خاصة، توقع بها على المكاتبات الرسمية، هى عبارة: الحمد لله ولى كل نعمة، بل كانت الملكة الحرة السيدة

وعبر المصريون عن غضبهم من خلال المظاهرات والاضطرابات التى استشرت في جميع أنحاء العاصمة مما اضطر السلطات إلى إغلاق بوابات القاهرة منعًا لامتداد مشاعر السخط والغضب إلى المناطق الريفية [1].

وكان من الطبيعي أن يعارض المتعلمون والمثقفون الذين كانت ثقافتهم قد تكونت داخل الإطار المعرفى للحضارة العربية الإسلامية اعتلاء شجرة الدر عرش البلاد في مصر. وألقيت الخطب في المجالس والمحافل ومن فوق المنابر في المساجد، حتى إن الشيخ العز بن عبد السلام وهو أكبر زعيم ديني في ذلك الوقت كتب كتابًا حول المصائب والكوارث التى تحدث وما قد يبتلى به المسلمون بولاية امرأة [2].

أروى تحكم الفاطميين في اليمن، حيث إن أهل هذه البلاد هى الأخرى كانت قد تعودت على أن تحكمها ملكات، عرفن باسم: " سبأ " في العصر القديم. أ هـ التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك في مصر ص75- 76.

ومع كامل الاحترام للدكتور ماجد نقول إنه جانبه الصواب في هذا الرأى فسياق الأحداث التى تلت تولية شجرة الدر يناقض ذلك الرأى إذ أن المصريين قد رفضوا هذه التولية جملة وتفصيلاً، وإذا كان بعض النساء قد حكمن مصر ففى العصور السابقة على الفتح الإسلامى لمصر، لأن تولية الإمارة في الإسلام لها شروطها وليس الأمر على إطلاقه، أما ما كان في العصور الفاطمية فلم يكن المصريون يأبهون كثيرًا بما يحدث فيها لمخالفتها لهم في المذهب السني وعاشوا حياتهم منصرفين عنها، وحتى لما سقطت على يد صلاح الدين الأيوبي تركوها غير مأسوفٍ عليها، كما أن هؤلاء اللاتي ذكرن كن يحكمن في الخفاء أو من وراء الستار وليس بصفة شرعية.

(1) عبد الله بن أيبك، كنز الدرر، القسم الأول من الجزء الثاني، ص 12، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 122.

(2) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص 34. والشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعي. الإمام الحبر شيخ الإسلام سلطان العلماء عز الدين السلمي القاهري الشافعي. صاحب الشهرة الحسنة والمؤلفات المتقنة، كالقواعد، ومجاز القرآن، والفتاوى المصرية والموصلية.
ولد سنة 577 هـ ودرس بدمشق على أئمة عصره من أمثال ابن عساكر، وولي الخطابة والإمامة بالجامع الأموي بدمشق، وتتلمذ له أبو شامة، وظل بدمشق إلى أن استعان صاحبها الملك الصالح إسماعيل بالفرنج، فأنكر عليه الشيخ العز بن عبد السلام هذا الفعل، وعندما أنكر الشيخ أبو محمد العز بن عبد السلام على ملك دمشق ما عزم عليه من الصلح مع الصليبيين، أخذ وسجن، ثم حمله الملك معه عندما ذهب لتوقيع هذا الصلح، ووضعه في خيمة انفرادية، وكأنه أراد أن يدلل على (حسن النوايا) فقال للمفاوضين: هذا الشيخ أنكر على الصلح معكم فكان جوابهم: لو عندنا مثل هذا

وكانت الضربة القاصمة التى تلقتها ولاية شجرة الدر هى رفض الخليفة العباسى المستعصم بالله المساندة الشرعية لها، ورد على طلب التفويض الذى وصله منها ردًّا يحمل من السخرية والحسم ما أنهى حكم السلطانة شجرة الدر بسرعة، إذ جاء في رد الخليفة "... إذا كانت الرجال قد عدمت عندكم أعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً.... " [1].

ولما وصل خطاب المستعصم إلى القاهرة اقتنع المماليك بخطأ تصرفهم وأدركوا أنهم لا يستطيعون السباحة ضد التيار الجارف الذى لابد وأن يغرقهم وقالوا فيما بينهم: " لايمكننا حفظ البلاد والملك لامرأة، ولابد من إقامة رجل في المملكة تجتمع عليه الكلمة " [2]. فأشاروا على السلطانة شجرة الدر أن تتزوج أحد أمراء المماليك الصالحية وتتنازل له عن العرش ووقع الاختيار على الأتابك أيبك التركماني، فقبلت ذلك وخلعت نفسها من السلطنة في يوليو سنة 1250 م بعد أن حكمت ثمانين يومًا [3].

يقول الدكتور العبادي: والواقع أن سلطنة شجرة الدر على مصر كان وليد الظروف التى أحاطت بمصر في ذلك الوقت، ونتيجة لموافقة جماعة من زملائها أو خشداشيتها المماليك، وليست نتيجة لموافقة الشعب أو رجال الدين أو الخلافة العباسية، هذا فضلاً عن أنها كانت مسألة لا يقرها الشرع ولا تستسيغها التقاليد الإسلامية.

تولى عرش مصر السلطان أيبك التركمانى وتلقب باللقب السلطانى " الملك

الشيخ لغسلنا قدميه وشربنا غسالتهما. وتوجه إلى مصر سنة 639 هـ فتلقاه سلطانها الملك الصالح أيوب وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص. ولما بنى الصالح أيوب مدرسته بين القصرين بالقاهرة فوض إليه تدريس المذهب الشافعي بها، وظل متمتعًا بالمنزلة الرفيعة حتى وفاته بمصر سنة 660 هـ. السبكي، طبقات الشافعية الكبري، 80/5- 107، السيوطي، حسن المحاضرة، ص34، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 122.

(1) المقريزي، السلوك، 368/1- 369.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، 376/2.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 7/ 3، 14.

المعز ". ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أمراء المماليك سنًّا، أو أقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذًا، إذ كان يوجد من هم أكبر وأقدم منه مثل فارس الدين أقطاى والظاهر " بيبرس ". وهذه الحالة الاستثنائية في نظام التدرج المملوكى جعلت بعض المؤرخين مثل أبى المحاسن في كتابه " النجوم الزاهرة "، يتهم أيبك بضعف النفوذ والشوكة، وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكى يتمكنوا من عزله متى شاؤوا [1]، كذلك يذهب المستشرق بلوشيه إلى أن أيبك ظل يحكم - رغم اعتزال شجرة الدر - بصفة زوج الملكة مع أنه صار سلطانًا يحكم عن نفسه[2]. غير أن الحوادث دلت على أن أيبك رجل يمتاز بصفات السياسة والحزم والشجاعة، ولم يكن ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين، ويبدو أن أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذى وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف في كتابه " النجوم الزاهرة "، إذ أنه عاد واستدرك ذلك في كتابه الآخر " المنهل الصافى " فمدح أيبك فيه ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة، وأنه أنقذ دولة المماليك من خطر محقق [3].

على مايبدو أن سلطنة أيبك التركمانى لم تكن محل اتفاق جميع الأطراف؛ إذ إنه بمجرد توليه مهام منصبه بدأت المعارضة الشديدة لتوليه المنصب تطفو على سطح الأحداث، وبدا بريق المنصب يسيل له لعاب الكثير من طلابه.

وكان من أشد الناس معارضة لتولية السلطان أيبك الحزب الأيوبى المتمثل في الأمراء الأيوبيين في الشام وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق، وطمع في المنصب لنفسه ورأى في أيبك الشخص المغتصب لعرش آبائه، وحاول بشتى الطرق الوقوف في وجه أيبك وانتزاع مصر منه، فأخذ يحشد البيت الأيوبى لمواجهته، ويستعد لمنازلته حربيًّا.

---

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 4/7.
(2) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 124.
(3) أبو المحاسن، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2/1، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 124.

وقد حاول أيبك تحاشى المواجهة مع الأيوبيين في الشام، بإبطال حجتهم بأن أقام على عرش البلاد المصرية إلى جواره أحد الأمراء الأيوبيين الصغار، حتى تبطل حجة الأمراء الأيوبيين في الشام وحتى يستطيع السيطرة عليه ويحكم باسمه ويأخذ به الصفة الشرعية أمام من يعارض تولية أحد الأمراء المماليك عرش البلاد ووقع الاختيار على الطفل الأشرف موسى ولم يكن قد تجاوز السادسة من عمره، وصار يخطب باسمهما على منابر مصر وأعمالها، ونقش اسماهما على العملة المصرية (1).

لكن هذه الحيلة لم تنطل على المعارضين لسلطنة أيبك لعلمهم أن هذا الأشرف ليس له غير الاسم، وأن أيبك هو المتصرف الحقيقى في جميع الأمور، فما كان من أيبك إلا أن أعلن أنه نائب للخليفة العباسى المستعصم بالله على البلاد المصرية، ظنًّا منه أن هذا الإعلان سوف يكف عنه غائلة المعارضين الذين كانوا يتربصون به، ولكن هذا لم يمنع الناصر يوسف من حشد المعارضين لأيبك لخلعه بالقوة، ولذلك رأينا أيبك يأخذ هذا الأمر على محمل الجد وأخذ يستعد جديًّا لمثل هذه المواجهة المحتومة (2).

وعلى ما يبدو أن بيت المقدس سيظل ثمنًا للمساومات ومقابلاً للتحالفات غير كونه أساس للصراع بين المسلمين والصليبيين على مدى قرون طويلة وإلى الآن، فالملك الناصر يوسف، فإنه رأى لكى يضمن نجاح حملته على مصر فإنه حاول أن يضم إلى جانبه الملك لويس التاسع المقيم في عكا، وعرض عليه مقابل ذلك تسليم بيت المقدس - الذى كان تحت إمراة الأيوبيين في ذلك الوقت -

---

(1) ابن اياس، بدائع الزهور، 90/1، المقريزي، الخطط، 237/3، والأشرف هو: موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل، وكان جده المسعود صاحب اليمن المعروف بأفسيس المتوفى سنة 1228 م وعاش أبوه في خدمه الصالح نجم الدين أيوب حتى توفى عن هذا الطفل الصغير. انظر: المقريزي، السلوك، 369/1، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 125.

(2) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 6/7، المقريزي، السلوك، 369/1، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 125.

ولما علم أيبك بأخبار هذه المفاوضات، أرسل إلى الملك لويس التاسع تهديدًا بقتل الأسرى الصليبيين الموجودين في مصر إن هو قام بأى عمل عدائى ضده. وفى الوقت نفسه أبدى له استعداده لتعديل معاهدة دمياط، والتنازل له عن نصف الفدية المقررة، إن تحالف معه ضد الناصر يوسف - وأحسب أنه لو كان بيت المقدس في يده آنئذٍ لساوم عليها هو الآخر - غير أن الملك لويس التاسع فضل الوقوف على الحياد بين الفريقين، وينتظر ما سيسفر عنه النزاع بينهما والذى سيكون بلا شك في صالحه.

ولما آثر لويس التاسع الوقوف على الحياد بين المتصارعين، لم يجد الملك الناصر يوسف بُدًّا من الزحف على مصر بمفرده بدون لويس التاسع، في حين سارع أيبك لمواجهته، ولخشيته من أن يقوم الصليبيون باستغلال هذا النزاع ومهاجمة البلاد المصرية أسرع إلى هدم ثغر دمياط، مكانهم المفضل، وهدم الثغر جميعه بحيث أصبح أثرًا بعد عين [(1)].

ثم التقى المماليك بزعامة أيبك بالأيوبيين في معركة عامة عند بلدة العباسة بين مدينتى بلبيس والصالحية، في الثالث من فبراير سنة 1251 م، حيث انتصر الناصر يوسف في بداية الأمر، ولكن فرقة من مماليكه، وهم العزيزية - نسبة إلى العزيز محمد والد الناصر يوسف - خذلوه وانضموا إلى المماليك البحرية لعلة الجنسية على قول المراجع المعاصرة[(2)].

ففر الناصر يوسف ومن معه من أبناء البيت الأيوبى منهزمين إلى الشام، بعد أن فقدوا عددًا كبيرًا من القتلى والأسرى، وقرر أيبك أن يواصل زحفه نحو الشام للقضاء على مراكز المقاومة الأيوبية، ولكى يضمن النجاح لمشروعه، حاول أن يضم لويس التاسع إلى جانبه، ووعده بيت المقدس بمجرد استيلائه عليه من الناصر يوسف. وفضل لويس التاسع، بعد أن رأى انتصار الجانب

---

(1) المقريزي، السلوك، 372/1، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 126.

(2) ابن واصل مفرج الكروب، 382/2- 383، المقريزي، السلوك، 373/1- 375، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 8/7، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 126.

المصرى أن يستجيب لعروض أيبك ويترك سياسة الحياد واتفق الجانبان على غزو الناصر يوسف بحيث كان المتفق عليه بينهما أن يتم تطويق الناصر يوسف بأن يتقدم أيبك من الجنوب يحتل غزة وأن يستولى لويس التاسع على يافا من الشمال، ثم يلتقى الجيشان للقيام بهجوم مشترك على الولايات الأيوبية [(1)].

وتنفيذًا لهذه الخطة، تقدم الملك لويس التاسع واحتل مدينة يافا بدون مقاومة، بينما تقدم المماليك بقيادة " أقطاى " نحو غزة، غير أن الملك الناصر يوسف - الذى علم بأخبار هذا التحالف - سبقهم إلى احتلالها بقوة حربية كبيرة، فاستطاع بهذا العمل الجريء أن يحول دون اتصال المماليك بحلفائهم الصليبيين، ويفسد عليهم خطتهم المشتركة [(2)].

واستمرت جيوش المماليك في الصالحية، وجيوش الأيوبيين في غزة، كل منهما يتحفز للآخر، إلى أن أنقذ الموقف أخيرًا الخليفة العباسى المستعصم بالله، عندما توسط لدى الفريقين، وتمكن رسوله نجم الدين البادرانى من عقد صلح بينهما في أبريل سنة 1253 م / 651 هـ على أن يكون للماليك مصر وجنوب فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس، بينما تظل البلاد الشامية في يد أصحابها الأيوبيين [(3)].

وهكذا فشل لويس التاسع في تحقيق آماله بامتلاك بيت المقدس، ولم يستطع بعد ذلك البقاء في الشام خصوصًا بعد وفاة والدته الملكة بلانش القشتالية التى كانت تحكم فرنسا في غيابه كوصية على العرش، فاضطر لويس التاسع إلى الرجوع إلى بلاده في سنة 1254 م.

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن تدخل الخليفة العباسى في ذلك الوقت، لم يكن هدفه

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 127.
(2) العبادي، قيام دولة المماليك، ص127.
(3) العبادي، قيام دولة المماليك، ص128.

إيقاف التغلغل الصليبى فى شؤون الشرق العربى الإسلامى فحسب، بل كان غرضه أيضًا توحيد الجهود لتكوين جبهة إسلامية أمام خطر جديد أشد خطرًا من الخطر الصليبي، وهو الخطر المغولى التى كانت جحافله قد اجتاحت الحدود الإسلامية الشرقية بقيادة جنكيزخان وقضت على الدولة الخوارزمية التى كانت بمثابة الترس المانع الحامى لجميع الدول الإسلامية فى غرب آسيا والشرق الأدنى من هجمات المغول وغيرهم من الآسيويين [1].

ولم يكن الأيوبيون وحدهم الذين نقموا على السلطان أيبك بل كان الأعراب أشد سخطًا عليه إذ تجمعت لديهم عدد من الأسباب التى جعلتهم يقومون بحركة تمرد وثورة كبيرة أقلقت مضجع أيبك وكادت تودى بملكه.

من المعروف أن القبائل العربية التى استوطنت مصر بعد الفتح العربى الإسلامى مثل الزبيريين، مثل بنى مصعب، وبنى بدر، وبنى مصلح، وبنى رمضان، وبنى عروة، وسكنوا البهنساوية شمالى الأشمونيين. وجاء بنو طلحة الذين انتسبوا إلى أبى بكر الصديق، فانتشروا في بلاد شتى من صعيد مصر، من بلاد إطفيح والبهنساوية والأشمونين والشرقية وغيرها. أخذت تتحول تدريجيًا إلى شعب زراعى مستقر، وأطلق عليهم اسم العرب المزارعة. وكان هؤلاء الأعراب يقومون بفلاحة الأرض على مقربة من القرى القديمة الآهلة بالفلاحين من أهالى البلاد، غير أنه يلاحظ أن هؤلاء الأعراب كانوا يتمتعون بمركز اجتماعى أعلى مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التى كانوا يؤدونها للدولة في وقت الحرب لا سيما إبان الحروب الصليبية، وكان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ الأمن والنظام فى القرى والأرياف، كذلك كانت مساهماتهم في الإنتاج الزراعى ودفع الخراج كبيرة نسبيًا [2].

وكان تعسف أمراء المماليك فى تحديد أثمان المحاصيل الزراعية واحتكارها

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 128.

(2) المقريزي، " البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب " - (ج 1 / ص 40)، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 129.

والتلاعب في أسعارها أحيانًا، من الأسباب التي دفعت بهؤلاء المزارعين العرب إلى القيام بثورات متعددة طوال العصر المملوكي، وهذه الثورات عرفت في الكتب المعاصرة باسم: " فساد العربان " وكانت تنتهي في العادة بهزيمة العرب نظرًا لبراعة المماليك في استخدام فنون القتال.

واستخدم المماليك في قمع تلك الثورات وسائل متعددة تنطوى على القسوة والقهر مثل: التوسيط، والتسمير، والمعاصر، ونشر الأجسام، وسلخ الجلود، ودفن الأحياء، وتعليق رؤوس القتلى في رقاب نسائهم، إلى غير ذلك من وسائل التعذيب المعروفة في العصور الوسطى شرقًا وغربًا [1].

وقد أدت هذه السياسة إلى هجرة عدد كبير من المزارعين إلى المدن الكبرى بغية التسول أو السرقة أو الاشتراك في المنازعات والاضطرابات الداخلية التى كانت بين أمراء المماليك، وهؤلاء كانو يسمون بالحرافيش [2]، وبالزعر، أو زعر العامة[3]، ويبدو أن هذه الألقاب كانت مشرقية بحتة بدليل قول المؤرخ الأندلسي لسان الدين بن الخطيب في سب أحد ملوك غرناطة بأنه " كان

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 129.

(2) الحرافيش: مفردها حرفوش، أى الرعاع والدهماء وضعاف الخلق.

والجَافِي الْغَلِيظ وَالْمُرَادُ بهمْ: أَرَاذِلُ النَّاس وَسَقطهُمْ، وَأَنْشَدَ الأُسْتَاذُ الشَّعْرَانِي فِي الْعُهُودِ لِبَعْض الأَوْلِيَاء.

نَحْنُ الْحَرَافِيشُ لا نَسْكُنُ عِلالِي الدُّورِ ::: وَلا نُرَائِـي وَلا نَشْـهَدُ شَـهَادَةَ زُورِ

نَقْنَعُ بخِرْقَةٍ وَلُقْمَةٍ فِي مَسْجِدٍ مَهْجُورٍ ::: مَنْ كَـانَ ذَا الْحَـالُ فَذَنْبُـهُ مَغْفُـورُ

عثْمَانُ بْنُ سُلَيْمَان السُّوَيْفِي الشَّافِعِيّ، حاشية البجيرمى على الخطيب، 12/ 232.

(3) الزَّعَرُ: قلة شعر الرأس، وقلّة ريش الطائر وتفرُّقُهُ، إذا ذهب أطوله وبقي أقصره وأردؤه، قال علقمة:

كأنها خاضب زُعْر قوادمُها.

يقال: زَعِرَ يَزْعَرُ زَعَرًا، وازعارّ زعرارًا. والزَّعارَّة، الرّاء شديدة، شراسة في خلق الرجل، لا يكاد ينقاد، ولا يلينُ. الخليل بن أحمد، العين، (ج 1 / ص 82)، الخرشي، شرح مختصر خليل 280/15، الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة- (ج 1 / ص 66).

حرفوشًا على عرف المشارقة " [1].

على أنه يلاحظ كذلك أن هذه الثورات العربية، إلى جوانبها الاقتصادية، كانت لها أيضًا دوافع سياسية وهى إلغاء حكم المماليك وإعادته إلى العرب الأحرار أصحاب السيادة القديمة على البلاد.

ويبدو أن هذا الهدف السياسى هو الذى أثار مخاوف المماليك ودفعهم إلى سياسة العنف والقسوة في قمع تلك الثورات خوفًا على سلطانهم. وأول وأخطر ثورة قام بها الأعراب أيام المماليك، هى الثورة التى قاموا بها في عهد السلطان أيبك التركمانى سنة 1253 م /651 هـ، وأسباب هذه الثورة ترجع إلى عوامل سياسية واقتصادية كما أسلفنا؛ فالمماليك منذ أن انتصروا على الأيوبيين في وقعة العباسة، ودخلت الخلافة في صالحهم، اعتقدوا أن البلاد بما فيها صارت لهم بلا منازع، فبالغوا في الفساد والاستهتار وزيادة الضرائب، إلى درجة أن بعض المؤرخين أمثال المقريزى وأبي المحاسن، فضلوا عليهم الصليبيين، وقالوا لو أن الفرنج ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم [2].

والظاهر أن حركة الاستياء والتذمر لم تقتصر على العناصر العربية فقط بل صارت حركة شعبية عامة بدليل قول أبى المحاسن: " أن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق، وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يسمعونه ما يكره حتى فى وجهه إذا ركب ومر في الطرقات، ويقولون: لا نريد إلا سلطانًا رئيسًا مولودًا على الفطرة [3].

وتزعم تلك الثورة الشعبية شريف علوى هو حصن الدين بن ثعلب الذى طمع في السلطنة، وصرح بأن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للعبيد

---

(1) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، في علالة الاغتراب، ص 20، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 129.

(2) المقريزي، السلوك، 380/1، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 9/7، العبادي، قيام دولة المماليك، ص130.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 13/7، العبادي، قيام دولة المماليك، ص131.

الأرقاء، وأقام دولة عربية مستقلة في مصر الوسطي، وفى منطقة الشرقية بالوجه البحري، وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحى الفيوم في بلدة تعرف بذروة سريام أو ذروة الشريف - نسبة إليه - وتقع بين النيل وترعة المنهى التى هى الآن بحر يوسف[1].

واتصل الشريف حصن الدين بالملك الناصر يوسف الأيوبى صاحب الشام، يطلب مساعدته في محاربة أيبك، ولكن الناصر يوسف لم يكن في وسعه محاربة أيبك في ذلك الوقت، إذ كانت رسل الخليفة قد تدخلت في الأمر لحسم النزاع بينهما[2].

وكان العرب يومئذٍ في كثرة من الرجال والخيل والمال بفضل مشاركتهم في حروب الصليبيين، فكونوا جيشًا كبيرًا والتفوا حول زعيمهم " حصن الدين " وحلفوا له، واضطر السلطان أيبك أن يرسل حملة تأديبية للقضاء على هذه الثورة، ومن عجب أن يسند قيادتها إلى منافسه " أقطاي "، وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية.

وخرج أقطاى من القاهرة بخمسة آلاف فارس من خيرة المماليك، وتوجه إلى الشرقية، حيث كانت أكبر مظاهر العصيان، وبالرغم من قلة عدد المماليك بالقياس إلى العرب، تغلب المماليك بفضل تفوقهم العسكرى ومهارة قائدهم " أقطاي "، وتهدمت المقاومة العربية في بلبيس سنة 1253 م [3] غير أنها بقيت على حالها في مصر الوسطي، حيث ظل حصن الدين حرًّا طليقًا، وأقام حكومة

---

(1) النويري، نهاية الأرب، 155/8، 158، القلقشندي، صبح الأعشى، 53/2، المقريزي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب- (ج 1 / ص 40)، العبادي، قيام دولة المماليك، ص131.

(2) النويري، نهاية الأرب، 155/8، 158، القلقشندي، صبح الأعشى، 53/2، المقريزي " البيان والإعراب" عما بأرض مصر من الأعراب- (ج 1 / ص 40)، العبادي " قيام دولة المماليك " ص131.

(3) المقريزي، السلوك، 387/1، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 132.

مستقلة هناك، ولم يتمكن أيبك ولا من جاء بعده من السلاطين القبض عليه إلى أن خدعه السلطان " بيبرس " البندقدارى وقبض عليه بعد أن أمنه وشنقه في الإسكندرية [(1)].

وكيفما كان الأمر في نهاية الأمير حصن الدين، فالمهم هنا هو أن أيبك تغلب على أحد العناصر المهددة لقيام دولة المماليك واستقرارها في مصر [(2)].

على ما يبدو أن زعماء المماليك من زملاء أيبك التركمانى قد ساءهم كثيرًا في تلك الانتصارات التى كان يحققها خارجيًّا وداخليًّا فقد شعروا بمدى ترسخ أقدامه في السلطنة بعد انتصاراته على الأيوبيين والأعراب وبدؤوا يتوجسون من قوته - وهم الذين وإن كانوا قد وافقوا على سلطنته عليهم، فهم اختاروه؛ لأنه على حسب قولهم من أواسط المماليك، بحيث قال بعضهم عنه: هذا متى أردنا صرفه أمكننا ذلك [(3)] - وأخذوا يدبرون المكائد للخلاص منه قبل أن تدور عليهم دائرته.

ولم يكن أيبك ليأمن جانب زملاءه المماليك، وعمل لهم ألف حساب، لعلمه بمدى قوتهم وخطرهم، فاحتاط لنفسه، وعمل على تقوية نفسه، فأنشأ فرقة من المماليك عُرِفُوا بـ " المغزية " - نسبة إلى لقبه الملك المعز - كما عين أقرب المقربين إليه مملوكه " قطز " المعزى نائبًا للسلطنة بمصر، ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة، وعزل الملك الأيوبى الطفل موسى شريكه - في الاسم فقط - في الحكم، وانفرد بالسلطنة[(4)].

وبالرغم من الاحتياطات الاحترازية التى اتخذها أيبك إلا أن أمراء المماليك المنافسين له أصبحت لهم مراكز قوى داخل السلطنة، بحيث يصعب على أيبك

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 280/1 النويري، نهاية الأرب، 155/8، 158، القلقشندي، صبح الأعشى، 53/2.

(2) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 132.

(3) أبو المحاسن، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، ص6.

(4) المقريزى السلوك، 381/1، 384.

أن يتخلص منهم بسهولة، لا سيما وأن البعض منهم قد بلغ نفوذه درجة يستحيل على أيبك أن يحجمها، مثل أقطاى الذى وصل إلى قمة السطوة والنفوذ لاسيما بعد نجاحه في القضاء على ثورة الأعراب في الشرقية والصعيد، وأصبح لا يظهر في مكان إلا ومعه حرس عظيم من الفرسان المسلحين وكأنه ملك متوج، وكان دائمًا ما يتنقص ويتندر على أيبك، ولا يسميه إلا أيبك دون لقب السلطان، ولم يكن يخفى نواياه في الحصول على حقه في سلطنة مصر، وبدا ذلك جليًّا في تشبهه بالملوك وخروجه في مواكب تشبه المواكب السلطانية، وتلقيب خشداشيته - زملائه المماليك - له بالملك الجواد، ثم كانت الخطوة التى أثارت حفيظة أيبك وأشعرته بمدى عظم خطر أقطاي، عندما سعى أقطاى للزواج من ابنة الملك الأيوبى المظفر " تقى الدين محمود " ملك حماة، بل إنه طلب من أيبك أن يأذن له في الإقامة مع عروسه الجديد بقلعة جبل المقطم، لكونها من بنات الملوك، فلم يبق لأيبك أى شك في نوايا أقطاي، فبدأ يفكر جديًّا في الخلاص من أقطاى وخطره [1].

وسعى أيبك حثيثًا للخلاص من أقطاي، ودبر مكيدة لقتله، وفى يوم الأربعاء الثالث من شعبان سنة 653 هـ / 1254 م، طلب أيبك إلى أقطاى الحضور إلى قلعة الجبل لاستشارته في أمر من الأمور، وكان قد اتفق مع بعض مماليكه المعزية على تفاصيل مؤامرة الاغتيال. وركب أقطاى إلى القلعة في عدة من مماليكه، فما كاد يدخل من باب القلعة المؤدى إلى قاعة العواميد أو القاعة الكبري، حتى أغلق بعده ومنع مماليكه من اللحاق به، ثم انقض عليه المتآمرون، ومنهم الأمير قطز المعزى وقتلوه بسيوفهم، وأشيع خبر مقتله في القاهرة الكبري، فهرع إلى إنقاذه سبعمائة من خشداشيته ومنهم الأمير " بيبرس " البندقداري، والأمير قلاوون الألفي، وفى ظنهم أنه لم يقتل بعد وإنما قبض

---

(1) المقريزي، السلوك، 386/1- 390.

عليه، فلم يشعروا إلا ورأس أقطاى قد رمى بها إليهم من سور القلعة [1].

هذا الذى وقع لأقطاى أثار الخوف والفزع في نفوس كبار أمراء المماليك الذين بدؤوا يشعرون بأن الدور سيكون عليهم بعد أقطاى - ولا سيما وأن أيبك قد أغلق عليهم أبواب القاهرة لمنعهم من الهرب - فبدأ كل منهم يبحث لنفسه عن ملجأ يلجأ إليه، فمنهم من استطاع الهرب إلى ملوك البيت الأيوبى - الذين كانوا على استعداد لمساندة كل من يعارض عدوهم أيبك - في الشام، أمثال الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق، والمغيث عمر ملك الكرك، ومنهم من بعدت به الشقة وذهب بعيدًا حتى عن ملوك الأيوبيين، فقصد البعض منهم سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب قونية في منطقة آسيا الصغرى [2].

وواصل أيبك نهجه في القضاء على نفوذ المماليك المناوئين لسلطته، فعمل على مصادرة أموال المماليك البحرية وقبض على من تبقى منهم في مصر وأودعهم السجون وعمل على تفريق شملهم، ونكل بكل من تعاطف معهم من المماليك الأخرى [3].

وبدأ الهاربون في تحريض ملوك البيت الأيوبى على غزو مصر، وقدموا لهم يد المعونة في تنفيذ هذا المشروع، وكان أكثر ملوك البيت الأيوبى تحمسًا لهذا المشروع الناصر يوسف الذى أرسل إلى أيبك يطالبه إعادة البلاد التى أخذها من فلسطين وهى مدينة القدس وساحل فلسطين ليقيم فيها المماليك البحرية، لأنها في الأساس كانت من إقطاعاتهم، وبالرغم من محاولات أيبك تحذير الناصر يوسف من شر هؤلاء المماليك إلا أن الناصر يوسف قد انحاز إلى جانبهم لسابق عداوته له.

---

(1) المقريزي، السلوك، 390/1، ابن إياس، بدائع الزهور، 91/1، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 134.

(2) المقريزي، السلوك، 393/1.

(3) المقريزي، السلوك، 392/1، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 12/7.

وأثمرت السعاية والوشاية التى قام بها المماليك البحرية الهاربون إلى الشام في حدوث المواجهة بين أيبك والناصر يوسف، وظل الخلاف محتدمًا بين كلا الرجلين إلى ان تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله وأصلح ذات بينهم وأجرى بينهما صلحًا ينص على أن يكون لأيبك الديار المصرية، وساحل الشام، وعلى أن يطرد الملك الناصر من عنده المماليك البحرية [1].

وبذلك يكون أيبك قد نجح في الخلاص من الناصر يوسف والمماليك البحرية بضربة واحدة - وإن كانوا قد لجؤوا بعد ذلك إلى المغيث عمر إلا أن المغيث عمر كان أقل شأنًا وخطرًا عليه - ولم يبق له إلا القلة القليلة التى لجأت إلى سلاجقة الروم، وإن كان لم يقم لها وزنًا كبيرًا لأن خطرها يكاد يكون معدومًا لبعد المسافة بينه وبينهم، ومع ذلك فقد احتاط لنفسه من خطرهم وأرسل إلى سلطان سلاجقة الروم يحذره من هؤلاء المماليك، وكتب إليه: "... المماليك البحرية قوم مناحيس أطراف - غدارون - لا يقفون عند الأيمان، ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم، وإن استأمنتهم خانوا، وإن استحلفتهم كذبوا، وإن وثقت بهم غدروا، فتحرز منهم على نفسك، فإنهم غدارون مكارون خوافون، ولا آمن أن يمكروا عليك ". وأوقعت هذه الرسالة بعض الخوف في نفس سلطان سلاجقة الروم فاستدعاهم وسألهم عما وقع بينهم وبين أيبك وقال لهم: ".. يا أمراء ما لكم ولأستاذكم؟ فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال: يا مولانا من هو أستاذنا؟ قال: الملك المعز صاحب مصر. فقال الباشقردي: يحفظ الله مولانا السلطان، إن كان الملك المعز قد قال في كتابه أنه أستاذنا فقد أخطأ، إنما هو خشداشنا ونحن وليناه علينا، وإن كان فينا من هو أكبر منه أكبر منه سنًا وقدرًا، وأحق بالمملكة، ونحن التجأنا إليك " فهدأت هذه الإجابة من روع سلطان سلاجقة الروم، وأزالت ما كان قد وقع في روعه من جراء رسالة

---

(1) المقريزي، السلوك، 396/1- 398.

أيبك بل واستخدمهم عنده [1].

ثم كانت الخطوة التى جرت على أيبك عداوة زوجته شجرة الدر وأودت في نهاية الأمر بحياته، فقد عزم على الزواج من غيرها، فأرسل سنة 1256 م إلى بدر الدين لؤلؤ الأتابكى صاحب الموصل يطلب إليه حلفًا زواجيًّا [2].

شروع أيبك في هذه الزيجة جر عليه عداوة زوجته شجرة الدر حيث تلاقت عندها خيوط العداوة و المؤامرة، وبدأت تعد العدة للخلاص من أيبك، وراسلت كل من كان له المصلحة في الخلاص منه، وأرسلت سرًّا أحد المماليك المعزّية إلى الملك الناصر يوسف بهدية ورسالة تخبره فيها بنيتها الخلاص من أيبك، وتعرض عليه الزواج منه - بعد الخلاص من أيبك - وتمكينه من عرش مصر، إلا أن الناصر يوسف أعرض عن هذا العرض مخافة أن يكون في الأمر مكيدة [3].

وبالرغم من فرار عدد كبير من المماليك البحرية الشام وسلاجقة الروم، إلا أنه كان هناك فريق كبير من المماليك بزعامة أيدكين الصالحى، ظل على ولائه لشجرة الدر وأبدى معارضته لزواج أيبك من غيرها، مما دعا أيبك إلى القبض على عدد كبير منهم، وأودعهم السجون، فلما وصلوا إلى قرب نافذة القصر - الذى تقيم فيه شجرة الدر - أحنى الأمير أيدكن رأسه احترامًا وقال بالتركية: " والله ياخوند - السيدة أو الأميرة - ماعملنا ذنبًا وجب مسكنًا، ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل، ما هان علينا لأجلك، فإنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم - الصالح أيوب -، فلما عاتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين " فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه: قد سمعت كلامك، وعندما نزلوا بهم إلى الجب، قال أيدكن: " إن كان قد حبسنا فقد قتلناه " [4].

---

(1) المقريزي، السلوك، 393/1.
(2) المقريزي، السلوك، 401/1.
(3) المقريزي، السلوك، 402/1.
(4) المقريزي، السلوك، 401/1- 402.

وبالرغم من وصول أنباء تلك المراسلات التى جرت بين شجرة الدر والناصر يوسف إلى أيبك، وشعوره بما يبيت له بليل (1) بالرغم من أن كلا الزوجين تسابقا في الخلاص من الآخر إلا أن شجرة الدر كانت أسرع في تنفيذ خطتها والخلاص من أيبك، إذ أرسلت إليه رسالة تفيض منها العزوبة والرقة تدعوه لزيارتها، فغرت كلماتها أيبك، فاستجاب لدعوتها وصعد إلى القصر السلطانى بالقلعة حيث أعدت له شجرة الدر خمسة من الغلمان الأشداء لاغتياله وعلى رأسهم محسن الجوجرى ونصر العزيزي، وسنجر، فقام هؤلاء الغلمان بقتل أيبك في الحمام في إبريل 1257 م / 655 هـ (2).

وعلى ما يبدو أن شجرة الدر بعد مقتل أيبك ظنت أن الجو قد خلا لها، وأن السلطنة قد صارت إليها، فبدأت في عرض عرش السلطنة على المقربين منها، لتحكم من خلفه ويكون ستارًا يخفى سيطرتها على مقاليد الأمور في البلاد، ثم يكون لها حجابًا من ردّة فعل المماليك المعزية من أتباع أيبك، فعرضت السلطنة على جمال الدين أيدغدي، وعز الدين أيبك الحلبي، ولكن قبول أحدهما للمنصب كان يعنى التعرض لانتقام المماليك المعزية وفى هذا نهايته، لذلك لم يقبل أى منهما ذلك المنصب (3).

ولم يتأخر كثيرًا رد فعل المماليك المعزية، فبمجرد وصول نبأ مقتل أيبك إليهم هرعوا إلى القلعة وقبضوا على الخدم والحريم وعذبوهم حتى اعترفوا بحقيقة

---

(1) ذكر بعض المؤرخين أن بدر الدين لؤلؤًا لما علم بأخبار تلك المراسلات السرية التي دارت بين شجرة الدر والناصر يوسف هرع لإخبار أيبك بما يجري من خلف ظهره، كما ذكر أيضًا أن منجمًا قد أخبر أيبك بأنه سوف يموت قتيلاً على يد امرأة، وأنه قد أخذ حذره وخاف على حياته فترك القلعة، وأقام بمناظر اللوق، وبدأ يدبر للخلاص من شجرة الدر. المقريزي، السلوك، 401/1-402.

(2) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 375/1، ابن إياس، بدائع الزهور، 91/1- 92، المقريزي، السلوك، 403/1.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 375/6.

ما حدث، فحاولوا الفتك بشجرة الدر انتقامًا وأخذًا بثأر سيدهم أيبك، ولكن المماليك البحرية حالوا بينهم وبين ما يشتهون، ولكن رغبة المماليك المعزية في الانتقام من شجرة الدر كانت أكبر من أن تقف أمامها المماليك البحرية، وفى نهاية الأمر وصلت أيديهم إلى شجرة الدر حيث دفعوها إلى امرأة أيبك [1] حيث نكلت بها وقتلتها شرَّ قتلة حيث دفعتها إلى الجوارى فضربوها بالقباقيب إلى أن ماتت، فألقوها من سور القلعة إلى الخندق، وليس عليها سوى سروال وقميص، فبقيت في الخندق أيامًا، وأخذ بعض أراذل العامة سراويلها، وتركت ملقاة إلى أن أنتنت ثم حملت في قفة ودفنت بتربتها قرب المشهد النفيسى [2].

وبمقتل أيبك وشجرة الدر وقع اضطراب وخلاف شديد بين فرق المماليك وصار بأسهم بينهم شديدًا، فقد تعصبت فرقة المعزية لابن سيدهم (أيبك) المدعو " نور الدين على " وأقاموه في ربيع الأول سنة 655 هـ / 1257 م سلطانًا على البلاد ولقبوه بالملك المنصور، وهو الذى لم يكن عمره يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، هذا الاختيار لم يكن على هوى فرقة المماليك الصالحية الذين أبدوا معارضة شديدة لسلطنة هذا الطفل، واتفقوا فيما بينهم على سلطنة أحدهم، وهو أتابك العسكر الأمير علم الدين سنجر الحلبى ونصبوه وحلفوا له[3].

هذا التنافس أوقع فرق المماليك في صراع شديد فيما بينهم على السلطنة ونفوذ الحكم، ولكن سرعان ما قام المماليك المعزية على سنجر الحلبى وسجنوه في القلعة وتفرق من حوله أتباعه ومن نصبوه وحاولوا الفرار إلى الشام ولكن تتبعتهم المعزية حيث قبضوا على عدد كبير منهم [4].

ولم تكن فرقة المماليك الصالحية وحدها التى أبدت معارضتها لسلطنة نور

---

(1) كانت هذه المرأة تحمل حقدًا وكراهية شديدة لشجرة الدر التى كانت قد منعت زوجها (أيبك) من زيارتها وأرغمته على طلاقها ولذلك ظلت تضغط على المماليك المعزية وتستعطفهم وتستنصرهم حتى مكنوها من شجرة الدر، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 388/1.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 404.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 376/6.

(4) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 7 / 43.

الدين علي، بل كانت هناك فرقة الأشرفية التى ساءها كثيرًا اختيار هذا الطفل وما وقع للمماليك الصالحية، واتفقوا فيما بينهم على التخلص من المماليك المعزية، إلا أن المماليك المعزية قبضوا عليهم ونهبوا ممتلكاتهم [1].

هذه الوقائع أشاعت الخوف في نفوس الكثير من عناصر المماليك التى أحست بشدة وطأة المماليك المعزية، مما دفع الكثير منهم إلى اللجوء إلى الملوك الأيوبيين في الشام واستعدوهم على المماليك المعزية وحرضوهم على غزو مصر، وكانت أسرع استجابة لتحريض المماليك البحرية والصالحية من جانب المغيث عمر صاحب الكرك حيث حاول مرتين غزو مصر في سنة 1257 م/655 هـ وفى سنة 1258 م / 656 هـ، ولكن كلتا المحاولتين باءتا بالفشل، لنجاح نائب السلطنة " " سيف الدين قطز " " في التصدى له والنجاح في هزيمته [2].

وبتولى هذا الطفل الصغير مقاليد السلطنة، تكون الفرصة قد سنحت لبزوغ نجم " سيف الدين قطز " حيث سيكون له دور مهم في التاريخ.

* * *

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 44/7، المقريزي، السلوك، 306/1.

(2) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 44/7، المقريزي، السلوك، 306/1.

الفصل الثالث

الفصل الثالث:

سلطنة قطز ومواجهة المغول

الفصل الثالث

تقول المصادر التاريخية: إن قطز [1] كان مملوكًا في دمشق ضمن مماليك ابن الزعيم، والتحق بخدمة المماليك في مصر، وترقى في الخدمة حتى صار من أكبر مماليك المعز أيبك التركماني، ولعل أول ظهور لقطز على صفحات التاريخ ما ذكرته المصادر التاريخية من اشتراكه في قتل " فارس الدين أقطاى " بناء على طلب من أستاذه المعز أيبك التركماني، الذى كان قد جهز هذه

(1) المظفر " سيف الدين قطز " المعزي واسمه الحقيقي محمود بن ممدود، وأمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وأبوه وابن عمه، أسرا عند غلبة التتار، فبيع بدمشق، ثم انتقل بالبيع إلى مصر، كان من أكبر مماليك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعًا مقدامًا حازمًا حسن التدبير يرجع إلى دينٍ وإسلامٍ وخيرٍ، وله اليد البيضاء في جهاد التتار.

حكى شمس الدين الجزرى في تاريخه عن أبيه قال: كان قطز في رق ابن الزعيم بدمشق في القصاعين، وحدث أن ضربه أستاذه فبكى قطز بكاءً ولم يأكل يومه شيئًا، ثم ركب أستاذه وأمر الفراش- أحد أتباعه- أن يترضاه ويطعمه، قال الحاج عليّ الفراش: جئته فقلت له: ما هذا البكاء من ضربة؟ فقال: إنما بكائي من لعنته أبي وجدي وهما خير منه، فقلت: ومن أبوك؟ واحد كافر، فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه، من أولاد الملوك؛ فترضيته. ولما تملك أحسن إلى الفراش وأعطاه خمسمائة دينار وعمل له راتبًا.

وحكى الجزري أيضًا في تاريخه قال: حدثني أبو بكر بن الدريهم الإسعردي والذكى إبراهيم الجبيلي أستاذ الفارس أقطاى قال: كنا عند قطز لما تسلطن أستاذه المعز أيبك، وعنده منجم مغربي، فصرف أكثر مماليكه، فأردنا القيام فأمرنا بالقعود، ثم أمر المنجم فضرب الرمل وقال: اضرب لمن يملك بعد أستاذي ومن يكسر التتار؛ فضرب وبقي زمانًا يحسب وقال: يا خوند يطلع معي خمسة حروف بلا نقط، فقال: لم لا تقول: محمود بن ممدود؟ فقال: يا خوند لا يقع إلى هذا الاسم، فقال: أنا هو، وأنا أكسرهم وآخذ بثأر خالي جلال الدين خوارزم شاه، فقلنا: يا خوند إن شاء الله تعالى، فقال: اكتموا هذا، وأعطى المنجم ثلاثمائة درهم. وكان مدبر دولة ابن أستاذه المنصور على بن المعز أيبك، فلما دهم التتار الشام رأى أن الوقت يحتاج إلى سلطان مهيب، فعزل الصبى وتسلطن، وتم له ذلك في أواخر سنة سبع وخمسين، فلم يبلغ ريقه ولا تهنى بالسلطنة حتى امتلأ الشام بالتتار، فتجهز للجهاد وأخذ أهبة الغزو، والتف إليه عسكر الشام وبايعوه، فسار بالجيوش في أوائل رمضان وعمل المصاف مع التتار على " عين جالوت "، وعليهم كتبغا، فنصره الله عليهم وقتل مقدمهم. وكان قطز شابًّا أشقر كبير اللحية.

المؤلف: محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق، إحسان عباس، ط1، دار صادر- بيروت، (ج 1 / ص 153)، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 85/7- 86.

المؤامرة للخلاص من أقطاى [1] ثم بدأ نجمه يبزغ مع تصاعد الأحداث داخل الدولة المملوكية الوليدة.

كانت تولية المعز أيبك السلطنة في مصر هى البداية الحقيقية لظهور قطز على مسرح الأحداث، فيبدو أن أيبك قد اعتمد عليه كثيرًا ووثق به لدرجة إسناد المهام الجسام إليه بدليل اشتراكه في مؤامرة اغتيال أقطاى ثم توليته نائبًا عنه في السلطنة.

وعلى مايبدو أن النهاية المأساوية المفاجئة والسريعة لكل من شجرة الدر والمعز أيبك قد وضعت قطز في واجهة الأحداث وأعطته الفرصة الكاملة لتولى زمام الأمور وتوجيهها بالشكل الذى يضمن له السلطنة ويفرض عليه قيادة المعركة - معركة الوجود - ضد التتار.

فبعد مقتل أيبك صمم المماليك المعزية وعلى رأسهم " سيف الدين قطز " على أن يقيموا العرش - الذى بات شاغرًا بمقتل أيبك - صبيًّا في الخامسة عشرة من عمره هو " نور الدين على " ابن سيدهم أيبك، وتم ذلك في ربيع الأول سنة 655 هـ / 1257 م ولقبوه بالملك المنصور علي، وقد رفض المماليك البحرية هذا الاختيار وأعلنوا معارضتهم إلا أن قطز كان له الدور البارز في تثبيت أركان ملك هذا الصبى الصغير - إلى حين - ووقف في وجه محاولات المماليك البحرية وملوك الأيوبيين [2].

المغول (التتار) وتحدى الوجود الإسلامي:

قال " العصامى " في حديثه عن فاجعة اجتياح التتار للعالم الإسلامي: هو حديث يأكل الأحاديث، وخبر يطوى الأخبار، وتاريخ ينسى التواريخ، ونازلة تصغر كل نازلة، وفادحة تطبق الأرض، وتملؤها ما بين الطول والعرض.

هذه الأمة لغتهم مشوبة بلغة الهند؛ لأنهم في جوارهم، وبينهم وبين بنكث أربعة

(1) ذكرنا تفاصيل مؤامرة الاغتيال في سابق الصفحات فمن أراد التفاصيل فليراجع.

(2) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 44/7، المقريزي، السلوك، 306/1.

أشهر، وهى في النسبة إلى الترك، عراض الوجوه، واسعو الصدور، خفاف الأعجاز، صغار الأطراف، سمر اللون، سريعو الحركة في الجسم والرأي، تصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، قَلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم؛ لأن الغريب لا يشتبه بهم، وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم، ونهضوا دفعة واحدة؛ فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه، ولا عسكر حتى يخالطوه، فلهذا تفسد على الناس وجوه الحيل فيهم، وتضيق طرق الحرب عليهم، ونساؤهم يقاتلن كرجالهم، والغالب على سلاحهم النشاب، وأكلهم أى لحم وجدوه، وليس في قتلهم استثناء ولا إبقاء، يقتلون الرجال والنساء والأطفال، وكان مقصودهم إفناء النوع الإنسانى وإبادة العالم، لا قصد الملك والمال.

وقال سبط ابن الجوزى في مرآة الزمان: أرض التتار بأطراف بلاد الصين، وهم سكان بوادي، مشهورون بالشر والغدر.

قال ابن الأثير في كامله: حادثة التتار من الحوادث العظمى، والمصائب الكبرى، التى عقمت الدهور عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلقه الله لم يبل بمثلها - لكان صادقًا؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها. ومن أعظم ما يذكرون فعل بُختنَصر ببنى إسرائيل ببيت المقدس، فما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من مدن الإسلام. وما بنو إسرائيل، بالنسبة إلى ما قتلوا من الأنام؟ فهذه الحادثة التى استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في الدنيا سير السحاب استدبرته الريح، فإن قومًا خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا كبار المدن والقرى مثل تركستان وكاشغر وبلاساغون، ثم منها إلى بخارى وسمرقند، فتملكوا ملكها، وأبادوا أهلها، ثم تعبر طائفة إلى خراسان، فتفرغ منها ملكًا وتخريبًا وقتلاً وإبادة، ثم إلى الرى وهمذان، إلى حد العراق، ثم يقصدون أذربيجان ونواحيها، ويخربونها ويفتحونها، كل ذلك في أقل من سنة أمر لم يسمع بمثله، ثم من أذربيجان إلى دَرْبند شروان، ثم إلى بلاد اللان فقتلوا وأسروا، ثم بلاد القفجاق - وهم من أكثر الترك عددًا - فقتلوا من وقف، وهرب الباقون، واستولى التتار

عليها، ومضت طائفة منهم إلى " غزنة " وأعمالها، وسجستان وكرمان ففعلوا مثل هذا، هذا ما لم يطرق الأسماع مثله؛ فإن الإسكندر الذى ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة، وإنما ملكها في نحو عشرين سنة، ولم يقتل أحدًا وإنما رضى بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأعمره، ولم يبق أحد في البلاد التى لم يطرقوها إلا وهو خائف يترقب وصولهم إليه، ثم إنهم كانوا لا يحتاجون إلى الميرة ومددهم يأتيهم، فإن معهم الأغنام والبقر والخيل، يأكلون لحومها لا غير، وأما خيل ركوبهم فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق الشجر، لا تعرف الشعير. وديانتهم سجودهم للشمس - والعياذ بالله - حال طلوعها، ولا يحرمون شيئًا، ويأكلون جميع الدواب وبنى آدم، ولا يعرفون نكاحًا، بل المرأة الواحدة يأتيها الجماعات، ويثبون وثوب القردة، يقطعون المسافات الطويلة في أيام قليلة، ويخوضون الأوحال، ويتعلقون بالجبال، ويصبرون على العطش والجوع، ويهجرون الغمض والهجوع، ولا يبالون بالحر والبرد، والسهل والوعر، طعامهم كف شعير، وشربهم من طرف البئر، يكاد أحدهم يتقوت بطرف أذن فرسه، يقطعها ويأكلها نيئة!! ويصبر على ذلك أيامًا عديدة؛ بل يكتفى هو وفرسه بحشيش الأرض مدة مديدة[1].

أما عن نشأة المغول - التتار - [2] وأصلهم فتحدثنا المصادر أن نشأتهم الأصلية

---

(1) العصامي، سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي- (ج 2 / ص 252).

(2) التتر شعب كبير من الأمة التركية ومنه تتفرق معظم بطونها وأفخاذها وهو مرادف للتتر لدى الغرب، حتى أنهم يعدون قبائل الأتراك جميعًا تترا، ومنهم العثمانيون والتركمان وقرمان وغيرهم، وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سيتيا أو أسكوتيا، ومؤرخو الترك ونسابهم ويقولون إن النجه خان أحد ملوك الترك في الأزمنة القديمة، ولد له ولدان توأمان، هما: تتارخان ومغل خان (نحو ربيعة ومضر) في الأمة العربية.

وقد استمر أولادهما في صفاء ووداد إلى أن وقع النزاع بين الشعبين في عهد إيلخان ملك المغول سونج خان ملك التتر، وجر هذا النزاع إلى حروب طويلة انتصر فيها التتار وقتل إيلخان ملك المغول، وصارت السيادة في ذلك الوقت للتتر، حيث استعبدوا المغول مدة طويلة إلى أن جمع المغول أمرهم وجموعهم واتحدوا، فقاموا بمحاربة التتار وكسروا شوكتهم واستردوا ما ضاع من حريتهم، فعادت السيادة من ذلك الوقت إلى المغول وصار الملك متوارثًا فيهم إلى زمن يسوكى بن بهادر خان والد جنكيزخان. الخضري، تارخ الدولة العباسية، ص 542، وانظر للمؤلف تاريخ

في الهضبة المعروفة باسم " هضبة منغوليا " شمال صحراء " جوبى " والتى تمتد في أواسط آسيا جنوبى سيبريا وشمال التبت وغربى منشوريا وشرقى التركستان بين جبال التاى غربًا وجبال خنجان شرقًا، وعاشت قبائل المغول مع قبائل المغول الأخرى المجاورة لها مثل قبائل المغول البايوت والتيدوجوت والكنجرات، والتى كانت تقيم في المنطقة الواقعة جنوبى بحيرة بيكال، وأمة التتار كانت تعيش على شاطئ بحيرة بويور في أقصى الشرق من منغوليا (1) وهناك قوم كرايت الذين سكنوا الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبى وجنوب بحيرة بيكال حتى سور الصين، وكانوا يدينون بالمسيحية منذ عام 398 هـ / 1007 م، ثم قوم مركيت الذين عاشوا بجوار قوم كرايت شمالاً على مجرى نهر سلنجا وجنوب بحيرة بيكال وقبائل أويرات (أويراد) الذين سكنوا ما بين نهر أونون وبحيرة بيكال ومن بين قبائلهم قبائل النايمان والأسرة الجلائرية التى كانت تشمل عشر قبائل وكانت تسكن منطقة شواطئ نهر أونون، ومن هذه القبائل المغولية، وكانت هناك طائفة صغيرة اسمها (قيات) وتعرف باسم (يورجقين) وهذه القبيلة نشأ فيها جنكيزخان مؤسس الإمبراطورية المغولية (2).

وعاشت قبائل المغول والتتار حياة قبلية، كل قبيلة مستقلة عن الأخرى ويمتلكون قطعانًا من الأغنام والخيول وهم كعادة الشعوب القبلية في نزاع مستمر وحروب دائمة، وعلى الرغم من اختلاف لغات هذه القبائل البدوية إلا أنهم جميعًا يعيشون حياة تجرى على نظام ونسق واحد متقاربين في الشبه والخلقة والعادات والتقاليد، وكانوا يتمتعون بصفات بدنية تناسب البيئة التى نشؤوا وعاشوا فيها المناسبة (3).

ويعتبر جنكيزخان مؤسس الإمبراطورية المغولية وقد ولد عام 550 هـ

المغول، طبع ونشر دار الإيمان بالمنصورة.

(1) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص27.

(2) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 28.

(3) فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول في التاريخ، ص 6- 7، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 28.

/1550م علـى الشـاطئ الأيمـن لنهـر الأونـون فـي مقاطعـة بـن دولـون بلـداق الواقعـة فـي روسـيا الحاليـة وهـو جنكيزخـان بـن يسـوكاى بـن بهـادر بـن تومـان بـن توتيـل خـان، وقيـل: إنـه اتخـذ اسـم تمـوجين نسـبة إلـى أميـر هزمـه والده يسوكاى بن بهادر [1].

وكان تموجين في الثانية عشرة من عمره حينما توفى والده يسوكاى 563 هـ /1167 م، فاستغلت قبيلته صغر سنه وخرجت عن طاعته، وأعلنت التمرد والعصيان عليه، وانحل اتحاد القبائل الذى كان أيام أبيه وتفرقت عنه أنصاره، وبقى وحيدًا مع أمه وإخوانه، فاضطرت هذه الأسرة الفقيرة أن تعيش حياة قاسية على صيد قليل من الأسماك وبعض الحيوانات، إلى أن تطورت حياة " جنكيزخان " وبلغ السابعة عشرة من عمره، فاستطاع بذكائه وشجاعته وحسن تدبيره أن يجتذب إليه الشخصيات الكبيرة في قبيلته، ثم أخضع المناوئين له في هذه القبيلة حتى تمت له السيطرة الكاملة عليها [2].

وكان من تدبير القدر أن يدخل " جنكيزخان " تحت حماية قبيلة كرايت القوية، بزعامة زعيمها أونك خان الذى كان يدين بالمسيحية وكانت له علاقات طيبة مع والد جنكيزخان، ولكن لم تدم هذه العلاقة الطيبة في ظل سعى جنكيزخان للسيطرة والزعامة على قبائل المغول مما أوقع الرجلين في صدام مسلح نتج عنه تغلب تموجين (جنكيزخان) على أونك خان، وعلو نجم تموجين بين القبائل وسعيه الحثيث للسيطرة على قبائل المغول بالحيلة تارة وبالقوة تارة وبالوقيعة بين القبائل تارة أخري، حتى تحققت الرئاسة والزعامة لجنكيزخان على قبائل المغـول (التتـار) سـنة 603 هـ /1206 م، وأجمعـت القبائـل علـى انتخابـه إمبراطورًا عليها وسمى نفسه جنكيزخان بدلاً من تموجين، وهى كلمة تعنى

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، 2 /305- 306، فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول في التاريخ، ص 6- 7، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 28.

(2) فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول في التاريخ، ص17، 18، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 28.

أعظم الحكام أو إمبراطور البشر، واتخذ من مدينة قرا قوم [1] قاعدة للإمبراطورية المغولية [2].

ومن قراقوم انطلقت شرارة التدمير والهدم، حيث انطلق جنكيزخان يوسع دائرة نفوذه وسلطانه على ماكان يجاوره من مناطق وسكان، ووضع لدولته الدستور والقانون الذى تسير عليه حيث أخرج الياساق أو الياسا أو السياسة: وهى مجموعة القوانين التى خمنها جنكيزخان وقررها من ذهنه، رتب فيها أحكامًا وحدد فيها حدودًا أكثرها مخالف للشريعة المحمدية لذلك سماها الياسا الكبرى وقد اكتتبها وأمر أن تجعل في خزائنه تتوارث عنه في أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته ومعظم هذه الأحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت شرعًا متبعًا يقدمونه على أى شيء أخر [3].

واشتمل ذلك القانون على مبادئ صارمة تضمن احترام المجتمع المغولى واحترام الصغير للكبير، وفيه مبادئ ونصوص نظام المغول العسكرى والحربى وجملته الطاعة العمياء واحترام الرتبة لمن يعلوه رتبة عسكرية، هذا بالإضافة إلى العقوبات الشديدة الصارمة لمن يخرج على عن أحكام الياسق أو هذا القانون ومن يقصر في أداء واجبه العسكرى من الضباط والجنود يعرض نفسه للعقوبات الشديدة، وكان مما شرعه فيه أن من زنى يقتل، لا فرق بين محصن وغير محصن، ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين، وهما يتخاصمان، وأعان أحدهما على الآخر قتل، ومن بال في الماء

(1) قرا قوم: مدينة وقاعدة التتار، وهى قرية جنكيزخان التى أخرجته، ونشأ بها. القلشقندي، صبح الأعشى (جـ4/ ص480، 481).

(2) مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى، ص 78،) فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول في التاريخ، ص17- 18، المقريزي، الخطط 3 / 60، القلقشندي، صبح الأعشى 4 / 310، فؤاد عبد المعطى المغول في التاريخ، ص19- 20، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 30.

(3) المقريزي، الخطط 3 / 60، القلقشندي، صبح الأعشى 4 / 310.

أو على الرماد قتل، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل، ومن وجد عبدًا هاربًا أو أسيرًا هاربًا ولم يرده على من كان في يده قتل، وأن من ذبح حيوانًا كذبيحة المسلمين ذبح، ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حال القتال، وكان وراءه واحد، فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم ينزل ولم يناوله قتل.

وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخري، وألزم قومه ألا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولاً، ولو أنه أمير ومن يناوله أسير، وألزمهم ألا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه بل يشركه معه في أكله، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلي، ومنع أن يقال لشيء أنه نجس، وقال: بأن جميع الأشياء طاهرة، ولم يفرق بين طاهر ونجس، وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده.

ورتب لعساكره أمراء وجعلهم أمراء ألوفًا وأمراء مئين وأمراء عشرات، وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه، فإنه يلقى بنفسه بين يدى الرسول، وهو ذليل خاضع، حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة، ولو كانت بذهاب نفسه، ومن تغير من موضعه الذى يرسم له بغير إذن قتل، وغيرها من النصوص الصارمة القوية التى استطاع جنكيزخان بها أن يحافظ على قوام دولته وأن يوسع أملاكه في المناطق المجاورة لنفوذ قبيلته [(1)].

وبعد خمسة وعشرين عامًا من الحكم توفى جنكيزخان عام 624 هـ / 1227 م، تاركًا الحكم لأبنائه الأربعة وهم: دوشى خان (جوجي)، وجفطاي، وأوكداي،

---

(1) المقريزي، الخطط 3 / 60، القلقشندي، صبح الأعشى 4 / 310، فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول في التاريخ، ص 6- 7، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 30، الخضري، تاريخ الدولة العباسية، ص543- 544.

وتولى (طولي)، فقسمت مملكته بينهم، فنال الابن الأصغر " أوكداى " عرش الخانية الأعظم على المغول، ونال " جفطاى " بلاد ما وراء النهر، ونال جوجى بلاد القفجاق وأضيفت إليه إيران وتبريز وهمدان ومراغة، أما طولى فلم يحصل على شيء، (ربما لأن الثلاثة الأول من أم واحدة وهى أبوبولى بنت تيكى أحد كبار المغول) (1).

إن غزو المغول (التتار) العالم الإسلامى لم يكن أمرًا مفاجئًا وطفرة بدون مقدمات، لأن جيوش المغول كانت قبل ذلك قد اخترقت الآفاق، دوخت الصين الشمالية، وقضت على الدولة الخوارزمية المسلمة، وسيطرت على خراسان ومرو وبخارى وسمرقند، وأذربيجان وروسيا الجنوبية، والقرم والقوقاز، دون أن تنتبه بغداد من نومها.

وبعد تولى (أوكتاي) الذى خلف جنكيز خان، انقضت جيوشه على شمال جبال الأورال وبحر الخزر ومدينتى موسكو وبلغار على نهر الفولغا، وهزمت البولنديين ودمرت مدينة براسلاف الألمانية، وهزمت حاكم سيليسيا هنرى الثانى الذى انتحر للهزيمة. ثم حينما اختارت الأمة المغولية (مانكو) خلفًا لأوكتاي، أقام - على وثنيته - نظامًا متسامحًا تعايشت فيه جميع الأديان إسلامًا ومسيحية وبوذية، وشيدت فيه على قدم المساواة المساجد والكنائس والمعابد. ثم بعد ذلك عهد إلى أخيه " هولاكو " بغزو الغرب الأسيوى الذى يضم ديار المسلمين وعاصمتهم بغداد؟؛ كل هذا وقع والخليفة مع قادته العسكريين غارقون في غفلتهم!! (2).

---

(1) المقريزي، الخطط 3 / 60، القلقشندي، صبح الأعشى 4 / 310، الذهبي، العبر في خبر من غبر، 5/ 525، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 30.

(2) ثم بعد توقف المد المغولى عند فارس والعراق، وانحساره عن الشام بجهاد المماليك ومقاومتهم، ترك أمة ذاهلة واقتصادًا منهارًا ومجتمعًا بائسًا هزيلاً، منغمسًا في الخرافة والفوضى، ثم لطف الله بهذه الأمة فأسلم حكام إيران من المغول، وعلى رأسهم ملكهم (تيكودار)، وتتابع بعده إقبال المغول على الإسلام، لاسيما في عهد " " غازان " " الذى اختار مذهب أهل السنة وأحسن إلى أهل الشيعة. ثم خلفت مملكة المغول في إيران الدولة المظفرية في كرمان وفارس، والدولة الجلائرية في منطقة

في الحقيقة أن تزايد نفوذ المغول (التتار) يعنى الاصطدام بجيرانهم من الدول، وكان تجاور المغول للدولة الخوارزمية إيذانًا بحدوث التصادم بينهما، وكان الذى حدث أن السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكش (السلطان الخوارزمي) قد أمر باعتقال قافلة من التجار قادمة من بلاد الخان المغولى بزعم أنهم جواسيس للدولة المغولية، وأمر بقتلهم جميعًا، وكان عددهم أربعمائة وخمسين رجلاً من المسلمين، وبالرغم من أن جنكيزخان قد اتسم رد فعله بالهدوء وضبط النفس؛ وأرسل إلى سلطان الخوارزمية يطلب إليه تسليمه القتلة؛ إلا أن سلطان الخوارزمية قتل بعض الرسل وأهان البعض الآخر، وكان هذا إيذانًا بإعلان الحرب بينهما[1].

وكان أن انطلقت قوات المغول تدمر كل ما ومن قابلها ولم تستطع الدولة الخوارزمية الصمود في وجههم، فتمكنت قوات " جنكيزخان " من السيطرة على مدينة بخارى الحصينة في مدة ثلاثة أيام، وأجبر أهلها على مغادرتها، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثم توالى سقوط مدن بلاد ما وراء النهر في أيدى المغول، ثم كانت نهاية الجيش الخوارزمى بالتدمير كليًّا وهروب سلطانهم واختفائه عن أعين المغول في جزيرة نائية مؤثرًا السلامة [2].

وبعد توارى السلطان علاء الدين محمد عن الأحداث والأعين، فإن ابنه جلال الدين خوارزم شاه استطاع أن يقوم بدور فعال في مواجهة المغول حيث تمكن من استعادة بعض المناطق التى كان المغول قد استولوا عليها من أبيه، بل إنه وقف لهم نِدًّا في كثيرٍ من الأحيان وتمكن من إيقاع الهزائم بهم، وظلت الحرب

ما بين النهرين. وتتابعت بعد ذلك دويلات ضعيفة منقسمة على نفسها، مثل: الأسرة الخلجية الأفغانية (1290 م- 1330 م) الأسرة التغلقية (1325 م- 1415 م) أسرة الشاة البيضاء (1379 م- 1503 م) ثم أسرة الأسياد (1414 م- 1451 م) ثم الأسرة اللودية (1452 م- 1526 م)، نجم الدين إبراهيم بن على الحنفى الطَّرَسوسي، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق، عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي، (ج 1 / ص 12).

(1) بارتولد، تركستان، ص 564- 570.

(2) بارتولد، تركستان، ص 564- 570، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 55.

بينه وبين جنكيزخان سجالاً حتى توفى " جنكيزخان " في عام 1227 م تاركًا لخلفائه إمبراطورية مترامية الأطراف [1].

ولم تلبث الأمور طويلاً أن تبدلت إذ لم يستطع جلال الدين خوارزم شاه أن يقاوم ضغط المغول القوي، لا سيما بعد الخلاف الذى وقع بين السلطان جلال الدين خوارزم شاه والخليفة العباسى الناصر لدين الله، بعد مهاجمته لأراضى الدولة العباسية، مما اضطر الخليفة العباسى للاستعانة بالمغول على السلطان جلال الدين خوارزم شاه، ولم يكن المغول في حاجة لدعوة لكى يقضوا على الخوارزمية، إذ إنه وبعد مرور ثلاث سنوات على وفاة جنكيزخان تمكن خليفته من القضاء على مملكة الخوارزمية قضاء مبرمًا، وهرب جلال الدين من أمامهم [2].

كان سقوط هذه المملكة نذير شؤم بالنسبة للخلافة العباسية، وأرسل الخليفة العباسى المستنصر بالله يستنجد بملوك الأيوبيين في مصر والشام، كما بعث يطلب النجدة من القبائل العربية، بيد أن الظروف التاريخية السائدة في المنطقة العربية كانت تبدو مواتية تمامًا للطموح المغولي؛ فالخلافة العباسية أشبه بالرجل المريض الراقد على ضفاف الرافدين، كما أن سلاجقة فارس والعراق قد صاروا أثرًا بعد عين، ولم يعد لهم وجود حقيقي، أما دولة سلاجقة الروم فكانت متاعبها الداخلية أكبر من قدراتها، كذلك فإن الأيوبيين الصغار في بلاد الشام كانوا على حالة من التشرذم والأنانية السياسية تمنعهم من أى جهد حقيقي، وتبقى دولة سلاطين المماليك التى كانت تعانى من مشكلات الشرعية السياسية، وتداول السلطة، وترتيب الأوضاع في الداخل، واتقاء خطر القادم من الخارج، وكانت المواجهة مع المغول بمثابة الاختبار الحاسم لقدرات هذه الدولة

---

(1) بار تولد، تركستان، ص 564- 570، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 56.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، 4 /314- 329، بارتولد، تركستان، ص 564- 570، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 55.

الوليدة [1].

وعلى ما يبدو أن المغول أرادوا استغلال حالة الضعف والوهن الذى كانت تعيشه المنطقة العربية الإسلامية، وهاجموا بغداد قبل سقوطها في أيديهم، وكانت المرة الأولى في عام 635 هـ وفشلت هذه المحاولة وحاقت بهم الهزيمة، وعلى ما يبدو أن هذا الفشل جعل المغول أكثر تصميمًا من ذى قبل على الاستيلاء على بغداد وإسقاط الخلافة العباسية، ففى العام 649 هـ / 1251 م اجتمع مجلس رؤساء التتر (القوربلاي) في عاصمتهم (قراقورم) وأجمعوا أمرهم على اختيار منكوخان بن نولاى بن جنكيزخان ليكون خانهم الأعظم، ولم يمض وقت طويل على تولية الخان الجديد، إذ أنه في العام التالى مباشرة أرسل حملتين:الأولى توجهت إلى الصين، والأخرى توجهت إلى غربًا باتجاه الأراضى الإسلامية، وهذه الحملة كان غرضها الأساسى هو القضاء على معاقل طائفة الشيعة الإسماعيلية وتدمير الخلافة العباسية والاستيلاء على حاضرتها بغداد.

وكان من سوء قدر المسلمين أن الذى تولى قيادة الحملة المغولية المتوجهة إلى ديارهم هو " هولاكو " الذى سار بنفسه حتى وصل ديار بكر وميفارقين حيث ارتكب المغول فظائع وأهوال يعجز القلم عن وصفها، يقول العصامى واصفًا ما حدث لبغداد والخليفة -: وكان التتار جائلين في الأرض يقتلون ويأسرون ويخربون الديار، ونارهم في غاية الاشتعال والاستعار، والمستعصم ومن معه في غفلة عنهم؛ لإخفاء ابن العلقمي[2] عنه سائر الأخبار، إلى أن وصل "

---

(1) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 56.

(2) أبو طالب الوزير المدبر مؤيد الدين ابن العلقمى البغدادى الرافضى وزير المستعصم، ولى الوزارة أربع عشرة سنة، فأظهر الرفض قليلاً وكان وزيرًا كافيًا خبيرًا بتدبير الملك، وكان عنده من الضغن ما أوجب له أنه سعى في دمار الإسلام وخراب بغداد على ما هو مشهور، لأنه كان شيعيًّا رافضيًّا عمل على ترك الجمعات، وأن يبنى مدرسة على مذهب الرافضة، فما بلغ أمله، وأقيمت الجمعات. وأفشى الرفض فعارضه السنة، وأكبت، فتنمر، ورأى أن " هولاكو " على قصد العراق فكاتبه وجسّره وقوى عزمه على قصد العراق، ليتخذ عنده يدًا، وليتمكن من أغراضه، وحفر للأمة

هولاكو " خان إلى بلاد العراق، واستأصل من بها قتلاً وأسرًا.

وتوجه إلى بغداد، وأرسل إلى الخليفة يطلبه، فاستيقظ من نوم الغرور، وندم على غفلته حيث لا ينفع الندم، وجمع من قدر عليه وبرز إلى قتاله، وجمع من أهل بغداد خاصته، ومن عبيده وخدامه ما يقارب أربعين ألف مقاتل، لكنهم مرفهون بلين المهاد، وساكنون على شط بغداد، في ظل ثخين، وماء معين، وفاكهة وشراب، واجتماع أحباب، ما كابدوا حربًا، ولا ذاقوا طعنًا ولا ضربًا، وعساكر المغل ينوفون على مائة ألف مقاتل، فوقع التصاف، والتحم القتال، وزحف الخميس إلى الخميس، يوم الخميس عاشر محرم سنة ست وخمسين وستمائة، وصبر أهل بغداد على حر السيوف، صبروا مضطرين على طعم الحتوف، وأعطوا الدار حقها، واستقبلوا غمام السهام وبلها وودقها، واستمروا كذلك من إقبال الفجر إلى إدبار النهار، فعجزوا عن الاصطبار، وانكسروا أشد

قليبًا، فأوقع فيه قريبًا، وذاق الهوان، وبقي يركب كديشًا وحده، بعد أن كانت ركبته تضاهي موكب سلطان، فمات غبنًا وغمًّا، وفي الآخرة أشد خزيًّا وأشد تنكيلاً.

أخذ يكاتب التتار إلى أن جرّ " هولاكو " وجرّأه على أخذ بغداد وقررّ مع " هولاكو " أمورًا انعكست عليه وندم حيث لا ينفعه الندم وكان كثيرًا ما يقول عند ذلك:

وجرى القضاء بعكس ما أمّلته

لأنه عومل بأنواع الهوان من أراذل التتار والمرتدة حُكي أنه كان في الديوان جالسًا فدخل يعطيه بما أراد وبال الفرس على البساط وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس ضد التتار ممن لا وجاهة له راكبًا فرسه، فساق إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخا وأنه بلغ مراده، وقال له بعض أهل بغداد من الشيعة الرافضة: يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه وحميت الشيعة حمية لهم وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلق لا يحصون، وارتكب من الفواحش من نسائهم، وافتضت بناتهم الأبكار مما لا يعلمه إلا الله تعالى فقال: بعد أن قتل من السنة وزعمائهم عددًا كبيرًا غير مبالٍ بذلك، ولم تطل مدته حتى مات غمًّا وغبنًا في أوائل سنة سبع وخمسين وست مائة، وكان مولده في شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وخمس مائة.

وحكي أنه لما كان يكاتب التتار تحيل مرة إلى أن أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقًا بليغًا وكتب ما أراد عليه بوخز الأبر كما يفعل بالوشم ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع شعره وغطى ما كتب فجهزه، وقال: إذا وصلت مرهم بحلق رأسك، ودعهم يقرؤون ما فيه، وكان في آخر الكلام قطعوا الورقة فضربت رقبته وهذا غاية في المكر والخزى والله أعلم. الصفدي، الوافى بالوفيات- (ج 1 / ص 83)، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 23/ 263.

انكسار، وولوا الأدبار، وغرق كثير منهم في دجلة، وقتل أكثرهم شر قتلة، ووضعت التتار فيهم السيف والنار، فقتلوا في ثلاثة أيام ما ينوف على ثلاثمائة ألف وسبعين ألفًا، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الخزائن والأموال، وأخذ " هولاكو " جميع النقود، وأمر بحرق الباقي، ورمى كتب مدارس بغداد في دجلة، وكانت لكثرتها جسرًا يمرون عليها ركبانًا ومشاة، وتغير لون الماء بحبرها إلى السواد، فأشار الوزير على الخليفة بمصانعتهم وقال: أنا في تقرير الصلح، فخرج، ووثق لنفسه بينهم، ورجع إلى الخليفة وقال: إن الملك " هولاكو " قد ركب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبى بكر، ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يؤثر أن تكون الطاعة له، كما كان أجدادك مع سلاطين الديلم والسلجوقية، وينصرف عنك بجنوده، فيجيب مولانا إلى هذا، فإن فيه حقنًا لدماء من بقى من المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد، فالرأى أن تخرج إليهم.

فخرج الخليفة في أعيان دولته، فأنزل في خيمة، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد، فخرجوا من بغداد، فضربت أعناقهم، وكذلك تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم، حتى قتل جميع من فيها من العلماء والأمراء والحجاب والكتاب، واستبقى " هولاكو " المستعصم أيامًا إلى أن استصفى أمواله وخزائنه وذخائره، ثم رمى رقاب أولاده وذويه وأتباعه، وأمر أن يوضع الخليفة في غرارة، ويرفس بالأرجل حتى يموت؛ ففعل به ذلك.

وفى رواية إن خروج الخليفة المستعصم إليه كان قبل وقوع شيء من القتال، ثم لما خرج وفعل به ومن معه ما فعل - بذل السيف في بغداد، واستمر السيف نحو أربعين يومًا، فبلغت القتلى أكثر من ألف ألف نسمة، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة [(1)].

إنهم لا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة، كما يقرر النص القرآنى الصادق

---

(1) سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي، 205/2.

الخالد..{ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً } [التوبة: ٨].

عندما ظهر الوثنيون التتار على المسلمين في بغداد وقعت المأساة الدامية التي سجلتها الروايات التاريخية والتي نكتفي فيها بمقتطفات سريعة من تاريخ « البداية والنهاية » لابن كثير فيما رواه من أحداث عام 656 هـ:... ومالوا على البلد، فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان. ودخل كثير من الناس في الآبار، وأماكن الحشوش، وقنا الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات، ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار. إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم. فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجرى الميازيب من الدماء في الأزقة - فإنا لله وإنا إليه راجعون - كذلك في المساجد والجوامع والربط. ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا أمانًا بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم. وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب، ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة..

« وقد اختلف الناس في عدد من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة. فقيل ثمانمائة ألف. وقيل: ألف ألف. وقيل: بلغت القتلى ألفي ألف نفس - فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم - وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم. وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا.. وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر من صفر، وعفي قبره، وكان عمره يومئذٍ ستًا وأربعين سنة وأربعة أشهر. ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام. وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله خمس وعشرون سنة. ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم.

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيى الدين يوسف ابن الشيخ أبى الفرج بن الجوزي، وكان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة: عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم، وأكابر الدولة واحدًا بعد واحد، منهم الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك، وشهاب الدين سليمان شاه، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد، وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بنى العباس، فيخرج بأولاده ونسائه، فيذهب إلى مقبرة الخلال، تجاه المنظرة، فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه، وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين على بن النيار. وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن. وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات عدة شهور ببغداد؟!.

ولما انقضى الأمر المقدر، وانقضت الأربعون يومًا، بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر، فتغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون[1].

كان وزير الخليفة المستعصم بالله مؤيد الدين بن العلقمى ببغداد، وكان رافضيًا [2] خبيثًا حريصًا على زوال الدولة العباسية ونقل الخلافة إلى العلويين، يدبر

---

(1) راجع ابن كثير، البداية والنهاية أحداث عام 656 هـ.

(2) سميت الرافضة من الشيعة: رافضة، لرفضهم زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب، وتركهم الخروج معه، حين سألوه البراءة من أبى بكر وعمر، فلم يجبهم إلى ذلك.

وروى عوانة بن الحكم قال: لما استتب الأمر لزيد بن على عليه السلام جمع أصحابه، فخطبهم وأمرهم بسيرة على بن أبى طالب في الحرب.

فقالوا: قد سمعنا مقالتك، فما تقول في أبى بكر وعمر؟ فقال: وما عسيت أن أقول فيهما؟ صحبا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأحسن الصحبة، وهاجرا معه، وجاهدا في الله حق جهاده، ما سمعت أحدًا من أهل بيتى تبرأ منهما، ولا يقول فيهما إلا خيرًا.

قالوا: فلم تطلب بدم أهل بيتك، ورد مظالمهم إذًا، وليس قد وثبا على سلطانهم، فنزعاه من أيديكم، وحملا الناس على أكتافكم، يقتلونكم إلى يومكم هذا؟ فقال لهم زيد: إنما وليا علينا وعلى الناس، فلم

يألوا العمل بكتاب الله وسنة رسوله.
قالوا: فلم يظلمك بنو أمية إذًا، إن كان أبو بكر وعمر لم يظلماك!؟ فلم تدعونا إلى قتال بني أمية، وهم ليسوا لكم ظالمين، لأن هؤلاء إنما تبعوا في ذلك سنة أبي بكر وعمر؟.
فقال لهم زيد: إن أبا بكر وعمر ليسا كهؤلاء، هؤلاء ظالمون لكم ولأنفسهم، ولأهل بيت نبيهم، وإنما أدعوكم إلى كتاب الله ليعمل به، وإلى السنة أن يعمل بها، وإلى البدع أن تطفأ، وإلى الظلمة من بني أمية أن تخلع وتنفى، فإن أجبتم سعدتم، وإن أبيتم خسرتم، ولست عليكم بوكيل. نشوان الحميري، الحور العين، 53/1.
يقول ابن تيمية عن الروافض:
وَمَذْهَبُ الرَّافِضَةِ شَرٌّ مِنْ مَذْهَبِ الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ؛ فَإِنَّ الْخَوَارِجَ غَايَتُهُمْ تَكْفِيرُ عُثْمَانَ وَعَلِي وَشِيعَتِهِمَا. وَالرَّافِضَةُ تكفر أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَجُمْهُورِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ، وَتَجْحَدُ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمَ مِمَّا جَحَدَ بِهِ الْخَوَارِجُ وَفِيهِمْ مِنْ الْكَذِبِ وَالافْتِرَاءِ وَالْغُلُوِّ وَالإِلْحَادِ مَا لَيْسَ فِي الْخَوَارِجِ وَفِيهِمْ مِنْ مُعَاوَنَةِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا لَيْسَ فِي الْخَوَارِجِ، وَالرَّافِضَةِ تُحِبُّ التَّتَارَ وَدَوْلَتَهُمْ؛ لأَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ بِهَا مِنْ الْعِزِّ مَا لا يَحْصُلُ بِدَوْلَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَالرَّافِضَةُ هُمْ مُعَاوِنُونَ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ كَانُوا مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ فِي دُخُولِ التَّتَارِ قَبْلَ إسْلامِهِمْ إلَى أَرْضِ الْمَشْرِقِ بِخُرَاسَانَ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَكَانُوا مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ مُعَاوَنَةً لَهُمْ عَلَى أَخْذِهِمْ لِبِلادِ الإِسْلامِ وَقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ وَسَبْيِ حَرِيمِهِمْ.
وَقَضِيَّةُ ابْنِ العلقمي وَأَمْثَالِهِ مَعَ الْخَلِيفَةِ وَقَضِيَّتِهِمْ فِي حَلَبَ مَعَ صَاحِبِ حَلَبَ: مَشْهُورَةٌ يَعْرِفُهَا عُمُومُ النَّاسِ.
وَكَذَلِكَ فِي الْحُرُوبِ الَّتِي بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ النَّصَارَى بِسَوَاحِلِ الشَّامِ: قَدْ عَرَفَ أَهْلُ الْخِبْرَةِ أَنَّ الرَّافِضَةَ تَكُونُ مَعَ النَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُمْ عَاوَنُوهُمْ عَلَى أَخْذِ الْبِلادِ لَمَّا جَاءَ التَّتَارُ وَعَزَّ عَلَى الرَّافِضَةِ فَتْحُ عُكَّةَ وَغَيْرِهَا مِنْ السَّوَاحِلِ وَإِذَا غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ النَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ كَانَ ذَلِكَ غُصَّةً عِنْدَ الرَّافِضَةِ وَإِذَا غَلَبَ الْمُشْرِكُونَ وَالنَّصَارَى الْمُسْلِمِينَ كَانَ ذَلِكَ عِيدًا وَمَسَرَّةً عِنْدَ الرَّافِضَةِ. وَدَخَلَ فِي الرَّافِضَةِ، أَهْلُ الزَّنْدَقَةِ وَالإِلْحَادِ مِنْ " النصيرية " وَ " الإسْمَاعِيلِيَّةِ " وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الْمَلاحِدَةِ " الْقَرَامِطَةِ " وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانَ بِخُرَاسَانَ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالرَّافِضَةُ جهمية قَدَرِيَّةٌ وَفِيهِمْ مِنْ الْكَذِبِ وَالْبِدَعِ وَالافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِي وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ فِيهِمْ مِنْ الرِّدَّةِ عَنْ شَرَائِعِ الدِّينِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَالصَّحَابَةُ.
{وَمِنْ أَعْظَمِ مَا ذَمَّ بِهِ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَوَارِجَ قَوْلُهُ فِيهِمْ:} يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ{ كَمَا أَخْرَجَا فِي الصَّحِيحَيْنِ؛ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ:} بَعَثَ عَلِي إلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذُهَيْبَةٍ فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةٍ- يَعْنِي مِنْ أُمَرَاءِ نَجْدٍ- فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَالأَنْصَارُ. قَالُوا: يُعْطِي صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا، قَالَ: إنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ. فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ نَاتِئُ الْجَبِينِ كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقٌ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اتَّقِ اللَّهَ. فَقَالَ: مَنْ يُطِعْ اللَّهَ إذَا عَصَيْته أَيَأْمَنُنِي اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَلا تَأْمَنُونِي؟ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ قَتْلَهُ فَمَنَعَهُ. فَلَمَّا وَلَّى قَالَ: إنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا- أَوْ فِي عَقِبِ هَذَا- قَوْمًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ يَقْتُلُونَ أَهْلَ

ذلك في الباطن ويظهر للخليفة المستعصم خلاف ذلك.

بقى أن نقول: إنه لم يكن سقوط بغداد (656 هـ) ممكنًا لولا خيانة الوزير ابن العلقمي، لأن القوى الخارجية تبقى محدودة التأثير ما لم تتعاون معها قوى عميلة من الداخل.

ولم تكن مأساة سقوط بغداد هى الوحيدة التى ابتلى بها المسلمون، فقد تكررت مآسى المسلمين بعد سقوط بغداد، فتساقطت مدن الأندلس واحدة تلو الأخرى، وتتابعت المآسي، فضاعت فلسطين وبضياعها ضاعت حقوق أهلها، وها نحن الآن نعاصر ضياع البوسنة والهرسك وأفغانستان والعراق والصومال - وما خفى كان أعظم - والأعداء هم الأعداء، وطريقة الضياع هى نفسها لم تتغير، والعالم الإسلامى يقف متفرجًا كأنما أصيب بالشلل التام.

الإِسْلامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ؛ لَئِنْ أَدْرَكْتهم لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ{ وَفِى لَفْظٍ في الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِى سَعِيدٍ قَالَ:}بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ يَقْسِمُ قَسَمًا- أَتَاهُ ذُو الخويصرة- وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِى تَمِيمٍ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ. فَقَالَ: وَيْلَك فَمَنْ يَعْدِلُ إذَا لَمْ أَعْدِلُ قَدْ خِبْت وَخَسِرْت إنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَأْذَنُ لِى فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ: دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ يَنْظُرُ إلَى نَصْلِهِ، فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَىءٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ إلَى رِصَافِهِ، فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إلَى نَضِيِّهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إلَى قُذَذِهِ، فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَىءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ. آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْى الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ، يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ, قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّى سَمِعْت هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِىَّ بْنَ أَبِى طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ، فَأُتِى بِهِ حَتَّى نَظَرْت إلَيْهِ عَلَى نَعْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِى نَعَتَهُ، فَهَؤُلاءِ الْخَوَارِجُ الْمَارِقُونَ مِنْ أَعْظَمِ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، وَذَكَرَ: أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ وَالْخَوَارِجُ مَعَ هَذَا لَمْ يَكُونُوا يُعَاوِنُونَ الْكُفَّارَ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَالرَّافِضَةِ يُعَاوِنُونَ الْكُفَّارَ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّهُمْ لا يُقَاتِلُونَ الْكُفَّارَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى قَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْكُفَّارِ، فَكَانُوا أَعْظَمَ مُرُوقًا عَنْ الدِّينِ مِنْ أُولَئِكَ الْمَارِقِينَ بِكَثِيرٍ كَثِيرٍ. وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى وُجُوبِ قِتَالِ الْخَوَارِجِ، وَالرَّوَافِضِ وَنَحْوِهِمْ إذَا فَارَقُوا جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا قَاتَلَهُمْ عَلِى رَضِى اللَّهُ عَنْهُ. ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، 426/6، وانظر أيضًا للمؤلف: تاريخ التطرف الشيعي، من إصدارات دار الإيمان بالمنصورة والقاهرة.

إنه أمر عجيب تحار فيه العقول!!

ما الذى دهى المسلمين حتى ضاعوا وأضاعوا حقوقهم وبلادهم. إننا لا نطلب من العلماء والمفكرين وصف الداء، بل وصف الأدواء علنا نجد مخرجًا من هذا المأزق، كما نطلب أن يتحملوا المسؤولية كاملة قولاً وعملاً، قيامًا بما يمليه عليهم الواجب في هذه الأيام العصيبة التى كرست اليأس الذى يكاد أن يحيط بالمسلمين.

ونتج عن سقوط بغداد في أيدى التتار آثار ونتائج عديدة في الحياة الإسلامية، فالوحدة السياسية للمسلمين أصبحت من الأمور التى يستحيل تحقيقها، أضف إلى ذلك أن الثقافة الإسلامية منيت على أيدى التتار بخسارة كبيرة حين أتلف المغول آلافًا من الكتب القيمة والمخطوطات النادرة، وقتلوا كثيرًا من العلماء والأدباء، وشتتوا شمل من بقى منهم في مختلف البقاع الإسلامية. وجذبت مصر عددًا كبيرًا من هؤلاء العلماء، مما أدى إلى انتقال مركز الزعامة الفكرية إلى القاهرة التى أضحت بحكم وضعها الجغرافى أقرب من بغداد إلى أوروبا، مما ساعد على اقتراب العالم الغربى من الحضارة الشرقية.

وما يقال بصدد هجرة العلماء والأدباء يقال كذلك على أهل الحرف والصناعات وغيرهم من أهالى بلاد المشرق الإسلامي، مثال ذلك أن مصر استقبلت إبان الغزو المغولى عددًا كبيرًا من المشارقة الذين بنوا لأنفسهم بيوتًا على ضفاف الخليج وحول النيل، وقد جلب أهل الحرف منهم بعض أساليب بلادهم الفنية، وتأثر المعمار المصرى نتيجة ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي، ببعض المؤثرات الفارسية والعراقية، ومن المحتمل جدًّا أن تكون خطة بناء مسجد الظاهر " بيبرس " مأخوذة من رسم مسجد ميافارقين الذى أنشئ في سنة 1223 م.

وعلى الرغم من أن هذه الأساليب والمؤثرات الفنية، قد وجدت بالفعل في مصر قبل القرن الثالث عشر الميلادي، إلا أن تلك الهجرات الأخيرة كانت مدعاة

لظهورها وإحيائها من جديد.

والواقع أن سقوط بغداد وقيام دولة إيلخانات فارس على عهد " هولاكو "، قد فصل أراضى شرق دجلة عن غربه، ففى الشرق اتسعت دائرة الحضارة الفارسية، وفى الغرب قامت البقية الباقية من الثقافة العربية، بعد أن كانت حضارة العالم الوسيط من سمرقند إلى أشبيلية قائمة على التعاون الفكرى والتبادل العلمى والأدبى بين الفرس والعرب في ظل الخلافة العباسية. حقيقة أن الفرقة بين اللغتين العربية والفارسية ظهرت قبل ذلك بقرون نتيجة للنهوض القومى الفارسي، إلا أنه منذ سقوط بغداد قلت أهمية اللغة العربية، بين الفرس وأصبحت قاصرة على البحوث الدينية والفلسفية.

وترتب على سقوط بغداد أيضًا الاتجاه في إعادة ترتيب البيت السياسى مثل وجوب تعيين حدود جديدة وعقد محالفات مختلفة، كما ترتب عليه تغيير سلاطين المماليك في مصر سياستهم نحو الخلافة، إذ جعلهم يفكرون في إحيائها من جديد، وفى الوقت نفسه أعطاهم فرصة قصيرة من الزمن يستعدون فيها لصد هذا السيل المغولى الجارف المندفع نحوهم، ومع أن سقوط بغداد أوضح للمسلمين ضرورة توحيد الجهود إزاء ذلك الخطر العام، ظل النزاع بين السنة والشيعة قائمًا مستمرًا، فاستغل المغول ما هنالك من تنافس لصالحهم، وزحفوا نحو الغرب يعيثون فسادًا وتخريبًا يساعدهم في ذلك انقسام كلمة المسلمين، وأيد " هولاكو " حزب الشيعة واتخذ الاحتياطات التى تكفل سلامة قبر الإمام عليّ بالنجف من التدمير [1].

موقف بلاد الشام من التتار:

كان من الطبيعى بعد سقوط بغداد في يد التتار أن يتابع المغول زحفهم إلى بلاد الشام، وكان صاحب الشام في ذلك الوقت الملك الناصر صلاح الدين يوسف

(1) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 149- 150.

[1] وكان معاديًا للمماليك في مصر فلم يجد بُدًّا من الاستعانة بالتتار ضد سلاطين المماليك في مصر، فأرسل الناصر صلاح الدين يوسف ولده الملك العزيز إلى " هولاكو " وبصحبته بعض الأمراء ومعهم الهدايا والتمسوا من " هولاكو " مساعدة الملك الناصر ضد المماليك في مصر، الذين انتزعوا السلطنة من الأيوبيين [2] وكان حريًّا بهولاكو أن يقبل ذلك الطلب لو أن أمير دمشق أحاطه بشيء من العناية وذهب بنفسه في طلب حلف الإيلخان المغولى ويعرض عليه ولاءه وتبعيته، ولكن الناصر لم ير فيما يبدو أن يرتبط بعهد وثيق، ففضل البقاء بعيدًا عن حضرة " هولاكو "، حتى إذا أصيبت القوى المغولية بالهزيمة أمام المسلمين استطاع أن يجد لنفسه بعض المعاذير [3]، وربما خاف أن يلقى نفس مصير الخليفة العباسى، فأراد أن يبقى على نفسه إلى حين.

وكان الأمير ركن الدين " بيبرس " البندقدارى - والمماليك البحرية الفارين من مصر - قد أرسل إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف يلتمس منه الأمان، ثم جاء معه عدد من الأمراء حيث أكرمه الناصر وأعطاه إمرة مائة فارس، وأقطعه نصف نابلس وجينين، وعبثًا حاول " بيبرس " إقناع الناصر بالصمود أمام خطر التتار، ولما أصر الناصر يوسف على موقفه غضب منه المماليك البحرية ورحلوا إلى الملك المغيث عمر صاحب الكرك، وعرضوا عليه الاستيلاء على مصر، فاستجاب المغيث لطلبهم، ولكن انتهى الأمر بعودة المماليك البحرية إلى مصر وخاصة الظاهر " بيبرس " ودخلوا في طاعة

---

(1) الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد ابن الظاهر غازى ابن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، صاحب حلب ودمشق- وهو آخر ملوك بنى أيوب، وكان قد ورث الحكم في حلب عن أبيه عام 1236م وكان عمره ست سنوات إذ ذاك وأخذ دمشق عام 1250 م. المقريزي، السلوك، 366/1.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 410، .

(3) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 151.

السلطان المظفر قطز (1).

والحقيقة أن الملك الناصر قد جانبه الصواب حينما أقدم على هذه الخطوة التي أضرت بمصالحه قبل أن تضر بمصالح المسلمين، فكان الواجب عليه أن يقف إلى جوار المماليك فلا يعاديهم - على الأقل في هذه المحنة التترية - لأن عدوهم أصبح واحدًا، كما أنه - بفعلته هذه - وجد نفسه بين قوتين تبادلانه العداء، المماليك والمغول، وكان الأقرب والأفضل له أن يوحد جهود المسلمين ويتعاون مع المماليك ضد المغول.

ولم ينل الناصر يوسف مراده وأتت الرياح بما لا تشتهى السفن وبدلاً من أن يكسب ود ومساعدة " هولاكو " كسب عداوته، إذ إن " هولاكو " غضب من الرسالة والوفد الذى بعث به الناصر يوسف ورأى أنه لم يناسب مقامه، فأرسل إلى الملك الناصر رسالة يأمره فيها بالخضوع والتبعية دون قيد أو شرط هذا نصها:

" الذى يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالي، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز{ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾} [النمل: ٣٤]. واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم واستوجب منا العدم، وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال ولم يعبأ بالرجال، وكان قد نما ذكره وعظم قدره، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال:

إذا تم أمر دنا نقصه ::: توق زوالاً إذا قيل تم
إذا كنت في نعمة فارعها ::: فإن المعاصي تزيل النعم
وكم من فتى بات في نعمة ::: فلم يدر بالموت حتى هجم

إذا وقفت على كتابى هذا، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان

(1) المقريزي، السلوك، 1 /420 - 429.

الأرض شاهنشاه روى زمين [أى ملك الملوك على وجه الأرض] تأمن شره، وتنل خيره، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز:{ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾} [النجم: ٣٩ - ٤١]، ولا تعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بحريمهم إلى كروان سراى " الاسم التترى لمصر " فإن كانوا في الجبال نسفناها وإن كانوا في الأرض خسفناها.

أيـن النجـاة ولا منـاص لهـارب ::: ولى البسـيطان الثـرى والمـاء
ذلت لهيبتنـا الأسـود وأصـبحت ::: في قبضـتى الأمـراء والـوزراء [1]

وعندما أدرك الناصر أنه خسر احترام المسلمين ونصرة المغول في آن واحد، بعث برسالة عنيفة ملؤها السباب واللعن إلى " هولاكو "، الأمر الذى جعله يدفع ثمن السباب غاليًا عندما اقتحم أملاكه [2].

سلطنة قطز وعزل الملك المنصور عليّ:

وبينما كان " هولاكو " يجتاح أقاليم العالم الإسلامى الشرقية، كان نجم " سيف الدين قطز " يزداد سطوعًا وتزداد قامته السياسية طولاً، فقد كانت مصر آنذاك تحت حكم الملك المنصور على بن أيبك التركماني، وكان صغير السن ضعيف الشخصية، وكان قطز نائبه هو المشار إليه بديار مصر وله مكانة كبرى وبلغ شأوا عظيمًا، وصار الشخصية البارزة في البلاد، نتيجة لصغر سن السلطان الملك المنصور على من ناحية، ولكثرة أنصار وأتباع قطز من ناحية أخري.

وفى تلك الأثناء حدثت مأساة اجتياح المغول للعراق وسقوط بغداد في أيديهم سنة 656 هـ /1258 م، ثم الإنذار المرسل من " هولاكو " إلى الملك الناصر صلاح يوسف، وأخبار عبور التتار نهر الفرات لغزو بلاد الشام، كما أن الملك

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 410- 417، وكانت أفاعيل ووحشية التتار قد أقلقت الكثير من سكان الشام وأجبرت الكثير منهم إلى الفرار صوب مصر، وكان الوقت شتاء، فمات منهم عدد كبير، ونهب البدو أمتعة كثيرين. انظر: المقريزي، السلوك، 1 / 416.

(2) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 151، قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 59.

الناصر يوسف قد أفاق من غفوته وأرسل المؤرخ والفقيه المعروف " كمال الدين بن العديم " يستنجد بمصر وبعساكرها[1].

فلما قدم ابن العديم إلى القاهرة عقد مجلس بالقلعة حضره السلطان الصبى الملك المنصور نور الدين علي، وحضره كبار أهل الرأى من الفقهاء والقضاة مثل قاضى القضاة بدر الدين حسن السنجارى [2]، والشيخ عز الدين بن عبد السلام [3]، وكان " سيف الدين قطز " من بين الحاضرين، وسألهما الحاضرون

---

(1) المقريزي، السلوك، 419/1.

(2) بدر الدين حسن السنجارى قاضى القضاة أبو المحاسن يوسف بن الحسن الزرادي، كان صدرًا معظمًا جوادًا ممدحًا، ولى قضاء بعلبك وغيرها، ثم ولاه الملك الصالح نجم الدين أيوب مصر، والوجه القبلي، ثم ولى قضاء القضاة بعد شرف الدين بن عين الدولة، وباشر الوزارة، وكان له من الخيل والمماليك ما ليس لوزير مثله، ولم يزل في الارتفاع إلى أوائل الدولة الظاهرية، فعزل ولزم بيته. [اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، 202/2].

يقول النويرى عنه: مولده بسواد أربل في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وكان قاضيًا بسنجار، وكان له على السلطان الملك الصالح من الخدمة بسنجار، فلما ملك الملك الصالح دمشق ولاه قضاء بعلبك وأعمالها وقرر له معلومًا كثيرًا، وكان قد وصل في صحبته، ولما ملك الديار المصرية حضر إليه فأكرمه، وفوض إليه القضاء بمصر والوجه القبلي، ثم بالقاهرة والوجه البحري. وولى الوزارة في أيام الملك المنصور نور الدين بن الملك المعز، وكان، رحمه الله تعالى، مكينًا عند السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان الأمير فخر الدين بن الشيخ يكرهه، فكتب إلى السلطان الملك الصالح يذكر عنه أنه يأخذ من نوابه الأموال، ومن يعدله من الشهود، وأشباه ذلك، فأجابه السلطان في طرة كتابه: " يا أخى فخر الدين: للقاضى بدر الدين على حقوق عظيمة لا أقوم بشكرها، والذى وليناه قليل في حقه، وما قمت له بما يجب على من مكافئته "، فلم يعاوده الأمير فخر الدين في أمره، وبقيت هذه الورقة عنده في جملة أوراقه، فلما قتل وخلف بنتًا صغيرة، احتاط ديوان الأيتام على موجوده فوجدوا هذه الورقة فحملوها إلى القاضى بدر الدين، فأوقف الناس عليها، وكان رحمه الله تعالى، كريمًا كثير الاحتمال كثير المروءة، حسن العشرة، يقبل الاعتذار، ولا يكافئ على السيئة بمثلها، بل يحسن لمن ظهرت إساءته، ويبره بماله ويستميله بإحسانه، إلا أنه شهر عنه في ولاية القضاء قبول هدايا النواب، حتى قيل: إنه ربما كان قرر على كل منهم ما لا يحمله في كل مدة في مقابلة ولايته على قدر الولاية، وكذلك أيضًا من يقصد إنشاء عدالته حتى كثر المعدلون في أيامه، ووصل إلى العدالة من ليس من أهلها، ولما ولى قاضى القضاة تاج الدين أسقط كثيرًا من عدوله، ولقد جاء بعد ذلك زماننا وأدركت بقايا عدوله فكانوا أميز العدول وأجل الناس، ومنهم من ولى قضاء القضاة وبلغ، رحمه الله تعالى، خمسة وثمانين سنة وثلاثة أشهر، رحمه الله تعالى. نهاية الأرب في فنون الأدب، 8 /207.

(3) عز الدين بن عبد السلام:عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن، شيخ الإسلام وبقية

الأعلام، الشيخ عز الدين أبو محمد السلمي الدمشقي الشافعي. ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمس مائة وتوفى سنة ستين وست مائة. روى عنه الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد، والدمياطي، وأبو الحسين اليونيني وغيرهم، وتفقه على الإمام فخر الدين بن عساكر، وقرأ الأصول والعربية ودرس وأفتى وصنف، وبرع في المذهب وبلغ رتبة الاجتهاد، وقصده الطلبة من البلاد، وتخرج به أئمة، وله الفتاوى السديدة.

قال الذهبي في العبر: انتهت إليه معرفة المذهب، مع الزهد والورع، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقدم مصر، فأقام بها أكثر من عشرين سنة؛ ناشرًا العلم، آمرًا بالمعروف، ناهيًا للمنكر، يغلظ على الملوك فمن دونهم. ولما دخل مصر بالغ الشيخ زكى الدين المنذرى في الأدب معه، وامتنع من الإفتاء لأجله، وقال: كنا نفتى قبل حضوره، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه.

كان ناسكًا ورعًا أمارًا بالمعروف نهاء عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم، ولى خطابة دمشق بعد الدولعي، فلما تملك الصالح إسماعيل دمشق وأعطى الفرنج صفد والشقيف، نال ابن عبد السلام منه على المنبر وترك الدعاء له، فعزله وحبسه ثم أطلقه، فنزح إلى مصر، فلما قدمها تلقاه الصالح نجم الدين أيوب وبالغ في احترامه، واتفق موت قاضي القضاة شرف الدين ابن عين الدولة فولى بدر الدين السنجاري قضاء القاهرة، وولى عز الدين قضاء مصر والوجه القبلي مع خطابة جامع مصر. ثم إن بعض غلمان وزير الصالح، وهو معين الدين ابن الشيخ، بنى بنيانًا على سطح مسجد بمصر وجعل فيه طبلخاناه معين الدين، فأنكر عز الدين ذلك ومضى بجماعته وهدم البنيان، وعلم أن السلطان والوزير يغضبان، فأشهد عليه بإسقاط عدالة الوزير، وعزل نفسه عن القضاء، فعظم ذلك على السلطان، وقيل له: اعزله عن الخطابة وإلا شنع عليك على المنبر كما فعل في دمشق، فعزله.

وأرسل إليه السلطان لما مرض وقال: عين مناصبك لمن تريد من أولادك؟ فقال: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين ففوضت إليه بعده. ولما مات شهد الملك الظاهر جنازته والخلائق.

والناس يقولون في المثل: " ما أنت إلا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام ". ويقال إنه لما حضر بيعة الملك الظاهر قال له: يا ركن الدين أنا أعرفك مملوك البندقدار، فما بايعه حتى جاء من شهد له بالخروج عن رقه إلى الصلاح وعتقه رحمه الله تعالى ورضي عنه، ولما كان بدمشق سمع من الحنابلة أذى كثيرًا، وكان الشيخ عز الدين يكتب خطًا حسنًا قويًّا، وفيه يقول الشيخ جمال الدين أبو الحسين الجزار: الخفيف.

سار عبد العزيز في الحكم سيرًا ::: لم يسره سوى ابن عبد العزيز
عمنا حكمه بعدل بسيط ::: شامل للورى ولفظ وجيز.

ولما وقع له مع الملك الصالح إسماعيل بدمشق من الخلاف ما وقع، وعزله وألزمه داره- كما تقدم- فارق دمشق، وقصد البيت المقدس.

فوافاه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالغور، فأكرمه ونقله إلى الكرك. وقال له: تقيم عندى بهذا الحصن وأنا لا أخرج عن أمرك. فأقام عنده مدة يسيرة. ثم استأذنه في الخروج، فسأله عن موجب خروجه وكراهة مقامه.

عن أخذ الأموال من الناس لإنفاقها على الجنود فقال ابن عبد السلام: إذا لم يبق في بيت المال شيء أو أنفقتم الحوائض الذهب ونحوها من الزينة، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندى إلا فرسه التى يركبها، ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء. إلا أنه إذا دهم العدو، وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم، وانفضوا. فوجد الأمير " سيف الدين قطز " سبيلاً إلى القول، وأخذ ينكر على الملك المنصور وقال: لابد من سلطان ماهر قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبر المملكة. وكانت قد كثرت مفاسد الملك المنصور عليّ بن المعز أيبك، واستهتر في اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور. وطمع الأمير سيف الدين قطز في أخذ السلطنة لنفسه، وانتظر خروج الأمراء للصيد: فلما خرج الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير سيف الدين بهادر، وغيرهما من المعزية لرمى البندق - وكان يوم السبت رابع عشر ذي القعدة - قبض قطز على المنصور وعلى أخيه

فقيل: إنه قال له: هذا بلدٌ صغير، وأنا أحب الانتقال إلى بلدٍ أنشر به ما عندى من العلم.
فأذن له، وتوجه الشيخ إلى القدس، وأقام به. فجاء الملك الصالح إسماعيل بعساكره إلى القدس- وصحبته الفرنج- فأرسل إلى الشيخ بعض خواصه بمنديله، وقال له: ادفع إليه منديلى وتلطف به واستنزله، وعده بعوده إلى مناصبه. فإن أجاب، فأتني به. وإن خاشنك فاعتقله في خيمةٍ إلى جانب خيمتي.
فأتاه الرسول ولاطفه، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك، وتعود إلى ما كنت عليه وزيادة، أن تقبل يد السلطان. فقال له: والله ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلاً أن أقبل يده!! فقال: إنه قد رسم أن أعتقلك إذا لم توافق. فقال: افعلوا ما بدا لكم! فاعتقله في خيمةٍ إلى جانب خيمة السلطان.
وكان يقرأ القرآن والسلطان يسمعه، فقال يومًا لملوك الفرنج: تسمعون هذا الذى يقرأ؟ قالوا نعم: قال هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته لإنكاره على تسليمى لكم حصون المسلمين، وعزلته من الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته عن دمشق، فجاء إلى القدس. وقد جددت اعتقاله لأجلكم.
فقالوا له: لو كان هذا قسيسنا، لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها! ثم فارق الصالح القدس.
وقدم الشيخ إلى الديار المصرية. فأقبل عليه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأكرمه، وفوض إليه الخطابة والإمامة بجامع عمرو بن العاص بمصر، في يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الآخر، سنة تسع وثلاثين وستمائة، عوضًا عن أبى المجد الإخميمي، من مصنفاته: تفسير القرآن، القواعد الكبرى والصغرى توفى بمصر سنة 660 هـ.
الصفدي، الوافى بالوفيات، 186/1، السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، 101/1، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 8 /118.

قاقان وعلى أمهما، واعتقلهم في برج بقلعة الجبل. فكانت مدة المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام. جلس على سرير السلطنة بقلعة الجبل يوم السبت، الرابع والعشرين من ذى القعدة، سنة سبع وخمسين وستمائة [1].

موقعة عين جالوت:

وشرع قطز في ممارسة مهام عمله وكان عليه سرعة مجابهة الخطر المغولي، وكان أول خطوة في هذا الاتجاه أنه أجاب الملك الناصر يوسف صاحب الشام أنه سيقدم له العون والنجدة ولا يقعد عن مساعدته، حيث عاد ابن العديم يحمل الرسالة بذلك المعني، وبصحبته برهان الدين الخضر حاملاً جواب الملك المظفر قطز إلى الملك الناصر، إذ أخبره فيها بأنه يقبل كل عروضه عن طيب خاطر، ولا يقتصر على ذلك بل يعتبر الناصر أيضًا - بصفته سليل صلاح الدين - ملكًا على جميع الممالك التى خضعت لسلطان الأيوبيين ومنها مصر، ثم يضيف بأنه - أى قطز - ليس إلا أحد قادته على ضفاف النيل، وأنه يتعهد أن يعطيه السلطنة العليا إذا أراد القدوم إلى القاهرة، كما يعرض عليه أن يرسل له جيشه إلى دمشق ليجنبه عناء القدوم بنفسه إلى القاهرة، إذا كان يرتاب في صدق نواياه [2].

ثم إن المظفر قطز قد أقال عثرة المماليك البحرية الذين كانوا قد فروا إلى الشام ودخلوا في خدمة الملك الناصر صاحب الشام ثم انفضوا من حوله بعد محاولته التحالف مع التتار ضد المسلمين، حيث توجه الظاهر " بيبرس " إلى غزة، ومن هناك أرسل يطلب الأمان من " سيف الدين قطز "، الذى حلف له، ووعده الوعود الجميلة، ووصل مصر فعلاً، فأنزله الملك المظفر " سيف الدين قطز " بدار الوزارة وأحسن معاملته، ثم أقطعه قليوب ومناطق الريف المجاورة لها[3].

وفى وقت كان العالم الإسلامى في حاجة لتضافر الجهود لمواجهة الخطر

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 417، ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، 7/ 55.
(2) المقريزي، السلوك، 418/1، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، 208/3.
(3) المقريزي، السلوك، 419/1- 420.

المغولى نجد أن بعض الأمراء الأيوبيين في الشام يسارعون في الدخول تحت لواء التتار إما حرصًا على كيانهم، أو خوفًا على أنفسهم، ومن هؤلاء، الملك الأشرف موسى سليل أسد الدين شيركوه الذى لم يكن يملك في ذلك الوقت إلا قرية تل باشر الصغيرة قرب الرها، وكافأه " هولاكو " على ذلك بأن رد إليه إمارة حمص التى كان الناصر يوسف قد أخذها منه قبل ذلك باثنى عشر عامًا (646 هـ)، وجعله قائده العام في الشام [1].

أما الناصر يوسف فإنه خرج بجيوشه من دمشق ومعه مماليكه الناصرية والعزيزية، وعدة من المماليك البحرية، وعلى رأسهم الأمير " بيبرس " البندقدارى وخيم عند برزة - إلى الشمال قليلاً من دمشق - غير أن تعدد عناصر جيشه - الذى كان يضم جنود من العرب والعجم والتركمان غير أعداد كبيرة من المتطوعين - وقديم التنافر بين هذه العناصر فضلاً عن اختلاف قلوب أمرائه وتآمر مماليكه الناصرية على قتله، وخوف الأمراء من " هولاكو " وجنوده، فقد أخذ الأمير زين الدين الحافظى يعظم شأن " هولاكو " ويشير بألا يقاتل ويدارى بالدخول في طاعته. فصاح به " بيبرس " وسبه وضربه وقال: أنت سبب هلاك المسلمين، وسرعان ما جعل ذلك الجيش ينفضُّ من حول الملك الناصر [2] الذى لم يجد بُدًّا من ترك دمشق لتعانى مصيرها السيئ وتواجه المغول بمفردها - إذ لم يستطع وزيره زين الدين مصطفى من الحفاظ عليها وسرعان ما سلمها للمغول في مارس سنة 1260 م / 658 هـ، في حين لم تستطع حاميتها الصمود طويلاً أمام ضربات المغول وسلمت لهم في الثالث من يونيو 1260 م [3] - وتوجه بقواته إلى غزة حيث يكون قريبًا من النجدة التى

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 /432، 425، 438.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، 2 / 394.

(3) وإن كانت دمشق قد نجت من التخريب والتدمير بفضل وساطة أعيانها مما جعل المؤرخ أبو شامة- وكان حاضرًا احتلال المغول لدمشق- يقول في نهاية وصفه لهذا الغزو في كتابه " الذيل على الروضتين ": الحمد لله الذى عافانا مما ابتلى به غيرنا. انظر: أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 204.

وعده بها المظفر قطز سلطان مصر [(1)].

وفى خضم هذه الأحداث توفى " منكوخان " كبير المغول، فأسرع " هولاكو " بالعودة إلى بلاده للمشاركة في اختيار الخان الأعظم الجديد وكان " هولاكو " يأمل في تعيينه خاقانًا للمغول نظرًا لإنجازاته وفتوحاته المهمة، وفى الطريق وبينما هو في تبريز [(2)] علم باختيار أخيه " قوبيلاى " (1260 - 1294 م) خاقانًا جديدًا وأن الاختيار تقرر بصفة غير شرعية بوساطة أمراء مغول الشرق الأقصى، الذين أرادوا إجراء الانتخابات قبل مجيء أمراء الغرب، وكان ذلك منافيًا لقواعد الحكم التى قررها جنكيزخان، ومع ذلك تقبل " هولاكو " الأمر ببساطة واحترم سلطة أخيه " قوبيلاي "، ولكنه لم يرجع إلى قيادة الجيش الذى تركه ببلاد الشام تحت إمرة قائد تترى مسيحي، على المذهب النسطوري، هو كتبغا نوين [(3)].

أما الناصر يوسف فإنه لما رأى تخاذل جيشه وخوفه من مواجهة المغول وتفرقهم من حوله سار نحو الديار المصرية ونزل العريش ومنها إلى قطيا - قرية بين القنطرة والعريش في صحراء سيناء - لعله يجد فيها مأوى أو منجاة من المغول من ناحية، ومن المماليك من ناحية أخري، وذلك بعد أن تفرق عنه جنده وسبقوه إلى مصر ومعهم الأثقال، إلا أن الملك الناصر لما وصل قطيا تراجع وعاد خوفًا من الملك المظفر قطز صاحب مصر [(4)]، ونزل بوادى موسى - واد في جنوب بيت المقدس - ثم نزل مكان يسمى بركة زيزاء فأدركه

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 /419- 420، أبو الفداء، المختصر، 3 / 210- 211.

(2) حلت تبريز منذئذٍ محل بغداد في الجاه والثراء، وأصبحت هى قاعدة الحكم للعراق والشام. انظر، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 155.

(3) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 156، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 60.

(4) هناك رأى يقول: إن قطز لم يكن يخشى شيئًا خشيته من وصول أمير أيوبى على رأس قوة حربية إلى حدود مصر، ولذلك أغرى الكثير من أتباع وجنود ومماليك الملك الناصر وجذبهم إليه، مما جعل الملك الناصر يجد نفسه وحيدًا فريدًا توشك أن تتخطفه أيدى التتار.

التتار بها وهو في نفر قليل من أصحابه ومماليكه مما اضطره إلى الاستسلام لهم، وحمل إلى " هولاكو " ولقيه لقاءً طيبًا ووعده برده إلى مملكته الأيوبية الممتدة من أطراف الشام إلى النوبة ومن برقة إلى الفرات، كما وعده بأنه سوف يجعل له السيادة الفعلية على كل هذه البلاد بشرط الإعتراف بسلطان المغول وسيادة الخان الأكبر، وأقام الناصر وولده العزيز عند التتار على أمل أن يعيدهم " هولاكو " ألى ملكهم مرة أخري، إلا أن هزيمة التتار وانكسارهم وقتل كتبغا في موقعة " عين جالوت " تلك الهزيمة التى قضت على كل أحلام " هولاكو " دفعته إلى قتل الناصر وأخيه ومن معه ولم ينج من ذلك إلا ابنه وذلك في ذى القعدة عام 659 هـ / 1260 م [1].

في تلك الأثناء كان السلطان " سيف الدين قطز " قد رجع إلى قلعة الجبل ليواصل التصفيات ضد خصومه السياسيين فقبض على الأمير جمال الدين موسى بن يغمور واعتقله بقلعة الجبل، كما أنه صادر ممتلكات كل من وفد على القاهرة من حاشية الملك الناصر يوسف، وألزم زوجة الملك الناصر بإحضار ما عندها من الجواهر، فأخذ منها جواهر كثيرة[2].

وتتابعت الأحداث حيث بدأ " هولاكو " يعد العدة للهجوم على بيت المقدس وغزو البلاد المصرية، ولم يعد قانعًا بما استولى عليه في الشام، فأرسل رسله إلى مصر بكتاب كله تهديد ووعيد وإنذار بالويل والثبور وعظائم الأمور لسلطان مصر المملوكى إن هو لم يخضع له ويعترف بسلطان المغول، جاء فيها:... باسمك اللهم باسط الأرض، ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بإنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 156، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 60.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 227، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 60.

الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر أ فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكي، ولا نرق لمن شكي، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأى أرض تأويكم، وأى طريق تنجيكم، وأى بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عند كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا و لأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أنا نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل.

فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمى نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاها ولا عزا، ولا كافيا ولا حرزا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقى لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشى عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى:

ألا قل لمصر ها هلاوون [1] قد أتى ::: بحد سيوف تنتضى وبواتر

---

(1) صيغة لاسم " هولاكو " ترد كثيرًا في كتب المؤرخين المعاصرين.

يصـــير أعـــز القـــوم منـــها أذلـــة ::: ويلحق أطفالا لـــهم بالأكـــابر (2)

أخذ السلطان يجمع الرجال والأموال والسلاح ويستعد لصد المغول، وأدرك أن مهمته على جانب كبير من الخطورة، فالشعب الذى سيواجه به المغول قد استولت عليه الرهبة واستبد به الخوف من هول ما سمعه عن فظائع المغول ووحشيتهم وسفكهم للدماء وتخريبهم للديار، فضعفت روحه المعنوية عن الجرأة على الوقوف في مهب هذا الإعصار المهلك.

ولم يوهن من عزم قطز أو يضعف من تصميمه على الخروج لمنازلة المغول ما سمعه من أقوال المرجفين، ولم يأبه بما احتج به الداعون إلى الانتظار داخل الحدود المصرية حتى يدخل إليها المغول، ونادى بالنفير العام للجهاد في سبيل الله ودَرَّب المتطوعين على فنون القتال في وقت قصير جدًّا ولم يكد ينتهي من مهمته حتى اقترب المغول بقيادة كتبغا من حدود مصر.

فلما تسلم السلطان المظفر قطز الرسالة (الإنذار) جمع الأمراء، واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية: فَقُبِضَ على الرسل واعْتُقِلُوا وشرع في تحليف من تخيره من الأمراء، وأمر بالمسير، والأمراء غير راضين بالخروج كراهة في لقاء التتر.

يقول المقريزي:

فلما كان يوم الاثنين خامس عشر شعبان: خرج الملك المظفر بجميع عسكر مصر، ومن انضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم، من قلعة الجبل يريد الصالحية.

وفيه أحضر قطز رسل التتر، وكانوا أربعة، فوسط واحدًا بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية، وعلقت رؤوسهم على باب زويلة، وهذه الرؤوس أول رؤوس علقت على باب زويلة من التتار. وأبقى الملك المظفر على صبى من

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 427- 428، القلقشندي، صبح الأعشى، 8 /63- 64.

الرسل، وجعله من جملة مماليكه.

ونودى في القاهرة ومصر، وسائر إقليم مصر، بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله ﷺ.

وتقدم الملك المظفر لسائر الولاة بإزعاج الأجناد في الخروج للسفر، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع. وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنده العسكر، فطلب الأمراء وتكلم معهم في الرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل. فقال لهم: يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته. فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين. فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلفهم في موافقته على المسير، فلم يسع البقية إلا الموافقة، وانفض الجمع.

فلما كان في الليل ركب السلطان، وحرك كوساته وقال: أنا ألقى التتار بنفسي، فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره. وأمر الملك قطز الأمير ركن الدين " بيبرس " البندقدارى أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار التتر، فسار " بيبرس " إلى غزة وبها جموع التتر، فرحلوا عند نزوله، وملك هو غزة.

ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها يومًا، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذٍ الفرنج، فخرجوا إليه بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة، فشكرهم وأخلع عليهم، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر.

وأمر الملك المظفر بالأمراء فجمعوا وحضهم على قتال التتر، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبى والحريق، وخوفهم وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبة الله. فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد. فأمر السلطان

حينئذ أن يسير الأمير ركن الدين " بيبرس " البندقدارى بقطعة من العسكر، فسار حتى لقى طليعة التتر. فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك. وأخذ في مناوشتهم، فتارة يقدم وتارة يحجم، إلى أن وافاه السلطان على " عين جالوت " وكان كتبغا وبيدرا نائبى " هولاكو "، لما بلغهما مسير العساكر المصرية، جمعا من تفرق من التتر في بلاد الشام، وسارا يريدان محاربة المسلمين، فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر وكسرتها[1].

اتجه السلطان قطز على رأس جيش كثير العدد إلى بلاد الشام في أوائل رمضان سنة 658هـ، وكانت الخطة التى رسمها هى أن يقابل المغول في أرض الشام، وألا ينتظر قدومهم إلى مصر، وكان يهدف من وراء ذلك إلى أمرين:

الأول: انتهاز فرصة البدء بالقتال التى كان المغول يحرصون على انتهازها أولاً ليضعفوا الروح المعنوية في نفوس أعدائهم.

الثاني: لقاء المغول خارج أرض مصر حتى لا تكون ميدانا للحروب وعرضة للتدمير والتخريب.

وقد أرسل السلطان أمام قواته طليعة من الفرسان بقيادة ركن الدين " بيبرس " وعند بلدة الصالحية [2]، انضمت الكتائب الشامية التى كانت قد جاءت إلى مصر فارة من وجه المغول إلى الجيوش المصرية.

وصلت طلائع الجيوش المصرية إلى غزة وأرغمت المغول على التخلى عنها، ودخلها الأمير " بيبرس " على رأس فرسانه، ولم يكن المغول يتوقعون أن يصل المصريون إليهم بهذه السرعة، فلما رأوا الجحافل الإسلامية قد ملأت السهول والأودية اضطروا إلى إخلاء جنوب الشام وأشار بعض ضباطهم على

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 /427.

(2) الصالحية: إحدى قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية بالوجه البحرى بمصر أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام 644هـ.

قائدهم كتبغا نوين بطلب النجدة من السلطان " هولاكو " ولكنه اغتر بقواته وخدع بانتصاراته السابقة ولم يعمل بمشورتهم.

سارت الجيوش الإسلامية من غزة متجهة إلى الشمال ومحاذية ساحل البحر الأبيض ومرت بيافا وقيسارية إلى جبل الكرمل جنوب حيفا وعند قرية " " عين جالوت " " الواقعة بين بيسان ونابلس دارت المعركة الفاصلة بين الجيش الإسلامى وجيش المغول في 25 من رمضان سنة 658هـ.

بدأت المعركة بهجوم عنيف من المغول، فتراجعت ميْسَرَة الجيش الإسلامى وإذا بنداء يدوى في ساحة المعركة (وا إسلاماه وا إسلاماه وا إسلاماه) فاتجهت الأنظار إلى مصدر الصوت فإذا المنادى هو السلطان نفسه فالتهب حماس الجيش وعادت الميسرة إلى مكانها الأول، وحمل الجيش الإسلامى حملة صادقة على جيش المغول حتى هزمهم هزيمة ساحقة ومزقهم شرّ ممزق وخرّ قائدهم كتبغا نوين صريعًا في الميدان، واعتصمت طائفة منهم بالتل المجاور لمكان الموقعة، فأحدقت بهم العساكر المسلمة وصابروهم على القتال حتى قتلوا معظمهم وفرّ الباقون لا يلوون على شيء وقتل الأهالى الموتورون من المغول من وقع في أيديهم من هؤلاء الفارين[1].

وبعد انتهاء الموقعة اتجه السلطان قطز إلى دمشق، فقوبل بحفاوة بالغة من أهلها، لأنه صدّ هذه الموجة العاتية التى اجتاحت بلادهم، وأنزلت بهم صنوف البلايا، وقد أمر السلطان بشنق الذين تعاونوا مع المغول وعيّن حاكمًا على دمشق من قبله [2] يقول العيني:

ولما فرغ السلطان، وصفا باله، واستقام حاله، عاد إلى دمشق، والأسرى تساق قدامه في الكبول، وقد حمل ما نهب لهم من القسى والسناجق والطبول، وكان دخوله دمشق يوم الجمعة الثانى والعشرين من رجب من هذه السنة، فدخلها

---

(1) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج7 ص79، 80.

(2) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج2 ص206- 207.

ونزل في القلعة مؤيدًا، منصورًا، وكان أعظم الأيام قدرًا، وأطرها عند الأنام نشرًا، وأظهرها في وجه الزمان بشرًا، بهذه النصرة العظيمة، والنظرة الوسيمة، والكسرة التى لم يرى مثلها في الأزمان القديمة، فإن جيش التتار لم يجز هذه الديار بمثل هذا الإكثار، ولا قصدها قبل هذه المدة في بعض هذه العدّة (1).

قال القاضى فتح الدين محمد بن عبد الظاهر، كاتب السرّ المنصور، وناظر ديوان الإنشاء المعمور يذكر الواقعة بقصيدة جامعة لأحوالها، وهي:

الله أعطاك لا زيد ولا عمرو ::: هذا العطاء وهذا الفتح والنصر
هذا المقام الذى لو لم تحل به ::: لم يبق والله لا شام ولا مصر
من ذا الذى يلقى ذا العدوّ وكذا ::: أو يدرع لأمة ما لامها الصبر
يا أيها الملك المنصور قد كسرت ::: جنودك المغل كسرا ما له جبر
وأستأصلوا شأفة الأعداء ::: وانتصروا لما ثبتّ وزال الخوف والذعر
يا عزمةً ما رأى الراؤون مشبهها ::: ووقفةً سار في الدنيا لها ذكر
لما بغى جيش أبغا في تجاسره ::: ولن يمدّ له إلا القنا جسر
واستجمع المغل والتكفور واتفقوا ::: مع الفرنج ومن أردى به الكفر
جاءت ثمانون ألفًا من بعوثهم ::: لأرض حمص فكان البعث والنشر
وافى الخميسان في يوم الخميس ضحي ::: وامتدّت الحرب حتى أذن العصر
والسيف يركع والأعلام رافعة ::: والروس تسجد لا عجب ولا كبر
والخيل لا تغتدى إلا على جثث ::: والسهل من أرؤس القتلى به وعر
والبيض تغمد في الأجفان من مهج ::: والسمر ناهيك عما تفعل السمر
فجاء في رجب عيدان من عجب ::: للسيف والرمح وهذا الفطر والنحر
فكان أسلمهم من أسلموه لأن ::: يقوده القيد أو يسرى به الأسر
وراج فارسهم تراوح راجلهم ::: تنتابه الوحش أو ينبو به القفر
فما وعى منهم واع رعيته ::: ولا ارعوى لهم من روعة فكر
وكان يوم الخميس النصف من رجب ::: عام الثمانين هذا الفتح والنصر
وعاد سلطاننا المنصور منتصرًا ::: فالحمد لله تم الحمد والشكر

(1) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 182/1.

وقال القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر، والده، من أبيات يصف فيها السلطان وحسن بلائه، وجميل أثره، وجزيل غنائه:

لله في حمص مقام قامه ::: والنار من بين الأسنّة توهج
والناس قد فرّوا فلا متريّث ::: والخلق قد هربوا فليس معرّج
وهناك من تجد الملائك عصبة ::: جاءته للنصر المبين تروّج
وهناك خالد قد أجار نزيله ::: ونزيل خالد ليس ممن يزعج
فثنى العنان وما انثنى حتى بدا ::: للدين من أمر الأعادى مخرج
ملك به ردّ العدا لو أنهم ::: مما سبى أولادهم لم ينتجوا
البحر لولا أنه من كفه ::: ما كان منه جوهر يستخرج
والصبح لولا أنه من شهيه ::: ما فات ركض البرق منه يهملج
والليل لولا أنه من دهمه ::: ما كان بالشهب الثواقب يسرج
والنصر لولا أنه من سيفه ::: ما كان كرب في الوجود يفرّج
والروض لولا أنه في كتبه ::: ما هبّ في الآفاق منه تأرّج
والسحب لولا أنها من جوده ::: ما كان منها كل صدر يثلج
والنار لولا أنها من سخطه ::: ما أحرق الأعداء منه تأجّج
فلمدحه ما حاكه ذو فكرة ::: ولرمحه من نثره ما ينسج
يرضيك من فوق السوانح أروع ::: منه ومن تحت التريكة أبلج

وقال ناصر الدين حسن بن النقيب أحمد الكنانية، وكان مبرزًا في الفنون الأدبية والشعرية بذكر هذه النصرة المنصورية:

هى النعمة الكبرى هى النصرة العظمى ::: هى اللفظ والمعنى هى البشر والبشرى
هى المطلب الأسنى هى المنحة التي ::: لقد شرفت قدرًا وقد عظمت ذكرًا
هى الوقعة الصماء والحطمة التي ::: بها انكسر الفكر الذى لم يجد جبرًا
هى الفتك بالأعداء والظفر الذي ::: شفى القلب من أبغا وقد أثلج الصدرا
وأمكن من صمغار حد سيوفا ::: فخر إلى الأذقان لا ساجدًا شكرا
ونكس أعلامًا وفلّ كنانيا ::: لمنكوتمر كالأسد في الحرب بل أضرا
فلما رأوه قد تقطر قاتلوا ::: عليه قتالاً قطّع البيض والسمرا
فلما نجا منها وركب طرفه ::: تولى وخلّى الابن والأب والصهرا

وراح ثخينــا بــالجراح مصــبرّا ::: يئن ويشكو من هضاضــاتها ضــرّا
فلله منا الحمــد والشــكر دائمًــا ::: فقد أَصَّل الإسلام واستأصل الكفرا
فقــل لــرؤوس المغــل إن قلاونــا ::: هو السيف ضرابا لأعنــاقكم قهــرا
هو الملــك المنصــور والله خــاذلٌ ::: لأعدائه خــذلانا وناصــره نصــرًا
هو المقدم الكرار في حومة الــوغى ::: إذا أحجم الأبطال وامتلؤوا ذعــرا
هو الأسد العادى على أنفس العــدا ::: هو القمر الهادى إذا أظلــم المســرا
هو القائد الجيش العرمــرم خلفــه ::: إلى الفان في موغان يطلبــه جهــرا
عساكر ملء الأرض من كل جهــةٍ ::: تجمعن حتى فات العــدّ والحصــرا
تخيــل رائيهــا القيامــة مثلــت ::: لعينيه في دنياه والعــرض والحشــرا
فلم ينج منها الوحش عنــد إثــارة ::: ولا الطير في جو الســماء إذا مــرا
فقــل للتتــار العــادمين عقــولهم ::: نسيتم سيوف الترك تضربكم هــبرا
وكم كسر وكم مــرةً بعــد مــرة ::: فما حصروا القتلى ولا استرعبوا الأسرا
وقد زاركم أبغا مــن بعــد قــتلكم ::: فأجرى عليكم من مدامعــه جمــرا
وأكــبر مــرأى هالــه بســماعه ::: ففــر إلى تــوريز يجعلــها ظهــرا
ولو حلّ في غمدان يبغــى تحصــنا ::: لما استطاع أن يقــيم فيــه ولا فــرّا
وأنتم بسيف الدين أخبر في الــوغى ::: فذلك همام قد أحطــتم بــه خــبرا
ولم يخفكــم حملاتــه ولطالمــا ::: أذاقكم المــران مــن طعنــه المــرا
أأنسيتم في عين جالوت مــا جــرى ::: وفى العين قد أجرى دمــاءكم نهــرا
أما كان في يــوم الفــرات إلــيكم ::: مقدمة الجيش الذى عــبر البحــرا
أما كــان في يــوم البلســتين أولاً ::: أعيــنكم ترنــو إلى نحــوه شــزرا
فما أطرفت أجفانكم أوقضى الردى ::: عليكم وأمضى حدّه فــيكم الأمــرا
وفى الملتقى ما بــين حمــص وحمــاة ::: تلقاكم السيف الذى يقطع العمــرا
فداســكم مــن خيلــه بحــوافر ::: حفرن لكم في كل جلمــوده قــبرًا
وكم لكم في الذئب والنسر مــدفن ::: فنوحوا إذا أبصرتم الذئب والنســرا
أغركم من صاحب الســيس قولــه ::: فكم غرّ بالقول المحال وكــم أغــرا
وقد وعدنــه التــرك أن ســتزوره ::: ولو أن أرض السيس مفروشة جمــرا
وأنتم فــأدرى الوعــود بصــدقهم ::: فما أخلفوا قولاً ولا اختلقوا غدرا [1]

وفى هذه النصرة، وقدوم الملك المظفر قطز إلى الشام يقول بعض الشعراء:

هلــك الكفــر في الشــام جميعًــا ::: واستجد الإســلام بعــد دحوضــه
بالملــك المظفــر البطــل الأر ::: وع سيف الإســلام عنــد نهوضــه
ملــك جاءنــا بعــزم وحــزم ::: فاعتززنــا بســمره وبيضــه
أوجــب الله شــكر ذاك علينــا ::: دائمًــا مثــل واجبــات فروضــه

وقال جمال الدين بن مصعب:

إن يــوم الحمــراء يــوم عجيــب ::: بين مصــر تركــى يجــود بنفســه
بالشــام بــددهم وفــرق شملــهم ::: ولكل شــيء آفــة مــن جنســه
دار كــاس المنــون لمــا مزجنــا ::: عــين جــالوت بالــدما للســقاة
يا لهــا جمعــة غــدا الكفــر فيهــا ::: مســجدًا للســيوف لا للصــلاة

وقال شهاب الدين أبو شامة:

غلب التتار على الــبلاد فجــاءهم ::: فيــه ولى جــيش الطغــاة البغــاة
دار كــأس المنــون لمــا مزجنــا ::: عــين جــالوت بالــدما للســقاة

ثم أعطى الملك المظفر قطز دستورًا للملك المنصور صاحب حماة، فقدم الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل ووصلا إلى حماة، ولما استقر الملك المنصور بحماة قبض على جماعة كانوا مع التتار فاعتقلهم.

وهنأ الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ الملك المنصور بهذا النصر العظيم وبعود المعزة بقصيدة منها قوله:

رعت العدا فضمنت تــل عروشــها ::: ولقيتــها فأخــذت تــل جيوشــها
نازلــت أمــلاك التتــار فأنزلــت ::: عن فحلها قسرًا وعــن أكديشــها
فغدا لســيفك في رقــاب كماتهــا ::: حصدُ المناجل في يبــيس حشيشــها
فقْتَ الملوك ببــذل مــا تحويــه إذ ::: ختمت خزائنــها علــى منقوشــها

ومنها:

وطويت عن مصر فســيح مراحــل ::: ما بــين بركتــها وبــين عريشــها

---

(1) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 183/1.

حتى حفظت على العبـــاد بلادهـــا	:::	من رومها الأقصـــى إلى أحبوشـــها
فرشت حماة لوطئ نعلـــك خـــدَّها	:::	فوطيتُ عين الشمس من مفروشـــها
وضربت ســـكتها الـــتى أخلصـــتها	:::	عما يشوب النقد مـــن مغشوشـــها
وكذا المعـــزة إذ ملكـــت قيادهـــا	:::	دهشت سرورًا ســـار في مدهوشـــها
لا زالت تـــنعش بـــالنوال فقيرهـــا	:::	وتنال أقصى الأجر مـــن منعوشـــها
طربـــت برجعتـــها إليـــك كأنمـــا	:::	سكرت بخمرة جاشها أوجَيشـــها [1]

وأمر السلطان المظفر قطز بعمارة ما خربه التتر من قلاع الشام: وهى قلعة دمشق، وقلعة الضلت، وقلعة عجلون، وقلعة صرخد، وقلعة بصرى وقلعة شيزر، وقلعة الصبيبة، وقلعة شميميش وقلعة حمص. فعمرت كلها ونظفت خنادقها، ووسعت أبراجها وشحنت بالعدد، وجرد إليها المماليك والأجناد، وخزنت بها الغلات والأزواد وحملت كثيرة إلى دمشق، وفرقت في البلاد لتصير تقاوى الفلاحين. ورتب السلطان بدمشق بعدل، وبنى مشهدًا في " عين جالوت " عرف بمشهد النصر.

ورتب السلطان البريد في سائر الطرقات، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق في أربعة أيام ويعود في مثلها، فصارت أخبار الممالك ترد إليه في كل جمعة مرتين، ويتحكم في سائر المماليك من العزل وهو مقيم بقلعة الجبل، وأنفق في ذلك مالاً عظيمًا حتى تم ترتيبه. ونظر في أمر الشوانى الحربية، وكان قد أهمل أمر الأسطول بمصر وأخذ الأمراء رجاله واستعملوهم في الحراريق وغيرها، فأعادهم إلى ما كانوا عليه في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب. وأنشأ عدة شوانى بثغرى دمياط والإسكندرية، ونزل بنفسه إلى دار الصناعة ورتب ما يجب ترتيبه، وتكامل عنده ببر مصر ما ينيف على أربعين قطعة وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد ونحوها[2].

أما " بيبرس " فإنه تعقب المنهزمين من المغول حتى كاد أن يلحق بهم على

---

(1) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 62/1.
(2) المقريزي، السلوك، 1 /427.

مقربة من مدينة حلب، ولكنهم أطلقوا من كان في أيديهم من الأسرى، وتركوا أولادهم وأسرعوا خفافًا حتى لا يلحق بهم، فتخطف الناس أولادهم ودانت حلب بالطاعة لسلطان مصر.

بقى أن نقول:

إن التاريخ الإسلامى يُذكرنا أنه حين انعقدت آصرة العقيدة في نفوس المسلمين تحطمت الهجمات الصليبية عليهم، فالقادة الذين نسوا الانتماءات العرقية ووشائج الدم والأرض والقوم قادوا المسلمين إلى النصر، ومن أولئك صلاح الدين الأيوبى الكردى وتوران شاه، و" سيف الدين قطز " والظاهر " بيبرس "، وغيرهم كثير. إن هذه القيادات نسيت القوم والأرض وتمسكت بالعقيدة، فانتصرت تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ولآصرة التجمع الأساسية في المجتمع الإسلامى حكمة ربانية بالغة ومن ثم فهى عقلية وعلمية يقول الأستاذ/سيد قطب: حين تكون آصرة التجمع الأساسية في مجتمع ما هى العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة فإنه يكون ذلك ممثلاً لأعلى ما في إنسانية الإنسان من خصائص، أما حين تكون آصرة التجمع في مجتمع ما هى الجنس واللون والقوم والأرض وما إلى ذلك من روابط، فإنها كلها لا تمثل الخصائص العليا للإنسان.

والخلاصة أن المجتمع الذى يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتى الموافق لما شرعه مولاهم المتحضر والمجتمع الذى يجتمع فيه الناس على أمر خارج عن إرادتهم الإنسانية فهو المجتمع المتخلف، وفى المصطلح الإسلامى يطلق عليه المجتمع الجاهلي.

لقد مرت على المسلمين فترات مظلمة - كهذه الفترة أو أشد - مستهم فيها البأساء والضراء وزلزلوا، فحينما اجتاح التتار العالم الإسلامي، ضج السهل والجبل من كثرة ما أريق من دماء المسلمين، وأشفق المؤرخون من هول ذكره، وبلغ الذل بالناس إلى الحد الذى جعل الجندى الأعزل من المغول، يأمر

الرجل، فيضع خده وعنقه على الأرض، ثم يأمره أن يظل على هذه الحال، بلا حراك، ومن غير ما حارس يحرسه، حتى يذهب هذا ويحضر سلاحًا يحتز به رقبته!!.

وفى كل مرة زحف - ويزحف - فيها التتار والمغول وأشباههم؛ يعملون على قذف الرعب، واستلال روح المقاومة من النفوس، ولم يوقف زحف المغول الأصفر إلا هتاف: " وا إسلاماه "، الذى تردد مرة في بطاح " عين جالوت ".

ولن يوقف المغول والتتار والصليبيين الجدد واليهود، ومن في حكمهم، إلا مثل هذا الهتاف: " واإسلاماه ".

لو قدر للمغول أن ينتصروا في موقعة " عين جالوت " لانسابوا في مصر كالسيل الجارف ولامتدت موجتهم إلى السودان وبلاد المغرب وعبرت إلى الأندلس، واجتاحت أوروبا وقضت على الحضارة الإسلامية والمسيحية على السواء لذلك تعتبر هذه الموقعة من أهم المواقع الفاصلة في التاريخ؛ لأنها أنقذت العالم الإسلامى من شر مستطير وأطفأت هذه الصاعقة المهلكة التى كادت أن تقضى على حضارة العالم ومدنيته.

علاقة المغول بالمماليك بعد موقعة عين جالوت:

كانت علاقة المغول بالمماليك بعد موقعة " عين جالوت " عدائية تارة، وودية تارة أخرى وكان أشد خطر هُدِّدَت به مصر من جانب المغول في عهد سلطانهم " تيمور لنك " الذى نظم جموع المغول، واتجه على رأسها نحو الغرب وأعاد سيطرة المغول على بغداد 795هـ.

وفى 803هـ انقض على بلاد الشام انقضاض الصاعقة واستباح مدينة حلب ثلاثة أيام وقتل من سكانها نحو عشرين ألفًا وخرّب مساجدها ثم اجتاح مدن حماة وحمص وبعلبك وعاث فيها فسادًا.

وصلت أخبار هذه الطائفة المغولية المدمرة إلى القاهرة، فخرج السلطان الناصر فرج بن برقوق منها على رأس جيشه متجهًا نحو الشام، ووصل إلى

دمشق في جمادى الأولى من السنة نفسها واشتبك الجيش الإسلامى مع جيش المغول في معارك جزئية ثبت فيها الجيش الإسلامى أمام هجمات المغول الشديدة وبرهن على مقدرته الحربية.

ثم بدأت مفاوضات الصلح بين الطرفين غير أن السلطان فرج اضطر إلى مغادرة الشام لإحباط مؤامرة في مصر دبرت لخلعه، فرأى علماء دمشق وفقهاؤها ومعهم ابن خلدون المؤرخ العربى المشهور، رأوا أنه لامناص من التماس الأمان والصلح مع " تيمور لنك " فتظاهر بإجابة ملتمسهم، ولكنه غدر بهم وأسلم المدينة للنيران [1].

وبعد أن عاد الناصر فرج إلى القاهرة أرسل رسالة شديدة اللهجة إلى " تيمور لنك " يخبره فيها أنه عائد إلى الشام ليطرده منها وأنه لم يترك الميدان خوفًا منه ولا ضعفًا عن منازلته ولكن أمورا داخلية اضطرته إلى الرجوع إلى عاصمة ملكه، وأنه سوف يعود إلى ميدان القتال بمجرد انتهاء مهمته في القاهرة.

وقد أشعلت هذه الرسالة نار الحقد في نفس " تيمور لنك "، فصمم على الانتقام.

ولكنه غادر الشام قبل أن ينفذ ما صمم عليه، ولا يستبعد المستشرق الألمانى (بروكلمان) أن يكون " تيمور لنك " قد تذكر بطولة جيش مصر في مقاومة جيش " هولاكو " وسحقه، فأراد ألا يعرض جيشه لما تعرض له جيش المغول على عهد " هولاكو " [2].

وقبل أن يغادر " تيمور لنك " دمشق نقل صفوة علمائها ونخبة من صناعها وأهل الفن فيها إلى عاصمته (سمرقند) فبدأت الصناعات الدقيقة والفنون الجميلة تزدهر هناك، وانحطت الصناعة في دمشق، وندرت الفنون الجميلة.

ولم يقدر لتيمورلنك أن يعود إلى بلاد الشام مرة أخرى؛ فقد أمضى العامين

---

(1) ابن عرب شاه، عجائب المقدور في أخبار تيمور ص102 وما يليها.

(2) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية (الترجمة العربية) ج3 ص30.

التاليين في غزو آسيا الصغرى، وتمكن من هزيمة السلطان العثمانى با يزيد الأول، وأسره وشغل بذلك عن مهاجمة الشام، ولم تمهله المنية حتى يحقق هذه الأمنية حيث توفى سنة 807 هـ وبعد موته ضعف جانب المغول، ولم يعد يخشى على البلاد الإسلامية منهم، بل هدى الله سبحانه وتعالى الأجيال التالية منهم إلى الإسلام وجعلهم أنصارًا له.

{وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ} [التوبة: ٣٢].

مقتل المظفر قطز:

بالرغم من أن الخطر المغولى قد وحد صفوف المسلمين لمواجهته حينًا من الدهر، إلا أن زوال هذا الخطر قد أعاد الخلافات إلى صفوف المسلمين إلى سابق عهدها، وعلى ما يبدو أن المماليك البحرية لم يغفروا للمظفر قطز قتله أستاذهم أقطاى فبدؤوا - بعد زوال خطر المغول - يفكرون جديًّا في الأخذ بالثأر من المظفر قطز، يقول ابن خلدون: " إن البحرية من حين مقتل أميرهم اقطاى الجامدار يتحينون لأخذ ثاره وكان قطز هو الذى تولى قتله فكان مستريبًا بهم ولما سار إلى التتر ذهل كل منهم عن شأنه وجاء البحرية من القفر هاربين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لأنفسهم من السلطان قطز أحوج ما كان إلى أمثالهم من المدافعة عن الإسلام وأهله فأمنهم واشتمل عليهم وشهدوا معه واقعة التتر على " عين جالوت "، وأبلوا فيها وكانوا المقدمين فيها، وفيهم يومئذٍ " بيبرس " البندقدارى وأنز الأصبهانى وبليان الرشيدى وبكتون الجوكندارى وبندوغار التركي، فلما انهزم التتر من الشام واستولوا عليه وحسر ذلك المد وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من الترصد لثأر أقطاى... [(1)].

وكان " بيبرس " البندقدارى قد أبدى شجاعة نادرة في قتال التتار في " عين جالوت "، لا تقل عن شجاعة السلطان المظفر قطز نفسه، وكان يطمع في نيابة

(1) تاريخ ابن خلدون، 5 / 380.

حلب، وطلبها بالفعل من المظفر قطز، الذى وعده بها، ولكنه عاد وحنث بوعده وضن عليه بها.

يقول الذهبي: " ودخل السلطان الملك المظفّر القلعة مؤيدًا منصورًا، وأحبّه الخلْق غاية المحبَّة. وعبر قبله البُنْدُقْدارى على دمشق، وسار وراء التتر إلى بلاد حلب، وطردهم عن البلاد. ووعده السّلطان بحلب، ثمّ رجع عن ذلك فتأثّر رُكْن الدّين البُنْدُقْدارى من ذلك. وكان مبدأ الوحشة [1].

هذا الأمر جعل " بيبرس " يتنكر له، واتفق مع جماعة من الأمراء على قتله وظل يترقب الفرصة لتنفيذ غرضه، ثم وافته الفرصة أثناء عودة السلطان إلى مصر وخروجه للصيد بالقرب من الصالحية.

وبالرغم من أن قطز قد شعر بما يحاك ضده إلا أن سيف القدر كان أسرع من أن يأخذ حذره، يقول الذهبي: ونقل الصّاحب عزّ الدّين بن شدّاد أنّ المظفَّر لمّا ملك دمشق عَزَم على التَّوجُّه إلى حلب لينظّف آثار التّتار من البلاد، فوشى إليه واشٍ أنّ رُكْن الدّين البندُقْدارى قد تنكّر له وتغيّر عليه: وأنّه عاملٌ عليك. فصرف وجهه عن قصْده، وعَزَم على التَّوجُّه إلى مصر، وقد أضمر الشّرّ للبُنْدُقْداريّ. وأسرَّ ذلك إلى بعض خواصه، فاطَّلع على ذلك البندُقْداري... ثم ساروا والحُقُود ظاهرة في العيون والخُدود، وكلّ منهما متحِّرس من الآخر. إلى أن أجمع ركن الدّين البُنْدُقْدارى على قتل المظفَّر... [2].

قال أبو المحاسن:

ثم إن الملك المظفر قطز رتب أمور الشام واستناب بدمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبى الكبير. ثم خرج المظفر من دمشق عائدًا إلى مصر إلى أن وصل إلى القصير، وبقى بينه وبين الصالحية مرحلة واحدة،

---

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام، 470/1.

(2) الذهبي، تاريخ الإسلام، 471/1- 473.

ورحلت العساكر إلى جهة الصالحية وضرب الدهليز السلطانى بها وبقى المظفر مع بعض خواصه وأمرائه، وكان جماعة قد اتفقوا مع الأمير " بيبرس " البندقدارى على قتل الملك المظفر: منهم الأمير سيف الدين أنص من مماليك نجم الدين الرومى الصالحي، وعلم الدين سنجر، وسيف الدين بلبان الهارونى وغيرهم، كل ذلك لكمين كان في نفس " بيبرس "، لأجل نيابة حلب. واتفق عند القصير بعد توجه العساكر إلى الصالحية أن ظهر أرنب فساق الملك المظفر قطز عليها، وساق هؤلاء المتفقون على قتله معه، فلما أبعدوا ولم يبق معه غيرهم، تقدم إليه الأمير " بيبرس " البندقدارى وشفع عنده شفاعة في إنسان فأجابه، فأهوى " بيبرس " ليقبل يده فقبض عليها، وحمل أنص عليه، وقد أشغل " بيبرس " يده، وضربه بالسيف، ثم حمل الباقون عليه ورموه عن فرسه، ورشقوه بالنشاب فقتلوه، ثم حملوا على العسكر وهم شاهرون سيوفهم حتى وصلوا إلى الدهليز السلطانى بالصالحية، فنزلوا ودخلوا والأتابك على باب الدهليز، فأخبروه بما فعلوا، فقال: من قتله منكم، فقال " بيبرس ": أنا، فقال: يا خوند، اجلس على مرتبة السلطان.

أما قطز فإنه دفن في موضع قتله - رحمه الله تعالى - وكثر أسف الناس وحزنهم عليه. قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبى في تاريخه - رحمه الله تعالى - بعد ما سماه ونعته قال: وكان المظفر أكبر مماليك الملك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعًا مقدامًا حازمًا حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوض الله شبابه بالجنة ورضى عنه [1].

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة- (ج 2 / ص 273).

لقد قتل السلطان وهو عائد بنصره الكبير، وتم تتويج قاتله خلفًا له في مكان الاغتيال، وعلى ما يبدو أن " سيف الدين قطز " قد كانت له مهمة محددة في التاريخ، فما أن أنجزها حتى توارى عن الأعين والأحداث، بعد أن أتم دوره على أكمل وجه، فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وتقبله الله في الشهداء.

* * *

الفصل الرابع

الفصل الرابع:

دولة الظاهر " بيبرس "

" بيبرس " وتأسيس الدولة المملوكية:

لم يكن " بيبرس " [1] هو أول سلاطين الدولة المملوكية، بل سبقه إلى ذلك

(1) الملك الظاهر " بيبرس " البندقداري هو: " بيبرس " بن عبد الله، ولد في حدود العشرين وستمائة بصحراء أجبقلاق، وأخذ من بلاده صغيرًا وبيع بدمشق؛ فنشأ بها عند العماد الصائغ- على ما قيل- ثم اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري الصالحي، وبقي في ملكه إلى أن قبض الملك الصالح على أيدكين المذكور وصادره، وأخذ " بيبرس " هذا فيما أخذه منه، وذلك في شهر شوال سنة أربع وأربعين وستمائة.
وأعتقه الملك الصالح نجم الدين، وقدمه على طائفة من الجمدارية؛ لما رأى من فطنته وذكائه واستمر " بيبرس " على ذلك إلى أن مات الملك الصالح نجم الدين أيوب، وملك بعده ابنه الملك المعظم توران شاه في سنة سبع وأربعين وستمائة. ثم قتل توران شاه في سنة ثمان وأربعين وستمائة، وأجمعوا الأمراء على إقامة الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي، وولوه السلطنة بعد شجرة الدر- أم خليل الصالحية- ولما قتل المعز الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار، ركب " بيبرس " هذا بالبحرية، وقصدوا قلعة الجبل. فلما لم ينالوا مقصودهم، خرجوا من القاهرة مجاهرين بالعداوة للملك المعز أيبك التركماني، قاصدين الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق، وهم: " بيبرس " هذا، وبلبان الرشيدي، وعز الدين أزدمر السيفي، وسنقر الرومي، وسنقر الأشقر، وبدر الدين بيسري، وسيف الدين قلاوون الألفي وبلبان السنقري وغيرهم.
فلما شارفوا دمشق سير إليهم الملك الناصر صاحب دمشق يطيب قلوبهم ويستدعيهم إليه؛ فأرسلوا إليه الأمير فخر الدين المقرئ يستحلفه لهم؛ فحلف؛ فاطمأنوا ودخلوا دمشق؛ فأكرمهم الملك الناصر، وأطلق لبيبرس هذا بثلاثين ألف درهم، وثلاثة قطر بغال، وثلاثة قطر جمال، وخيل، وملبوسًا. وفرق أيضًا في بقية الجماعة الأموال والخلع- على قدر مراتبهم-. فلما بلغ الملك المعز ذلك كتب إلى الملك الناصر يحذره منهم، ويغريه بهم؛ فلم يصغ الملك الناصر لذلك، إلى أن استشعر " بيبرس " من الملك الناصر بالغدر، توجه بمن معه إلى الكرك؛ فجهز صاحبها الملك المغيث عسكره معه؛ فقدم إلى مصر، وعدة من معه ستمائة فارس. وخرج عسكر الديار المصرية؛ فتلقاه، وأراد الملك الظاهر كبسهم؛ فوجدهم على أهبة؛ فالتفت العسكر المصري عليهم وقاتلهم فانكسر عسكر " بيبرس "، ولم ينج إلا هو بنفسه وقلاوون وبيسري وبيليك الخازندار.
وعاد " بيبرس " إلى جهة الكرك؛ فجاءه جماعة من أمراء مصر، واجتمعوا " بيبرس " والملك المغيث صاحب الكرك بظاهر غزة؛ فقويت شوكتهما، وعادوا إلى الصالحية، ولقوا عسكر مصر ثانيًا؛ فاستظهر عسكرهما أولاً، ثم عادت الكرة عليهما، وهرب الملك المغيث، ولحقه " بيبرس "، وأسر أولئك الأمراء الذين كانوا حضروا إليه؛ فقتلوا جميعًا صبرًا- ما خلا الأمير بيليك الخازندار-؛ فإن جمال الدين الجوكندر شفع فيه؛ فخير بين المقام والذهاب؛ فاختار الذهاب إلى أستاذه.
ثم إنَّ الملك المغيث حصلت بينه وبين " بيبرس " وحشة أوجبت مفارقته إياه، وعوده إلى الملك الناصر صاحب دمشق بعد أن استحلفه على أن يقطعه خبز مائة فارس؛ فأجاب الملك الناصر لذلك.
وكان قدوم " بيبرس " في هذه المرة على الملك الناصر، في شهر رجب سنة سبع وخمسين

المنصب آخرون قد مهدوا لقيام دولة قوية لا سيما عندما تغلبوا على معظم أبناء البيت الأيوبى بالشام، ثم بينوا للعالم مقدرتهم الحربية بالانتصار على المغول في " عين جالوت "، وأحاطوا أنفسهم منذ قيام دولتهم في مصر والشام بآيات الولاء للخلافة العباسية حتى اعترف الخلفاء بسلاطينها اعترافًا تامًا، فأكسبهم ذلك الاعتراف صفة شرعية للحكم وأحاطهم بحماية تحميهم ممن عسى يفكر في انتزاع السلطة منهم (1)، وبالرغم من ذلك فيعد " بيبرس " هو المؤسس الحقيقى لدولة المماليك التى ظلت تقوم بدور المدافع عن الإسلام وحضارته على امتداد ما يزيد عن القرنين ونصف من الزمان، فقد كان " بيبرس " أول من أرسى قواعد وأسس الدولة المملوكية، أضف إلى ذلك مشاريعه العملاقة

وستمائة، ومعهم الجماعة الذين حلف لهم الناصر وهم: أيتمش السعدي، بيسرى الشمسي، وطيبرس الوزيري، وبلبان الرومي، وآقوش الرومي، وكشتغدى الشمسي، وأيدغميش الحلبي، ولاجين الدرفيل، وكشتغدى الشرقي، وأيبك الشيخي، وبيبرس خاس ترك الصغير، وبلبان المهراني، وسنجر الهمامي، وسنجر الباشقردي، وأيبك العلائي، ولاجين الشقيري، وبلبان الأقسيسي، وعلم الدين سلطان الألد كزى؛ فأكرمهم الملك الناصر، ووفى لهم بما حلف.

فلما ورد الخبر بأن الملك المظفر قطز وثب على ابن أستاذه، حرض الملك الناصر " بيبرس " على قصد الديار المصرية، فلم يجبه الناصر، فقال " بيبرس ": فقد منى على أربعة آلاف فارس أقوم بها إلى شط الفرات أمنع التتار من العبور إلى الشام، فلم يمكنه الملك الصالح صاحب حمص؛ لباطن كان له مع التتار. ثم إن " بيبرس " أرسل من استحلف الملك المظفر قطز، وفارق الملك الناصر صاحب دمشق، ودخل إلى القاهرة في الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وستمائة؛ فركب الملك المظفر قطز للقائه، وأنزله في دار الوزارة، وأقطعه قليوب لخاصته، وصار عنده خصيصًا إلى أن خرج الملك المظفر قطز لملتقى التتار، سير " بيبرس " هذا في عسكر؛ ليتجسس أخبارهم؛ فأول من وقعت عينه عليهم ناوشهم القتال؛ فلما كسر التتر تبعهم يقتص آثارهم، ويقتل من وجد منهم إلى حمص. ثم عاد " بيبرس "؛ فوافى المظفر قطز بدمشق؛ فلما توجه المظفر إلى نحو الديار المصرية، عاد " بيبرس " هذا صحبته بعد أن اتفق مع جماعة ممن وافقه على قتل الملك المظفر قطز؛ فقتلوه في سادس عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة.

فدخل القاهرة؛ وملك قلعة الجبل، وتلقب بالملك القاهر أولاً؛ فأشار الوزير زين الدين على السلطان بتغيير لقبه- وكان فاضلاً- وقال: ما لقب أحد بالقاهرة فأفلح، لقب به: القاهر بن المعتضد، فلم تطل أيامه وخمل وهمل، ولقب به القاهر ابن صاحب الموصل؛ فسم؛ فأبطل السلطان اللقب الأول ولقب بالملك الظاهر، وكتب بذلك إلى جميع الأعمال. أبو المحاسن بن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 291- 294.

(1) العبادي، قيام دولة المماليك، ص177.

خارجيًّا مثل: محاولة القضاء على الوجود الصليبى في الشام، ومحاولة توحيد الجبهة الإسلامية في مواجهة الأخطار الخارجية، وداخليًّا مثل: الإصلاحات الكبيرة التى أدخلها على البلاد، ومحاولات التقرب إلى المصريين وغيرها من الأعمال التى جعلت منه بطلاً في عيون عامة الناس وخاصتهم فانطلقوا ينسجون حوله هالة من البطولة والشجاعة في قصصهم الشعبي، وجعلوا منه رمزًا للإسلام والمسلمين.

بعد أن تمت البيعة السلطانية لبيبرس في المعسكر السلطانى بالصالحية دخل " بيبرس " - والأمراء الذين شاركوه قتل المظفر قطز قلعة الجبل - وكان دخوله القلعة وجلوسه على كرسى السلطنة في التاسع عشر من ذى القعدة.

فلما طلع النهار نادى المنادى في الناس " ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر " بيبرس "، فدخل على الناس من ذلك غمّ شديد ووجل عظيم، خوفًا من عود البحرية إلى ما كانوا عليه من الجور والفساد وظلم الناس [1] وكان الناس قد خرجوا لاستقبال قطز الذى كان من مماليك المعز أيبك التركماني، ولم يكن من المماليك البحرية، أى مماليك الصالح أيوب [2].

ثم كان جلوس " بيبرس " لأخذ البيعة وتوزيع المناصب في دولته الجديدة يقول المقريزي: "... وفى يوم الاثنين: صبيحة قدوم السلطان، جلس الملك الظاهر " بيبرس " بالإيوان من القلعة، وحلف العساكر، واستناب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار، واستقر الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابگا على عادته، والأمير جمال الدين آقوش النجيبى الصالحى أستادارًا [3]، والأمير عز الدين الأقزم الصالحى أمير جاندار [4]، والأمير صيام الدين لاجين الدرفيل والأمير

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 1 /141.

(2) المقريزي، السلوك، 1/ 437.

(3) هو المشرف على المطابخ السلطانية ويشرف على الأطعمة والأشربة وتنظيم الموائد. [القلقشندي، صبح الأعشى، 4/ 20].

(4) يقوم صاحب هذه الوظيفة بإدخال الناس على السلطان وهو جالس بالأبواب على السلطان. [القلقشندي، صبح الأعشى، 4/ 20].

سيف الدين بلبان الرومى دوادارية [1]، والأمير بهاء الدين أمير أخور [2] على عادته. ورتب في الوزارة الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، والأمير ركن الدين إياجى والأمير سيف الدين بكجرى حاجبين [3]. وكتب لإحضار البحرية البطالين من البلاد وكتب إلى الملوك والنواب يخبرهم بسلطنته [4].

واستهل " بيبرس " عهده بالتقرب إلى المصريين بأن ألغى كافة الضرائب والمكوس التى كان قطز قد افترضها على الناس من أجل تمويل الحرب ضد المغول، وكانت تلك الضرائب بواقع دينار على كل فرد في مصر، كما استولى على ثلث إيراد الزكاة، وثلث قيمة التركات التى مات عنها أصحابها من غير المماليك، وكان وقع هذه الإجراءات على نفس المصريين مبهجًا؛ إذ زينوا الطرقات والأسواق ابتهاجًا بذلك [5].

وكان على " بيبرس " أن يواجه المتاعب والقلاقل الداخلية والخارجية في سبيل تدعيم مركزه في سدة الحكم.

القضاء على الثورات الداخلية:

لم تكن جميع الأطراف راضية عن حكم الظاهر " بيبرس " ولذلك نجد أنه قد قامت ضده معارضة قوية مناوئة لحكمه متمثلة في ثورتين تكادان تكونان متزامنتين، كانت إحداها في القاهرة والأخرى في دمشق، وهذه المعارضة وإن كانت تهديدًا مباشرًا لسلطة " بيبرس "؛ فإن نجاحه في القضاء عليها يعد تثبيتًا وتدعيمًا ليس لسلطته فقط بل لدولة المماليك جميعًا.

---

(1) يقوم صاحب هذه الوظيفة بتقديم كل ما يؤخذ عليه العلامة السلطانية في المناشير والتواقيع والكتب. المقريزي، الخطط، 3 / 361، [القلقشندي، صبح الأعشى، 1 /19].

(2) وهو كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب. [القلقشندي، صبح الأعشى، 4/ 18].

(3) الحاجب ينصف بين الأمراء تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب، وإليه تقديم ما يعرض، وما يرد، وعرض الجند وما ناسب ذلك. [القلقشندي، صبح الأعشي، 4/ 19].

(4) المقريزي، السلوك، 1/ 437.

(5) المقريزي، السلوك، 1 / 438- 439، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 86.

الثورة الأولي: وكان سبب هذه الثورة هو الاعتراض على قتل قطز، والأنفة مما فعله " بيبرس " دون أن يستشير من تنبغى استشارته، وكان قائد هذه الثورة هو نائب دمشق سنجر الحلبي[1] أحد أمراء المماليك - في أواخر سنة 658 هـ / 1260 م، والذى ساءه كثيرًا اغتيال قطز، ورفض الاعتراف بسلطة قاتله " بيبرس"، ولم يكتف بذلك بل بادر بإعلان نفسه ملكًا على دمشق في ذى الحجة سنة 658 هـ، واتخذ لنفسه لقب الملك المجاهد، وركب بشعار السلطنة، وضرب السكة باسمه، وحصن قلعة دمشق استعدادًا للقتال، وأرسل يستعين ببقايا الأيوبيين، فأرسل إلى الأمير حسام الدين لاجين العزيزى نائب حلب، والملك المنصور الأيوبى صاحب حماة، والملك الأشرف موسي، صاحب حمص، ليدخلوا في طاعته ويشدوا من أزره، ولكنهم رفضوا إجابة طلبة خوفًا من بأس " بيبرس ".

ولم تستطع رسل " بيبرس " وكتبه من إقناع الثائر بلزوم الطاعة، فقرر " بيبرس " أن يجرد جيشًا للقضاء على تلك الثورة قبل أن تستفحل، حيث عاد الجيش بنائب دمشق مقرنًا في الأصفاد في يناير 1261 م / 16 صفر 659 هـ، حيث اعتقل في قلعة الجبل بعد شهر واحد من إعلان ثورته، وولى " بيبرس "

---

(1) سنجر الحلبيّ: أحد المماليك الصالحية، ترقى في الخدم إلى أن ولاه الملك المظفر " سيف الدين قطز " نيابة دمشق، فلما قتل قطز على " عين جالوت " وقام من بعده في السلطنة بالديار المصرية الملك الظاهر " بيبرس "، ثار سنجر بدمشق في سنة ثمان وخمسين وستمائة ودعا إلى نفسه، وتلقب بالملك المجاهد، وكان طويل القامة، مصابًا بعينه اليسرى، ذكروا عنه أنه أصيب بسهم، وكان ذا بأس وشهامة، وقوة وشجاعة، وإقدام شديد.

وقيل: إنه كان في الدولة الظاهرية إذا نزل من الخدمة إلى بيته لا ينزل عن فرسه حتى يقدم له قنطارته محشوة برصاص فيلعب بها وهو راكب، ثم يأتى إلى فردة تبن فيطعنها ويشيلها من الأرض، ثم ينزل ويأخذ عمودًا حديدًا زنته قنطار فيلف به يمينًا ويسارًا، ثم يجلس على سماطه فيأكل خروفًا، مات في عاشر ذى القعدة وكان قد مرض بعد حصار قلعة الروم، فحمل في محفة إلى مصر، فمات بعد حضوره بسبعة أيام وهو في عشر التسعين وقد انحنى وبان عليه الكبر، وقيل: مات وعمره اثنان وتسعون سنة.

المقريزي، المواعظ والاعتبار، 186/2، بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 245/ 1.

أستاذه علاء الدين البندقدارى [1] نيابة دمشق التى انضوت منذ ذلك التاريخ تحت لوائه [2]، وبذا قضى السلطان في سرعة وعزم على إحدى الحركات الانفصالية في تاريخ السلطنة المملوكية، مما برهن على سلامة دولة المماليك وصلاحيتها للبقاء [3].

ثم كانت هناك محاولة تمرد أخرى على سلطة " بيبرس " تمثلت في محاولة شمس الدين البرلى الاستقلال بحلب، ولكن الفشل كان حليفه، ولما أرسل يطلب العفو من السلطان الظاهر " بيبرس " كان كريمًا معه، وفى القاهرة حاول بعض الأمراء المماليك الإطاحة بالسلطان سنة 659 هـ / 1261 م وعلى الرغم من أنه تمكن من وأد هذه المؤامرة في مهدها، فإنه كان كريمًا معهم أيضًا [4].

أما الثورة الثانية الأكثر خطورة فكان زعيمها رجل شيعى يعرف بالكوراني، أظهر الزهد والورع، وسكن قبة بجبل المقطم، وتردد عليه الغلمان والركابدارية[5] وجماعة من السودان، فأخذ يدعوهم ويحرضهم على قلب نظام

---

(1) أيدكين بن عبد الله البندقداري، الأمير علاء الدين. كان من أعيان الأمراء الصالحية، وكان الملك الظاهر " بيبرس " البندقدارى مملوكه، اشتراه لما أن كان بحماة، ثم إن السلطان الصالح نجم الدين أيوب صادر علاء الدين أيدكين هذا، وأخذ منه " بيبرس " في جملة ما أخذه منه، وتنقلت الأحوال بهما حتى صار " بيبرس " سلطانًا، والأمير علاء الدين أيدكين المذكور من جملة أمرائه، وبقى معظمًا عند الملك الظاهر " بيبرس "؛ لحقوق سلفت، ويرعى له ما تقدم، وينعم عليه.
وكان أصل أيدكين هذا مملوكًا للأمير جمال الدين موسى بن يغمور، ثم انتقل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب؛ فرقاه وجعله بندقداره، ثم أمره على عجلون، ثم عزله، وأمسكه وصادره، واستمر أيدكين هذا على حرمته وإمرته، إلى أن مات في شهر ربيع الآخر سنة أربع وثمانين وستمائة، ودفن بتربته بالشارع الأعظم، تجاه حمام الفارقانى بظاهر القاهرة، وكان له معرفة، ورأي، وتدبير، وسياسة، رحمه الله تعالي. [الذهبي، تاريخ الإسلام، 12، 18، ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 233].

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 438- 439، 445، ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، 8/ 63- 70.

(3) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 178.

(4) المقريزي، السلوك، 1 / 465- 466، 471- 476، ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، 8 /70، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 87.

(5) الركابدارية هم الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان في الموكب، وهم تابعون للركاب خاناه وهو بيت الركاب الذى تكون به السروج واللجم وله موظف خاص يسمى مهتار الركاب خاناه.

الحكم المملوكى السنى واستبداله بحكم شيعى وأقطعهم الإقطاعيات وكتب لهم الرقاع، وتمخضت تلك الدعوة والدعاية عن ثورة سنة 1260 م / 658 هـ، فشق الثوار شوارع القاهرة ليلاً وهم ينادون: " يا آل عليّ " وفتحوا حوانيت السيوفيين بين القصرين، وأخذوا ما فيها من سلاح، واقتحموا اصطبلات الجنود، وأخذوا منها الخيول. وهنا برهن " بيبرس " على أنه لا يؤخذ بهذه الطريقة، فأرسل من الجند ما يكفل الحوطة على الثوار القبض على جميع زعمائهم، حتى إذا خمدت الثورة، أمر السلطان بصلب الكورانى وغيره من الزعماء على باب زويلة [1] وهكذا قضى " بيبرس " قضاءً مبرمًا على البقية الباقية من الحركة التى ظلت تعمل على هدم السنية في مصر وغيرها منذ عهد صلاح الدين، بدليل خلو المراجع العربية من أخبار أية حركة مشابهة في مصر أو الشام، طوال العهد المملوكي، الأول والثانى سواء، . وهذا الدليل بدوره يدل على مبلغ إمعان " بيبرس " في هدم الثورة، مما جعل توفيقه في إخمادها جديرًا بأن يعتبر عاملاً من عوامل تدعيم دولة المماليك [2].

إحياء الخلافة العباسية في القاهرة:

كان القضاء على المشكلات والأخطار التى أثارتها حركات التمرد الداخلية الخطوة الأولى والهامة في سياسة " بيبرس " لتوطيد سلطنته في الداخل، بيد أن هذه الأخطار كانت هينة بالقدر الذى لم يكلفه من الجهد إلا قليلاً. وبقى عليه أن يضفى على حكمه رداء الشرعية، ورأى الحل السديد في إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة، والحصول على تفويض من الخليفة بالحكم. وإذا كان إحياء الخلافة يأتى من جانب الدولة صاحبة الفضل في وقف الخطر التتري، وصاحبة القوة اللازمة لمواجهة الخطر الصليبي؛ فإن تأييد الناس لهذه الدولة سيكون بلا حدود، وكانت تلك مناورة سياسية ذكية من " بيبرس "، إذ جعل الدولة

انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 4 / 7 ن12. العبادي، قيام دولة المماليك، ص 178.

(1) المقريزي، السلوك، 1 /440.

(2) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 179.

المملوكية تبدو صاحبة الفضل على العالم الإسلامى بإحيائها الخلافة العباسية [1].

والمتواتر في الكتب أن السلطان " بيبرس " أول من فكر في إحياء الخلافة العباسية ليقيلها من عثرتها الدامية التى لحقتها على يد " هولاكو " وجنوده، وليظهر أمام العالم الإسلامى بمظهر الحامى للخلافة، وليجعل لنفسه شيئًا من النفوذ والزعامة على البلاد الإسلامية، كما يجعل من دولته الناشئة دولة شرعية يجب المحافظة عليها[2].

والواقع أن " بيبرس " ليس أول من فكر في ذلك المشروع من الملوك والسلاطين الذين تداولوا الحكم على مصر والشام، وإنما هو الذى نجح في تحقيقه فقط، والأدلة على ذلك كثيرة، فقد حاول أحمد بن طولون اجتذاب الخليفة المعتمد إلى مصر سنة 269 هـ / 882 م حينما استبد بالخليفة أخوه وولى عهده الأمير أحمد الموفق، فأرسل إليه كتابًا يقول فيه: " قد منعنى الطعام والشراب والنوم خوفى على أمير المؤمنين من مكروه يلحقه مع ما له في عنقى من الأيمان المؤكدة. وقد اجتمع عندى مائة ألف عنان أنجاد، وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين الانجذاب لمصر، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يتهيأ لأخيه (الموفق) فيه شيء مما يخاف عليه في كل لحظة " [3].

ولا شك أن أحمد بن طولون أراد بذلك أن يدعم دولته الجديدة التى أسسها في مصر والشام، وأن يمتنع عن إرسال الجزية السنوية إلى دار الخلافة، بالإضافة إلى تحطيم منافسيه في بغداد. غير أن مشروع ابن طولون لم يتحقق، إذ إنَّ الموفق قبض على الخليفة في الموصل وأعاده إلى بغداد [4].

كذلك حاول محمد الإخشيد نفس المحاولة حينما ذهب إلى الشام سنة 333 هـ

(1) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 88.

(2) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 180.

(3) عبد الله البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص 281، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 180.

(4) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 180- 181.

944/ م لإغاثة الخليفة المتقى من جور الحمدانيين بحلب، ومن استبداد الأمراء الأتراك ببغداد، فلقيه بالرقة في شمال الفرات، وترجل عن بعد وهو بسيفه ومنطقته وجعبته على سبيل الخدمة، وقبل الأرض مرارًا، ثم تقدم فقبل يده، وطلب منه أن يصحبه، ولكن الخليفة عز عليه آخر الأمر أن يترك عاصمته ومقر أسرته فرفض هذا العرض، وعاد الإخشيد إلى مصر، في حين عاد الخليفة إلى بغداد. ولا شك أن الإخشيد رأى أن في اجتذاب الخلافة العباسية إلى مصر ما يقوى دولته التى أسسها في مصر (1).

كذلك يقال: أن الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق فكر في إحياء الخلافة العباسية أوائل سنة 658 هـ، وأنه ما كاد يعلم من عيسى بن مهنى، أمير العربان بالأطراف الشرقية الشمالية المتاخمة للحدود العراقية، أن أميرًا عباسيًا واسمه أبو العباس أحمد (2) يريد القدوم إلى دمشق، حتى أرسل يستدعيه إليه. لكن الناصر فوجئ بقدوم التتار إلى الشام، فانصرف عن أبى العباس، وعاد الأمير العباسى ثانية إلى عيسى بن مهنى (3).

ثم إن السلطان قطز فكر في سنة 658 هـ في إعادة الخلافة إلى بغداد بدليل أنه بعد واقعة " عين جالوت " استدعى الأمير أبا العباس أحمد المذكور إلى دمشق وبايعه بالخلافة، وقال للأمير عيسى بن مهنى: " إذا رجعنا إلى مصر أنفذه إلينا لنعيده إن شاء الله " (4). ولكن السلطان قطز قتل قبل تحقيق غرضه، فعاد أبو العباس إلى الحدود الفراتية حيث تمكن بمن معه من عرب وأتباع أن يحتل بعض المدن هناك مثل عانة والحديثة والأنبار، وأن ينتصر على سرية من عسكر التتار (5).

---

(1) ابن سعيد، العيون الدعج في حلى دولة بنى طغج، ص 40، ابن الأثير، الكامل، 8 /148، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص181.

(2) هو حفيد الخليفة المسترشد بن المستظهر بالله العباسي. العبادي، قيام دولة المماليك، ص181.

(3) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 317- 318، العبادي، قيام دولة المماليك، ص181.

(4) مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد، 1 / 435، العبادي، قيام دولة المماليك، ص181.

(5) العبادي، قيام دولة المماليك، ص181- 182.

من هذا وذاك نرى أن ملوك المسلمين قبل " بيبرس " قد رغبوا في إحياء الخلافة العباسية، وأن تلك الرغبة ظلت قائمة حتى تولى " بيبرس " البندقدارى سلطنة مصر، فشرع في إخراج المشروع إلى حيز التنفيذ. ولذا أرسل " بيبرس " في طلب أبى العباس أحمد وكان لايزال بالعراق يحاول محاولته، فقدم أبو العباس إلى دمشق حيث جهزه نائبها إلى القاهرة، غير أن أبا العباس كان قليل الحظ، إذ سبقه إلى حضرة " بيبرس " زميل آخر من أبناء البيت العباسى واسمه أبو القاسم أحمد [(1)]، ففضل هو الرجوع إلى الشام وقصد حلب حيث

---

(1) أبو القاسم أحمد ابن الظاهر بأمر الله أبى نصر محمد ابن الناصر لدين الله أحمد ابن المستضئ الهاشمى العباسى البغدادي، وهو الثامن والثلاثون من خلفاء بنى العباس رضى الله عنه وهو الإمام المستنصر بالله أبو القاسم أحمد ابن الإمام الظاهر بأمر الله أبى نصر محمد ابن الإمام الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبى محمد الحسن بن أبى المستنجد بالله أبى المظفر يوسف ابن المقتفى لأمر الله أبى عبد الله محمد ابن المستظهر بالله أبى العباس أحمد أمير المؤمنين... وهو أخو الخليفة المستنصر بالله منصور واقف المستنصرية.

بويع بالخلافة أحمد بعد خلو الوقت من خليفة عباسى ثلاث سنين ونصف [سنة]، وكان هذا معتقلاً ببغداد مع غيره من أولاد الخلفاء، فلما استولى " هولاكو " على بغداد، نجا هذا، وانضم إلى عرب العراق، فلما سمع بسلطنة الملك الظاهر " بيبرس " البندقدارى وفد عليه في رجب سنة تسع وخمسين في عشرة من آل مهارش، فركب السلطان للقائه والقضاة والدولة، وشق قصبة القاهرة، ثم أثبت نسبه على القضاة، وبويع فركب يوم الجمعة من القلعة في السواد حتى أتى جامع القلعة، فصعد المنبر وخطب ولوح بشرف آل العباس، ودعا للسلطان وللرعية، وصلى بالناس.

قال الذهبي: وهذا هو الخليفة الثامن والثلاثون من بنى العباس، بويع بقلعة الجبل في ثالث عشر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة.

وكان أسمر آدم، شجاعًا، مهيبًا، ضخمًا، عالى الهمة.

ورتب له السلطان أتابكًا وأستاذ دار، وشرابيًا وخزندارًا وحاجبًا وكاتبًا، وعين له خزانة وعدة مماليك، ومئة فرس وعشر قطارات جمال وعشر قطارات بغال إلى أمثال ذلك.

قال اليونيني: وكان المستنصر بالله شديد السمرة جسيمًا وسيمًا عالى الهمة شديد القوى عنده شجاعة وإقدام وهو أخو المستنصر بالله أبى جعفر المنصور ونعت بنعته وهذا ما لم يجر به العادة فيما تقدم أن خليفة يلقب بلقب خليفة تقدمه من أهل بيته وقد ولى الخلافة إخوان وثلاثة إخوة أما أربعة أخوة ولوا الخلافة فأولاد عبد الملك بن مروان لا غير وثلاثة إخوة الأمين والمأمون والمعتصم أولاد هارون الرشيد والمستنصر والمعتز والمعتمد أولاد المتوكل والمكتفى والمقتدر والقاهر أولاد المعتضد والراضى والمتقى والمطيع أولاد جعفر المقتدر وأخوان فالسفاح والمنصور ولدًا محمد بن على بن عبد الله بن العباس رضى الله عنه والهادى والرشيد ابنا المهدى والواثق والمتوكل ابنا

بايعه أميرها الثائر على " بيبرس " شمس الدين أقوش البرلي العزيزي، ولقبه الحاكم بأمر الله، ثم أمده بسبعمائة فارس من التركمان. فسار بهم الخليفة إلى بلدة عانة على الحدود العراقية، لمناوشة التتار مرة أخرى [(1)].

وبعد جلوس " بيبرس " على عرش السلطنة استدعى الأمير العباسي أبا القاسم أحمد، وخرج ليتلقاه خارج القاهرة في شهر رجب 659 هـ / يونيو 1261 م "... ومعه الوزير بهاء الدين وقاضي القضاة تاج الدين والشهود والرؤساء والقراء والمؤذنون واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل في يوم الخميس فدخل من باب النصر وشق القاهرة وكان يومًا مشهودًا، ولما كان يوم الاثنين ثالث عشر من الشهر جلس السلطان والخليفة في الإيوان بقلعة الجبل وحضر الصاحب بهاء الدين وولده فخر الدين وقاضي القضاة تاج الدين والأمراء والناس على طبقاتهم، وقرئ نسب الخليفة على القاضي، وشهد عنده بصحته فأسجل عليه بذلك وحكم به وبويع وركب من يومه وشق القاهرة في وجوه الدولة وأعيانها، ثم بويع بالخلافة في قلعة الجبل ظاهر القاهرة من الديار المصرية يوم الاثنين ثالث عشر من شهر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة

المعتصم والمسترشد والمقتفى ابنا المستظهر والمستنصر منصور والمستنصر هذا ابنا الظاهر ومنه إلى العباس رضى الله عنه أربعة وعشرون نفرًا وولى الخلافة بعد ابن أخيه ولم يل أحد بعد ابن أخيه قبله إلا جده المقتفى ابن المستظهر فإنه ولى أيضًا بعد الراشد ابن المستظهر، وأما من ولى الخلافة بعد عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك من بنى أمية ولى بعد عمه هشام بن عبد الملك والمعتضد بن الأمير الناصر بن المتوكل ولى بعد عمه المعتمد بن المتوكل والراضى بالله بن المقتدر بن المعتضد ولى بعد عمه القاهر بالله ابن المعتضد ومدة خلافة المستنصر منذ بويع إلى أن فقد خمسة شهور وعشرون يومًا فمدة خلافته أقصر المدد من أهل بيته، أما من بنى أمية فمعاوية بن يزيد بن معاوية رحمه الله مدة خلافته أربعون يومًا ويزيد ابن الوليد خمسة أشهر وأخوه إبراهيم بن الوليد سبعون يومًا، ومن بنى العباس رضى الله عنه لم يستكملوا سنة أولهم المستنصر بن المتوكل بقى في الخلافة ستة أشهر والمهتدى بن الواثق بقى فيه أحد عشر شهرًا وأيامًا والحسن بن على رضى الله عنهما بقى في الخلافة منذ بويع بعد قتل أمير المؤمنين رضى الله عنه إلى أن نزع نفسه وبايع معاوية رضى الله عنه سبعة شهور وأحد عشر يومًا وقيل: غير ذلك.

[الذهبي، سير أعلام النبلاء، (23 /169)، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (194/1)].

(1) العبادي، قيام دولة المماليك، (ص181- 182).

وأول من بايعه قاضى الديار المصرية تاج الدين عبد الوهاب بن خلف الشافعى، عندما ثبت نسبه عنده، ثم بايعه الملك الظاهر والشيخ عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام والأمراء والأعيان من أولي الحل والعقد، وكانت بيعته في الإيوان الكبير بالقلعة المذكورة، وكان المسلمون بغير خليفة منذ قتل التتار ابن أخيه الإمام المستعصم بالله أبا أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله أبى نصر محمد رحمه الله في أوائل سنة ست وخمسين مدة ثلاث سنين ونصف " (1).

ولما تمت البيعة، قلد الخليفة المستنصر السلطان " بيبرس " على البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار.

وبعد ذلك قام جميع من حضر فبايعوا الخليفة على اختلاف طبقاتهم، ثم كتب السلطان " بيبرس " في نفس اليوم إلى الملوك والنواب بسائر الممالك أن يأخذوا البيعة من قبلهم للخليفة العباسى المستنصر بالله، وأن يدعى له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده وأن تنقش السكة باسمهما (2).

ومما لا شك فيه أن إحياء الخلافة العباسية في القاهرة كان خطوة هامة جعلت من الظاهر " بيبرس " حاكمًا شرعيًّا يستمد سلطته ونفوذه من تفويض الخليفة العباسى في القاهرة، وقد أدرك " بيبرس " خطورة التفويض الذى أعطاه له الخليفة العباسي، لذلك نجد أنه يشهد أهل الحل والعقد ووجوه الناس والأمراء على ". تفويض الخليفة له بحكم الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية، وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا "، بل ويرسل إلى جميع الحكام والأمراء في العالم الإسلامى يعلمهم بذلك.

بدأ " بيبرس " يفكر جديًّا في إعادة الخلافة العباسية وإقامتها في بغداد وبدا مستعدًا لتمام ذلك الأمر بكل ما أوتى من قوة، وشرع فعلاً في تجهيز الخليفة

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 194/1، وانظر أيضًا: السيوطي، حسن المحاضرة، 1 /448- 449، ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، 8 /72- 78، المقريزي، السلوك، 1/ 448- 457، .

(2) العبادي، قيام دولة المماليك، ص184.

العباسى بكل ما يلزم لتحقيق هذا الهدف من جند وسلاح وكراع لاسترداد بغداد من التتر وإعادة الخلافة إليها، ويقال: أن مبلغ ما أنفق في هذا المشروع لا يقل عن ألف ألف دينار.

وعلى ما يبدو أن " بيبرس " كان عنده تصميم على إعادة الخلافة العباسية ليس إلى الوجود فقط - بعد سقوطها على يد " هولاكو " - بل وإعادتها إلى مقرها الأصلى في بغداد، وبدا ذلك جليًّا عندما أنفق الأموال الكثيرة في سبيل إعداد جيش الخلافة ليعود به إلى العراق واستخلاص بغداد من أيدى التتار، كما أنه خرج مع الخليفة إلى دمشق فوصلها في ذى القعدة سنة 659 هـ / 1261 م، وكان ينوى أن يقوى جيش الخلافة العباسية بأن يضيف إليه أعدادًا أخرى من جند الشام، حتى غدا جيش الخلافة يزيد على عشرة آلاف فارس، ولكن وبصورة مفاجئة فتر حماس الظاهر " بيبرس " وتخلى عن مشروع إحياء الخلافة العباسية وإعادتها إلى مقرها الدائم في بغداد وتخلى عن الخليفة العباسى [1]، وتركه في جمع قليل من الجنود لا يزيد عن ثلاثمائة فارس، وتركه يصارع المجهول [2].

لم يجد الخليفة العباسى بُدًّا من المسير إلى العراق بهذا العدد القليل الذى تركه " بيبرس " معه، حيث انضم إليه عدد آخر من المتطوعة من قبائل العراق وسار بهذا الجيش الغير متجانس وبالقرب من نهر الفرات في إقليم الديلم التقى بمنافسه على الخلافة العباسية أبى العباس أحمد (الحاكم بأمر الله) في سبعمائة فارس من التركمان.

---

(1) ذكر المقريزى أن البعض أوشى إلى الظاهر " بيبرس " بألا يساعد الخليفة العباسى في العودة إلى بغداد وإعلان عودة الخلافة العباسية لأنه إن فعل ذلك فربما ينقلب عليه الخليفة العباسى وينازعه النفوذ والسلطة مما جعل حماس " بيبرس " يفتر ويتخلى عن الخليفة العباسى وعودة الخلافة العباسية إلى بغداد. انظر: المقريزي، السلوك، 1 /462- 463. وربما يكون " بيبرس " قد حصل على مبتغاه من الخليفة العباسى وهو الشرعية لدولته الناشئة ولم يعد لديه الحماس في استكمال مشروع الخلافة العباسية.

(2) المقريزي، السلوك، 1 /462- 463، ابن أبى الفضائل، النهج السديد، 1 / 429- 430.

واتفق الخليفتان على توحيد صفوفهما وجهودهما والعمل سويًّا لإعادة الخلافة العباسية، وانصاع الحاكم للمستنصر واعترف له بالخلافة "... وكان البرنلى قد جهزه (الحاكم بأمر الله) من حلب، فبعث الخليفة المستنصر بالله إليهم واستمالهم، فلما جاوزوا الفرات فارقوا الحاكم، فبعث إليه المستنصر بالله يطلبه إليه ويؤمنه على نفسه ويرغب إليه في اجتماع الكلمة، فأجاب ورحل إليه، فوفى إليه المستنصر وأنزله معه في الدهليز، ووقع الاتفاق وزال الشقاق، وسارا معًا لمواجهة التتار بقيادة " قرابغا " و " بهادر "، حيث التقوا بهم بالقرب من الأنبار في الثاني من محرم سنة 660 هـ، ودارت بين الجانبين معركة غير متكافئة انتهت بمقتل معظم الجيش العباسى ولم ينج منهم غير الأمير أبى العباس أحمد في بضع قليل من الفرسان، أما الخليفة أبو القاسم فلم يستدل على مصيره، وإن كانت معظم الروايات ترجح موته جريحًا بعد المعركة [1]. يقول اليافعي: "... ثم التقى المسلمون التتار، فانهزم التركمان والعرب، وأحاطت التتار بعسكر المستنصر، فحرقوا وساقوا، فنحيت طائفة منهم الحاكم، وقتل المستنصر، وقيل: عدم ولم يعلم ما جرى له، وقيل: قتل ثلاثة من التتار، ثم تكاثروا عليه، واستشهدو رحمه الله تعالى[2].

كانت أحداث هزيمة جيش الخلافة العباسية ومقتل الخليفة المستنصر دافعًا لبيبرس أن يعيد التفكير في وضع الخلافة العباسية، إذ بدأ يفكر في جعل الخلافة والخليفة العباسى تحت عينه وسيطرته المباشرة بجعل مقرها الرئيسى في القاهرة، فتستفيد الدولة المملوكية من وجودها بالقاهرة، وتتجنب خطر إقامتها بعيدًا في بغداد. وحرص " بيبرس " أن تخرج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ فأرسل يستدعى أميرًا عباسيًّا آخر لتولى الخلافة، ووقع اختياره على أبى العباس أحمد [3] حيث عقد له في 8 محرم 661 هـ مجلسًا عامًّا بالإيوان الكبير

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 318، السيوطي، حسن المحاضرة، 2 /47، المقريزي، السلوك، 1 /462- 463.

(2) اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، 2 / 198.

(3) الحاكم بأمر الله العباسي: هو أحمد بن الحسن، الإمام الحاكم بأمر الله أبو العباس ابن الأمير أبى

بقلعة الجبل كما حدث للمستنصر من قبل، وتمت مبايعته باسم الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي، وأخذت له البيعة من جميع طوائف الناس وخطب له على المنابر في مصر والشام [1] ولضمان نجاح المحاولة وبقاء الخلافة العباسية في مصر إلى الأبد أرسل " بيبرس " فاستدعى الكثير من مماليك الخليفة المستعصم (الذى قتله التتار) الذين فروا من وجه التتار إلى الحجاز، كما أحضر العديد من شيوخ عشائر العراق ليكونوا إلى جوار الخليفة العباسى الجديد، ويضفى على هذا العمل مزيدًا من الشرعية ويعطيه ترياق الاستمرارية في مصر [2].

وهكذا أحييت الخلافة العباسية للمرة الثانية في القاهرة، غير أن " بيبرس " لم يفكر في إعداد هذا الخليفة الثانى لاسترداد بغداد وإقامة الخلافة العباسية بها، بل عزم على أن يكون مقامه بالقاهرة حيث يكون على مقربة منه وتحت عينه، ولم يرد السلطان بذلك أن يخلق في عاصمته سلطة دينية أو سياسية بجانب سلطته، بل قصد أن تكون الخلافة سندًا للدولة المملوكية في أرجاء العالم الإسلامي، وأن يكون الخليفة شخصية نافعة لأغراض دولة المماليك، وما تحتاجه من الحماية الروحية، ويدل على ذلك كله أن السلطان لم يأمر في تلك المرة أن يقرن اسم الخليفة باسمه على السكة كما فعل سابقًا بالمستنصر بالله، أنه أسكنه أحد أبراج القلعة محترزًا عليه، ولم يترك له غير الدعاء في الخطبة فقط، وعلى هذا الأساس لم تكسب الخلافة العباسية في إحيائها إلا كسبًا زائفًا، إذ صار الخلفاء منذ ذلك الوقت في وضع مهين تقريبًا، يعملون في دوائرهم الضيقة ويحضرون حفلات السلطنة وولاية العهد ويزينون مجالس السلطان

على الحسن ابن أبى بكر بن على ابن أمير المؤمنين، المسترشد بالله العباسى البغدادي. قدم مصر، ونهض ببيعته الملك الظاهر " بيبرس " الصالحي، وبويع له سنة إحدى وستين وستمائة، وخطب بالناس، وكان ملازمًا لداره، فيه عقل وشجاعة وديانة، وله راتب يكفيه من غير سرف. امتدت أيامه، وعهد بالخلافة إلى ولده المستكفى بالله أبى الربيع سليمان، وتوفى سنة إحدى وسبعمائة، وهو في عشر الثمانين وكانت خلافته أربعين سنة، ولم يكن له من الخلافة غير الخطبة والسكة. الكتبي، فوات الوفيات، 1 /37.

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 477- 479، ابن أيبك، كنز الدرر، 8 / 94- 95.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، 2 / 400، المقريزي، السلوك، 1 / 476.

للوفود والسفراء، ولم تتدخل الخلافة في شؤون الدولة المملوكية إلا قليلاً، ولم يأمن لها سلاطين المماليك في يوم من الأيام، بل أبقوا الخلفاء سجناء تقريبًا في دور أقيمت لهم خصيصًا في أبراج القلعة أو مناظر الكبش [1].

أما الذين استفادوا من ذلك الإحياء، فسلاطين المماليك، والقاهرة عاصمتهم، إذ صار سلاطين المماليك منذ ذلك الوقت إلى الفتح العثماني، سنة 1517 م يفرضون لأنفسهم مقاما ساميًا على ملوك العالم الإسلامي، وينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان؛ لأنهم وحدهم أصحاب هذا الحق شرعًا باعتبارهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتها، وفى ذلك يقول أبن شاهين الظاهري: "... ولا يطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر نصره الله، فإنه الآن أعلى الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الأولين والآخرين، وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعى بعقد الأئمة الأربعة " [2].

أما القاهرة، فقد تمتعت نتيجة لذلك الإحياء بشهرة دينية وعلمية واسعة، إذ صارت مركز الخلافة العباسية، وفى ذلك يقول السيوطي: "... الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة أينما كانت، فحينما صارت مصر دار خلافة، عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء " [3] وبالإضافة لشهرة القاهرة الدينية والعلمية، فهناك شهرتها التجارية التى جعلت " هولاكو " يسميها في إحدى رسائله " كروان سراى " [4] أى محط الرحال والمتاجر والمال، إذ أصبحت بفضل قيام الخلافة بها مركزًا لنشاط تجارى واسع فضلاً عن نشاطها القديم [5].

كان إحياء " بيبرس " للخلافة العباسية أحد الخطوات الهامة التى دعمت مركز

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 189.
(2) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص 89، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 190.
(3) السيوطي، حسن المحاضرة، 2 /66، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 191.
(4) المقريزي، السلوك، 1 / 427- 429، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 191.
(5) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص191.

دولته الناشئة ليس دينيًّا فقط بل سياسيًّا واقتصاديًّا وعلميًّا وثقافيًا، ولم يتوقف عند هذا النهج، بل نجده يتخذ عددًا من الخطوات الهامة في سبيل تأكيد زعامة دولته على أقطار الخلافة العباسية، وكانت الخطوة التالية هى الإشراف على الحجاز " أصل العرب والملة، ومقر الحرمين الشريفين ومهوى قلوب المسلمين ".

والحقيقة أن الإشراف على الحجاز يعد أحد أركان السياسة المصرية على مر العصور منذ قيام الدويلات المستقلة في مصر؛ لأن السياسة المصرية كانت تهدف دائمًا إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية وسياسية واقتصادية أهمها السيطرة على البحر الأحمر وتجارته. فجميع الحكام الذين استقلوا بمصر كالطولونيين والإخشيديين والفاطميين، قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز، ثم سار الأيوبيون على نفس هذه السياسة الحجازية حتى لقبوا أنفسهم بلقب " خادم الحرمين "، وبقى هذا اللقب للمماليك والعثمانيين من بعدهم [1].

يقول المقريزي: "... اعلم أنّ حُجاج مصر والمغرب، أقاموا زيادة على مائتى سنة لا يتوجهون إلى مكة شرّفها الله تعالى، إلا من صحراء " عيذاب " يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص، ثم يركبون الإبل من قوص، ويعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب، ثم يركبون البحر في الجلاب إلى جدّة ساحل مكة، وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة، يردون في البحر إلى عيذاب، ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص، ومنها يردون مدينة مصر، فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة آهلة بما يصدر، أو يرد من قوافل التجار والحجاج، حتى إن كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل، ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها والقفول صاعدة وهابطة لا يعترض لها أحد، إلى أن يأخذها صاحبها.

فلم تزل مسلكًا للحجاج في ذهابهم وإيابهم، زيادة على مائتى سنة من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة، إلى أعوام بضع وستين وستمائة، وذلك منذ كانت

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 196.

الشدّة العظمى في أيام الخليفة المستنصر بالله أبى تميم معدّ بن الظاهر، وانقطاع الحج في البرّ إلى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين " بيبرس " البندقداري، الكعبة وعمل لها مفتاحًا، ثم أخرج قافلة الحاج من البرّ في سنة ست وستين وستمائة، فقلّ سلوك الحجاج لهذه الصحراء، واستمرّت بضائع التجار تحمل من عيذاب إلى قوص، حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة، وتلاشى أمر قوص من حينئذٍ.

وكانت من أعظم مراسى الدنيا بسبب أنّ مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع، وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة، فلما انقطع ورود مراكب الهند واليمن إليها صارت المرسى العظيمة عدن من بلاد اليمن إلى أن كانت أعوام بضع وعشرين وثمانمائة، فصارت جدّة أعظم مراسى الدنيا، وكان لأهلها من الحجاج والتجار فوائد لا تحصى، وكان لهم على كل حمل يحملونه للحجاج ضريبة مقرّرة، وكانوا يكارون الحجاج الجلاب التى تحملهم في البحر إلى جدّة، ومن جدّة إلى عيذاب، فيجتمع لهم من ذلك مال عظيم، ولم يكن في أهل عيذاب إلا من له جلبة فأكثر على قدر يساره، ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت؛ فإنهم يبالغون في شحن الجلبة بالناس حتى يبقى بعضهم فوق بعض حرصًا على الأجرة، ولا يبالون بما يصيب الناس في البحر، بل يقولون دائمًا علينا بالألواح، وعلى الحجاج بالأرواح... " [1].

بدأت سياسة " بيبرس " الحجازية بعمل الإصلاحات اللازمة بالحرم النبوى الشريف وإرسال الكسوة إلى الكعبة [2] وإرسال الصدقات والزيت والشموع

---

(1) المقريزي، الخطط، 1 / 256.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 502. يقول الطرسوسي: "... ذلك أن العرب كانت في الجاهلية تكسو الكعبة. واستمرت كسوتها بعد الإسلام، وكانت الكسوة تصنع من الحرير الأسود المرقوم بالحرير الأبيض، ثم صارت الكتابة باللون الأصفر المشعر بالذهب، وحين سقطت الدولة العباسية تولى كسوتها سلاطين المماليك واهتموا بذلك اهتمامًا كبيرًا لحرصهم على الظهور بمظهر حماة الحرمين الشريفين. وأول من أدار المحمل بمصر السلطان الظاهر " بيبرس " البندقدارى سنة 658 هـ. ويسير جمل المحمل يتهادى وعليه الحرير الملون وفوقه المحمل مغطى بالحرير تعلوه قبة فضية،

والطيب... [1]. وأخيرًا أدى " بيبرس " فريضة الحج سنة 667هـ / 1269 م، فأظهر خشوعًا وكرمًا لاينتهى [2]وانتهز الفرصة لكى يجعل الخطبة في الحجاز للخليفة العباسى ثم سلطان مصر بعده [3]. وهكذا ازداد البعد الدينى وضوحًا في دولة سلاطين المماليك [4].

هذا ولم يكتف " بيبرس " بالعناية بالحرمين الشريفين، بل أمر سنة 1261 م بإرسال الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس، وجدد مسجد الخليل إبراهيم، عليه السلام، وأخرج ما كان في إقطاعيات الأمراء من أوقافه. [5] كما أمر سنة 1261 م ببناء مشهد على " عين جالوت " عرف بمشهد النصر [6] تخليدًا لذكرى ذلك الانتصار العظيم الذى حققه المسلمون هناك [7].

وفى سبيل تأكيد البعد الدينى لدولته، قام الظاهر " بيبرس " بالتقرب إلى العلماء والقضاة والفقهاء، الذين كانوا طليعة المثقفين وقادة الرأى آنذاك، فقد كان القرآن الكريم والحديث النبوى والعلوم المرتبطة بهما ركيزة التعليم والثقافة في ظل الحضارة العربية الإسلامية إلى جانب العلوم الأخرى التى عرفت باسم العلوم العقلية. ومن ثم كان " أهل العمامة " في ذلك العصر يمثلون عقل الأمة

وأمام الموكب تركض كوكبة من فرسان المماليك بملابس الميدان الزاهية ومعداتهم وأسلحتهم البراقة وهم يستعرضون مهاراتهم أمام المتفرجين من أفراد الشعب، ويقومون ببعض الألعاب البهلوانية، ودقات الطبول والموسيقى النحاسية تصم الآذان، ويخرج هذا الموكب في شهر شوال إلى طريق الحجاز على هذا الشكل يقوده أحد كبار أمراء المماليك وفيه عدد من الأطباء والمؤذنين، والقاضى والشهود، والأمناء ومغسلو الموتى، ويلتحق به من يريد الحج من الناس... " انظر: نجم الدين إبراهيم بن على الحنفى الطَّرَسوسي، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي، الطبعة: 2، 1 / 82.

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 512.
(2) المقريزي، السلوك، 1 / 581- 582.
(3) المقريزي، السلوك، 1 / 504.
(4) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 92.
(5) المقريزي، السلوك، 1 / 445- 502.
(6) المقريزي، السلوك، 1 / 446.
(7) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 198.

ووجدانها. كما كانوا يحتلون مكانة سامية لدى الحكام والمحكومين، وقد أعاد " بيبرس " للجامع الأزهر - أول مساجد القاهرة - مكانته عندما نزل ليصلى فيه الجمعة في 18 ربيع الأول سنة 665 هـ / 1267 م بعدما أمر بترميمه وعمارته، وبذلك عادت الخطبة للجامع الأزهر بعد أن كانت قد انقطعت فيه مدة تناهز مائة سنة (1) وبنى مسجدًا بالقاهرة حمل اسمه (2).

وفى إطار التقرب إلى العلماء والفقهاء والمتصوفة فيؤثر عن " بيبرس " أنه زار الإسكندرية أربع مرات وكان يحرص في كل زياراته تلك تفقد وزيارة كبار المتصوفة من علمائها أمثال الشيخ القبارى والشيخ الشاطبي، وقرب إليه واحدًا من الدراويش هو الشيخ خضر الذى كانت له زاوية بميدان قراقوش بالإسكندرية (3) وأنه كان يترك في كل زيارة أثرًا يدل على اهتمامه بالإسكندرية مثل تحصين أسوارها، وتقوية أسطولها، وتطهير خليجها من الرمال التى طمرته (4) وبتلك الوسائل وغيرها تزعم " بيبرس " العالم الإسلامى شرعًا وعرقًا، وقدم ملوك المسلمين إلى القاهرة ودمشق للقيام بخدمته وتقديم فروض الطاعة والولاء والتبعية لشخصه، ما ضمن قيام دولة المماليك على أسس ثابتة (5).

ومن أهم أعمال " بيبرس " بناء المدرسة الظاهرية المشهورة في صفر سنة 662 هـ على أنقاض إحدى قاعات القصر الفاطمى الكبير "... فأمر بهدمها وبناء موضعها مدرسة، فابتدئ بعمارتها في ثانى ربيع الآخر سنة ستين وستمائة، وفرغ منها في سنة اثنتين وستين وستمائة، ولم يقع الشروع في بنائها حتى رتب السلطان وقفها، وكان بالشام، فكتب بما رتبه إلى الأمير جمال الدين بن يغمور، ألا يستعمل فيها أحدًا بغير أجرة، ولا ينقص من أجرته شيئًا، وجعل

---

(1) العيني، عقد الجمان، 2 / 6، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 93.
(2) النويري، نهاية الأرب، 3 /93- 94.
(3) ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص 123.
(4) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 198.
(5) ابن واصل، مفرج الكروب، 2 / 397- 399، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 198- 199.

بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم، وبنى بجانبها مكتبًا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، وأجرى لهم الجرايات والكسوة، وأوقف عليها الأوقاف، وهذه المدرسة من أجلِّ مدارس القاهرة... " [1].

التخلص من بقايا الأيوبيين:

بالرغم من قيام دولة سلاطين المماليك على أنقاض الدولة الأيوبية، وبالرغم من قيام التتار بتحطيم معظم الممالك الأيوبية إلا أنه كانت توجد لهم بعض البقايا المتناثرة من الممالك في الشام، وعلى الرغم من أن المنصور صاحب حماة، والأشرف موسى صاحب حمص قد أعلنا ولاءهما للسلطان الظاهر " بيبرس "، كما أن الملك الصالح صاحب الموصل وصل إلى القاهرة في شعبان 659هـ، ولحق به أخوه المجاهد صاحب الجزيرة، ولقيهما الظاهر " بيبرس " بحفاوة بالغة، ثم كتب تقليدًا للملك الصالح ركن الدين إسماعيل بالموصل وولاياتها، ثم ولى الملك المجاهد سيف الدين إسحاق ببلاد الجزيرة وأعمالها، وكتب لأخيهما الملك المظفر بولاية سنجار وأعمالها [2].

إلا أن العلاقة لم تكن على هذا النسق من المودة وحسن الجوار مع بقية أفراد الأسرة الأيوبية، ذلك أن الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل صاحب حصن الكرك لم يقلع يومًا عن مناوأة سلطان المماليك منذ عهد أيبك التركماني، اعتقادًا منه أنه أحق منهم بملك مصر والشام، فلما جلس " بيبرس " على السلطنة عزم على القضاء على المغيث عمر وإزالته، وأعد حملة كافية لتحقيق ذلك المشروع، لولا أن المغيث عمر بعث برسالة إلى الخليفة الحاكم بأمر الله بالقاهرة يسأله الشفاعة، فكتب الخليفة إلى الظاهر " بيبرس " يشفع فيه، فقبل الشفاعة، وأبقى على المغيث عمر والكرك معًا [3].

غير أنه يبدو أن المغيث عمر ظل على نيته القديمة نحو المماليك وسلطنتهم،

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار (الخطط المقريزية)، 2 / 378.
(2) النويري، نهاية الأرب، 3 /26- 27، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 94.
(3) ابن واصل، مفرج الكروب، 2 /400، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 200.

فكتب إلى " هولاكو " سرًّا يحضه على فتح الشام، ويطلب إليه أن يقيمه عليها ملكًا تابعًا، ولكن " بيبرس" علم بأمر هذه المكاتبات المتبادلة بين " هولاكو " والمغيث عمر. ويقال إن هذه المكاتبات لم تحدث، وأن " بيبرس " اختلق القصة كلها لغرض في نفسه وهو التخلص من أحد الورثة الشرعيين للعرش الأيوبى المناوئين لسلطانه [1].

ومهما يكن من شيء، فقد عمد " بيبرس " إلى السياسة والمداراة، فأرسل إلى المغيث عمر رسالة أكد له فيها الإيمان والمواثيق، وأنه يرعى ذمته ولا يمسه بأذى، وطلب إليه الحضور إلى معسكره بفلسطين. وعلى الرغم من تشكك المغيث عمر في مواثيق " بيبرس "، فاضطر إلى الذهاب إلى حضرة " بيبرس " في معسكره عند بيسان حتى لا يبدو جاحدًا لحسن المعاملة، ناكرًا لجميل الخليفة والسلطان. وفى جمادى الأولى سنة 661هـ / 1263 م وصل المغيث عمر إلى الدهليز السلطانى عند بيسان، فقابله " بيبرس " وأكرم وفادته، وساق إلى جانبه حتى قارب الدهليز، وهناك قبض عليه واعتقله. ثم جمع " بيبرس " مجلسًا حضره كبار الأمراء الشاميين وقاضى قضاة دمشق المؤرخ شمس الدين بن خلكان، وأوقفهم على الكتب المتبادلة بينه وبين " هولاكو "، كما أحضر القصاد الذين حملوا تلك الكتب، ثم أخرج " بيبرس " فتاوى الفقهاء بوجوب قتل المغيث عمر وأرسله مصفدًا في الحديد القاهرة حيث قتل في إبريل سنة 1263 م، واستولى " بيبرس " على الكرك في نفس السنة، وعين عليها واليًا من قبله [2]. وبذا خلا الجو لدولة المماليك من آخر مناوئ لها من ناحية الأيوبيين [3].

سياسة التحالفات:

أدرك " بيبرس " بحنكته السياسية وتمرسه في الحياة العسكرية أن وضع دولة

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 200.

(2) مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد، ص 550، المقريزي، السلوك، 2 / 482، 491- 492، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 201.

(3) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 201.

المماليك الوليدة أصبح في مرمى نيران قوتين عظيمتين كانتا وما زالتا تناصبان الإسلام والمسلمين العداء، أولاهما: المغول الذين مازالوا يلعقون جراحهم منذ هزيمتهم النكراء في " عين جالوت "، ولم يكن من اليسير عليهم نسيان هذه العثرة المريرة التى جعلتهم يغيرون وجهتهم الحربية، وثانيهما: الصليبيون الذين ما زالوا يعيشون على وقع الهزيمة المذلة التى وقعت لهم على الأرض المصرية، وأدرك " بيبرس " أن كلا الفريقين سوف يحاولون رد اعتبارهم من المصريين، وأن تحرك أحدهما أو كليهما للأخذ بثأره يعرض دولته للخطر، لذلك نجده يسعى لعقد التحالفات مع القوى القوية المحيطة به.

سارع " بيبرس " لعقد التحالف مع الدولة البيزنطية وإمبراطورها ميخائيل الثامن باليولوج سنة 660هـ / 1262 م، وأرسل إليه - بناء على طلبه - بطَريقًا من الملكانيين، ليشرف على الملكانيين في دولته، وكان صحبه هذا البطريق - واسمه الرشيد الكحال - الأمير فارس الدين آقوش السعودي، وعدة من الأساقفة، فلما وصلوا القسطنطينية احتفى بهم الإمبراطور وأكرمهم، وأطلع الأمير آقوش على المسجد الذى جدد بناءه في عاصمته [1] كى يصلى فيه المسلمون من التجار والصناع وغيرهم من المقيمين أو المارين بلاده. ولما علم " بيبرس " بما قام به الإمبراطور البيزنطى من التجديدات في بناء هذا المسجد، أمر بتأثيثه وتجهيزه بالحصر والسجاجيد والقناديل المذهبة والمباخر والمسك والعنبر والعود وماء الورد... الخ [2].

ولم يكن اختيار " بيبرس " للإمبراطورية البيزنطية من قبيل المصادفة، بل كان

---

(1) بنى هذا المسجد مسلمة بن عبد الملك في سنة 714 م / 96 هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك على أثر صلح بين البيزنطيين والعرب ينص بناء مسجد بالقسطنطينية، وقد هدمه الصليبيون أثناء غارتهم على القسطنطينية، ويقال أن صلاح الدين قد حاول تجديد بنائه، ولكن لم يجبه البيزنطيون إلى ذلك. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، 2 / 402، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 203.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، 2 /402- 403، المقريزي، السلوك، 1 /427، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 203.

عن دراية بالواقع المحيط بالدولة المملوكية، فقد بدت الإمبراطورية البيزنطية مؤهلة للتحالف مع " بيبرس " ضد الصليبيين، فقد صارت عدوًّا تقليديًّا للمستوطنات الصليبية في الشرق العربي، لا سيما بعد تجربة الأسر المريرة التى عانتها بيزنطة منذ استيلاء الحملة الصليبية الرابعة عليها سنة 1204 م [(1)].

ولما كانت المحالفات مع القوى الأوربية المعاصرة مهمًّا بالنسبة لسياسة " بيبرس " الخارجية، لضمان حياد هذه القوى في الصراع الوشيك ضد الكيان الصليبي، كذلك حالف السلطان " بيبرس " إمبراطور الدولة الغربية وملك صقلية ونابلى منفرد بن فردريك الثانى هوهنشتاوفن، وأرسل له في أوائل حكمه سنة 659 هـ / 1261 م هدية من جملتها عدد من الزراف وعدد من أسرى " عين جالوت " من التتار بخيولهم التترية وعدتهم، فأعجب الإمبراطور بالهدية، وأحسن إلى الرسل وأكرمهم.

وكان على رأس السفارة المصرية المؤرخ الحموى الكبير جمال الدين بن واصل الذى أمدنا ببعض أخبار تلك السفارة في كتابه " مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب " حيث يقول: " توجهت رسولاً إلى منفريد من السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين " بيبرس " - رحمه الله - في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة، فأقمت عنده مكرمًا بمدينة من مدائن أبنولية [(2)] يقال لها برلت، واجتمعت به فوجدته متميزًا محبًّا للعلوم العقلية، يحفظ عشرة مقالات من كتاب إقليدس في الهندسة. وبالقرب من البلد التى كنت نازلاً بها مدينة تسمى " لوجارة "، أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية [(3)] وتقام

(1) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 96.

(2) يريد بذلك مقاطعة أبوليا في جنوب إيطاليا.

(3) يروى المؤرخون أن الإمبراطور " فردريك الثانى " نقل معظم عرب جزيرة صقلية إلى مدينة لوجارة في أبوليا جنوبى إيطاليا سنة 1249 م، وكان ذلك على إثر مصادمات عنيفة وقعت بين العرب والمسيحيين في صقلية، فنقلهم الإمبراطور معه إلى مدينة لوجارة حيث كان يقضى أغلب أوقاته متخذًا إياهم حرسًا أمينًا له. العبادي، قيام دولة المماليك، ص 204 حاشية 1.

الجمعة فيها ويعلن فيها بشعائر الإسلام، وهى على هذه الصفة من عهد أبيه الإمبراطور [1] وكان قد شرع في بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية. وأكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون، ويعلن في معسكره بالآذان والصلاة[2].

كما كان لبيبرس علاقات جيدة وودية مع الفونسو العاشر ملك قشتالة الأسباني، فتذكر المصادر الأسبانية أن ألفونسو العاشر أرسل إلى السلطان الظاهر " بيبرس " البندقدارى هدية من الخيول العربية الأصيلة، وذلك في سنة 659 هـ / 1261 م. وقد رد " بيبرس " بهدية مماثلة من بينها زرافة، وسن فيل، وتمساح محنط لا يزال إلى اليوم معلقًا في مدخل الباب الشرقى لكاتدرائية أشبيلية، وتضيف الرواية أن السلطان " بيبرس " طلب الزواج من ابنة الملك الأسبانى ألفونسو العاشر ولكن طلبه لم يتحقق [3].

كانت تلك جهود " بيبرس " في الغرب؛ أما في الشرق فقد بسط يد التحالف والصداقة إلى " بركة خان "، زعيم القبيلة الذهبية من قبائل المغول، الذى كان أول من اعتنق الإسلام من أبناء جنكيزخان. وكانت بلاد هذا الخان المسلم تمتد من تركستان شرقًا حتى شمال البحر الأسود غربًا، وتعرف ببلاد القفجاق أو القبشاق، وعاصمتها مدينة صراى في شمال غرب بحر قزوين، وتبودلت الرسائل والسفارات بين " بيبرس " و" بركة خان " فيما بين سنتى 659 و661 هـ / 1261 و 1263 م. كما تزوج " بيبرس " من ابنة " بركة خان " لكى يزيد من روابط الصداقة والود بينه وبين الخان المغولى " بركة خان "، وأمر له

---

(1) يقصد الإمبراطور فردريك الثانى الذى كان اتصاله بملوك وعلماء المسلمين، وفضله في نشر الثقافة العربية في أوروبا حديث الكتاب والمؤرخين في كل عصر. العبادي، قيام دولة المماليك، ص 204 حاشية 2.

(2) نقلاً عن، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 204.

(3) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 205.

بالدعاء على منابر القاهرة والقدس والحرمين الشريفين مكة والمدينة [1].

ولا شك أن هذا التحالف كان موجهًا بطبيعة الحال، ضد عدوهما المشترك الممثل في إيلخانات فارس التى يحكمها " هولاكو " وأولاده، وكانت تشمل فارس والعراق وعاصمتها تبريز أو مراغة [2]، فيروى المقريزى أن " بيبرس " أخذ يحرض " بركة خان " على قتال " هولاكو " ويرغبه في ذلك [3].

ولم يكتف " بيبرس " بذلك، بل حالف في سنة 660 هـ / 1262 م سلطان سلاجقة الروم عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، ووعده بالمساعدة ضد ركن الدين قلج أرسلان وضد " هولاكو " وأطماعه في آسيا الصغرى. وأرسل " بيبرس " جنوده إلى دمشق وحلب استعدادًا لتأييد السلطان عز الدين ضد أخيه ركن الدين وضد المغول [4].

ومن الواضح أن المعاهدات التى أبرمت والسفارات التى تبودلت بين سلطان مصر المملوكى وبين ملوك الدول المحيطة به شرقًا وغربًا، جعلت دولة المماليك في شيء من الأمن مما قد يهدد كيانها من ناحية المغول والصليبيين، وإن كان من المعروف أن خلو عهد " بيبرس " من حملة صليبية على مصر إنما يرجع لانصراف الدول الأوربية إلى شؤونها ومشاكلها في الغرب، كما أن قلة الغارات المغولية في عهده إنما يرجع إلى ما طرأ على المغول من حالة سكون مؤقت بعد عاصفة جنكيزخان وهولاكو في البلاد الشرقية على الأقل [5].

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، 2/ 409، مفضل بن أبى الفضائل النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ص 454- 462، ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية، ص99، 167، المقريزي، السلوك، 1 / 474- 475، العبادي، قيام، دولة المماليك، ص 406، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 97.

(2) العبادي، قيام، دولة المماليك، ص 406.

(3) المقريزي، السلوك، 1 / 465.

(4) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 206.

(5) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 207.

الإصلاحات الداخلية والجيش والأسطول:

بعد أن اطمأن " بيبرس " إلى جبهته الخارجية أنطلق يشرع في استكمال مؤسسات دولته الداخلية، وتأمين حدوده ضد الغزو الخارجي، وتنظيم جيوشه، وتقويه أسطوله البحري، فقام بتجنيد العشائر العربية سنة 659 هـ / 1261 م، وهى العشائر المقيمة على الحدود الفراتية مثل عرب خفاجة، وحثهم على قتال " هولاكو " بعد أن غمرهم بالخلع والهدايا والأموال، ويقال أن هؤلاء العربان قاموا بمهمتهم خير قيام حتى وصلت إغاراتهم أبواب مدينة بغداد التى كان المغول يحكمونها آنذاك (1).

كما أعاد تحصين القلاع التى تحمى مناطق الحدود مع دولة مغول فارس، وشحنها بالذخيرة والأقوات، وتمركزت بها أعداد كافية من الجنود، وأقام سلسلة من نقاط المراقبة المنائر (2) لرصد نشاط العدو في تلك المناطق الحدودية، وكان تبادل المعلومات بين نقاط المراقبة يتم عن طريق هذه الإشارات الضوئية بالنيران، أو إشارات الدخان (3).

كما أمر " بيبرس " نوابه بحلب سنة 660 هـ / 1262 م بإحراق المروج والأعشاب التى جرت عادة " هولاكو " أن يعسكر على مقربة منها أثناء هجومه على الشام (4) فجهزت القداحات والصوفات وآلات النار سرًّا، وأحرقت

---

(1) المقريزي، السلوك، 476/1.

(2) وهى عبارة عن أبراج للمراقبة يرابط فيها الحراس والمرابطون ليل نهار. فإذا كشفوا عدوا مقبلاً من البر كالمغول، أو من البحر كالصليبيين، أشعلوا النار على قمم هذه المناور إذا كان الوقت ليلاً، أو أثاروا فيها دخانًا إذا كان الوقت نهارًا. ثم سرعان ما تنتقل هذه الإشارات النارية أو الدخانية من منارة إلى أخرى تحذر الأهالى إلى أن تصل إلى العاصمة. فهى تشبه صفارات الإنذار في وقتنا الحاضر، وكثيرًا ما استعمل المنورون إشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات معينة للإخبار عن حالة العدو أوعدده أو جنسيته أو غير ذلك. وإن كانت المصادر لم تشرح لنا طريقة إرسال هذه الإشارات. العبادي، قيام دولة المماليك، ص 209.

(3) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 97- 98.

(4) وذلك أنه كان من عادة التتر أنهم لا يكلفون علوفة لخيلهم، بل يكلؤنها إلى ما تنبت الأرض، فإذا كانت تلك أرض مخصبة سلكوها، وإذا كانت مجدبة تجنبوها؛ وكانت أرض هذه البلاد المتقدمة

تلك المروج جميعها، وهى مسيرة عشرة أيام من آمد إلى خلاط، وبذا قطع " بيبرس " على " هولاكو " وجنوده السبل والطريق المؤدية إلى الشام [1].

ثم أمر " بيبرس " سنة 1263 / بعمارة القلاع التى خربها المغول من حمص إلى حوران، وزودها بالمؤن والذخيرة، فأقام بذلك خطًا حصينًا من شرق الأردن إلى نهر العاصي، فضلاً عن أبراج المراقبة التى أقامها على طول الأطراف الصليبية لحفظ الطرقات من اعتداءات الفرنج [2].

ولم يقتصر " بيبرس " على ذلك، بل أمر في سنة 1264 م بتجديد بناء القلاع التى على الحدود الفراتية لا سيما قلعة البيرة التى أرسل إليها آلات القتال والأسلحة من مصر والشام، وعبأ فيها كل ما يحتاج إليه أهلها من الحصار لمدة عشر سنين، كى تظل شوكة في جنب المغول [3].

أما في مصر فإن السلطان أمر بردم مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخورًا عظيمة ليحول دون مرور سفن الصليبيين، وتتكرر مأساة دمياط من جديد، كما شيد برجًا للمراقبة في رشيد، وعمر أسوار الإسكندرية وجدد بناء المنار الذى بها[4].

على أن " بيبرس " لم يكتف بتلك الاستعدادات الدفاعية لضرورة ما تتطلبه الظروف الحربية من سرعة تلقى الأخبار ولإصدار الأوامر، ولهذا وضع

الذكر أرضًا مخصبة، تقوم بكفاية خيل القوم إذا قصدوا بلادنا، فإذا أحرقوا زرعها ونباتها ضعفوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك جميع الرفق، والدفع عن مباغته الأطراف ومهاجمة الثغور. وكان طريقهم في إحراقها أن يجهزوا إليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية وكلاب الصيد، فيكمنون عند أمناء النصاح في كهوف الجبال وبطون الأودية، ويرتقبون يومًا تكون ريحه عاصفة وهواؤه شديدًا، تعلق النار موثقة في أذناب تلك الثعالب والكلاب، ثم تطلق الثعالب، والكلاب في أثرها وقد جوعتُ، لتجد الثعالب في العدو، والكلاب في الطلب، فتحرق ما مرت به من الزرع والنبات، وتعلق الريح النار منه فيما جاوره انظر. القلقشندي، صبح الأعشى، 5 /484.

(1) العبادي، قيام، دولة المماليك، ص 407- 408.

(2) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 209.

(3) المقريزي، السلوك، 1 / 525، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 211.

(4) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 211.

للبريد نظامًا ربط به جميع أنحاء مملكته بشبكة من خطوط البريد البرية والجوية. وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل بالقاهرة، ومنها تتفرع سائر الخطوط، وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء المملكة، وإليها ترد الرسائل من الحكام، والتقارير من ولاة الأعمال، والنيابات في سرعة وانتظام، حتى صار البريد يصل من دمشق إلى القاهرة في ثلاثة أيام، ولم يتأت ذلك إلا بعد أن أنفق " بيبرس " أموالاً ضخمة في سبيل ترتيبه [1].

ولم يقتصر الأمر على البريد البري، فهناك أيضًا ما يمكن أن نسميه البريد الجوي، ونعنى بذلك الحمام الزاجل، الذى كان يستخدم في الحالات المستعجلة. وكان لهذا الحمام أبراج خاصة، بالقلعة ومراكز معينة في سائر أنحاء المملكة مثل مراكز البريد البري، ولكنها تزيد عنها في المسافة [2].

ولم تقف مجهودات " بيبرس " الحربية عند هذا الحد، بل عمل على إنشاء قوة بحرية يستعين بها في صد أعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر، ويعتبر " بيبرس " مؤسس أسطول المماليك، إذ يشير المقريزى إلى كثرة ركوب هذا السلطان في بحر النيل، وإلى اهتمامه بدور صناعة السفن في

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 /446- 447، ابن إياس، بدائع الزهور، 108/1 يقول المقريزى عن تنظيم " بيبرس " للبريد: ". فلما ملك مصر الملك الظاهر " بيبرس " البندقداريّ، رتب البريد في سائر الطرقات، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق في أربعة أيام، ويعود في مثلها، فصارت أخبار الممالك ترد إليه في كل جمعة مرّتين، ويتحكم في سائر ممالكه بالعزل والولاية، وهو مقيم بالقلعة، وأنفق في ذلك مالاً عظيمًا حتى تم ترتيبه، وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة، وما زال أمر البريد مستمرًّا فيما بين القاهرة ودمشق، يوجد بكل مركز من مراكزه عدّة من الخيول المعدّة للركوب، وتعرف بخيل البريد، وعندها عدّة سُوّاس، وللخيل رجال يعرفون بالسوّاقين، وأحدهم سوّاق يركب مع رسم بركوبه، خيل البريد ليسوق له فرسه، ويخدمه مدّة مسيره، ولا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطانيّ، فتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهماته، وتارة يركبه من يريد السفر من الأعيان بمرسوم سلطانيّ، وكانت طرق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة، أو ماشية، لا تحمل زادًا ولا ماء. " المقريزي، المواعظ والاعتبار، 1 /286.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، 14/ 389- 394.

الفسطاط (مصر) وجزيرة الروضة، والإسكندرية ودمياط، لدرجة أنه كان يشرف بنفسه على بناء الشواني، وتجهيزها بآلالات [1].

ولما كان الجيش يحتاج إلى رجال مثلما يحتاج إلى أسلحة وعتاد، فقد حرص " بيبرس " على الإكثار من شراء المماليك من بنى جنسه القفجاق، إذ "... مالت الجنسية إلى الجنسية.. " على حد تعبير المؤرخ أبى العباس القلقشندي، وربما كانت العلاقات الودية الوطيدة بين " بيبرس " و" بركة خان "، حاكم القفجاق، هى التى يسرت سبيل الحصول على المماليك القفجاق من ناحية، كما أن الهجرات المغولية الكثيرة إلى مصر كانت موردًا إضافيًّا من ناحية أخري، كذلك كانت علاقاته الودية مع الإمبراطور البيزنطى تسهل مرور السفن التى تحمل أولئك المماليك، ولما كانت بلاد القفجاق بلادًا رعوية شحيحة الموارد، فقد كان أهلها من الرعاة الحل الذين يمضون الصيف في منطقة والشتاء في منطقة غيرها، وكانت وطأة الفقر والحاجة تجعلهم يبيعون أبناءهم وبناتهم مقابل مبلغ من المال أو كمية من الغلال، ومن ناحية أخرى كان أولئك الرعاة الفقراء محاربين جسورين، فكانوا يغيرون على جيرانهم من الجراكسة والروس والمجر واللان ويسبون أعدادًا منهم يبيعونهم في أسواق الرقيق العالمية.

على أية حال استطاع السلطان الظاهر " بيبرس " تكوين جيش قوى بلغت عدته أربعين ألف فارس، وهو رقم ضخم بمقاييس ذلك الزمان، لا سيما إذا عرفنا أن الفارس المدرع كان له تأثير نفسى على المشاة في ميدان القتال يشابه تأثير الدبابة في زماننا [2].

أما الفئات التى تكون منها الجيش فهى كالآتي:

المماليك السلطانية: وكانوا يعسكرون في القاهرة ويصحبون السلطان في حروبه وأسفاره وكانوا يؤلفون القوة الرئيسية في جيش سلاطين المماليك.

---

(1) المقريزي، الخطط، 2 / 180، 297، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 213.

(2) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 99- 100.

وعادة ما كانت المماليك السلطانية تتألف من مماليك السلطان الذين اشتراهم، وتتكاثر أعدادهم حين ينضم إليهم مماليك أسلافه من السلاطين، أو من يقعون تحت طائلة غضب السلطان، فيصادر ممتلكاتهم ويضم مماليكه إلى المماليك السلطانية، بيد أن العلاقة بين السلطان والمماليك الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم كانت أقوى بطبيعة الحال، من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك، من ناحية أخرى كان السلاطين يولون عناية كبيرة لتربية مماليكهم وتدريبهم، ؛ لأنهم كانوا بمثابة الحرس السلطاني الخاص، كما كان السلطان يختار لهم أعلى الوظائف قدرًا وأكبرها إقطاعًا سواء في البلاط أو الجهاز الحكومي [1].

جند الحلقة: وهم من محترفي الجندية من أولاد المماليك، وقد عرفوا أيضًا باسم (أولاد الناس)، فهم على هذا الوضع أحرارًا وليسوا من المماليك. وهم كثرة الجيش وعامته في حالة الحرب وأصحاب صناعات في وقت السلم. ولكل أربعين نفس مقدم منهم ليس له عليهم إلا إذا خرج الجيش للحرب، فهم أشبه باحتياطي الجيش، وبمضي الزمن صار معظم جند الحلقة من أهل مصر، كذلك كان يوجد جند حلقة في الشام، يؤخذون من أهل الشام، ويوزعون على نياباتها[2].

جيوش الأمراء: وهم يشبهون المماليك السلطانية، غير أنهم تابعون مباشرة لأمرائهم ومنهم تتكون الوحدات الحربية التي يذهب بها الأمراء مع السلطان في حروبه، وكانت أعدادها بين ثلاثمائة وثمانمائة مملوك وغالبًا ما كانت جيوش أمراء المماليك تتمركز خارج العاصمة [3].

وهكذا كان تحصين " بيبرس " للثغور والعواصم المملوكية بأطراف الدولة، وتنظيمه للجيش وفئاته، وعنايته بالأسطول والبريد، من أهم الدعائم اللازمة لإقامة الدولة المملوكية على أسس ثابتة، والدليل على ذلك أن " بيبرس "

---

(1) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي- عصر سلاطين المماليك- ص 13- 14.
(2) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، 3 / 20- 27، العبادي، قيام دولة المماليك، ص 220.
(3) القلقشندي، صبح الأعشى، 4 / 15- 26، المقريزي، السلوك، 1 / 122.

استطاع بفضل ذلك الجيش والأسطول والتحصينات، أن يقوم بالدور الذى حلا له أن يقوم به، وهو محاكاة صلاح الدين الأيوبى في الجهاد ضد الصليبيين وحلفائهم في الشام وفى النوبة فضلاً عن جهاد المغول [1].

يقول النويرى مجملاً إصلاحات " بيبرس ": "... ما اعتمده السلطان في ابتداء سلطنته ورتبه من المصالح وقرره من القربات والأوقاف والعمائر كان ما ابتدأ به، رحمه الله تعالى وعفا عنه وأنابه، عمارة الحرم الشريف النبوي...

ثم وصلت الكتب في سنة تسع وخمسين أن القبة التى بالصخرة الشريفة ببيت المقدس قد تداعت، فكتب إلى دمشق بتجهيز الصناع إليها وما يحتاج إليه من الآلات، وأنجزت العمارة بها في سنة ستين. وكانت عدة ضياع من أوقاف الخليل قد دخلت في الإقطاعات، فأمر " السلطان " بارتجاعها، وعوض الأمراء عنها، وأعادها إلى الأوقاف، وأوقف قرية " أذنا " على الخليل عليه السلام. وبناء قلعة الجزيرة.

وكان السلطان الملك المعز قد أمر بهدمها، وأباح ما بها من الرخام والأصناف التى غرم عليها السلطان الملك الصالح الأموال العظيمة، فرسم السلطان " " بيبرس " " بعمارتها، وندب لذلك الأمير جمال الدين بن يغمور، فشرع في إصلاح ما استهدم من قاعاتها، ورتب فيها الجاندارية، وأعادها إلى ما كانت عليه من الحرمة. وفرق السلطان الأبراج: فرسم أن يكون برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاوون الألفي، وثانيه للأمير عز الدين الحلى، والبرج الثالث للأمير عز الدين إيغان، وبرج الزاوية الغربى للأمير بدر الدين بيسرى الشمسي. وفرق بقية الأبراج على الأمراء، ورسم أن تكون بيوتاتهم وإسطبلاتهم بها، وسلم إليه المفاتيح. ووسم بعمارة القناطر بجسر شبرمنت بالجيزة. فبنيت القناطر في هذا الجسر تلتقى صدمة الماء الأولى وتفتحت

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 221.

لتصريف المياه أولاً فأولاً " كذا ".

ورسم بعمارة مشهد النصر ب" عين جالوت "، وكتب بذلك إلى نواب الشام. وحث على عمارة الأسوار بثغر الإسكندرية وحفر خنادقها، ورتب جملة من الأموال في كل شهر تصرف في نفقة العماير وبنى مرقبًا لثغر رشيد لكشف مراكب الفرنج.

ورسم بردم فم بحر دمياط، وتوغيره بالقراتيص، وتضييقه ليمنع السفن الكبيرة من الدخول فيه. ورسم بحفر بحر أشموم طناح، وندب لذلك الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى فتوجه لذلك وحفر ما يجب حفره، وغرق المراكب قبلى فم البحر من الجانب الغربى حتى ترد الماء إليه. واهتم بعمارة الشوانى وأعادها إلى ما كانت عليه من الأيام الكاملية والصالحية. وأمر بعمارة شوانى الثغرين وأحضرها إلى ساحل مصر، وكانت تزيد على أربعين قطعة، وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد والسلالير.

وركب الخليفة والسلطان في يوم الأحد تاسع عشر شهر رجب سنة تسعة وخمسين وستمائة من القلعة إلى ساحل مصر، وركبا في الحراريق، وتفرجا، وطلعا إلى قلعة الجزيرة وجلسا بمقعد البانياسي، ولعبت الشواني، ثم عادا إلى القلعة.

ورسم بعمارة القلاع المنصورة بالبلاد الشامية وهي: قلعة دمشق، والصلت وعجلون، وصرخد، وبصرى، وبعلبك، والصبية، وشيزر، وشميس، وكان التتار قد خربوا أسوارها فرسم بإعادة ما استهدم و إصلاح ما تشعث.

ورسم بعمارة مدرسته التى بالقاهرة.

هذا ما قرره من المصالح العامة ورتبه من المهمات في ابتداء سلطنته " [1].

---

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 8 /174.

الجهاد ضد الصليبيين:

توافقت إقامة لويس التاسع في فلسطين - بعد هزيمته المذلة في المنصورة - مع قيام دولة المماليك، حينما كانت مطالبة الأيوبيين بعرش مصر على أشدها والحرب قائمة بينهم وبين المماليك. واستطاع لويس التاسع بدهائه أن يستغل ذلك النزاع لصالحه، وأن يصلح في هدوء ما أحدثته هزيمة المنصورة. وبفضل هذه السياسة المرنة تمكن لويس التاسع من إطلاق عدد كبير من أسرى جيشه، وإلغاء ما تبقى عليه من أموال الفدية فضلاً عن حصوله على وعد من السلطان أيبك بتسليمه بيت المقدس إذا ما انضم إلى جانبه ضد الأيوبيين. ثم جاء تدخل الخليفة العباسى الذى حسم النزاع بين الطرفين المتنازعين مخيبًا لآمال الصليبيين المستعمرين، واضطر لويس التاسع أن يعود إلى بلاده خائب السعى سنة 1254 م بعد أن فشل في تغيير الأوضاع السياسية في فلسطين وتدعيم مركز الصليبيين فيها، وإن كان قد استطاع بإقامته هناك أن يرفع الروح المعنوية بين الصليبيين في الشام بعد أن انقطعت عنهم سبل الإمدادات العسكرية من أوروبا. والفترة التى تلت رحيل لويس التاسع إلى أن تولى " بيبرس " سلطنة مصر والشام (1254 - 1260) كانت فترة هدوء ومسالمة بين الصليبيين والمسلمين بسبب انشغال كل فريق بمشاكله الداخلية [1].

على أن هذا الموقف لم يلبث أن تغير تمامًا في عهد " بيبرس " وخلفائه، إذ نجد أن السياسة المصرية نحو الصليبيين في الشام تتسم بطابع العنف والقسوة. والسبب في ذلك يرجع إلى أن الصليبيين أخذوا يتعاونون مع مغول فارس ضد دولة المماليك، ويعملون كأدلاء ومرشدين لجيوشهم المغيرة على الأراضى الشامية، وقد ساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافى في الشام الذى أتاح لهم معرفة تحركات الجيوش المصرية والشامية وإحاطة المغول علمًا بها مما سهل عليهم إحباط خطط المسلمين في كثير من الأحيان. ولم يقتصر الأمر على ذلك النحو، بل نجد أن بعض الإمارات الصليبية قد سمحت لعدد من الحاميات

(1) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 221- 222.

المغولية بالنزول في حصونها من باب التعاون العسكرى أو الدفاع المشترك ضد المسلمين. ولم تلبث هذه الحاميات المغولية أن فرضت إرادتها على الصليبيين في كثير من الأحيان، وصارت تملى عليهم إرادة الخان المغولى المقيم في تبريز أو مراغة أو بغداد.

ومهما يكن من شيء فإن هذه الحركة الماكرة من جانب الصليبيين في الشام، كانت بلا شك السبب الحقيقى لتلك السياسة العنيفة التى اتبعها " بيبرس " وخلفاؤه نحو الصليبيين إذ عز عليهم أن يكونوا مراقَبين من الفرنج لحساب المغول، فصمموا على طردهم من الشام [1].

بدأت الحرب بين " بيبرس " والصليبيين على شكل مناوشات محلية، ويفهم من كلام المقريزى أن " بيبرس " ذهب بنفسه إلى الشام سنة 1263 م، وكانت حركاته وقتئذٍ تدل على أنه كان يتفقد قواته ويوزعها توزيعًا إستراتيجيًّا خاصًّا، وعندما سارعت إليه وفود الإمارات الصليبية تطلب منه السلام والمهادنة، قابلها بمنتهى الجفوة مما يدل على تصميمه على القتال[2].

في سنة 663 هـ / 1265 م بدأت عمليات الظاهر " بيبرس " العسكرية ضد الصليبيين، ففى ربيع الآخر من هذه السنة توجه إلى بلاد الشام، وهاجم قيسارية وحاصرها حتى تم فتحها عنوة في الثامن من جمادى الأولي، ثم استولى على أرسوف في رجب من السنة نفسها [3] وكانت تلك مجرد بداية لغارات " بيبرس " وحملاته على الصليبيين، فمنذ تلك السنة بدأ هجوم دولة سلاطين المماليك على الصليبيين، ولم ينته إلا بالقضاء عليهم تمامًا بعد حوالى ثلاثين سنة في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون. وكثيرًا ما لجأ " بيبرس " إلى عقد المعاهدات والاتفاقيات مع بعض القوى الصليبية كى يضمن النجاح لعملياته

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 222- 223.
(2) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص223.
(3) ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية، ص 107، العيني، عقد الجمان، 1 / 396- 398.

العسكرية ضد البعض الآخر[1].

وفى السنة التالية 1266 م، هاجم " بيبرس " قاعدة إستراتيجية صليبية خطيرة في الشام هى قلعة صفد التى كانت قاعدة لفرسان الداوية، وبعد قتال عنيف تمكن " بيبرس " من الاستيلاء عليها [2] ويقال: إن " بيبرس " استولى على صفد بعد تأمينها ثم نكث بوعده وأمر بقتل حماتها لأسباب غامضة [3]، مما جعل المصادر الصليبية تتهمه بالخيانة والغدر.

ولا مجال للكلام هنا عن الغدر والخيانة مع أناس مثل الصليبيين كان الغدر هو شيمتهم طوال تاريخهم الطويل، وحسبنا أن نتصفح أخبارهم لنجد أمثلة مشابهة كثيرة في هذا المجال[4].

على ما يبدو أن سقوط قلعة صفد في أيدى المسلمين، وما جرى لفرسانها الداوية قد أصاب الصليبيين بضربة قاصمة، جعلتهم يهيمون على وجوههم إلى " بيبرس " يطلبون الأمان وعقد معاهدات الصلح معه، فقد أسرع أمير " صور "، وأمير " بيروت "، وفرسان الإسبتارية في كل من حصن الأكراد وحصن المرقب إلى طلب عقد الهدنة مع السلطان الظاهر " بيبرس "، كما أنه نجح في سنة 666 هـ / 1268 م من الاستيلاء على مدينة يافا بفلسطين، ثم استولى على حصن منيع آخر هو حصن الشقيف أرنون بعد حصار دام شهرين [5].

وفى نفس العام 666 هـ / 1268 م وجه " بيبرس " ضربة قاصمة للصليبيين عندما استولى على مدينة أنطاكية في أقصى الشمال، فيروى المؤرخون أنه هاجمها بثلاث فرق: إحداها اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين

---

(1) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 102.

(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 260- 265.

(3) لم تكن أسباب ودوافع " بيبرس " غامضة بالقدر الذى يجعلنا نجهلها، فقد كان هؤلاء الفرسان من الداوية أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين وارتكبوا الكثير من المذابح والفظائع ليس في حق المحاربين فقط بل وفى حق الأبرياء من والأطفال والشيوخ والنساء الأسري.

(4) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 223.

(5) المقريزي، السلوك، 1 / 564- 566.

أنطاكية والبحر، والثانية سدت الممرات بين قليقية والشام لمنع وصول إمدادات من أرمينية الصغرى، والثالثة وهى القوة الرئيسية بقيادة " بيبرس "، هاجمت المدينة نفسها واستولت عليها في مايو سنة 1268 م / رمضان سنة 666هـ (1) واستولى المسلمون على المدينة التى ظلت رهن الأسر الصليبيين منذ الحملة الصليبية الأولي، أى على مدى أكثر من مائة وخمسين سنة.

وقد بلغ من كثرة الغنائم التى غنمها المسلمون من أنطاكية ".. أن قسمت النقود بالطاسات " كما بلغ من كثرة الأسرى أنه "... لم يبق مسلم إلا له غلام... وبيع الصغير باثنى عشر درهمًا، والجارية بخمسة دراهم " (2).

وعلى ما يبدو أن نجاحات " بيبرس " في الجهاد ضد الصليبيين قد شجعته لمواصلة حركة التحرير الكبرى التى بدأت منذ الدولة الأيوبية، وإن كانت تعطلت حينًا من الزمن بسبب المنازعات الأيوبية، ثم جاء الظاهر " بيبرس " ليعيد إحياء حركة الجهاد الكبرى التى بدأها صلاح الدين الأيوبي، وهى الحركة التى لم تنته إلا عندما تنجح القوات المصرية بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في اجتثاث بقايا الصليبيين من عكا سنة 1290م، وإلقائها في البحر المتوسط لتعود من حيث أتت.

بدأ " بيبرس " مهاجمة إمارة طرابلس في العام 1279 م / 669 هـ حيث استولى على المنافذ المؤدية إلى المدينة والحصون المحيطة بها، ومن أهمها حصن الأكراد وحصن عكار، فأصبح بمقدوره بذلك حصار مدينة طرابلس نفسها والاستيلاء عليها، ولكن الأنباء الواردة بخروج الحملة الصليبية الثامنة من فرنسا بقيادة لويس التاسع أنقذت طرابلس من السقوط مؤقتًا، ذلك أن السلطان الظاهر " بيبرس " عاد مسرعًا إلى القاهرة خوفًا من أن يعيد الملك الفرنسى لويس التاسع الكرة ويهاجم مصر، واهتم بتحصينها وأعلن حالة

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 /568، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 2 / 1149.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 568.

الاستنفار في صفوف الجيش والأسطول، و أهمل أمر طرابلس (1).

ويبدو أن ملك فرنسا كان يريد فعلاً أن يكون اتجاه الحملة الصليبية نحو المعاقل الإسلامية في الشرق العربي، لولا أن أخاه شارل دى أنجوا الذى كان ملكًا على جزيرة صقلية، أراد استخدام تلك الحملة في تدعيم ملكه، وذلك بالاستيلاء على مملكة تونس التى كانت تحت حكم الحفصيين في ذلك الوقت، والمراجع التونسية ترجع أسباب تلك الحملة إلى عامل الانتقام الشخصي، فيقول أبو القاسم الرعينى القيروانى المعروف بابن أبى دينار: "وسبب نزول الفرنسيين تونس، قيل إنه ذكر اسمه يومًا بحضرة الخليفة المستنصر بالله الحفصي، فهضم من جانبه، وقال هو الذى أسره هؤلاء وأطلقوه - يشير إلى المماليك -، فبلغت تلك المقالة الفرنسيس - أى لويس التاسع - فحقد لها وعزم على غزو تونس " (2).

والواقع أن هذه الرواية - إن صحت - لا تعدو أن تكون سببًا مباشرًا فقط، أما السبب الحقيقى فيرجع إلى أهمية موقع تونس بالنسبة إلى صقلية التى كان يحكمها شارل أخو الملك الفرنسى كما هو معروف، ويكفى أن ننبه الأذهان في هذا الصدد إلى أن غزو المسلمين لصقلية قد تم من تونس في عهد الأغالبة على القاضى القيروانى أسد بن الفرات سنة 212 هـ / 827 م. وكل هذا يفسر مدى خطورة موقع تونس بالنسبة لصقلية. ولهذا نجح شارل في إقناع أخيه لويس في تحويل تلك الحملة إلى تونس (3).

ولم تكد مراكب الفرنسيين تصل إلى الشواطئ التونسية حتى أصيب الملك الفرنسى لويس التاسع بحمى شديدة مات على إثرها، وتولى أخوه شارل قيادة الحملة، فأخذ يسير وفق أهوائه حتى أزال عنها صفتها الصليبية. وانتهى أمر

(1) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 331- 333، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص 269، أنور زقلمة، المماليك في مصر، ص 37.
(2) ابن أبى دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص 129، نقلاً عن العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 227.
(3) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 227.

هذه الحملة بإجراء مفاوضات مع الخليفة المستنصر الحفصى الذى تعهد بدفع مبلغ من المال مقابل انسحاب الفرنسيين. وهكذا عادت الحملة تجر أذيال الخيبة بتلك النتيجة المادية الضعيفة التى أغضبت معظم الذين اشتركوا فيها [(1)].

كانت لدى الظاهر " بيبرس " جرأة وخبرة جعلته يدرك مدى خطورة موقع جزيرة قبرص والتى كان يعول عليها الصليبيون كثيرًا في هجماتهم على المسلمين، لاسيما وأن هذه الجزيرة قد آل حكمها للملك هيو الثالث لوزجنان الذى اشتهر بأطماعه الصليبية في الشام، وبعداوته الشديدة لدولة المماليك، ولذا فإن الظاهر " بيبرس " قد جرد أسطولاً ضخمًا لمهاجمة قبرص والاستيلاء عليها وحرمان الصليبيين من الاستفادة منها وتجنيب المسلمين خطرهم الآتى منها، ولكن أتت الرياح بما لا تشتهى السفن، إذ تحطم هذا الأسطول عند شواطئ قبرص بسبب هبوب عاصفة شديدة [(2)].

وعندما علم هيو بنبأ الغارة البحرية الفاشلة على بلاده ظن أن ذلك نصرًا حققه على دولة المماليك، فأرسل إلى " بيبرس " رسالة يسخر فيها منه، فرد عليه " بيبرس " قائلاً: "... وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، والاستيلاء على الحصون المنيعة هو العجب، ... وما النصر بالهواء مليح، وإنما النصر بالسيف هو المليح... ونحن ننشئ في يوم واحد عدة قطائع - سفن -، ولا ينشأ لكم من حصن قطعة، وما كل من أعطى مقذافًا قذف، وما كل من أعطى السيف أحسن الضرب به أو عرف... " [(3)].

ولم يلبث الظاهر " بيبرس " أن عاد مرة أخرى إلى الشام بعد أن تأكد لديه انتهاء الحملة الصليبية على تونس بالفشل الذريع، ففى العام 1271 م كانت قوات الظاهر " بيبرس " تقاتل إمارة طرابلس الصليبية من جديد، هذا في الوقت الذى وصلت فيه حملة صليبية إنجليزية بقيادة الأمير إدوارد إلى عكا

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 228.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 594، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 387- 388.

(3) المقريزي، السلوك، 1 / 594.

قوامها ثلاثمائة فارس، وثلاثمائة سفينة، غير القوات التى كانت قد سبقته إلى الشام، وبالرغم من ذلك فقد شدد " بيبرس " من هجومه على طرابلس حتى طلب أميرها الصليبى بوهيمند السادس عقد هدنه وصلحًا مع الظاهر " بيبرس" لمدة عشر سينين [1].

وحاصل الأمر أن الإمارات الصليبية في الشام بدأت تشعر بخطورة الأمر بعد فشل الحملة الصليبية الفرنسية على تونس، وشعرت أن الغرب الأوربى بدأ يتخلى عنهم ليصارعوا دولة المماليك وحدهم فسارعوا إلى طلب الصلح، وعقد الهدنة مع الظاهر " بيبرس "، الذى وافق على إبرام الصلح وعقد الهدنة، وتم الصلح بالفعل بين " بيبرس " والإمارات الصليبية بوجه عام سنة 1271 م [2].

ومن أطرف هذه الاتفاقيات بين " بيبرس " والإمارات الصليبية تلك الاتفاقية التى عقدتها معه إزابيلا، ملكة بيروت عام 667 هـ (1268م) ومدتها عشر سنوات، فقد ذكر القلقشندي أن هذه الملكة قد وثقت ببيبرس إلى درجة أنها كانت عندما ترغب في السفر إلى جهة ما، تذهب بنفسها إلى " بيبرس " وتستودعه بلادها، وعندما خطفها الملك هيو الثالث ملك جزيرة قبرص قام " بيبرس " بتخليصها عن طريق توجيه تهديدات لهيو. لهذا اتخذت لنفسها حرسًا من المماليك حتى ماتت عام 672 هـ (1274م)، وقلدتها في هذه السياسة أختها وخليفتها حتى استولى المسلمون على بيروت [3].

ويجمل القلقشندي بعض منجزات الظاهر " بيبرس " الجهادية بقوله: "... وأخذ في جهاد الفرنج واستعادة ما ارتجعوه من فتوح السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وغير ذلك ففتح البيرة في سنة تسع وخمسين وستمائة والكرك في سنة إحدى وستين، وحمص في آخر سنة اثنتين وستين وستمائة، وقيسارية وأرسوف في سنة ثلاث وستين، وصفد في سنة أربع وستين، ويافا والشقيف،

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 592- 593، النويري، نهاية الأرب، 3 / 331- 332.
(2) النويري، نهاية الأرب، 3 /343- 344.
(3) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 7/ 35.

وأنطاكية في سنة ست وستين، وحصن الأكراد وعكا وصافيتا في سنة تسع وستين، وكسر التتار على البيرة بعد أن عدى الفرات خوضًا بعساكره في سنة إحدى وسبعين؛ وفتح قلاعًا من بلاد " سيس " في سنة ثلاث وسبعين ودخل بلاد الروم، وجلس على كرسى بنى سلجوق بقيسارية الروم [1].

علاقة الظاهر " بيبرس " بالحفصيين:

بدأت علاقة الظاهر " بيبرس " بالحفصيين [2] عندما نشب التنازع بينهما حول من يرث الخلافة العباسية، التى تحطمت على أيدى المغول، وكانت البداية في العام 650 هـ / 1252 م عندما أصبحت علامة الدولة الحفصية بنفس اللقب الخلافي: أمير المؤمنين، ولم تمض على ذلك ستة أعوام حتى سقطت الخلافة العباسية في بغداد على أيدى المغول وقتل الخليفة العباسى المستعصم بالله،

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، 1 / 488.

(2) والحفصيون فرع من الموحدين، وينتسبون إلى الشيخ أبى حفص يحيى بن عمر الهنتاتى شيخ قبيلة هنتاتة إحدى بطون مصمودة، التى قامت على أكتافها دولة الموحدين. وكان هذا الشيخ الحفصى من كبار القائمين بدعوة المهدى بن تومرت، ومن كبار المشيدين لسلطان الموحدين في المغرب والأندلس، وقد ازدادت هذه الصلة ارتباطا عندما تزوج ولده عبد الواحد أخت الخليفة المنصور الموحدي، وصار حاكمًا على البلاد التونسية سنة 603 هـ / 1206 م. ولما هزم الموحدون بالأندلس أمام الجيوش الصليبية المتحالفة في موقعة العقاب سنة 609 هـ / 1212 م وانهار نفوذهم في المغرب والأندلس بعد هذه الكارثة، أعلن الأمير أبو زكريا عبد الواحد الحفصى استقلاله بحكم إفريقية عن خلافة عبد المؤمن في مراكش سنة 626 هـ / 1229 م، ولكنه مع ذلك اقتصر على لقب الأمير لدرجة أنه زجر الشاعر حين مدحه بأمير المؤمنين، على أن هذه الإمارة الحفصية لم تلبث أن تحولت إلى خلافة في عهد ولده أبى عبد الله محمد الذى تسمى بالمستنصر بالله أمير المؤمنين (647- 675 هـ / 1249- 1277 م) ولقد استند الحفصيون في إعلان خلافتهم الجديدة على الأسس الشرعية اللازمة في هذا الصدد، كالأصل العربى والنسب النبوى إلى جانب قرابتهم من الموحدين؛ فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعمر رضى الله عنه من أشراف قريش وكانت له السفارة في الجاهلية، وقد تزوج النبى صلى الله عليه وسلم ابنته حفصة رضى الله عنها، فالحفصيون بحكم هذا النسب النبوي، وبحكم هذا الأصل القرشي، وبحكم قرابتهم للموحدين وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة، بل وإعلان الخلافة في عموم المسلمين مما سوف يسبب لهم الخلافات مع الظاهر " بيبرس " ودولة المماليك في مصر والشام. انظر: العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 193- 194.

وخلا المشرق الإسلامى من وجود خليفة عباسى لمدة ثلاث سنوات (656 - 659 هـ / 1258 - 1271 م). وأعقب ذلك إرسال الأمير إدريس شريف مكة، وأهل الحجاز سنة 657 هـ / 1258 - 1259 م بيعتهم بالخلافة للخليفة الحفصى المستنصر بالله، واعتبروه وريثًا للخلافة العباسية المنهارة [(1)].

ويذكر المؤرخون أنه عندما وصلت إلى الخليفة المستنصر الحفصى بيعة شريف مكة (أبى نمى محمد بن أبى سعد الحسن بن على بن قتادة من ولد موسى الجون بن عبد الله المحضى الحسني) كان لهذه البيعة المكية وقع كبير في البلاط الحفصي، فاحتفل المستنصر الحفصى بها احتفالاً كبيرًا، وقرأها بنصها الكامل الطويل على منبر جامع الزيتونة، وتسمى من يومها باسم " أمير المؤمنين " [(2)].

وعن الاحتفال بالبيعة المكية يقول ابن خلدون: "... إن البيعة لما وصلت استحضر لها السلطان الملأ والكافة وقرئت بمجمعهم، وقام خطيبهم القاضى ابن البراء. وفى ذلك المحفل فأبلغ فيها فاحتفل في تعظيمها والإشادة بحسن موقعها، وإظهار رقعة السلطان وبطاعة أهل البيت الحرام ودخولهم في دولته ثم جأر فيها للسلطان بالدعاء وانفض الجمع، فكان من الأيام المشهودة في دولته " [(3)].

ولا شك أن هذه المبايعة للخلافة الحفصية أصبحت تهديدًا مباشرًا للسياسة المصرية التى كانت تعتمد بالأساس على مد سيطرتها على منطقة الحجاز ومكة والمدينة لأسباب دينية وسياسية واقتصادية أهمها السيطرة على تجارة البحر الأحمر، والظهور أمام العالم الإسلامى بحماية المقدسات الإسلامية في الجزيرة والشام ومواصلة الدور المصرى عبر التاريخ بحماية هذه المقدسات. فجميع الحكام الذين استقلوا بمصر كالطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين، قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز حتى إن الأيوبيين لقبوا

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص 227.

(2) ابن القنفذ، الفارسية، ص 125.

(3) تاريخ ابن خلدون، 6 / 634- 651.

أنفسهم بلقب " خادم الحرمين الشريفين "، وبقى هذا اللقب للمماليك والعثمانيين من بعدهم [1].

ولما وجد الظاهر " بيبرس " أن في سيطرة الحفصيين على الحجاز تهديدًا مباشرًا لدولته الناشئة فإنه سارع بتحقيق مشروعه القاضى بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة، وبعد جلوسه على عرش السلطنة استدعى الأمير العباسى أبا القاسم أحمد، وخرج ليتلقاه خارج القاهرة في شهر رجب 659 هـ / يونيو 1261 م " ومعه الوزير بهاء الدين وقاضى القضاة تاج الدين والشهود والرؤساء والقراء والمؤذنون واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل في يوم الخميس فدخل من باب النصر وشق القاهرة وكان يومًا مشهودًا، ثم بويع بالخلافة في قلعة الجبل ظاهر القاهرة من الديار المصرية " [2].

وقد تلقب الخليفة العباسى الأول في القاهرة بلقب " المستنصر بالله " وهو نفس اللقب الذى اتخذه الخليفة الحفصى بتونس، وما أظن أن تطابق اللقبين كان مجرد مصادفة أو توارد خواطر بقدر ما كان نوعًا من الأسلحة التى استخدمه الظاهر " بيبرس " لإبطال مزاعم الحفصيين بأحقيتهم في خلافة المسلمين [3].

ويذكر المقريزى أن " بيبرس " أراد إبطال إدعاء السلطان الحفصى بالخلافة فكتب إليه " مثلك لا يصلح أن يلى أمور المسلمين " [4].

وبالرغم من التوتر الذى أصاب علاقات الدولتين وما حدث بينهما من تعارض للمصالح إلا أن ذلك لم يمنع من اشتراك الدولتين في الجهاد ضد الصليبيين، والذى مثلته حملة لويس التاسع (الحملة الصليبية التاسعة) على تونس سنة 668 هـ / 1270 م كما سبق أن مثلته نفس الحملة الصليبية على دمياط في سنة 647

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 195.

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 194/1، وانظر أيضًا: السيوطي، حسن المحاضرة، 1 /448- 449، ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، 8 /72- 78، المقريزي، السلوك، 1/ 448- 457، .

(3) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 196.

(4) المقريزي، السلوك، 1 / 401.

هـ / 1250 م، وانتهت بأسر لويس في دار ابن لقمان وتعهده بألا ينزل في أرض للإسلام نظير إطلاق سراحه، وبعد عودته إلى فرنسا، حنث بوعده وقرر العودة إلى مصر على رأس حملة جديدة انتهت بالنزول في تونس بدلاً من مصر، وهلك فيها الملك الفرنسي سنة 669 هـ / 1271 م مع معظم جيشه بالقرب من قرطاجنة بعد أن تفشى فيهم الوباء. وخرج بقية أجناد الحملة من البلاد التونسية بعد عقد الصلح وبشرط عدم التعرض لأى جهة من البلاد وإبرام هدنة لمدة خمسة عشر عامًا مع منح فرنسا أرضًا بقرطاجنة لإقامة ضريح للملك لويس التاسع [(1)].

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين الدولة الحفصية ودولة المماليك حول وقائع هذه الحملة الصليبية، فإن المصادر لم تذكر من إشارة غير ماحملته القصيدة التى ألقاها شاعر تونسى تعبر في أبياتها عن مشاعر الجهاد المشترك بين تونس ومصر ضد القوى الصليبية مطلعها:

يا فرنسيس تونس أخت مصر ::: فتهيأ لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر ::: وطواشيك منكر ونكير [(2)]

وتشير المصادر العربية أنه في العام 670 هـ وصل السفير الحفصى أبى عبد الله محمد بن الراسى على رأس سفارة إلى السلطان الملك الظاهر " بيبرس " في الوقت الذى كان الظاهر " بيبرس " مشغولاً بصد هجمات المغول على بلاد الشام لاسيما البيرة في سنة 670 - 671 هـ / 1272 - 1273 م [(3)].

علاقة الظاهر " بيبرس " مع مملكة أرمينية الصغرى:

تقع مملكة أرمينية الصغرى في جنوب آسيا الصغرى، في جنوب الأناضول

---

(1) تاريخ ابن خلدون، 6 / 663- 671، ابتسام مرعى خلف الله، العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، ص 201.

(2) ابن أبى دينار، المؤنس، ص 136، ابن القنفد، الفارسية، ص 111، تاريخ ابن خلدون، 6 / 663-671، ابتسام مرعى خلف الله، العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، ص 201.

(3) المقريزي، السلوك، 1 / 602، ابتسام مرعى خلف الله، العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، ص 202.

وقليقية، وتحديدًا في المنطقة الممتدة من الرها شرقًا إلى أطنة غربًا، وقد لعبت هذه المملكة المسيحية دورًا خطيرًا ضد دولة المماليك في مصر والشام، إذ إنها لم تكتف بمساعدة الإمارات الصليبية في الشام، بل تحالفت مع مغول فارس وأخذت تحرض " هولاكو " وابنه أبغا أو أبقا على غزو الشام ومصر، هذا إلى جانب الحصار الاقتصادى الذى فرضته على دولة المماليك في مصر والشام بمنع تصدير الخشب والحديد من آسيا الصغرى إلى مصر [1].

وكانت هذه المملكة الصغيرة مصدر قلق واضطراب لدولة المماليك ليس بعلاقاتها مع أعداء المسلمين فقط، بل وبهجماتها على حصون المماليك في الشام، ففى شهر ربيع الآخر سنة 662هـ / فبراير 1264م وردت الأخبار بأن هيثوم ملك الأرمن قد جمع جيشًا وسار إلى هرقلة ونزل على قلعة صرفند، فأرسل الظاهر " بيبرس " البريد إلى حماة وحمص بخروج عساكرهم إلى حلب فساروا إليها وأغاروا على عسكر الأرمن وقتلوا ثلاثين نفرًا وأسروا جماعة فانهزم الأرمن وطلبوا النجدة من حلفائهم التتار، فتقدم من كان من التتار ببلاد الروم وهم سبعمائة فارس، وطلب ملك الأرمن نجدة من أنطاكية الصليبية، فساعدوه بمائة وخمسين فارسًا ولبس الجميع ملابس تشبه ملابس التتار، واجتمع هؤلاء التتار وساروا لمحاربة المسلمين، فلما وصلوا إلى حارم عاقهم الثلج والبرد عن التقدم، فهلك كثير منهم وعادوا من حيث أتوا، وبدأت الاستعدادات العسكرية لمواجهة الأرمن والتتار في جمادى الأولى 662هـ / مارس 1264م، ذلك أن ملك الأرمن هيثوم جمع جيشه مرة أخرى وألبسهم ملابس الجند المغول ليوهم المسلمين أن نجدة التتار قد وصلت إليه، ولهذا كانت القوات الإسلامية قد اجتمعت، فسارت من مصر إلى الشام بقيادة الأمير سيف الدين بلبان الزيني، وذلك للقيام بتجهيز القلاع واستعراض جيش حماة وحلب ورجال الثغور.

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 2 / 1147.

" وفى جمادى الأولى: سافر الأمير سيف الدين بلبان الزينى أمير علم إلى الشام برسم تجهيز مهمات القلاع، وعرض عساكر حماة وحلب ورجال الثغور، وإلزام الأمراء بتكميل العدد والعدة، وإزاحة الأعذار بسبب الجهاد. وكتب على يده عدة تذاكر. بما يعتمده، وأن يحمل من دمشق خزانة كبيرة إلى البيرة برسم نفقاتها، وفى جمادى الآخرة: قبض على جاسوسين من التتار. وتنجز البرج الذى بناه السلطان في قارة، وشرع في بناء برج أكبر منه لحفظ الطرقات من عادية الفرنج. واهتم ملك الأرمن بالمسير إلى بلاد الشام، وأعد ألف قباء تترى وألف سراقوج، ألبسها الأرمن ليوهم إنهم نجدة من التتر ولما ورد الخبر بذلك خرج البريد إلى دمشق بخروج عسكرها إلى حمص، وخروج عسكر حماة، وألا يخرج عربان الشام في هذه السنة إلى البرية، فخرجت العساكر، ووالت الغارات من كل جهة، فانهزم الأرمن... " [1].

ولما كان الخامس من شهر ذى القعدة عام 664 هـ / أغسطس 1266 م سارت الجيوش الإسلامية من بلاد الشام بقيادة الملك المنصور صاحب حماة، وفيهم الأمير عز الدين إيفان والأمير قلاوون وقصدوا بلاد " سيس " عاصمة أرمينية الصغرى، وكان القصد من هذه الحملة هو تأديب بلاد " سيس " لموقفها من المسلمين زمن التتار عندما استولوا على حلب وبلاد الشام إذ إنهم أسروا من نساء المسلمين وأطفالهم خلقًا كثيرًا ثم كانوا يغيرون بعد ذلك على بلاد المسلمين زمن " هولاكو " لأنه أمرهم بذلك [2]، هذا بالإضافة إلى رغبة السلطان الظاهر " بيبرس " في الوصول إلى أسواق الخيل والبغال والحنطة والشعير والحديد، أى فتح باب التجارة بين بلاد الشام ومملكة أرمينية الصغرى، ولكن صاحب بلاد " سيس " لم يستجب لهذه الرغبة خوفًا من " هولاكو "، لهذا سارت القوات الإسلامية لغزو بلاد " سيس "، وعندما التقى

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 511.

(2) حيث لم يكن هناك حليف للمغول إلا دولتى أرمينية الصغرى وبلاد الكرج، وهؤلاء كانوا أقرب إلى التابعين للمغول منهم إلى حلفائهم، حيث كانوا تحت سلطة المغول كتابعين أذلاء لا يملكون من أمرهم شيئًا.

الفريقان انهزم الأرمن وأسر ليفون ابن ملك " سيس " وقتل عمه، وهرب عمه الآخر، وقتل أبن هيثوم الآخر وتمزق باقى جيشه وأصحابه (وقلت أبطالهم وجنودهم).

ثم دخلت القوات الإسلامية بلاد " سيس " نفسها (فأخربوها وجعلوا عاليها سافلها) وفتحوا قلعة العمودين، وقتلوا أهلها ووصلت البشائر بذلك إلى السلطان الظاهر " بيبرس " وهو بدمشق فأعطى المبشر ألف دينار، واضطر الملك هيثوم لكى يطلق سراح ولده أن يتنازل للمماليك عن عدة مواقع استراتيجية هامة تتحكم في طرق المواصلات التى تربط أرمينية بحلفائها المغول في الجزيرة شمالى العراق من ناحية، وبالصليبيين في أنطاكية من ناحية أخري، مثل بهنسا ودربساك ومرزبان ورعبان، وشيخ الحديد - اسم مدينة -، كما اضطر للتدخل لدى المغول لضمان إطلاق سراح شمس الدين سنقر الأشقر (1) كذلك تعهد هذا الملك الأرمنى بدفع جزية سنوية لسلطان مصر والشام مقابل مسالمته، (2) ومنذ ذلك الحين أصبحت أرمينية الصغرى ضعيفة لم تسبب للمسلمين أى مشكلة، إلا مرة واحدة في عهد السلطان محمد قلاوون حيث أخضعها نهائيًّا حيث اعترفت بسيادة سلطان مصر والشام عليها.

علاقة الظاهر " بيبرس " مع مملكة النوبة:

كانت النوبة مملكة مسيحية في أعالى النيل تدين بالطاعة لسلطان مصر، وتؤدى له الجزية السنوية، المعروفة بالبقط، منذ الاتفاقية التى عقدها معهم القائد العربى عبد الله بن سعد بن أبى السرح سنة 650 هـ. غير أن هذه التبعية كانت اسمية في غالب الأحيان، إذ أن هذه الدولة كانت كثيرًا ما تجنح إلى العصيان وعدم دفع الجزية، وتغير على الأراضى المصرية الجنوبية، وقد اهتمت السياسة المصرية بوضع هذه المملكة المسيحية إبان الحروب الصليبية

---

(1) وكان المغول قد أسروه من حلب عندما استولوا عليها أول مرة عام 1260 م / 258 هـ.

(2) المقريزي، السلوك، 1 /552، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 7 /31، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، 4 /5.

بصفة خاصة، عندما صارت قوافل الحجاج والتجار تتجه جنوبًا عن طريق النيل إلى مدينة قوص، ومنها إلى عيذاب وجدة في البحر الأحمر بدلاً من طريق السويس - العقبة في سيناء - الذي صار محفوفًا بالمخاطر بسبب الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين وقيام الإمارات الصليبية [1].

ويبدو أن صلاح الدين الأيوبى قد خشى من أن تكون هناك صلة بين غارات النوبيين على أسوان وبلاد الصعيد، وبين غارات الصليبيين على سواحل بحر القلزم (الأحمر) حتى بلغت عيذاب وتوغلت إلى قوص. لهذا أرسل صلاح الدين أخاه تورانشاه على رأس حملة تأديبية توغلت في بلاد النوبة حتى دنقلة ثم استقر قسم منها في قلعة " أبريم " لحماية قوافل الحجاج والتجارة في هذه الأطراف المصرية الجنوبية.

وعند قيام دولة المماليك تكررت اعتداءات النوبيين على الأراضى المصرية، وانتهز ملك النوبة المدعو داود فرصة انشغال الظاهر " بيبرس " بحروبه ضد المغول والصليبيين ومملكة أرمينية الصغرى، وهاجم ثغر أسوان سنة 1272 م. ويبدو أن داود قام بهذه الأعمال الاستفزازية مدفوعًا بروح صليبية وكراهية دينية، بدليل أنه هاجم أيضًا ميناء عيذاب لا بقصد تهديد التجارة المملوكية في البحر الأحمر فحسب، بل لقطع طريق الحج في هذه المنطقة[2].

وقد رد " بيبرس " على ذلك بإرسال حملتين متتاليتين إلى بلاد النوبة في سنتى 1273 م، 1275 م بقيادة الأميرين آقسنقر الفارقاني، وعز الدين الأفرم. وشاركت البحرية النيلية في هذه الحملات بنقل الجنود والآلات والأقوات حتى مدينة أسوان. وتمكن الأمير عز الدين الأفرم من اختراق الجنادل بمراكبه قرب الشلال الثاني، والانتصار على الملك داود وأسره وإقامة عمه شكندة الذى تعهد بدفع الجزية في كل عام. هذا وكان الظاهر " بيبرس " قد احتل مدينة سواكن

---

(1) مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطي، ص 142، نقلاً عن العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 232.

(2) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 232.

المنفذ البحرى لممالك النوبة على البحر الأحمر سنة 1265 م، مما أدى إلى تهديد المعاقل المسيحية في بلاد النوبة فضلاً عن إحكام السيطرة المصرية على البحر الأحمر وتجارته، وقد أنشأ السلطان " بيبرس " عقب هذه الانتصارات ديوانًا خاصًّا للنوبة في القاهرة تحت إشراف الوزير بهاء الدين بن حنا لمراقبة وصول الجزية من النوبة بانتظام (1).

علاقة الظاهر " بيبرس " مع المغول:

لم تكن قوة المغول العسكرية فقط هى التى يخشاها الظاهر " بيبرس "، بل إن القوة العسكرية تلاشى تأثيرها بعد هزيمتهم في " عين جالوت "، ولكن الخطر الأكبر الذى كان يتهدد العالم الإسلامى وليس المماليك وحدهم هو إمكانية حدوث تحالف بين المغول والصليبيين، ولعل الباعث على ذلك تلك المحاولات المتكررة من جانب كلا الطرفين لإحداث هذا التحالف ضد المسلمين، فقد أرسل أبغا بن " هولاكو " (1265 - 1282 م) سفراء إلى البابا كليمنت الرابع سنة 1267 م، وإلى الملك جيمس الأول ملك أراجون بعدها بسنتين، وإلى مجمع ليون سنة 1274م يقترح القيام بحملات مشتركة ضد دولة المماليك عدوهم المشترك، كما أن البابا نيكولاس الرابع التقط الفكرة وخاطب المغول في شأن التحالف، بيد أن الأمر لم يتعد حدود تبادل السفارات والمفاوضات (2).

ولمجابهة هذا الخطر الماثل، تحالف " بيبرس " مع مغول القفجاق وتزوج ابنة زعيمهم " بركة خان " الذى اعتنق الإسلام وصار حربًا على بنى جنسه مغول فارس. ويظهر ذلك بوضوح في الرسالة التى بعث بها إلى السلطان الظاهر " بيبرس " سنة 1263 م يقول فيها: " فليعلم السلطان أننى حاربت " هولاكو "

---

(1) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 7 / 45- 51، المقريزي، السلوك، 1 / 621- 622، حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ص 280، مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطي، ص 142، نقلاً عن العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 233.

(2) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 108.

الذى من لحمى ودمى لإعلاء كلمة الله العليا تعصبًا لدين الإسلام " [1].

وقد رد " بيبرس " على رسالة " بركة خان " بسفارة تحمل خطابات الود والهدايا الثمينة، وقد نقل من كانوا في سفارة " بيبرس " إلى " بركة خان " أنهم شاهدوا في بلاط " بركة خان " إمامًا ومؤذنًا خاصًّا لكل أمير، أو أميرة، في بلاط " بركة خان "، وأنهم شاهدوا الأطفال يحفظون القرآن ببلاد القفجاق [2].

وكان هذا التحالف مع " بركة خان " أحد الخطوات الهامة التى اتخذها " بيبرس " لتقوية حدود دولته ضد المد المغولى الفارسي، وشملت هذه الخطوات تقوية حدود دولته على طول خط المواجهة مع المغول وبالقرب من نهر الفرات، كما عمل على إفساد الطرق والوديان المؤدية إلى الشام والتى يمكن أن يسلكها المغول في هجماتهم على الشام، وحتى لا يجد المغول أثناء زحفهم ما يقتاتون به أو ما يصلح كعلف لدوابهم [3].

كانت هذه التدابير الاحترازية التى اتخذها الظاهر " بيبرس " سببًا مباشرًا في تضاؤل خطورة هجمات مغول فارس عما كانت عليه في السابق، كما أنها اتسمت بالرعونة والتسرع، وافتقدت إلى الشمول والعنف الذى ميز الهجمات المغولية التى سبقت معركة " عين جالوت ".

وعن العلاقة العسكرية بين المغول والظاهر " بيبرس " نجد أنها قد بدأت مبكرًا، منذ اغتيال المظفر قطز، إذ ظن مغول فارس أن اغتيال قطز سوف ينتج عنه اضطراب في أركان الدولة المملوكية الوليدة، لذا نجد أنه لم يمر وقت طويل على تولى الظاهر " بيبرس " السلطنة، حتى أغار المغول على أطراف مملكته في الشام، ففى العام 663 هـ / 1265 م أغار مغول فارس على قلعة البيرة الهامة الواقعة على ضفاف نهر الفرات، وحاصرت القوات المغولية

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 235.

(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 170- 171، العيني، عقد الجمان، 360/1 - 363، النويري، نهاية الأرب، 3 /105- 106.

(3) قد تناولنا هذه التدابير الأمنية في العلاقة مع المغول في سابق الصفحات فليراجع.

حاميتها العسكرية بغية الاستيلاء عليها، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها إذ إنهم بمجرد رؤيتهم للقوات التى أرسل بها الظاهر " بيبرس " - نجدة لتلك المدينة - إلا سارعوا بالفرار، ومع ذلك فإن الظاهر " بيبرس " قد عمل على تحصين مدينة البيرة وزودها بمعدات تكفيها لمقاومة الحصار مدة عشر سنوات كى تظل شوكة في جنب المغول في الجبهة الشرقية [1].

وفى عام 1265م / 663 هـ مات " هولاكو " زعيم مغول فارس، غير أن وفاة الأشخاص في دولة فتية مثل الدولة المغولية، لم يؤثر مطلقًا في عزم التتار على تحقيق ما بدأه " هولاكو " من التقدم نحو غزو دولة المماليك في مصر والشام، ولم توقف وفاة " هولاكو " تيار العداء المتبادل بين سلاطنة المماليك في مصر والشام وبين مغول فارس، بل إن الخان الجديد لدولة مغول فارس واسمه أباقا أو أبغا (1265 م - 1282 م / 663 - 680 هـ) كان حريصًا على دعم علاقاته بالقوى المسيحية والصليبية المعادية ليس لدولة المماليك فحسب بل للمسلمين جميعًا، بقصد تطويق العالم الإسلامى عامة، فكان يعطف على المسيحيين ويتبادل السفارات والهدايا مع الباباوات وملوك أوروبا. وكان الهدف المشترك من تلك المفاوضات هى تنظيم حملة مشتركة للقضاء على دولة المماليك والاستيلاء على بيت المقدس، وقد ظهر أثر هذا التحالف واضحًا عندما انتهز أباقا خان فرصة انشغال " بيبرس " بمحاربة الصليبيين للإغارة على الحدود الإسلامية. مثال ذلك ما حدث سنة 1266 م عندما أغارت الجيوش المغولية على مدينة الحبة على الحدود الفراتية، في الوقت الذى كانت فيه جيوش " بيبرس " تهاجم مدينة صفد الصليبية [2].

ولكن على الرغم من هذا الجو العدائي، فإنه يبدو أن أباقا خان حاول أن يجرب الصلح مع " بيبرس " على شروط تلائم المغول فقط، أو بمعنى آخر حاول أن يستخدم الأساليب الدبلوماسية في بسط سيطرته على دولة المماليك فأرسل إلى

(1) المقريزي، السلوك، 1 /523- 525.
(2) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 236.

الظاهر " بيبرس " رسالة سنة 1268 م يعرض عليه فيها الصلح ويطلب منه الخضوع والرضوخ مثل قوله: " فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحًا " [1].

غير أن هذه اللهجة المغولية الآمرة في طلب الصلح لم تعجب " بيبرس " فرد على الرسول المغولى بقوله: " أعلم أن وراءه بالمطالبة، ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض " [2].

وعلى ما يبدو أن فشل المحاولات الدبلوماسية قد ترتب عليه سياسة عدوانية من جانب المغول تجاه دولة المماليك، ففى سنة 1269 م اتفق المغول مع الصليبيين وشنت قوات أبغا هجومًا على المناطق القريبة من حلب، وحين أسرعت القوات المصرية تحت قيادة السلطان إلى بلاد الشام انهزم المغول وارتدوا عن هذه المناطق. وفى سنة 1271 م عاودت القوات المغولية الهجوم ضد المسلمين في بلاد الشام ولكن كانت الهزيمة من نصيب المغول في المنطقة القريبة من حران، بالرغم من أن الصليبيين حاولوا التخفيف من عبء هجوم المسلمين على المغول بالهجوم على بعض الحصون العربية في بلاد الشام، فكانت الهزيمة من نصيبهم هم أيضًا [3].

وفى سنة 1272 م توجه " بيبرس " لملاقاة التتر على أرضهم، فحمل معه عدة مراكب مفصلة أجزاء على ظهور الجمال وأنزلها في نهر الفرات لتعبر بها جيوشه، واستطاع " بيبرس " وجنوده عبور النهر والانتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها في الأراضي العراقية سنة 1273 م. ويبدو أن نجاح " بيبرس " في هذه الحملة مكنه من جذب عدد من كبار رجال الدولة المغولية إلى جانبه، إذ يروى مؤرخ المغول رشيد الدين أن أباقا خان نكب أسرة الجوينيين الذين

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 574، نقلاً عن العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 236.

(2) العيني، عقد الجمان، 1 / 549، نقلاً عن العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 236.

(3) المقريزي، السلوك، 1 / 584- 585، النويري، نهاية الأرب 3 / 187- 189.

كانوا يحكمون العراق في عهده بتهمة الاتصال بملك مصر الظاهر " بيبرس "، والاتفاق معه على تسليم العراق له، ومن بين هؤلاء المؤرخ عطا ملك الجويني حاكم العراق، وأخوه الخواجة شمس الدين محمد وزيره، وأبناؤهما، وكلهم أهل فضل وأدب، وأرباب جود وكرم، وكانت مجالسهم محط رجال الأدب والكتاب والشعراء ومناط آمالهم. وبذلوا ما في وسعهم لتعمير ما خربه المغول، ولم يتأخروا على تنفيذ كل ما هو نافع وصالح[1].

على أن الصراع بين دولتي المغول والمماليك لم يقف عند هذا الحد، إذ سرعان ما انتقل إلى ميدان آخر وهو بلاد آسيا الصغرى في الشمال، والسبب في هذا التحول هو أن " بيبرس " بعد أن أمَّن حدود بلاده الشرقية، أراد تأمين حدوده الشمالية المتاخمة لبلاد سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وكانت هذه البلاد تابعة للمغول منذ أن انحاز ملوكها إلى " هولاكو "، وكانت مقاليد الحكم فيها بيد الوزير معين الدين سليمان البرواناه - البرواناه لفظ فارسي معناه الحاجب -.

وكان هذا البرواناه يعمل إلى جانب أصحاب السيادة في بلاده وهم المغول، فلما تغلب " بيبرس " على المغول، مال البرواناه إلى جانب المنتصر وأخذ يراسل " بيبرس " معلنًا انضمامه إليه، فتقدم " بيبرس " بجيوشه إلى آسيا الصغرى، وانتصر على الجيوش المغولية انتصارًا ساحقًا عند بلدة أبلستين أو أبلستان[2] سنة 1277 م / 675 هـ، إذ فقد من المغول في تلك المعركة أكثر من 7000 نفس. ثم دخل " بيبرس " مدينة قيصرية عاصمة سلاجقة الروم حيث نزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم وخطب له على المنابر واستقبله الأهالي استقبالاً رائعا، ثم عاد " بيبرس " إلى الشام.

---

(1) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 236- 237.

(2) مدينة تركية في قضاء مرعش، تقع في سهل أحرز فيه السلطان الظاهر " بيبرس " نصرًا عظيمًا على جيوش المغول سنة 676هـ / 1277م. وتدعى اليوم (آل بستان). تعريف بالأعلام الواردة في البداية والنهاية لابن كثير، 1/ 3.

ولما علم أباقا خان بما حل بجيشه في الأناضول، سارع إلى ميدان المعركة في أبلستين، ويقال أنه بكى عندما شاهد أشلاء القتلى من جنوده، ثم صب جام غضبه على أهالى البلاد فقتل منهم عددًا كبيرًا لترحيبهم بسلطان مصر، كما أمر بقتل البرواناه أيضًا بعد أن قام نساء القتلى من المغول بثورة كبيرة مطالبين بدمه؛ لأنه كان السبب في هذه الكارثة [1].

ويأخذ بعض المؤرخين على " بيبرس " أنه لم يعد إلى بلاد سلاجقة الروم لحمايتها وطرد المغول منها بحكم أنها صارت تابعة لدولة المماليك رسميًّا، ولكن ربما كان السبب في ذلك أن " بيبرس " في ذلك الوقت تولاه التعب والمرض بدليل أنه مات في نفس تلك السنة [2]، بعد مقتل البرواناه بوقت قصير سنة 1277 م/ 676 هـ [3].

يقول أبو المحاسن بن تغرى بردى عن الظاهر " بيبرس ": " وقال الحافظ الذهبى في تاريخه: كان غازيًا، مجاهدًا، مرابطًا، خليقًا للمملكة لولا ما كان فيه من الظلم، والله يرحمه ويغفر له؛ فإن له أيامًا بيضاء في الإسلام، ومواقف مشهودة، وفتوحات معدودة. انتهى كلام الذهبي، رحمه الله... قلت: وكان الملك الظاهر - رحمه الله - ملكًا شجاعًا، مقدامًا، خبيرًا بالحروب، ذا رأى وتدبير وسياسة، ومعرفة تامة. وكان سريع الحركات، كثير الأسفار، نالته السعادة والظفر في غالب حروبه، وفتح عدة فتوحات من أيدى الفرنج، وله مآثر بالقاهرة ودمشق وغيرها. وبنى عدة جوامع، ومدارس، وقناطر، وجسور مشهورة به بسائر الأقاليم " [4].

يقول بدر الدين العيني: " كان شهمًا، شجاعًا، سخيًّا، عالى الهمّة، بعيد الغور، مقدامًا، جسورًا، معتنيًا بأمر السلطنة، متحليًا بها، له قصد صالح في نصرة

---

(1) تاريخ ابن الفرات، 7/ 84- 85، نقلاً عن العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص 238.
(2) تاريخ ابن الفرات، 7 / 85- 87.
(3) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 238- 239.
(4) المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 297- 298.

الإسلام وأهله، وإقامة شعائر الملك.

وفي تاريخ النويريّ: وكان ملكًا جليلاً، شجاعًا، مهيبًا، حسن السياسة، كثير التحيّل، وكان عسوفا جبارًا، كثير المصادرات للرعية والدواوين خصوصًا لأهل دمشق، وكان متنبهًا، شهمًا، لا يفتر ليلاً ولا نهارًا عن مناجزة الأعداء ونصرة الإسلام، وكان مقتصدًا في ملبسه ومطعمه، وكذلك جيشه " [1].

ومما رثى به ما قاله محيي الدين بن عبد الظاهر يرثى به الملك الظاهر:

أبدًا عليك تحيّة وسلام ::: يا قبر من فجعت به الإسلام
يا تربة لولا الحياء من الحيا ::: أمسى سجال الدمع فيك سجام
يا دمع عيني مثل دمع سحابة ::: هيهات بين الدمعتين زحام
فسبقت كل سحابة هطالةٍ ::: يثني عليها مندّلٌ وبشام
تنهل منك نوال ساكنك الذي ::: من كفه فوق السماح يسام
الظاهر السلطان من بمصابه ::: هدّ الهدى وتضعضع الإسلام
وغدت دمشق بقبره وحلوله ::: فيها نتيه على الوجود شام
قبربه تتضاعف الأقسام من ::: بركاته وتوكد الأقسام
قبر به تتوسل الآمال في ::: حاجاتها وتصرف الأحكام
قبر الذى لو أنصفته قلوبنا ::: ما أصبحت لمسرّة تستام
قبر الذى قلع القلاع ::: سكانها وله الحصون خيام
قبر الذى قهر التتار فأصبحوا ::: ولهم إذا ناح الحمام حمام

وقال " بيبرس ": قال القاضي محيي محى الدين بن عبد الظاهر يرثيه بأبيات أولها:

ما مثل هذا الرزء قلب يحمل ::: كلا ولا صبر جميل يجمل
الله أكبر إنها لمصيبةٌ ::: منها الرواسي خيفةً تتقلقل
ما للرماح تخولها رعدة ::: ألتركها أن ليس تعقل تعقل
لهفى على الملك الذى كانت به ::: الدنيا تطيب وكلّ قفر منزل
الظاهر السلطان من كانت له ::: منن على كلّ الورى وتطول

---

(1) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان 1/ 153.

لهفـى علـى آرائـه تلـك الـتي ::: مثل السـهام إلى المصـالح ترسـل
لهفى على تلك العزائم كيـف قـد ::: غفلت وكانـت قبـل ذا لا تغفـل
سهم أصاب وما رثـى مـن قبلـة ::: سهم لـه في كـل قلـب مقتـل
أنا إن بكيت فإن عـذرى واضـحٌ ::: ولـئن صـبرت فـإنني أتمثـل
خلـف السـعيد لنـا الشـهيد ::: فأدمعٌ منهلةٌ في أوجـه تتـهلل [1]

ولا شك أن هذا السلطان العظيم استطاع بأعماله وإصلاحاته الواسعة النطاق أن يحول دولة المماليك، من دولة ناشئة إلى دولة قوية، مدعمة الأركان، وأن يمهد الطريق لخلفائه من بعده كى يتمموا رسالته، ويصلوا إلى الهدف المنشود وهو القضاء على المغول والصليبيين.

لهذا ذاع صيته، واشتهرت سيرته دونًا عن سائر السلاطين. لدرجة أن أخباره امتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص، ونذكر على سبيل المثال تلك الملاحم الشعبية المعروفة بالسيرة الظاهرية، أو سيرة الظاهر " بيبرس "، والتى تصور شخصية " بيبرس "، وكأنها شخصية عصر أكثر مما هى شخصية إنسان، إذ تنعكس فيها صورة هذا الوضع الجديد أو هذه النقلة الجديدة التى تحولت فيها دولة المماليك في مصر والشام إلى دولة راسخة الأقدام[2].

سلطنة الملك السعيد " بركة خان " وخلعه :

وكان السلطان الظاهر " بيبرس " قد خلف من الأولاد الملك السعيد ناصر الدين محمد " بركة خان " والملك نجم الدين خضر والملك بدر الدين سلامش، فتولى السلطنة بعد الظاهر " بيبرس " ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد " بركة خان " [3]، حيث كان أبوه الظاهر " بيبرس " قد سعى في حياته لتوريثه

(1) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 1 / 155.
(2) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 240.
(3) محمد " بركة خان " ابن الملك الظاهر " بيبرس ". دعى ب" بركة خان " على اسم جده لأمه " بركة خان "، ملك التتار ابن دولة خان الخوارزمي.
تسلطن في حياة أبيه " بيبرس " صورة في يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين وستمائة إلى أن استبد بالأمر بعد موت أبيه، واستمر إلى أن خرج عليه جماعة من الأمراء، وكبيرهم حموه

السلطنة حيث ركب هو وابنه الملك السعيد بشعار السلطنة منذ 662 هـ / 1264 م في حضور الأمراء والقضاة والفقهاء، وبعد ذلك بإحدى عشر عامًا زوجه من ابنة الأمير سيف الدين قلاوون لكى يضمن له ولاء هذا الأمير وبقية المماليك الذين كانوا من الممكن أن يتطلعوا للملك من بعد الظاهر " بيبرس " [(1)].

وبالرغم من هذه التدابير التى اتخذها الظاهر " بيبرس " لضمان استقرار الملك لابنه، فإنه لم يكن مطمئنًا تمام الاطمئنان من استقرار الملك له، لذا فإنه قد أوصاه بالتشدد مع من يخالف سلطته أو يظهر التبرم من حكمه فيقول له - قبل موته -: " إنك صبى وهؤلاء الأمراء الكبار يرونك بعين الصبي، فمن بلغك عنه أنه يشوش عليك ملكك، وتحققت من ذلك، فاضرب عنقه في وقته، ولا تعتقله، ولا تستشر أحدًا، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك[(2)].

وعلى ما يبدو أن صغر سن هذا السلطان الجديد - حيث كان عمره عند توليه السلطنة سبعة عشر عامًا - كان سببًا في ضياع الملك منه، فقد انصرف للهو واللعب وشرب الخمر، وأساء السيرة وحبس معظم أمراء أبيه الكبار، وحكم الأصاغر والخاصكية في شأنه وقتل الأمير بدر الدين بليك النائب، وتغير على الأمراء وقلب لهم ظهر المجن، فنفرت منه قلوب الأمراء مثل الأمير علم الدين سنجر الحلبي، والأمير بدر الدين بيسرى وسيف الدين قلاوون، وشمس الدين سنقر الأشقر، وأقرانهم

الأمير سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى وخلعوه من الملك وسلطنوا أخاه سلامش بن الملك الظاهر.

وكانت مدة الملك السعيد من يوم موت أبيه سنتين وشهرين ونصفًا.

وأعطى الكرك بعد أن خلع، فتوجه إليها وأقام بها إلى أن مات يوم الجمعة خامس عشر ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وستمائة. العصامي، سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي، 2 / 292.

(1) على ما يبدو أن أمر وراثة العرش لم يكن من الأمر المستساغ في دولة المماليك حتى ذلك العهد فقد قتلت شجرة الدر ومن بعدها أيبك ثم قطز، وإن كان الظاهر " بيبرس " قد أخطأه سيف القتل، وهذا شيء يدل على أن النظام المتبع داخل الدولة المملوكية هو مبدأ " الحكم لمن غلب ".

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 645.

لأنهم كانوا يتأففون من سلطنة الظاهر " بيبرس " عليهم وكان كل منهم يرى أنه الأحق بالسلطنة منه، فصار الملك السعيد " يضع من أقدارهم ويقدم عليهم مماليك الأصاغر "، وخلاصة الأمر أن الملك الجديد أساء السيرة ولم يسر على سيرة ونهج أبيه (1).

ثم أقدم على أمر قد زلزل أركان حكمه، فقد قبض على الملك السعيد عليّ شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير بدر الدين بيسرى فدخل خال الملك السعيد الأمير بدر الدين محمد بن " بركة خان " على أخته أم السلطان، وقال لها: " قد أساء ابنك التدبير بقبضه على مثل هؤلاء الأمراء الأكابر والمصلحة أن ترديه إلى الصواب، لئلا يفسد نظامه وتقصر أيامه، فلما حدثته أمه في ذلك اعتقل خاله، ثم أفرج عنه والأمراء المذكورين بعد تدخل والدته، ولكن بعد أن تمكنت عداوته من قلوبهم، واتفق رأى الأمراء على مهاجمة الملك السعيد بالقلعة والثورة عليه وبعثوا إليه " : " بأنك أفسدت الخواطر وتعرضت لأكابر الأمراء، فإما أن ترجع عما أنت عليه، وإلا كان لنا ولك شأن " وانتهت هذه الحركة بالصلح بعد أن أقسم لهم الملك السعيد على أنه لا يريد بهم سوءًا فرضوا بذلك وانصرفوا، إلا أن الملك السعيد لم يغير من سياسته فأشار عليه خاصكيته بإبعاد هؤلاء الأمراء الأكابر عنه، فجهز جيشًا لغزو بلاد " سيس " في ذى الحجة عام 677 هـ / إبريل 1279 م بقيادة الأمير قلاوون الألفي والأمير بيسري، فساروا إلى بلاد " سيس " - وقلوبهم غاضبة - فغزوا بلاد " سيس " وقتلوا وسبوا وعادوا إلى بلاد الشام فأراد الملك السعيد الإيقاع بهم فساروا إلى مصر وحاصروا الملك السعيد، فلما طال الحصار عليه طلب وساطة الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله، فقال الأمراء: يخلع نفسه من الملك ونعطيه الكرك، فخلع نفسه في السابع من ربيع الآخر 677هـ/أغسطس 1279م، وسافر إلى الكرك

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 651.

بعد أن اتفق الأمراء على أن يعطى الكرك والشوبك ويذهب معه أخوه نجم الدين خضر فيكون الشوبك لخضر والكرك للملك السعيد، ثم مات الملك السعيد في الحادى عشر من ذى القعدة 678 هـ/مارس 1280م [(1)].

سلطنة الملك العادل سلامش وخلعه :

وبعد وقت قليل من خلع الملك السعيد، استقر رأى الأمراء الثائرين على تولية السلطنة الملك العادل بدر الدين سلامش بن الملك الظاهر " بيبرس " [(2)]، بعد أن عرضت السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون الألفى فامتنع وقال: " أنا ما خلعت الملك السعيد طمعًا في السلطنة والأولى ألا تخرج عن ذرية الملك الظاهر " فاستدعوا سلامش وكان عمره سبع سنوات، حيث بويع بالسلطنة وأقسم الأمراء والجيش على الولاء له، وجعلوا الأمير سيف الدين قلاوون أتابكًا ومدبرًا للمملكة، وأقيم عز الدين أيبك الأفرم نائبًا للسلطنة، ثم ما لبث أن عزل

---

(1) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، 8 / 228- 229، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 111- 112.

(2) الملك العادل...- 690 هـ- 1291 م.

سلامش بن " بيبرس "، السلطان الملك العادل بدر الدين بن السلطان الملك الظاهر " بيبرس " البندقداري.

جلس سلامش على تخت الملك عندما خلعوا أخاه الملك السعيد، وخطبوا له، وضربوا السكة باسمه، وصار سلطان الديار المصرية. فلم تطل أيامه، وخلع بعد ثلاثة أشهر بالملك المنصور قلاوون الصالحى الألفي، في يوم الثلاثاء حادى عشر شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة. وأرسل إلى الكرك، فأقام بها مدة، ثم رسم الملك المنصور قلاوون بإحضاره، فحضر إلى القاهرة، وبقى خاملاً إلى أن مات الملك المنصور قلاوون، وتسلطن من بعده ابنه الملك الأشرف خليل.

جهزه وأخاه الملك خضر وأهله إلى مدينة إستانبول بلاد الأشكري، فأقام هناك إلى أن توفى بها في سنة تسعين وستمائة.

وكان شابًا مليحًا تام الشكل، رشيق القد، طويل الشعر، ذا حياء ووقار، وعقل تام. مات وله قريب من عشرين سنة. قيل: إنه كان أحسن أهل زمانه، وبه افتتن جماعة من الناس وشبب به الشعراء، وصار مثلاً يضرب به بين الناس، يقولون: شعر سلامشي، انتهى. ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 460.

هذا الطفل لينفرد الأمير سيف الدين قلاوون بالسلطة [1].

والحقيقة أن امتناع سيف الدين قلاوون عن قبول السلطنة في بداية الأمر حرصًا على بقاء الحكم في أسرة الظاهر " بيبرس "، وإنما أراد تسكين الفتنة خشية إثارة المماليك الظاهرية الذين كانوا يشكلون معظم الجيش، وكانت النيابات والقلاع والحصون بيد نواب الملك السعيد، ولذلك كان هدف قلاوون هو المهادنة، ثم استغلال الظروف الملائمة للوثوب على سلامش وانتزاع السلطنة منه، فقبض على أعيان الأمراء الظاهرية وأعضاء المعارضة " فكان صورة أتابك وتصرفه تصرف الملوك " واستمال المماليك الصالحية وأعطاهم الإقطاعات والأموال فقوى بهم جانبه، وجمع الأمراء العشرين في رجب سنة 678 هـ / نوفمبر 1279 م وتحدث معهم عن صغر سن السلطان وقال لهم: قد علمتم أن المملكة لا تكون إلا برجل كامل فاتفق رأيهم على خلع سلامش، فخلعوه وأرسلوه إلى الكرك، وكانت مدة ملكه مائة يوم، ثم أعيد سلامش إلى مصر بعد ذلك وأرسل عام 686 هـ / 1287 م مع أخيه خضر وأهله إلى استانبول وأقام بها حتى توفى عام 690 هـ / 1291 م [2].

* * *

---

(1) العيني، عقد الجمان، 2 / 225- 226، النويري، نهاية الأرب، 3 / 400.

(2) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 112.

الفصل الخامس

الفصل الخامس:

حكم أسرة قلاوون

حكم أسرة قلاوون

ونهاية الوجود الصليبي

ونهاية الوجود الصليبي

الفصل الخامس

سلطنة سيف الدين قلاوون 678 هـ / 1279 م

تولى السلطان سيف الدين قلاوون [1]عرش السلطنة يوم الأحد والعشرين من شهر رجب عام 678 هـ / نوفمبر 1279 م، وهو أحد كبار المماليك البحرية، رافق الظاهر " بيبرس " في رحلته من المملوكية إلى السلطانية، وشاركه القتال ضد الصليبيين في دمياط وفى الشام، وكان رفيقه في رحلة الهرب من وجه " أيبك " بعد مقتل " أقطاي "، وكان إلى جواره في قتال التتار في " عين جالوت "، ثم عمل في خدمته عندما تولى " بيبرس " السلطنة، ولما توفى " بيبرس " كان هو القائم بأمور أبنائه إلى أن انفرد هو بالحكم.

ولم يكن عرش السلطنة ممهدًا ولا مفروشًا بالورود، فقد حقد على قلاوون الكثير من المماليك الذين رأوا في أنفسهم الأهلية أكثر منه لولاية السلطنة في مصر والشام، وكان أول من جاهره بالعداء هو سنقر الأشقر [2] نائب دمشق

---

(1) السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى العلائى الصالحي: أحد المماليك الأتراك البحرية، كان قبجاقى الجنس من قبيلة مرج أغلى، فجلب صغيرًا واشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقى العادلى بألف دينار، وصار بعد موته إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب في سنة سبع وأربعين وستمائة، فجعله من جملة البحرية، فتنقلت به الأحوال حتى صار أتابك العساكر في أيام العادل سلامش، وذُكر اسمه مع العادل على المنابر، ثم جلس على التخت بقلعة الجبل في يوم الأحد والعشرين من شهر رجب سنة ثمان وسبعين، وتلقب بالملك المنصور وأبطل عدّة مكوس، المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 443.

(2) سنقر الأشقر: يقول عنه الصفدي: سنقر الأشقر الأمير الكبير الملك الكامل شمس الدين الصالحي. كَانَ من أعيان البحريّة، حبسه الملك الناصر بحلب، فلمّا استولى " هولاكو " عَلى البلاد وجده محبوسًا فأخرجه، وأنعم عَلَيْهِ وأخذه معه، فبقى عند التتار مكرّمًا، وتأهّل، وجاءته الأولاد، وجاء ابنه إبراهيم رسولاً عن الملك أبي سعيد إلى السلطان الملك الناصر محمّد في سنة تسع وعشرين فيما أظنّ. ورأيته بالقاهرة، ثُمَّ إنّ الملك الظاهر خوشداشه حرص على خلاصه، فوقع ابن صاحب " سيس " في أسره، فاشترط عَلى والده أن يسعى في خلاص سنقر الأشقر، فيّسر الله أمره وخلص، وَكَانَ مصافيًا للملك الظاهر وهما من جملة الأجناد وَكَانَ نظير الظاهر أيّام المعزّ، ولمّا ملك الظاهر ذكر صحبته وقال الظاهر: يَا أمراء، لو وقعتُ في الأسر مَا كنتم تفعلون؟ فقبّلوا الأرض، فقال: هَذَا سنقر الأشقر مثلي وَقَدْ خلص من الأسر.

وخرج الظاهر وتلقاه سرًّا، وَمَا شعر الأمراء بِهِ إلا وَقَدْ خرجا من المخيّم معًا، ثُمَّ أعطاه من

الذى رفض الاعتراف بسلطنة سيف الدين قلاوون وأشاع بين الناس أنه اغتصب الحكم من أسرة الظاهر " بيبرس "، ودعا الناس في دمشق إلى مبايعته، فأقبل عليه الكثير من الناقمين على سيف الدين قلاوون وكان على رأس هؤلاء ابنا الظاهر " بيبرس " خضر وسلامش، وتلقب بين الناس باسم الملك الكامل، وقبض على عدد من الأمراء الذين رفضوا مبايعته وظلوا على ولائهم لسيف الدين قلاوون أو رأوا فيه - سنقر الأشقر - ليس أهلاً لهذا المنصب، وأودعهم السجون منهم الأمير حسام الدين نائب قلعة دمشق [1].

وأصبح هذا التمرد غصة في حلق سيف الدين قلاوون، حيث لم تتعد سيطرته الديار المصرية وأعمالها وخرجت عن دائرة نفوذه معظم بلاد الشام، فحاول سيف الدين قلاوون أن يستميله إليه باللين ولكن باءت محاولاته بالفشل، فأرسل إليه سيف الدين قلاوون الأمير حسام الدين أيتمش بن أطلس خان في ثلاثة آلاف فارس، فلما أحس سنقر الأشقر بضعف موقفه وتفرق أتباعه عنه حاول الاستنجاد بمغول فارس فراسل أبغا بن " هولاكو " بغرض الاستعانة به، ويستحثه على القدوم للشام والسيطرة عليها ويعده بمد يد العون له إن هو أتى للشام، ولكن كانت القوات المصرية أسرع في المجيء إليه حيث طاردته هو

الأموال والعدد والخيل والغلمان مَا أصبح بهِ من أكبر أمراء الدولة، وبادر الأمراء إليه بالتقادم، وبقى الظاهر يجهّز إليه كلّ يوم خلعة بكلوته زركش وكلابند ذهب وحياصة ذهب، وفرس وألف دينار، وأقطع مائة فارس، وعمل نيابة دمشق سنة ثمان وسبعين، وتسلطن بهَا في آخر السنة، وذلك أنّه جاء إلى دمشق نائبًا عن العادل سلامش ابن الظاهر في ثالث جمادى الآخرة، وَكَانَ الأمير علم الدين سنجر الدوادارى قدْ عاد مشدّ الدواوين كما كانَ أولاً فإنّه كانَ نائب الغيبة بدمشق، ولمّا كانَ في الحادى والعشرين من شهر رجب خلعوا العادل سلامش وسلطنوا الملك المنصور سيف الدين قلاوون، وَلَمْ يختلف عَلَيْهِ اثنان، ووصل إلى دمشق أميرًا يحلف لهُ الأمراء فحلفوا وَلَمْ يحلف سنقر الأشقر وكاسر وَلَمْ يُرضه خلع ابن الظاهر، ودُقت البشائر بدمشق في سابع عشرين شهر رجب، وَفِى الرابع والعشرين من ذي الحجّة ركب سنقر الأشقر من دار السعادة وبين يديه جماعة من الأمراء والجند، ودخل البلد وأتى باب القلعة فهجمها راكبًا، ودخل وجلس عَلى تخت الملك، وحلفوا لهُ وتلقب بالكامل، ودُقت البشائر ونودى في البلد سلطنته. الوافى بالوفيات- (ج 5 / ص 164).

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 670، .

والقلة القليلة المتبقية معه حيث طاردتهم في صحراء صهيون [1] وألجأتهم إلى التحصن بأحد قلاعها إلى أن تمكنت القوات المصرية من هزيمة سنقر الأشقر، ثم ترددت الرسل بين الأشقر والسلطان سيف الدين قلاوون بسبب مهاجمة التتار لمدن الشام حيث اتفق الجانبان على أن يتنازل سنقر عن شيزر [2] ويعطى الثغر وبكاس وتبقى معه الحصون وهي: صهيون وبرزية وبلاطنس، وإفامية وأنطاكية وكفر طاب، وأن تقتصر قواته على ستمائة فارس فقط ويطرد الأمراء الذين لحقوا به، وتم الصلح في ربيع الأول سنة 680 هـ / يونيو 1281 م وكتب له السلطان تقليدًا بتلك البلاد وولى على نيابة شيزر الأمير بلبان الطباخى [3].

ولم يمض على ذلك الاتفاق كثير من الزمن إذ إنه سرعان ما انقلب السلطان قلاوون على سنقر بسبب خيانته للمسلمين واتصاله بالمغول ومكاتبتهم وتحريضهم على غزو بلاد الشام مستغلين انشغال المنصور قلاوون في بعض الأمور الداخلية، وكانت هذه المراسلات هى الدافع الأساسى لهجمات المغول على بلاد الشام في تلك السنة معتمدين على تعهدات سنقر بمساعدتهم، وأرسل

(1) حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حصن، لكنه ليس بمشرف على البحر وهى قلعة حصينة مكينة في طرف جبل خنادقها أودية واسعة هائلة عميقة ليس لها خندق محفور إلا من جهة واحدة، مقدار طوله ستون ذراعًا أو قريب من ذلك، وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون مربضها وسور دون قلعتها، وكانت بيد الإفرنج منذ دهر حتى استرجعها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب من يد الإفرنج سنة 584، وهى بيد المسلمين إلى الآن. وتقع تلك القلعة في جبال العلويين، شرق مدينة اللاذقية. [ياقوت الحموي، معجم البلدان، 3 / 166، البغدادى، مراصد الاطلاع، (2 / 889)].

(2) شَيزَر: بتقديم الزاى على الراء وفتح أوله، قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المَعَرة بينها وبين " حماة " يوم في وسطها نهر الأرعن عليه قنطرة في وسط المدينة أوله من جبل لُبنان تُعدُ في كوره حمص. [ياقوت الحموي، معجم البلدان (3 / 75)، أبو عبيد البكري، معجم ما استعجم (223/1)].

(3) المقريزي، السلوك، 1 / 677- 678، ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة (7 / 294)، وكان الأمير بلبان الطباخى من أعيان الأمراء وأحشمهم وأشجعهم وأكثرهم عدة ومماليك وحاشية. وولى نيابة حلب قبل ذلك بمدة، ثم ولى الفتوحات بالساحل ودام عليها سنين. وكان جميل السيرة والطريقة وله المواقف المشهورة والنكاية في العدو. [ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (2 /440)].

إليه جيشًا عام 686 هـ / 1287 م، فاضطر سنقر إلى الاستسلام حيث تم القبض عليه ثم جيء به إلى مصر، وبذلك تكون الشام قد عادت إلى حكم سلطان مصر (1).

العلاقة مع المغول والصليبيين:

لم ينس المغول هزيمتهم المدوية في معركة الأبلستين (2) أمام قوات المماليك، كما لم ينسوا من قبل هزيمتهم في " عين جالوت "، وسعوا للانتقام من هزائمهم المتكررة أمام المماليك، وأرادوا استغلال انشغال السلطان بالمسائل الداخلية وكثرة تغير السلاطين وتفرق كلمة أولى العقد والحل داخل الدولة المملوكية، وظنوا أن سنقر الأشقر ومن على شاكلته سوف يقدمون لهم يد العون في حرب المماليك والمنصور قلاوون، ولذا فإنهم أرادوا نجاح حملتهم وقاموا بالتحالف مع صليبيى الشام هذه المرة، وتم التخطيط لكى تخرج قوات الصليبيين وأتباع سنقر الأشقر لمقاتلة المماليك في ثلاث جبهات.

وبالفعل خرجت قوات المغول في ثلاث فرق: الأولى سارت من جهة الروم بقيادة صمغار وتنجى وطرنجي، والثانية من جهة الشرق بقيادة بيدو بن طوغاى بن " هولاكو " وفى صحبته صاحب ماردين، أما الفرقة الثالثة وفيها معظم الجيش فسارت مع " منكوتمر " بن " هولاكو "، وبلغ عدد الجيش المغولى خمسين ألف فارس ومعهم صاحب " سيس " والأرمن، فلما علم المسلمون بهذه الحشود استعدت قواتهم، وخرج الأمير ركن الدين إياجى على بعساكر دمشق وانضمت إليه العساكر المحاصرة لشيزر (وكانت تابعة لسنقر قبل الاتفاق وتسوية الخلافات بينه وبين السلطان قلاوون) ثم سارت القوات المصرية بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش النجمى واجتمعت هذه القوات في ظاهر حماة، وراسلوا الأمير سنقر الأشقر من أجل إخماد الفتنة وتوحيد الكلمة

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 676- 677.

(2) أبلستين: مدينة تركية في قضاء مرعش، تقع في سهل، أحرز فيه السلطان الظاهر " بيبرس " نصرًا عظيمًا على جيوش المغول سنة 676هـ / 1277م. وتدعى اليوم (آل بستان).

والوقوف في وجه العدو (المغول)، فاستجاب لهم وأمدهم بعساكر كانت معه في حصن صهيون.

ولما علم الناس بمقدم القوات المغولية وقصدها بلاد الشام وقع بينهم الفزع والهرج والمرج، - والناس ما زالوا حديثى عهد بهجمات المغول المدمرة وإسقاط الخلافة وقتل الخليفة - وشاعت بينهم الفوضى وشرع الناس في الهرب من بلاد الشام إلى الديار المصرية، ثم تحركت القوات المغولية وهاجمت أعمال حلب في الحادى والعشرين من جمادى الآخرة سنة 679هـ / أكتوبر 1280 م، واستولوا على عين تاب وبغراس ودربساك، ثم دخلوا مدينة حلب - وكانت خالية من العساكر - بدون مقاومة، فقتلوا الناس ونهبوا البلد وأحرقوا الجوامع والمدارس ودار السلطنة ودور الأمراء وأقاموا بها يومين يكثرون الفساد والقتل بحيث لم يسلم منهم إلا من اختفى في المقابر ثم تركوها، وخرجوا يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة 679 هـ / أكتوبر 1280 م وعادوا إلى بلادهم محملين بالأسلاب والغنائم [1].

أما عن الأسباب التى أدت إلى رجوع التتار عن بلاد الشام وانسحابهم من حلب قبل خوض المعركة ضد المماليك، فمن المحتمل أن يكون اتفاق الأمير سنقر مع السلطان قلاوون على نبذ ما بينهما من خلافات واتفاقهما على قتال المغول معًا، كما أن المؤرخين ذكروا أن بعض من كان قد استتر عن أعين المغول في حلب قد خشى على الإسلام والمسلمين، واستجمع شجاعته وصعد مئذنة الجامع وكبر بأعلى صوته على التتار: " جاء النصر من عند الله " وأشار بمنديل إلى جيش المسلمين وأخذ يقول في خلال ذلك: اقبضوهم من البيوت كالنساء. فتوهم التتار من ذلك وخافوا ورجعوا وخرجوا من حلب على وجوههم، ولعل من أقوى الأسباب لفرارهم من حلب هو علمهم بوصول السلطان بقواته من مصر

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 690- 693، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 118، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص 114.

لقتالهم[1].

وكان السلطان المنصور قلاوون قد جمع العساكر في مصر وأنفق في كل أمير ألف دينار وفى كل جندى خمسمائة درهم واستخلف على مصر ابنه الملك الصالح عليّ وسار إلى غزة، وظل بها حتى العاشر من شعبان سنة 679 هـ / ديسمبر 1280 م فلما علم بهروب المغول وتعجلهم في العودة إلى بلادهم عاد إلى مصر مرة ثانية [2].

وبعد فرار التتار من وجه القوات المصرية، فإن السلطان قلاوون لم يفوت الفرصة وأراد محاسبة الصليبيين على مساعدتهم للتتار في دخولهم حلب واستغلالهم انشغال المماليك بالتصدى لخطر التتار ومهاجمة الثغور والحدود الإسلامية، فأمر السلطان الأمير سيف الدين بلبان الطباخى نائب حصن الأكراد بغزو الصليبيين المقيمين في حصن المرقب [3]، وبالرغم من هزيمة هذه القوات أمام الصليبيين وتراجعهم إلى مصر إلا أن الصليبيين بدؤوا يشعرون بخطر المماليك عليهم بعد تراجع المغول إلى بلادهم وشعروا بحرج موقفهم بعد تخلى المغول عنهم، لذا فقد سارعوا إلى طلب الهدنة من سلطان المماليك الذى وافق على تجديد الهدنة، وبالفعل تم عقد الهدنة في يوم الأحد الثالث عشر من المحرم سنة 680 هـ / 1281 م، بعد أن اشترط عليهم إطلاق أسرى المسلمين الذين كانوا في حوزتهم بعد معركة المرقب، والتعهد بعدم معاونة المغول مجددًا ضد المسلمين [4].

معركة حمص وهزيمة المغول:

وفى العام 680 هـ / 1281 م، تجددت الحرب مع المغول ولعل السبب في

---

(1) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص 114.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 690- 699، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7 / 300.

(3) بلدة وقلعة حصينة مشرفة على سواحل بحر الشام، في غاية الحصانة والحسن حتى يتحدث الناس بحسنها وحصانتها.

(4) ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، 7 / 300، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (5 /397).

تجددها هو قيام البعض من أهل الشام بمهاجمة حدود بلاد الروم وديار بكر التابعة لسيطرة المغول آنذاك، أضف إلى ذلك مراسلات سنقر الأشقر الذى كان يستحثهم فيها على مهاجمة بلاد الشام، والخلافات الحادة التى كانت بين صفوف المماليك وتفرق كلمتهم، وكان أن جمع أبغا بن " هولاكو " مايزيد على ثمانين ألف جندى وجعلهم تحت إمرة أخيه " منكوتمر "، فتقدم ذلك الجيش حيث دخل بلاد الروم ونزل بين قيسارية وأبلستين وأخذت هذه الجموع تستعد لاجتياح بلاد الشام.

وفى تلك الأثناء كان السلطان قلاوون قد غادر مصر إلى الشام حيث علم بأخبار تلك الحشود فأخذ يعمل على الاستعداد لمواجهتها، فاستدعى العساكر من جميع أنحاء مملكته فحضر إليه الأمير أحمد بن حجى من العراق ومعه أربعة آلاف فارس بأسلحتهم، وحضرت النجدات من الملك مسعود خضر صاحب الشوبك، ونجدات سائر العربان والتركمان، وسار السلطان المنصور بقواته التى بلغت نحوًا من خمسين ألف فارس، إلى المرج، ومنها إلى حمص ومعه الجيش حيث وصل إليها في الحادى عشر من رجب 680 هـ / أكتوبر 1281 م، ثم انضم إليه سنقر الأشقر من حصن صهيون بقواته على أن يعود إلى حصنه بعد مقاتلة المغول وردهم عن بلاد المسلمين.

وبينما كانت قوات المماليك تجمع نفسها وتنسق عملها بدأت القوات المغولية في التحرك نحو بلاد الشام، حيث هاجم أبغا بن " هولاكو " بقواته قلعة الرحبة وبدأ في حصارها مستغلاً انشغال المماليك بالاستعداد لمواجهة أخيه " منكوتمر " الذى سار بقواته حتى وصل إلى حماة وخرب المناطق المجاورة لها، ثم تقدمت الجموع المغولية نحو معسكر المسلمين في حمص حيث التقى بهم بالقرب من مشهد خالد بن الوليد في يوم الخميس الرابع عشر من رجب 680 هـ / أكتوبر 1281م حيث بدأ المغول بهجوم عنيف اضطر المسلمين معه للتراجع أمام شدة الهجوم المغولي، ثم حدث أن انشغل المغول بجمع الغنائم التى خلفها

المماليك في انسحابهم، فاستغلها المماليك وكروا راجعين وأعملوا القتل والأسر في صفوف المغول وحملوا عليهم حملة صادقة " وكان الله معهم فيها فانتصروا على التتار " (1).

وفى الوقت الذى كان فيه أبغا بن " هولاكو " محاصرًا للرحبة، وصلت بشائر السلطان إلى نائبها تبشر بهزيمة التتار في حمص، فدقت البشائر في القلعة، فعلم العدو بذلك ومن ثم قرر الرحيل فورًا إلى بغداد، فأمر السلطان قلاوون القوات المملوكية بتتبع فلول المغول الفارين حيث قتل منهم عددًا كبيرًا يفوق ما قتل على أرض المعركة أضعاف مضاعفة، وبعيد هذه المعركة بفترة وجيزة مات أبغا كمدًا وحزنًا، إذ لم تكن هذه الهجمة على ديار المسلمين إلا تنفيدًا لرغبة " منكوتمر " وبناء على تشجيع من سنقر الأشقر الذى انقلب على المغول لاحقًا، والغالب أنه توفى في أواخر 680 هـ / مارس 1283 م، وبعده بقليل توفى " منكوتمر " في المحرم 681 هـ / ابريل 1283 م، وتولى الحكم بعد أبغا أخوه تكودار ابن " هولاكو "، أما سنقر الأشقر فإن السلطان أرسل إليه جيشًا حاصره في حصن صهيون إلى أن استسلم حيث سيق في الأصفاد إلى مصر حيث بقى في الأسر إلى أن توفى السلطان سيف الدين قلاوون وتولى ابنه الأشرف خليل (2).

علاقة السلطان المنصور مع أحمد تكودار:

تولى عرش السلطنة ببلاد مغول فارس بعد وفاة أبغا أخوه تكودار سنة 681 هـ/ 1282 م، وقد اعتنق تكودار الإسلام وتسمى باسم أحمد، وأظهر شعائر الإسلام ببلاد التتار (3).

وفى عهد أحمد تكودار بدأت العلاقات تتحسن بين المغول ودولة المماليك إذ

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 395، ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة (7 / 304).
(2) المقريزي، السلوك، 1 / 690- 699، أبو الفداء، المختصر، 4 / 22- 27.
(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه (1 /72).

أصبح الإسلام يجمع بين كلا الدولتين، إذ إن التتار الذين كانوا وثنيين يسعون إلى تدمير الإسلام والمسلمين تحولوا إلى مسلمين متحمسين يدافعون عن دار الإسلام ويساهمون في بناء حضارته. وقد بدأ أحمد تكودار يعلن عن رغبته في علاقات المودة والصداقة مع المنصور سيف الدين قلاوون سلطان مصر والحجاز، وأرسل إليه رسالة جاء فيها "... فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين، وإن كان لما سبق من الأسباب، فمن يتحرى الآن طريق الصواب، فإن له عندنا لزلفى وحسن مآب. وقد رفعنا الحجاب، لنرضى الله والرسول ﷺ، وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة... " [1] وقد رد السلطان المنصور قلاوون برسالة تفيض ودًّا ورقة، وأعلن استعداده للتعاون مع مغول فارس وعقد صلح وسلام معهم لما فيه خير الإسلام والمسلمين [2].

ولكن لم يكتب لعلاقات الود أن تدوم بين مغول فارس ودولة المماليك، إذ إن مغول فارس تغيرت على أحمد تكودار وثارت عليه وانتهى الأمر بقتله سنة 682 هـ / 1284 م وولى مكانه ابن أخيه أرغون بن أبغا [3].

والحقيقة أن مغول فارس لم تكن لديهم قابلية لفكرة الصلح أو المهادنة أو العيش مع بقية الشعوب في سلام، وهم الذين ما زالوا حديثي عهد بوثنية ووحشية وبربرية وتوارثوها كابرًا عن كابر، ولذلك فقد رفضت أذهانهم فكرة السلام والأمان التى فرضها عليهم إسلام أحمد تكودار، ورأوا أن الإسلام سوف يقيد همجيتهم ويهذب بربريتهم ويكف عن بقية الشعوب أذاهم، ولذلك رفضوا مبادئ وتعاليم الإسلام السمحة، ولو وجدوا فيه ما يرضى نفوسهم الضعيفة أو يحقق نزواتهم الشيطانية لما خلعوا سرباله أبدًا.

ولهذا فإنهم ثاروا على أحمد تكودار وقتلوه وكذلك فعلوا بنائبه الناق قائد جيشه وذلك بعد أن دارت بينه وبين خصومه الذين يتزعمهم أرغون بن أبغا معارك

---

(1) ابن أيبك كنز الدرر، 8 / 249- 254.
(2) ابن أيبك كنز الدرر، 8 / 254- 260، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 119.
(3) المقريزى، السلوك، 1 / 805.

رهيبة طاحنة انتهت بمقتل أحمد تكودار وسلطنوا عليهم أرغون بن أبغا الذى كان يتزعم خصوم أحمد تكودار، ثم بدأ اضطهاد المسلمين وصرفهم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها في القضاء والمالية، وحرم عليهم الظهور في بلاطه، وتحكم فيهم وزيره سعد الدولة اليهودى وراح يقضى على ما للإسلام من مكانة وينهج سياسة أسلافه في بغض كل ما هو إسلامى ومحاولة الاتفاق مع الصليبيين لتكوين جبهة موحدة في مواجهة دولة المماليك التى دائمًا ما كانت تقف أمام طموحاتهم وأطماعهم في العالم الإسلامى [1].

ولم يكتف أرغون بذلك العداء السافر والاضطهاد للمسلمين في فارس وفى كل مكان، بل ذهب أبعد من ذلك بأن أرسل إلى ملوك الغرب وإلى البابا يعرض عليهم حق الاتجار والتنقل في ربوع دولته، والهدف من ذلك هو إضعاف تجارة دولة المماليك والقضاء على قوتهم في الشام ومصر، بل زاد على ذلك إعلان رغبته في التنصر، إلا أن ذلك كله لم يتعد حدود المراسلات وإبداء الرغبات، وظلت علاقة مغول فارس بالصليبيين في الشام وأوروبا المسيحية تراوح مكانها[2].

أمام هذا التقارب الذى بدأ يلوح في الأفق بين التتار والصليبيين قابله تقارب آخر بين المماليك ومغول القبيلة الذهبية والذين كانوا يكنون العداء للتتار في فارس، وكذلك تحالف مع الإمبراطور البيزنطى وملوك فرنسا وجمهورية جنوه وإمبراطور الجرمان رودولف هاسبورج، ورمم جبهته الداخلية بالقضاء على القوى الخارجة عليه مثل سنقر الأشقر [3].

ولم يقف السلطان قلاوون ينتظر مجيء القوات الصليبية المغولية لتهاجمه في داره، بل أخذ بزمام المبادرة وشرع في مهاجمة المعاقل الصليبية في بلاد الشام، وكان هدفه الأول هو حصن المرقب الذى كان بأيدى الإسبتارية، والذى

(1) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 126.

(2) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 127.

(3) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 126.

كان يحمى الحدود الشمالية لإمارة طرابلس الصليبية، وكان هجوم الجيش المملوكى على هذا الحصن مباغتًا بحيث إن الحامية لم تستطع المقاومة واستسلمت ورحلت عن الحصن في مايو 1285م / ربيع الأول 684 هـ، بعد حصار دام ثمانية وثمانين يومًا [1].

وبعد سقوط هذا الحصن وتوابعه سارع أمراء الصليبيين إلى طلب السلام من سلطان المماليك في مصر والشام، حيث طلب بوهيمند السابع أمير طرابلس - الذى باتت حدوده الشمالية تحت تهديد الجيش المملوكى - مسالمة المنصور قلاوون، وكذلك فعلت مرجريت أميرة صور التى نالت الصلح بشروط مهينة، وكذلك فعل بقية الصليبيين [2].

وكانت الشواهد تدل على أن الكيان الصليبى في الشام قد دخل مرحلة الاحتضار، ولم يكن ممكنًا أن تأتى إليه النجدات من الغرب الأوروبى نظرًا لانشغال ملوك أوروبا وأمرائها بمنازعاتهم ومشكلاتهم الداخلية. وفى سنة 686 هـ / 1287 م أرسل السلطان المنصور قلاوون جيشًا استولى على ميناء اللاذقية الذى كان آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية التى حررها الظاهر " بيبرس " [3].

وبعد ذلك بعامين خرج السلطان بنفسه على رأس جيش ضخم فرض حصارًا على طرابلس ثم استولى عليها بعد أربعة وثلاثين يومًا من الحصار، حيث قتل في هذه المعركة من الصليبيين عدد كبير، كما أن السلطان المملوكى سيف الدين قلاوون أمر بهدم سور المدينة، وكان سقوط هذه المدينة في شهر ربيع الآخر 688هـ / أبريل 1289 م [4].

---

(1) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 120.

(2) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 120.

(3) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 120.

(4) المقريزي، السلوك، 1 / 746- 748، العيني، عقد الجمان، 2/ 380- 381، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 120.

وبسقوط طرابلس سقطت المدن الأخرى المجاورة لها، مثل بيروت وجبلة، على حين أعلنت جبيل خضوعها للسلطان المنصور قلاوون، وانحصر الصليبيون في عكا وصيدا وعثليث وصور، بعد أن كانت مستوطناتهم قد امتدت لتشمل كل فلسطين والساحل اللبنانى ووصلت إلى الحدود المصرية كما امتدت إلى خليج العقبة [1].

وفى السنة التالية، أى في سنة 689هـ / 1290 م جاء بعض الصليبيين الإيطاليين إلى ميناء عكا، وعبروا عن حماستهم الصليبية بطريقتهم الهمجية المعتادة، فهاجموا المسلمين وقتلوا عددًا من التجار المسلمين الذين كانوا قد اعتادوا هذه المنطقة الخاضعة للصليبيين لأغراض تجارية منذ زمن بعيد، وهكذا كانت حماقة الصليبيين الجدد الوافدين من إيطاليا سببًا في انهيار فترة السلام القلق بين بقايا الكيان الصليبى وسلطنة المماليك القوية. وكان على الصليبيين أن يسددوا كافة ديونهم وأن يدفعوا الثمن فادحًا هذه المرة. وقد رفض المنصور قلاوون الأعذار التى ساقها الفرنج حول هذه الاعتداءات، وقرر القضاء على عكا ومن فيها من الصليبيين، وكتب إلى البلاد الشامية بإعداد التجهيزات لحصار عكا وخرج المنصور بنفسه على رأس جيشه لقتال عكا، ولكنه توفى في ذى القعدة من سنة 689 هـ / 1290 م فنقل إلى قلعة الجبل ليلاً وعاد الأمراء والعساكر إلى بيوتهم وكانت مدة سلطنته احدى عشر سنة وشهرين وأربعة وعشرين يومًا وعمرة نحو السبعين سنة[2].

سلطنة الأشراف خليل بن قلاوون ومقتله :

ترك المنصور قلاوون ثلاثة أولاد وهم الملك الأشرف خليل والملك الناصر محمدًا، والأمير أحمد الذى مات في حياة أبيه، واستقر الرأى على أن يكون الأشرف خليل هو السلطان على البلاد فجلس على تخت الملك بقلعة الجبل يوم

(1) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 120.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 753- 754، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 121.

الأحد السابع من ذى القعدة 689 هـ / نوفمبر 1290 م [1].

كان على السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أن ينجز المهمة التى بدأها أبوه، ألا وهى القضاء على بقايا الصليبيين الموجودين في عكا، وبعد تجهيزات دقيقة تحرك الجيش الإسلامى من مصر في ربيع الأول سنة 690 هـ / مارس 1291 م، ووصل عند أسوار عكا بعد مسير شهر تقريبًا، وهناك وصلت معدات الحصار من دمشق، وكان عددها اثنين وتسعين منجنيقًا استغرق نصبها أربعة أيام، وفى الوقت نفسه جاءت جموع الصليبيين إلى عكا عن طريق البحر للمساعدة في مقاومة الحصار، وفى داخل المدينة المحاصرة أيقن الفرنج أن نهايتهم قد حانت، وأخذت المنظمات الرهبانية العسكرية تستدعى كل ما يمكن من فرسانها في أوروبا، كما أرسل إدوارد الأول مجموعة من الفرسان الانجليز، وجاءت قوات من قبرص، بيد أن هذا كله لم يجد نفعًا أمام قوة جيش الأشرف خليل بن قلاوون الذى اقتحم المدينة في يوم الجمعة 17 جمادى الأولى سنة 690 هـ.

وقبل أن ينتصف نهار ذلك اليوم كانت الإعلام الإسلامية تخفق فوق أسوار عكا، وهرب الفرنج في البحر، وهلك منهم خلق كثير من شدة الازدحام والتدافع للنجاة والهرب، [2] وكانت مدة حصار عكا أربعة وأربعين يومًا، ثم سقطت بعد أن ظلت في أسر الفرنج الصليبيين على مدى تاريخ الوجود الصليبى تقريبًا، باستثناء سنوات قليلة أثناء الحملة الصليبية الثالثة [3].

بعد عكا، سقطت بقية المعاقل والمدن الصليبية بالشام تباعا، وبذلك عادت بلاد الشام للسيادة العربية الإسلامية مرة أخري. ودالت دولة الفرنج بعد أن استمرت

(1) المقريزي، السلوك، 756/1- 757، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 3- 4، أبو الفداء، المختصر، 4 / 24.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 762- 765، ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، 8/ 308- 310، ابن حبيب، تذكرة النبيه، 1 / 137- 138، العيني، عقد الجمان، 3 / 56- 65، النويري، نهاية الأرب، 13/ 197- 199.

(3) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 122.

في الوجود مائتى سنة تقريبًا. بيد أن القضاء على بقايا المستوطنات الصليبية في المنطقة العربية سنة 690 هـ / 1291م، لم يكن يمثل النهاية الحقيقية لقصة " الحركة الصليبية " فقد لجأت فلول الهاربين إلى قبرص ورودس لمحاولة إعادة بث الحياة في الجسد الصليبى الميت على طوال القرنين التاليين، كما أن البابوية وأنصارها لم يكفوا عن صياغة مشروعات صليبية جديدة بهدف السيطرة على المنطقة العربية، والتحكم في طرق التجارة العالمية ومحطاتها، ومن ناحية أخرى استمرت دولة سلاطين المماليك تؤدى دورها التاريخى في المواجهة الطويلة والمضنية، على الرغم من أن المواجهة لم تعد تتطلب حشد الموارد كلها في صالح الجهد الحربي، كما كان طوال فترة الوجود الصليبى في المنطقة العربية [1].

العلاقة مع مملكة النوبة :

وإذا كانت دولة سلاطين المماليك قد تصدت للخطر المغولى حتى ذاب في العالم الإسلامى وبات المغول جزءًا عضويًا في العالم الإسلامى الكبير، وإذا كان التاريخ قد جعل لهذه الدولة، أيضًا شرف القضاء على الخطر الصليبى في أواخر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادي، فقد كان نشاط سلاطين المماليك على حدود مصر الجنوبية، أى مملكة النوبة، تأكيدًا للدور التاريخى لهذه الدولة التى تحملت عبء الدفاع عن العالم الإسلامى في هذه الفترة من تاريخه.

والمعروف أن الفتح الإسلامى لمصر على يد عمرو بن العاص، قد امتد إلى الجنوب في محاولة لفتح مملكة دنقلة المسيحية التى كانت تمتد إلى الجنوب من أسوان، ولكن محاولة عقبة ابن نافع الفهري، ثم محاولة عبد الله بن سعد بن أبى السرح لغزو النوبة لم تسفر سوى عن عقد معاهدة عرفت باسم " معاهدة البقط " وهى اتفاقية للتبادل الاقتصادي، بيد أنها لم تحقق أية سيطرة سياسية أو

(1) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 122.

عسكرية حقيقية لمصر على بلاد النوبة. ثم جرت محاولة لغزوها في زمن هشام بن عبد الملك بن مروان، ثم غزاها يزيد بن أبى صفرة، ثم غزاها أبو منصور تكين التركي، ثم غزاها كافور الإخشيدي، وكان آخر من غزاها شاهان شاه أخو أيوب أخو السلطان صلاح الدين الأيوبى (1).

ومنذ ذلك التاريخ، وحتى عصر سلاطين المماليك، ظلت العلاقات بين مصر والنوبة قائمة على أساس تلك المعاهدة، وظلت تتراوح بين الشدة والجذب أحيانا، ولم تخرج عن هذا الإطار حتى قيام دولة سلاطين المماليك بطابعها العسكرى وحماستها الدينية التى كانت مبرر وجودها التاريخى في حقيقة الأمر. ومنذ ذلك الحين بدأت العلاقات مع النوبة تأخذ اتجاهًا جديدًا؛ إذ كان من المنطقى أن تمتد الحماسة الدينية التى صاحبت الانتصارات التى حققتها جيوش مصر والشام ضد المغول والصليبيين لتصيب كافة القوى غير الإسلامية على حدود دولة المماليك، وكانت مملكة النوبة على حدود مصر الجنوبية آنذاك واحدة من تلك القوى التى طالتها الحماسة الدينية في عصر سلاطين المماليك.

وقد تطوع النوبيون بتقديم المبرر للسلطان الظاهر " بيبرس " لمهاجمتهم، وانتهز داوود ملك النوبة فرصة انشغال الجيش ضد المغول والإفرنج والأرمن فشن هجومًا ضد المناطق الجنوبية في مصر.

وفى سنة 674 هـ /1272م حضر إلى القاهرة ابن أخت ملك النوبة واسمه " مشكد " أو " شكندة " طلبًا لمساعدة السلطان الظاهر " بيبرس " ضد الملك الذى اغتصب حقه في العرش، وأرسل " بيبرس " حملة ضخمة بقيادة الأمير أقسنقر الفارقانى والأمير عز الدين الأفرم إلى النوبة ومعهم الأمير النوبى المطالب بعرش النوبة، وأمرهم إن فتحوا البلاد أن يسلموها له على أن يكون لشكندة النصف والربع من البلاد، والربع يكون خالصًا للسلطان... ووصل الجيش إلى دنقلة في شوال من تلك السنة، وانتهت المعركة بسرعة بهزيمة ملك النوبة بعد

---

(1) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 123.

قتل الكثير من جنوده، وأسر عدد كبير من النوبيين واضطر داود للهرب.

وكانت أهم نتائج هذه الحملة أن صارت النوبة خاضعة لدولة سلاطين المماليك بحيث تعين على ملكها أن يرسل جزية سنوية للقاهرة. وهكذا حققت حملة السلطان الظاهر " بيبرس " ما لم تستطع أية حملة مصرية أن تحققه منذ أيام عمرو بن العاص، وقد لقى شكنده مصرعه على يد واحد من الفداوية الباطنية [1].

وبعد " بيبرس " سارت العلاقات المصرية النوبية شوطًا نحو السيطرة المصرية الكاملة. فقد اهتم المنصور قلاوون بتأمين حدود مصر الجنوبية ضد غارات النوبيين، كما أن علاقته بالنوبة كانت متوائمة مع سياسة دولة سلاطين المماليك بشكل عام تجاه القوى السياسية في البحر الأحمر الذى كان شريانًا حيويًّا للتجارة المصرية، كما كان طريقًا مهمًا لتجارة العبور التى كانت من موارد الدخل الهامة لدولة سلاطين المماليك.

في سنة 688 هـ / 1287م أرسل السلطان المنصور قلاوون حملة لغزو النوبة تحت قيادة الأمير علم الدين سنجر المسرورى المعروف بالخياط والأمير عز الدين الكوراني. وكانت حملة كبيرة انضمت إليها قوات والى قوص وعربان الصعيد. وعندما وصلت القوات إلى بلاد النوبة تقهقرت قوات ملكها " سمامون " وهى تخلى البلاد أمام الجيش المملوكى حتى وصل إلى دنقلة وهناك دارت معركة أسفرت عن هزيمة الملك وتولى مكانه ابن أخته وعادت الحملة بعد أن قررت جزية سنوية على ملك النوبة الجديد ومعها الكثير من الغنائم والأسلاب. وعاد سمامون إلى الظهور من مخبئه مرة أخرى بعد أن عادت القوات المملوكية إلى القاهرة، وطرد قائد الحامية المملوكية [2].

وفى سنة 688 هـ سارت حملة جديدة ضد النوبة بقيادة الأمير عز الدين الأفرم

---

(1) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 123.

(2) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 125.

ومع الجيش سار على صفحة نهر النيل حوالى خمسمائة مركب تحمل السلاح والمؤن والأزواد. ولما وصل الجيش إلى أسوان مات ملك النوبة الجديد، وتم تجهيز أحد أقاربه من القاهرة ليتولى عرش النوبة، ولقى الجيش المملوكى مودة وترحيبًا من النوبيين حتى جزر ميكائيل، وأما جنوب النوبة حتى دنقلة فقد أخلاها من سكانها حتى إنهم لم يجدوا بالمدينة نفسها غير شيخ واحد عجوز، وظلت الحملة تطارد سمامون حتى منطقة الجنادل، وهناك فارقه الأمراء والأساقفة والقساوسة، وطلبوا الأمان من قائد الجيش المملوكى ليعودوا إلى دنقلة، ثم عادت القوات إلى القاهرة بعدما تركوا حامية صغيرة بقيادة " بيبرس " العزي.

بيد أن سمامون عاود الظهور واستعاد سيطرته على مملكته وأمرائه ورجال الكنيسة، وزحف على دار الملك وأخرج " بيبرس " العزى والحامية إلى قوص، . وقبض على الملك الذى جلس على العرش بدلاً منه وقتله شر قتلة، ثم بعث إلى السلطان قلاوون يسأله العفو، وأرسل إليه هدية وتعهد أن يدفع ماكان ملوك النوبة من قبله يؤدونه إلى حكام مصر [1].

وقبل السلطان عرض الملك النوبي، إذ كان يستعد لقتال الصليبيين في عكا، ولم يكن لديه الوقت ولا الجيش الذى يمكن أن يخصصه لقتال الملك النوبى المراوغ.

وبعد ذلك استمر ملوك النوبة بصفة عامة على ولائهم لمصر طوال عصر السلطان الناصر محمدًا بن قلاوون، الذى تولى عرش السلطنة ثلاث مرات ولم تحدث أحداث تعكر صفو هذه العلاقة، بيد أن سلاطين المماليك بدؤوا يفكرون في أن يكون ملوك النوبة من النوبيين الذين تربوا في مصر واعتنقوا الإسلام ونشؤوا نشأة عربية إسلامية خالصة، وقد أدى هذا الاتجاه إلى تغير هام وجذرى في العلاقات المصرية النوبية.

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 749- 753، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 125.

وبتولى كنز الدولة حكم بلاد النوبة أخذت البلاد تصطبغ منذ القرن الرابع عشر الميلادى بالصبغة العربية الإسلامية. وقد هاجرت بعض القبائل العربية إلى النوبة واستقرت بها، مما سارع بعملية التحول العربى الإسلامى في النوبة، إذ صارت هذه المنطقة منذ ذلك الحين فصاعدًا منطقة عربية إسلامية وتخلت عن الديانة المسيحية وصارت جزءاً عضويًّا يرتبط بالكيان المصرى تجرى عليه كافة التطورات التاريخية التى شكلت تاريخ مصر منذ تلك الفترة حتى أيامنا الحالية (1).

العلاقة مع المغول:

كنا توقفنا عند عودة العلاقة العدائية بين المماليك والمغول بعد مقتل أحمد تكودار، حيث سارت جماعة من التتار وأغاروا على الرحبة وأخذوا منها الكثير من الماشية والدواب، فخرجت إليهم القوات الإسلامية من دمشق وتمكنت من ردهم على أعقابهم سنة 691 هـ / 1292م وكان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون قد خرج من مصر بقواته إلى الشام، فسار إلى حلب ثم غادرها في الرابع من جمادى الآخرة 691 هـ / 1292م لمحاصرة قلعة الروم (2)، وكانت تحت طاعة التتار، وكان أهلها يوادعون التتار ويتحالفون معهم ضد المسلمين " وقد سكن أهلها على مخادعة الجار وموادعة التتار وممالأتهم على الإسلام بالنفس والمال " (3).

فنصب الملك الأشرف خليل بن قلاوون عليها عشرين منجنيقًا واستمر في حصارها مدة ثلاثة وثلاثين يومًا، وتم فتحها عنوة يوم السبت الحادى عشر من رجب 691 هـ / يونيو 1292م وسماها قلعة المسلمين، وكان أهلها من

(1) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 126.
(2) قلعَة الرُوم: قلعة حصينة في غربى الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط. معجم البلدان- (ج 3 / ص 431).
(3) اليافعي، مرآةالجنان، 4 / 219، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 128.

النصارى ولكن تحت طاعة التتار، وعاد السلطان إلى دمشق ثم القاهرة فدخلها يوم الأربعاء الثانى من ذى القعدة 691هـ / أكتوبر 1292م [1].

وشيئًا فشيئًا بدأت قوة مغول فارس تذبل وتضمحل، ولم تعد بحالة تسمح لها بمتابعة سياسة الغزو والإغارة على بلاد الشام وبلاد الإسلام، وذلك لأسباب منها؛ الصراع الداخلى بين ملوك فارس حول الإستيلاء على العرش، وكان كيختو (كيخاتو) ملك التتار الذى خلف أخاه أرغون سنة 690 هـ / 1291م قد أسرف في إنفاق الأموال الكثيرة على ملذاته وفيما لاطائل من ورائه حتى نضبت خزائنه، مما أدى إلى ضعف دولته، ومع هذا الضعف والترهل الذى اعترى دولته فإنه بعث رسولاً إلى الملك الأشرف خليل بكتاب يتضمن المطالبة بحلب، لأن أباه " هولاكو " كان قد فتحها من قبل ويهدد بأنه إذا لم يسمح له بذلك غزا بلاد الشام، فأجابه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (... بأنه قد وافق الخان ما كان في نفسى فإنى - كنت على عزم من أخذ بغداد وقتل رجاله فإنى أرجو أن أردها إلى دار الإسلام كما كانت وسينظر أينا يسبق إلى بلاد صاحبه) [2].

وواضح من الرسالة مدى القوة التى كان يشعر بها الأشرف تجاه خصمه حيث تظهر فيها روح التحدى والمبادرة، ومن ثم بادر بالكتابة إلى نوابه في بلاد الشام بالاستعداد وتجهيز الجيش لهذا الأمر، وكان ذلك في عام 692 هـ / 1293م إلا أن هذه الاستعدادات لم يكتب لها أن تتم بسبب وفاة كل من السلطان الأشرف خليل ووفاة ملك التتار كيخاتو 693هـ / 1294م، إذ خرج بيدو على كيخاتو (كيختو) والتقى معه في قتال شديد انتهى بمقتل كيختو، واستقل بيدو بالملك فخرج عليه نائب خراسان " غازان " بن أرغون وجمع الجيوش وقاتل بيدو حتى أخذ الملك منه وقتل بيدو بعد معركة حامية قرب همدان، وكان بيدو

(1) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 128.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 876، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 128.

محبًّا للنصرانية وبذل كثيرًا من الجهد لوضع العقبات في سبيل نشر الإسلام بين المغول[1].

مقتل الأشرف خليل بن قلاوون:

بالرغم من أن الأشرف خليل نجح نجاحًا كبيرًا في السياسة الخارجية والأمور العسكرية لا سيما مع المغول والصليبيين، إلا أنه لم يستطع ضبط الأمور داخل دولته بنفس الكفاءة التى أظهرها في السياسة الخارجية، فلم يستطع ترويض الأمراء الطامحين في منصب السلطنة، ولم يجد الوسيلة المثلى التى يتعامل بها مع طموحاتهم وأطماعهم، فلم يكد الأشرف يتولى السلطنة حتى بلغه أن حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة يعمل على التخلص منه، فقبض عليه وقتله وصادر أملاكه، ونقل ما تحويه خزائنه إلى بيت المال، كما منح إقطاعه للأمير بدر الدين " بيدرا " وفوض إليه السلطنة، فأوغرت هذه التصرفات صدور كبار الأمراء [2].

ولم يكن حسام الدين طرنطاى وحده الذى نكل به الأشرف خليل، بل لحقه علم الدين سنجر الذى عزل من منصب الوزارة سنة690 هـ [3].

وبعد قليل انقلب الأشرف خليل على نائب السلطنة الجديد بدر الدين " بيدرا " واستعاد بعض الأراضى التى كان قد استولى عليها وضمها إلى أملاكه [4].

وعلى الرغم من أن السلطان الأشرف خليل كان ينقم على " بيدرا " ويأخذ عليه عبثه بأموال الدولة واستيلاء نوابه على متاجر الإسكندرية، ووضع أيديهم على كثير من الجهات فإنه ما لبث أن خشى بأسه فحاول استرضاءه بألف دينار بعثها إليه، ولكن محاولته ذهبت أدراج الرياح، واغتنم " بيدرا " فرصة ركوب السلطان للصيد وسار بصحبة حسام الدين لاجين المنصوري، وشمس الدين قرا

(1) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 129.
(2) الدواداري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، 9/ 167- 168.
(3) المقريزي، السلوك، 1 / 761، الدواداري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، 9/ 167- 168.
(4) المقريزي، السلوك، 1 /782- 783.

سنقر وسيف الدين بهادر المنصوري وغيرهم لتنفيذ المؤامرة التي دبرها للخلاص من الأشرف خليل، وما لبث أن ضربه بالسيف وتبعه سائر الأمراء الذين أجهزوا عليه بالسيوف ومزقوا جسده شر ممزق، وكان ذلك في يوم الاثنين 12 من محرم سنة 693 هـ، وتركوا جثمانه ملقى في المكان الذى قتل فيه يومين كاملين حتى حمله الأمير عز الدين أيدمر العجمى ونقله إلى القاهرة حيث دفن بالقرب من مشهد السيدة نفيسة، وقد قتل الأشرف خليل وهو في الثلاثين من عمره بعد أن حكم نحو ثلاث سنوات[1].

وعلى ما يبدو أن الأشرف خليل قد وقع تحت تأثير وشاية البعض من خاصته ووزرائه الذين زينوا له التنكيل والتقليل من شأن وزراء وأمراء وأهل الحل والعقد في دولة أبيه وخاصة وزيره شمس الدين محمد بن السلعوس [2] الذى كان مسيطرًا على فكر وعقل الأشرف

---

(1) مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد، 2/ 403- 406، المقريزي، السلوك، 1 / 790، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 4، 30.

(2) كان هذا الوزير يشتغل بالتجارة في دمشق، ثم أخذ يتنقل في بعض الوظائف حتى ولى الحسبة والنظر في ديوان الملك الأشرف في بلاد الشام، فجمع أموالاً كثيرة من ضياع كان قد استأجرها لحسابه، وما إن قدم مصر في أيام السلطان قلاوون، وسعى لدى الأشرف خليل ولى عهد الدولة المملوكية إذ ذاك حتى عينه ناظرًا لديوانه بمصر، غير أنه سرعان ما أساء التصرف وابتز أموال بعض المقطعين مما حدا بالسلطان قلاوون إلى عزله وتعيين فخر الدين بن الخليل بدلاً منه. ولما حل موسم الحج توجه ابن السلعوس إلى الحجاز وظل فيها إلى أن آلت السلطنة إلى الملك الأشرف خليل، الذى بعث في طلبه وكتب إليه بخطه: ياشقير، يا وجه الخير، تعجل بحضورك لتتسلم وزارة الديار المصرية والشامية، ولما تولى الوزارة للأشرف زاد نفوذه في الدولة المملوكية بعد أن ألقى إليه السلطان مقاليد الأمور وجعل من اختصاصه الإشراف على شؤون الأمراء، وعلت مكانته حتى أصبح لا يسير إلا في موكب من الجند وأصحاب الدواوين، وبين يديه القاضيان الشافعى والمالكى يسير أمامهما القاضيان الحنفى والحنبلي، ثم نظار الدولة، يقول النويري: وكان شمس الدين بن السلعوس هذا تاجرًا من أهل دمشق، ولم يكن من التجار المياسير. ولكنه كان يأخذ نفسه بالحشمة والرئاسة. حتى كان التجار فيما بينهم ينعتونه بالصاحب استهزاء به. ثم تعلق بالخدم، وانتمى إلى تقى الدين توبة التكريتى وزير دمشق، في الدولة المنصورية، فاستخدمه في بعض الجهات. وتنقل إلى أن ولى نظارة الحسبة بدمشق، في شهر رمضان، سنة سبع وثمانين وستمائة كما تقدم. ثم ولى نظارة ديوان الملك الأشرف بالشام، فأظهر الاجتهاد، واستأجر للملك الأشرف ضياعًا بالشام، وعمل له متجرًا، وحصل من ذلك أموالاً، فتقدم عند الملك الأشرف، ومال إليه.

خليل بن قلاوون حتى أورده المهالك.

اعتلاء الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطنة:

بعد أن قتل الأشرف خليل بن قلاوون اتفق المتآمرون على جعل الأمير بدر الدين " بيدرا " [1] سلطانًا على البلاد ولقبوه بالملك القاهر أو الأوحد، إلا أن

وحضر إلى باب الملك الأشرف، في صفر، سنة ثمان وثمانين وستمائة. واستناب عنه في نظارة الحسبة بدمشق والديوان الأشرفي، القاضي تاج الدين أحمد ابن القاضي عماد الدين محمد بن الشيرازي. ولما حضر إلى باب الملك الأشرف، نقله إلى نظر ديوانه نيابة، عوضًا عن تاج الدين بن الأعمى. وخلع عليه خلع الوزارة. واستمر في نظارة ديوان الملك الأشرف ووكالته، إلى جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وستمائة. فاتفق أن الملك الأشرف، خلع عليه خلعة سنية، تشبه خلع الوزراء. فرآه السلطان الملك المنصور، وعليه تلك الخلعة، فأنكر هيئته، وسأل الأمير حسام الدين طرنطاى عنه.

فقال هذا وزير الملك الأشرف، وذكر مساوئه للسلطان، فغضب السلطان الملك المنصور لذلك، وأنكره. وأمر بإحضاره، فأحضر بين يديه، فأنكر عليه كونه خدم ولده، بغير أمره، ولا أمر نائبه، ولا وزيره. وأمر السلطان بنزع تلك الخلعة، التى ألبسها، فنزعت. وسلمه إلى شاد الدواوين يومئذ، وهو الأمير زين الدين أحمد الصوابي، وأمر بمصادرته، والإخراق به، وضربه. وأرسل إليه الأمير حسام الدين طرنطاي، أن يوقع به الإهانة والإخراق، ويبادر بضربه، وأرسل إليه الملك الأشرف، إلى مشد الدواوين، يستوقفه عند ذلك، ويتوعده إن ناله منه سوء، فخاف للشد المذكور غائلة الملك الأشرف، وتوقف عن الإخراق به، ورسم عليه في قاعة، كان المشد يجلس فيها، في وقت استراحته، ثم تلطف الملك الأشرف في أمره، مع الأمير حسام الدين طرنطاي، وراسله بسببه. وتكررت رسائله إليه، والى غيره في معناه، حتى حصلت الشفاعة فيه عند السلطان، فأطلقه. وأمر السلطان بصرفه، فصرف، ولزم داره. وكانت هذه الواقعة من أضر شيء على الأمير حسام الدين طرنطاي، ومن أكبر أسباب القبض عليه وقتله.

واستمر الصاحب شمس الدين بداره إلى زمن الحج، فتوجه إلى الحجاز الشريف. واتفقت وفاة السلطان الملك المنصور، وسلطنة الملك الأشرف، كما تقدم، فكتب إليه يعلمه بذلك. ويقال: إن السلطان كتب بخطه إليه، بين سطور الكتاب، يا شقير، يا وجه الخير، عجل بالسير، فقد ملكنا.

فلما وصل الأشرف خليل إلى السلطان، فوض إليه الوزارة، ومكّنه من الدولة تمكينًا عظيمًا، ما تمكن وزير قبله مثله في دولة الترك. وجرّد في خدمته جماعة من المماليك السلطانية، يركبون في خدمته، ويترجلون في ركابه، ويقفون بين يديه، ويمتثلون أوامره، فعظم بذلك شأنه، وتعاظم في نفسه واستخف بالناس. وتعدى أطوار الوزراء، حتى كان أكابر الأمراء يدخلون إلى مجلسه، فلا يستكمل لهم القيام. ومنهم من لا يلتفت إليه. نهاية الأرب في فنون الأدب (8 / 346).

(1) " بيدرا "، الأمير بدر الدين " بيدرا " نائب الدولة الأشرفية؛ كان أعز الناس عند أستاذه الملك

اتباع الأشرف بقيادة الأمير زين الدين كتبغا [1] لم يتركوا " بيدرا " في ليلته تلك إلا مقتولاً في نفس المكان الذى قتل فيه الأشرف خليل بن قلاوون بالطرانة [2]، فلم ينعم بسلطنته، ولم يعترف به أحد.

المنصور قلاوون. من كبار المقدمين في دولته، فلما ملك الأشرف جعله أتابكًا، وكان يرجع إلى دين وعدل وعقل ويحب الكتب في أنواع العلوم واقتنى منها جملة واستنسخ منها أيضًا جملة. وملكت من كتبه: الكامل لابن الأثير في اثنتى عشرة مجلدة، كتبها له الوطواط جمال الدين محمد بن إبراهيم الوراق المذكور في المحمدين.

وكان يحب الفضلاء ويقدمهم ويكرمهم، لكنه خرج على مخدومه الأشرف خليل بن قلاوون وساق إليه وقتله هو وحسام الدين، ورجع تحت عصائب السلطنة وحلفوا له ووعدوه بالملك، فلم يتم له أمر وقتلوه من الغد في ثالث عشر المحرم، ولم يتولى السلطنة سنة ثلاث وتسعين وست مائة. الصفدي، الوافى بالوفيات، 3 / 451.

(1) وأصله من التتار من سبى وقعة حمص الأولى التى كانت في سنة تسع وخمسين وستمائة؛ فأخذه الملك المنصور قلاوون وأدبه ثم أعتقه، وجعله من جملة مماليكه، ورقاه حتى صار من أكابر أمرائه؛ واستمر على ذلك في الدولة الأشرفية خليل بن قلاوون إلى أن قتل، وتسلطن أخوه الملك الناصر محمدًا بن قلاوون في سنة ثلاث وتسعين وأقام الناصر في الملك إلى سنة أربع وتسعين ووقع الاتفاق على خلعه وسلطنة " كتبغا " هذا، فتسلطن وتلقب بالملك العادل، وَسِنَّه يوم ذاك نحو الأربعين سنة، وقيل خمسين سنة. وقال الشيخ شمس الدين بن الجزرى قال: حكى لى الشيخ أبو الكرم النصرانى الكاتب، قال: لما فتح " هولاكو " حلب بالسيف ودمشق بالأمان طلب " هولاكو " نصير الدين الطوسى وكان في صحبته، وقال له: اكتب أسماء مقدمى عسكري، وأبصر أيهم يملك مصر، ويقعد على تخت الملك بها حتى أقدمه؛ قال: فحسب نصير الدين أسماء، المقدمين فما ظهر له من الأسماء اسم من يملك الديار المصرية غير اسم كتبغا. وكان كتبغا صهر " هولاكو "، فقدمه على العساكر فتوجه بهم كتبغا فانكسر على " عين جالوت "، فتعجب " هولاكو " من هذه الواقعة وظن أن نصير الدين قد غلط في حسابه. وكان كتبغا هذا من جملة من كان في عسكر " هولاكو " من التتار ممن لا يؤبه إليه من الأصاغر، وكسبه قلاوون في الواقعة؛ فكان بين المدة نحو من خمس وثلاثين سنة، حتى قدر الله تعالى بما قدر من سلطنة كتبغا هذا. انتهى.

ولم تطل مدة سلطنته حتى وقع الغلاء والفناء بالديار المصرية وأعمالها؛ ثم انتشر ذلك بالبلاد الشامية جميعها في شوال من هذه السنة، وارتفع سعر القمح حتى بيع كل إردب بمائة وعشرين درهمًا بعد أن كان بخمسة وعشرين درهمًا للإردب، وأما في السنة الآتية التى هى سنة خمس وتسعين وستمائة فوصل سعر القمح إلى مائة وستين درهمًا للإردب وأما الموت فإنه فشا بالقاهرة وكثر، ابن تغرى بردي.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 2 / 390.

(2) الطرانة: قرية صغيرة على الشاطئ الغربى لفرع رشيد بمركز كوم حمادة بمديرية البحيرة.

ولما فرغ الأمير زين الدين كتبغا من قتل الأمير " بيدرا " وهزيمة أتباعه، عول على العودة إلى القاهرة، غير أن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى - الذى كان السلطان الملك الأشرف خليل قد أنابه عنه بقلعة الجبل قبل رحيله في رحلة الصيد - حال بينه وبين العبور إلى المدينة، ومازالت الرسل تتردد بينهما حتى وقع الاتفاق على مبايعة الملك الناصر محمدًا بن قلاوون بالسلطنة - وكان إذ ذاك في التاسعة من عمره - ومن ثم سمح للأمير زين الدين كتبغا ومن معه من المماليك بدخول القاهرة.

ولما جلس الملك الناصر محمدًا بن قلاوون على عرش السلطنة في المحرم من سنة 693هـ استقر الرأى على تعيين الأمير زين الدين كتبغا نائبًا للسلطنة والأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيرًا، والأمير حسام الدين لاجين الرومى أتابكًا للعسكر، والأمير ركن الدين " بيبرس " الجاشنكير إستادارا، والأمير ركن الدين " بيبرس " الدوادار دوادارًا ومنحه السلطان إمرة مائة فارس وتقدمة ألف، كما عهد إليه بالإشراف على ديوان الإنشاء [1].

وعلى إثر تولية الملك الناصر محمدًا بن قلاوون رأى الأمير زين الدين كتبغا أن يحتاط لما عساه يحدث من القلاقل في بلاد الشام، فأرسل إلى عامل دمشق على لسان الأشرف خليل بن قلاوون - قبل أن يبلغه خبر مقتله - كتابًا جاء فيه: " إنا قد استنبنا أخانا الملك الناصر محمدًا وجعلناه ولى عهدنا حتى إذا توجهنا إلى لقاء العدو يكون لنا من يخلفنا. " كما طلب منه أن يأخذ البيعة للملك الناصر وأن يذكر اسمه مع السلطان الملك الأشرف خليل ابن قلاوون في الخطبة. ولم يمض على ذلك الكتاب غير يوم واحد حتى وصلت إلى نائب دمشق الأوامر بمصادرة أموال كل من " بيدرا " ولاجين وقرا سنقر وغيرهم من الأمراء الذين اشتركوا في مؤامرة قتل الأشرف خليل مما جعل أهل دمشق يعرفون حقيقة الحال في مصر [2].

---

(1) المقريزي، السلوك، 793/1- 794، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 8 / 19- 20.
(2) المقريزي، السلوك، 1 / 794- 795.

على أن الأمر الجدير بالملاحظة هو أن إقامة الملك الناصر محمدًا في السلطنة بعد مقتل أخيه الأشرف خليل لم تلق معارضة من أهالى الشام، بل إنهم على العكس قد رحبوا بتوليته، كما لم يعترضوا على ذكر اسمه في الخطبة وحده بعد أن ظلت تقام له ولأخيه الأشرف مدة ثلاثة أشهر [1].

ولما تم الأمر للملك الناصر محمدًا بن قلاوون استقر الأمر على البحث عن قتلة الملك الأشرف خليل بن قلاوون، وسرعان ما عثروا على بعضهم في حين ولى الأدبار البعض الآخر، نخص منهم بالذكر حسام الدين لاجين وقرا سنقر اللذين ظلا مختفيين عن الأعين والأنظار حتى هدأت الأحوال، فاتصلا بكتبغا وحصلا على أمان من الملك الناصر [2].

كذلك لم ينج شمس الدين بن السلعوس وزير الأشرف خليل من الاضطهادت التى لحقت بغيره من الأمراء، فقد رأى علم الدين سنجر الشجاعى أن الفرصة قد حانت للتخلص منه، وأخذ يغض من شأنه ويقلل من مكانته عند نائب السلطنة مما حمله على القبض عليه ومصادرة أمواله وإنزال أشد العقوبات به حتى توفى سنة 693 هـ [3].

وقد أصبح الشجاعى بعد قتل ابن السلعوس صاحب الكلمة في الدولة، فهيأ لنفسه وسائل الاستبداد بالأمور رغبة في اعتلاء عرش مصر، وألقى بذور الفتنة بين رجال الدولة وبين كتبغا نائب السلطنة مما أدى إلى انقسام الجند إلى فريقين: أحدهما مع الشجاعى والآخر مع كتبغا، ثم لم يلبث أن عمل على التخلص من كتبغا غير أن عمله هذا لم يصادف نجاحًا.

ولما رأى كتبغا أن الشجاعى تمادى في طغيانه دعا أتباعه من أجناد الحلقة والتتار والأكراد ونزلوا بظاهر باب المحروقي، فاضطر الشجاعى إلى الخروج

---

(1)محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 32.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 22، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 32.

(3) المقريزي، السلوك، 1 / 797.

لملاقاتهم وأخذ يؤلف بين قلوب الأمراء والجند بما أدره عليهم من الأموال، غير أنه لم يجتذب منهم إلا جماعة يسيرة [1].

ولما أعد " كتبغا " العدة لملاقاة عدوه أنفذ إلى الناصر محمدًا كتابًا جاء فيه: " إن الشجاعى قد انفرد برأيه في القبض على الأمراء ولابد من حضوره، فإنه بلغنا عنه ما أنكرناه " فأرسل الناصر محمدًا بذلك إلى الشجاعى الذى امتنع عن الحضور، ومن ثم شرع كتبغا في الزحف على القلعة وأخذ في محاصرتها وقطع عنها الماء يومًا كاملاً، وفى اليوم التالى نزلت مماليك الشجاعى من القلعة وأوقعت الهزيمة بكتبغا وجنده، ولما علم أتباع كتبغا بهذه الهزيمة سارعوا إلى نصرته ونجدته وردوا مماليك الشجاعى على أعقابه إلى القلعة وحاصروها ولحق بهم كتبغا وشدد الحصار عليها سبعة أيام وتسلل منها أكثر جيش الشجاعى وانضموا إلى مماليك كتبغا.

ولما اشتدت وطأة الحصار على الشجاعى وشيعته، خرجت أم السلطان الناصر محمدًا بن قلاوون إلى كتبغا وأتباعه وسألتهم عن السبب الذى حدا بهم إلى محاصرة القلعة فقالوا: " ما لنا غرض إلا القبض على الشجاعى وإخماد الفتنة ولو بقى في بيت أستاذنا بنت عمياء كنا مماليكها لا سيما وولده الملك الناصر محمدًا حاضر وفيه كفاية، وسرعان ما قبضوا على الشجاعى وقتلوه " [2].

ومن ذلك نرى أن هذه الحركة التى قام بها كتبغا وأتباعه لم تكن ترمى في حقيقة الأمر إلا للتخلص من الشجاعى وأنهم لم يضمروا شرًا أو أذى للناصر محمد بن قلاوون [3] وذلك لسبب بسيط وهو أن هذه الحرب الشعواء التى دارت بين كبار الأمراء لم تكن إلا للسيطرة على هذا الصبى الصغير وحكم البلاد باسمه، وأن الحفاظ على حياته كان هدفًا يسعى إليه الجميع.

ولما فرغ كتبغا من القضاء على الشجاعي، أفرج عن الأمراء المعتقلين ورد

(1) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 33.
(2) المقريزي، السلوك، 1 / 798- 801، .
(3) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 34.

إليهم إقطاعاتهم، كما أنزل من كان مقيمًا بالأبراج والطباق بقلعة الجبل من المماليك السلطانية الذين اتهموا بإثارة هذه الفتنة وأسكن منهم طائفة بمناظر الكبش وأنزل طائفة أخرى بمناظر الميدان الصالحى بأرض اللوق (1) ويرجع السبب الذى حدا بكتبغا إلى اتباع هذه السياسة إلى رغبته في إضعاف شوكة هؤلاء المماليك حتى لا يقوموا في وجهه إذا ما استقل بالسلطة في مصر (2).

وكان من أثر تأمين كتبغا لكل من الأميرين حسام الدين لاجين، وقرا سنقر اللذين اشتركا في قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون أن قام المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف خليل السابقين - بثورة في مصر، ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم وهجموا على القلعة في محاولة منهم للسيطرة عليها وإخراج كتبغا وأتباعه، ولكن ردتهم حامية ومماليك كتبغا على أعقابهم وبددت شملهم (3).

استيلاء كتبغا على السلطة في دولة المماليك 694- 696 هـ:

كانت أطماع كتبغا في السلطة بادية منذ البداية ولم يكن حرصه على الانتقام من قتلة الأشرف خليل والإصرار على تولية الصبى الصغير الناصر محمد إلا تمهيدًا تدريجيًا للوصول للسلطنة، فاستغل كتبغا الفتنة التى أثارتها المماليك الأشرفية وسيلة تذرع بها لخلع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، كما أن الأمير حسام الدين لاجين قد ظل يغريه ويحرضه على عزل هذا السلطان لأنه - حسام الدين لاجين - كان يخشى من انتقام المماليك الأشرفية ثأرًا لأستاذهم، ولاعتقاده أن الملك الناصر إذا بلغ سن الرشد سوف يعمل على التخلص منه، ولذلك حسن للأمير كتبغا عزل الناصر وخوفه من الأشرفية، وقال له: " متى كبر الناصر لا يبقيك البتة ولا يبقى أحدًا ممن تعامل على قتل أخيه الملك الأشرف، وأن هؤلاء الأشرفية مادام الملك الناصر محمد في الملك

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 802.
(2) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 35.
(3) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 48- 49.

شوكتهم قائمة، والمصلحة خلعه وسلطنتك " [1] وكان لهذا الحديث أثره في نفس كتبغا الذى قام بجمع الخليفة والقضاة والأمراء وتحدث إليهم في أهلية الملك الناصر محمد للسلطنة لصغر سنه وقال لهم: " إن الأمور لابد لها من رجل كامل تخافه الجند والرعية وتقف عند أوامره ونواهيه. " ولما لم يكن احد يجرؤ على مخالفة كتبغا والوقوف في وجهه - لاسيما بعد أن تخلص من جميع خصومه - استقر الرأى على خلع الملك الناصر محمدًا بن قلاوون بعد أن قضى في السلطنة مدة عام إلا ثلاثة أيام وتولية كتبغا مكانه في يوم الخميس الثانى عشر من المحرم سنة 694 هـ / ديسمبر 1294 م [2].

وبعد أن استقر كتبغا في الحكم تلقب باسم الملك العادل زين الدين، ثم قبض على الملك الناصر محمدًا هو وأمه وسكنهما في بعض قاعات القلعة، وحجب عنهم الناس فيما يشبه الإقامة الجبرية، ثم أرسله حسام الدين لاجين إلى الكرك في شهر صفر 697 هـ / نوفمبر 1297 [3] ثم استوزر كتبغا الصاحب فخر الدين الخليلي، وولى حسام الدين لاجين نيابة السلطنة وفوض إليه جميع أمور الدولة، ومن ثم صار كتبغا يقرب إليه الأمراء وينعم عليهم بالإقطاعيات حتى قويت شوكته وعظمت منزلته عند جميع الناس، غير أن البلاد قد أصيبت على إثر ولايته بالقحط والوباء [4].

وفى تلك الأثناء كان كيخاتو بن أبغا بن " هولاكو " الذى تولى الحكم بعد أخيه أرغون سنة 690 هـ / 1291م قد قتل هو الآخر عام 693 هـ / 1294م على يد ابن عمه بيدو بن طرغاى بن " هولاكو "، وكان " غازان " بن أرغون بن أبغا نائبًا على خراسان في ذلك الوقت، فخرج على بيدو وثار عليه وحاربه

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 49.
(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 49.
(3) المقريزي، السلوك، 1 / 806- 807، 832- 833، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 48- 50.
(4) المقريزي، السلوك، 1 / 807- 808.

حتى قتله عام 694 هـ / 1295م، وأخذ السلطنة منه، وقد اعتنق هذا السلطان الدين الإسلامي، وأقام شرائع الإسلام ومظاهره في بلاد مغول فارس، ثم شرع في هد الكنائس والبيع ومعابد الأوثان في تبريز، وجعل " غازان " من الدين الإسلامى الدين الرسمى لدولته، وبدأ " غازان " في التخلص من المناوئين لحكمه وكان منهم جند العويراتية [1]وكانت هذه الطائفة العسكرية بزعامة طرغاى قد خرجت على كنمتو - عم " غازان " - في ولايته وساعدت بيدو في التمرد و قتل كنتمو، ثم وقفت بجواره حتى تولى الحكم، فلما تولى " غازان " البلاد أراد أن يقتل طرغاى وينتقم من أتباعه لمشاركتهم في مقتل عمه، لكن طرغاى هرب هو ومن معه من العويراتية إلى بلاد الشام بعد أن عبروا الفرات، فكتب كتبغا إلى نائب الشام أن يسير الأمير علم الدين سنجر الدواداري إلى الرحبة لاستقبالهم، فخرج من دمشق لهذا الغرض واستقبلهم وأحسن إليهم ثم سير أكابرهم إلى القاهرة حيث خرج الأمراء على رأس الجند للقائهم ورحب بهم كتبغا ومنحهم الإقطاعات وأجرى عليهم الأرزاق وأنزلهم الحسينية، ولم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد، وصادف ذلك غلاء عظيم واشتد الأمر على الناس [2].

وقد أثار ترحيب كتبغا بالعويراتية حقد وسخط العامة والخاصة لاسيما الأمراء، فالعامة سخطوا عليه؛ لأنه رحب العويراتية وقد ظل الكثير منهم على وثنيته وزاد الطين بلة أن السلطان منحهم الحرية التامة في إقامة طقوسهم الوثنية ولم

---

(1) ويقال أو يراتية، نسبة إلى أويرات وهو اسم جنس يطلق على عدة قبائل مغولية سكنت الجزء الأعلى من حوض نهر ينيسى بأواسط آسيا وهم أصل جنس الكالموك وكانت هذه القبائل قد خضعت قديمًا لسلطة جنكيزخان وساعدته في حروبه، وكان أبناء هذه الطائفة يمتازون بجمالهم مما كان سببًا في تنافس أمراء الدولة على التزوج من بناتهم، فتكاثر نسلهم في القاهرة، وقد ظل أفراد هذه الطائفة يتمتعون بكثير من النفوذ في عهد الملك العادل كتبغا إلى أن عزل في سنة 696هـ، وخلفه الملك المنصور لاجين، فقبض على جماعة من أكابرهم وبعث بهم إلى الإسكندرية حيث سجنوا بها، وفرق من بقى منهم في القاهرة على الأمراء، فاتخذوهم جندًا لهم. المقريزي، الخطط المقريزية، 2 / 22- 23.

(2) المقريزي، الخطط المقريزية، 2 / 21- 22.

يعترض على عدم صيامهم عند حلول شهر الصيام (رمضان الكريم)، بل إنه لم يحاول أن يعرض عليهم الإسلام ومنع الناس من التعرض لهم، أما أمراء المماليك وكبار رجال الدولة المملوكية فقد ساءهم كثيرًا ذلك الترحيب، لأن السلطان كتبغا منحهم الإقطاعيات وأجرى عليهم الأرزاق ومنحهم المناصب العليا، وكل ذلك على حساب الأمراء المماليك، كما أنه اتهم الكثير من أمراء المماليك بمكاتبة التتار، مما أثار سخطهم عليه، وعلى ما يبدو أنه كان يرمي من وراء ذلك إلى أن يجعل هؤلاء العويراتية عونًا له ضد منافسيه من أمراء المماليك، لا سيما وأن أعدادهم كانت تفوق العشرة آلاف من المحاربين [1] ولعلاقة النسب التي كانت تربط مقدم هؤلاء العويراتية (طرغاي) والسلطان كتبغا، وكلا الرجلين قد تزوج من بنات " هولاكو " في أيامهم الأولى [2].

وقد رأى السلطان كتبغا أن يسير إلى بلاد الشام لإقرار الأمن فيها وتنظيم شؤون طائفة التتار العويراتية، فرحل إليها بصحبة نائب السلطنة الأمير حسام الدين لاجين، ولما وصل دمشق سارع إلى لقائه النواب والأمراء وقدموا إليه الهدايا. ولم يمض على إقامته بها غير قليل حتى عزل نائبها الأمير عز الدين أيبك الحموي وعين بدلاً منه الأمير سيف الدين أغزلو العادلي، ثم عاد إلى مصر [3].

استيلاء المنصور حسام الدين لاجين على السلطة في دولة المماليك 696 - 698 هـ:

على أن قلوب الأمراء قد تغيرت على كتبغا لإحلاله مماليك التتار محلهم في مناصب الدولة واتهامه بعضهم بمكاتبة التتار، فاتفقوا مع حسام الدين لاجين على التخلص منه. ولما علم بذلك كتبغا هرب إلى دمشق، وأتيحت الفرصة

---

(1) المقريزي، الخطط المقريزية، 2 / 23.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 812 حاشية 2.

(3) المقريزي، السلوك، 8 / 816- 817، محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص36.

للأمير حسام الدين لاجين [1] لاعتلاء عرش دولة المماليك فاستولى على خزائن السلطان وضم إليه جانب العساكر التى كانت في ركابه [2] ثم قابله الأمراء وشرطوا عليه أن يكون معهم كأحدهم وألا يستقل برأى دونهم، وألا يطلق العنان لمماليكه، فرد عليهم لاجين: " أنا واحد منكم ولا أخير نفسى عنكم ولست مواليًا عليكم من مماليكى أحدًا ولا أسمع فيكم كلامًا أبدًا ولا يصيبكم ما أصابكم من مماليك العادل، وأنتم خوشداشيتى ومحل إخواني.) وأقسم لاجين لهم ألا يستبد برأيه في أمر من الأمور، بل يستشيرهم في مهام الدولة، كما تعهد

(1) كان أولاً من جملة مماليك الملك المنصور على بن الملك المعز أيبك، فلما خلع اشتراه الأمير سيف الدين قلاوون وهو أمير بسبعمائة وخمسين درهمًا، من غير مالك شرعي، فلما تبين له أنه من مماليك المنصور اشتراه مرة ثانية، بحكم بيع قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، وعرف حين بيعه بشقير، فربى عند قلاوون وقيل له لاجين الصغير، وترقى في خدمته. ثم أمره قلاوون واستنابه دمشق لما ملك، وهو لا يعرف إلا بلاجين الصغير، فشكرت سيرته في النيابة، وأحبته الرعية لعفته عما في أيديهم، فلما ملك الأشرف خليل بن قلاوون قبض عليه وعزله عن نيابة دمشق، ثم أفرج عنه وولاه إمرة السلاح دار كما كان قبل استنابته على دمشق. ثم بلغه أن الأشرف يريد القبض عليه ثانيًا، ففر من داره بدمشق، فقبض عليه وحمل إلى قلعة الجبل، وأمر بخنقه قدام السلطان. ثم نجا من القتل بشفاعة الأمير بدر الدين " بيدرا "، وأعيد إلى الخدمة على عادته، واشترك مع " بيدرا " في قتل الأشرف خليل، . ثم اختفى خبره مدة، وتنقل في المدن إلى أن تحدث الأمير زين الدين كتبغا في أمره، فعفى عنه وأعيد إلى إمرته كما كان، فلما صار زين الدين كتبغا سلطانًا، استقر لاجين في نيابة السلطنة بديار مصر، إلى أن اجتمع رأى الأمراء على خلع كتبغا.

واجتمع الأمراء عنده، وحضروا بأجمعهم بين يدى لاجين واتفقوا على سلطنته، وشرطوا عليه أن يكون معهم كأحدهم، ولا ينفرد برأى دونهم، ولا يبسط أيدى مماليكه ولا يقدمهم، وحلفوه على ذلك وحلف له الأمراء وأرباب الدولة. وتلقب بالملك المنصور، وركب بشعار السلطنة في يوم الثلاثاء سابع عشر من المحرم وقد خرج إليه أمراء مصر وحلفوا له، ثم سار منها ضحوة وبات في مسجد تبر، وركب بكرة يوم الجمعة تاسعه إلى قلعة الجبل. ثم ركب إلى الميدان السلطانى بشعار السلطة على العادة، وشق القاهرة من باب النصر إلى باب زويلة، وعليه الخلعة الخليفية وهى جبة سوداء بزيق وأكمام واسعة والتقليد محمول بين يديه، حتى عاد إلى القلعة والخليفة إلى جانبه، وذلك في يوم الخميس خامس عشرة. وفى يوم قدومه انحطت الأسعار إلى نصف ما هى عليه، ودرت الأرزاق وكثر الخير فسر الناس به. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 819- 822، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 37.

ألا يقدم مماليكه وخاصة " منكوتمر " على واحد منهم، فحلف له الأمراء على السمع والطاعة وركب بشعار السلطنة يريد مصر فخطب له بغزة والقدس وصفد والكرك ونابلس، ولما نزل بظاهر بلبيس خرج للقائه أمراء مصر وحلفوا له يمين الطاعة والولاء، ثم واصل السلطان لاجين السير واجتاز موكبه القاهرة من باب النصر إلى باب زويلة حتى دخل القلعة (1).

ولما استقر الأمر للسلطان لاجين بمصر سنة 696 هـ فوض نيابة السلطنة للأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، وولى الأمير سيف الدين قبجق نائبًا بالشام، كما أنفذ أحد الأمراء إلى دمشق بعد أن دعى له على منابرها، ليأخذ البيعة من كتبغا ويجعله يحلف يمين الطاعة على يد قاضي القضاة (2).

ولما استقر لاجين في الحكم كان أول شيء فعله هو التخلص من الجند العويراتية فقبض على طرغاى مقدمهم، وعلى جماعة من أكابرهم وأرسل بهم إلى الإسكندرية حيث أودعوا السجون هناك، ثم فرق بقية ا لعويراتية الموجودين في مصر على الأمراء، فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم، ثم دخلوا الإسلام واختلطوا بأهل البلاد وتفرقوا في الممالك (3).

غير أن لاجين لم يلبث أن نكث بوعده وانقلب على الأمراء وكبار رجال الدولة الذين مهدوا له طريق السلطنة، وبدأ يتخلص من جميع المناوئين والمنافسين له وممن عساه قد يهدد سلطته، فعزل قراسنقر عن نيابة السلطنة وقبض عليه وأسكنه غياهب السجون، وأحل بدلاً منه مملوكه سيف الدين " منكوتمر " الحسامي، رغم معارضة الأمراء واشتراطهم عليه من قبل عدم توليه "

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 822- 823، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 37- 38.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 67، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 37- 38.

(3) المقريزي، السلوك، 1 / 812- 813، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 60، المقريزي، الخطط المقريزية، 2 / 437.

منكوتمر " [1].

كذلك رأى لاجين التخلص من الناصر محمدًا بن قلاوون، خوفًا من أن يحاول الأمراء المماليك عزله وإعادة الناصر محمدًا بن قلاوون للسلطنة، فأمر بإبعاده إلى الكرك هو وأمه وبعض الأمراء [2].

ولم تلبث الأمور أن تعقدت أمام لاجين إذ إن اختياره لنائبه " منكوتمر " قد جلب عليه الأزمات والقلاقل، إذ استبد " منكوتمر " بالسلطة وأضعف نفوذ الوزراء وأصدر أوامره بنقل متحصلات بيت المال إلى داره وجعلها تحت إشرافه المباشر [3].

ثم أخذ " منكوتمر " يوقع المؤامرات والدسائس بين أمراء المماليك في مصر والسلطان حسام الدين لاجين، مما أوغر صدر السلطان على أمراء المماليك في مصر، فقام بالقبض على الكثير منهم وألقى بهم في غياهب السجون، وفر الكثير منهم من مصر باتجاه بلاد الشام وبلاد التتار، حيث رحب بهم " غازان " محمود وأكرم وفادتهم، وأحسن معاملتهم وأنعم على أمرائهم وأعطى لكل أمير منهم عشرة آلاف دينار [4].

وبعد أن نجح " منكوتمر " في إيقاع الكراهية والبغضاء بين أمراء المماليك والسلطان، بدأ في التطلع إلى عرش السلطنة، وقد ساعده على ذلك أن السلطان لم ينجب ولدًا يخلفه في سلطنة مصر، ولذلك عمل على إثارة السلطان ضد الأمير بدر الدين بيسرى ليحول بينه وبين الوصول إلى العرش بعد وفاته، كما قصد بذلك حمل لاجين على البيعة له بالسلطنة بعده [5].

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 88.

(2) النويري، نهاية الأرب، 29 / 315، المقريزي، السلوك، 1 / 833- 834.

(3) ابن أبى الفضائل، النهج السديد، 2 / 446- 447، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 98.

(4) المقريزي، السلوك، 1 / 852- 854.

(5) النويري، نهاية الأرب، 29 / 319.

وفى تلك الأثناء فكر حسام الدين لاجين في غزو بلاد " سيس " التابعة لسلطان المغول مستغلاً حالة القلاقل والاضطرابات والمنازعات الداخلية التى كانت تشهدها بلاد المغول، فقد كان مغول القفجاق في نزاع بين طقطوخان ملك القفجاق وبين قريبه نوغاى ذلك الصراع الذى انتهى بهزيمة نوغاى وسيطرة طقطو على البلاد حيث استمر في الحكم حتى عام 712هـ / 1313م، وكذلك كان الحال بين مغول فارس، حيث أن " غازان " قتل وزيره نيروز وذلك لأنه كان مستوحشًا من سلطانه " غازان " وقام بمكاتبة السلطان حسام الدين لاجين يطلب منه العون والمساعدة ضد " غازان " إلا أن الأخير اكتشف هذه المراسلات فقبض عليه وقتله، ثم قام " غازان " بالتخلص من جميع معارضيه بما فيهم أخواه حتى يقضى على جميع معارضيه [1].

وعلى ما يبدو أن حسام الدين لاجين أراد أن يستغل فترة القلاقل والأزمات التى كانت تقطع أوصال دولة المغول بشقيها، وفى نفس الوقت يتخلص من الأمراء المناوئين له بإرسالهم خارج مصر ليأمن شرهم ويصفو له العرش، ومن ثم قرر السلطان حسام الدين لاجين غزو بلاد " سيس " التابعة لسلطان المغول، فجهز حملة كبيرة مكونة من عشرة آلاف فارس بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش أمير السلاح وأرسل معه عددًا كبيرًا من الأمراء وكبار رجال الدولة المملوكية مثل مسلم الدين لاجين الرومى الإستادار، وشمس الدين أقسنقر كرتاي، والأمير علم الدين سنجر، غير عدد كبير من الولاة و رجال الدولة في بلاد الشام، وسارت الحملة في الثامن من جمادى الآخرة 697 هـ / مارس 1298م، وبالرغم من أن الحملة قد حققت نجاحًا، وهاجمت العديد من المدن في بلاد الأرمن، وحققت أهدافًا عدة وأخذت طريق العودة إلى بلاد الشام، وهى محملة بالغنائم والأسلاب، إلا أن ذلك أغضب السلطان حسام الدين لاجين وطلب من قادة الحملة عدم العودة إلا بعد فتح قلعة تل حمدون الحصينة [2] وهددهم بأنهم

---

(1) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 136.

(2) تل حمدون: قلعة من بلاد الأرمن، أبو الفداء، تقويم البلدان ص 250.

إن عادوا من غير فتحها حرموا من إقطاعياتهم بمصر، وأمام هذا الأمر الذى أصدره السلطان اضطرت القوات إلى العودة إلى بلاد " سيس "، واستولت على قلعة تل حمدون في السابع من رمضان 697هـ / يونيو 1298م، ثم استولوا على قلعة مرعش، وقلعة نجيمة، واستولوا على أحد عشر حصنًا وقلعة في بلاد الأرمن مما اضطر ملك " سيس " يرسل رسالة إلى السلطان حسام الدين لاجين يطلب فيها العفو وإحلال السلام (1).

ويبدو أن السلطان لاجين لم يكن راغبًا في عودة الجيش ولا الأمراء إلى مصر فنراه يحاول إشغالهم بغزو بلاد " سيس " لأطول فترة ممكنة ويطلب معاودة الغزو وإلا قطع أرزاقهم وإقطاعياتهم وكل ذلك تنفيذًا لرغبة نائب السلطنة " منكوتمر " (2).

ولما فشل " منكوتمر " في التخلص من أمراء المماليك الشاميين في الحملة على بلاد " سيس "، فحاول الخلاص منهم عن طريق الاغتيالات، حيث أرسل إلى أمير حلب يطلب منه القبض على هؤلاء الأمراء أو القضاء عليهم، ولكن خاب مسعاه إذ رفض والى حلب تنفيذ هذه المؤامرة، وانكشفت خيوط المؤامرة التى كانت تحاك في الظلام، فأخذ الأمراء حذرهم (3).

وكان من أثر سياسة العنف التى اتبعها كل من السلطان لاجين ونائبه " منكوتمر " في معاملة الأمراء، أن عمل فريق منهم على التخلص منهما، كما أن مماليك الأشرف خليل كانوا على استعداد للأخذ بثأر سيدهم، وسرعان ما حانت لهم هذه الفرصة، حيث اتفق الأمير سيف الدين كرجى الأشرفى مقدم البرجية (4) مع بعض أتباعه على قتل كل

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 8401، .

(2) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 136.

(3) المقريزي، السلوك، 1 / 853- 854، ابن كثير، البداية والنهاية، 14 / 2.

(4) هو كرجى بن عبد الله، مقدم المماليك البرجية وكان الأمير سيف الدين كرجي، أحد الأمراء المماليك السلطانية، قد اختص بخدمة السلطان، وتقدم عنده، وجعله مقدمًا على المماليك السلطانية، على ما كان عليه الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، في الدولة الأشرفية. فبقى كرجى هو

من لاجين ومنكوتمر، وما لبث أن تمكن هذا الأمير من تنفيذ مؤامرته وقتل السلطان حسام الدين لاجين ونائبه " منكوتمر " في يوم الخميس العاشر من ربيع الآخر 698 هـ / يناير 1299م[1].

العودة الأولى للناصر محمد بن قلاوون 698 - 708هـ:

بعد أن تخلص أمراء المماليك من السلطان حسام الدين لاجين ونائبه " منكوتمر " اتفق رأيهم على استدعاء الناصر محمدًا من الكرك وإعادته إلى السلطنة على أن يكون الأمير طغجي [2] نائبًا له وألا يبرم أمرًا من أمور الدولة إلا بموافقة

الساعي في مصالح المماليك السلطانية والمتلقى لمصالحهم، فانضموا إليه ودخلوا تحت طاعته، وقويت شوكته بهم، وشوكتهم به. فثقل ذلك على " منكوتمر "، فلما ورد البريد مخبرًا بأمر القلاع التي فتحها العسكر ببلاد الأرمن حسن لأستاذه أن يرسله إليها ليقيم فيها، فوافقه على إرساله، واتصل ذلك بكرجي، فدخل إلى السلطان وتضرر من الرواح إلى الجهات المعينة، وسأل الإعفاء منها وتعيين غيره لها، فأجابه وأعفاه، فكمن في نفسه من عداوته ما كمن. (السلوك 1 / 868 عقد الجمان، 1/ 329.

(1) المقريزي، السلوك، 8 / 860- 867، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول والمماليك، ص 140.

(2) الأمير سيف الدين طغجي بن عبد الله الأشرفي، كان مملوك الملك الأشرف خليل بن قلاوون، وكان خصيصًا عنده إلى الغاية، وكان من أحسن الأشكال وأظرفهم، قد رَقّاه أستاذه الملك الأشرف وأمره وقدمه وأعطاه الأموال الجزيلة والنفائس، ثم صار بعد قتل أستاذه الملك الأشرف أميرًا في دولة الملك العادل كتبغا، والملك المنصور لاجين، فخاف من القتل، فشارك في قتل لاجين وزواله، وعمل بعده نيابة السلطنة بالديار المصرية أربعة أيام، وقدم الأمير بدر الدين أمير سلاح فتلقاه طغجي المذكور، فسأله بدر الدين وقال: كان للسلطان عادة يطلع إلينا ويلقانا، فقال طغجي: السلطان قتلناه. فعرج بدر الدين بفرسه، وقال كلما قام سلطان وثبتم عليه وقتلتموه، ثم اعتوره أعوان الملك المنصور لاجين المقتول، فقتلوه ظاهر القاهرة، ورموه على مزبلة غير مستور، يمر به من الناس خلائق، وهو على تلك الحالة، ثم دفن بتربة، وقد نيف على ثلاثين سنة. وكانت قتلته في سنة ثمان وتسعين وستمائة.

قال الصلاح الصفدي: ومن حلاوة شكله وظرفه ومحاسنه أخرج الناس تفاصيل قماش وسموها طغجي، ويقال: إنه كان مارًّا في خدمة أستاذه الملك الأشرف وهم بالبلاد الحلبية، فمر السلطان بقرية جيلان، فقال له: ما اسم هذه يا طغجي؟ فقال: جيلان، فقال له السلطان ثانيًا: قم فاركب، فقال له: جيلان فقال له السلطان: اقعد فنزل عن الفرس وقعد، فقال له السلطان ثانيًا: قم فاركب، فقال له طغجي: السلطان رسم بالقعود، وما أقوم، فقال له. قم: فقال: ما أقوم، فقال الأشرف، قم وخذها لك، فقام وباس الأرض ورجله، وأخذ جيلان، وركب وسار في خدمته. ابن تغرى بردي، المنهل

الأمراء المماليك.

ولكن لم يعمل الأمير سيف الدين كرجى على تنفيذ ما اتفق عليه الأمراء بشأن عودة الناصر محمدًا بن قلاوون إلى العرش وقال لهم في اجتماع ضم الأمير طغجي: " يا أمراء أنا الذى قتلت السلطان لاجين وأخذت ثأر أستاذي، والملك الناصر صغير ما يصلح ولا يكون سلطان إلا هذا - وأشار لطغجى - وأنا أكون نائبه ومن خالف فدونه " [1].

على أن الاختلاف لم يلبث أن ظهر بين الأمراء، فصار فريق منهم يميل إلى تنفيذ ما يشير به الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى [2]الذى وصل إلى بلبيس بعد أن فرغ من محاربة أهل " سيس "، وأجمع الفريق الآخر الذى يمثله المماليك الأشرفية على سلطنة طغجى على أن يكون كرجى نائبًا له.

على أن أنصار طغجى لم يكن لديهم القوة الكافية للاحتفاظ بسلطته، إلى جانب استياء الجند من منه لاشتراكه في قتل حسام الدين لاجين، فعملوا على التخلص منه، ولما تم لهم ما أرادوا اجتمع رأى الأمراء المجتمعين بالقلعة على إعادة الناصر محمدًا بن قلاوون من الكرك [3].

الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 /54.

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 865- 866.

(2) الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح الصالحى النجمي، أصله من مماليك الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، وصار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فترقى في الخدم حتى صار من أكبر الأمراء، وخرج إلى الغزاة غير مرة، وعرف بالخير وعلو الهمة وسداد الرأى وكثرة المعروف، ولما قتل المنصور لاجين أجمعوا على سلطنته فأبى، وأشار بعود الناصر محمدًا بن قلاوون فأعيد، ومات بعدما استرجع إقطاعه بالقاهرة في ربيع الأول، عن ثمانين سنة، وهو آخر الصالحية، وإليه ينسب قصر أمير سلاح بالقاهرة.

ومات الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصوري، ولى نيابة قلعة صفد وشد الدواوين بدمشق ثم نيابة قلعتها، ومات وهو نائب حمص بها وكان خيرًا. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، 1 / 865- 866.

(3) المقريزي، السلوك، 1 / 868- 869، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 40.

ولما وصل الناصر محمدًا إلى مصر خرج الأمراء والعساكر للقائه وأقاموا له الزينات على طول الطريق حتى صعد إلى القلعة وجلس على سرير الملك، يوم الاثنين السادس من جمادى الأولى 698 هـ / فبراير 1299م، ثم جددت له البيعة، وبدأ أعماله بتقليد العمال مناصبهم، فعين الأمير سيف الدين سلار نائبًا للسلطنة والأمير ركن الدين " بيبرس " الجاشنكير إستادارًا [1]، وأقر الوزير فخر الدين عمر الخليلي في الوزارة، كما فوض نيابة الشام إلى جمال الدين أقوش الأفرم الذى خلف الأمير قفجق المنصوري، وخلع على أعيان الدولة ومنح مماليك أبيه العطايا والهبات [2].

اجتياح التتار بلاد الشام:

قبيل اغتيال السلطان حسام الدين لاجين ونائبه " منكوتمر " كان جماعة من أمراء المماليك على رأسهم الأمير قبجق [3]، والأمير سيف الدين بكتمر [1]قد

---

(1) ومعنى " أستادار " ناظر الخاصة الملكية، .

(2) مفضل أبى الفضائل، النهج السديد، 2 / 457، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 40.

(3) سيف الدين قبجق المنصوري. هو الأمير الكبير سيف الدين يقول الصفدى عنه: " أصله مكتسب لا بالشراء، وكان رجلاً كريمًا حازمًا بطلاً شجاعًا مبرزًا في جودة الرماية لا يرامي رميه ولا تتقى سهامه، غاية في العقل وتقدم في الفكر والوقوع في صواب الرأي، قليل النظير معدوم المثيل، من فرسان الإسلام المشاهير وأفرادها المذكورين، وكان يجيد الكلام والخط باللغة المغولية.

وحكى الوالدى عن نفسه أنه كان كاتبًا لحسن أحد نونيات المغول، وأن أباه كان رأسًا من رؤوس الكتابة بالمغولية مجيدًا في الترسل فيها، وقال له: مثل ما عندكم كلام جيد وكلام رديء هكذا عندنا.

ولما كان في المماليك المنصورية كان مؤاخيًا لحسام الدين لاجين لا يكاد يصبر واحد منهما على الآخر، وأكلهما وشربيهما واحد، فلما انتهت الأيام إلى ملك لجين انعكس ذلك الود علي.

ولم يزل قبجق مقدمًا في البيت المنصورى رأسًا من رؤوس المماليك السلطانية وأمر، ومع هذا أستاذه لا يثق به ولا يسكن إليه، ولا يوال يتقى بادرة منه، وكان لا يخرجه معه في بواكيره إلى الشام خوفًا منه لا يهرب إلى المغول.

فلما ملك الملك الأشرف أجل قدره ونوَّه به، وكان من أقرب المقربين إليه، وربما استشاره في بعض الأمر.

وكان رجلاً داهية. فلما قتل الأشرف وتقلبت بالناس الأمور حتى ملك العادل كتبغا لم يبق بحاشيته دأب إلا لاجين، وتقصد قبجق لقص جناح لاجين حتى اتفقا وطردا كتبغا وملك لاجين، وخير قبجق

فروا إلى بلاد المغول حيث رحب بهم " غازان " واستقبلهم أحسن استقبال

بين نيابة مصر والشام، فاختار الشام فبعثه إليها وجاءها وهو يظن أنه مالكها.

ثم تواترت الأخبار بقصد التتار أطراف البلاد، فجردت العساكر المصرية والشامية ورسم لقبجق بالخروج وأن يكون مقدمًا عليهم، فخرج إلى حمص وعرض يوم خروجه عرضًا ما رأى قبله مثله، وخرج على قومه في زينته وعليه قباء مزركش بالذهب المرصع، بالجواهر يبهر العيون، وعليه كلوتة مثل ذلك، وفي وسطه كاش ملبس بالذهب وعليه قطع الجوهر، وكذلك كان سرج فرسه وكنبوشه ولجامه.

ونزل بحمص وخيم عليها فقال " منكوتمر " للاجين: ما قصرت سلطنت قبجق وبعثت معه الجيوش والأمراء وقعدت أنت وحدك برقبتك، وندمه؛ وكان هذا دأب منكودمر يوحش بين لاجين مخدومه وبين كبراء الأمراء، ويتقصد إبادتهم.

ووفاته في آخر جمادى الأولى سنة عشر وسبعمائة، ونقل إلى حماة ودفن بتربته التي بناها فيها وهي مشهورة. الصفدي، الوافي بالوفيات، 1 / 222- 223.

(1) وكان أصل بكتمر هذا من جملة مماليك الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة للملك المنصور قلاوون، وكان أخذ من بلاد الروم سنة خمس وسبعين وستمائة فيما أخذ من مماليك السلطان غياث الدين كيخسرو متملك بلاد الروم عندما دخل الملك الظاهر " بيبرس " إلى مدينة قيسرية، وقد تقدم ذكر ذلك في ترجمة الظاهر، فصار بكتمر هذا إلى طرنطاي، وطرنطاى يوم ذاك مملوك الأمير سيف الدين قلاوون الألفي قبل سلطنته فرباه وأعتقه. فلما قتل طرنطاى صار بكتمر هذا للأشرف خليل، فرتبه في جملة الأوجاقية في الإسطبل السلطاني. ثم نقلها المنصور لاجين وجعله أمير آخور صغيرًا، ثم أنعم عليه بإمرة عشرة بعد وفاة الفاخري. وما زال يترقى حتى ولي الوزارة، ثم الحجوبية بدمشق ثم نيابة غزة ثم نيابة صفد ثم حجوبية الحجاب بديار مصر إلى أن مات. وهو صاحب المدرسة والدار خارج باب النصر من القاهرة. وخلف أموالاً كثيرة، وكان معروفًا بالشح وجمع المال.

قلت: وعلى هذا كان غالب أولاده وذريته ممن أدركنا. قال الشيخ صلاح الدين الصفدى في تاريخه: وكان له حرص عظيم على جمع المال إلى الغاية، وكان له الأملاك الكثيرة في كل مدينة، وكان له قدور يطبخ فيها الحمص والفول وغير ذلك من الأواني تكرى، وكان بخيلاً جدًا. حكى لي الشيخ فتح الدين بن سيد الناس قال: كنت عنده يومًا وبين يديه صغير من أولاده وهو يبكى ويتعلق في رقبته ويبوس صدره، فلما طال ذلك من الصغير قلت له: يا خوند، ماله؟ قال: شيطان يريد قصب مص. فقلت: يا خوند، اقض شهوته. فقال: يا بخشي، سير إلى السوق أربع فلوس هات له عودًا. فلما حضر العود القصب وجدوا الصغير قد نام فما تعنى وتعب في طلب القصب. فقال الأمير بكتمر: هذا قد نام، ردوا العود وهاتوا الفلوس. انتهى كلام الصفدي.

قلت: ولأجل هذا كانت له تلك الأملاك الكثيرة والأموال الجمة. وإلا من هو بكتمر بالنسبة إلى غيره من الأتابكية ونواب البلاد الشامية وغيرهم من عظماء الأمراء ولكن هذا من ذاك. انتهى. انظر: ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 3 / 56.

وأكرمهم، وكان لجوء هؤلاء الأمراء المماليك إلى " غازان " سببًا في اجتياح المغول لبلاد الشام، إذ شجع هؤلاء الأمراء " غازان " على اجتياح وغزو بلاد الشام، وذلك نتيجة لسوء العلاقات بين الأمراء المماليك والسلطان ونائبه واضطراب البلاد نتيجة لتغير السلاطين، ورأى " غازان " أن في ذلك فرصته لغزو بلاد الشام، وقام بتجهيز قواته على وجه السرعة حيث أرسل في جمع العساكر من جميع أطراف مملكته، وأرسل إلى الأمير سلامش بن أفال بن بيجو التترى [1] نائبه على بلاد الروم أن يوافيه ومعه خمسة وعشرون ألفًا تقريبًا، وطلب منه أن يعبر بهؤلاء القوات أرمينية ويسير بهم إلى بلاد الشام، على أن يقابله " غازان " بجيش قوامه خمسة وسبعون ألفًا، وتكون نقطة الالتقاء مدينة حلب [2].

ولكن حدث الانشقاق في صفوف المغول حيث طمع القائد سلامش - نائب " غازان " على بلاد الروم - في الاستقلال ببلاد الروم (آسيا الصغرى) وطلب الملك لنفسه على أساس أنه أقرب في النسب إلى جنكيزخان من " غازان "، فلم يستجب لطلب " غازان " في التوجه إلى بلاد الشام وغزوها وأخذ يُكَوِّن جيشًا

---

(1) ذكر العيني: أن جد هذا الرجل هو الذى فتح بلاد الروم في سنة إحدى وأربعين وستمائة، وملكها بعد قتل عالم كثير، وعند نزوله حضر إليه أبو بروانا وعرفه بنفسه وعرفه أيضًا أن هذه إقليم عظيم، وأنه لا ينظر إلى من قتل منه، والتزم أن يحمل له كل سنة خراجًا ويكون هو ومن معه رعيته، فوافقه على ذلك وقرر عليه في كل سنة ثلاثمائة وستين ألفًا من الدراهم، وألف رأس غنم، وألف رأس بقر، وألف رأس جمل.

وقال له بعض أمرائه: يا خوند هذا يأخذ هذا المقدار من ضيعة واحدة من هذه الإقليم. فقال له: إذا استمر هذا يجيء غيره، وبقى هذا إلى سنة أربع وخمسين وستمائة، فخرج هلاون ومات بيجو وأخذ ولده أفال مكانه، وحضر إليه بروانا، وكان أيضًا والده توفى فأكرمه وخلع عليه وقرر عليه ما كان يحمل والده لوالده، واستقر إلى أن توفى أفال وملك سلامش ابنه البلاد وأقام فيها، وملك جبال قرمان وضياعًا كثيرة، ثم عصى على ملوك المغول، فلما ملك قازان سير إليه جوبان وقطلوجًا، فضربوا معه مصافًا، فخامرت عليه أمراؤه فانكسر، وكان سبب عبوره إلى مصر. بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 1 / 323.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 871، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 98، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 142.

لقتال " غازان " وأرسل إلى السلطان حسام الدين لاجين في مصر - قبل وفاته - يطلب مساعدته في الحرب ضد " غازان "، مما اضطر " غازان " إلى تأجيل خطته القاضية بغزو بلاد الشام لحين الانتهاء من تمرد سلامش، فأرسل قواته إليه ودارت بينهما معركة حامية عند بلدة سيواس[1] في الخامس والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة 698 هـ / مارس 1299م حيث لم يستطع سلامش من الوقوف في وجه القوات المغولية وتفرق عنه أتباعه ومناصروه[2].

وفى تلك الأثناء كانت قوةٌ قوامها خمسة عشر ألف فارس من المماليك قد بدأت في التحرك لنجدة سلامش، ولكن الأمراء المماليك لما علموا بهزيمته وضعف موقفه وتفرق أتباعه عنه أمسكوا عن التحرك لنجدته، ثم وصل سلامش إلى دمشق في الخامس من شعبان 698 هـ / مايو 1299م ومنها إلى القاهرة هو وبعض أفراد أسرته وأتباعه وخاصته حيث كان موضع ترحيب من السلطان وكبار رجال الدولة، و بالرغم من أنه قد عرض عليه الإقامة في مصر أو الشام معززًا مكرمًا إلا أنه طلب رفقة الجيش المصرى المتجه إلى الشام لقتال المغول، ليتسنى له العودة إلى بلاده، وكان له ما أراد إلا أن " غازان " تمكن من القبض عليه في بلاد " سيس " وقتله بعد ذلك [3].

وكان موقف المماليك المؤيد لسلامش - الثائر على سلطة " غازان " - سببًا قويًّا لسرعة تحرك جحافل المغول إلى بلاد الشام، حيث أراد " غازان " الانتقام من المماليك لموقفهم من سلامش وجعل ذلك سببًا لتحركه أضف إلى ذلك

---

(1) سيواس.
هى مدينة (سيواس) تقع في شمال شرق تركيا قرب مدينة (توقات). وتسمى باليونانية (سيباستيا) أو (سيباستيبول) تقع في وسط الأناضول على نهر (هاليس HALIS) أو (قزيل أرماق) أى النهر الأحمر. تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير- (ج 2 / ص 78).

(2) ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص 8- 10، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم ألزاهرة، 8 / 118- 119، المقريزي، السلوك، 1 / 877.

(3) ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص 11.

تحريض الأمير سيف الدين قبجق - نائب الشام السابق - الدائم لغازان وتشجيعه له على غزو الشام وأخذها من أيدى المغول، يضاف إلى ذلك ما اتهم به نيروز وزير " غازان " بمكاتبة السلطان لاجين - قبل وفاته -، كما غضب " غازان " من الأمير بلبان الطباخى [1] نائب حلب الذى أرسل جيشًا إلى ماردين عاث فيه فسادًا، فاتخذ " غازان " من ذلك ذريعة في غزو الشام مستغلاً انشغال أمراء المماليك بأمور الحكم فشد عزمه على فتح مصر وضمها إلى أملاكها [2] يضاف إلى ما تقدم استقبال المماليك الوافدين من التتار والهاربين من وجه " غازان " وطائفة التتار الأوبرانية على وجه الخصوص التى دخلت مصر أيام العادل كتبغا، وكانوا قد هربوا من " غازان " بعد هزيمة خصمه بيدو، فهاجروا إلى مصر، أضف إلى ذلك سببًا رئيسيًّا وهو خروج سلامش بن أفال ونبذه من بلاد الروم ونبذه لطاعة " غازان " ودخوله مصر واستنجاده بالمماليك مما أثار الحقد في نفس " غازان " فصمم على غزو الشام ومصر وتحرك بالجيش صوب الشام، حيث عبر الفرات بقوات كثيرة مما أثار الرعب والهلع في نفوس الناس التى نفرت من هذه الأنباء وخشيت أن يتكرر لها ما حدث سابقًا مع سلفه " هولاكو " [3].

وفى مصر كان الناصر محمدًا بن قلاوون قد أستعد جيدًا لملاقاة التتار، وتحرك بنفسه على رأس الجيش المتجه إلى الشام وبصحبته الكثير من كبار الأمراء

---

(1) الطباخى ملك الأمراء، سيف الدين بلبان المنصوري. أمير جليل، موصوف بالشجاعة والحشمة، وكثرة الغلمان، والعدد والخيول، وجودة السياسة. عمل نيابة حلب مدة ونيابة طرابلس وغير ذلك توفى بالساحل في كهلا يقول عنه أبو ا لمحاسن بن تغري بردي: وكان من أعيان الأمراء وأحشمهم وأشجعهم وأكثرهم عدة ومماليك وحاشية. وولى نيابة حلب قبل ذلك بمدة، ثم ولى الفتوحات بالساحل ودام عليها سنين. وكان جميل السيرة والطريقة وله المواقف المشهورة والنكاية في العدو. رحمه الله تعالى.

ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 8 / 118- 119، الذهبي، تاريخ الإسلام، 14 / 279.

(2) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 145.

(3) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 145- 146.

ورجال الدولة المملوكية، فلما وصلت القوات إلى غزة وتحللوا من القيود العسكرية وخرج الأمراء المماليك للصيد، ففكر زعماء طائفة الأوبرانية - الذين قدموا من بلاد المغول أيام السلطان العادل كتبغا - في اغتيال كل من الأمير " بيبرس " الجاشنكير [1].

والأمير سلار [2]، وذلك انتقامًا لما حدث لهم من ذهاب أيامهم وذهاب سلطتهم

---

(1) هو بيبرس بن عبد الله، الملك المظفر ركن الدين " بيبرس " البرجى المنصورى الجاشنكير.
أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون وعتقائه، وتنقل في الخدم حتى صار من جملة الأمراء بالديار المصرية. وتولى الإستادارية للملك الناصر محمدًا بن قلاوون.
وكان إقطاعه كبيرًا، فيه عدة إقطاعات لأمراء.
ولما كان أستادارًا كان نائبًا بالديار المصرية؛ فحكما في البلاد وتصرفا في الممالك، وصار الملك الناصر ليس له من السلطنة إلا الاسم فقط.
وكان نواب البلاد الشامية خشداشية الجاشنكير من البرجية؛ فقوي أمره بهم، إلى أن توجه الملك الناصر إلى الحجاز ورد من الطريق إلى الكرك وأقام بها، وأرسل يعلم أمراء الديار المصرية؛ ليقيموا سلطانًا.
لعب الأمير سيف الدين سلار بالجاشنكير هذا، وحسن له السلطنة حتى تسلطن، ولقب بالملك المظفر بعد أن أفتى له جماعة من القضاة والفقهاء بذلك، وكتب محضرًا مثبوتًا على القضاة، وناب سلار له، واستوثق له الأمر.
وكانت سلطنته في يوم السبت بعد العصر ثالث وعشرين شوال سنة ثمان وسبعمائة- وقيل: في ذى القعدة في بيت سلار-، وركب من بيت سلار بخلعة السلطنة إلى القلعة، ومشى الأمراء بين يديه، ودقت البشائر، وسارت البريدية بذلك إلى سائر الممالك، وكتب له الخليفة المستكفى بالله على تقليده بخطه. وكان من جملة عنوانه أنه: من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم.
وجلس الأمير بتخاص والأمير قلى والأمير لاجين لاستحلاف الأمراء والعساكر، واستفحل أمره، وأعطى، وأنعم. قيل: إن خلعه التى خلعها وصلت إلى ألفين ومائتى خلعة. ودام في الملك إلى أن وقع بينه وبين الملك الناصر وحشة؛ وهو أن الملك الناصر لما دخل إلى الكرك سأل نائبها الأمير آقوش عن الأموال الحاصلة بها؛ فأحضر النائب بمائتى ألف درهم لا غير؛ خوفًا أن يطلعه على المال؛ فيأخذه كله، وأخرج آقوش من نيابة الكرك، وقنع بالكرك. وخطب للملك المظفر " بيبرس " هذا بجامع الكرك بحضرة الملك الناصر محمد بن قلاوون، وتأدب الملك الناصر معه وسكت حتى إنه كان إذا كاتبه يكتب: الملكى المظفري. وقصد بذلك سكون الأحوال. ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 298.

(2) هو سلار بن عبد الله المنصوري، الأمير سيف الدين، نائب السلطنة بديار مصر.
كان تركى الجنس، وكان أبوه أمير شكار عند صاحب الروم، فلما غزا الملك الظاهر " بيبرس " التتار والروم كان سلار هذا ممن أسر في الوقعة، فاشتراه قلاوون بعد مدة وأعطاه لولده الصالح

عليّ، ومات الصالح فعاد سلار إلى ملك الملك المنصور ثانيًا، واستمر عنده، وصار من أعيان مماليكه، ثم صار في خدمة ولده الملك الأشرف خليل، من جملة أعيان الأمراء، إلى أن قتل، ثم ترقى في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون، وبقى أحد المتكلمين في الدولة إلى أن خلع الملك الناصر وتسلطن الملك المنصور حسام الدين لاجين، سار سلار المذكور من العوجاء إلى الديار المصرية لتحليف الأمراء بها للملك المنصور لاجين.

ولما قتل لاجين، وأعيد الملك الناصر محمد إلى الملك، صار سلار هذا نائب السلطنة بالديار المصرية، ولم يدع للملك الناصر أمرًا ولا نهيًا، وبقى له ثروة ومال جزيل يضرب به المثل كثرة، وكان إقطاعه نحوًا من أربعين إمرة طبلخاناة، قيل إنه كان متحصله في كل سنة ألف ألف دينار، وكان مع ذلك قليل الظلم، كبير العقل، ذا دهاء وخبرة، ونهضة وسياسة. تمكن من الدولة إحدى عشرة سنة، ورشح للسلطنة لما توجه الملك الناصر محمد إلى الكرك، فامتنع وسلطن " بيبرس " الجاشنكير مع تقدمه على " بيبرس " المذكور، وعمل النيابة له.

ولا يزال على ذلك حتى عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى ملكه، وقتل الملك المظفر " بيبرس "، وقبض الملك الناصر على أربعين أميرًا ممن كان يستوحش منهم من أصحاب " بيبرس "، فلما رأى سلار ذلك تخوف وطلب الشوبك، فأنعم عليه الملك الناصر بنيابة كرك الشوبك، فتوجه إليها، وأقام بها مدة، ثم خشى على نفسه ففر إلى البرية، ثم ندم، وطلب الأمان، وحضر إلى القاهرة، فأمسك واعتقل ومنع عنه الطعام والشراب حتى أكل خفه من الجوع، ومات.

قيل: إنهم دخلوا عليه قبل موته وقالوا له: قد عفا عنك السلطان، فقام ومشى من الفرح خطوات، ثم خر ميتًا، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة عشرة وسبعمائة، وقيل: في العشرين من جمادى الأولى من السنة، والله أعلم.

وكان أسمر اللون، أسيل الخد، لطيف القد، صغير اللحية.

وكان أميرًا جليلاً، مهابًا شجاعًا، مقدامًا، وكان فيه كرم وحشمة، ورئاسة، قيل: إنه حج مرة ففرق في أهل الحرمين أموالاً كثيرة، وغلالاً وثيابًا. تخرج عن الوصف، حتى إنه لم يدع بالحرمين فقيرًا، وبعد هذا مات وأكبر شهوته رغيف خبز. وكان في شونته من الغلال ما يزيد عن أربعمائة ألف إردب.

وكان سلار كبير الأمراء في عصره، وافتتح بأشياء من الملابس لم تعرف قبله، معروفة به. وتوجه في سنة تسع وتسعين إلى دمشق، فقرر عز الدين حمزة القلانسي في وزارة دمشق، وابن جماعة في القضاء، ومهد أمورها، ثم عاد بموكب يضاهي الملوك، وكان شهد وقعة شقحب مع الملك الناصر، وابتلى فيها بلاء عظيمًا، وثخنت جراحاته.

وكان كثير البر. بعث إلى مكة في سنة اثنتين وسبعمائة في البحر عشرة آلاف إردب قمح، ففرقت في فقراء مكة، وأوفى ديون غالب أهل مكة، حتى يقال: إنه كتب أسماء جميع من كان بمكة ساكنًا، فأعطى كلا منهم قوت سنة، وكذا فعل بالمدينة.

وكان إذا لعب بالكرة لا يرى في ثيابه عرق، وكذا في غير ذلك.

قال الجزري: وجد له بعد موته ثمانمائة ألف ألف دينار، وذلك غير الجوهر والحلى والخيل والسلاح.

وأملاكهم وإقطاعاتهم التى كانت لهم في دولة العادل كتبغا - وهو من جنسهم - الذى تخلص منه المماليك، وبالتخلص من كتبغا زال ما كان لهم من امتيازات في دولته، ثم ما تبع من ذلك حيث قتل السلطان لاجين الكثير من أمرائهم وأزال ما كان لهم من امتيازات سياسية وصادر ممتلكاتهم هذا بخلاف من أودع السجون منهم، وكان هؤلاء المتآمرون يطمحون إلى إعادة كتبغا إلى السلطنة من جديد، ولكن مؤامرتهم فشلت في تحقيق ما كانوا يصبون إليه حيث ردتهم المماليك السلطانية على أعقابهم وألقى القبض على معظم طائفة الأويرانية حيث شنق عدد منهم وسجن البعض الآخر [1].

وبعد أن قضى الناصر محمدًا على هذه المؤامرة تحرك بالجيش في وسط شدة شديدة حيث أدركهم الشتاء وموسم المطر، وكثر الجراد الذى أتلف كل شيء مما جعل الناس يتشاءمون من ذلك، ووصل الجيش المملوكى إلى حمص في وعسكر عندها في يوم الأحد السابع عشر من ربيع الأول 699 هـ / ديسمبر 1299م، وفى وقت كان عدد الجيش المملوكى لا يتعدى العشرين ألف فارس، كان جيش التتار يفوق المائة ألف فارس، فلما بدأت المعركة وحمى الوطيس لم تستطع القوات المملوكية الصمود في وجه التتار، ولم يبق مع الناصر محمدًا بن قلاوون إلا القليل من الأمراء، وفر المنهزمون إلى حمص طلبًا للنجاة وتركوا خلفهم كل شيء، ومنها إلى بعلبك التى أغلقت أبوابها في وجوه المنهزمين،

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: هذا كالمستحيل، فإن ذلك يكون حمل خمسة آلاف بغل، وما سمعنا عن أحد من كبار السلاطين ملك هذا القدر، لا سيما وهو خارج عن الجوهر وغيره. انتهى كلام الذهبى باختصار.

قال ابن دقماق في تاريخه المسمى بالجوهر الثمين في الملوك والسلاطين قال: ثم دخلت سنة عشر وسبعمائة، فيها طلب سلار وأحيط بموجود وجميع حواصله، واعتقل بالقلعة، فدخل إليه فأبى أن يأكله، فطولع السلطان بذلك، فمنعه الطعام إلى أن مات جوعًا.

قيل: إنه كان يدخل إليه من أجرة أملاكه في كل يوم ألف دينار. ابن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي- (ج 1 / ص 459).

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 882- 884، ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص 15.

فعرجوا على دمشق ومنه عن طريق الساحل إلى مصر، وكان وقع هذه الهزيمة على الناس مريرًا إذ دب في نفوسهم الخوف والهلع وخرجوا إلى الطرقات يجأرون خوفًا من بطش المغول [1].

أما السلطان الناصر محمدًا بن قلاوون فإنه اتجه بعد الهزيمة التى لحقت بجيوشه مع فريق من الأمراء وطائفة يسيرة من الجند إلى بعلبك تاركًا خلفه كثيرًا من المؤن والذخائر وتابع سيره حتى دخل دمشق، غير أنه لم يكد يصل إليها حتى جاءت الأخبار بزحف " غازان " على هذه المدينة بعد استيلائه على ماكان بحمص من الذخائر وخزائن السلطان، فوقع الرعب في قلوب الأهلين وخرجت النساء باديات الوجوه وترك الناس حوانيتهم وتجارتهم وأموالهم وازدحموا جميعًا على أبواب المدينة يريدون الخروج منها ودفعوا الأجور الباهظة في سبيل نقلهم على الخيل والحمير، بل توجه كثير من الأهالى إلى مصر وتركوا دمشق خاوية ليس بها غير جماعة اتفقوا فيما بينهم على اختيار وفد من كبرائهم وعلمائهم لطلب الأمان من " غازان "، كان من بينهم قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة [2]، وشيخ الإسلام تقى الدين أحمد ابن تيمية وبعض الفقهاء والقراء والأعيان، وقد بذل لهم " غازان " الأمان وقرئ في دمشق على الناس وقد نص علي: " بقوة الله تعالى. ليعلم أمراء التومان والألف

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 888، ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص 17، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 178.

(2) قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الكنانى الحموى بمصر، له معرفة بالفنون، وعدة مصنفات، حسن المجموع، كان ينطوى على دين وتعبد، وتصون وتصوف، وعقل ووقار، وجلالة وتواضع، درس بدمشق، ثم ولى قضاء القدس، ثم قضاء الديار المصرية، ثم قضاء الشام، ثم قضاء مصر، وولى مشيخة الحديث بالكاملية، ومشيخة الشيوخ، وحمدت سيرته ورزق القبول من الخاص والعام، وحج مرات وتنزه عن معلوم القضاء لغناه مدة، وقل سمعه في الآخر قليلاً فعزل نفسه، ومحاسنه كثيرة ومن شعره:

لم أطلب العلم للدنيا التى ابتغيت ::: من المناصب أو للجاه والمال
لكن متابعة الأسلاف فيه كما ::: كانوا فقدر ما قد كان عن حالي

أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، 2 / 35.

والمائة وعموم عساكرنا من المغول والتازيكا والأرمن والكرج وغيرهم ممن هو داخل تحت طاعتنا. إن الله لما نور قلوبنا بنور الإسلام وهدانا إلى ملة النبى عليه السلام:{أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾} [الزمر: ٢٢]. ولما سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طرائق الدين، غير متمسكين بأحكام الإسلام، ناقضون لعهودهم، حالفون بالأيمان الفاجرة، ليس لديهم وفاء ولا ذمام، ولا لأمورهم التئام ولا انتظام. وكان أحدهم إذا تولى:{سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ } [البقرة: ٢٠٥] الآية. وشاع أن شعارهم الحيف على الرعية، ومد الأيدى الباغية إلى حريهم وأموالهم، والتخطى عن جادة العدل والإنصاف، وارتكابهم الجور والاعتساف، حلمتنا الحمية الدينية والحفيظة الإسلامية على أن توجهنا إلى تلك البلاد لإزالة هذا العدوان، مستصحبين للجم الغفير من العساكر، ونذرنا على أنفسنا إن وفقنا الله تعالى بحوله وقوته لفتح تلك البلاد أن نزيل العدوان والفساد، وبسط العدل في العباد، ممتثلين الأمر الإلهي:{إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ } [النحل: ٩٠] الآية.

وإجابة إلى ما ندب إليه الرسول ﷺ : ((المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم، وما ولوا)). وحيث كانت طويتنا مشتملة على هذه المقاصد الحميدة، والنذور الأكيدة، مَنَّ الله علينا بتبلج تباشير النصر المبين، وأتم علينا سكينته، فقهرنا العدو الطاغية، والجيوش الباغية. فرقناهم أيدى سبأ، ومزقناهم كل ممزق، حتى جاء الحق وزهق الباطل، فازدادات صدورنا انشراحًا للإسلام، وقويت نفوسنا بحقيقة الأحكام، منخرطين في زمرة من حبب إليهم الإيمان، فوجب علينا رعاية تلك العهود الموثقة، والنذور المؤكدة، فصدرت مراسمنا العالية ألا يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها بدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية، ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه، حتى يشتغلوا بصدور مشروحة، وآمال مفسوحة، بعمارة البلاد، وبما هو كل واحد بصدده من تجارة وزراعة.

وكان في هذا الهرج العظيم وكثرة العساكر تعرض بعض نفر يسير إلى بعض

الرعايا وأسرهم، فقتلنا منهم ليعتبر الباقون، ويقطعوا أطماعهم عن النهب والأسر، وليعلموا ألا نسامح بعد هذا الأمر البليغ البتة، وأن لا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان من اليهود والنصارى والصابئة، فإنهم إنما يبذلون الجزية لتكون أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا، لأنهم من جملة الرعايا. قال عليه السلام: ((الإمام الذى على الناس راع وهو مسؤول عنهم)). فسبيل القضاة والخطباء والمشايخ والعلماء والشرفاء والأكابر وعامة الرعايا الاستبشار بهذا النصر الهني، والفتح السني. وأخذ الحظ الوافر من الفرح والسرور، مقبلين على الدعاء لهذه الدولة القاهرة، والمملكة الظاهرة ".

...فلما فرغ من قراءته نُثر عليه ذهب وفضة بالمقصورة، وضجت العامة، ودعوا للملك، وسكن جأشهم بعض الشيء [1].

على أن المغول لم يلتزموا بالأمان المبذول لأهل دمشق، إذ سرعان ما نزل " غازان " على دمشق وعاثت جيوشه فسادًا في ظاهر المدينة، وامتدت أيدى جنده إلى بيت المقدس والكرك تنهب وتأسر، ونزل بدمشق ما نزل بغيرها من مدن الشام، فأخذت أموال أهلها بالباطل، ولم تسلم من المغول إلا قلعة دمشق الحربية التى اعتصم بها واليها أرجواش المنصورى وحال دون استيلاء المغيرين، وقد تحدث معه في تسليمها الأمير قبجق وبعض الأمراء الذين التجؤوا إلى " غازان " وأغروه بمهاجمة بلاد الشام وقالوا له: دم المسلمين في عنقك إن لم تسلمها؛ فأجابهم: دم المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى " غازان " وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغيرها، ثم وبخهم ولم يسلم قلعة دمشق، وتهيأ للقتال والحصار؛ واستمر على حفظ القلعة. ثم ترادفت قصاد " غازان " إلى أرجواش هذا، وطال الكلام بينهم في تسليم القلعة؛ فثبته الله تعالى ومنع ذلك بالكلية وملك قازان دمشق وخطب له بها في يوم الجمعة رابع عشر شهر ربيع الآخر. وصورة الدعاء لغازان أن قال

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام، 13 / 414.

الخطيب: " مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين " محمود غازان " وصلى الأمير قبجق المنصورى وجماعة من المغل بالمقصورة من جامع دمشق؛ ثم أخذ التتار في نهب قرى دمشق والفساد بها، ثم بجبل الصالحية وغيرها، وفعلوا تلك الأفعال القبيحة، ثم قرروا على البلد تقارير تضاعفت غير مرة، وحصل على أهل دمشق الذل والهوان وطال ذلك عليهم، وعمل الشيخ كمال الدين الزملكانى في ذلك قوله:

لهفى على خلق يا شرما لقيت ::: من كل علج له في كفره فن
بالطم والرم جاؤوا لا عديد لهم ::: فالجن بعضهم والحن والبن

وللشيخ عز الدين عبد الغنى الجوزى في هذا المعنى:

بلينا بقوم كالكلاب أخسة ::: علينا بغارات المخاوف قد شنوا
هم الجن حقًا ليس في ذاك ريبة ::: ومع ذا فقد والاهم الحن والبن

ولابن قاضى شهبة:

رمتنا صروف الدهر حقّا بسبعة ::: فما أحد منا من السبع سالم
غلاء وغازان وغزو وغارة ::: وغدر وإغبان وغم ملازم

وفى المعنى يقول أيضًا الشيخ علاء الدين الوداى وأجاد:

أتى الشام مع " غازان " شيخ مسلك ::: على يده تاب الورى وتزهدوا
فخلوا عن الأموال والأهل جملة ::: فما منهم إلا فقير مجرد

ودامت هذه الشدة على أهل دمشق وضرب الحصار عمال في كل يوم على قلعة دمشق حتى عجزوا عن أخذها من يد أرجواش [1].

ولم يتمتع أهالى دمشق بالأمن والطمأنينة إذ شدد المغول الحصار عليهم واشتطوا في جمع الأموال حتى عجز كثير من الناس عن دفع ما فرض عليهم، واشتد الغلاء في دمشق، وكثرت القتلى في الطرقات من الجنود والعامة، ولم ينج من تلك الشدة أحد من الناس لا فرق في ذلك بين الرجال والنساء والأطفال

(1) أبو المحاسن ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 8 / 125.

والشيوخ والفقهاء والقراء والعلماء حتى امتنع الناس عن الخروج من بيوتهم خوفًا من تسلط المغول، ولما حاول تقى الدين ابن تيمية وجمع من العلماء والفقهاء الوصول إلى " غازان " ليشكو له سوء معاملة جنوده للناس وما وقع لهم من ظلم وحيف وجور شديد، ويطالبوه بالالتزام بالأمان، ولكن الحاشية المغولية منعتهم من الوصول إليه (1).

على أن عدم نجاح المغول في احتلال قلعة دمشق لم يثنهم عن بسط نفوذهم وسيطرتهم على بلاد الشام، وقام بتوزيع المناصب العليا على أتباعه وأنصاره وعلى من أدخلوه وأغروه بغزو بلاد الشام، فعين الأمير قبجق واليًا على بلاد الشام، كما أسند إليه ولاية القضاء والخطباء، وتولى الأمير ناصر الدين يحيى بن جلال الختنى الوزارة، وقرئ تقليد التعيين على منبر المسجد الأموي، ونص علي: الحمد لله الذى جرّد لنصر هذه الدولة القاهرة سيفًا قاضيًا، وانتضى لتأييدها من أوليائها قاضيًا قاضيًا، وارتضى لها من أصفيائها من أصبح الملك عنه راضيًا، نحمده ونشكره على نعمته التى أورثتنا الممالك، وجمعت لنا ما بين النصر والفتح وما أشبه ذلك، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنيل النجاة وترفع الدرجات، ونشهد أن محمدًا نبيه المرسل بالهدى والصدق، والمبعوث بدين الحق صلى الله عليه صلاة تنيله الوسيلة والفضيلة، وعلى آله خير آل وأشرف قبيلة، وبعد: فإن الله تعالى لما منّ علينا بالإيمان، وهدانا إلى أشرف الأديان، حمدناه وشكرناه على أنه أضاف إلى ملكنا للدنيا ملكنا للآخرة، وجلل علينا حلل الدين الفاخرة، ونذرنا أن نَعُمَّ الرعيّة بعدلنا، ونشمل البرية بفضلنا، وألا نسمع بمظلوم إلا نصرناه، ولا نطلع على مقهور إلا أنقذناه، فلما اتصل بنا ما بمصر من المظالم، ومن فيها من غاضب وظالم، هاجرنا لنصر الله تعالى ونصرة الدين، وبادرنا لإنقاذ من فيها من المسلمين، وراسلناهم وأنذرنا، وكاتبناهم وزجرناهم، ووعظناهم فلم تنفع فيهم العظة، وأيقظناهم فلم تكن فيهم يقظة، فلقيناهم بتقوى الله تعالى، فكسرناهم وقطعنا

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 891- 893، .

آثارهم، وملّكنا الله تعالى أرضهم وديارهم، وتبعناهم إلى الرمل وحطمناهم كما حطم سليمان وجنوده وادى النمل، فلم ينج منهم إلا الفريد، ولا سلم إلا البريد.

فلما استقر تملكنا البلاد وجب علينا حسن النظر في العباد، فأحضرنا الفكر فيمن نقلده الأمور، وأمعنا النظر فيمن نفوض إليه مصالح الجمهور، فاخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم، ويقيم ما أباد من قوامها القويم، يقول فيسمع مقاله، ويفعل فتقتفى أفعاله، يكون أمره من أمرنا، وحكمه من حكمنا، وطاعته من طاعتنا، ومحبته هى الطريق إلى محبتنا، فرأينا أن الجناب العالى الأوحدى الكفيلى المجاهدى الأميرى الهمامى النظامى السيفي، ملك الأمراء في العالمين، ظهير الملوك والسلاطين قفجق، هو المخصوص بهذه الصفات الجليلة، والمحتوى على هذه المناقب الجميلة، وأن له حرمة المهاجرة إلى أبوابنا، ووسيلة القصد إلى ركابنا، فعرفنا له هذه الحرمة، وقابلناه بهذه النعمة، ورأينا أنه لهذا المنصب حفيظ قمين، وعلى ما استحفظ قوى أمين، وأنه يبلغنا الغرض من حفظ الرعايا، فأقمناه مقامنا في العدل والقضايا، فلذلك رسمنا أن نفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الدمشقية والبعلبكية والحمصية والساحلية والجبلية والعجلونية والرحبية من العريش إلى سلمية، نيابة تامة عامة، كاملة شاملة، يؤتمر فيها بأمره، ويزدجر فيها بزجره، ويطاع في أوامره ونواهيه، ولا يخرج أحد عن حكمه ولا يعصيه، له الأمر التام والنظر العام، وحسن التدبير وجميل التأثير والإحسان الشامل لأهل البلاد، واستجلاب الغزاة والقوّاد، وتأمين من يطلب الأمان والطاعة والامتنان متفقًا في الاستخدام والتأمين مع ملك الأمراء ناصر الدين، فإن اجتماع الآراء بركة، والهمم تؤثر إذا كانت مشتركة، وكل من أمّناه فإنه أماننا أجريناه على قلمهما ولسانهما.

وقد أنعمنا عليه بالسيف، والسنجق الشريف، والكؤوس، والبائزة الذهب برأس السبع، ورسمنا له بألف فارس من المغل يركبون لركوبه وينزلون لنزوله، وليكونوا تحت حكمه رفعةً لقدره، وتنويهًا باسمه، وسبيل الأمراء والمقدمين وأمراء العربان والتركمان والأكراد والدواوين والصدور والأعيان والجمهور

بأن يتحققوا أنه نائبنا في السلطنة الشريفة، فإن له هذه المنزلة المنيعة، وليطيعوه طاعة تزلفهم لديه وتقربهم إليه، ويحصل لهم بها رضاه عنهم وإقباله عليهم وقربهم منه، وليلزموا عنده الأدب في الخدمة كما يجب، وليكونوا معه في الطاعة والموافقة على ما يحبّ.

وعلى ملك الأمراء سيف الدين بتقوى الله في أحكامه، وخشيته في نقضه وإبرامه وتعظيم الشرع وحكامه، وتنفيذ قضية كل قاض على قول إمامه وليعتمد الجلوس للإنصاف والعدل، وأخذ حق المشروف من الأشراف، وليقم الحدود والقصاص على كل من وجبت عليه، وليكف الكفّ العادية عن كل من يتعدى إليه، وقد تقدم من الأمر بالآثار الجميلة في الشام المحروس ما تشوقت إليه الأعين وتاقت إليه النفوس، وقد رده الله سبحانه إليهم ردًّا جميلاً، فليكن بمصالح الدولة ومصالح الرعية كفيلاً، والله تعالى يجعل له إلى الخير سبيلاً ويوضح له إلى مراضي الله ومراضينا دليلاً، بمنّه ولطفه... " [1].

وقد ظل أهل دمشق يعانون كثيرًا من الضيق حتى عاد " غازان " إلى بلاده في جمادى الأولى سنة 699هـ، ولكن كان في عزمه العودة من جديد لأخذ مصر من أيدى المماليك وفى ذلك يقول: " إننا نرجع إلى بلادنا وقد تركنا بالشام ستين ألفًا من جيشنا، وإنا سنعود في الخريف لأخذ الديار المصرية " [2].

بعد أن أقر في نيابة دمشق الأمير قبجق، وأقام " قطلوشاه " على الحامية المغولية ببلاد الشام، ثم مالبث " قطلوشاه " أن لحق بغازان، ومن ثم انفرد قبجق بتصريف الأمور في دمشق وبلاد الشام، وأراد أن يمد جسور المودة بينه وبين المماليك في مصر فرحل إلى مصر بصحبة عدد من الأمراء، وما أن غادر قبجق بلاد الشام إلى مصر حتى خرج أرجواش من قلعة دمشق التى كان يحفظها من سيطرة المغول، ونادى في الناس: " احفظوا البلد والزموا الأسوار وأخرجوا العدد " وما لبث أن أصبح يشرف بنفسه على شؤون دمشق ثم أصدر

(1) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 1 /366- 367.
(2) الذهبي، تاريخ الإسلام، 12 / 429.

أوامره بأن يذكر اسم السلطان الملك الناصر محمدًا بن قلاوون في الخطبة مقرونًا باسم الخليفة العباسى بالقاهرة، وكان لهذا التغيير رنة فرح فى قلوب الأهالى [1].

أما موقف الناصر محمدًا، فإنه لما عاد إلى مصر أخذ يعد العدة لمحو العار الذى لحق به من جراء الهزيمة التى أوقعها المغول بجنده، ففرض ضرائب جديدة ورغب الأثرياء في التبرع بالمال حتى يتمكن الجيش المصرى من صد المغول، كما أنفذ السلطان إلى نواب القلاع ببلاد الشام يأمرهم بحمايتها، كما كتب إلى قبجق وغيره من الأمراء يدعوهم إلى طاعته، فأجابوه إلى طلبه [2].

يقول المقريزي: " ثم أخذ السلطان الناصر في التجهيز للمسير إلى الشام ثانيًا، وشرع الأمراء في الاهتمام بأمر السفر، وجمعوا صناع السلاح للعمل، وأخذ الوزير في جمع الأموال للنفقة، وكتب إلى أعمال مصر بطلب الخيل والرماح والسيوف من سائر الوجهين القبلى والبحري، فبلغ القوس الذى كان يساوى ثلاثمائة درهم إلى ألف درهم، وأخذت خيول الطواحين وبغالها بالأثمان الغالية، وطلبت الجمال والهجن والسلاح ونحو ذلك. فأبيع ما كان. بمائة بسبعمائة وبألف، ونودى بحضور الأجناد البطالين، فحضر خلق كثير من الصنائعية، ونزلوا أسماءهم في البطالين. وفرقت أخبار المفقودين، ورسم لكل من أمراء الألوف بعشرة من البطالين يقوم بأمرهم، ولكل من الطبلخاناه بخمسة، ولكل من العشراوات برجلين. واستخدم جماعة من الأمراء الغزاة المطوعة احتسابًا.

واستدعى مجدى الدين عيسى بن الخشاب نائب الحسبة ليأخذ فتوى الفقهاء بأخذ المال من الرعية للنفقة على العساكر، فأحضر فتوى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام للملك المظفر قطز، بأن يؤخذ من كل إنسان دينار، فرسم له سلار بأخذ خط الشيخ تقى الدين محمد بن دقيق العيد، فأبى أن يكتب بذلك،

(1) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 186.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 897- 900، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 186.

فشق هذا على سلار واستدعاه وقد حضر عنده الأمراء، وشكا إليه قلة المال وأن الضرورة دعت إلى أخذ مال الرعية لأجل دفع العدو، وأراد منه أن يكتب على الفتوى بجواز ذلك فامتنع، فاحتج عليه ابن الخشاب بفتوى ابن عبد السلام، فقال: لم يكتب ابن عبد السلام للملك المظفر قطز حتى أحضر سائر الأمراء ما في ملكهم من ذهب وفضة وحلى نسائهم وأولادهم هم ورأوه، وحلف كلاً منهم إنه لا يملك سوى هذا، كان ذلك غير كاف، فعند ذلك كتب بأخذ الدينار من كل واحد. وأما الآن فيبلغني أن كلاً من الأمراء له مال جزيل، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلئ، ويعمل الإناء الذى يستنجى منه في الخلاء من فضة، ويرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر، وقام عنهم [1] فطلب ناصر الدين محمد بن الشيخى متولى القاهرة، ورسم له بالنظر في أموال التجار ومياسير الناس، وأخذ ما يقدر عليه من كل منهم بحسب حاله.

فما أهل جمادى الأولى حتى استجد عسكر كبير، وغصت القاهرة ومصر وما بينهما بكثرة من ورد من البلاد الشامية حتى ضاقت بهم المساكن، ونزلوا بالقرافة الخمور وشق ظروفها على يد ابن تيمية " [2].

ولما أتم السلطان إعداد حملته، خرج من القاهرة متجهًا إلى بلاد الشام، ثم تبعه الجيش بقيادة الأميرين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير الإستادار، فتقابلا مع الأمير قبجق وأتباعه في منتصف الطريق بين غزة وعسقلان، وطلبا إليهما التوجه إلى السلطان بالصالحية، فلبوا دعوته، ولما بلغ السلطان أمر قدومهم ركب إلى لقائهم وبالغ في إكرامهم، ثم عاد بهم إلى قلعة ا لجبل حيث عفا عنهم وخلع عليهم، وعهد إلى قبجق بولاية الشوبك إجابة إلى طلبه، وما لبث أن عاد الأميران " بيبرس " وسلار على رأس الجيش المتجه إلى دمشق

(1) وكان الشيخ قصد بهذا تسميع الأمير سلار حيث جهز بنته لما زوجها من أمير موسى ابن أستاذه الملك الصالح، والأمير " بيبرس " حيث جهز ابنته لما زوجها من بُرلغى قريب السلطان، وكان كل منهما قد جهز بنته بما لا يوصف ولا يضبط. بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 1 / 371.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 898.

حيث رحب السلطان بمقدمهما [1].

وقد واصل الجيش المصرى سيره إلى بلاد الشام لإقرار الأمن في هناك وإشعار الناس بعودة الحكم لدولة المماليك وعودة الحكم الإسلامى من جديد، وتمكن الجيش المصرى من دخول دمشق يوم السبت العاشر من شعبان 699هـ / أول مايو 1300 م، وعاد الحكم الإسلامى مرة أخرى إلى دمشق بعد خروج قوات " غازان "، ثم أرسل الأمير سلار جيشًا إلى حلب فدخلها وقتل من كان بها من جند " غازان "، ولم يفلت منهم إلا القليل الذين لحقوا ببلاد المغول، وأخبروا " غازان " بما كان من دخول قبجق في طاعة الملك السلطان الناصر محمدًا بن قلاوون، وتم توزيع النواب على ولاياتهم " واستقر كل نائب في مملكته " حيث تم تعيين جمال الدين الأفرم نائبًا للسلطنة بالشام حيث تتبع جمال الدين الأفرم كل من كان بدمشق من المفسدين الذين تولوا جمع المال من الرعية في أيام " غازان "، وكذلك الذين أفشوا أسرار الناس، حيث وقعت عليهم العقوبات [2].

ثم خلع سلار على الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق وأنعم عليه بعشرة آلاف درهم. وبعد أن تغيرت الأوضاع في بلاد الشام وعادت إلى حظيرة دولة المماليك، سار الأميران " بيبرس " وسلار بالعسكر في شهر رمضان سنة 699 هـ / مايو 1200م، وعادوا إلى مصر فاستقبلهم السلطان والناس استقبالاً حسنًا [3].

على أن العداء لم ينته بين المغول والمماليك، فقد ذاع في المحرم سنة 700 هـ بدمشق نبأ مسير " غازان " إلى بلاد الشام، فلما وصل الناصر محمدًا نبأ مسير

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 900- 902، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 187.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 901، ابن كثير، البداية والنهاية، 14 / 12، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 157.

(3) المقريزي، السلوك، 1 / 902، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول والمماليك، ص 158.

" غازان " على بلاد الشام أخذ الأمر على محمل الجد، وأخذ يعد العدة لملاقاة المغول مرة ثانية والدفاع عن بلاد الشام، ولما أتم الاستعدادات تحرك بالجيش إلى غزة في وقت جاءت إليه الأخبار بعبور " غازان " بقواته نهر الفرات باتجاه بلاد الشام، ولكنّ الناصر محمدًا لم يواصل المسير مع الجيش من غزة باتجاه المغول وذلك بسبب الشدائد الكثيرة التى واجهت الجيش بسبب الأمطار الثلوج التى توالت لمدة أربعين يومًا مما أدى إلى هلك كثير من دواب الجيش وتلف المهمات العسكرية، وارتفعت الأسعار إلى الضعف، فأصيب الناصر محمدًا بالوهن والإرهاق وآثر العودة إلى مصر في نهاية ربيع الأول 700هـ / يناير 1301م [1].

أما فيما يتعلق بموقف " غازان " فإنه بعد أن عبر الفرات سار متجهًا إلى أنطاكية، غير أن شدة البرد حملته على عدم مواصلة الزحف، فرجع أدراجه بعد هجومه على أنطاكية وجبل السماق حلب ونهبه الأموال، وأسره العدد الوفير من الرجال، حتى بيع الواحد منهم بعشرة دراهم، وحالت الأمطار الغزيرة والثلوج المتكاثفة دون دخول المغول دمشق، أضف إلى ذلك أن معظم خيول وإبل جيش " غازان " قد نفقت، وأمام هذا لم يجد بُدًّا من العودة إلى بلاده بعساكره، وخذلهم الله وردهم خائبين{وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ} [الأحزاب: ٢٥] وعاد أهل الشام إلى منازلهم بعد أن كانوا قد هجروها خوفًا من بطش المغول، وعاد الجيش المصري بقيادة نائب السلطنة من معسكره عند المرج بعد أن قضى هناك أربعة أشهر بعد أن اطمأن على عودة " غازان " إلى بلاده [2].

وكان " غازان " يأمل أن تساعده الدول الأوربية في انتزاع سورية من قبضة

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 908، ابن كثير، البداية والنهاية، 14 / 15- 16.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 909، أبوالمحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 132، ابن كثير، البداية والنهاية، 14 / 16، ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص46.

المماليك، فأرسل إلى ملكى إنجلترا وفرنسا عدة سفارات تطلب العون ضد المماليك، فلم يلق طلبه قبولا [1].

ولما يئس " غازان " من مناصرة ملوك أوروبا له، اتجه إلى مهادنة سلاطين المماليك فأرسل في رمضان سنة 700 هـ / مايو 1301 م رسالة إلى السلطان الناصر محمدًا بن قلاوون ومع وفد مكون من الفقيه كمال الدين موسى بن يونس قاضي الموصل [2]، والأمير ناصر الدين على خواجا، وقد عاب " غازان " في هذه الرسالةعلى المماليك الهجوم على أملاكه من غير سبب، وتوعده الانتقام إذا وصل لعلمه أن المماليك قد عولوا على الأخذ بثأرهم

---

(1) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 190.

(2) الشيخ العلامة كمال الدين موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك الفقيه الشافعي، كان إمام وقته في مذهب الشافعى وغيره، وكان يشتغل الحنفيون عليه في مذهب أبى حنيفة، ويحل الجامع الكبير في مذهب أبى حنيفة وكان متقنًا علم المنطق والطبيعى والإلهي، وكان إمامًا مبرزًا في العلم الرياضي، وأتقن المجسطى وإقليدس والموسيقى والحساب بأنواعه، وكان أهل الذمة يقرؤون عليه التوراة والإنجيل، وشرح لهم هذين الكتابين شرحًا يعترفون أنهم لا يجدون من يوضح لهم مثله، وكان إمامًا في العربية والتصريف، وكان يقرئ كتاب سيبويه والمفصل وغيرهما، وكذلك كان إمامًا في التفسير والحديث، وقدم الشيخ أثير الدين الأبهرى واسمه المفضل بن عمر بن المفضل إلى الموصل، واشتغل على الشيخ كمال الدين المذكور، وكان الشيخ أثير الدين الأبهرى المذكور حينئذٍ إمامًا مبرزًا في العلوم، ومع ذلك يأخذ الكتاب ويجلس بين يديه ويقرأ عليه.

قال القاضى شمس الدين بن خلكان: ولقد شاهدت بعينى أثير الدين الأبهرى وهو يقرأ المجسطى على الشيخ كمال الدين بن يونس المذكور، واستمر سنين عديدة يشتغل عليه، وكان الأثير إذ ذاك صاحب تصانيف، يشتغل فيها الناس، وقصد تقى الدين عثمان بن عبد الرحمن، المعروف بابن الصلاح، الفقيه الشافعي، الشيخ كمال الدين المذكور، وسأله في أن يقرئه المنطق سرًّا، وتردد ابن الصلاح إلى الشيخ كمال الدين مدة يقرأ عليه المنطق ولا يفهمه، فقال له ابن يونس المذكور: يا فقيه، المصلحة عندى أن تترك الاشتغال بهذا الفن. فقال له ابن الصلاح: ولم ذلك؟ فقال: لأن الناس يعتقدون فيك الخير، وهم ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد، فكأنك تفسد عقائدهم فيك، ولا يصح لك من هذا الفن شيء، فقبل ابن الصلاح إشارته، وترك قراءته، وكان الشيخ كمال الدين بن يونس المذكور يتهم في دينه، لكون العلوم العقلية غالبة عليه، وكانت تعتريه غفلة لاستيلاء الفكرة عليه، فعمل فيه بعضهم.

أجدك إن قد جاد بعد التعبس ::: غزال بوصل لى وأصبح مؤنسي
وعاطيته صهباء من فيه مزجها ::: كرقة شعرى أو كدين ابن يونس

أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، 1 / 426- 427.

ومقاتلتهم بنواحي حلب والفرات، وناشده الله والدين أن يعمل على تلافي ما قد يقع ببلاد المماليك من الخراب، وطلب منه أخيرًا أن يُعدَّ له الهدايا والتحف [1]، وقد نصت الرسالة على: " بقوة الله تعالى، وميامين الملة المحمدية، فرمان السلطان " محمود غازان "، ليعلم السلطان المعظم الملك الناصر أنه في العام الماضي بعض عساكرهم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا وأفسدوا فيها، لعناد الله وعنادنا، كماردين ونواحيها، وجاهروا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهلها، وأقدموا على أمور بديعة وأحوال شنيعة من محاربة الله، وخرق ناموس الشريعة، فأنفنا من تهجمهم، وغرنا من تقحمهم، وأخذتنا الحمية الإسلامية، فحدتنا على دخول بلادهم ومقابلتهم على إفسادهم، فركبنا بمن كان لدينا من العساكر، وتوجهنا بمن اتفق منهم أنه حاضر، وقبل وقوع الفعل منا، واشتهار الفتك عنا، سلكنا سنن المرسلين، واقتفينا آثار المتقدمين، واقتدينا بقول الله تبارك وتعالى:{لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ} [النساء: ١٦٥] وأنفذنا صحبة يعقوب الكرجي جماعة من القضاة والأئمة الثقات، وقلنا: هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾} [النجم: ٥٦ - ٥٨].

فقابلتم ذلك بالإصرار، وحكمتم عليكم وعلى المسلمين بالأضرار، وأهنتموهم وسجنتموهم، وخالفتم سُنن الملوك في حسن السلوك، فصبرنا على تماديكم في غيكم وإخلادكم إلى بغيكم إلى أن نصرنا الله وأراكم في أنفسكم قضاة،{أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ} [الأعراف: ٩٩]، و(ظننتا) أنهم حيث تحققوا كُنه الحال، وآل بهم إلى ما آل، أنهم ربما تداركوا الفارط من أمرهم، ورتقوا ما فتقوا بغدرهم، وأوجه إلينا وجه عذرهم، وأنهم ربما سيروا إلينا حال دخولهم إلى الديار المصرية رُسلاً لإصلاح تلك القضية، فبقينا بدمشق غير متحثحثين، وتثبطنا تثبط المتملكين المتمكنين، فصدّهم عن السعي في صلاح حالهم التواني، وعللوا نفوسهم بالأماني.

---

(1) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص 189.

ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا، أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام، أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب أو الفرات، وأن عزمهم مصر على ذلك لا سواه، فجمعنا العساكر وتوجهنا للقياهم، ووصلنا الفرات مُرتقبين ثبوت دعواهم، وقلنا لعلهم وعساهم، فما لمع لهم بارق، ولا ذرّ لهم شارق، فتقدّمنا إلى أطراف حلب، وتعجبنا من بطائهم غاية العجب، فبلغنا رجوعهم بالعساكر، وتحققنا نكوصهم عن الحرب، وفكرنا أنه متى تقدّمنا بعساكرنا الزاخرة، وجموعنا العظيمة القاهرة، ربما أخرب البلاد مرورها، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها، وعم ضرر العباد، وخراب البلاد، فعدنا بفتيا عليها، ونظرة لطف من الله إليها.

وها نحن أيضًا الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة، ومشحذون غرار عزماتنا المشهورة، ومُستعملون المجانيق وآلات الحرب، وعازمون بعد الإنذار،{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥].

وقد سيّرنا حاملي هذا الفرمان الأمير الكبير ناصر الدين بن علي خواجا، والإمام العالم ملك القضاة كمال الدين موسى بن يونس، وقد حملناها كلامًا يُشافهانهم بهن، فليثقوا بما تقدمنا به إليهما، فإنهما من الأعيان المعتمد عليهما، لنكون كما قال الله تعالى:{قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)} [الأنعام: ١٤٩]، فتُعدّون لنا الهدايا والتحف، فما بعد الإنذار من عاذر، وإن لم تداركوا الأمر فدماء المسلمين وأموالهم مطلوبة بتدبيرهم، ومطلوبة منهم عند الله على طول تقصيرهم.

فليُمعن السلطان لرعيته النظر في أمره، فقد قال ﷺ : ((من ولاه الله أمرًا من أمور هذه الأمة واحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلّته وفقره)). وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذّر، " والسلام على من اتبع الهدى ".

كتب في العشر الأول من شهر رمضان سنة سبعمائة بجبال الأكراد، والحمد لله

رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد المصطفى وآله الطاهرين[1].

ولما وصل هذا الوفد برسالة " غازان " إلى القاهرة استقبل بالحفاوة والتكريم، ثم دعى إلى قلعة الجبل حيث اجتمع الأمراء والعسكر وكبار رجال الدولة، وبدأ القاضي كمال الدين موسى بن يونس قاضي الموصل - أحد سفراء " غازان " - في الحديث حيث خطب خطبة بليغة تحدث فيها عن أهمية الصلح والسلام بين الدولتين المملوكية والمغولية، وقد تحقق الملك السلطان الناصر محمدًا بن قلاوون ورجال دولته من نوايا " غازان " عن طريق سؤال القاضي كمال الدين: وقالوا له: أنت من أكابر العلماء وخيار المسلمين، وتعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدين؛ فنحن ما نتقاتل إلا لقيام الدين؛ فإن كان هذا الأمر قد فعلوه حيلة ودهاء فنحن نحلف لك أن ما يطلع على هذا القول أحد من خلق الله تعالى، ورغبوه غاية الرغبة؛ فحلف لهم بما يعتقده أنه ما يعلم من قازان وخواصه غير الصلح وحقن الدماء ورواج التجار ومجيئهم وإصلاح الرعية.

ثم إنه قال لهم: والمصلحة أنكم تتفقون وتبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوكم، وأنتم فلكم عادة في كل سنة تخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل حفظها فتخرجون على عادتكم؛ فإن كان هذا الأمر خديعة فيظهر لكم فتكونون مستيقظين، وإن كان الأمر صحيحًا فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح وتحقن الدماء فيما بينكم [2].

وبعد أن تأكد الناصر محمدًا بن قلاوون ورجال دولته من نوايا " غازان " السلمية وأحسوا بالصدق من كلام القاضي كمال الدين موسى بن يونس قاضي الموصل بعث الناصر محمدًا رسالة إلى " غازان " فند له فيها ماورد في رسالته وأكد له فيها أن المغول هم الذين يبدؤون دائمًا بالعدوان، كما ذكر له أنه لن يهاديه حتى يبدأ هو بإرسال الهدايا إليه، وعاب على " غازان " إذلال

(1) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 1 / 387- 388.
(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 8 / 141- 142.

المسلمين في دمشق وما جاورها من بلاد وتخريبه المساجد والآثار مما لا يتفق مع تعاليم الإسلام، وختم الناصر كتابه لغازان مؤكدًا له استعداده لمصادقته إذا جنح للسلم، وأبعد الكفار الذين لايحل له أن يتخذهم بطانة له [1] وفيما يلى نص الكتاب: " فليعلم السلطان المعظم " محمود غازان " أن كتابه ورد، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمثله من الإكرام، ورعينا له حق القصد فتلقيناه منا بسلام، وتأملناه تأمل المتفهم لدقائقه، المستكشف عن حقائقه، فألفيناه قد تضمن مؤاخذة بأمور، هم بالمؤاخذة عليها أحرى، معتذرًا في التعدى بما جعله ذنوبًا لبعض طالب بها الكل، والله يقول:{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} [الأنعام: ١٦٤].

أما حديث من أغار على ماردين فمن رجّالة بلادنا المتطرفة، وما نسبوه إليهم من الإقدام على الأمور البديعة، والأحوال الشنيعة. وقولهم إنهم أنفوا من تهجّمهم، وغاروا من تقحمهم، واقتضت الحمية ركوبهم في مقابلة ذلك، فقد تلمّحنا هذه الصورة التى أقاموها عذرًا في العدوان، وجعلوها سببًا إلى ما ارتكبوه من طغيان، فالجواب عن ذلك أن الغارات من الطرفين، لم يحصل من المهادنة والموادعة ما يكف يدها ولا يغير هممها مستعدة، وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما علمتم من الكفر والنفاق، وعدم المصافاة للإسلام والوفاق، ولم يزل ملك ماردين ورعاياه منفذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد، عنهم متولين، كبر مكرهم، والله تعالى يقول:{وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ} [المائدة: ٥١].

ومن حيث جعلتم هذا جنبًا موجبًا للحمية الجاهلية، وحاملاً على الانتصار الذى زعمتم أن هممكم به مليّة، فقد كان هذا القصد الذى ادعيتموه يتم بالانتقام من أهل تلك الأطراف التى أوجب ذلك فعلها والاقتصار على أخذ الثأر ممن ثار، اتباعًا لقوله تعالى:{ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } [الشورى: ٤٠] لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفقة على اختلاف الأديان، وتطؤوا البقاع الطاهرة بعبدة الصلبان، وتنتهك حرمة البيت المقدس الذى هو ثانى بيت الله الحرام، وشقيق مسجد

(1) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 191.

رسول الله عليه الصلاة والسلام، وإن احتججتم بأن زمام تلك الغارة بيدنا، وسبب تعدّيهم من سببنا، فقد أوضحنا الجواب عن ذلك، وأن عدم الصلح والموادعة أوجب سلوك هذه المسالك.

وأما ما ادعوه من سلوك سنن المرسلين، واقتفاء آثار المتقدمين في إنفاذ الرسل أولاً، فقد تلمحنا هذه الصورة، وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة، والجواب عن ذلك أنهم ما وصلوا إلا وقد دنت الخيام من الخيام، وناضلت السهام عن السهام، وشارف القوم القوم، ولم يبق للقاء إلا يوم أو بعض يوم، وأشرعت الأسنة على الجانبين، ورأى كلّ خصمه رأى العين، ولا نحن ممن لاحت له رغبة راغب، فتشاغل عنها ولها، ولا ممن يسالم فيقابل ذلك بجفوة النفار والله تعالى يقول:{ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا } [الأنفال: ٦١].

كيف والكتاب بعنوانه، وأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول: ما أضمر الإنسان شيئًا إلا أظهره الله في صفحات وجهه وفلتات لسانه. ولو كان حضور هؤلاء الرسل والسيوف وادعة في أغمادها، والأسنة مستكنةٌ في أعوادها، والسهام غير مفوقة، والأعنة غير مطلقة، لسمعنا خطابهم، وأعدنا جوابهم.

وأما ما أطلقوا به لسان قلمهم، وأبدوه من غليظ كلمهم في قولهم: فصبرنا على تماديكم في غيّكم، وإخلادكم إلى بغيكم، فأى صبر ممن أرسل عنانه إلى المكافحة، قبل إرسال رسل المصالحة، وجاس خلال الديار، قبل ما زعمه من الإنذار والإعذار، وإذا فكروا في هذه الأسباب، ونظروا فيما صدر عنهم من خطاب، علموا الغدر في تأخير الجواب، وما يتذكر إلا أولوا الألباب.

وأما ما يتحججون به مما اعتقدوه من نصرة، وظنوا من أن الله جعل لهم على حزبه الغالب في كل كرة الكرّة، فلو تأملوا ما ظنّوه ربحًا لوجدوه هو الخسران المبين ولو أمعنوا النظر في ذلك لما كانوا به مفتخرين، ولتحققوا أن الذى اتفق لهم كان غرمًا لا غنمًا، وتدبّروا معنى قوله تعالى:{إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْـمًا} [آل

عمران: ١٧٨]. ولم يخف عنهم ما أبلته السيوف الإسلامية منهم، وقد رأوا عزم من حضر من عساكرنا التي لو كانت مجتمعة عند اللقاء لما ظهر خبر عنهم، فإنا كنا في مفتتح ملكنا، ومبتدأ أمرنا حللنا بالشام للنظر في أمور البلاد والعباد، فلما تحققنا خبركم، وقفونا أثركم، بادرنا نقدّ أديم الأرض سيرًا وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضررًا وضيرًا ونؤدى من الجهاد السنة والفرض، ونعمل بقوله تعالى:{وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ} [آل عمران: ١٣٣].

فاتفق اللقاء بمن حضر من عساكرنا المنصورة، وثوقًا بقوله تعالى:{كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ} [البقرة: ٢٤٩]، وإلا فأكابركم يعلمون وقائع الجيوش الإسلامية التي كم وطئت موطئًا يغيظ الكفار، فكتب لها به عمل صالح، وسارت في سبيل الله يفتح الله عليها أبواب المناجح، وتعدّدت أيام نصرتها التي لو دققتم الفكر فيها لأزالت ما حصل عندكم من لبس، ولما قدرتم أن تنكروها، وفى تعب من يجحد ضوء الشمس، وما زال الله لها نعم المولى ونعم النصير، وإذا راجعتموهم قصّوا عليكم نبأ النصرة:{وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ} [فاطر: ١٤].

وما زالت تتفق الوقائع بين الملوك والحروب، وتجرى المواقف التى هى بتقدير الله فلا فخر فيها للغالب ولا عار على المغلوب، وكم من ملك اُستظهر عليه ثم نُصر، وعادوه التأييد فجبره بعدما كُسر، خصوصًا ملوك هذا الدين، فإن الله تكفّل لهم بحسن العقبى فقال سبحانه:{وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨].

وأما إقامتهم الحجة علينا، ونسبتهم التفريط إلينا، كوننا لم نُسّير إليهم رسولاً عند حلولنا بدمشق، فنحن عندما وصلنا إلى الديار المصرية لم نُزد على أن اعتددنا وجمعنا جيوشنا من كل مكان، وبذلنا في الاستعداد غاية الجهد والإمكان، وأنفقنا جزيل الأموال في جمع العساكر والجحافل، ووثقنا بحسن الخلف لقوله تعالى:{ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ} [البقرة: ٢٦١].

ولما خرجنا من الديار المصرية بلغنا خروج الملك من البلاد، لأمر حال بينه وبين المراد، فتوقفنا عن المسير توقف من أغنى رغبة عن حث الركاب، وتلبثنا

تلبث الراسيات،{وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ} [النمل: ٨٨] وبعثنا طائفة من العساكر لمقابلة من أقام بالبلاد، فما لاح لهم منهم بارق ولا ظهر، وتقدمت فلحقت من حمله على التأخير الغرر، ووصلت الفرات فما وقعت للقوم على أثر.

وأما قولهم: إنا ألفينا في قلوب العساكر والعوام أنهم فيما بعد يلتقوننا على حلب أو الفرات. وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى الفرات، وإلى حلب مرتقبين وصولنا، فالجواب على ذلك أنه حين بلغنا حركتهم جزمنا، وعلى لقائهم عزمنا، وخرجنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابن عم سيدنا رسول الله ﷺ، الواجب الطاعة على كل مسلم، المفترض المبايعة والمتابعة على كل معترض ومسلم، طائعين لله ولرسوله في أداء فرض الجهاد، باذلين في القتال بما أمرنا الله غاية الاجتهاد، لا يتم أمر دين ولا دنيا إلا بمتابعته، ومن والاه فقد حفظه الله وتولاه، ومن عانده أو عاند من أقامه فقد أذله الله، فحين وصلنا إلى البلاد الشامية تقدمت عساكرنا تملأ السهل والجبل، وتبلغ بقوة الله في النصر الرجاء والأمل، ووصلت أوائلها إلى أطراف بلاد حماة وتلك النواحي، فلم يقدم أحد عليها، ولا جسر أن يمد حتى ولا الطرف إليها، فلم نزل مقيمين حتى بلغنا رجوع الملك إلى البلاد، وإخلافه موعد اللقاء، والله لا يخلف الميعاد، فعدنا لاستعداد جيوشنا التي لم تزل تندفع في طاعة الله تعالى اندفاع السيل، عاملين بقول الله تعالى:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ } [الأنفال: ٦٠].

وأما ما جعلوه عذرًا في الإقامة بأطراف البلاد وعدم الإقدام عليها، وأنهم لو فعلوا ذلك ودخلوا بجيوشهم ربما أفسد البلاد مرورها، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها، فقد فهم هذا المقصود، ومتى ألفت البلاد والعباد منهم هذا الإشفاق؟، ومتى اتصفت جيوشهم بهذه الأخلاق؟، وها آثارهم موجودة، ودعاوى خلافها بمشاهدة الحال مردودة، وهل هذا اعتماد من رمق شخص الإسلام بإنسانه؟، كيف ورسول الله عليه السلام يقول: ((المسلم من سلم الناس من يده ولسانه))، وأسارى المسلمين عندهم في أشدّ وثاق، في يد الأرمن والتكفور منهم يخالف ما

ادعوه من الإشفاق.

وقد كان المسلمون غزوا عسكر أبغا وقتلوا من قتلوا من التتار، وحصل لهم التمكن في البلاد والاستظهار. واستولوا على ملك آل سلجوق ولا تعرضوا لدار ولا جار، ولا عفوا أثرًا من الآثار، ولا حصل لمسلم منهم ضرر، ولا أوذى في ورد ولا صدر، وكان أحدهم يشترى قوته بدرهمه وديناره، ويأبى أن يمتد إلى أحد المسلمين يد إضراره، هذه سنة أهل الإسلام، وفعل من يريد لملكه الدوام.

وأما ما أرعدوا به وأبرقوا، وأرسلوا فيه عنان قلمهم وأطلقوا، وما أبدوه من الاهتمام بجمع العساكر، وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكروه من التهويل، فالله تعالى يقول:{ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾} [آل عمران: ١٧٣].

وأما قولهم وإلا فدماء المسلمين مطلولة، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب، وأولاهم بألا يصدر عن ذلك جواب، ومن قصده الصلح والإصلاح، كيف يقول هذا القول الذى عليه فيه من جهة الله وجهة رسوله أى جناح؟ وكيف يضمر هذه النية، وينجح بهذه الطوية، ولم يخف مواقع هذا القول وخلله؟ والنبى ﷺ يقول: ((نية المرء أبلغ من عمله)). وبأى طريق تهدر دماء المسلمين التى من تعرض إليها يكون الله له في الدنيا والآخرة مُطالبًا وغريمًا، ومؤاخذًا بقوله تعالى:{ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾} [النساء: ٩٣].

وإذا كان الأمر كذلك فالبشرى لأهل الإسلام بما نحن عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد وجمع العساكر التى يكون لها الملائكة الكرام إن شاء الله تعالى من الإمداد، والإستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفرة العُدد، المتكاثرة المدد، المدعوة بالنصر الذى يحفها في الظعن والإقامة، الواثقة بقوله ﷺ : ((لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على عدوهم إلى يوم القيامة))، المبلغة في دين الله آمالاً، المستعدة لإجابة داعى الله إذ قال:{ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا } [التوبة:

.[٤١]

وأما رسلهم وهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا، ووفدوا علينا، فأكرمنا وفادتهم، وعززنا لأجل مُرسلهم من الإقبال مادتهم، وسمعنا خطابهم، وأعدنا جوابهم، هذا مع كوننا لم يخف علينا انحطاط قدرهم، ولا ضعف أمرهم، وأنهم ما دُفعوا لأفواه الخطوب، إلا لما ارتكبوه من ذنوب، وما كان ينبغي أن يُرسل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله، ولا يُندب لهذا المهم إلا من يُجمع على فصل خطابه وفضله.

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف، فلو قدموا من هداياهم حسنة لعوضناهم بأحسن منها، ولو أتحفونا بتحفة لقابلناها بأجل عوض عنها، وقد كان عمه الملك أحمد راسل والدنا السلطان الشهيد، وناجاه بالهدايا والتحف من مكان بعيد، وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب، فأحسن له الجواب، وأتى البيوت من أبوابها بحسن الأدب، وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب.

والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها، وأدركت الآنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها، فنقول: إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها، وإذا دخل في الملة المحمدية ممتثلاً ما أمر الله به مجتنبًا ما عنه نهى، وانضم في سلك الإيمان، وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنّان، وتجنب التشبه بمن قال الله في حقهم:{قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ} [الحجرات: ١٧]، وطابق فعله قوله، ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله، وأرسل إلينا رسولاً من جهته يرتل آيات الصلح ترتيلاً، ويروق جوابه وخطابه حتى يتلو كل أحد:{يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا} [الفرقان: ٢٧]. صارت حجتنا وحجة المركبة على من خالف ذلك، وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك في سائر الممالك، ومظافرتنا له تكسب الكافرين هوانا، والمُشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى:{وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا} [آل عمران: ١٠٣].

وينتظم إن شاء الله شمل الصلح أحسن انتظام، ويحصل التمسك من الموادعة

والمُصافاة بعروة لا انفصال لها ولا انفصام، وتستقر قواعد الصلح على ما يُرضى الله ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام[1].

موقعة عرض 702 هـ / 1303م :

ومن الواضح أن " غازان " لم يكن راغبًا في الصلح كما ادعي، إنما كان في حاجة إلى هدنة يستعيد فيها قوته لعدوان جديد، لذلك لم تؤت المراسلات ثمرتها المرجوة، فاستؤنفت الحرب من جديد بعد عام واحد، وتحرك المغول بجيوشهم الجرارة بقيادة القائد " " قطلوشاه " " على رأس ثمانين ألف مقاتل ونزلوا على نهر الفرات، وتقابلوا مع جيوش أمراء الشام بمكان يقال له: الكوم بالقرب من عرض [2] سنة 702 هـ / 1303م، حيث دارت رحى الحرب بين الفريقين وانتهى الأمر بهزيمة المغول [3].

موقعة شقحب [4] - مرج الصفر [5] 702 هـ / 1303م :

وعلى ما يبدو أن المغول لم يكونوا يستسلمون بسهولة، فسرعان ما جهزوا جيشًا أكثر عدد وعدة، فأعاد " قطلوشاه " السير في مائة ألف من التتار والكرج والأرمن، وأسرع في السير باتجاه بلاد الشام بعد أن ذكر له المنهزمون من المغول في موقع عرض أن السلطان الناصر محمدًا بن قلاوون لم يخرج من

---

(1) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 1 / 394- 397.

(2) بلدة بالشام بين تدمر والرصافة الهاشمية. المقريزي، السلوك، 1 / 931.

(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، 4 / 48، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 197.

(4) شقحب: قرية في الشمال الغربى من جبل غباغب من أعمال حوران من نواحى دمشق، المقريزي، السلوك، 1 / 932.

(5) مرْجُ الصُّفّر: مَوْضِعٌ بَيْنَ دِمَشْقَ وَالْجَوْلان وهُوَ سَهْلٌ وَاسِعٌ عَلى بُعْدِ 37 كمْ عَنْ دِمَشْقَ جَنُوبًا. وَفِى شَرْق قرْيَـةِ شقحب، وَيَشْمَلُ اليَوْمَ بَعْضَ أرَاضِـى قُرَى: زَاكِيَـة، وشقحب، وأركيس، والزريفية، وَغَيْرهَا. جَرَتْ فِيهِ عِدَّةُ مَعَارِكَ حَاسِمَةٌ، مِنْهَا مَعْرَكَةٌ بَيْنَ المُسْلِمِينَ الزَّاحِفِينَ إلى دِمَشْقَ- بَعْدَ مَعْرَكَةِ اليَرْمُوكِ- وَالرُّومِ البيزَنْطِيَّةِ في سَنَةِ 14 هـ، وَمَعْرَكَةٌ في أيَّامِ بَنِى مَرْوَانَ، وَمَعْرَكَةٌ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَالصَّلِيبِيِّينَ في سَنَةِ 519 هـ، وَمَعْرَكَةٌ التّتار وَجَيْش المُسْلِمِينَ في سَنَةِ 702 هـ في عَهْدِ السُّلْطَان النّاصِر مُحَمَّدِ بْن قلاوُونَ. المَعَالِم الجُغْرَافِيَّةِ الوَارِدَةِ في السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، 1 / 411.

الديار المصرية بعد وأن ليس بالشام سوى جند الشام، فجد " قطلوشاه " في السير بقواته بهدف مباغتة المسلمين في الشام قبل مجيء القوات المصرية[1].

ولما علم الناس بأنباء مسير المغول صوب بلاد الشام وقع الإرجاف والرعب في قلوبهم وهموا بالرحيل عن بلاد الشام إلى مصر وترك الناس حلب وحماة ولجؤوا إلى دمشق وأرادوا الذهاب إلى مصر، ولم يمنعهم إلا النداء الذى نودى به في المدينة وهو: " من خرج حل ماله ودمه " [2].

ولما علم السلطان الناصر محمدًا بن قلاوون بتحركات المغول جد في الرحيل إلى بلاد الشام لنجدة المسلمين، وكان أمراء المماليك في الشام قد تشاوروا في أمر المغول مابين رأى يقول بانتظار قدوم السلطان بالجيش، ورأى ينادى بضرورة دفع المغول عن بلاد الشام ومنازلتهم إلى حين مجى السلطان الناصر محمدًا بن قلاوون، ولكنهم خشوا من أن يأخذهم المغول على حين غرة ويفاجئهم في دمشق فرحلوا منها وخرجوا لملاقاة المغول، في الوقت الذى كان السلطان قد وصل إلى بلاد الشام وبلغ الأمراء قدوم السلطان فتوجهوا إليه بالجيش، فلقوه في يوم السبت ثانى رمضان، وقبلوا له الأرض. ولبس العسكر بأجمعه السلاح، واتفقوا على المحاربة بشقحب تحت جبل غباغب [3]، وكان " " قطلوشاه " " قد وقف على أعلى النهر.

فوقف في القلب السلطان وبجانبه الخليفة والأمير سلار النائب والأمير " بيبرس " الجاشنكير، وعز الدين أيبك الخازندار وسيف الدين بكتمر أمير جاندار وجمال الدين أقوش الأفرم نائب الشام وبرلغى وأيبك الحموي، وبكتمر البوبكرى وقطلوبك ونوغاى السلاح دار وأغرلوا الزيني، وفى الميمنة الحسام لاجين إستادار ومبارز الدين سوار أمير شكار، ويعقوبا الشهرزورى ومبارز الدين أوليا بن قرمان، وفى الجناح الأيمن الأمير قبجق بعساكر حماة والعربان،

(1) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 167.
(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 157.
(3) وغباغب: قرية في حوران قريبة من دمشق.

وفى الميسرة الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير السلاح والامير قرا سنفر بعساكر حلب والأمير بدخاص نائب صفد، وطغريل الإيغانى وبكتمر السلاح دار وبيبرس الدوادار، بمضافيهم.

ومشى السلطان والخليفة بجانبه، ومعهما القراء يتلون القرآن، ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة، وصار السلطان يقف، ويقول الخليفة: يا مجاهدون، لا تنظروا لسلطانكم، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم ﷺ، والناس في بكاء شديد، ومنهم من سقط عن فرسه إلى الأرض، وتواصى " بيبرس " وسلار على الثبات في الجهاد، وعاد السلطان إلى موقفه، ووقف الغلمان والجمال وراء العسكر صفًا واحدًا، وقيل لهم: من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه، ولكم سلاحه وفرسه.

فلما تم الترتيب زحفت كراديس التتار كقطع الليل، بعد الظهر من يوم السبت المذكور، وأقبل " قطلوشاه " بمن معه من التوامين وحملوا على الميمنة وقاتلوها، فثبتت لهم وقاتلتهم قتالاً شديدًا، وقتل الحسام لاجين إستادار وأوليا بن قرمان وسنقر الكافري، وأيدمر الشمسى القشاش وآقوش الشمسى الحاجب والحسام على بن باخل، نحو الألف فارس. فأدركهم الأمراء من القلب ومن الميسرة، وصاح سلار: هلك والله أهل الإسلام، وصرخ في " بيبرس " والبرجية فأتوه وصدم بهم " قطلوشاه "، وأبلى ذلك اليوم هو وبيبرس بلاء عظيمًا، إلى أن كشفا التتار عن المسلمين [1].

وانتهى الأمر بأن أوقع المماليك الهزيمة بالمغول وفر " قطلوشاه " إلى الفرات بفلول جيشه، فغرق بعضهم ومات البعض الآخر في الصحراء من شدة العطش والجوع [2].

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 933- 934، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 160- 161.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 933- 934، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 160- 161، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 197.

لقد كان لموقعة شقحب نتائج بالغة إذ إن التتار لم تقم لهم قائمة بعد هذه الموقعة ذلك أنه قضى على أغلب جيشهم في هذه الموقعة، ولم يعبر " قطلوشاه " مقدم التتار نهر الفرات إلا في القليل من أتباعه وعلم " غازان " بهزيمة الجيش، فانتشر الحزن في بلادهم وخرج أهل تبريز وغيرها من المدائن إلى لقاء من عاد من جيش التتار سالمًا لاستجلاء الخبر اليقين، إذ للهزيمة أثر سيئ على أنفسهم وهم الذين كانوا يتباهون بأنهم قوم لا يعرفون الهزيمة، واستمر الحزن في تبريز شهرين على من فقد في شقحب واغتم " غازان " غمًّا عظيمًا لما علم بهزيمة جيشه حتى اقترب من الموت، ثم جلس " غازان " لمحاكمة " قطلوشاه " وقادة الجيش المنهزم، فأنكر عليهم الهزيمة وهمَّ بقتلهم إلا أن بعض الأمراء تشفع فيهم فلم يقتلوا، ولكن أبعد " قطلوشاه " عن البلاط المغولى إلى جيلان وضرب بقية القادة وأهينوا [1].

وكاد " غازان " يموت كمدًا وحزنًا ليس من هزيمة جيشه الفاجعة في شقحب وحدها ولكن أيضًا من رسالة الملك الناصر محمدًا بن قلاوون التى يحقر فيها من شأنه ويطلب منه الجلاء عن العراق، ويتوعده أنه سيأتى بجيوشه ليبعده عنها بالقوة، وقد نصت الرسالة على الآتي:

الحمد لله على ما جدّد لنا من النعمة التامة، وسمح به من الكرامة العامة حين أعاد النعيم إلى كماله، والسرور إلى أتم حاله، فاستأنست النفوس إلى استمرار عوائدها، وارتاحت القلوب إلى معجز فوائدها، وأضاءت شمس المعالي، وطلعت بدورها بالسعد المتوالي، إذ كانت غلطة من الدهر فاستدركها، وسقطة بدت عنه فما تركها، فقرّت بذلك العيون، وتحققت في بلوغ الآمال الظنون، فلله الشكر الجزيل ما أومض في الجو بارق، وسرى في الآفاق نجم طارق.

وبعد: فليعلم الملك الجليل محمود، جامع الجيوش وحاشد الجنود، أنه تظاهر بدين الإسلام، وأشهر ذلك بين الأنام، وأبطن خلاف ما ظهر، وتظاهر بالباطل

---

(1) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 171- 172.

والحقّ ستر، ثم فعل ما قدره الله عز وجل وما حكم به القدر، فحملنا ذلك على أنه تقدير، وأن ليس يجدى فيما أراد الله عز وجل تدبير، فما لبث الملك إلا أيسر مدّة، وأرسل رسله إلينا مجدّه، وهو يطلب الصلح ويحرّض عليه، ويذكر الإسلام ويندب إليه، وزعم أنه ليس يختار الفساد في الأرض، فإن الواجب علينا وعليه إصلاح ذوى الدين وأنّ ذلك فرض، فعلمنا مقصده في مقاله، وتستر منا بستر يلوح وجه القدر من خلاله، فأكرمنا رسله كرامة تليق بفعالنا، وسمعنا رسالتهم وجاوبناهم على مقتضى حالهم لا مقتضى حالنا، وأعدناهم إليه بما هم مصرّون عليه، فعاد رسوله يطلب رسولاً يسمع كلامه وليس يخفى عنا مقصده ومرامه، فأرسلنا إليه ما طلب، وركبناه فرس البغى فيا بئس ما ركب.

فما كان إلا عند وصول رسلنا إليه، فجهز عسكره وأظهر من الغدر ما لم يكن يخفى عليه، وأمرهم بما عاد وباله عليهم، وحرّضهم على ما وجدوه حاضرًا لديهم، ثم تقدم معهم وعدى بهم ماء الفرات، وجهزهم ورجع، وعلم أن الغلبة من قراه، فما كان إلا أن دخلوا البلاد، وعملوا بما أمرهم من الفساد، وتفرقت خيولهم في الأطراف والأوقاف، وقطعوا أيدى الأشجار وأرجل الزروع من خلاف، ونزلوا بالقرب من حلب، وشنوا الغارات وجدّوا في الطلب، وجيوشنا الشامية لهم بالمرصاد، وقد أخلصوا لله تعالى نية الجهاد، وهم يتقدمون إليهم كل وقت ويظهرون لهم الضعف والتأخير ليتوسطوا البلاد ويحصل هناك التدبير، فعاد منهم تومان إلى القريتين، فجهز من جيوشنا إليهم ألفان، فوجدوهم قد أخذوا أغنام التركمان، فوافوهم بالقرب من عرض فكانا كفرسى رهان، فلم يلبث الباغون ساعة من النهار، حتى عجل الله بأرواحهم إلى النار، وبقيت أجسادهم ملقاة بأرض عرض إلى يوم العرض، ولم يفلت منهم إلا من يفعل الخير إنهم قد صاروا أخبارا، ثم أخذ منهم جماعة أسارى: كرج، وأرمن، ومغل، ونصارى.

فما أقنعهم ذلك، ولا اكتفى بأرواحهم مالك، وهموا طالبين الغوطة، ولم يعلموا أن من دونها رماحًا مشروعة وجيادًا مربوطة، وعساكر يتأخرون عنهم قليلاً بعد قليل، وجيوشنا ترصدهم بالغداة والأصيل، فلما عاينوا دمشق المحروسة

ظنوا أنهم بدخولها يستبشرون، وما علموا أنهم من حولها إلى جهنم يحشرون، فعبروا عليها وطلعوا إلى جبل يعرف بالمانع، فأخذ الرعب من قلوبهم بالمجامع، وتحققوا أن نتيجة الغدر الهلاك، وأن مصرع البغي ليس لهم منه فكاك، فمالوا إلى جانب البرية للفرار، وطلبوا أطراف الميمنة للذلة والانكسار، فضربت عليهم جيوشنا حلقًا، وسلبوهم أثواب الحياة والبقاء، ودارت بهم الخيول وبثت سنابكها سماء من العجاج نجومها الأسنة، فطارت إليهم عقبان من الجياد قوادمها القوادم وخوافيها الأعنة، وتصوبت عيون السمر إلى قلوبهم كأنها تطلب سويداها، وقصدت أنهار السيوف أكبادهم فكأنها أرادت تروى صداها، فشربوا كأس المنون لما تبلجت صفحات الصفاح، وعانتهم عيون الرماح، وأنشأت لهم الحوافر غمامةً من الغبار، ونزلت عليهم أمطار من السهام كمطار الشرار، وأخذتهم رعود من الصهيل وأبرقت في جوانبها بروق من كل سيف صقيل، ولم تغب الشمس حتى افترشوا أديم الأرض والوعر والسهل، والتجأ من بقى منهم إلى جبل يعصمهم من القتل، وباتوا عليه ليلة الأحد، وأيقنوا أن ليس ينجو منهم أحد، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، وأيسوا من الخلاص وقنطوا من السلامة، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وظنوا أن أرواحهم من أجسادهم قد ذهبت، ونادوا بلسان حالهم، وقد قربت مدّة آجالهم، اعتقنا أيها الملك الرحيم، واعف عنا أيها الملك العظيم، فإننا جميعنا مسلمون ولا تؤاخذنا بما جناه كفارنا المسرفون، فإننا منهم بريئون، فأردنا أن يطلب النصر من حيث عوّدنا من العفو، فأمرنا جيوشنا أن تفتح لهم طريقًا ليذهبوا، وتركناهم من فعالنا ليتعجبوا، ففروا فرار الشاة من الأسد، ولم يلتفت منهم والد إلى ولد.

فلو رأيت أيها الملك ذلك اليوم، لبقيت زمانًا يروعك رؤياه في النوم، وما كنت ترى من جيشك إلا قتيلاً أو أسيرًا وكان يومًا على الكافرين عسيرًا فلله درّه من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر، والقيد والأسر، وهلك الذين هم ديوية الفرسان، قد قادهم الذل والصغار ورعاة العربان، والكرج قد لحقت بقية آثارهم، وعجل الله بدمارهم، والأرمن وقد سيق من سلم منهم في القيود إلى خزانة البنود.

ولو نظرت عيناك ما جرى من أرض حوران إلى الفرات، لراعك وأرعبك من الهول ما كنت تراه، ولو رأيت أصحابك كيف بقوا طعم الرخم والذباب، لقلت من هول ما شاهدت: يا ليتنى كنت ترابًا، وكيف لك بالتراب؟ ولكن روعك من السماع أسهل عليك من العيان، فنظرك إلى من عاد إليك من أصحابك يكفيك في البيان، وإنما لو حضرت لرأيت ذلك المقام مشهود، الذى فيه الملائكة شهود.

ولقد نصحنا لك أيها الملك فما ارعويت، وبذلنا من القول فما رعيت، وركبت من خيل البغى أجرى كُميت، وقلنا لك: إن من جرد سيف البغى كان به المقتول، فلم تع القول ولم تصغ لمن يقول، فاستيقظ لنفسك، وتلق هذه المصيبة التى تدخل بها إلى رمسك، ولا يغرك بالله الغرور، واعلم أن ذلك في الكتاب مسطور، واندك المين بالإيمان، ودع عنك ما يسوله الشيطان، فإنه ما يأمرك إلا بما جنيت ثماره، ولا تحصد إلا ما زرعت بذاره.

وأنت تزعم أن الإسلام شريعتك وبه تدين، فنجتمع نحن وأنت على كلمة الإيمان، ولا تعثوا في الأرض مفسدين وتخرج عن بغداد والعراق ونعيدها إلى خليفة رسول الله ﷺ، الذى شرق به ظلام الآفاق، ونتبع نحن وأنت أمره ونؤيد به هذا الدين، ومن فعل غير هذا فعليه اللعنة إلى يوم الدين، لتعلم أنك كما تزعم متمسك بشريعة المسلمين، وإن أنت سولت لك نفسك خلاف ذلك، فأنت لا محالة هالك، وعن قليل تخلو منك العراق والعجم، ويصير وجودك إلى العدم، وقد أوضحنا لك القول لكيلا تميل، وهديناك إلى أقوم سبيل، ثم تتقدم بإرسال رسلنا المسيّرة إليك في أتم الكرامة، وتسيّر معهم من يوصلهم إلينا في حرز الأمن والسلامة، وترتحل بمن بقى من جيشك إلى طبرستان، وتخلى لمالكها هذه الأوطان.

وبلغنا أنك قلت: إن خيلك ورجلك تدخل الديار المصرية، فقد صدقت أنت لكن المنجمين غلطوا في القضية، أما الخيل فإنها دخلت مجنوبة، وأما الرجال فكان في حلوقهم الطبول وبأيديهم الصناجق مقلوبة، فقد صدقت منهم المقال،

وتباركت بهذا الفأل، وعن قليل نأتيك برجال تميد من تحتها الأرض وتزحف، فترى ما يهولك حتى تتمنى أن تنجو ولو على بطنك تزحف، فتيقظ من رقدة المنام، وبادر الرحيل، والسلام [1].

وفى الثالث عشر من شوال سنة 703 هـ / مايو 1303م توفى " غازان " بن أرغون بن أبغا بن " هولاكو "، وقيل في سبب موته إنه أُصيب بالحمى الشديدة حزنًا على هزيمة جيشه في " شقحب " أمام المماليك وبسبب علمه بالمؤامرة التى دبرت لخلعه من الحكم، وقيل إنه مات مسموما [2].

وتعتبر شخصية " غازان " من الشخصيات القلقة في التاريخ الإسلامي؛ فقد أسلم وأعلن إسلامه وأظهر احتفاله وفرحه الشديد بالإسلام، وأظهر العدل بين الرعية وحرص على نشر الإسلام بين التتار، وأوقف المد الوثنى باتجاه المنطقة العربية الإسلامية، واستبشر المسلمون بهذا الأمر، وبالرغم من ذلك فقد كانت علاقته بدولة المماليك في أشد حالات العداوة والبغضاء، ولم تفلح مساعى الصلح بين كلتا الدولتين المسلمة السنية، وعلى مايبدو أن هذا راجع إلى الرغبة في السيطرة التى كانت تسيطر على المغول بصفة عامة ولم يستطع " غازان " أن يتخلص منها - بالرغم من إسلامه - ولازمته طيلة حياته بعدما ورثها من أسلافه، كما أن الشام التى كانت تتنازعها كلتا الدولتين في عهد " غازان " كانت يسيل لها لعاب أى حاكم فكيف بنا إذا علمنا أن بلاد الشام كانت بعيدة نوعًا ما عن السلطة المركزية المملوكية في مصر، وظن " غازان " أن الحصول عليها سيكون أمرًا ميسورًا، ولاننسى أن المماليك منذ هزيمة المغول في " عين جالوت " وإقامة الخلافة العباسية في القاهرة وهى تقوم بدور البطولة أمام العالم الإسلامى، وتظهر بمظهر المدافع عن مصالح الخلافة العباسية والمسلمين بصفة عامة، هذا الدور لم يكن المماليك على استعداد أن يتخلوا عنه

(1) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، 1 / 423- 425.

(2) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 203، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 173.

تحت أى ظرف من الظروف، في حين - على الأرجح - أن " غازان " بعد إسلامه كان يتطلع للقيام بهذا الدور ولهذا سعى لإسقاط دولة المماليك وإعادة الخلافة العباسية إلى بغداد تحت إشرافه وسيطرته.

على أى حال فقد خلف " غازان " على العرش أوليجاتو بن أرغون بن أبغا (المعروف بخدابندا) [1] ولقب نفسه بالملك غياث الدين، وبدأ حكمه بعلاقات ودية مع المماليك والناصر محمدًا بن قلاوون وأوفد إلى الناصر محمدًا السفراء يؤكد له فيه الحرص على توثيق أواصر الصداقة والسلام، وتضمن كتابه جلوسه على تخت الملك بعد أخيه " محمود غازان "، وخاطب السلطان بالأخوة، وسأل إخماد الفتن، وطلب الصلح، وقال في آخر كلامه: عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه. فأجيب وجهزت له الهدية، وأكرم رسوله [2].

وعلى ما يبدو أن أوليجاتو لم يكن على استعداد لإقامة السلم والصلح مع دولة المماليك والملك الناصر محمدًا بن قلاوون ولم يكن صادق في طلبه، وأن الذى دفعه إلى ذلك هو محاولة مغول الشمال (القبيلة الذهبية) التحالف مع المماليك ضد مغول الجنوب، فأراد أوليجاتو برسالته تلك وإظهار نوايا الصلح والسلم

---

(1) وخدابندا: معناه عبد الله بالفارسي، غير أن أباه لم يسمه إلا خربندا، وهو اسم مهمل معناه: عبد الحمار. وسبب تسميته بذلك أن أباه كان كلما ولد له ولد يموت صغيرًا، فقال له بعض الأتراك: إذا جاءك ولد سمه اسما قبيحًا يعش، فلما ولد له هذا سماه خربندا في الظاهر واسمه الأصلي أبحيتو، فلما كبر خربندا وملك البلاد كره هذا الاسم واستقبحه فجعله خدابندا، ومشى ذلك بمماليكه، وهدد من قال غيره، ولم يفده ذلك إلا من حواشيه خاصة. ولما ملك خربندا أسلم وتسمى بمحمد، واقتدى بالكتاب والسنة، وصار يحب أهل الدين والصلاح.

وضرب على الدرهم والدينار اسم الصحابة الأربعة الخلفاء، حتى اجتمع بالسيد تاج الدين الآوى الرافضي، وكان خبيث المذهب، فما زال بخربندا، حتى جعله رافضيًّا وكتب إلى سائر مماليكه يأمرهم بالسب والرفض، ووقع له بسبب ذلك أمور. قال النويري: كان خربندا قبل موته بسبعة أيام قد أمر بإشهار النداء ألا يذكر أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، وعزم على تجريد ثلاثة آلاف فارس إلى المدينة النبوية لينقل أبا بكر وعمر رضى الله عنهما من مدفنهما، فعجل الله بهلاكه إلى جهنم وبئس المصير، هو ومن يعتقد معتقده كائنًا من كان.

أبو المحاسن بن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 3 / 287.

(2) المقريزي، السلوك، 2 / 6.

إجهاض محاولة التحالف بين مغول الشمال ودولة المماليك حتى لاتقع دولته بين فكي كماشة، وكان له ما أراد حيث صرف الناصر محمدًا بن قلاوون النظر عن التحالف مع مغول الشمال بعد ورود كتاب أوليجاتو إليه (1).

وسرعان ما أظهر أوليجاتو العداوة للمماليك خاصة وللسنة عامة بعد أن اعتنق المذهب الشيعى (2)، ليس ذلك فقط بل سعى إلى نشره في الجهات الغربية من دولته وأمر الخطباء ألا يذكروا في خطبهم إلا على بن أبى طالب وولديه وأهل البيت، ولم يتوقف عند هذا الحد، بل أرسل السفراء إلى البابا كلمنت الخامس وإدوارد الثانى ملك انجلترا، وفيليب الجميل ملك فرنسا يطلب منهم أن يساعدوه في السيطر على بلاد الشام ومصر، إلا أن ملوك أوروبا والبابا لم يكترثوا لطلبه، ولا بتحقيق رغبته لأن أحوالهم الداخلية لم تكن تسمح لهم بخوض غمار حرب مع المسلمين خاصة بعد القضاء على باقى الإمارات الصليبية في فلسطين، والتى كانت تعتبر ثغورًا لهم وكان ذلك منذ عام 1291م عندما استعاد الأشرف خليل بن قلاوون آخر الأراضى العربية التى كان الصليبيون قد استولوا عليها من أيدى المسلمين (3).

وكانت الأحداث السابقة كلها عوامل لتأجيج الصراع بين المماليك والمغول،

---

(1) يقول المقريزي: " وقدم رسل الملك طقطاى صاحب سراى وبر القبجاق في أول ربيع الأول، وأنزلوا بمناظر الكبش، وأجريت لهم الرواتب. ثم حضروا بهديتهم وكتاب ملكهم، وهو يتضمن الركوب لحرب " غازان " ليكون في المساعدة عليه، فأجيب بأن الله قد كفاهم أمر " غازان "، وأن أخاه خربندا قد أذعن للصلح، وجهزت له هدية خرج بها مع الرسل الأمير سيف الدين بلبان الصرخدى إلى الإسكندرية، وساروا في البحر. المقريزي، السلوك، 2 / 6.

(2) وقد استمر خدابنده بعض الوقت مقيمًا على السنة إلى أن كانت سنة 709 حينما انتقل إلى مذهب الشيعة) بسبب الرافضى (ابن المطهر) الذى ألف له كتاب: " منهاج الكرامة " ودعاه فيه إلى اعتناق مذهب الرافضة بعد أن حسنه له وقبح صورة مذهب أهل السنة في عينه. ابن تيمية لم يكن ناصبيًّا، 1 /5.

(3) المقريزي، السلوك، 2 / 6، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 278، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 204، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص 177.

فتحول أوليجاتو إلى المذهب الشيعى جعله يخالف مذهب عامة المسلمين لا سيما المماليك والخلافة العباسية في القاهرة، كما أن محاولة أوليجاتو التحالف مع نصارى الغرب ضد دولة المماليك المسلمة، قد أوقفه في صف أعداء الإسلام والمسلمين، وهناك عامل آخر جعل الخلاف مستحكما بين كلا الدولتين، فقد استقبل الناصر محمدًا عددًا من معارضى أوليجاتو بزعامة الأمير بدر الدين جنغلى بن شمس الدين البابا ورحب بهم وأكرم وفادتهم سنة 704 هـ / 1304م ورتب لهم الرواتب وأعطاهم الإقطاعيات الكبيرة، ووزع جماعة منهم على الأمراء[1].

وبالرغم من هذا النجاح الكبير الذى حققه الناصر محمد بن قلاوون في مجال السياسة الخارجية إلا أنه لم يحقق نفس القدر من النجاح في السياسة الداخلية لم يستطع التخلص من سيطرة " بيبرس " الجاشنكير وسلار اللذين استأثرا بالسلطة دونه، وعملا على خفض المرتبات والمخصصات التى كانت له، حتى أصبح الأمراء ينعمون بالثروة والنعيم أكثر مما كان له وهو السلطان.

وفشل الناصر محمد بن قلاوون في السيطرة على الأمور الداخلية ولم يكن له سلطان على المماليك، وكان من أثر ذلك أن عاث العربان فسادًا في الوجه القبلى وقطعوا الطرق ونهبوا التجارة، وفرضوا الإتاوات على الناس والتجار واستخفوا بالحكام وسخروا منهم، وكل ذلك نتيجة لغياب السلطة المركزية القوية، بعد أن تفرغ المماليك للتنافس على السلطة وتوزيع الإقطاعيات فيما بينهم [2].

ولما ضجر الناصر محمدًا بن قلاوون من تسلط " بيبرس " الجاشنكير وسلار وسلبه جميع السلطات والحجر عليه، فكر في التخلص منهما ولكن انكشفت محاولته [3] وزاد تسلطهما عليه وأمعنا في الحجر عليه والتخفيض من نفقاته.

---

(1) المقريزي، السلوك، 1 / 950، ابن كثير، البداية والنهاية، 14 / 29.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 920- 922.

(3) يقول ابن تغري بردي " : ثم إن السلطان الملك الناصر محمدًا بن قلاوون في سنة سبع وسبعمائة

فقرر الناصر محمدًا بن قلاوون أن الرحيل عن مصر إلى الكرك، فتظاهر أنه يريد الحج، فوافق " بيبرس " وسلار على ذلك، فسار في الخامس والعشرين من رمضان سنة 708 هـ / مارس 1309م ومعه جماعة من الأمراء ن وسارت العامة حوله يبكون على فراقه، ولما استقر الناصر محمدًا في الكرك أخبر الأمراء الذين قدموا معه بأنه عدل عن أداء فريضة الحج وعزم على اعتزال الحكم واتخاذ الكرك محلا لإقامته، وكتب بذلك إلى " بيبرس " الجاشنكير وسلار [(1)].

سلطنة المظفر ركن الدين " بيبرس " 708 - 709 هـ:

ولما رأى الأمراء أن الناصر محمدًا بن قلاوون قد تنازل عن العرش طواعية، أجمعوا على إختيار الأمير سلار لعرش السلطنة، ولكنه اعتذر عن قبول المنصب خشية خروج المماليك عليه، فوقع الاختيار على ركن الدين " بيبرس " الجاشنكير، وبايعوه بالسلطنة في الثالث والعشرين من شوال عام 708 هـ /

ضجر من الحجر عليه من تحكم الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير ومنعه من التصرف وضيق يده، وشكا ذلك لخاصته، وآستدعى الأمير بكتمر الجوكندار وهو أمير جاندار يوم ذاك في خفية وأعلمه بما عزم عليه من القيام على الأميرين سلار وبيبرس، فقرر معه بكتمر أن القلعة إذا أغلقت في الليل وحملت مفاتيحها إلى السلطان على العادة لبست مماليك السلطان السلاح وركبت الخيول من الإسطبل وسارت إلى إسطبلات الأمراء، ودقت كوسات السلطان بالقلعة دقًا حربيًّا ليجتمع المماليك تحت القلعة ممن هو في طاعة السلطان، قال بكتمر: وأنا أهجم على بيتى سلار وبيبرس بالقلعة أيضًا.

وكان لكل من " بيبرس " وسلار أعين عند السلطان، فبلغوهما ذلك، فاحترزا على أنفسهما، وأمر الأمير سيف الدين بلبان الدمشقى والى القلعة، وكان خصيصًا بهما، أن يوهم أنه أغلق باب القلعة ويطرف أقفالها ويعبر بالمفاتيح إلى السلطان على العادة ففعل ذلك. وظن السلطان ومماليكه أنهم قد حصلوا على غرضهم، وانتظروا بكتمر الجوكندار أن يحضر إليهم فلم يحضر، فبعثوا إليه فإذا هو مع " بيبرس " وسلار وقد حلف لهما على القيام معهما. فلما طلع النهار ظن السلطان أن بكتمر قد غدر به وترقب المكروه من الأمراء، وليس الأمر كذلك، وما هو إلا أنَّ سلار وبيبرس لما بلغهما الخبر خرجوا إلى دار النيابة بالقلعة، وعزم " بيبرس " أن يهجم على بكتمر ويقتله فمنعه سلار لما كان عنده من التثبت والتؤدة، وأشار بالإرسال إليه ويحضره حتى تبطل حركة السلطان. أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 170- 172.

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 180.

إبريل 1309م ولقب بالمظفر وعين سلار نائبًا للسلطنة، وذلك بعد أن تأكد للفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة أن الناصر محمدًا بن قلاوون خلع نفسه من السلطنة [1].

ثم كتب تقليدًا إلى الملك الناصر محمدًا بالإنعام عليه بالكرك والشوبك [2].

وقد أرسل " بيبرس " الجاشنكير عقب اعتلائه العرش إلى نائب الشام جمال الدين أقوش الأفرم يطلب منه القيام بأخذ البيعة له من أمراء المماليك وأن يطلب إليهم أن يقسموا له يمين الولاء والطاعة، وقد نجح جمال الدين أقوش الأفرم في أخذ البيعة من بعض الأمراء في حين توقف البعض الآخر ولم يذعن لحكم " بيبرس " الجاشنكير، إلا أن " بيبرس " نجح في استمالة هؤلاء المعارضين عن طريق توزيع الولايات والإقطاعيات والهبات عليهم [3].

وبالرغم من أن غالبية الأمراء في مصر والشام قد بايعت " بيبرس " الجاشنكير تحت تهديد القوة أو إغراء المال، إلا أن هوى الكثير منهم ظل مع ابن أستاذهم الناصر محمد بن قلاوون، كما أن الناصر قد استغل هذا التعاطف معه في

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 175- 179، المقريزي، السلوك، 2 / 33- 36، ابن كثير، البداية والنهاية، 14 / 47.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 /181، المقريزي، السلوك، 2 / 45- 46.

(3) لما أراد " بيبرس " أخذ البيعة من أمراء الشام عارض ذلك كبار الأمراء وعلى رأسهم الأمير قبجق، وقراسنقر وآسندمر وكانت حجة المعارضين قولهم: " إنا على أيمان ابن أستاذنا لا نخونه ولا نحلف لغيره ولا نواطئ عليه ولا نفسد ملكه، فكيف نحلف لغيره! والله لا يكون هذا أبدًا ودعوه يجرى ما يجري، وكل شيء ينزل من السماء تحمله الأرض، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم!... فضاق صدر المظفر وأرسل خلف الأمير سلار النائب وقص عليه القصة، فقال له سلار: هذا أمر هين ونقدر أن نصلح هؤلاء، فقال: وكيف السبيل إلى ذلك. قال: تكتب إلى قرا سنقر كتابًا وترقق له في الكلام، وأرسل إليه تقليدًا بنيابة حلب وبلادها، وأنه لا يحمل منه الدرهم الفرد، وكذا لقبجق بحماة، ولأسندمر بطرابلس والسواحل، فقال " بيبرس ": إذا فرقت البلاد عليهم ما يساوى ملكى شيئًا! فقال له سلار: وكم من أيد تقبل عن ضرورة وهى تستحق القطع! فاسمع منى وأرضهم في هذا الوقت؛ فإذا قدرت عليهم بعد ذلك افعل بهم ما شئت؛ فمال المظفر إلى كلامه وأمر أن يكتب بما قاله سلار لكل واحد على حدته، فكتب ذلك وأرسله مع بعض خواصه".
أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 238- 240.

استمالة أمراء الشام عن طريق كتابة الرسائل إليهم يذكرهم فيها بأنهم من مماليك أبيه، وأنه لطالما أحسن إليهم، وأجزل لهم العطايا والهبات وطلب إليهم أن يساعدوه في استعادة عرشه المسلوب، وأثار نخوتهم بالقول بأنهم إن لم يعينوه فإنه سوف يستعين بالمغول [1].

ولم يكن " بيبرس " بعيدًا عن تحركات الناصر محمد بن قلاوون بل كان على علم بها وأراد أن يتخلص منه، فعمل على إضعاف شوكته وأخذ يطالبه بما عنده من الخيل والمماليك، وما جمعه من أموال الكرك [2]، كما هدده بالنفى إلى القسطنطينية إن لم يلب طلبه، وقد أغراه من حوله من الأمراء المماليك بالتخلص من الناصر محمدًا ولكنه لم يجسر على هذه الخطوة[3].

---

(1) يقول المقريزي: " وكتب الناصر ملطفات إلى نواب الشام بحلب وحماة وطرابلس وصفد، وإلى أمراء مصر ممن يثق به. مما كان فيه من ضيق اليد وقلة الحرمة، وأنه لأجل هذا ترك ملك مصر، وقنع بالإقامة في الكرك، وأن السلطان الملك المظفر في كل قليل يرسل يطالبه بالمال ثم بالخيل ثم بالمماليك، وقال لهم: أنتم مماليك أبى وربيتموني. فإما أن تردوه عنى وإلا أسير إلى بلاد التتار وتلطف في مخاطبتهم غاية التلطف، وسير إليهم العربان بها فأوصلوها إلى أربابها. وكتب الأمير قبجق المنصورى نائب حماة الجواب: بأنى مع الأمير قراسنقر نائب حلب وكتب الأمير قراسنقر الجواب: بأبي مملوك السلطان في كل ما يرسم به وسأل أن يتوجه إليه أحد المماليك السلطانية، فبعث الناصر مملوكه أيتمش المحمدي، وكتب معه ملطفًا إلى الأمير سيف الدين قطلوبك المنصوري، والأمير بكتمر الحسامى الحاجب، بدمشق. وأما بكتمر الجوكندار نائب صفد فإنه طرد القاصد ولم يجتمع له.
المقريزي، السلوك، 2 / 56.

(2) يقول المقريزي: " بعث " بيبرس " الأمير مغلطاى إلى الملك الناصر، ليأخذ منه الخيل والمماليك التى عنده. وتغلظ مغلطاى في القول، فغضب الملك الناصر من ذلك غضبًا شديدًا، وقال له: أنا تركت ملك مصر والشام لبيبرس، وما يكفيه حتى ضاقت عينه على فرس عندى أو مملوك لي، ويكرر الطلب؟ ارجع إليه، وقل له: والله لئن لم يتركنى وإلا دخلت بلاد التتار، وأعلمتهم أنى قد تركت ملك أبى وأخى وملكى لمملوكي، وهو يتبعنى ويطلب منى ما أخفته. فجافاه مغلطاى وخشن في القول، بحيث اشتد غضب الملك الناصر وصاح به: ويلك! وصلنا إلى هنا؟ وأمر أن يُجرَّ ويُرْمَى من سور القلعة. فثار به المماليك يسبونه ويلعنونه، وأخرجوه إلى السور، فلم يزل الأمير أرغون الدوادار والأمير طغاى إلى أن عفا عنه الناصر وحبسه، ثم أخرجه ماشيًا إلى الغور، وامتعض مغلطاى عند ذلك مما حل به. المقريزي، السلوك، 2 / 56.

(3) المقريزي، السلوك، 2 / 56.

ونجح الناصر محمدًا في استمالة كثير من أمراء الشام إليه ومال إليه كثير من مماليك مصر، ثم سار الناصر محمدًا إلى دمشق في شعبان 709 هـ / يناير 1310م ودخلها وسط ترحاب من العامة والخاصة واجتمع إليه في دمشق كثير من أمراء المماليك منهم نائب حلب الأمير قراسنقر والأمير قبجق نائب حماة والأمير آسندمر كرجى نائب طرابلس، وتمر الساقى نائب حمص، فاستقبلهم وشكرهم على تأييدهم له والوقوف إلى جانبه (1).

فلما علم الملك المظفر في مصر بما جرى للملك الناصر محمدًا في دمشق والتفاف أمراء الشام حوله شعر بحرج موقفه فجمع الأمراء كلهم، واستشارهم فيما يفعل، فأشار الأمير " بيبرس " الدوادار المؤرخ والأمير بهادر آص بنزوله عن الملك والإشهاد عليه بذلك كما فعله الملك الناصر، " وتسير إلى الملك الناصر بذلك وتستعطفه، وتخرج إلى إطفيح بمن تثق به، وتقيم هناك حتى يرد جواب الملك الناصر عليك " فأعجبه ذلك، وقام ليجهز أمره، وبعث بالأمير ركن الدين " بيبرس " الدوادار المذكور إلى الملك الناصر محمدًا يعرفه بما وقع. وقيل: إنه كتب إلى الملك الناصر يقول مع غير " بيبرس " الدوادار: " والذى أعرفك به أنى قد رجعت أقلدك بغيك؛ فإن حبستنى عددت ذلك خلوة، وإن نفيتنى عددت ذلك سياحة، وإن قتلتنى كان ذلك لى شهادة " (2).

ولما رأى " بيبرس " انصراف الأمراء المماليك وعامة الناس عنه، طلب من الخليفة العباسى المستكفى أن يجدد له عهد البيعة ليوطد بذلك دعائم ملكه، ولكن هذا العمل لم يكن له أثر في نفوس أهل مصر لكراهيتهم لحكمه، وتعلقهم بالناصر محمدًا، أضف إلى ذلك استياء الأمير سلار نائب السلطنة من حكم " بيبرس " الجاشنكير (3).

ثم إن المظفر " بيبرس " الجاشنكير جمع ما أراده من مال وخيل واصطحب

---

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 68.

(2) المقريزي، السلوك، 2 / 71، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 271- 272.

(3) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 46.

مماليكه وخرج من القاهرة إلى أطفيح، و لما فارق القلعة أقام بإطفيح يومين؛ ثم اتفق رأيه ورأى الأمراء الذين معه على المسير إلى برقة، وقيل: بل إلى أسوان، فأصبح حاله كقول القائل:

موكـــل ببقـــاع الأرض يـــذرعها ::: من خفة الروع لا من خفة الطـــرب

ولما بلغ مماليك الملك المظفر هذا الرأى عزموا على مفارقته، فلما رحل من إطفيح رجع المماليك عنه شيئًا بعد شيء إلى القاهرة، فما وصل المظفر إلى إخميم حتى فارقه أكثر من كان معه؛ فعند ذلك انثنى عزمه عن التوجه إلى برقة، وتركه الخطيرى والفتاح وعادا نحو القاهرة. وبينما هو سائر قدم عليه الأميران: " بيبرس " الدوادار وبهادر آص من عند الملك الناصر ليتوجه إلى " بيبرس " الدوادار، فأخذ " بيبرس " المال وسار به في النيل إلى الملك الناصر وهو بقلعة الجبل؛ وقدم بهادر آص في البر بالملك المظفر " بيبرس " الجاشنكير؛ ثم انتهى به الحال إلى أن قتله الناصر محمدًا في ذى القعدة 709 هـ / أبريل 1310م [(1)].

(1) يقول أبو المحاسن بن تغري بردي: " ثم اضطربت أحوال المظفر وتحير، وقام ودخل الخزائن، وأخذ من المال والخيل ما أحب، وخرج من يومه من باب الإسطبل في مماليكه وعدتهم سبعمائة مملوك، ومعه من الأمراء: الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى الأستادار، والأمير بكتوت الفتاح، والأمير سيف الدين قجماس، والأمير سيف الدين تاكز في بقية ألزامه من البرجية، فكأنما نودى في الناس بأنه خرج هاربًا، فاجتمع العوام، وعندما برز من باب الإسطبل صاحوا به وتبعوه، وهم يصيحون عليه بأنواع الكلام، وزادوا في الصياح حتى خرجوا عن الحد، ورماه بعضهم بالحجارة. فشق ذلك على مماليكه وهموا بالرجوع إليهم ووضع السيف فيهم فمنعهم الملك المظفر من ذلك، وأمر بنثر المال عليهم ليشتغلوا بجمعه عنه؛ فأخرج كل من المماليك حفنة من الذهب ونثرها، فلم يلتفت العامة لذلك وتركوه وأخذوا في العدو خلفه وهم يسبون ويصيحون، فشهر المماليك حينئذ سيوفهم، ورجعوا إلى العوام فانهزموا منهم، وأصبح الحراس بقلعة الجبل في يوم الأربعاء سابع عشر شهر رمضان يصيحون باسم الملك الناصر، وأسقط اسم الملك المظفر بإشارة الأمير سلار بذلك؛ فإنه أقام بالقلعة ومهد أمورها بعد خروج المظفر إلى إطفيح. وفى يوم الجمعة تاسع عشر خطب على منابر القاهرة ومصر باسم الملك الناصر، وأسقط اسم الملك المظفر " بيبرس " هذا وزال ملكه.
أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 275.

العودة الثانية للناصر محمد بن قلاوون 709 - 741 هـ وسياسة الانتقام من معارضيه :

بالرغم من أن الأمور قد استقرت في مصر وأصبحت مهيأة لاستقبال الناصر محمدًا بن قلاوون إلا أنه لم يتعجل في العودة إلى مصر، بل ظل بعض الوقت في بلاد الشام يرتب أمور دولته هناك، حيث أقام في القصر الأبلق واجتمع إليه أمراء المماليك وأخذ منهم البيعة وقدموا له فروض الولاء والطاعة، وخلع على الكثير منهم ووهبهم الهبات والمنح الكثيرة وعفا عمن كان يناصبه العداء كالأمير الأفرم، وأقيمت الخطبة باسمه وأسقط اسم " بيبرس " الجاشنكير منها (1).

وبعد أن استقرت الأمور في بلاد الشام سار الناصر محمدًا بن قلاوون إلى القاهرة حيث استقبل استقبالاً حافلاً ورائعًا ودخل قلعة الجبل في أول شوال 709 هـ / مارس 1310م، وكان لعودة الناصر إلى عرش السلطنة رنة فرح كبيرة بين المصريين حيث أقيمت الزينات وألقيت الأشعار ابتهاجًا بهذه المناسبة، ومن أحسن ما قيل:

الملك عاد إلى حماة كما بدا ::: ومحمد بالنصر سر محمدا
وإيابه كالسيف عاد لغمده ::: ومعاده كالورد عاوده الندى
الحق مرتجع إلى أربابه ::: من كف غاصبه وإن طال المدى

ومنها:

يا وارث الملك العقيم هنه ::: واعلم بأنك لم تسد فيه سدى
عن خير أسلاف ورثت سريره ::: فوجدت منصبه السرى ممهدا
يا ناصرًا من خير منصور أتى ::: كمهند خلف الغداة مهندا
آنست ملكًا كان قبلك موحشًا ::: وجمعت شملاً كان منه مبددا

ومنها:

فالناس أجمع قد رضوك مليكهم ::: وتضرعوا ألا تزال مخلدا

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 260 / 265.

وتباركوا بسناء غرتك التي ::: وجدوا على نوار بهجتها هدى
الله أعطاك الذى لم يعطه ::: ملكًا سواك برغم أناف العدا
لا زلت منصور اللواء مؤيد إل ::: عزمات ما هتف الحمام وغردا [1]

على أن الأمر الذى يسترعى الانتباه هو أن الناصر محمدًا على إثر عودته إلى العرش، عمل على الانتقام من الأمراء الذين سلبوه كل سلطته وممن وقف إلى جوار المظفر " بيبرس " الجاشنكير، وكان أول شيء فعله هو أن أسند المناصب العليا في دولته ففوض نيابة السلطنة إلى سيف الدين بكتمر الجوكندار [2]، وقلد الأمير شمس الدين قراسنقر نيابة السلطنة بالشام [3]، كما ولى جمال الدين أقوش الأفرم ولاية صرخد، وولى الأمير سيف الدين قفجق نيابة حلب،

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 73، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة 4 / 24.

(2) بكتمر بن عبد الله الجوكندار، الأمير سيف الدين.
كان أحد الأمراء الذين يشار إليهم أيام سلار وبيبرس الجاشنكير، ثم إنهما عملا عليه وأخرجاه إلى قلعة الصبيبة نائبًا بها، فأقام هناك مدة، ثم نقل إلى نيابة صفد بعد موت الأمير سنقر شاه المنصوري، وكان في خدمته إذ ذاك ثمانمائة مملوك، حتى كان إذا ركب فيهم كانوا قريبًا من عسكر صفد؛ فأقام في نيابة صفد نحو سنتين.
فلما حضر الملك الناصر محمدًا بن قلاوون من الكرك، لاقاه إلى دمشق، وحضر معه إلى القاهرة؛ فجعله الملك الناصر نائب السلطنة بالديار المصرية.
وكان الملك الناصر يدعوه: يا عمي. وله ولد يسمى محمد، كان هو والسلطان لا يتفارقان، وكان السلطان يدعوه: يا أخي.
وكان فيه خير وبر للصلحاء، وحج حجة أنفق فيها شيئًا كثيرًا، وأعطى المجاورين بالحرمين الذهب والقمصان والقمح.
وكان لا يحب سفك الدماء؛ فكان في صفد إذا أحضروا القاتل ضربه ضربًا مبرحًا، قريبًا من السبعمائة عصا، ورماه في الحبس ويقول: الحى خير من الميت؛ فكثر الفساد في صفد وبلادها.
ولما كان السلطان في الكرك كان يكتب إليه وإلى ابنه ناصر الدين محمد كثيرًا ويخاطبه: يا أخى قل لعمى كذا، وطول روحك إلى أن يقدر الله لنا الخير. ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 282- 283.

(3) كان من كبار المماليك المنصورية وأجل أمرائهم، وقد ولى نيابة حلب والشام ثم حلب، وهو أحد من كان سببًا في قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون، وكان السبب لعود الملك الناصر محمدًا بن قلاوون إلى ملكه في مرة أخرى.

وأسند ولاية طرابلس والبلاد الساحلية إلى سيف الدين بهادر الحاج[1].

وما أن جلس السلطان الناصر محمدًا على عرش السلطنة وجاءته الوفود من القضاة والخليفة العباسى والفقهاء إلا وبدأ في توبيخهم على تأييدهم لبيبرس الجاشنكير ضده وأنبهم على ذلك وذكرهم بمواقفهم وفتواهم فيقول المقريزي: " وأصبحوا من الغد وقد جلس السلطان الملك الناصر على كرسى الملك وهو يوم الخميس ثانى شوال. وحضر الخليفة أبو الربيع سليمان والقضاة والأمراء وسائر أهل الدولة للهناء، فقرأ الشيخ شمس الدين محمد بن على بن موسى الداعي: " قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء " الآية، وأنشد بعض الشعراء هذه الأبيات: الطويل:

تهنــأت الــدنيا بمقدمــه الــذي ::: أضاءت له الآفاق شــرقًا ومغربــا
وأما ســرير الملــك فــاهتز رفعــة ::: ليبلغ في التشريف قصــدًا ومطلبــا
وتاق إلى أن يعلــو الملــك فوقــه ::: كما قد حوى من قبله الأخ والأبــا

وكان ذلك بحضرة الأمراء والنواب والعساكر ثم حلف السلطان الجميع على طبقاتهم ومراتبهم الكبير منهم والصغير.

ولما تقدم الخليفة ليسلم على السلطان نظر إليه وقال له: كيف تحضر وتسلم على خارجي، هل كنت أنا خارجيًا؟ وبيبرس من سلالة بنى العباس، فتغير وجه الخليفة ولا ينطق.

قلت: والخليفة هذا، كان الملك الناصر هو الذى ولاه الخلافة بعد موت أبيه الحاكم بأمر الله.

ثم التفت السلطان إلى القاضى علاء الدين على بن عبد الظاهر الموقع، وكان هو الذى كتب عهد المظفر " بيبرس " عن الخليفة، وقال له: يا أسود الوجه، فقال ابن عبد الظاهر من غير توقف: يا خوند، أبلق خير من أسود. فقال السلطان: ويلك حتى لا تترك رنكه أيضًا، يعنى أن ابن عبد الظاهر كان ممن

---

(1) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 49- 50.

ينتمى إلى سلار، وكان رنك سلار أبيض وأسود. ثم التفت السلطان إلى قاضى القضاة بدر الدين محمد، ابن جماعة وقال له: يا قاضي، كنت تفتى المسلمين بقتالي، فقال: معاذ الله أن تكون الفتوى كذلك، وإنما الفتوى على مقتضى كلام المستفتي. ثم حضر الشيخ صدر الدين محمد بن عمر بن المرحل وقبل يد السلطان، فقال له السلطان: كنت تقول في قصيدتك:

ما للصبى وما للملك يكفله

فحلف ابن المرحل بالله ما قال هذا، وإنما الأعداء أرادوا إتلافى فزادوا في قصيدتى هذا البيت، والعفو من شيم الملوك، فعفا عنه.

وكان ابن المرحل قد مدح المظفر " بيبرس " بقصيدة عرض فيها بذكر الملك الناصر محمدًا، من جملتها: هي من بحر البسيط:

ما للصبى وما للملك يكفله ::: شأن الصبى بغير الملك مألوف

ثم استأذن شمس الدين محمد بن عدلان للدخول على السلطان، فقال السلطان للدوادار، قل له: أنت أفتيت أنه خارجى وقتاله جائز، ما لك عنده دخول، ولكن عرفه هو وابن المرحل أنه، يكفيهما ما قال الشارمساحى في حقهما، وكان من خبر ذلك أن الأديب شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشارمساحى الماجن مدح السلطان الملك الناصر بقصيدة يهجو فيها المظفر " بيبرس " ويعرض لصحبته ابن المرحل وابن عدلان، منها: وهي من البسيط:

ولى المظفر لما فاته الظفر ::: وناصر الحق وافى وهو منتصر
وقد طوى الله من بين الورى فتنًا ::: كادت على عصبة الإسلام تنتشر
فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه ::: أثواب عارية في طولها قصر
لما تولى تولى الخير عن أمم ::: لم يحمدوا أمرهم فيها ولا شكروا
وكيف تمشى به الأحوال في زمن ::: لا النيل وافى ولا وافاهم مطر
ومن يقوم ابن عدلان بنصرته ::: وابن المرحل قل لى كيف ينتصر [1]

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 73.

ثم لما ظفر الناصر محمدًا " بيبرس " الجاشنكير ومثل بين يديه أخذ يعنفه ويوجه إليه كل صنوف اللوم والعتاب، ثم أمر بقتله ولم يعف عنه. يقول المقريزي: " فلما مثل المظفر بين يدى السلطان قبل الأرض، فأجلسه وعنفه بما فعل به، وذكره بما كان منه وعدد ذنوبه، وقال: تذكر وقد صحت على وقت كذا بسبب فلان، ورددت شفاعتى في حق فلان، واستدعيت نفقة في وقت كذا من الخزانة فمنعتها، وطلبت في وقت حلوى بلوز وسكر فمنعتني. ويلك! وزدت في أمرى حتى منعتنى شهوة نفسي، والمظفر ساكت. فلما فرغ كلام السلطان قال له: يا مولانا السلطان كل ما قلت فعلته، و لم تبق إلا مراحم السلطان. وإيش يقول المملوك لأستاذه. فقال له: يا ركن الدين أنا اليوم أستاذك، وأمس تقول لما طلبت أوز مشوى إيش يعمل بالأوز، الأكل هو عشرون مرة في النهار. ثم أمر السلطان به إلى مكان، وكان ذلك ليلة الخميس، فاستدعى بَوَضُوءٍ وصلى العشاء الآخرة. ثم جاء السلطان وأمر به فقتل [1].

وبعد أن تخلص الناصر محمد من " بيبرس " الجاشنكير، توجه تلقاء سلار، وبالرغم من أن سلار قد كفر عن سيئاته السابقة وقدم له خدمات جليلة، ويكفى أنه أقام الخطبة والسلطنة للناصر في غيبته بعد التخلص من " بيبرس "، ولكن على ما يبدو أن جرمه في حق الناصر كان أكبر من أن تذيبه مثل هذه الأعمال، أو أن الناصر أراد أن يتخلص من كل رجال الدولة السابقين حتى يصفو له حكم البلاد، ولذلك فإنه سرعان ما ألقى القبض على سلار وأودعه السجن حتى توفى فيه [2].

وكان من نتيجة سياسة الانتقام التى انتهجها الناصر محمدًا أن بدأ الأمراء وكبار رجال الدولة يشعرون بالخوف على أنفسهم أن تطالهم أيدى السلطان بالقتل أو السجن فبدؤوا يفكرون في الخلاص منه، فقد دبر الأمير سيف الدين بكتمر

---

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 80- 81.

(2) ابن إياس، تاريخ مصر، 1 / 156، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 51.

الجوكندار مؤامرة لخلع السلطان الناصر محمدًا وإقامة ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى بن الملك الصالح عليّ بن قلاوون على العرش، واستعان في ذلك بالمماليك المظفرية - أنصار الملك المخلوع المظفر " بيبرس " - ولكن الناصر محمدًا اكتشف المؤامرة وقبض على المتآمرين وزج بهم في السجون، وتتبع المظفرية وكاد أن يفتك بهم لولا تدخل البعض، ثم إنه عفا عنهم بعد ذلك [1].

ثم إن الأمير قراسنقر نائب السلطنة في بلاد الشام بدأ يشعر بالخوف من انتقام الناصر محمدًا بن قلاوون، وبدأ يشعر بالخطر أكثر بعد أن نقله الناصر محمدًا من نيابة دمشق إلى نيابة حلب، كما أن المماليك الأشرفية في عهد الناصر محمدًا ظلوا يوغرون صدره على قراسنقر لدوره في مقتل أخيه الأشرف خليل

(1) يقول المقريزي: " لما توحش خاطر الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطة بمصر من السلطان، وخاف منه، واتفق بكتمر مع الأمير بتخاص المنصورى على إقامة الأمير مظفر الدين موسى ابن الملك الصالح عليّ بن قلاوون في السلطنة، والاستعانة بالمظفرية، وبعثوا إليه بذلك فوافقهم.
وشرع النائب في استمالة الأمراء، ومواعدة المماليك المظفرية الذين بخدمة الأمراء، على أن كل طائفة تقبض على الأمير التى هى بخدمته في يوم عينه لهم، ثم يسوق الجميع إلى قبة النصر خارج القاهرة، وقد نزل هناك الأمير موسى.
فدبروا ذلك حتى انتظم الأمر، ولم يبق إلا وقوعه، فأراد " بيبرس " الجمدار أحد المظفرية الذين انتظموا في سلك هذا العقد أن يتخذ يدًا عند السلطان، وعرف خوشداشيته قياتمر الخاصكى بما وقع الاتفاق عليه، فبلغ الخبر إلى السلطان، وكان في الليل، فلم يتمهل السلطان، وطلب أمير موسى إلى عنده، وكان يسكن بالقاهرة، فلما نزل إليه الطلب هرب. واستدعى السلطان الأمير بكتمر النائب، وبعث أيضًا في طلب بتخاص، وكانوا إذ ذاك يسكنون بالقلعة، فلما دخل إليه بكتمر أكرمه وأجلسه وأخذ يحادثه حتى أتاه المماليك بالأمير بتخاص فسقط في يد بكتمر، وعلم بأنه قد هلك، فقيد بتخاص وسجن، وأقام السلطان في انتظار أمير موسى، فعاد إليه الجاولى ونائب الكرك وأخبراه بفراره، فاشتد غضبه عليهما وقبض على حواشى موسى وجماعته وعاقب كثيرًا منهم. فلم يزل الأمر على ذلك من ليلة الأربعاء إلى يوم الجمعة، ثم قبض عليه من بيت أستادار الفارقانى من حارة الوزيرية بالقاهرة، وحمل إلى القلعة فسجن بها. ونزل الأمراء إلى دورهم، وخلى عن الأمير بكتمر النائب أيضًا، ورسم بشمير أستادار الفارقاني، ثم عفى عنه وسار إلى داره.
وتتبع السلطان المماليك المظفرية فقبض عليهم، وفيهم " بيبرس " الذى نم عليهم وعملوا في الحديد. وأنزلوا ليسمروا تحت القلعة، وقد حضر نساؤهم وأولادهم، وجاء الناس من كل موضع، فكثر البكاء والصراخ عليهم رحمة لهم، والسلطان ينظر، فأخذته الرحمة وعفا عنهم، فتركوا ولم يقتل أحد منهم. المقريزي، السلوك، 2 /95- 100.

بن قلاوون، ووجد ذلك هوى في نفس الناصر محمدًا ورغبة في الانتقام كانت تسيطر عليه، فبدأ يتغير على قرا سنقر بدليل نقله من نيابة دمشق إلى نيابة حلب [1].

وعلى مايبدو أن قراسنقر قد احتاط لنفسه مما عسى أن يفعله به الناصر محمدًا ففر بنفسه من بطش وانتقام الناصر محمدًا إلى بلاد المغول وقد اصطحبه بعض الأمراء منهم الأمير أقوش الأفرم نائب طرابلس وبلاد الساحل، حيث كانوا محل ترحيب في البلاط المغولى ومن جانب أوليجاتو إيلخان المغول في فارس [2].

ولما اتصل بالناصر محمدًا نبأ خروج قراسنقر عليه اتهم بعض الأمراء بممالأته، وألقى القبض على نائب الشام وعلى " بيبرس " الدوادار نائب السلطنة في مصر، كما قلد نيابة دمشق تنكز الحسامى الناصرى سنة 712 هـ ثم ولاه جميع البلاد الشامية، وكتب إلى نائب حماة وحمص وطرابلس وصفد بالرجوع إليه في مهام أمورهم وزاده في ألقابه: الزاهدي، العابدي، العالمي، كافل الإسلام، أتابك الجيوش [3].

وبالرغم من أن تنكز كان من أقرب المقربين إلى الناصر محمدًا وارتبط به برباط المصاهرة حيث تزوج ابنة تنكز، وعقد على اثنتين من بناته لولدى تنكز سنة 739 هـ، وبالرغم من ذلك كان الناصر يتوجس خيفة ويشك في كل من حوله وتدفعه رغبة الانتقام في التخلص حتى من أقرب المقربين إليه، فسرعان ما انقلب على تنكز وعهد إلى بعض الأمراء القبض عليه وأقصاه من جميع مناصب الدولة التى كان يتقلدها، ثم تخلص منه في النهاية [4].

---

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 99- 100.
(2) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 9 / 3.
(3) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 52.
(4) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 52.

الحرب مع المغول:

لما فَرَّ قراسنقر والأفرم إلى بلاد المغول وعدد من الأمراء المماليك، رحب بهم أوليجاتو ورتب لهم الرواتب السنية ثم استقبل كلاً منهما على انفراد حيث حسن له قراسنقر عبور الشام وهان عليه أمر الناصر محمدًا، أما الأفرم فإنه حسن له أخذ بلاد الشام ولكن حذره من قوة الناصر محمدًا وكثرة عساكره.

وقد كافأ أوليجاتو هذين الأميرين على المعلومات التى أدليا بها إليه عن حال دولة المماليك، فمنح قراسنقر ولاية مراغة، وأقطع همذان للأفرم (1).

وبهروب هؤلاء الأمراء إلى أوليجاتو وتحريضهم له على غزو بلاد الشام، قويت الرغبة داخله في تنفيذ هذه الخطة، ومما قوى عزمه أيضًا أن الناصر محمد كان قد عزل الأمير مهمنا ابن عيسى من نيابة ورئاسة الأعراب فأغضبه ذلك ولحق بأوليجاتو وشجعه وحرضه على غزو بلاد الشام، وتحرك خدابندا

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 115، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 204، ويقول المقريزي، عن نهاية هذين الرجلين " : ومات الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نائب حلب، ببلاد المراغة، وقد أقطعه إياها أبو سعيد بن خربندا. وكان موته بمرض الإسهال وقد أعيا الملك الناصر قتله، وبعث إليه كثيرًا من الفداوية، فصانه الله منهم، بحيث قُتل من الفداوية بسببه نحو مائة وأربعة وعشروين فداويًّا. ولما بلغ السلطان الناصر محمدًا موته قال: وا لله ما كنت أشتهى موته إلا من تحت سيفي، وأكون قد قدرت عليه وبلغت مقصودى ولكن الأجل حصين.
وكانت له مع الفداوية أخبار طويلة: منها أن السلطان الناصر محمدًا أعطى يونس التاجر مالاً كثيرًا، وبعثه إلى توريز ليتخذ له بها أصحابًا يثق بهم حتى يرد إليه الفداوية فيأوا عنده، وعرف يونس بمقاصده. ثم إن السلطان تلطف مع صاحب مصياف، وبذل له مالاً كثيرًا حتى ندب له من الفداوية طائفة. فبعثهم السلطان إلى يونس فأواهم وأعلمهم بالغرض، فانتظروا وقتًا يصلح للوثوب مدة أيام إلى أن ركب النوين الكبير جوبان يريد مدينة توريز، وركب آقوش الأفرم وقراسنقر إلى جانبيه.
فخرج اثنان من الفداوية، أحدهما للأفرم والآخر لقراسنقر، فبدر أحدهما وضرب آقوش الأفرم، فاتقى الضربة بيده، وكان عليه قرضية، فانشق كمه وجرحت يده، وجبن الآخر عن قراسنقر، لقتل الفداوي. ووقع الحذر، وكبست الفنادق والخانات بتوريز، وقبض على يونس، فقام الوزير ناصر الدين خليفة بن خواجا على شاه معه حتى تخلص من القتل. ولم يصب قراسنقر بسوء، وعولج الأفرم حتى برئ من جراحته واحترسا على أنفسهما.
المقريزي، السلوك، 2 / 115.

بقواته نحو الشام، فعلم الناصر بذلك فجمع الجيش واستعرض قواته وكتب إلى نواب الشام بالاستعداد، وسار بالقوات إلى الشام حتى لم يبق بمصر أحد من العساكر، وبينما كان الناصر في طريقه بالقوات إلى الشام وردت الأخبار بأن المغول توجهوا بقواتهم إلى الرحبة، ثم تركوها وعادوا إلى بلادهم - بعد حصار قصير - في ليلة السادس والعشرين من رمضان 712هـ / يناير 1313م، وكان من سبب عودتهم قلة العلف اللا زم لدوابهم وغلاء الأسعار وموت الكثير منهم بسبب البرودة القارصة، وذكر أيضًا أن نجمة خاتون محظية الملك خدابندا ومغنيته كانت معه في حصار الرحبة، وطلبت من خدابندا الرحيل وترك الرحبة لأنها ضجرت من هذا المكان فاستجاب لها [1] ومن ثم عول السلطان على الذهاب إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج بعد أن أمر نائبه الأمير سيف الدين أرغون ووزيره أمين الدين بجمع الأموال من دمشق [2].

على أن المغول ما لبثوا أن اشتبكوا مع المماليك في حرب سنة 715 هـ / 1315م في ماردين، ويرجع السبب في ذلك إلى أن نائب حلب كان قد عهد إلى الأمير شهاب الدين قرطاى بالذهاب إلى ماردين لإخضاع واليها الذى خالف أوامر السلطان الملك الناصر محمد - وكان للمغول أموال سنوية يحصلون عليها من هذه الجهة - فصادف وجودهم وجود قرطاي، ومن ثم رأى هذا الأمير أن يحاربهم، فاشتبك معهم في حرب، انتهى الأمر فيها بقتل بعضهم وأسر البعض الآخر، وسيق الجميع إلى حلب، ولما علم السلطان بذلك سُرَّ سرورًا عظيمًا وأرسل الخلع والهدايا لنائب حلب وقرطاى [3].

ولما توفى أوليجاتو سنة 716 هـ / 1316م خلفه ابنه أبوسعيد وهو في الثالثة عشرة من عمره، وقد آلت الوصاية عليه إلى الأمير جوبان الذى أصبح أميرًا

---

(1) ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص 245- 246، 253، ابن كثير، البداية والنهاية، 14 /66- 67.

(2) المقريزي، السلوك، 2 / 119، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 34- 35 محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 205.

(3) المقريزي، السلوك، 2 / 147، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 205.

للأمراء، بينما اشترك عليّ شاه مع رشيد الدين فضل الله في الوزارة، وكان بداية عهد أبوسعيد هذا مع المماليك طيبة إذ تحسنت العلاقات بين أبي سعيد والناصر محمد وذلك لأسباب عدة منها: أنه في سنتى 1318 - 1319م نزل ببلاد آسيا الصغرى قحط ومجاعة، ثم تلتها الأعاصير والزوابع مما أثار فزع أبي سعيد، فاستشار علماء الدين في سبب تلك الشدائد، فأخبروه بأن السبب ما انتشر في البلاد من فساد وموبقات وشرب للخمر، فأمر أبو سعيد بغلق الحانات وإصلاح أحوال البلاد، وأظهر الدين الإسلامى والمذهب السني، على وجه الخصوص، مما كان له أكبر الأثر في تحسين العلاقات بين الدولة المغولية ودولة المماليك، وجنح الفريقان إلى السلم وتركوا القتال: بالإضافة إلى ضعف دولة أبى سعيد واضطراب أحوالها، ووقوع الفتنة بين المغول بسبب تحكم جوبان في أبى سعيد، وعجز الأخير عن القبض عليه، وقتل بسبب هذه الاضطرابات والفتنة كثير من الأمراء المغول والجنود والأتباع، وانتصر أبو سعيد على خصمه فَسَّر بذلك السلطان الناصر محمد لما فيه من انقسام صفوف المغول وانشغالهم بمشاكلهم الداخلية [1].

وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون ما زال يحمل العداوة للمغول إلى حد كبير، حتى إنه أرسل سنة 720 هـ ثلاثين رجلاً من طائفة الحشاشين [2] في سوريا إلى فارس من أجل اغتيال قراسنقر حاكم مراغة - الذى سبق وأن فر من قبضة الناصر محمد ولجأ إلى المغول فولوه المراغة -، وعلى الرغم من فشل المحاولة فإنها أخافت المغول إلى حد كبير، فقد ذاع بينهم أن هؤلاء الإسماعيلية حضروا لقتل السلطان أبي سعيد وجوبان والوزير عليّ شاه، وقراسنقر وأمراء المغول، فاحتجب أبو سعيد في خيمته خوفًا على نفسه، كما أنكر جوبان على مجد الدين إسماعيل السلامى [3] الذى كان يقوم بالسفارة

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 184، ابن كثير، البداية والنهاية، 14 / 93- 94، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول والمماليك، ص 187.

(2) للمزيد من المعلومات عن هذه الطائفة راجع كتابنا " تاريخ التطرف الشيعى ".

(3) عرف بخواجا مجد الدين السلامي: إسماعيل بن محمد بن ياقوت الخواجا مجد الدين السلامى أحد

للسلطان الملك الناصر محمدًا بن قلاوون هذه المؤامرة وهدده بالقتل وقال له: ويلك لك؟ أنت كل قليل تحضر إلينا هدية، وتريد منا أن نكون متفقين مع صاحب مصر، لتمكر بنا حتى تقتلنا الفداوية والإسماعيلية " وهدده أنه يقتله شر قتلة، ورسم عليه، فقام معه الوزير عليّ شاه حتى أفرج عنه [1].

وبالرغم من هذا التوتر الذي أصاب العلاقات فيما بين الدولتين إلا أن مساعى الصلح التى بذلها مجد الدين إسماعيل السلامى وجوبان قد أثمرت عن اتفاق للسلام بين كلا الدولتين وكلا الرجلين وهما، أبو سعيد حاكم المغول والناصر محمدًا بن قلاوون سلطان المماليك وكان أن أرسل أبو سعيد إلى الناصر محمدًا بن قلاوون طالبًا إجراء الصلح وإحلال السلام مع المماليك ولكن بشروط منها:

1 - ألا يدخل الإسماعيلية بلاد المغول.

2 - لا يرد أى فرد قدم من مصر إلى بلاد المغول.

3 - من يفد إلى مصر من المغول لا يرد إلى بلده إلا برضائه.

4 - ألا يعهد سلطان مصر إلى العرب أو التركمان بالإغارة على بلاد

التجار في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان يدخل إلى بلاد التتار ويتجر ويعود بالرقيق وغيره، واجتهد مع جوبان إلى أن اتفق الصلح بين الملك الناصر وبين القان أبى سعيد، فانتظم ذلك بسفارته وحسن سعيه فازدادت وجاهته عند الملكين، وكان الملك الناصر يسفره ويقرّر معه أمورًا فيتوجه ويقضيها على وفق مراده بزيادات، فأحبه وقرّبه ورتب له الرواتب الوافرة، في كل يوم من الدراهم واللحم والعليق والسكر والحلواء والكماج والرقاق مما يبلغ في اليوم مائة وخمسين درهمًا، عنها يومئذٍ ثمانية مثاقيل من الذهب، وأعطاه قرية أراك ببعلبك، وأعطى مماليكه إقطاعات في الحلقة، وكان يتوجه إلى الأردن ويقيم فيه الثلاث سنين والأربع والبريد لا ينقطع عنه، وتُجهَّز إليه التحف والأقمشة ليفرّقها على من يراه من الخواص أبى سعيد وأعيان الأردن، ثقة بمعرفته ودرايته، ولما مات الملك الناصر قلاوون تغير عليه الأمير قوصون وأخذ منه مبلغًا يسيرًا، وكان ذا عقل وافر وفكر مصيب وخبرة بأخلاق الملوك وما يليق بخواطرها ودراسة بما يتحفها به من الرقيق والجواهر، ونطق سعيد وخلق رضى وشكالة حسنة وطلعة بهية، ومات في داره من درب السلامى يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، ودفن بتربته خارج باب النصر، ومولده في سنة إحدى وسبعين وستمائة بالسلامية، بلدة من أعمال الموصل. المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 183.

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 209.

المغول.

5 - أن يكون الطريق بين دولة المغول في فارس ودولة المماليك خاليًا من الموانع التى تعوق سير التجارة بين الدولتين.

6 - أن يسير المحمل كل عام من العراق إلى الحجاز رافعًا علم سلطان مع علم أبوسعيد.

7 - ألا يسعى سلطان مصر في القبض على الأمير قراسنقر حاكم مراغة [1].

فجمع السلطان الناصر محمدًا بن قلاوون الأمراء واستشارهم في ذلك بعدما قرأ عليهم كتاب أبى سعيد فاتفق الرأى على عقد الصلح بالشروط المذكورة، ومن أسباب ذلك الصلح أن جوبان مدبر دولة أبى سعيد كان مسلمًا وأن السلطان الناصر يرغب في منع الخارجين عليه من الدخول في خدمة المغول وتحريضهم على غزو الشام وقتال المسلمين [2]، وعقدت الهدنة بينهما لمدة عشر سنين وعشرة أيام وتوقفت العلاقات من أجل ذلك حتى اعترف كل منهما راية الآخر في الحج [3] وجهزت الهدايا لأبى سعيد بما قيمته أربعون ألف دينار [4]، وصار يدعى لأبى سعيد بعد الملك الناصر محمدًا بن قلاوون على منابر مكة، وحدث أن أرسل الناصر محمدًا رسله ومعهم كتاب يطلب من التتار ألا يمكن عرب آل عيسى من دخولهم العراق لخروجهم على طاعة الملك الناصر محمدًا واعتدائهم على رسل أبى سعيد وسرقتهم للهدية في هذه المرة وأن العسكر خرجوا لقتالهم، ثم سافر المجد السلامى إلى التتار ليبشرهم بعودة الرسل وكتب لصاحب مكة بإكرام حجاج العراق والدعاء لأبى سعيد بعد الملك

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 209- 210، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 207، فايد حماد عاشور، ص 188.
(2) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول ودولة المماليك، ص 189.
(3) ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص 313، المقريزي، السلوك، 2 / 210، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول ودولة المماليك، ص 189.
(4) المقريزي، السلوك، 2 / 210، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول ودولة المماليك، ص 189.

الناصر محمدًا في منابر مكة، ونادى أبو سعيد في بلاده بالحج وانتشر العدل في بلاده وأراق الخمور ورفع شهادة الإسلام وعمر المساجد والجوامع [1].

وقد تبدلت علاقات العداوة والبغضاء بين الدولتين إلى علاقة من الوئام والسلام وتبودلت الرسائل والهدايا فيما بينهم، وكان من أثر تلك العلاقة الطيبة بين الدولتين أن أصبح الحجيج آمنين على أنفسهم وأموالهم من شر اعتداء الأعراب عليهم أثناء الطريق فيقول المقريزي: " اعتنى أبو سعيد بأمر حجاج العراق عناية تامة، وغشى المحمل بالحرير ورصعه باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر، وجعل له جترًا ينصب عليه إذا وضع. فلما مر ركب العراق بعرب البحرين خرج عليهم ألف فارس يريدون أخذهم، فتوسط الناس بينهم على أن يأخذوا من أمير الركب ثلاثة آلاف دينار، فلما قيل لهم: إنما جئنا من العراق بأمر الملك الناصر صاحب مصر وكتابه إلينا بالمسير إلى الحجاز أعادوا المال، وقالوا: " لأجل الملك الناصر نخفركم بغير شيء "، ومكنوهم من المسير. فبلغ ذلك السلطان فَسُرَّ به، وبالغ في الإنعام على العربان. وكان السلطان قد بعث إلى أمراء المغل وأعيانهم الخلع، فلما انقضى الحج خلع عليهم الأمير أرغون النائب، ودعا لأبى سعيد بعد الدعاء للسلطان بمكة " [2].

وتخطت العلاقات بين الدولتين حدود السياسة إلى حد الرغبة في المصاهرة السياسية، فقد تزوج الأمير أبو بكر بن الأمير أرغون النائب على بنت السلطان، وتولى العقد قاضى القضاة شمس الدين الحريرى الحنفي، على أربعة آلاف دينار [3].

وفى تلك الأثناء حدث أن بلغ أبوسعيد سن الحادية والعشرين من عمره ولم يكن له من الحكم إلا الاسم في حين كان نائبه جوبان يسيطر على مقاليد الأمور

---

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 210، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول ودولة المماليك، ص 189.
(2) المقريزي، السلوك، 2 / 214- 215.
(3) المقريزي، السلوك، 2 / 283- 284.

داخل دولة المغول وصل به الحد أنه بدأ يوزع المناصب العليا بين أبنائه فأناب ابنه دمشق خواجا على الجيش وعين ابنه الثاني دمرداش حاكمًا على آسيا الصغري، وبلغ من تضييق جوبان على أبي سعيد أنه كان يطلب المال منه ولا يعطيه إياه [1].

غير أن أبا سعيد يتطلع إلى ممارسة سلطاته ويتخلص من سيطرة جوبان عليه وينهى استئثاره بمقاليد الحكم دونه، فحاول القبض على جوبان حين خروجه مع ابنه حسين بالجيش إلى الحدود الشرقية لصد هجمات مغول بلاد ماوراء النهر على خراسان، ولكنه قبض على حاكم دمشق خواجا وقتله سنة 727 هـ / 1327م وبعث في القبض على جوبان ولكنه فشل.

وأصبح العداء سافرًا بين أبي سعيد ونائبه جوبان بعد أن أدرك جوبان مدى العداء الذى يكنه له أبو سعيد، وأراد أن يقصيه عن حكم بلاد مغول فارس فأحضر شخصًا من نسل جنكيزخان يسمى ساؤور ونصبه على بلاد المغول يقصد بذلك خلع أبي سعيد من منصبه، وجمع جيشًا مكونًا من سبعين ألف مقاتل لقتاله والتقى بأبي سعيد، وكادت الدائرة تدور على أبي سعيد لولا خيانة بعض أتباع جوبان وانضمامهم إلى أبي سعيد فمالت الكفة من جديد إلى أبي سعيد فهزم جوبان واضطره إلى الفرار من أرض المعركة وانتهى به المطاف إلى أن قتل وسنة 728 هـ، وفر ساؤور ولم يعرف مصيره [2].

وفى تلك الأثناء كان دمرداش ابن جوبان قد أخضع آسيا الصغرى لحكمه، وبدأ يستبد بالأمور فيها، وصار يضيق على تجار المماليك ومنع إرسال الرقيق إلى أمراء المماليك في مصر، كما أنه أساء معاملة رسل الناصر محمد الذين أرسلهم إليه، وضيق على التجار المصريين والشاميين، ثم إن الناصر محمد أراد أن يستميل دمرداش بن جوبان إليه - حفاظًا على مصالحه ومصالح دولته

(1) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 209.

(2) ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص 346، المقريزي، السلوك، 2 / 292.

- فأخذ يخادعه ويترضاه ويهاديه، إلى أن بدأ يميل إليه و أرسل كتابًا إلى الناصر محمد يعلن فيه دخوله في طاعته ويستأذنه في القدوم عليه بعساكره ليكون نائبًا له على آسيا الصغرى [1].

ولم يمض وقت طويل على مقدم دمرداش إلى مصر، حيث ألقى القبض عليه وأودعه السجن هو وعدد من أتباعه من الأمراء الذين جاؤوا بصحبته، حيث تبين للناصر محمد سوء نيته في السيطرة على عرش مصر بالقوة، وكان الذى حدث أن الناصر محمد أرسل بدر الدين محمود ملك دولة بنى قرمان [2] في طلب أسرة دمرداش من القلعة التى تركهم فيها دمرداش ليأتوا إلى مصر ليشملهم برعايته وكرمه، فرفضوا وآثروا البقاء في بلادهم وقالوا: لا حاجة لنا في مصر، ثم إن بدر الدين محمودًا أوغر صدر الناصر محمدًا على دمرداش وأرسل إليه يقول له؛ أن دمرداش هو الذى منع أولاده من القدوم إلى مصر، وأنه - دمرداش - ما قدم إلى مصر إلا ليستولى على ملكها بالقوة.

يقول المقريزي: " وفيه عاد جواب ابن قرمان بأنه ركب إلى القلعة التى فيها أهل دمرداش، وعرفهم أنه حفر. بمرسوم السلطان، وبعث إليهم بكتاب دمرداش أنهم يقدمون عليه بمصر، فردوا جوابه: لا حاجة لنا في مصر. وذكر ابن قرمان أن هذا بمباطنة دمرداش لهم، وحصل عليه بأنه سفك دماء كثيرة، وقتل من المسلمين عالمًا عظيمًا، وأنه جسور وما قصد بدخوله مصر إلا طمعًا في ملكها. وبعث ابن قرمان الكتاب مع نجم الدين إسحاق الرومى حاكم أنطالية، وهى القلعة التى أخذها منه دمرداش وقتل والده، وأنه قدم ليطالبه بدم أبيه. فلما وقف السلطان على الكتاب تغير، وطلب دمرداش وأعلمه بما فيه.

---

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 292- 293، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 210.

(2) قامت هذه الدولة في جنوب غرب آسيا الصغرى في، أواسط القرن السابع الهجري. ومؤسسها هو قرمان ابن صوفى المتوفى سنة 620 هـ / 1261م، القلقشندي، صبح الأعشي، 5 / 365، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 211.

وجمع السلطان بينه وبين إسحاق، فتحاققا بحضرة الأمراء، فظهر أن كلا منهما قتل لصاحبه قتيلاً، فكتب جواب ابن قرمان معه وأعيد. وقد تبين للسلطان خبث نية دمرداش، فقبضه وأمسك من معه من الأعيان، وهم محمود شاهنشاه وعدد آخر في يوم الخميس العشرين من شعبان، واعتقل دمرداش ببرج السباع من القلعة، وفرق البقية في الأبراج، وفرقت مماليكه على الأمراء، ورتب له ما يكفيه " [1].

وكان الخطأ الذى وقع فيه دمرداش أنه أسرف في تقديم الهدايا والهبات إلى الأمراء المماليك، بقصد أن يضمن ولاءهم ويضم ويحقق عن طريقهم أطماعه حين تسنح الفرصة، ثم أخذ ينتقد الناصر محمدًا ويتنقص من قدره، حتى مالت إليه قلوب الأمراء المماليك، فخشى الناصر محمدًا من ذلك، كما أنه اشتغل بالوقيعة والفتنة بين الأمراء حتى أوقع بينهم العداوة والبغضاء؛ يقول المقريزي: "... وكان للقبض على دمرداش أسباب: منها أنه كان له بالروم مائة ألف رأس من الغنم، فلما وصلت أطلق منها للأمير بكتمر الساقى عشرين ألفًا، ولقوصون وبقية الأمراء كل واحد شيئًا حتى فرق الجميع، فلم يعجب السلطان ذلك. ودخل دمرداش يومًا الحمام فأعطى الحمامى ألف درهم، والحارس ثلاثمائة، فزاد حنق السلطان منه. ثم أخذ دمرداش يوقع في الأمراء والخاصكية، ويقول: هذا كان كذا، وهذا كان كذا، وهذا ألماس الحاجب كان حمالاً، فما حمل السلطان هذا منه " [2]. ثم كان جواب ابن قرمان الذى أكد شكوك الناصر محمد في دمرداش، فتحققت شكوكه فأمر بالقبض عليه، ولم يكد أبو سعيد إيلخان فارس بما حدث حتى سفاره إلى السلطان الناصر محمد يحمل كتابًا يتضمن رغبته في إنفاذ دمرداش إليه، على أن يرسل إليه في مقابل ذلك الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، فمال السلطان إلى تحقيق هذه الرغبة في أول الأمر، لكنه ما لبث أن عدل عن ذلك وعول على قتله حتى لا تشفع له

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 297.
(2) المقريزي، السلوك، 2 / 297.

أخته بغداد خاتون [1] والوزير غياث الدين بن رشيد عند أبي سعيد، فأمر بشنقه يوم الخميس 4 شوال سنة 728 هـ / 22 أغسطس سنة 1328م ثم حنط رأسه وأرسل به إلى أبي سعيد[2].

وقد تحسنت العلاقات بين المغول ودولة المماليك في عهد الناصر محمد بن قلاوون وأبي سعيد حتى لقد قال أبو المحاسن بن تغري بردي: " وأما أبو سعيد ملك التتار فكانت الرسل لاتنقطع بينهما، ويسمى كل منهما الآخر أخًا. وكانت الكلمتان واحدة، ومراسيم الملك الناصر تنفذ في بلاد أبي سعيد، ورسله يتوجهون. إليه بأطلابهم وطبلخاناتهم بأعلامهم المنشورة " [3].

ولما وصل إلى الناصر محمد أن الأرمن قاموا ببعض غارات على الحدود السورية، سير إليهم عدة جيوش من القاهرة ودمشق وطرابلس وحماة، وعهد إلى علاء الدين الطنبغا [4] نائب حلب بقيادتها سنة 737 هـ / 1337م فأوغلت هذه الجيوش في بلاد أرمينية وظلت تحاصر بلدة إياس حتى قدم رسول الأرمن من دمشق ومعه كتاب من النائب الشام

---

(1) بغداد بنت النوين جوبان زوج أبي سعيد كانت أولاً زوج الشيخ حسن وكان أبو سعيد يعشقها وكان أبوها يفهم ذلك فلا يمكنها من دخول الأردو فلما هرب جوبان وقتل أخوها وهرب الآخر إلى مصر اغتصبها أبو سعيد من زوجها وصارت عنده في أعلى مكانة، ويقال: إنه لم تكن في تلك البلاد أحسن منها، وصار لها في جميع الممالك الكلمة النافذة، وكانت تركب في مركب حفل من الخواتين، وتشد في وسطها السيف فلم تزل على علو منزلتها إلى أن مات أبو سعيد فقتلت بعده وذلك في سنة 736. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، 1 / 166.

(2) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص 211.

(3) النجوم الزاهرة / 9 / 211.

(4) الأمير علاء الدين الطنبغا الصالحى نائب دمشق، وهو أحد المماليك المنصورية قلاوون، وربى عند السلطان الناصر محمد، وتوجه معه إلى الكرك.
فلما عاد الناصر إلى السلطنة أنعم عليه بإمرة، وعمله جاشنكيره، ثم ولاه حاجبًا، ونقله من الحجوبية إلى نيابة حلب، بعد موت أرغون النائب، فسار سيرة مشكورة. ثم عزله السلطان الناصر في سبيل رضا الأمير تنكز، وأقدمه إلى مصر، ثم ولاه غزة. ثم ولاه قوصون نيابة الشام، وآل أمره إلى أن مات مسجونًا بالإسكندرية. وكان أميرًا شابًّا لطيف الذات، حسن الشكل، كريم الأخلاق مشهورًا بالشجاعة والكرم. وهو صاحب الجامع المعروف به خارج باب زويلة.
المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، 240/2.

يطلب فيه من قائد جيوش المماليك الكف عن محاربتهم، على أن يتسلم البلاد والقلاع الممتدة إلى نهر جيحون، فأوقف نائب حلب الحرب وتسلم هذه البلاد من الأرمن [1].

وعلى الرغم مما أصاب أهل أرمينية من الذل والهوان، فإن دولتهم ظلت قائمة، كما عجز المماليك في عصر الناصر محمدًا بن قلاوون عن توطيد نفوذهم في أراضي هذه الدولة، فظلوا يهاجمون بلادهم ويشنون عليهم الغارات سنة بعد سنة حتى تمكن الأمير أشقتمر الماريدني[2] - نائب حلب - من قبل السلطان الأشرف شعبان سنة 776

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، 4 / 99، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 211.

(2) إشِقِتمر بن عبد الله الماردينى الناصري، الأمير سيف الدين.

أحد أعيان الأمراء الأكابر في عدة دول، أصله من مماليك صاحب ماردين، وبعثه إلى الملك الناصر حسن فرباه الناصر وأدبه، وكان يعرف ضرب العود ويحسن قول الموسيقى، ويعرف عدة فنون، ولما رأى منه الناصر حسن الحزم والمعرفة قربه وأدناه وأمره، ثم تنقل بعد موت أستاذه السلطان حسن في عدة وظائف إلى أن ولاه الملك الأشرف شعبان بن حسين نيابة حلب بعد وفاة الأمير قطلوبغا الأحمدي، فباشرها نحوًا من سنة ونصف، وعزل عنها في شهر رجب في سنة ست وستين بالأمير جرجى الناصرى الإدريسي، ثم ولى نيابة طرابلس عوضًا عن الأمير قشتمر المنصورى بحكم إحضاره إلى القاهرة فدام في نيابة طرابلس إلى أن أعيد إلى نيابة حلب عوضًا عن قشتمر المنصورى أيضًا في سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، وولى من بعده نيابة طرابلس الأمير أيدمر الدوادار، فباشر نيابة حلب سنتين، وعزل في سنة ثلاث وسبعين عنها بالأمير أيدمر الدوادار، وأعيد إلى نيابة طرابلس والسواحل عوضًا عن الأمير أيدمر المذكور، ثم أعيد إلى نيابة حلب مرة ثالثة عوضًا عن أيدمر في سنة أربع وسبعين، ثم عزل عن نيابة حلب سنة خمس وسبعين بالأمير بيدمر الخوارزمى وولى نيابة الشام، فباشر نيابة الشام أربعة أشهر، وعزل وأعيد إلى نيابة حلب، وفى هذه الولاية الرابعة أقام مدة، وغزا " سيس " وفتحها في سنة ست وسبعين وسبعمائة، وكان فتحًا عظيمًا.

وفيه يقول الشيخ بدر الدين بن حبيب:

الملك الأشرف إقباله	:::	يهدى له كل عزيز نفيس
لما رأى الخضراء في شامه	:::	تختال والشقراء عجبًا تميس
وعاين الشهباء في ملكه	:::	تجرى وتبدى ما يسر الجليس
ساق إلى سوق العدى أدهما	:::	وساعد الجيش عَلَى أخذ " سيس "

وفى هذا المعنى أيضًا يقول العلامة زين الدين عمر بن الوردى رحمه الله:

هـ من الاستيلاء على " سيس " وسائر قلاعها بعد أن ظل يحاصرها مدة ثلاثة أشهر، ومن ثم زالت دولة الأرمن[1].

انحلال أسرة بنى قلاوون وزوالها :

توفى الناصر محمدًا بن قلاوون سنة 741 هـ بعد أن اتسع ملك مصر شرقًا وغربًا، وهابتها جيرانها وثبتت دعائم دولتها، وهو بلا ريب من أعظم سلاطين الدولة، ولايدانيه منهم سوى أبيه المنصور قلاوون، والظاهر " بيبرس "، وكان مجموع السنين التى حكم فيها في المرات الثلاث نحو ثلاثًا وأربعين سنة وثمانية أشهر، وكان الناصر محمدًا بن قلاوون قد خلف أحد عشر ولدًا ذكرًا، اعتلى عرش البلاد منهم ثمانية[2].

يا سيد الأمراء فتحك سيسا ::: سر المسيح وأحزن القسيسا
والمسلمون بذاك قد فرحوا وقد ::: حمدوا عليه الواحد القُدُّوسَا

واستمر الأمير أشقتمر في نيابته هذه إلى أن عزل عنها بالأمير منكلى بغا الأحمدي، وقبض عليه وحبس بالإسكندرية مدة، ثم أطلق من السجن، ورسم له بالإقامة بالقدس بطالاً، فتوجه إلى القدس فأقام به إلى أن أعيد إلى نيابة حلب خامس مرة عوضًا عن الأمير تمرباى الأفضلى التمرتاشى في سنة إحدى وثمانين، ثم نقل بعد عشرة أشهر إلى نيابة دمشق عوضًا عن الأمير بيدمر في ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة إلى أن عزل في المحرم سنة أربع وثمانين، ورسم له بالتوجه إلى القدس بطالاً فدام بالقدس إلى أن أعيد إلى نيابة الشام من قبل الملك الظاهر برقوق في سنة ثمان وثمانين، ثم عزل بعد أربعة أشهر بحكم عجزه، ورسم له بالإقامة بحلب بطالاً، فأقام إلى أن توفى بها في شهر شوال سنة إحدى وتسعين وسبعمائة.

وكان أميرًا جليلاً شهمًا شجاعًا، مدبرًا سيوسًا، ذا رأى ودهاء ومعرفة، مع دين وعدل في الرعية، طالت أيامه في السعادة والولايات الجليلة، وتردد في نيابة حلب منذ كان الملك الظاهر برقوق جنديًّا إلى أن وليها من قبله وهو سلطان، كان مشكور السيرة في أحكامه، يميل إلى الخير والصلاح، ولكنه كان مغرمًا بجمع المال، وعمر أملاكًا كثيرة بحلب، وعمر عند باب نيرب مدرسة وقرر فيها طلبة ومقرئين، وله عدة مآثر. رحمه الله.

أبو المحاسن بن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 186- 187.

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 9 / 224، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 211.

(2) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 34.

وقد ظل ملك مصر في بيت الناصر محمدًا بن قلاوون مدة أربعين سنة، توارث في العشرين عامًا الأولى بعد وفاته ثمانية من أولاده على التعاقب، ثم انتقل الحكم إلى أحفاده في العقدين التاليين.

وقد امتازت هذه الفترة بكثير من الأحداث الداخلية إذ تقدم حكم مصر سلاطين أطفال، كانوا يولون ويعزلون طبقًا لأهواء أمراء المماليك الذين زاد نفوذهم في ذلك العهد[1].

المنصور سيف الدين أبو بكر 741 - 742 **هـ** [2]:

هو ابن الناصر محمد بن قلاوون، بويع بالسلطنة بعد وفاة أبيه عام 741 هـ، وكان أبوه قد جعله ولى عهده من بعده، مع أنه لم يكن أكبر أبنائه، وجلس على سرير الملك وهو لم يتجاوز العشرين من عمره [3].

ومع بداية عهد سيف الدين أبو بكر لاحت في الأفق الخلافات والمنازعات بين الأمراء المماليك حول السلطة والمنصب مستغلين في ذلك صغر سن وعدم دراية السلطان الجديد، فقد نشب الخلاف بين الأمير قوصون[4] أتابك العسكر

(1) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 53.

(2) أبو بكر المنصور (720- 742 هـ)، (1320- 1341م) أبو بكر بن محمد بن قلاوون، سيف الدين، الملك المنصور ابن الملك الناصر: من سلاطين الدولة القلاوونية بمصر والشام.
وهو أول من ولى من أبناء الملك الناصر محمد بن قلاوون وكان أبوه قد عهد إليه بالسلطنة، فتولاها- بمصر- بعد وفاته (في أواخر سنة 741 هـ) فخلع الخليفة (الواثق) إبراهيم، وأقام (الحاكم بأمر الله) أحمد بن سليمان، واعتقل جماعة من أمراء الجيش، وجعل الأمير (قوصون) أتابگا للعساكر، ثم تغير عليه وهم باعتقاله، فسبقه قوصون وقبض عليه وأرسله إلى السجن في قوص وأوعز إلى متولى قوص بقتله، فقتله وأرسل إليه رأسه.
ومدة سلطنته ثلاثة أشهر. بدائع الزهور 176/1 والسلوك للمقريزى 546/2 والبداية والنهاية 190/14 و191 وفيه أن الأمراء اتفقوا على خلعه بتهمة تعاطى المسكر فأحضروا الخليفة وشهدوا بذلك، فخلعه الخليفة وأرسله إلى قوص مع ثلاثة من إخوته. النجوم الزاهرة 30/10.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، 1 / 176.

(4) قوصون الساقى الناصرى حضر مع الجماعة الذين أحضروا ابنة القان أزبك زوج الناصر فرآه السلطان فألزم كبير الجماعة ببيعه منه فاشتراه بثمانية آلاف درهم فسلمها التاجر المذكور لأخيه صوصون ثم عظمت منزلته عند الناصر فكان يفتخر ويقول: أنا اشترانى السلطان وكنت من

والأمير طاجار الدوادار [1]، وصار العسكر فرقتين: أحدهما مع قوصون

خواصه، وأمرني وقدمني وزوجني بنته وأما غيري فتنقل من التجار إلى الطباق إلى الإصطبلات وكان الناصر يبالغ في الإحسان إليه وزوجه بنته في سنة 27 واحتفل السلطان بعرسه حتى كانت قيمة التقادم التي حملت إليه من الأمراء خمسين ألف دينار وهو صاحب الجامع الكبير بالقاهرة والخانقاه المشهورة بباب القرافة، ولما توفي الناصر تعصب للمنصور أبي بكر حتى سلطنة، وقام هو بتدبير المملكة ثم قبض على بشتاك وسجنه بالإسكندرية وأرسل إليه من قتله واستبد بتدبير السلطنة على طريق النيابة للمنصور، ثم وقعت الوحشة بينهما فعمل على المنصور حتى أخرجه إلى قوص ثم دس إليه من قتله، واستمر قوصون يجلس في مجلس نائب السلطة في أيام الأشرف كجك، ثم ترفع عن ذلك، فبنى له دارًا داخل باب القلعة وصار يجلس فيها، ويمد السماط بها أعظم من سماط السلطان ثم نازع الناصر أحمد وهو بالكرك، وأساء إليه إلى أن ثار لطلب السلطنة، فجهز قطلبغا الفخري إلى حصار الناصر أحمد بالكرك، ثم انعكس الأمر، وأغرى الفخري الأمراء قوصون، فقاموا عليه لما بلغهم أنه يريد أن يستبد بالمملكة، وأنه يقول في ملكي سبعمائة مملوك ألقى بهم أهل الأرض.

فلما انهزم ألطنبغا نائب الشام ممن تعصب للناصر أحمد، وحضر إلى مصر خرج قوصون لتلقيه فخامر الأمراء عليه وثار العوام فنهبوا إسطبله وخانقاته، ثم أمسكوا قوصون وقيدوه، واعتقل بالإسكندرية إلى أن حضر الناصر إلى مصر، فجهز أحمد بن صبح فقتل قوصون في محبسه بالإسكندرية، وذلك في أواخر شوال سنة 742، وكان خيّرًا كريمًا يعطي الألف أردب قمح والعشرة آلاف من الفضة ونحو ذلك.

وكان إذا انفرد عن السلطان في الصيد يروح معه ثلث العسكر، وأحضر أخاه صوصون فأمره وابن أخيه بلجك وأمره، ولما نهبت داره أخذ منها ما يجاوز الوصف حتى إن الذهب المختوم كان أربع مائة ألف دينار.

وأما الزركش والحوائض الذهب والأواني الذهبية والفضية فقيمة ذلك مائة ألف دينار، وكان فيما نهب له ثلاثة أكياس ملئ جوهر نفيسة يقال: إن قيمتها مائة ألف دينار، ومنها نوبة خام حرير أطلس إلى غير ذلك، واستغنى العوام والرعاع حتى صاروا يتبايعون الدينار بأحد عشر درهمًا والقمح بستة دراهم الأردب وقس على ذلك. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، 1 / 431.

(1) طاجار بن عبد الله الناصري الدوادار، الأمير سيف الدين.

أصله من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون وخاصكيته، ثم ولاه الدوادارية بعد خجداشة الأمير بغا، بعناية القاضي شهاب الدين بن فضل الله، وعناية شرف الدين النشو ناظر الخاص. لأن طاجار كان صغيرًا، وكانا كرهًا بغا، وتوهما أن طاجار يكون طوع ما يحاولانه، فلما تمكن طاجار عاملهما بضد ما توهماه فيه وأملاه منه. وأنعم عليه الملك الناصر بإمرة طبلخاناة ثم إمرة مائة، وقال له الملك الناصر: ويلك يا طاجار. ما كان دوادار أمير مائة قط، وأنا أعطيتك إمرة مائة. فاجعل بالك مني، واقض أشغالي في ضمن أشغالك، وإذا دفع إليك أحد شيئًا من المال، أحضره إلى كاتبي النشو. فسمع طاجار ذلك، فاستمر في الدوادارية، إلى أن توفي الأمير طشتمر الساقي حمص

والأخرى مع طاجار، وقد استطاع هذا الأمير أن يوغر صدر السلطان أبى بكر على قوصون، فاتفق مع الخاصكية على التخلص منه، غير أن قوصون مالبث أن خلعه من السلطنة وأرسله مع بعض إخوته إلى مدينة قوص بالصعيد فحبسوا بها [1].

الأشرف علاء الدين كجك 742 هـ:

أصبح الأمير قوصون أتابك العسكر هو المتصرف في شؤون المملكة بعد أن تخلص من السلطان المنصور سيف الدين، وكان عليه أن يختار من يلي السلطنة فوقع اختياره على الطفل الأشرف علاء الدين كوجك [2]، وكان سنه

أخضر نيابة صفد. كان طاجار المذكور مسفره، فأعطاه طشتمر مائة ألف درهم، ثم توجه إلى دمشق عند نائبها الأمير تنكز، فأنعم عليه أيضًا بجملة مستكثرة. وكان تنكز خارج دمشق بمرج الغسولة، فلما رأى طاجار خامه، قال: هذا أكبر من خام السلطان فبلغ ذلك تنكز، فوقعت العداوة بينهما. واستمر ذلك بينهما إلى أن أمسك تنكز، توجه طاجار مع الأمير بشتاك إلى دمشق للحوطة على مال تنكز، ثم عادا إلى القاهرة.

واستمر طاجار على ذلك، إلى أن مات الملك الناصر محمد، وملك بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر استمر طاجار دواداره أيضًا، وحسن للملك المنصور القبض على قوصون. فلما بلغ قوصون ذلك، خلع المنصور، وسلطن أخاه الملك الأشرف علاء الدين كجك، ثم أمسك طاجار المذكور وحبسه بالإسكندرية، إلى أن قتل مع الأمير بشتك، في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة.

وكان طاجار أميرًا لطيفًا، كثير اللعب والتهتك، وكان يحضر السماع، ولا يمل من الرقص. وكان بشتك يكرهه، ويضع منه عند السلطان. وكان متمولاً، يقال: إنه لما أمسك، حمل من بيته ستة صناديق ذهب. وكان يميل إلى فعل الخير، وهو الذى عمر الخان الذى بجبنين، والحوض في طريق غزة، رحمه الله تعالى. أبو المحاسن بن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 42.

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، 1 / 177، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 53.

(2) السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمدًا بن قلاوون أقيم سلطانًا في يوم الاثنين حادى عشر صفر، سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، ولم يكمل له من العمر خمس سنين، وقيل: ثمان سنوات، وأمه أم ولد اسمها أردو، تترية الجنس. ولقب كجك بالملك الأشرف، وعرضت نيابة السلطنة على الأمير أيدغمش أمير أخور فامتنع وامتنع منها، فوقع الاتفاق على إقامة الأمير قوصون في النيابة، فأجاب وشرط على الأمراء أن يقيم على حاله بالأشرفية من القلعة، ولا يخرج منها إلى دار النيابة خارج باب القلعة. فأجابوه إلى ذلك، فاستقر من يومه نائب السلطان، وتصرف في أمور الدولة فقال في ذلك بعض الشعراء:

حينئذ أقل من ثماني سنوات، وفي عهد هذا الطفل زادت سيطرة الأمير قوصون على البلاد وجمعت له أتابكية العسكر ونيابة السلطنة، وصار هو المتصرف الوحيد لشؤون المملكة، بعد أن حجر على الطفل الصغير علاء الدين كجك، ثم أنه قام بعمل أوغر صدور الأمراء عليه حيث أنه قام بتولية الأمراء المقربين منه والموالين له في المناصب العليا في الدولة وكان ذلك على حساب كبار رجال الدولة منذ عهد الناصر محمدًا بن قلاوون، فاكتسب عداء كل المحيطين به وبدأت المؤامرات تحاك ضده.

الناصر شهاب الدين أحمد بن قلاوون 742 - 743 هـ :

وقد أجمع أمراء المماليك أمرهم على التخلص من قوصون، وإزاحته عن سدة الحكم، وتزعم هذه الحركة نواب طرابلس وحماه وصفد، واتفقوا على التخلص من قوصون وتولية الأمير أحمد بن الناصر [1] - وكان مقيمًا بالكرك وهو أكبر

سلطاننا اليوم طفل والأكابر في ::: خلف وبينهم الشيطان قد نزغا
فكيف يطمع من مسته مظلمة ::: أن تبلغ السؤل والسلطان مابلغا

ثم اتفقت الأمراء على إخراج الأمير ألطنبغا الماردانى من الحبس فأخرج من يومه. وفى ليلة الأربعاء ثالث عشرين صفر أخرج الأمير قطلوبغا الحموى وطاجار الدوادار وملكتمر الحجازى والشهابى شاد العمائر من حبس خزانة شمائل بالقاهرة، وحملوا إلى ثغر الإسكندرية فسجنوا بها. المقريزي، السلوك، 2 / 742.

(1) أحمد بن محمد بن قلاوون، السلطان الملك الناصر ناصر الدين بن السلطان الملك الناصر أبى المعالى محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحي.

تسلطن بعد خلع أخيه الأشرف كجك في يوم الاثنين عاشر شوّال سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، بعد أن وقع لهُ أمور وحوادث. وهو أن والده الملك الناصر محمدًا بن قلاوون كَانَ قدْ أخرجه إِلى الكرك وهو صغير لمْ يبلغ العشر سنين، وَكَانَ الناصر أحمد هَذَا أحسن إخوته وجهًا وشكلاً، وَكَانَ صاحب " بأس وقوة مفرطة، وعنده شهامة، وكان نائب " الكرك إذ ذَاكَ الأمير سيف الدين ملكتمر السرجواني، ثُمَّ جهز إِلَيْهِ أبوه أخويه إبراهيم وأبا بكر المنصور فأقاموا الجميع بالكرك إلى أن ترعرعوا وطلبهم والدهم الملك الناصر محمدًا إلى القاهرة فرآهم، وأعاد الناصر هَذَا إِلى الكرك، ونزل إبراهيم وأبو بكر عنده بالقلعة، ثُمَّ طلبه ثانيًا وزوجه بابنة الأمير سيف الدين طايربغا، من أقارب السلطان، فدام بالقاهرة قليلاً، ثُمَّ أعاده إلى الكرك ومعه أهله، فاستمر بالكرك مدة إِلى أن وقع بينه وبين ملكتمر السرجوانى " نائب الكرك تنافس، فلما بلغ السلطان ذَلِكَ أحضرهما وغضب عَلى ولده " الناصر أحمد صاحب الترجمة، وتركه قليلاً، ثُمَّ جهزه إلى الكرك وحده بلا نائب " فصار الأمر إِلَيْهِ، وَلَمْ يزل بهَا مقيمًا إِلى أن توفى

والده الملك الناصر محمد بن قلاوون، وَلَمْ يسند الأمر إِلَيْهِ، فقام الأمير باش تاك في أمره، وأراد سلطنته، فغلبه الأمير قوصون وأجلس الملك المنصور أبا بكر عَلَى تخت الملك، ثُمَّ خلع بعد مضى شهرين، فأقام قوصون أيضًا أخاه الملك الأشرف كجك.

وكان قوصون قد سير قبل تاريخه إلى الملك الناصر أحمد هذا يطلبه إلى القاهرة، فلم يوافق الناصر عَلَى المجيء، وكتب في الباطن إلى نواب الشام يستجيرهم، ويستعفى من القدوم إلى القاهرة، وأظهر لهم المسكنة الزائدة، فرقوا له وحملوا الكتب التى جاءت منه إلى قوصون.

ثم إن الأمير طشْتمر حمص أخضر خرج عَلَى الأمير قوصون وتعصب لأحمد هذا، وقام في أمره قيامًا عظيمًا، وأخذ قوصون في تجهيز عسكر إلى الكرك نحو الألف فارس ومقدمهم الأمير قطلوبغا الفخرى لحصار الكرك، فتوجه الفخرى إلى الكرك وحاصر الملك الناصر أحمد هذا بها أيامًا، ثم إن الفخرى رق له وتوجه لأخذ دمشق لما بلغه توجه نائبها الأمير ألطنبغا إلى حلب لإمساك طشتمر حمص أخضر، فدخلها الفخرى وملكها، وبلغ قوصون ذَلِكَ فانحرف ودعا الناس لطاعة الملك الناصر أحمد المذكور، ووقعت أمور، وصار الفخرى يرسل إلى الناصر يطلبه إلى دمشق، وهو يمنيه ويتعلل بحضور طشتمر حمص أخضر من البلاد الرومية، وكتب كتبًا إلى الأمير طقزدمر نائب حماة، وإلى الأمير بهاء الدين أصلم نائب صفد، وإلى الأمراء يقول: أن الفخرى نائبى بدمشق وهو يولى من يريد من النيابات الكبار، ولم يزل يعد الفخرى بالحضور إلى عنده إلى أن جاء طشتمر من البلاد الرومية، ووقع ما سنحكيه في ترجمة قوصون، إن شاء الله تعالى، من ركوب الأمراء عليه، وإمساكه وحبسه بثغر الإسكندرية، فأخذ الملك الناصر أيضًا يمنى طشتمر والفخرى بالحضور إلى دمشق بعد رمضان، وتوجه إِلَيْهِ من الأمراء المصريين الأمير بدر الدين جانكلى ابن البابا وغيره، وسألوه التوجه معهم إلى القاهرة فلم يوافق وعادوا خائبين، وترك الناس والأمراء الشاميين والمصريين في حيرة، بعد ما حلف الجميع له.

ثم إنه توجه وحده إلى القاهرة، ولم يشعروا به إلاَّ في قلعة الجبل، فلما بلغ الفخرى ذَلِكَ توجه هو وطشتمر بعساكر الشام والدولة والقضاة الأربع إلى القاهرة في قلب الشتاء، فلما وصلوا إلى القاهرة جلس السلطان الملك الناصر هذا عَلَى سرير الملك وإلى جانبه أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أبو القاسم، وحضر قضاة القضاة الثمانية من المصريين والشاميين، وعهد الخليفة إِلَيْهِ بحضور العالم، فكان يومًا عظيمًا لم يتفق مثله لأحد من ملوك الترك لاجتماع أهل الإقليمين في يوم واحد.

وأصبح الملك الناصر من الغد وقد استقر بالأمير طشتمر حمص أخضر في نيابة مصر، وولى نيابة دمشق للأمير قطلوبغا الفخري، وأرج الأمير أيدغمش أمير آخور إلى نيابة حلب عوضًا عن طشتمر، وهو الذى قام في أمر قوصون وقلب الدولة عَلَى قوصون لأجل الناصر هذا، وأخرج الأمير " بيبرس " الأحمدى إلى نيابة صفد، وأخرج الأمير الحاج آل ملك إلى نيابة حماة، وأخرج الأمير آقسنقر الناصرى إلى نيابة غزة.

فلما فعل ذَلِكَ بالأكابر خافته الناس وعظموه، ثم بعد أربعين يومًا أمسك بالأمير طشتمر نائب مصر وأخذه وتوجه به إلى الكرك، وبعث إلى أيدغمش بأن يمسك الفخرى فأمسكه وجهزه إلى مصر مع ابنه، فوصل إِلَيْهِ بالرملة فتسلمه منه، وأخلع عليه وأعاده إلى أبيه، وتوجه بالفخرى وطشتمر إلى الكرك بعد أن أخذ معه جميع ما في الخزائن من التحف والأموال والجواهر والخيول والسلاح

إخوته - وقد أيد هذه الحركة المعادية لقوصون كثير من الأمراء في مصر ممن ساءهم كثيرًا سيطرة قوصون على مقاليد الأمور في البلاد، وأعلن في البلاد مايشبه حالة من العصيان المدني، فنادى الأمير أيدغمش [1] في عامة الناس

وغير ذَلِكَ، ومضى بالجميع إلى الكرك، وأقام الأمير آقسنقر السلارى في نيابة مصر، وأخذ معه القاضى علاء الدين بن فضل الله كاتب السر، والقاضى جمال الدين جمال الكفاة ناظر الخاص والجيش، وجعلهما مقيمين عنده في الكرك، واستغرق في اللهو والانشراح، واحتجب عن الناس، ثم أرسل بمسك الأحمدى من صفد، فأحس الأحمدى بذلك فهرب، ثم إنه أحضر الفخرى وطشتمر وضرب عنقيهما صبرًا، فنفرت القلوب منه، واستوحش الناس منه.

وصار يدبر ملكه شخص يعرف بابن الصبارة من أهل الكرك، ولم يعد يحضر كتاب إلى القاهرة وغيرها ولا توقيع بخط كاتب السر، بل بخط نصرانى يعرف بالرضى، فعند ذَلِكَ أجمع الناس والأمراء عَلى خلعه وإقامة أخيه الملك الصالح إسماعيل، فخلعوه وأجلسوا الصالح عَلى تخت الملك في يوم الخميس الثاني والعشرين من المحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة.

فكانت مدة ملك الناصر هذا بالقاهرة والكرك دون الأربعة أشهر.

كلما جاءت إِلَيْهِ فرقة توجهت الأولى، ودام هذا الحال وطال الأمر، ولم يبق بمصر والشام أمير حَتَّى تجرد إلى الكرك مرة ومرتين، ثم أخذ أمر الناصر يتلاشى، وهلك من عنده من الجوع، وضرب الذهب وخلط فيه الفضة والنحاس، حَتَّى صار الدينار يساوى خمسة دراهم.

ثم أمسك الملك الناصر من الكرك في يوم الاثنين وقت الظهر في الثاني والعشرين من صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وكتب بذلك إلى السلطان، فأرسل الأمير منجك الناصرى وحز رأسه، وتوجه به إلى القاهرة، رحمه الله تعالى.

أبو المحاسن بن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 115- 117.

(1) أيدغمش بن عبد الله الناصرى الطباخي، الأمير علاء الدين.

أصله من مماليك سيف الدين بلبان الطباخي، ثم أخذه الملك الناصر محمدًا بن قلاوون منه وجعله خاصكيًّا، ثم أميرًا. ولما عاد الملك الناصر إلى ملكه من الكرك سنة تسع وسبعمائة رقاه إلى أن جعله أمير آخور، عوضًا عن الأمير " بيبرس " الحاجب، فاستمر على ذلك إلى أن توفي الملك الناصر، فكان أيدغمش هذا ممن قام بأمر الملك المنصور أبى بكر بن الملك الناصر محمدًا بن قلاوون، إلى أن توهك الأمير قوصون من الملك المنصور، واتفق مع الأمير أيدغمش المذكور على خلعه؛ فوافقه وخلع المنصور بأخيه الناصر، ولولاه لم يتم لقوصون أمر.

ودام الأمر إلى أن فر الأمير ألطنبغا نائب الشام من الفخرى وسار نحو القاهرة، ووصل إلى مدينة بلبيس، اتفق الأمراء مع أيدغمش على القبض على قوصون وحزبه، فوافقهم على ذلك، وقبض على قوصون وجماعته، وجهزوا إلى الإسكندرية.

وكان أيدغمش في هذه المرة هو المشار إليه، ثم جهز ولده ومعه جماعة من أكابر الأمراء المشايخ إلى الملك الناصر أحمد بن الملك الناصر محمدًا بن قلاوون إلى الكرك؛ ليحضروه حتى يجلس على كرسى الملك، فلم يوافق الناصر على الحضور، وعاد ابن أيدغمش، فلم يكن بعد أيام يسيرة إلا

بنهب بيت قوصون، ونادى في العسكر بأن كل شخص لا يملك فرسًا يحضر إلى الإسطبل السلطاني ليأخذ له منه فرسًا، فأطلق العامة يد النهب في بيت قوصون، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن الجند صاروا كلما رأوا أحدًا من مماليك قوصون أو من رجال حاشيته في الطرقات قتلوه شر قتلة، ولما انفض أعوان قوصون من حوله وأصبح وحيدًا، قبض عليه الأمير أيدغمش وبعث به إلى الأسكندرية حيث حبس بها، وتبع ذلك خلع كجك من السلطنة، وظل الأمراء

وبلغ الناصر حركة الفخري، فتوجه إلى دمشق ثم سار إلى ديار مصر وحده بأناس قلائل، فلم يشعروا بالناصر إلا وهو في القلعة، وجاءت بعده الجيوش الشامية، وجلس على كرسي الملك وتم أمره، وولى أيدغمش هذا نيابة حلب؛ فخرج إليها.

فلما كان على " عين جالوت " جاءه كتاب السلطان بالقبض على الفخري، وكان الفخرى في رمل مصر. فلما أحس بالقبض عليه، هرب في جماعة من مماليكه وجاء إلى أيدغمش مستجيرًا به، فقبض عليه، وجهزه مع ولده أمير على إلى السلطان.

ثم إن أيدغمش توجه إلى حلب، وأقام بها إلى أن تولى الملك الصالح إسماعيل السلطنة، نقله إلى نيابة دمشق، وكان مسفره الأمير ملكتمر السرجواني.

وكان دخول أيدغمش إلى دمشق في يوم الخميس بكرة عشرين صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، وأقام بها نائبًا إلى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة من السنة، فركب بكرة وخرج إلى ظاهر دمشق، وأطعم طيور الصيد، وعاد إلى دار السعادة وقرئت عليه قصص يسيرة، ثم أكل السماط، ثم عرض طلبه والمضافين إليه، وقدم جماعة وأخر جماعة، ثم دخل إليه ديوانه، وقرأ عليه مخازيم وحساب ومصروف ديوانه، ثم قال أيدغمش: هؤلاء الذين تزوجوا من مماليكي، أقطعوا مرتبهم، ثم أكل الطاري، وقعد هو وابن جماز يتحادثان، فسمع حس جماعة من جواريه يتخاصمن، فقام وأخذ عصاة، ودخل إليهن، وضرب واحدة منهن ضربتين، وسقط ميتًا لم يتنفس، فتحير الناس في أمره، فأمهلوه إلى بكرة يوم الأربعاء رابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، وأخذوا في غسله ودفنه في اليوم المذكور.

ودفن في خارج ميدان الحصا في تربة عمرت له هناك، فكان مدة نيابته في حلب ودمشق نحو نصف سنة.

وكان أميرًا جليلاً، مهابًا، شجاعًا، مقدامًا، كريمًا. قيل: إنه كان من دخل عليه للسلام إلا خلع عليه.

وكان مكينًا عند أستاذه الملك الناصر محمدًا بن قلاوون، وكان الناصر أنعم على أولاده الثلاثة بإمرة، وهم: أمير حاج وأمير أحمد، وأمير علي.

وكان يميل إلى فعل الخير والبر، وله آثار حميدة، وهو صاحب الحمام والخوخة خارج بأبي زويلة، رحمه الله تعالى.

أبو المحاسن بن تغرى بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، 1 / 235- 236.

ينتظرون قدوم الأمير أحمد من الكرك، فلما قدم وولى السلطنة عين الأمير طشتمر [1] نائبًا بالقاهرة، غير أنه ما لبث أن ساورته الشكوك والمخاوف من ناحيته لازدياد نفوذه في البلاد، فحبسه[2].

---

(1) طشتمر بن عبد الله الناصرى الساقي، الأمير سيف الدين، المشهور بـ حمص أخضر.

هو من مماليك الملك الناصر محمدًا بن قلاوون، وأحد خواصه. ترقى في دولة أستاذه، ثم من بعده، حتى صار من جملة الأمراء بالقاهرة. ثم ولى نيابة صفد، ثم نقل إلى نيابة حلب عوضًا عن طوغان الناصرى في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، فباشر نيابة حلب مدة. وكثر الكلام في حقه، ووقع له أمور أوجبت خروجه إلى بلاد الروم.

ثم طلب إلى الديار المصرية فتوجه إليها، وولى نيابة السلطنة بها في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة. فاستمر في النيابة خمسة وثلاثين يومًا وقبض عليه في يوم السبت عشرين ذى القعدة من السنة. ولما توجه الملك الناصر أحمد بن الملك الناصر محمدًا بن قلاوون إلى الكرك، أخذه معه في محفة لعجزه عن الركوب وهو مقيد، فكان ذلك آخر العهد به.

قال ابن حبيب في تاريخه: كان وافر الحرمة، ظاهر الحشمة، عزيز الهمة عونًا عند المسألة. جزيل الأموال، كثير الجود والأفضال. كبيرًا في الدولة، معروفًا بالسطوة والصولة. مهيب المنظر، ملقبًا بالحمص الأخضر. ذا نفس قوية، وكف سخية. يعطف على السائلين، ويحسن إلى الفقراء والمساكين. ولى نيابة السلطنة بصفد وبحلب والديار المصرية، واستمر إلى أن رحل مع الناصر أحمد إلى الكرك، وبسيفه أدركته المنية.

وفيه يقول صلاح الدين أبو الصفا خليل الصفدي:

طوى الردى طشتمرا بعدما ::: بالغ في دفع الأذى واحترس
عهدى به كان شديد القوى ::: أشجع من يركب ظهر الفرس
ألم تقولوا حمصًا أخضرا ::: فاعجب له ما صاح كيف اندرس

قلت: وهو الذى بنى الدار العظيمة والربع الذى بجانبها، في حدرة البقر خارج القاهرة، والجامع بالصحراء، ومئذنته غاية في الحسن وفى جودة العمل، وعمر الجامعين بالزربية، والربع الذى بالحرير من داخل القاهرة.

وكان شجاعًا مقدامًا، كريمًا، كثير الإنعام والإيثار، رحمه الله تعالى.

أبو المحاسن بن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 /49.

(2) ابن إياس بدائع الزهور، 1 / 178، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 54 يقول المقريزى أن: "... وسبب ذلك أنه أكثر من معارضة السلطان بحيث تغلب عليه ورد مراسيمه، وصار يتعاظم ويظهر من الترفع على الأمراء والأجناد ما لا يحتمل مثله، وإذا شفع إليه أحد من الأمراء رد شفاعته ولم يقبلها، ولا يقف لأمير إذا دخل إليه، واذا أتته قصة عليها علامة السلطان بإقطاع أو غيره أخذ ذلك وطرد من هى باسمه، وأخرق به. وقرر طشتمر مع السلطان أنه لا يمضى من المراسيم السلطانية إلا ما يختاره، وتقدم إلى الحاجب بألا يقدم أحد قصة إلى السلطان حتى يكون حاضرًا، ومنع ذلك، فلم يتجاسر أحد أن يقدم قصة للسلطان في غيبته وتقدم جماعة من المماليك لطلب

ولكن هذا السلطان بدأ سياسة انتقامية فقام بقتل سبعة من الأمراء، وسجن عددًا آخر من الأمراء وكبار رجال الدولة ممن توهم فيهم العداوة له، مما أدى إلى نفور قلوب الجند والأمراء منه، وبالرغم من أن الظروف أصبحت مواتية له حتى يسيطر على مقاليد الحكم بمفرده بعيدًا عن سيطرة الأمراء، وأن الظروف قد ساعدته كثيرًا وأعطته ما لم يتيسر لإخوته الذين سبقوه، إلا أنه لم يلتفت إلى شؤون الرعية، وترك البلاد وآثر الإقامة في الكرك على مصر، وأناب أقسنقر عنه في السلطنة وشؤون البلاد، فأدى ذلك إلى عودة الصراع بين الأمراء على المناصب والسلطة من جديد فاضطربت شؤون البلاد، وكتب إليه الأمراء يسألونه العودة إلى البلاد ولكنه لم يلتفت إلى طلبهم وآثر الإقامة في الكرك [1].

الصالح علاء الدين إسماعيل: 743 - 746 هـ:

بعد أن رفض الناصر شهاب الدين أحمد بن قلاوون العودة إلى مصر وترك الكرك، أجمع أمراء المماليك على خلعه وتولية أخيه أبي الفداء إسماعيل بن

ما يزيد في مراتبهم، فرسم طشتمر أن كل من خرج عن خبزه يعود إليه، ولم يمكن المماليك السلطانية من أخذ شيء. وأخذ طشتمر إقطاع الأمير " بيبرس " الأحمدى وأعطاه لولده، فكرهته الناس. وصارت أرباب الدولة وأصحاب الأشغال كلها في بابه، وتقربوا إليه بالهدايا والتحف. وانفرد طشتمر بأمور الدولة، وحط على الكركيين، وقصد منعهم من الدخول على السلطان، فلم يتهيأ له ذلك. وكان ناصر الدين المعروف بفأر السقوف قد توصل بالكركيين حتى استقر بفضل توصيتهم في وظيفة إمام السلطان يصلى به، وصار كذلك ناظر المشهد النفيسي، عوضًا عن تقى الدين على بن القسطلانى خطيب جامع عمرو وجامع القلعة.

وخلع السلطان على ناصر الدين بغير علم النائب طشتمر، فبعث إليه طشتمر عدة نقباء ونزع عنه الخلعة، وسلمه إلى المقدم إبراهيم بن صابر، وأمر بضربه وإلزامه بحمل مائة ألف درهم. فضربه ابن صابر عريانًا ضربًا مبرحًا، واستخرج منه أربعين ألف درهم، ثم أفرج عنه بشفاعة أيدغمش وقطلوبغا الفخري، بعد ما أشهد عليه أنه لا يطلع إلى القلعة.

وأخذ طشتمر قصر معين بالغور من مباشرى قوصون، وأحاط بما فيه من القند والعسل والسكر، وغير ذلك. فكثر حنق السلطان منه وتغيره عليه، إلى أن قرر مع المقدم عنبر السحرتى والأمير أقسنقر السلارى في القبض عليه وعلى قطلوبغا الفخري، وأن يستدعى مماليك بشتاك وقوصون وينزلهم بالأطباق من القلعة، ويقطعهم إقطاعات بالحلقة، ليصيروا من جملة المماليك السلطانية، خوفًا من حركة طشتمر النائب، فعارض طشتمر السلطان فيهم، فرتب السلطان عدة مماليك بداخل القصر للقبض عليه.

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، 1 / 180.

الناصر محمدًا بن قلاوون ولقبوه بالملك الصالح عام 743 هـ، وقد حاول هذا السلطان أن يصلح ما أفسده السابقون من أمراء وسلاطين، بما عرف عنه من حب للعدل والبر والإحسان، ولكن أتت الرياح بما لا تشتهى السفن إذ ناصبه أخوه الناصر شهاب الدين أحمد - من مقره في الكرك - العداء، وقاوم جميع محاولات الصالح إسماعيل إخضاعه مما جعل أمد الحرب تطول بين الأخوين، فقد قاوم الناصر جند أخيه الصالح إسماعيل حتى نفد جميع ما كان معه من مال وقوت، واضطر إلى ضرب ما بقى عنده من السروج المصنوعة من الذهب، وخلط النحاس بالذهب حتى أصبح الدينار يساوى خمسة دراهم من الفضة وأنفق كل هذه الأموال على الجند الذين قاتلوا معه. ولما طال أمد القتال تفرقوا من حوله واضطر الناصر أحمد إلى طلب الأمان فقبض عليه جند المصريين وما لبث أن قتل سنة 745 هـ، وتوفى الصالح إسماعيل في العام التالى مباشرة أى في عام 746هـ [1].

يقول المقريزى عن حياة هذا السلطان: " وكان السلطان الصالح في ابتداء دولته على دين وعفاف، إلا أنه كان في أيامه ما ذكر من قطع الأرزاق، وكثرة حركة عساكر مصر والشام في التجاريد. وشغف السلطان الصالح مع ذلك بالجوارى السود، وأفرط في حب اتفاق [2]، وأسرف في العطاء لها وقرب أرباب الملاهي، وأعرض عن تدبير الملك بإقباله على النساء والمطربين، حتى إنه إذا ركب إلى سرحة سرياقوس أو سرحة الأهرام ركبت أمه في مائتى امرأة الأكاديش، بثياب الأطلس الملون، وعلى رؤوسهن الطراطير الجلد البلغارى المرصع بالجواهر واللآلئ، وبين أيديهن الخدام الطواشية، من القلعة إلى السرحة. ثم يركب حظاياه الخيول العربية، ويتسابقن؛ ويركبن تارة بالكامليات الحرير، ويلعبن بالكرة، وكانت لهن في المواسم والأعياد وأوقات النزه والفرح

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، 1/ 181- 182، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 55.

(2) سوف تأتى لها ترجمة مفصلة في قادم الصفحات.

أعمال يمكن حكايتها، وأكثرن من النزول إلى بيوت الكتاب ونحوهم.

واستولى الخدام الطواشية في أيامه على أحوال الدولة، وعظم قدرهم بتحكم كبيرهم عنبر السحرتى اللالا في السلطان، وركبوا الخيول الرائعة، ولبسوا الثياب الفاخرة، وأخذوا من الأراضى عدة رزق. واقتنى السحرتى البزاة والسناقر ونحوها من الطيور والجوارح، وصار يركب إلى المطعم، ويتصيد بثياب الحرير المزركشة، واتخذ له كفًّا مرصعًا بالجوهر، وعمل له خاصكية وخدامًا ومماليك تركب في خدمته، حتى ثقل أمره، فإنه أكثر من شراء الأملاك، والتجارة في البضائع، وأفرد له ميدانًا يلعب فيه بالكرة، وتصدى لقضاء الأشغال. فصارت الإقطاعات والرزق لا تقضى إلا بالخدام والنساء، ولا يزال الأمير الحاج آل ملك النائب يشنع بذلك، وإذا أتاه أحد يطلب منه خبزًا أو رزقة يقول له: " النائب ما له حكم، رح إلى باب الستارة، واسأل عن الطواشى فلان الدين والطواشى فلان الدين يقضوا لك حاجتك ".

وكان متحصل الدولة مع هذا كله في أيام السلطان الصالح إسماعيل قليلاً، ومصروف العمارة لا يزال جملة مستكثرة في كل يوم فأنفق السلطان على الدهيشة بالقلعة خمسمائة ألف درهم، سوى ما حمل إليه من بلاد الشام وغيرها، ثم عمل فيها من أوانى الذهب والفضة ومن الفرش ما يجل وصفه؛ ومنذ فرغت عمارتها لم ينتفع بها أحد، لشغفه بالغناء والجواري، سيما اتفاق. ولما ولدت منه اتفاق ولدًا ذكرًا عمل لها حفلاً تناهى فيه، حتى بلغ الغاية التى لا توصف عظمة.

وكانت حياته منغصة وعيشته نكدة، لم يتم سروره بالدهيشة سوى ساعة واحدة. ثم قدم عليه منجك برأس أخيه أحمد من الكرك بعد قتله بها، فلما قدم بين يديه ورآه بعد غسله، اهتز وتغير لونه وذعر، حتى إنه بات ليلته يراه في نومه، ويفزع فزعًا شديدًا.

وتعلل السلطان الصالح إسماعيل من رؤية رأس أحمد، وما برح يعتريه الأرق

ورؤية الأحلام المفزعة، وتمادى مرضه وكثر إرجافه، وكثرت أفزاعه حتى اعتراه القولنج، ومات كما تقدم ذكره يوم الخميس، ودفن عند أبيه وجده بالقبة المنصورية، في ليلة الجمعة.

وكان السلطان الصالح إسماعيل رقيق القلب، زائد الرأفة والشفقة، كريمًا جوادًا، مائلاً إلى الخير. وبلغ من العمر نحو العشرين سنة، منها مدة سلطته ثلاث سنين وشهرأن وأحد عشر يومًا [1].

الكامل شعبان بن الناصر محمدًا بن قلاوون 746 - 747 هـ [2]:

---

(1) السلوك، 3 / 61.

(2) السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان ابن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى النجمي. والكامل هذا هو السابع عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والخامس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون.

جلس على تخت الملك بعد موت أخيه وشقيقه الملك الصالح إسماعيل في يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة، ولقب بالملك الكامل. وفيه يقول الأديب البارع جمال الدين بن نباتة. رحمه الله تعالى:

جبين سلطاننا المرجى ::: مبارك الطالع البديع

يا بهجة الدهر إذ تبدى ::: هلال شعبان في ربيع

وكان سبب سلطنة الملك الكامل هذا أنه لما اشتد مرض أخيه الملك الصالح إسماعيل دخل عليه زوج أمه ومدبر مملكته الأمير أرغون العلائى في عدة من الأمراء ليعهد الملك الصالح إسماعيل بالملك لأحد من إخوته- وكان أرغون العلائى المذكور غرضه عند شعبان كونه أيضًا ربيبه ابن زوجته- فعارضه في شعبان الأمير آل ملك نائب السلطنة، حسب ما ذكرنا طرفًا من ذلك في مرض الملك الصالح المذكور.

ثم وقع ما ذكرناه إلى أن اتفق المماليك والأمراء على توليته، وحضروا إلى باب القلعة واستدعوا شعبان المذكور، وألبسوه أبهة السلطنة وأركبوه بشعار الملك ومشت الأمراء بخدمته، والجاوشية تصيح بين يديه على العامة، حتى قرب من الإيوان لعب الفرس تحته وجفل من صياح الناس، فنزل عنه ومشى خطوات بسرعة إلى أن طلع إلى الإيوان، فتفاءل الناس بنزوله عن فرسه أنه لا يقيم في السلطنة إلا يسيرًا. ولما طلع إلى الإيوان وجلس على الكرسى وقبل الأمراء له الأرض وأحضروا المصحف ليحلفوا له، فحلف هو أولاً أنه لا يؤذيهم، ثم حلفوا له بعد ذلك على العادة. ودقت البشائر بسلطنته بمصر والقاهرة، وخطب له من الغد على منابر مصر والقاهرة، وكتب بسلطنته إلى الأقطار.

ثم في يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الآخر المذكور جلس الملك الكامل بدار العدل، وجدد له العهد من

بويع بالسلطنة عام 646 هـ بعد موت أخيه الصالح علاء الدين إسماعيل، ولكن السلطان الجديد ركن إلى اللهو واللعب، وانغمس في الترف وترك أمور الرعية، حتى إن أمراء المماليك اشترطوا عليه عند توليته وربطوا موافقتهم على توليته الحكم عدم اللعب بالحمام وقالوا له: " بشرط أن لا يلعب بالحمام " وكان الذى حدث أنه - مع لهوه ولعبه وانشغاله عن الحكم - قد أساء إلى الأمراء وقبض على العديد منهم وفرقهم بين المدن حتى يبعدهم عن طريقه [1]

الخليفة بحضرة القضاة والأمراء. وخلع على الخليفة وعلى القضاة والأمراء. وفيه كتب بطلب الأمير أقسنقر الناصرى من طرابلس فسأل الأمير قمارى الأستادار أن يستقر عوضه في نيابة طرابلس، وتشفع قمارى المذكور بأرغون العلائى وملكتمر الحجازى فأجيب إلى ذلك؛ ثم تغير ذلك وخلع عليه في يوم الخميس حادى عشر بنيابة طرابلس، فخرج من فوره على البريد. وفيه خلع على الأمير أرقطاى وآستقر في نيابة حلب عوضًا عن يلبغا اليحياوي، وخرج أيضًا على البريد؛ وكتب السلطان يطلب اليحياوى ثم طلب الأمير آل ملك نائب السلطنة الإعفاء من النيابة وقبل الأرض، وسأل في نيابة الشام عوضًا عن طقزدمر الحموى وأن ينتقل طقزدمر إلى مصر فأجيب إلى ذلك؛ وكتب السلطان بعزل طقزدمر عن نيابة الشام وإحضاره إلى الديار المصرية.

وفى يوم السبت ثالث عشر خلع السلطان الملك الكامل على الأمير الحاج آل ملك نائب السلطنة بآستقراره في نيابة الشام عوضًا عن طقزدمر، وأخرج من يومه على البريد، فلم يدخل مدينة غزة حتى لحقه البريد بتقليده نيابة صفد، وأن يكون ولده وابن أخيه الفارس بحلب. وسبب ذلك أن أرغون العلائى لما قام في أمر الملك الكامل شعبان هذا وفى سلطنته قال له الحاج آل ملك: " بشرط ألا يلعب بالحمام "، فلما بلغ ذلك شعبان نقم عليه؛ فلما ولى دمشق استكثرها عليه وحوله إلى نيابة صفد.

ورسم للأمير يلبغا اليحياوى نائب حلب كان، بآستقراره في نيابة الشام. ثم أخذ السلطان الملك الكامل في تدبير مملكته والنظر في أمور الدولة فأنعم بإقطاع أرقطاى على الأمير أرغون شاه، واستقر أستادارًا عوضًا عن قمارى المستقر في نيابة طرابلس. وأخرج السلطان الأمير أحمد شاد الشرابخاناه هو وإخوته إلى صفد من أجل أنهم كانوا ممن قام مع الأمير آل ملك هم وقمارى الأستادار في منع سلطنة الملك الكامل هذا.

ثم خلع السلطان على علم الدين عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن زنبور باستقراره ناظر الخواص عوضًا عن الموفق عبد الله بن إبراهيم، وعنى الأمير أرغون العلائى بالموفق حتى نزل إلى داره بغير مصادرة.

أبو المحاسن بن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

وأبو المحاسن بن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 17.

(1) يقول الذهبي: " ولما ملك الملك الكامل شرع في تفريق كبار الأمراء، فجهز الأمير سيف الدين آل ملك إلى صفد، بعد نيابة مصر. وسيف الدين قمارى إلى طرابلس. وسيف الدين طقزتمر إلى

مما أوغر صدورهم عليه وصاروا يتربصون به، ويسعون من أجل الإطاحة به، كما أنه سعى إلى قتل أخيه، يقول أبو المحاسن: " و سبب خلع الملك الكامل وسلطنة المظفر هذا، أن الكامل شعبان أراد قتل حاجى هذا، وقيل: إنه أمر أن تُبْنَى عليه حائط. و كان الكامل غير محبب للأمراء " (1).

ثم إن الكامل شعبان سعى لاعتقال الأمير يلبغا (2)، وكان في ذلك نهاية الكامل حيث إن يلبغا قد جمع صفوف الأمراء المماليك على التخلص منه وكتب الأمير يلبغا اليحياوى نائب الشام إلى السلطان: " إني أحد الأوصياء عليك، وإن مما قاله الشهيد رحمه الله لي وللأمراء في وصيته، إذا أقمتم أحدًا من أولادى و لم ترتضوا سيرته جروه برجله، وأخرجوه، وأقيموا غيره. وأنت أفسدت المملكة، وأفقرت الأمراء والأجناد، وقتلت أخاك، وقبضت على أكابر أمراء السلطان الشهيد. واشتغلت عن الملك، والتهيت بالنساء وشربت الخمر: وصرت تبيع أخبار الأجناد بالفضة " وذكر الأمير يلبغا اليحياوي له أمورًا فاحشة عملها، فقدم كتابه في يوم الجمعة العشرين من جمادى الأولى. فلما قرأه

مصر، بعد نيابة دمشق والحاج أرقطاى إلى حلب. وسيف الدين يلبغا اليحياوى إلى دمشق، بعد نيابة حلب. وسيف الدين أقسنقر إلى مصر، بعد نيابة طرابلس. وسنجر الأمير حسام الدين طرنطاى البجمقدار إلى دمشق، بعد حجوبية مصر. وسيف الدين طقتمر الخليلى إلى نيابة حمص، بعد حجوبية دمشق. وسيف الدين أياز إلى غزة، بعد نيابة جعبر. فقدم الأمير سيف الدين يلبغا إلى دمشق على نيابتها بكرة يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى. العبر الذهبي، في خبر من غبر، 1 / 305.

(1) المنهل الوافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 408.

(2) كان يلبغا هذا أحد من شغف به أستاذه الملك الناصر محمدًا بن قلاوون، وعمر له الدار العظيمة التى موضعها الآن مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة. ثم جعله أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية. ثم ولى بعد موت الملك الناصر حماة وحلب والشام. وعمر بالشام الجامع المعروف بجامع يلبغا بسوق الخيل، ولم يكمله، فكمل بعد موته. وكان حسن الشكالة، شجاعًا كريمًا. بلغ إنعامه في كل سنة على مماليكه فقط مائة وعشرين فرسًا وثمانين حياصة ذهبية. وعاش أبوه بعده، وكان تركى الجنس، وتقلب في هذه السعادة، ومات وسنه نيف على عشرين سنة.
أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 22.

السلطان الكامل تغير تغيرًا زائدًا، وأوقف عليه الأمير أرغون العلائي. بمفرده، فقال له: " والله لقد كنت أحسب هذا، وقلت لك فلم تسمع قولي "، وأشار عليه بكتمان هذا. وكتب الكامل الجواب يتضمن التلطف في القول، وأخرج الأمير منجك على البريد إلى الأمير يلبغا اليحياوي في ثاني عشريه، ليرجعه عما عزم عليه، ويكشف أحوال الأمراء؛ وكتب السلطان إلى أعمال مصر بإطالة السفر[1].

وبالرغم من أن السلطان الكامل شعبان قد تلطف في القول والفعل مع يلبغا إلا أن ذلك لم يكن كفيلاً بإثنائه عما عزم عليه فرد عليه بالقول: " إنك لا تصلح للملك، وإنك إنما أخذته بالغلبة من غير رضا الأمراء "، وعدد ما فعله.

ثم قال: " ونحن ما بقينا نصلح لك، وأنت فما تصلح لنا. والمصلحة أن تعزل نفسك " [2].

ثم حدث أن خرج نائب دمشق الأمير سيف الدين يلبغا ومعه الأمراء فنزلوا بميدان الحصا، وكتب إلى النواب بحلب، وحماة، وحمص، وطرابلس، وغيرها بما فعله، فأجابوه إلى ذلك، سوى نائب حلب، وقدموا عليه في جملة من عساكرهم فحلفوا له مع أمراء دمشق وأقاموا معه. فلما بلغ أهل مصر ما فعله أهل الشام انتحوا لأنفسهم، وانعزلوا عن السلطان الملك الكامل ولاموه فيما فعله بكبار الأمراء، فحلف ألا يعود، فلم يطمئنوا إليه واجتمعوا بالخليفة الحاكم والقضاة، وأبدوا لهم ما فعله السلطان بالأمراء من سفك دمائهم وتشتيتهم عن أوطانهم، فاتفقوا على خلعه، فخلعوه واعتقلوه هو وجماعة من بطانته، فكانت دولته أربعة عشر شهرًا. وتملك بعده أخوه الملك المظفر حاجى ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون في مستهل جمادى الآخرة[3].

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 25.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 25.

(3) الذهبي، العبر في خبر من غبر، 1 / 306 ويقول أبوالمحاسن: " وكان من أشر الملوك ظلمًا وعسفًا وفسقًا. وفي أيامه- مع قصر مدته- خربت بلاد كثيرة لشغفه باللهو وعكوفه على معاقرة

المظفر حاجى بن الناصر محمداً بن قلاوون 747 - 748 هـ:

وبعد أن قبض أمراء المماليك على الملك الكامل شعبان، أحضروا أخاه الأمير حاجى ابن الناصر محمدًا [1] وولوه السلطنة ولقبوه الملك المظفر حاجي، وبعد

الخمور، وسماع الأغاني وبيع الإقطاعات بالبذل، وكذلك الولايات، حتى إن الإقطاع كان يخرج عن صاحبه وهو حى بمال لآخر، فإذا وقف من خرج إقطاعه قيل له: نعوض عليك قد أخرجناه لفلان الفلاني.

وكان مع هذا كله سفاكًا للدماء، ولو طالت يده لأتلف خلائق كثيرة، وكان سيئ التدبير، يمكن النساء والطواشية من التصرف في المملكة والتهتك في النزه والصيد ولعب الكرة بالهيئات الجميلة وركوب الخيول المسومة، مع عدم الاحتشام من غير حجاب من الأمير آخورية والغلمان، ويعجبه ذلك من تهتكهن على الرجال؛ فشغف لذلك جماعة كثيرة من الجند بحرمه بما يفعلن من ركوب الخيول وغيرها. وكان حريمه إذا نزلن إلى نزهة بلغت الجرة الخمر إلى ثلاثين درهمًا، وهذا كله مع شرهه وشره حواشيه ونسائه إلى ما في أيدى الناس من البساتين والرزق والدواليب ونحوها؛ فأخذت أمه معصرة وزير بغداد ومنظرته على بركة الفيل، وأشياء غير ذلك. وحدث في أيامه أخذ خراج الرزق، وزيادة القانون، ونقص الأجاير؛ وأعيدت في أيامه ضمان أرباب الملاعيب وعدة مكوس. وكان يحب لعب الحمام، فلما تسلطن تغالى في ذلك وقرب من يكون من أرباب هذا الشأن. ومع هذا الظلم والطمع لم يوجد له من المال سوى مبلغ ثمانين ألف دينار وخمسمائة ألف درهم؛ إلا أنه كان مهابًا شجاعًا سيوسًا متفقدًا لأحوال مملكته، لا يشغله لهوه عن الجلوس في المواكب والحكم بين الناس. ولما أمسك وقتل قال فيه الصفدي:

بيت قلاوون سعاداته ::: في عاجل كانت وفى آجل

حل على أملاكه للردى ::: دين قد استوفاه بالكامل

أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 14- 15.

(1) السلطان الملك المظفر زين الدين حاجى المعروف بأمير حاج ابن السلطان الملك الناصر محمدًا بن قلاوون؛ وهو السلطان الثامن عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والسادس من أولاد الملك الناصر محمدًا ابن قلاوون. جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الملك الكامل شعبان والقبض عليه في يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة. وكان سجنه أخوه الملك الكامل شعبان كما تقدم ذكره. فلما انهزم الملك الكامل من الأمراء بقبة النصر ساق في أربعة مماليك إلى باب السر من القلعة، فوجده مغلقًا والمماليك بأعلاه، فتلطف بهم حتى فتحوه له، ودخل إلى القلعة لقتل أخويه حاجى هذا ومعه حسين، لأنهما كانا حبسا معًا؛ فلم يفتح له الخدام الباب، فمضى إلى أمه فاختفى عندها.

وصعد الأمراء في أثره إلى القلعة بعد أن قبضوا على الأمير أرغون العلائى وعلى الطواشى جوهر السحرتى اللالا وأسندمر الكاملى وقطلوبغا الكركى وجماعة أخر؛ ودخل بزلار وصمغار راكبين إلى باب الستارة وطلبا أمير حاج المذكور، فأدخلهما الخدام إلى الدهيشة حتى أخرجوه وأخاه من سجنهما، وخاطبا أمير حاج في الوقت بالملك المظفر. ثم دخل إليه الأمير أرغون شاه،

أن هدأت عاصفة الأمراء المماليك بخلع الكامل وتولية حاجي، إلا أن السلطان الجديد اتبع سياسة انتقامية من أمراء المماليك ممن لم يؤيدوا يلبغا اليحياوى في الخروج على السلطان الكامل، فبعد أن عاد يلبغا اليحياوى إلى دمشق وحلف للملك المظفر وحلف الأمراء على العادة، وأقام له الخطبة بدمشق، وضرب السكة باسمه، وسير إلى السلطان دنانير ودراهم منها، وكتب يهنئ السلطان بجلوسه على تخت الملك. وشكا الأمير يلبغا اليحياوي من نائب حلب ونائب غزة ونائب قلعة دمشق مغلطاى المرتيني ومن نائب قلعة صفد قرمجي، من أجل أنهم لم يوافقوه على خروجه عن طاعة الملك الكامل شعبان، فرسم السلطان بعزل الأمير طقتمر الأحمدى نائب حلب. وقدومه إلى مصر، ثم كتب السلطان بالقبض على الأمير مغلطاى المرتيني، نائب قلعة دمشق وعلى قرمجى نائب قلعة صفد.

ثم كتب بعزل نائب غزة، و خلع السلطان على الأمير أرقطاى باستقراره نائب السلطنة بديار مصر بآتفاق الأمراء على ذلك بعد ما امتنع من ذلك تمنعًا زائدًا، ثم أخرج الأمير أرغون شاه الأستادار على البريد إلى نيابة صفد. وسبب ذلك تكبره على السلطان، وتعاظمه عليه وتحكمه في الدولة، ومعارضته السلطان فيما يرسم به، وفحشه في مخاطبة السلطان والأمراء، حتى كرهته النفوس. وعزم السلطان على مسكه، فتلطف به النائب أرقطاى حتى تركه، وخلع عليه باستقراره في نيابة صفد، وأخرجه وقته خشية من فتنة يثيرها، فإنه كان قد اتفق

وقبل له الأرض وقال له: بسم الله، اخرج أنت سلطاننا، وسار به وبأخيه حسين إلى الرحبة وأجلسوه على باب الستارة.

ثم طلب شعبان حتى وجد بين الأزيار، وحبسوه حيث كان أخواه. وطلبوا الخليفة والقضاة، وخلعوا على حاجى الخلعة الخليفتي؛ وركب من باب الستارة بأبهة السلطنة وشعار الملك إلى الإيوان، وجلس على تخت الملك.

وحمل المماليك أخاه أمير حسين على أكتافهم إلى الإيوان. ولقب بالملك المظفر؛ وقبل الأمراء الأرض بين يديه، وحلف لهم أولاً، أنه لا يؤذى أحدًا منهم؛ ثم حلفوا له على طاعته. وركب الأمير بيغرا البريد وخرج إلى الشام ليبشر الأمير يلبغا اليحياوى نائب الشام ويحلفه ويحلف أيضًا أمراء الشام للملك المظفر. أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 15- 17.

مع عدة من المماليك على المخامرة. وأنعم السلطان بإقطاعه على الأمير ملكتمر الحجازى وأعطى ناحية بوتيج زيادة عليه، ثم تزوج السلطان ببنت الأمير تنكز زوجة أخيه الكامل[1].

ثم إن الكامل قد تعقب بعض الأمراء قتلاً وتشريدًا فيقول المقريزي: " وقتل السلطان المظفر حاجى في مدة أربعين يومًا أحدًا وثلاثين أميرًا، منهم أحد عشر أمراء ألوف " [2].

كما أن المظفر حاجى أظهر من الخلاعة والمجون وفساد الخلق ما جعل عهده أسوأ من عهد سلفه، فيذكر المؤرخون أنه بذل كثيرًا من الأموال لجواريه لا سيما جاريته اتفاق[3]وانهمك أيضًا الملك المظفر في اللذات، وشغف باتفاق حتى شغلته عن غيرها وملكت قلبه، وأفرط في حبها. فشق ذلك على الأمراء والمماليك وأكثروا من الكلام، حتى بلغ السلطان، وعزم على مسك جماعة منهم؛ فما زال به النائب حتى رجع عن ذلك.

وانهمك في الشراب وقضاء الأوقات في سماع الموسيقى والأغانى وذاع بين

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 25.

(2) السلوك، 1 / 146.

(3) كانت جارية سوداء حالكة السواد، اشترتها ضامنة المغانى بدون الأربعمائة درهم من ضامنة المغانى بمدينة بلبيس، وعلمتها الضرب بالعود على الأستاذ عبد على العواد، فمهرت فيه. وكانت حسنة الصوت جيدة الغناء، فقدمتها لبيت السلطان، فاشتهرت فيه حتى شغف بها الملك الصالح إسماعيل- فإنه كان يهوى الجوارى السودان- وتزوج بها. ثم لما تسلطن أخوه الملك الكامل شعبان باتت عنده من ليلته، لما كان في نفسه منها أيام أخيه. ونالت عندهما من الحظ والسعادة ما لا عرف في زمانها لامرأة غيرها، حتى إن الكامل عمل لها دائر بيت طوله اثنان وأربعون ذراعًا وعرضه ست أذرع، دخل فيه خمسة وتسعون ألف دينار مصرية، وذلك خارج عن البشخاناه والمخاد والمساند. وكان لها أربعون بذلة ثياب مرصعة بالجواهر، وستة عشر مقعد زركش، وثمانون مقنعة، فيها ما قيمته عشرون ألف درهم وأشياء غير ذلك، وتزوج بها السلطان خفية، وعقد له عليها شهاب الدين أحمد بن يحيى الجوجرى شاهد الخزانة. وبنى السلطان عليها من ليلته، بعدما جليت عليه، وفرش تحت رجليها ستون شقة أطلس، ونثر عليها الذهب. ثم ضربت بعودها وغنت، فأنعم عليها السلطان بأربعة فصوص وست لؤلؤات، ثمنها أربعمائة ألف درهم. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 5 / 81- 92.

الناس واشتهر بلعبه وإقباله على اللهو والشغف بالنساء حتى وصلت قيمة عصبة حظيته اتفاق التى على رأسها مائة ألف دينار وبلغت النفقة على عمل حظير الحمام سبعين ألف درهم وصار يحضر الأوباش بين يديه يلعبون بالصراع وغيره [1].

فعظم ذلك على الأمراء، وأخذ بعض المقربين من السلطان يعرفانه ما ينكره عليه الأمراء من اللعب بالحمام وتقريب الأوباش، وخوفوه فساد الأمر. فغضب السلطان، وأمر بخراب حظير الحمام، وأحضر الحمام وذبحها واحدًا واحدًا بيده، وقال لمن حوله من أمراء المماليك: والله لأذبحنكم كلكم كما ذبحت هذا الحمام، وتركهم وقام. فبات ليلته وأصبح ففرق جماعة أمراء المماليك في البلاد الشامية واستمر على إعراضه عن الجميع فاجتمع الأمراء على كلمة واحدة وهى الخلاص منه.

ولما وجد المظفر أن الأمراء قد جمعوا أمرهم على عزله والخلاص منه تلطف لهم في القول وأرسل إليهم يلومهم على الخروج على طاعته ويسألهم عما يطلبونه منه حتى يسترضيهم فبعثوا إليه: " قد علمنا فساد نيتك، وقد قتلت مماليك أبيك، وأخذت أموالهم، وهتكت حريمهم بغير موجب، وعزمت على الفتك بمن بقي، وأنت أول من حلف ألا تخون الأمراء، ولا تخرب بيت أحد. فرد السلطان الرسول إليه يستخبره عما يريدونه منه حتى يفعله لهم، فأعادوا جوابه أنهم لابد أن يسلطنوا غيره، فقال: ما أموت إلا على ظهر فرسي، فقبضوا على رسوله، وهموا بالزحف إليه [2].

فبادر السلطان بالركوب إليهم، وسار بمماليكه حتى وصل إلى قرب قبة النصر. فكان أول أن تركه الأمراء، وتلاهم بقيتهم، حتى جاء الأمير جاندار صهر السلطان آخرهم. وانضموا إلى الأمراء الناقمين عليه.

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 5 / 81- 92.
(2) المقريزي، السلوك، 2 / 141.

وبقى السلطان في نحو عشرين فارسًا، وتكاثروا عليه حتى قلعوه من سرجه فأردوه، وضرب وجرح وجهه وأصابعه. وساروا به على فرس إلى تربة أقسنقر الرومى تحت الجبل، ليذبحوه. ولما أنزلوه وأرادوا ذبحه توسل إلى الأمراء، وهو يقول: بالله لا تستعجلوا على قتلي، وخلونى ساعة، فقالوا: فكيف استعجلت على قتل الناس، لو صبرت عليهم صبرنا عليك، وذبحوه (1).

فكانت مدة المظفر حاجى سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يومًا، وعمره نحو عشرين سنة وكان شجاعًا جريئًا على الدنيا، منهمكًا في الفساد، كثير الإتلاف للمال (2).

الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمداً 748 - 752 هـ:

لم يكن أمراء المماليك يشغلهم كثيرًا كون السلطان يهتم لشؤون الرعية أم لا، ولكن أهم ما شغلهم هو التنافس على السلطة وعدم التعرض لهم بسوء، وكان الذى حدث أن السلطان المظفر حاجى بدأ يتعرض لهم بالعزل عن المناصب العليا، أو بقتل عدد منهم، فأجمع هؤلاء الأمراء أمرهم على عزله من منصبه، وتخلصوا منه، وأجمعوا رأيهم على اختيار أخيه حسن بن الناصر محمدًا بن قلاوون (3).

---

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 142.

(2) المقريزي، السلوك، 2 / 142.

(3) السلطان الملك الناصر بدر الدين، وقيل: ناصر الدين، أبو المعالى حسن- واللقب الثانى أصح؛ لأنه أخذ كنية أبيه، ولقبه وشهرته- ابن السلطان الملك الناصر محمدًا ابن السلطان الملك المنصور قلاوون. وأمه أم ولد ماتت عنه وهو صغير، فتولى تربيته خوند أردو، وكان أولاً يدعى قماري، واستمر بالدور السلطانية إلى أن كان من أمر أخيه الملك المظفر خاجى ما كان. وطلبت المماليك أخاه حسينًا للسلطنة، فقام الأمراء بسلطنة حسن هذا، وأجلسوه على تخت الملك بالإيوان في يوم الثلاثاء، رابع عشر شهر رمضان سنة ثمانى وأربعين وسبعمائة؛ وركب بشعار السلطنة وأبهة الملك.

ولما جلس على تخت الملك لقبوه بالملك الناصر سيف الدين قماري، فقال السلطان حسن للنائب أرقطاي: " يا أبت ما اسمى قماري، إنما اسمى حسن "؛ فاستلطفه الناس لصغر سنه ولذكائه، فقال

وفى عهد السلطان الجديد زادت سيطرة أمراء المماليك ولم يعد لـه من السلطة إلا اسمها، وزاد الفساد في البلاد، حتى إن المقريزى ليقول عن سنة تولية هذا السلطان الصغير: " فكانت سنة كثيرة الفساد في عامة أرض مصر والشام، من كثرة النفاق، وقطع الطريق، وولاية الوزير منجك [1]جميع أعمال المملكة بالمال، وانفراده وأخيه الأمير بيبغا روس [2] النائب بالتدبير، دون كل أحد [1].

لـه النائب: " يا خوند- والله- إن هذا آسم حسن، على خيرة الله تعالى ". فصاحت الجاووشية في الحال باسمه وشهرته وتم أمره؛ وحلف لـه الأمراء على العادة، وعمره يوم سلطنته إحدى عشرة سنة. وهو السلطان التاسع عشر من ملوك الترك بالديار المصرية، والسابع من أولاد الملك الناصر محمدًا بن قلاوون. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 5 / 81- 92.

(1) الأمير منجك (714- 776 هـ)، (1314- 1375 م) منجك بن عبد الله، سيف الدين اليوسفى الناصري: أمير داهية جبار. يعرف بمنجك الكبير.
كان في خدمة الناصر (محمد بن قلاوون) ثم كان هو الذى حمل رأس ابنه أحمد (الناصر ابن الناصر) سنة 745 واستقر حاجبًا بدمشق.
وولى الوزارة بمصر (سنة 748) وصرف عنها وأعيد إليها بعد أربعين يومًا.
ثم قبض عليه وسجن بالإسكندرية (سنة 752) وأفرج عنه (سنة 55) فسافر إلى صفد. ثم استقر في نيابة طرابلس.
وولى حلب (سنة 59) ومات في داره بمصر. ومن آثاره:(جامع منجك) بالقاهرة بناه سنة 751 هـ. الزركلي، الأعلام، 1 / 297.

(2) كان خاصكيًّا في حياة الناصر وأول ما اشتهر ذكره في دولة الصالح إسماعيل ثم عظم قدره في دولة المظفر حاجى حتى أعطاه فيها ألفى دينار ومائة قطعة قماش وأربعة أفراس بسروج ذهب وعمله أمير مجلس ثم باشر نيابة السلطنة في ولايته، فشكرت سيرته وأحبه الناس، وكان الطاعون العام في أيامه، فقام في تكفين من لا أهل له، فيقال إنهم ضبطوا من كفنهم فزادوا على مائة ألف، واستقر أخوه منجك في الوزارة، وأخرج أحمد الساقى إلى نيابة صفد والجيبغا إلى دمشق ولاجين العلائى زوج أم المظفر إلى حماة، ثم توجه إلى الحج في سنة 751 ومعه طازوبزلار وغيرهم فأمسكوا أخاه منجك أولاً ثم قبض عليه هو بالبقيع في سادس عشر ذى القعدة، فقال لطاز: إذا كان لابد من الموت، فبالله دعنى، حتى أحج فقيده، وحج وهو على تلك الحال وطاف وسعى وهو بقيده ولما رجع من الحج حبس بالكرك سنة 752 فلما ولى الصالح صالح أفرج عنه وقرر في نيابة حلب وذلك في شعبان من السنة فخلع طاعة الصالح، فاتفق مع أحمد الساقى نائب حماة وبكلمتش نائب طرابلس، فاجتمعوا ووصلوا إلى دمشق، فلم يوافقهم نائبها أرغون الكاملى وحلف العسكر للصالح صالح وتوجه بالعسكر إلى لد فاجتمع مع بيبغا روس ومن معه عساكر حماة وحلب وطرابلس وتركمان ابن دلغادر ودخلوا دمشق في رجب سنة 753، فهب التركمان بلاد حوران والبقاع والغوطة وأفسدوا غاية الفساد ووصل إليهم برناق نائب صفد ونزل بيبغا على قبة يلبغا،

وقد ضرب الطاعون أو الفناء الكبير مصر وبلاد الشام - كما الحال في جميع الكرة الأرضية - وأتى على الأخضر واليابس وعلى كل شيء حتى إنه قضى على ثلثي سكان مصر، ولم ينج منه حتى الحيوان فيقول المقريزي: " ومع ذلك فكان فيها الوباء الذى لم يعهد في الإسلام مثله، فإنه ابتدأ بأرض مصر آخر أيام التخضير وذلك في فصل الخريف في أثناء سنة ثمان وأربعين. وما أهل محرم سنة تسع وأربعين حتى انتشر الوباء في الإقليم بأسره، واشتد بديار مصر في شعبان ورمضان وشوال، وارتفع في نصف ذى القعدة.

وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف إلى عشرين ألف نفس في كل يوم. وعملت الناس التوابيت والدكك لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة، وحمل أكثر الموتى على ألواح الخشب وعلى السلالم والأبواب، وحفرت الحفائر وألقوا فيها. وكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والأربعون، وأكثر، وكان الموت بالطاعون يبصق الإنسان دمًا، ثم يصيح ويموت؛ وعم مع ذلك الغلاء في الدنيا جميعها.

ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم، بل عم أقاليم الأرض شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا جميع أجناس بنى أدم، وغيرهم حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر.

وأول ابتدائه من بلاد القان الكبير (المغول)، وبعدها من توريز - تبريز - إلى

ونزل أحمد الساقى بالمزيريب، فلما بلغهم وصول طاز إلى لد في عساكر مصر وتحققوا مجيء السلطان فر التركمان، وانهزم بيبغا وأصحابه إلى حلب فمنعوا من دخولها وقتل فاضل أخو بيبغا روس، وكان من الفرسان ووصل طاز بالعساكر إلى دمشق، ثم وصل الصالح في رمضان، وجهز طاز وشيخو وأرغون الكاملى إلى حلب، ففر بيبغا وجماعته إلى مرعش وما حولها فوقعت الثلوج والبرد، فعاد العسكر بعد أن قرر أرغون في نيابة حلب فتوجه الصالح بالعساكر إلى مصر ثم غدر قراجا ابن دلغادر بأحمد وبكلمش وقيدهما وجهزهما إلى حلب، فاعتقلا بالقلعة، ثم جهز إلى بيبغا روس من أمسكه في البلستين، فأدخلوه إلى حلب في المحرم، وقيل: في ربيع الأول سنة 754، ثم قتل وتوجه طغطاى الدوادار برأسه إلى مصر، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، 1 / 172.

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 152.

آخرها ستة أشهر، فهلكوا بأجمعهم من غير علة، في مشاتيهم ومصايفهم، وفى مراعيهم، وعلى ظهور خيولهم، وماتت خيولهم، وصاروا كلهم جيفًا مرمية فوق الأرض، فهلك من بلاد القان الكبير خلائق لا يحصي عددها إلا الله، ومات القان وأولاده الستة، و لم يبق بذاك الإقليم من يحكمه.

ثم اتصل الوباء ببلاد الشرق جميعها، وبلاد أزبك وبلاد إستانبول وقيصرية الروم؛ ودخل إلى أنطاكية حتى باد أهلها. وخرج جماعة من جبال أنطاكية فارين من الموت، فماتوا بأجمعهم في طريقهم، وعم الوباء بلاد قرمان وقيصرية وجميع جبالها وأعمالها، ففنى أهلها ودوابهم ومواشيهم. فرحلت الأكراد خوفًا من الموت، فلم يجدوا أرضًا إلا وفيها الموتى، فعادوا إلى أرضهم، وماتوا جميعًا.

وعظم الموت ببلاد " سيس " (أرمينية)، ومات من أهل تكفور في يوم واحد، بموضع واحد مائة وثمانون نفسًا؛ وخلت " سيس " وبلادها، ثم مات الناس والطيور والوحوش حتى خلت بلاد الخطا؛ وهلك ستة عشر ملكًا في مدة ثلاثة أشهر. وباد أهل الصين، و لم يبق منهم إلا القليل؛ وكان الفناء ببلاد الهند أقل منه ببلاد الصين.

ووقع الوباء ببغداد أيضًا، وكان الإنسان يصبح وقد وجد بوجهه طلوعًا، فما هو إلا أن يمر بيده عليه مات فجأة، وفى أول جمادى الأولى: ابتدأ الوباء بأرض حلب، فعم جميع بلاد الشام وبلاد ماردين وجبالها، وباد أهل الغور وسواحل عكا وصفد، وبلاد القدس ونابلس والكرك، وعربان البوادى وسكان الجبال والضياع، وأول ما بدأ الوباء بدمشق كان يخرج خلف أذن الإنسان بثرة فيخر صريعًا ثم صار يخرج بالإنسان كبة تحت إبطه، فلا يلبث ويموت سريعًا، وأقاموا على ذلك مدة، ثم بصقوا الدم، فاشتد الهول من كثرة الموت حتى أنه أكثر من كان يعيش بعد نفث الدم نحو خمسين ساعة.

وبلغ عدد من يموت بحلب في كل يوم خمسمائة إنسان، ومات بغزة من ثانى

المحرم إلى رابع صفر - على ما ورد في كتاب نائبها - زيادة على اثنين وعشرين ألف إنسان، حتى خربت أسواقها.

وشمل الموت أهل الضياع بأرض غزة، وكان أواخر زمان الحرث. فكان الرجل يوجد ميتا والمحراث في يده، ويوجد آخر قد مات وفي يده ما يبذره، وماتت أبقارهم. وخرج رجل بعشرين نفرًا لإصلاح أرضه، فماتوا واحدًا بعد واحد، وهو يراهم يتساقطون قدامه. فعاد إلى غزة، وسار منها إلى القاهرة. ودخل ستة نفر لسرقة دار بغزة فأخذوا ما في الدار ليخرجوا به فماتوا كلهم. وفر نائبها إلى ناحية بدعرش، وترك غزة خالية.

وعم الوباء بلاد الفرنج، وابتدأ في الدواب، ثم الأطفال والشباب، فلما شنع الموت فيهم جمع أهل قبرص من في أيديهم من الأسرى المسلمين، وقتلوهم جميعًا من بعد العصر إلى المغرب، خوفًا أن يبيد الموت الفرنج، فيملك المسلمون قبرص، وكانت المراكب إذا مرت بجزائر الفرنج لا تجد ركابها بها أحدًا، وإن صدفت أحدًا في بعضها يدعوهم أن يأخذوا من أصناف البضائع بالصبر بغير ثمن؛ لكثرة من كان يموت عندهم صاروا يلقون في البحر، وعم الموت أهل جزيرة الأندلس، إلا مدينة غرناطة، فإنه لم يصب أهلها منه شيء وباد من عداهم حتى لم يبق للفرنج من يمنع أموالهم...

وعم الموت إفريقية بأسرها، جبالها وصحاريها ومدنها، وجافت من الموتى، وبقيت أموال العربان سائبة لا تجد من يرعاها، ثم أصاب الغنم داء، فكانت الشاه إذا ذبحت وجد لحمها منتنا قد اسود. وتغير أيضًا ريح السمن واللبن، وماتت المواشي بأسرها، وشنع ذلك حتى أنه صلى في يوم الجمعة بالجامع الإسكندري دفعة واحدة على سبعمائة جنازة. وصار يحملون الموتى على الجنويات والألواح. وغلقت دار الطراز لعدم الصناع، وغلقت دار الوكالة لعدم الواصل إليها، وغلقت الأسواق وديوان الخمس؛ وأريق من الخمر ما يبلغ ثمنه زيادة على خمسمائة دينار. وقدمها مركب فيه إفرنج، فأخبروا أنهم رأوا بجزيرة طرابلس مركبًا عليه طير يحوم في غاية الكثرة، فقصدوه فإذا جميع من

فيه من الناس موتى، والطير تأكلهم، وقد مات من الطير أيضًا شيء كثير، فتركوهم ومروا، فما وصلوا إلى الإسكندرية حتى مات زيادة على ثلثيهم.

وفشا الموت بمدينة دمنهور، وتروجه، والبحيرة كلها حتى عم أهلها؛ وماتت دوابهم فبطل من الوجه البحرى سائر الضمانات، والموجبات السلطانية، وصارت الأموات على الأرض في جميع الوجه البحري، ولا يوجد من يدفنها وعظم الوباء بالمحلة حتى إن الوالى كان لا يجد من يشكو إليه؛ وكان القاضى إذا أتاه من يريد الإشهاد على وصيته لا يجد من العدول أحدًا إلا بعد عناء لقلتهم.

ومات الفلاحون بأسرهم، فلم يوجد من يضم الزرع وزهد أرباب الأموال في أموالهم، وبذلوها للفقراء، وعجز أهل بلبيس وسائر البلاد الشرقية عن ضم الزرع، لكثرة موت الفلاحين، وجافت الطرقات بالموتى، ومات سكان بيوت الشعر ودوابهم وكلابهم وتعطلت السواقى، وماتت الدواب والمواشى وأكثر هجن السلطان والأمراء، وامتلأت مساجد بلبيس وفنادقها وحوانيتها بالموتى، ولم يجدوا من يدفنهم، وجافت سوقها فلم يقدر أحد على القعود فيه؛ وخرج من بقى من باعتها إلى ما بين البساتين. ولم يبق بها مؤذن، وطرحت الموتى بجامعها، وصارت الكلاب فيه تأكل الموتى، ورحل كثير من أهلها إلى القاهرة وتعطلت بساتين دمياط وسواقيها، وجفت أشجارها؛ لكثرة موت أهلها ودوابهم، وصارت حوانيتها مفتحة والمعايش بها لا يقربها أحد، وغلقت دورها. وبقيت المراكب في البحيرة، وقد مات الصيادون فيها والشباك بأيديهم مملوءة سمكًا ميتًا، فكان يوجد في السمكة كبة. وهلكت الأبقار الخيسية والجاموس في المراحات والجزائر، ووجد فيها أيضًا الكبة.

ولم يحتج أحد في هذا الوباء إلى أشربة ولا أدوية ولا أطباء، لسرعة الموت. فما تنصف شوال إلا والطرقات والأسوق قد امتلأت بالأموات، وانتدبت جماعة لمواراتهم، وانقطع جماعة للصلاة عليهم في جميع مصليات القاهرة ومصر. وخرج الأمر عن الحد، ووقع العجز عن العدو، وهلك أكثر أجناد الحلقة؛ وخلت

أطباق القلعة من المماليك السلطانية لموتهم.

وما أَهَلَّ ذو القعدة: إلا القاهرة خالية مقفرة، لا يوجد في شوارعها مار، بحيث إنه يمر الإنسان من باب زويلة إلى باب النصر فلا يرى من يزاحمه، لكثرة الموتى والاشتغال بهم وعلت الأتربة على الطرقات، وتنكرت وجوه الناس، وامتلأت الأماكن بالصياح، فلا تجد بيتا إلا وفيه صيحة، ولا تمر بشارع إلا وفيه عدة أموات وصارت النعوش لكثرتها تصطدم، والأموات تختلط.

وصل في يوم الجمعة بعد الصلاة على الأموات بالجامع الحاكمى من القاهرة، فصفت التوابيت اثنين اثنين من باب مقصورة الخطابة إلى الباب الكبير. ووقف الإمام على العتبة، والناس خلفه خارج الجامع.

... ويقال: بلغت عدة الأموات في يوم واحد عشرين ألفًا، وأحصيت الجنائز بالقاهرة فقط في مدة شعبان ورمضان تسعمائة ألف، سوى من مات بالأحكار والحسينية والصليبية وباقى الخطط خارج القاهرة، وهم أضعاف ذلك. وعدمت النعوش، وبلغت عدتها ألفًا وأربعمائة نعش، فحملت الأموات على الأقفاص ودراريب الحوانيت وألواح الخشب؛ وصار يحمل الاثنان والثلاثة في نعش واحد على لوح واحد.

وامتلأت المقابر من باب النصر إلى قبة النصر طولاً، وإلى الجبل عرضًا. وامتلأت مقابر الحسينية إلى الريدانية، ومقابر خارج باب المحروق والقرافة. وصار الناس يبيتون بموتاهم على الترب، لعجزهم عن تواريهم. وكان أهل البيت يموتون جميعًا وهم عشرات، فما يوجد لهم سوى نعش واحد، ينقلون فيه شيئًا بعد شيء. وأخذ كثير من الناس دورًا وأثاثًا وأموالاً من غير استحقاق، لموت مستحقيها؛ فلم يتمل أكثرهم. مما أخذ ومات، ومن عاش منهم استغنى به.

وبطلت الأفراح والأعراس من بين الناس، فلم يعرف أن أحدًا عمل فرحًا في مدة الوباء، ولا سمع صوت غناء. وتعطل الأذان من عدة مواضع، وبقى في الموضع المشهور بأذان واحد.

وغلقت أكثر المساجد والزوايا. واستقر أنه ما ولد أحد في هذا الوباء إلا ومات بعد يوم أو يومين، ولحقته أمه.

وشمل في آخر السنة الفناء بلاد الصعيد بأسرها، وتعطلت دواليبها، ولم يدخل الوباء ثغر أسوان، فلم يمت به سوى أحد عشر إنسانًا...

وتواترت الأخبار من الغور وبيسان وغير ذلك من النواحى أنهم كانوا يجدون الأسود والذئاب والأرانب والإبل وحمر الوحش والخنازير وغيرها من الوحوش ميتة.

وكانت بحيرات السمك، توجد أسماكها الكثيرة طافية على الماء، وفيها الكبة. وكذلك كلما يصطاد منها، بحيث امتنع الناس من أكله. وكثر عناء الأجناد وغيرهم في أمر الزرع، فإن الوباء ابتدأ في آخر أيام التخضير، فكان الحراث يمر ببقره وهي تحرث في أراضى الرملة وغزة والساحل، وإذا به يخر ميتًا والمحراث في يده، ويبقى بقره بلا صاحب.

ثم كان الحال كذلك بأراضى مصر، فما جاء أوان الحصاد حتى فنى الفلاحون، ولم يبقى منهم إلا القليل، فخرج الأجناد وغلمانهم لتحصد، ونادوا من يحصد ويأخذ نصف ما يحصده. فلم يجدوا من يساعدهم على ضم الزروع، ودرسوا غلالهم على خيولهم، وذروها بأيديهم؛ وعجزوا عن كثير من الزرع، فتركوه.

وكانت الإقطاعات قد كثر تنقلها من كثرة موت الأجناد، بحيث كان الإقطاع الواحد يصير من واحد إلى آخر حتى يأخذه السابع والثامن، فأخذ إقطاعات الأجناد أرباب الصنائع من الخياطين والإسكافية والمنادمين، وركبوا الخيول [(1)].

هذا الوباء الرهيب قضى على حوالى ثلثى سكان مصر، وأقفرت المدن والقري، وخلت القاهرة من سكانها، وهرب السلطان ومن استطاع اللحاق به من أبناء الطبقة الحاكمة والأعيان إلى سرياقوس حيث ظنوا أنهم آمنون من

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 152- 157.

خطر الموت، وصارت الأملاك تنتقل بطريق الوراثة بين أثر من خمسة أو ستة أفراد في اليوم الواحد بسبب توالى أحداث الموت، كما استولى كثيرون من عامة الناس على الإقطاعيات التى كانت مخصصة لجنود الجيش المملوكي.

وتعطلت أكثر الصنائع، وعمل كثير من أرباب الصنائع أشغال الموتى، وتصدى كثير منهم للنداء على الأمتعة، وانحط سعر القماش ونحوه، حتى يبْعَ بخمس ثمنه وأقل: ولم يوجد من يشتريه وصارت كتب العلم ينادى عليها بالأحمال، فيباع الحمل منها بأبخس ثمن، واتضعت أسعار المبيعات كلها، حتى كانت الفضة النقرة التى يقال لها بمصر الفضة الحجر، تباع العشرة منها بتسعة دراهم كاملية. وبقى الدينار بخمسة عشر درهمًا، بعدما كان بعشرين.

وعدمت جميع الصنائع، فلم يوجد سقاء ولا بوابا، ولا غلام. وبلغت جامكية غلام الخيل ثمانين درهمًا في كل شهر، بعد ثلاثين درهمًا، فنودى بالقاهرة من كانت له صنعة فليرجع إلى صنعته، وضرب جماعة منهم. وبلغ ثمن راوية الماء إلى ثمانية دراهم، لقلة الرحال والجمال؛ وبلغت أجرة طحن الأردب القمح خمسة عشر درهمًا.

ويقال: إن هذا الوباء أقام على أهل الأرض مدة خمس عشرة سنة، وقد أكثر الناس من ذكره في أشعارهم، فقال الأديب زين الدين عمر بن الوردى من مقامة عملها:

إسكندرية ذا الوبا ::: سبع يمد إليك ضبعه
صبرًا لقسمتك التى تركت ::: من السبعين سبعه

وقال:

أصلح الله دمشقًا ::: وحماها عن مسبه
نفسها خست إلى أن ::: تقتل النفس بحبه

وقال:

إن الوبا قد غلبا ::: وقد بدا في حلبا

قـــالوا لـــــه عــــى الــــورى ::: كـــــاف ورا قلــــــت وبــــــا

وقال:

الله أكـــبر مـــن وبـــاء قـــد ســـبا ::: ويصـــول في العقـــلاء كـــالمجنون
ســـنت أســـنته لكـــل مدينـــة ::: فعجبـــت للمكـــروه في المســـنون

وقال:

حلـــــــب والله يكفـــــــي ::: شـــــــرها أرض مشـــــــقه
أصـــــبحت حبـــــة ســـــوء ::: تقتـــــل النـــــاس ببزقـــــه

وقال:

قـــالوا فســـاد الهـــواء يـــردى ::: فقلـــت يـــردى هـــوى الفســـاد
كـــم ســـيئات وكـــم خطايـــا ::: نـــادى علـــيكم بهـــا المنـــادي

وقال:

فهـــــذا يوصـــــى بـــــأولاده ::: وهـــــذا يـــــودع إخوانـــــه
وهـــــذا يهيـــــئ أشـــــغاله ::: وهـــــذا يجهـــــز أكفانـــــه
وهـــــذا يصـــــالح أعـــــداءه ::: وهـــــذا يلاطـــــف جيرانـــــه
وهـــــذا يوســـــع إنفاقـــــه ::: وهـــــذا يخالـــــل مـــــن خانـــــه
وهـــــذا يحـــــبس أملاكـــــه ::: وهـــــذا يحـــــرر غلمانـــــه
وهـــــذا يغـــــير أخلافـــــه ::: وهـــــذا يغـــــير ميزانـــــه
ألا إن هـــــذا الوبـــــا قـــــد ســـــبا ::: وقـــــد كـــــاد يرســـــل طوفانـــــه
ولا عاصـــــم اليـــــوم مـــــن أمـــــره ::: ســـــوى رحمـــــة الله عبدانـــــه

وقال الصلاح خليل بن أيبك الصفدي:

قد قلـت الطـاعون وهـو بغـزة ::: قد جـال مـن قطيـا إلى بـيروت
أخليت أرض الشام مـن سـكانها ::: وحكمت يـا طـاعون بالطـاغوت

وقال:

لمــــا افترســـــت صـــــحابي ::: يـــا عـــام تســـع وأربعينـــا
مـــــا كنـــــت والله تســـــعًا ::: بـــــل كنـــــت ســـــبعًا يقينـــــا

وقال:

دارت من الطاعون كأس الفنا ::: فالنفس من سكرته طافحة
قد خالف الشرع وأحكامه ::: لأنه يثبت بالرائحة

وقال:

أسفى على أكناف جلق إذ غدا ::: الطاعون فيها ذا زناد وارى
الموت أرخص ما يكون بجبه ::: والظلم زاد فصار بالقنطار

وقال:

أما دمشق فإنها قد أوحشت ::: من بعد ما شهد البرية أنسها
تاهت بعجب زائد حتى لقد ::: ضربت بطاعون عظيم نفسها

وقال:

تعجبت من طاعون جلق إذ غدا ::: وما فاتت الآذان وقعة طعنه
فكم مؤمن تلقاه أذعن طائعا ::: على أنه قد مات من خلف أذنه

وقال:

رعى الرحمن دهرًا قد تولى ::: يحاذى بالسلامة كل شرط
وكان الناس في غفلات أمر ::: فجا طاعونهم من تحت إبط

وقال:

يا رحمتا لدمشق من طاعونها ::: فالكل مغتبق به أو مصطبح
كم هالك نفث الدما من حلقه ::: أو ما تراه بغير سكين ذبح

وقال:

مصيبة الطاعون قد أصبحت ::: لم يخل منها في الورى بقعه
يدخل في المنزل لو أنه ::: مدينة أخلاه في جمعه

وقال الأديب بدر الدين الحسن بن حبيب الحلبي:

إن هذا الطاعون يفتك في العالم ::: فتك امرئ ظلوم حقود
ويطوف البلد شرقًا وغربًا ::: ويسرق العباد نحو اللحود
قد أباح الدما وحرم جمع الشمل ::: قهرًا وحل نظم العقود
كم طوى النشر من أخ عن أخيه ::: وسبا عقل والد بوليد

وقال:

أيتم الطفل أنكل الأم أبكــى الـــ ::: عين أجرى الدموع فــوق الخـــدود
بســـهام يرمــــى الأنـــام خفيًّـــا ::: ت تشـــق القلـــوب قبـــل الجلـــود
كما قلب زدت في الـــنقص أقصـــر ::: وتلبث يقـــول هـــل مـــن مزيـــد
إن أعـــش بعـــده فـــإني شـــكور ::: مخلـــص الحمـــد للـــولى الحميـــد
وإذا مـــــت هنئـــــوني وقولـــــوا ::: كم قتيـــل كمـــا قتلـــت شـــهيد

وقال الأديب جمال الدين محمد بن نباتة المصري:

سر بنا عن دمشق ياطالب العـــيش ::: فمـــا في المقـــام للمـــرء رغبـــه
رخصت أنفس الخلائـــق بالطـــاعون ::: فيهـــا كـــل نفـــس بحبـــه

وقال الصلاح خليل بن أيبك الصفدى أيضًا:

قد نغص الطاعون عـــيش الـــورى ::: وأذهـــــل الوالـــــد والوالـــــده
كـــم منـــــزل كالشـــمع ســـكانه ::: أطفــــأهم في نفخــــة واحــــده

وقال:

لا تثـــق بالحيـــاة طرفـــة عـــين ::: في زمـــان طاعونـــه مســـتطير
فكـــأن القبـــور شـــغلة شمـــع ::: والبرايـــا لهـــا فـــراش يطـــير

وقال الأديب إبراهيم المعمار:

يـــا طالـــب المـــوت أفـــق وانتبـــه ::: هــــذا أوان المـــوت مـــا فاتـــا
قد رخـــص المـــوت علـــى أهلـــه ::: ومـــات مـــن لا عمـــره ماتـــا

وقال:

قــــــبح الطـــــــاعون داء ::: فقــــدت فيــــه الأحبــــة
بيعــــــت الأنفـــــس فيـــــه ::: كـــــل نفـــــس بحبيبـــــه [1]

ونظرًا لموت هذا العدد الكبير من الناس انخفضت الأسعار بدرجة كبيرة، ولم تجد الغلال من يطحنها، بل إن كتب العلم رخصت لدرجة أنه كان ينادى عليها بالأحمال، ويباع الحمل منها بأرخص ثمن، كما تدنت أسعار الذهب

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 157- 158.

والفضة [1].

ولم تسلم مصر ولا بلاد الشام من البلايا والمصائب في عهد هذا السلطان الصغير، فبالرغم من الطاعون الذى حصد حياة البشر والحيوان والنبات، فإن ذلك لم يكن رادعًا لأمراء المماليك الذين تنافسوا فيما بينهم، فقد ذكر المؤرخون أن الشام شهدت فتنة كبيرة إذ اعتدى نائب طرابلس جبغا [2] على دمشق واغتال نائبها أرغون شاه [3]، فوثب

(1) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 134.

(2) وكان الجيبغا من مماليك المظفر حاجى ابن الملك الناصر محمدًا بن قلاوون ومن خواصه. وقتل الجيبغا وسنه دون العشرين سنة، بعد أن صار أمير مائة ومقدم ألف بمصر والشام ونائب طرابلس، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 3 / 158.

(3) أرغون شاه بن عبد الله الناصري، الأمير سيف الدين، أحد مماليك الملك الناصر محمدًا بن قلاوون.

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي: كان رأس نوبة الجمدارية أيام أستاذه الناصر، وَكَانَ هو وأرغون العلائى شريكين في هَذِهِ الوظيفة لكن هَذَا هو المقدم وكان في أول أمره جلبه الكمال الخطائى إلى القان بوسعيد من بلاد الصين، هو وسبعة مماليك وثمانمائة ثوب وبرخطائي، من أملاك بو سعيد الموروثة له عن أبيه وجده، من جدهم جنكيزخان من تلك البلاد، فنم عَلى الخطائى لبوسعيد فصادره وأخذ منه مائة ألف دينار ثم إن بو سعيد كرهه لذلك فأعطاه لدمشق خجا بن جوبان، فكأن ذَلِكَ لم يهن عليه، فنم إلى بوسعيد أيضًا بأمر دمشق خجا مع الخاتون طقطاي، وجرى من أمرهما ما جرى من حز رأسها، ثم إن بوسعيد ارتجع أرغون شاه ثم بعثه إلى الملك الناصر هو والأمير ملكتمر السعيدي، فحظى الأمير أرغون شاه عند الناصر وأمّره وجعله رأس نوبة، وزوجه ببنت الأمير آقبغا عبد الواحد، ولم يزل بمصر إلى أن أخرج مع الفخرى لحصار الكرك، ثم توجه مع العساكر الشامية إلى القاهرة.

وجرى منه في نيابة طشتمر ما أوجب ضربه وإخراجه إلى طرابلس، ثم شفع فيه، ولما تولى الملك الكامل حظى عنده وجعله استدارًا، ثم تولى الملك المظفر فزادت حظوته عنده، فلما كان بعد ثلاثة أشهر خرج مع النائب الحاج أرقطاى من عند السلطان، فاخرج تشريف شرف فألبسه، فطلب الاجتماع بالسلطان فمنع، وخرج لنيابة صفد فول إليها عَلى البريد في خمسة أرؤس في أوائل شوال سنة سبع وأربعين وسبعمائة، فدبرها جيدًا، وأقام الحرمة والمهابة وأمن السبل، ولم يزل بها إلى أن طلب إلى مصر في العشر الأواخر من صفر من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، ورسم له نيابة حلب عوضًا من الأمير بيدمر البدرى إلى أن قال: وتوجه إلى حلب برخت وأبهة زائدة، وبسروج مفرقه مرصعة، وكبايش زركش، وغير ذَلِكَ من البرك المليح الطريف، والجميع باسمه ورنكه، فأقام بحلب إلى أن جرى للأمير يلبغا اليحياوى ما جرى، رسم له نيابة الشام عوضه، فحضر إليه الأمير

شمس الدين آق سنقر أمير جندار، فدخل إلى دمشق بكرة الثلاثاء سابع عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وباشر نيابة دمشق بحرمة وافرة.
وقدم إليه يومًا وهو بسوق الخيل بدمشق نصراني من الزبداني رمى مسلمًا بسهم فمات منه فأمر بقتله وتفصيل أعضائه، فقطعت يداه من كتفيه، ورجلاه من فخذيه، وجز رأسه، وحملت أعضاؤه عَلَى أعواد، فارتعب الناس لذلك، فقلت:

لله أرغون شاه	:::	كم للمهابة حصّل
وكم بسيف سُطاه	:::	من ذى ضلال تنصَّل
ومجمل الرعب خلّى	:::	بعض النصادى مفصَّل

ثم قال: ولم ينل أحد من السعادة ما ناله وحصله في المدة القريبة من المماليك والخيول والجوهر والأمتعة والقماش، ولا تمكن أحد بعد الأمير تنكز تمكنه. وكان يكتب إلى مصر بكل ما يريده في حلب وطرابلس وحماه وصفد وسائر ممالك الشام، من نقل وإضافة وأمسك، فلا يرد في شيء يكتبه، ولا يخالف في جليله ولا حقيره، إلى أن زاد الأمر وأفرط هو في معارضة القضاة الأربع وعاكسهم، وثقلت وطأته عَلَى الناس، إلى أن حضر الأمير الجيبغا من طرابلس في ليلة أسفر صباحها عن يوم الخميس ثالث وعشرين شهر ربيع الأول سنة خمسين وسبعمائة، واتفق في الليل هو والأمير فخر الدين أياز السلاح دار، وجاءا إليه إلى باب القصر الأبلق وهو به نائم في فراشه، فدقا الباب عَلَيْهِ في الآخر من الليل وأزعجاه، فكانا كلما خرج طواشي أمسكاه، وسمع هو الغلبة فخرج وبيده سيف فلما رآهما سلم نفسه، فأخذاه عَلَى تلك الحالة التى خرج عليها، وتوجها به إلى دار فخر الدين وقيداه بقيد ثقيل للغاية ونقلاه إلى زاوية المنيبع، ورسم عليه الأمير علاء الدين ألطنبغا القاسمي، فأقام هناك يوم الخميس إلى العشاء الآخرة، ودخل مملوكه الذى يخدمه فوجده مذبوحًا والسكين في يده، فوقف عليه بالليل القاضي جمال الدين الحسباني والشهود، وكتب بذلك محضر شرعي، وجهز إلى مصر صحبة الأمير يلبلك أمير علم، ثم دفن بمقابر الصوفية.
وكان شخصًا مختصر اللحية، أسود الوجه ظريفًا، حسن العمة، شديد العزمة، عالى الهمة، ذهنه يتوقد، ونفسه تزاحم الفرقد يقترح في الملابس أشكالاً غريبة، ويعمل بيده منها صنائع عجيبة، إلا أنه جبار سفاك، طالب لثأره، دراك يده السيف ممتشقة، وغيظه يؤديه إلى العطب، وخلقه لا يشرب إلا من قليب دم، ولا يتنسم الهواء إلا بسم، ومع ذَلِكَ إذا ظهر له الحق رجع في الحال، وندم عَلَى ما فرط منه واستحال، لكنه يروح في ذَلِكَ الغضب أرواح، وتتنكد لخلقه من الناس أشباح، وكان بدمشق في زمن الطاعون فما طعن عادة الملوك، وإنما طعن بالسيف الذى يدر الدم وهو مسفوك، فنظمت فيه:

تعجبت من أرغون شاه وطيشه الــ	:::	ذى كان منه لا يفيق ولا يعي
وما زال في سكر النيابة طافحًا	:::	إلى حين غاضت نفسه في المنيبع

انتهى كلام الصفدى باختصار.
قلت: كانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة خمسين وسبعمائة، رحمه الله تعالى.

جندها على نائب طرابلس، وقبضوا عليه ثم شنقوه [1].

ثم إن بعض الأمراء تآمروا على خلع الملك فقبضوا عليه وسجنوه بالقلعة داخل منزل الحرم سنة752 هـ / 1351م، بعد أن لبث في الحكم ثلاث سنين وتسعة أشهر واختاروا من بعده أخاه الصالح [2].

الصالح صلاح الدين بن الناصر محمداً 752 - 755 هـ:

بويع بالسلطنة عام 752 هـ / 1351م، بعد خلع أخيه حسن، وكان الذى سعى في توليته السلطنة الأمير طاز [3] الذى استأثر بالحكم دون السلطان الجديد، ولم

---

(1) الذهبي، العبر في خبر من غبر، 1 / 311، وقد قدم الأمير سيف الدين ألجى بغا المظفرى نائب طرابلس إلى دمشق مختفيًا في جماعة من أصحابه، فنزل ليلاً على الأمير فخر الدين إياس الذى كان نائب حلب، وكان نائب دمشق الأمير سيف الدين أرغون شاه تلك الليلة بالقصر الظاهري، فتلطف ألجى بغا وإياس بالبوابين ففتحوا ودخلوا إلى باب القصر فطرقوه بزعجة، فخرج أرغون شاه مسرعًا، فقبضوه وسحبوه إلى خارج القصر عند المنيع، فذبحوه وأمسكوا السكين بيده، وأحضروا من ليلتهم القاضى جمال الدين إبراهيم الحسبانى والشهود وسألوهم: هل تعرفون هذا؟ فأنكره القاضى والشهود، فعرفوهم به وراودوهم أن يعملوا محضرًا أنهم وجدوه مذبوحًا وبيده السكين، يعنون أنه ذبح نفسه، فامتنع القاضى والشهود وأدركهم الصبح، فظهر ألجى بغا وإياس، ونصبوا الخيام بالميدان الكبير، وأخرجوا كتابًا مفتعلاً على السلطان أنه أمرهم بما فعلوا، وجلس ألجى بغا والموقعون في الميدان فحكم ذلك اليوم، وعلم على المراسيم كعادة النواب، فلما كان في اليوم الثاني، أراد الخروج والعود إلى طرابلس، فخرج ذوو الرأى من الأمراء مثل ألجى بغا العادلي، وبدر الدين بن خضير في آخرين وهم ملبسون، وأرادوا منعه من الخروج من دمشق حتى يكاتبوا إلى مصر ويستصحوا الخبر، فانتدب لهم ألجى بغا الخارجى بمن معه بالسيوف، فتأخر عنه الأمراء وخافوا الفتنة، لكن قطعت يد ألجى بغا العادلي، وخرج ألجى بغا المظفرى على حمية حتى قدم طرابلس، وبلغ ذلك السلطان فأنكر على أمراء الشام بسبب ذلك، وأرسل يطلب ألجى بغا العادلي، فخرج من طرابلس وشق العصا، فركب العسكر في طلبه، وتوجه إليه جماعة من عسكر دمشق وضايقوه في البرية حتى قبضوه وحضروا به إلى دمشق، وحبسوه مع وإياس بالقلعة، فورد المرسوم بقتلهما وإشهارهما، فقتلا في حادى وعشرين ربيع الآخر، وعلقا تحت القلعة نصفين. الذهبي، العبر في خبر من غبر، 1 / 311.

(2) الذهبي، العبر في خبر من غبر، 1 / 311.

(3) طاز بن عبد الله الناصري، الأمير سيف الدين، أحد أعيان الأمراء بالديار المصرية، ثم نائب حلب. أصله من مماليك الملك الناصر محمدًا بن قلاوون، ومن خاصكيته. ثم تنقلت به الأحوال بعد موته، حتى صار من أعظم أمراء الديار المصرية، وهو كان أكبر الأسباب لخلع السلطان الملك الناصر حسن، وتولية أخيه الملك الصالح صالح. ولما تسلطن الملك الصالح صالح، وصار الأمر لطاز

يكن للسلطان إلا الاسم، فيما كان طاز هو المتصرف الوحيد لأمور السلطنة، وأصبح السلطان كالمحجور عليه، ثم إن طاز سلب السلطة من أمراء المماليك

المذكور، ودام على ذلك سنين. ثم وقع بينه وبين جماعة من أكابر أمراء الدولة وحشة، وهم: الأمير مغلطاي، ومنكلي، وطاز هذا، فركب مغلطاى ومنكلى بآلة الحرب، وتوجها إلى قبة النصر خارج القاهرة فعند ذلك ركب طاز ومعه الملك الصالح والخاصكية، ونودي، أى من وجد أحدًا من مماليك مغلطاى ومنكلى يقتله، فقتل من مماليكهم جماعة، ومسك منكلى ومغلطاى عند خليج الزعفران خارج القاهرة. وحبسا بخزانة شمائل، ثم أرسلا إلى الإسكندرية، واستولى طاز على المملكة. وأفرج عن شيخو اللالا، وبيبغا أرس ومنجك اليوسفي. وصار شيخون أتابك العساكر، وتولى بيبغا أرس نيابة حلب. وبقى الأمر في المملكة لثلاثة: طاز، وشيخون، وصرغتمش، فكان شيخو أتابك العساكر، وطاز أمير مجلس، وصرغتمش رأس نوبة النوب، وقبلاى نائب السلطنة، والأمر كله لطاز هذا، لعظم شوكته.

وقوى أمره في الدولة إلى الغاية، حتى إنه لما فرغ من بناء بيته والقصر الذى فيه، بالشارع خارج باب زويلة، تجاه حمام الفارقاني، عمل مأدبة، وعزم على السلطان والأمراء، ومد لهم سماطًا عظيمًا، فلما فرغ السماط، وعزم السلطان على الركوب، قدم إليه أربعة أرؤس من الخيل، بسروج ذهب وكنابيش مزركش. وقدم لشيخون فرسين على تلك الهيئة، ولصرغتمش أيضًا فرسين، ولكل مقدم ألف فرس، والجميع بقماش ذهب. ولم يعهد قبل ذلك نزول سلطان لبيت أمير، بعد الملك الناصر محمدًا بن قلاوون. ثم وقع بين طاز وبين صرغتمش وحشة في الباطن. وصار شيخون يسكن الفتنة بينهما، إلى أن اتفق طاز مع حاشيته، أنه يخرج إلى الصيد، فإذا غاب عن القاهرة، يركب هؤلاء على صرغتمش وذويه ويمسكونهم في غيبته. كل ذلك استحياء من شيخون، فوقع ذلك. فلما سمع شيخون بركوبهم، أمر هو أيضًا مماليكه أن يركبوا، وكانوا سبعمائة مملوك، فركبوا مع صرغتمش، وقاتلوا جماعة طاز حتى هزموهم وقبضوا عليهم. ثم خلع شيخون الملك الصالح صالح، وأعاد الملك الناصر حسن إلى الملك الناصر حسن إلى الملك.

كل ذلك وطاز في الصيد.

فلما حضر طاز بعد أن طلب الأمان من شيخون، فأمنه بعد معاتبة. ودخل إلى السلطان حسن، فرسم له بنيابة حلب، عوضًا عن الأمير أرغون الكاملي، في سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فتوجه إلى حلب، ودام في نيابتها إلى سنة تسع وخمسين، أخذ في أسباب العصيان، ففطن به أمراء حلب، فكلموه في ذلك فأغلظ عليهم. ثم ركب من الغد، وحصل بينه وبينهم بعض قتال، ليس بذاك، ثم اصطلحوا على أنه يتوجه إلى القاهرة، فتوجه في السنة المذكورة، فلما قرب من غزة، أمسك وأرسل إلى الكرك، فحبس بها، ثم سمل وعمي، ثم أطلق بطالاً بدمشق، إلى أن توفى سنة ثلاث وستين وسبعمائة.

وكان أميرًا جليلاً، شجاعًا مقدامًا، عالى الهمة، ذا رأى وتدبير، ومعرفة وسياسة. وكان ذا شكل حسن جميلاً، حلو اللفظ، وعنده كرم وحشمة، رحمه الله تعالى.

ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 42.

واستأثر بها لنفسه، مما أوغر صدورهم عليه وسعوا لإسقاطه بالقوة هو والسلطان، فوقعت حرب أهلية بين الجانبين قرب المطرية عند خليج الزعفران، قتل فيها عدد كبير من الأمراء، ثم انتصر السلطان عليهم وقبض على بعضهم وألقى بهم في السجون [(1)] ونكل بهم مما زاد من حنق بقية الأمراء عليه [(2)].

ولم يكد الملك الصالح ينتهي من فتنة أمراء المماليك في مصر حتى خرج عليه أمراء المماليك في بلاد الشام بزعامة بيبغا أروس نائب حلب، ونائب طرابلس ونائب حماة ونائب صفد وغيرهم من كبار أمراء المماليك في بلاد الشام، فوقعت ببلاد الشام فتنة كبيرة وكادت الشام تخرج عن حظيرة السلطنة المصرية، فسار إليهم الأمير طاز بجيش كبير وبصحبته السلطان الملك الصالح، وطارد بيبغا حتى هرب إلى بلاد التركمان، وألقى القبض على كثير من جنوده ومؤيديه، وأعدم بعض الأمراء المنضمين إليه، وسجن البعض الآخر ثم عاد إلى القاهرة وسط احتفالات وفرحة عارمة [(3)].

عودة الناصر حسن بن الناصر محمداً بن قلاوون 755 - 762 هـ:

بالرغم مما عرف عن الملك الصالح من حزم وما عرف عنه من حسن السيرة، إلا أن سلطة أمراء المماليك كانت أكبر من أى سلطة حتى وإن كانت للسلاطين، وزاد التنافس بين هؤلاء الأمراء على الاستئثار بالسلطة وصار الواحد منهم يعقب الآخر في السيطرة على البلاد وأصبح السلاطين العوبة في أيديهم يولونهم ويعزلونهم متى شاؤوا وشاءت أهواؤهم، وجريًا على هذه القاعدة قام مجموعة من الأمراء المماليك بزعامة الأمير شيخو[(4)] بعزل

---

(1) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، 1 / 254.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، 1 / 194- 195.

(3) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، 1 / 254، ابن إياس، بدائع الزهور، 1 / 194- 195.

(4) شيخو بن عبد الله الناصرى الأمير الكبير سيف الدين. أصله من كتابية الملك الناصر محمدًا بن قلاوون، وتقدم في دولة الملك المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون، وصار من أعيان الأمراء. ولما خلع المظفر وقتل، وتسلطن أخوه الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، في يوم الثلاثاء رابع

عشر شهر رمضان ثمان وأربعين وسبعمائة، وصار المتحدث في الدولة الأمير شيخو هذا واستمر على ذلك إلى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، كتب إليه وهو في الصيد بنيابة طرابلس، فلم يقبل وقدم القاهرة، فرسم بمسكه، فأمسك هو والأمير منجك اليوسفي.
وكان شيخو رأس نوبة، ومنجك وزير وأستادار، فقيدًا وأرسلا إلى دمشق، ثم رسم بعودهما وحبسهما بالإسكندرية. وكان ذلك بدسيسة مغلطاى بورى أمير آخور. فإنه قال للملك الناصر حسن: لا يصفو لك الملك، حتى يخرج من بيننا بيبغا أرس ومنجك وشيخو. وكان السلطان بعث بالأمير طاز قبل تاريخه، بمسك بيبغا أرس، فمسكه من الينبع بعد قضاء الحج، وقيده وأرسله إلى الكرك. وكان الملك المجاهد صاحب اليمن، قد حج في هذه السنة، فوقع بينه وبين الأمير طاز حرب بجبل عرفات. فانتصر الأمير طاز، وأمسك الملك المجاهد، وحضر به إلى السلطان مقيدًا، ووقع له ما حكيناه في ترجمة المجاهد.
ثم أخلع الملك الناصر على مغلطاى باستقراره رأس وبه، عوضًا عن شيخو، وبأرغون تتر نائب السلطنة بالديار المصرية. واستمر شيخو محبوسًا، إلى أن خلع الملك الناصر حسن، وتسلطن الملك الصالح. أطلق شيخو المذكور، وأحضر إلى القاهرة في شهر رجب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، واستقر على عادته أولاً. وتوجه مع الملك الصالح، في وقعة أرغون الكاملي وعاد صحبة السلطان إلى الديار المصرية، ثم وجهه السلطان وصحبته عسكرًا إلى بلاد الصعيد لقتال ابن الأحدب، فأظهر في هذه الوقعة ما أخفى على الناس من شجاعته، وأبلى في العرب المفسدين بلاء حسنًا، ثم عاد. وصار طاز وشيخو مدبرى المملكة، فأخلع على طاز واستقر أتابكًا، وعلى الأمير شيخو رأس نوبة النوب، وأخرجا بيبغا أرس إلى نيابة حلب، عوضًا عن أرغون الكاملي. فتوجه بيبغا إلى محل كفالته، وخرج من الطاعة، فخرج إليه طاز وشيخو، ومعهما السلطان، إلى البلاد الشامية لقتال بيبغا أرس المذكور فقتلوه وظفروا به، وعادوا إلى القاهرة، والمتكلم في الدولة الأمير شيخو.
واستمر الأمر على ذلك، إلى سنة خمس وخمسين وسبعمائة، وقع بين شيخو وبين السلطان. فلما كان يوم الإثنين ثانى شوال، اتفق أكثر الأمراء مع الأمير شيخو على خلع الملك الصالح، وسلطنة السلطان حسن ثانيًا. وكان الأمير طاز مسافرًا بالبحيرة، وتم لهم ما أرادوه. وخلع الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون، وجلس حسن على تخت الملك ثانيًا. وكانت مدة سلطنة الملك الصالح صالح، وحبس الملك الناصر حسن، ثلاثة سنين وثلاث شهور وأربعة عشر يومًا. فلما استقر الملك الناصر حسن في الملك، قبض على الأمير طاز وإخوته. ثم شفع الأمير شيخو فيه، فرسم له بنيابة حلب. واستقر الأمير شيخو صاحب الأمر والنهى من غير مشارك، وصار أتابك العساكر، وسمى بالأمير الكبير. وهو أول من سمى بهذا الاسم. وأخذ في عمارة الخانقاة والجامع بالصليبة، فكملت الخانقاة في سنة ست وخمسين وسبعمائة. وجعل العلامة أكمل الدين البابرتى شارع الهداية شيخ خانقاته ومدرسها، وعمر أوقافها وعدة أماكن أخر. وصار عظيم الدولة ومدبرها، وأثرى وكثر ماله وأملاكه، حتى قيل: إنه كان يدخل إلى حاصله في اليوم مائتا ألف درهم من أملاكه وإقطاعه ومستأجراته.
واستمر في عزه، إلى يوم ثامن شعبان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وثب عليه مملوك من مماليك السلطان، يقال له: قطلوخجا السلحدار، وضربه بالسيف ثلاث ضربات في وجهه وفى يده وفى

السلطان الصالح وألقوا القبض عليه وسجنوه بمنزل الحرم بالقلعة أيضًا - مستغلين في ذلك خروج الأمير طاز إلى الصيد في بعض قرى البحيرة - وأجمعوا أمرهم على إعادة الناصر حسن إلى العرش ثانيًا بعد أن قضى الصالح في الحكم نحو ثلاث سنين وثلاثة أشهر ونصف [(1)].

وكانت عود الناصر حسن بن الناصر محمدًا بن قلاوون في سنة 755 هـ، وكان طبيعيًّا أن يستولى من ساعدوه في العودة إلى الحكم على مقاليد الأمور فكان الأمير شيخو هو المتصرف في شؤون السلطنة وإن كان يساعده الأمير صرغتمش [(2)] ولكن بعد أن تآمر بعض أمراء المماليك على الأمير شيخو وقتله

ذراعه، وهو جالس في دار العدل بحضرة السلطان حسن، فأمسك قطلوخجا المذكور، وسقط شيخو إلى الأرض. وقام السلطان، وطلعوا مماليك الأمير شيخو إلى القلعة ملبسين راكبين من باب السر، وصحبيتهم من الأمراء، الأمير خليل بن قوصون، إلى طبقة الأشرفية، وحملوا شيخو المذكور على جنوية، ونزلوا به إلى داره، فوجدوا به رمقًا فخيطوا جراحاته وبات تلك الليلة، ونزل إليه السلطان الملك الناصر حسن من الغد إلى بيته، واستعطفه وحلف له، أن الذى جرى لم يكن به علم. وأحضر قطلوخجا المذكور فقال: ما أمرنى أحد، ولكنى قدمت إليه قصة فما قضى لى حاجتي.

فرسم السلطان بتسميره وتوسيطه، فسمر وطيف به، ثم وسط.

واستمر شيخو ملازمًا للفراش، إلى أن مات في سادس عشر ذى القعدة من سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وقيل في ذى الحجة، وفى يوم موته زلزلت الأرض زلزلة لطيفة.

وكان أميرًا كبيرًا، جليلاً، شجاعًا مقدامًا، جوادًا كريمًا، ممدحًا، دينًا خيرًا، عفيفًا، بنى عدة أماكن بالقاهرة وغيرها، معروف غالبها به، ووقف وقفًا جيدًا على عمائره، وعلى وجوه البر والصدقة. وخانقاته بالصليبة من أعظم الخوانق. وكان ذا رأى وتدبير ومعرفة وسياسة، وكان يحب مجالسة العلماء ويجلهم إلى الغاية، ويكرم أهل الصلاح ويبرهم. وكان كثير الصدقات، وكانت عدة صدقته من المائة دينار إلى ما دونها، دوامًا ليس ذلك نادرًا، وكان يرسل بمال عظيم في كل سنة، يفرق في الحرمين الشريفين، وكان يتفقد معارفه وأصحابه ويقضى حوائجهم، رحمه الله تعالى وعفا عنه. ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 18- 19.

(1) ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 19.

(2) صرغتمش بن عبد الله الناصري، الأمير سيف الدين، صاحب المدرسة بالصليبة. أصله من مماليك الملك الناصر محمدًا بن قلاوون، ومن كبار الأمراء في الدولة الناصرية حسن، ومدبر المملكة بعد موت الأمير شيخون الأتابك. ولما مات الأمير شيخون، عظم في الدولة واستطال، وأخذ وأعطى وزادت حرمته، وكثرت أمواله، ثم إنه لم يرض بما هو فيه وطلب غير ذلك. وبلغ الملك الناصر حسن خبره، فرسم السلطان لمماليكه بالقبض على صرغتمش المذكور، عند دخوله إليه في الخلوة. فلما دخل إليه، أمسكوه وأمسك معه الأمير طشتمر القاسمى حاجب الحجاب، وطيبغا الماجاري،

سنة 758 هـ خلا الجو للأمير صرغتمش واستأثر بالسلطة دون السلطان الناصر حسن، ولكن السلطان - الذى تنفس الصعداء بعد الخلاص من شيخو - لم يرض بأن تنتقل الوصاية إلى أمير جديد ورفض سيطرة صرغتمش على مقاليد الأمور دونه، ودبر مكيدة تمكن بها القبض على صرغتمش وألقى به في غياهب السجون، ولما حاول مماليكه وأعوانه الثأر لأستاذهم تمكن السلطان الناصر حسن من هزيمتهم وردهم على أعقابهم وألقى القبض على عدد منهم وقتل البعض الآخر [1].

ولم يتمتع السلطان الناصر حسن طويلاً بسلطته فسرعان ما ازداد نفوذ يلبغا العمرى حتى أصبح يرجع إليه في تصريف أمور الدولة، كما صار يعترض على أعمال الناصر حسن، فأنكر عليه منحه الإقطاعات الكبيرة للنساء وتدخل الطواشية في امور الدولة، فصار السلطان الناصر حسن يتحين الفرصة للقبض على يلبغا العمرى للخلاص منه (... فلما أن استهلت سنة اثنتين وستين

وأزمر، وقماري، وجماعة من أمراء الطبلخانات.

فلما سمعوا مماليك صرغتمش، ركبوا وطلعوا إلى الرميلة، فنزل إليهم مماليك السلطان، وتقاتلوا من بكرة النهار إلى العصر. ونهبت دار صرغتمش ودكاكين الصليبية، ومسك من الأعاجم الذين بخانقاته جماعة، وذلك في يوم الاثنين والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وخمسين وسبعمائة. ثم حمل إلى الإسكندرية وسجن بها، إلى أن مات في ذى الحجة من السنة. وفى موتته أقوال، والله أعلم.

وكان أميرًا جليلاً، مهابًا شجاعًا كريمًا، لكنه كان عنده ظلم وعسف. وهو صاحب المدرسة التى أنشأها بالصليبية، وله مآثر غيرها. وعمر بمكة المشرفة ميضاة بين رباط الخليفة والبيمارستان المستنصري، وعمر أيضًا أماكن بالمسجد الحرام بمكة، وجدد المشعر الحرام.

وكان مليح الصورة، جميلاً، يكتب جيدًا، ويقرأ تجويدًا، ويتكلم في الفقه والعربية بكلام مقبول، وكان جيد المشاركة حسن التصور.

ولما حبس بثغر الإسكندرية، كتب للملك الناصر حسن قبل موته بمدة يسيرة كتابًا، في أوله فائية ابن الفارض يتخضع له:

قلبى يحدثنى بأنك متلفى ::: روحى فداك عرفت أم لم تعرف

فلم يلتفت الملك الناصر إليه، وفعل ما كان مقدرًا على صرغتمش المذكور، رحمه الله.

ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 39.

(1) ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 39.

وسبعمائة بلغ الملك الناصر أن يلبغا ينكر عليه من كونه يعطى إلى النساء الإقطاعات الهائلة، وكونه يختص بالطواشية ويحكمهم في المملكة وأشياء غير ذلك. وصارت الخاصكية ينقلون للسلطان عن يلبغا أمورًا قبيحة في حقه في مثل هذا المعنى وأشباهه؛ فتكلم الملك الناصر حسن مع خواصه بما معناه: إنه قبض على أكابر أمرائه من مماليك أبيه، حتى استبد بالأمر من غير منازع، وأنشأ مماليكه مثل يلبغا المذكور وغيره، حتى يسلم من معارض، فصار يلبغا يعترض عليه فيما يفعله، فعظم عليه ذلك وندم على ترقيه، وأخذ يترقب وقتًا يمسك يلبغا فيه...) [1].

ثم إن السلطان بدأ يخطط للقبض على يلبغا العمري، ولكن يلبغا علم - عن طريق بعض خواص السلطان - ما كان يعتزم فعله، فاحترز لنفسه، واستعد للقضاء على السلطان الناصر حسن (... فلما كان يوم الثلاثاء تاسع جمادى الأولى من سنة اثنتين وستين المذكورة، أراد السلطان القبض على يلبغا لما بلغه عن يلبغا أنه يريد الركوب عليه هناك؛ فصبر السلطان حسن حتى دخل الليل، فركب ببعض خاصكيته من غير استعداد ولا اكتراث بيلبغا، وسار يريد يكبس على يلبغا بمخيمه، فنم بعض خاصكية السلطان بذلك إلى يلبغا، فاستعد يلبغا بمماليكه وحاشيته لقتاله، وطلب خشداشيته وواعدهم بالإقطاعيات، وخوفهم عاقبة أستاذهم الملك الناصر حسن المذكور، حتى وافقه كثير منهم. كل ذلك والملك الناصر في غفلة استخفافًا بمملوكه يلبغا المذكور، حتى قارب السلطان خيمة يلبغا، خرج إليه يلبغا بمن معه وقاتله، فلم يثبت السلطان لقلة من كان معه من مماليكه؛ وانكسر وهرب، وعدى النيل، وطلع إلى قلعة الجبل في الليل... وتبعه يلبغا ومن معه يريد القلعة، وأما أمر السلطان حسن، فإنه لما انكسر من مملوكه يلبغا، وتوجه إلى قلعة الجبل حتى وصل إليها في الليل، ألبس مماليكه المقيمين بالقلعة، فلم يجد لهم خيلاً لأن الخيول كانت في الربيع، فلم يجد الملك الناصر قوة للقائه، فلبس هو وأيدمر الدواداري زى الأعراب ليتوجها إلى

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 154- 158.

الشام، ونزلا من القلعة وقت التسبيح؛ فلقيهما بعض المماليك فأنكروا عليهما وأمسكوهما في الحال، وأحضروهما في الوقت إلى يلبغا حال طلوع يلبغا إلى القلعة، فقتلهما يلبغا في الحال قبل طلوع الشمس[1].

"... وكان عمر السلطان حسن يوم قتل نيفًا على ثلاثين سنة تخمينًا؛ وكانت مدة ملكه في سلطنته هذه الثانية ست سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام " [2].

يقول أبو المحاسن تعليقًا على ماحدث للسلطان الناصر حسن: "... وكان قتله وذهاب ملكه على يد أقرب الناس إليه من مماليكه وخواصه، وهم: يلبغا العمرى وطيبغا الطويل وتمان تمر وغيرهم، وهم من مشترواته، اشتراهم، ورباهم، وخولهم في النعم، ورقاهم إلى أعلى المراتب، خوفًا من أكابر الأمراء من مماليك أبيه؛ فكان ذهاب روحه على أيديهم، وكانوا عليه أشد من تلك الأمراء. فإن أولئك لما خلعوه من السلطنة بأخيه الملك الصالح، حبسوه بالدور من القلعة مكرمًا مبجلاً، وأجروا عليه الرواتب السنية، إلى أن أعادوه إلى ملكه ثانيًا، وهم مثل شيخون وصرغتمش وقبلاى النائب وغيرهم؛ فصار يتذكر ما قاساه منهم في خلعه من السلطنة وتحكمهم عليه، فأخذ في التدبير عليهم حتى قبض على جماعة كثيرة منهم وأبادهم. ثم رأى أنه ينشئ مماليكه ليكونوا له حزبًا وعضدًا؛ فكانوا بعكس ما أمله منهم، ووثبوا عليه، وكبيرهم يلبغا المقدم ذكره. وعندما قبضوا عليه لم يمهلوه ساعة واحدة؛ وعندما وقع نظرهم عليه قتلوه من غير مشاورة بعضهم لبعض، موافاة لحقوق تربيته لهم وإحسانه إليهم؛ فكان بين فعل مماليك أبيه به وبين فعل مماليكه له فرق كبير. ولله در القائل: معاداة العاقل، ولا مصاحبة الجاهل.

قلت: لا جرم أن الله عز وجل عامل يلبغا المذكور من مماليكه بجنس ما فعله مع أستاذه، ووثبوا عليه وقتلوه شر قتلة، على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى.

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 154- 158.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 154- 158.

واستولى يلبغا العمرى الخاصكى على القلعة والخزائن والسلاح والخيول والجمال، وعلى جميع ما خلفه أستاذه الملك الناصر حسن، وأقام في المملكة بعده ابن أخيه الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجى ابن الملك الناصر محمدًا بن قلاوون، كما سيأتى ذكره بعد حوادث سنين الملك الناصر حسن، كما هى عادة هذا الكتاب.

وكان الملك الناصر حسن سلطانًا شجاعًا مقدامًا كريمًا عاقلاً حازمًا مدبرًا سيوسًا، ذا شهامة وصرامة وهيبة ووقار، عالى الهمة كثير الصدقات والبر ومما يدل على علو همته مدرسته التى أنشأها بالرميلة تجاه قلعة الجبل في مدة يسيرة، مع قصر مدته في السلطنة والحجر عليه في تصرفه في سنين من سلطنته الثانية أيضًا. وكان صفته للطول أقرب، أشقر وبوجهه نمش، مع كيس وحلاوة؛ وكان متجملاً في ملبسه ومركبه ومماليكه وبركه. اصطنع مرة خيمة عظيمة، فلما نجزت ضربت له بالحوش السلطانى من قلعة الجبل، فلم ير مثلها في الكبر والحسن؛ وفيها لقول الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة التلمسانى المغربي، رحمه الله تعالى:

حوت خيمة السلطان كل عجيبة ::: فأمسيت منها باهتًا أتعجب
لسانى بالتقصير فيها مقصر ::: وإن كان في أطنابها بات يطنب

وكان السلطان الملك الناصر حسن مغرمًا بالنساء والخدام، واقتنى في سلطنته من الخدام ما لم يقتنه غيره من ملوك الترك قبله؛ وكان إذا سافر يستصحب النساء معه في سفره لكونه ما كان له ميل للشباب كعادة الملوك من قبله. كان يعف عن ذلك.

وفى محبته إلى النساء وواقعته مع يلبغا يقول بعض أصحاب يلبغا فيه شعرًا:

لما أتى للعاديات وزلزلت ::: حفظ النساء وما قرأ للواقعه
فلأجل ذاك الملك أضحى لم يكن ::: وأتى القتال وفصلت بالقارعه
لو عامل الرحمن فاز بكهفه ::: وبنصره في عصره في السابعه
من كانت القينات من أحزابه ::: عطعط به الدخان نار لامعه

تبت يدا من لا يخاف من الدعا ::: في الليل إذ يغشى يقع في النازعه

وخلف السلطان الملك الناصر حسن، تغمده الله برحمته، من الأولاد الذكور عشرة: وهم أحمد وقاسم وعلى وإسكندر وشعبان وإسماعيل ويحيى وموسى ويوسف ومحمد، وستًّا من البنات. وخلف من الأموال والقماش والذهب العين والسلاح والخيول وغيرها شيئًا كثيرًا. استولى يلبغا على الجميع، وتصرف فيه حسب ما أراده (1).

المنصور محمد بن المظفر حاجى 762 - 764 هـ:

هو حفيد الناصر محمدًا بن قلاوون (2)، بويع بالسلطنة بعد مقتل عمه الناصر

---

(1) النجوم الزاهرة، 5 / 154- 158... ومن مآثر السلطان الناصر حسن أنه: "... كان حسن محبًّا للرعية، وفيه لين جانب. حمدت سائر خصاله، لم يعب عليه في ملكه سوى ترقيه لمماليكه في أسرع وقت، فإنه كان كريمًا بارًّا بإخوته وأهله، يميل إلى فعل الخير والصدقات؛ وله مآثر بمكة المشرفة، واسمه مكتوب في الجانب الشرقى من الحرم، وعمل في زمنه باب الكعبة الذى هو بابها الآن، وكسا الكعبة الكسوة. وكان كثير البر لأهل مكة والمدينة، إلى أن كانت الواقعة لعسكره بمكة في أواخر سنة إحدى وستين وسبعمائة التى كان مقدم عسكرها الأمير قندس وابن قراسنقر وحصل لهم الكسرة والنهب والقتل من أهل مكة وإخراجهما من مكة على أقبح وجه.

غضب السلطان بعد ذلك على أهل مكة، وأمر بتجهيز عسكر كبير إلى الحجاز للانتقام من أهل مكة، وعزم على أنه ينزعها من أيدى الأشراف إلى الأبد. وكاد يتم له ذلك بسهولة وسرعة، وبينما هو في ذلك وقع بينه وبين مملوكه يلبغا وكان من أمره ما كان.

وكان السلطان حسن يميل إلى تقدمة أولاد الناس إلى المناصب والولايات، حتى إنه كان غالب نواب القلاع بالبلاد الشامية في زمانه أولاد ناس، ولهذا لم يخرج عليه منذ سلطنته بالبلاد الشامية خارجي.

أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 154- 158.

(2) هو المنصور محمد السلطان الملك المنصور، أبو المعالي، ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المظفر حاجى ابن السلطان الملك الناصر محمدًا ابن السلطان الملك المنصور قلاوون المنصوري، الحادى والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية. جلس على تخت الملك صبيحة قبض على عمه الملك الناصر حسن، وهو يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة، وكان عمره يومئذٍ نحوًا من أربع عشرة سنة، بعد أن اجتمع الخليفة المعتضد بالله والقضاة والأعيان. ثم فوض عليه خلعة السلطنة، وهو التشريف الخليفتي، في يوم الخميس عاشر الشهر المذكور، ولقبوه الملك المنصور، وحلفت له الأمراء على العادة.

أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 154- 158.

حسن عام 762هـ، وكان عمره حينئذ أربعة عشر عامًا، ولم يكن له من الأمر شيء حيث استبد يلبغا بالأمر دونه، وتنازع السيطرة على هذا السلطان الأميران يلبغا العمرى الخاصكى والأمير طيبغا الطويل [1]... : "... فصار يلبغا يتميز على طيبغا الطويل هذا وأهمله، ولا زال على ذلك حتى خرج طيبغا إلى الصيد بالعباسة في سنة سبع وستين وسبعمائة، فلما وصل طيبغا إلى العباسة أرسل إليه يلبغا خلعة مع جماعة من الأمراء بنيابة دمشق، فلما بلغ طيبغا ذلك عصى وقصد قبة النصر خارج القاهرة، فخرج إليه يلبغا بالملك الأشرف شعبان، وتواقعا، فانكسر طيبغا، وأمسك بمن كان معه من الأمراء، وحبس بالإسكندرية، واسترجع إقطاعه ولداه، وهما على وحمزة...) [2].

ولما وصلت الأخبار إلى بلاد الشام بمقتل الناصر حسن - وكانوا يحبونه لعدله وحسن سيرته - اضطربت أمورها وكادت تخرج على حكم السلطان المنصور، إذ ثار بيدمر نائب الشأم [3] وخرج عن الطاعةوأيده في ذلك كثير من أمراء

---

(1) طيبغا بن عبد الله الناصري، الأمير علاء الدين المعروف بالطويل.
هو من مماليك الملك الناصر حسن ومن خواصه، أمره عند قبضه على الأمير صرغتمش، وبعد موت الأتابك شيخون، وجعله أمير مائة ومقدم ألف هو وخشداشه يلبغا العمرى الخاصكي، واستعان بهما على أعيان الأمراء، فإنهما من عتقائه وخواصه، فلما استفحل أمرهما اتفقا عليه، ووقع ما حكيناه في غير موضع من أنهما ركبا على أستاذهما الملك الناصر حسن وقبضا عليه وقتلاه وسلطنا مكانه الملك المنصور محمد بن المظفر حاجي، واستبدا بالأمر.

(2) ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 39، واستمر محبوسًا بالإسكندرية إلى يوم الاثنين تاسع وعشرين شعبان من السنة وقف يلبغا وجماعة من الأمراء بدار العدل وطلبوا مراحم الملك الأشرف في إطلاق طيبغا فأجابهم إلى ذلك، وتوجه طيبغا إلى القدس بطالاً، فأقام به إلى أن نقل إلى نيابة حلب، بعد عزل منكلى بغا الشمسى في سنة تسع وستين وسبعمائة، فلبس تشريفة وتوجه إلى حلب فأقام بها إلى أن توفى يوم السبت سلخ شوال في وقت الظهر من سنة تسع وستين وسبعمائة، ودفن خارج باب المقام.
قيل: إنه سم، لأنه لما بلغه واقعة يلبغا أراد الوثوب والمخالفة، فعاجلته المنية فاستراح وأراح.
وكان طيبغا المذكور أميرًا شجاعًا مقدامًا، وكان له ميل إلى فعل الخير، وأنشأ تربة مليحة بالصحراء ووقف عليها أوقافًا جيدة، وله أيضًا مآثر أخري.
ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 64.

(3) أول ما ولى نيابة حلب سنة 760 وغزا " سيس " سنة 761 وقرر بطرسوس وأذنة وغيرهما نوابًا

الشام وحصنوا قلعة دمشق.

فلما بلغ ذلك يلبغا العمرى استشار الأمراء في أمرهم، فاتفقوا على خروج السلطان إلى البلاد الشامية. وتجهز يلبغا، وجهز السلطان الملك المنصور إلى السفر، وأنفق في الأمراء والعساكر، وخرج السلطان ويلبغا بالعساكر المصرية إلى الريدانية.

ثم رحل الأمير يلبغا بالجيش والعسكر ورحل السلطان الملك المنصور بعده ببقية العساكر وساروا حتى وصلوا دمشق، فتحصن الأمراء المذكورون بمن معهم في قلعة دمشق، فلم يقاتلهم يلبغا، وسير إليهم في الصلح، وترددت الرسل إليهم، وكان الرسل قضاة الشام، حتى حلف لهم يلبغا أنه لا يؤذيهم وأمنهم، فنزلوا حينئذ إليه، فحال وقع بصره عليهم أمر بهم، فقبضوا وقيدوا، وحملهم إلى الإسكندرية إلى الاعتقال بها [1].

وبعد أن قضى السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى على تمرد أمراء الشام صار يلبغا أكثر تسلطًا، وصار الأمر جميعه ليلبغا. وأخذ يلبغا في عزل من اختار عزله وتولية من اختاره، ثم تزوج يلبغا بطولوبية زوجة أستاذه الملك الناصر حسن، ثم أشيع في هذه السنة عن السلطان الملك المنصور محمد أمور شنيعة نفرت قلوب الأمراء منه. واتفقوا على خلعه من السلطنة، ولم يدعوا السلطان يهنأ بالسلطة فعقب عودته من الشام اتفقت كلمتهم - وخاصة - الأمير

عن السلطان وأرسل بيدمر بمفاتيح طرسوس صحبة دمر بك إلى مصر، ثم ولى نيابة دمشق في أواخر دولة الناصر حسن فلما أمسك خشى حسن على نفسه من يلبغا، فملك قلعة دمشق وحصنها، ثم جمع الأمراء، فتعاضدوا على أن من أرادهم بسوء منعوه، وإن قاتلهم قاتلوه، وأنهم في طاعة السلطان، وتحالفوا على ذلك وأبطل بيدمر من دمشق مكس الملح ومكس المغاني، ثم كاتبوا نواب البلاد، فلم يوافقهم إلا نائب طرابلس، ووافاهم منجك من القدس إلى الرملة، وما زال بنائب غزة حتى وافقهم، فلما بلغ ذلك يلبغا خرج بالعساكر المصرية وبالسلطان، وتنقل بيدمر بعد ذلك في النيابات إلى أن وقعت كائنة أحمد بن البرهان، فتمكن ابن الحمصى نائب القلعة بدمشق من الإغراء به، وهو يومئذٍ نائب السلطنة بدمشق، فقبض عليه فكان آخر العهد به.

ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، 1 / 173.

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 174- 177.

يلبغا - على خلعه من السلطنة، وأخذوا الملك المنصور محمدًا وحبسوه داخل الدور السلطانية بقلعة الجبل. وكانت مدة سلطنته سنتين وثلاثة أشهر وستة أيام، وليس له فيها من السلطنة إلا مجرد الاسم فقط. والأتابك يلبغا هو المتصرف في سائر أمور المملكة [1].

الأشرف شعبان بن حسين: 764 - 778 هـ:

بعد خلع السلطان الملك المنصور محمد وقع اختيار أمراء المماليك على ابن عمه الأشرف شعبان بن حسين [2].

---

(1) وسبب خلعه- والذى أشيع عنه- أنه بلغ الأتابك يلبغا أنه كان يدخل بين نساء الأمراء ويمزح معهن، وأنه كان يعمل مكاريًّا للجوارى ويركبهن ويجرى هو وراء الحمار بالحوش السلطاني، وأنه كان يأخذ زنبيلاً فيه كعك ويدخل بين النساء ويبيع ذلك الكعك عليهن على سبيل المماجنة، وأنه يفسق في حريم الناس، ويخل بالصلوات، وأنه يجلس على كرسى الملك جنبًا، وأشياء غير ذلك.
فاتفق الأمراء عند ذلك على خلعه، فخلعوه، وهم يلبغا العمرى الخاصكى وطيبغا الطويل وأرغون الإسعردى وأرغون الأشرفى وطيبغا العلائى وألجاى اليوسفى وأروس المحمودى وطيدمر البالسى وقطلوبغا المنصوري، وغيرهم من المقدمين والطبلخانات والعشروات.
واستمر الملك المنصور محبوسًا بالحور السلطانية من القلعة إلى أن مات بها في ليلة السبت تاسع المحرم من سنة إحدى وثمانمائة. وزوج الملك الظاهر برقوق الوالد بابنته خوند فاطمة في حياة والدها الملك المنصور المذكور، واستولدها الوالد عدة أولاد، وماتت تحته في سنة أربع وثمانمائة. ولما مات الملك المنصور صلى عليه الملك الظاهر برقوق بالحوش السلطانى من القلعة، ودفن بتربة جدته أم أبيه بالروضة خارج باب المحروق بالقرب من الصحراء. وكان محبًّا للهو والطرب راضيًا بما هو فيه من العيش الطيب. وكان له مغان عدة، جوقة كاملة زيادة على عشر جوار يعرفن بمغانى المنصور، استخدمهن الوالد بعد موته. وكانت العادة تلك الأيام أن كل سلطان أو ملك يكون له خوقة من المغانى عنده في داره. ولم يخلف الملك المنصور مالاً له صورة، وخلف عدة أولاد ذكور وإناث.
أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 174- 177.

(2) هو السلطان الملك الأشرف أبو المفاخر زين الدين شعبان ابن الملك الأمجد حسين ابن السلطان الملك الناصر محمدًا ابن السلطان الملك المنصور قلاوون، تسلطن باتفاق الأمير يلبغا العمرى وطيبغا الطويل مع الأمراء على سلطنته بعد خلع ابن عمه الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجي. وهو السلطان الثانى والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية.
ولما أتفق الأمراء على سلطنته أحضر الخليفة المتوكل على الله أبو عبد الله محمد والقضاة الأربعة، وأفيض عليه الخلعة الخليفتية السوداء بالسلطنة، وجلس على تخت الملك وعمره عشر سنين في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة من غير هرج في المملكة ولا

ولما كان هذا السلطان في العاشرة من عمره فقد قام بالأمر الأمير يلبغا، وبعد تولية السلطان الأشرف شعبان بوقت قليل غزا صاحب قبرص مدينة الإسكندرية.

وكانت فكرة مهاجمة مصر ماتزال سائدة في أوروبا بالرغم من ذهاب فترة الحروب الصليبية على المشرق، إلى أن تكفل بتنفيذها بطرس الأول ملك قبرص سنة 1365م، حيث شرع في تجهيز حملة صليبية للإغارة على الإسكندرية، وكتب إليه البابا أريان الخامس في 19 يوليو من عام 1365م كتابًا بارك في حملته.

وكان الاعتقاد السائد في أوروبا في ذلك الوقت أن الملك المسيحى الذى يضع يده على ميناء الإسكندرية يستطيع بمساعدة أسطول صغير اعتراض كل المواصلات بين مصر والعالم الخارجي، وبمعاونة جيش مدرب يجتاح كل الاستحكامات الداخلية ثم يتقدم إلى القاهرة، حيث يتيسر له القضاء على الإمبراطورية التى استحوذت على الأراضى المقدسة.

وقد لبى أهالى جنوه والبندقية دعوة بطرس الأول، فأمدوه بالرجال والسفن الحربية، وأبحر أسطوله إلى رودس حيث استقبل بمظاهر الفرح والسرور وانضم إليه بجانب النقالات التى حصل عليها من تلك الجزيرة أربع سفن جهزها ريموند رئيس طائفة الإسبتارية، ومائة من الفرسان بقيادة أميرال هيئة الإسبتارية [1].

وقد وصلت الحملة إلى شواطيء الإسكندرية في 19 أكتوبر من العام 1365م، ولم يواجه الصليبيون في هجومهم على الإسكندرية مقاومة جدية، ولم يلبث الصليبيون أن انتشروا في أرجاء الإسكندرية، فاستولى الذعر على أهلها وفروا

اضطراب في الرعية، بل في أقل من قليل، وقع خلع المنصور وسلطنة الأشرف هذا وانتهى أمرهما. ونزل الخليفة إلى داره وعليه التشريف، ولم يعرف الناس ما وقع إلا بحق البشائر والمناداة باسمه، وزينت القاهرة وتم أمره على أحسن الأحوال.

(1) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص 247.

تاركين المدينة بما فيها للفرنج حتى ضاقت الأبواب على الفارين لكثرتهم فهلك منهم مئات من شدة الزحام، وفى وسط تلك الطامة انتهز العربان الفرصة للسلب والنهب. فوقع السكندريون بين نارين، وتشتتوا في الحقول المجاورة للإسكندرية حيث ساءت حالتهم بسبب نقص الطعام وعدوان العربان [1].

أما بطرس الأول فقد دخل الإسكندرية باطمئنان فاستلم الناس بالسيف، ونهب رجاله الحوانيت والفنادق وأحرقوا القصور والخانات، واعتدوا على النساء والبنات، وخربوا المساجد والجوامع، وقتلوا كل من صادفوه في الشوارع والبيوت، وبلغ من وحشية الصليبيين في تلك الحملة أنهم كانوا يقتلون المرأة بعد أن يذبحوا ابنها على صدرها.

ويقول المقريزى عن الفظائع التى ارتكبها الصليبيون: "... فاستلم الفرنج الناس بالسيف، ونهبوا ما وجدوه من صامت وناطق، وأسروا وسبوا خلائق كثيرة، وأحرقوا عدة أماكن، وهلك في الزحام، بباب رشيد، ما لا يقع عليه حصر، فأعلن الفرنج بدينهم، وانضم إليهم من كان بالثغر من النصارى، ودلوهم على دور الأغنياء، فأخذوا ما فيها، واستمروا كذلك، يقتلون، ويأسرون، ويسبون، وينهبون، ويحرقون، من ضحوة نهار الجمعة إلى بكر نهار الأحد، فرفعوا السيف، وخرجوا بالأسرى والغنائم إلى مراكبهم، وأقاموا بها إلى يوم الخميس ثامن عشرينه، ثم أقلعوا، ومعهم خمسة آلاف أسير، فكانت إقامتهم ثمانية أيام، فكانت هذه الواقعة، من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث، ومنها اختلت أحوالها، واتضع أهلها، وقلت أموالهم، وزالت نعمهم. وكأن الناس في القاهرة منذ أعوام كثيرة تجري على ألسنتهم جميعًا: في يوم الجمعة تؤخذ الإسكندرية، فكان كذلك. ومر بمن خرج من الإسكندرية في وقت الهزيمة، من العربان بلاء لا يوصف [2].

وقد أخذ الصليبيون معهم نحوًا من خمسة آلاف أسير، فضلاً عن البضائع

(1) المقريزي، السلوك، 4 / 106، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 2 / 969.
(2) المقريزي، السلوك، 4 / 106.

المنهوبة والنفائس المسلوبة، حتى ضاقت السفن بما فيها وثقلت بما عليها، فأخذوا يلقون ببعض حمولة السفن في البحر لتخف من ثقولة الحمل.

ومن الإسكندرية عاد بطرس الأول لوزجنان إلى قبرص حيث أقيمت له الاحتفالات العظيمة، في حين أ خذ في كتابة الرسائل إلى البابا وملوك الغرب يخبرهم بما أحرزه الصليبيون من نجاح على يديه، ويوضح لهم أنه اضطر إلى الجلاء عن الإسكندرية لقلة ما لديه من الإمكانيات الحربية، ويؤكد لهم عزمه على معاودة الكرة إذا وجد معينًا (1).

ولما وصل إلى القاهرة نبأ نزول الفرنجة إلى الإسكندرية بأسطولهم، نودى في القاهرة بالتأهب لقتال الفرنجة فخرج الناس أفواجًا وسار السلطان الأشرف شعبان برفقة الأتابك يلبغا والعساكر الإسلامية، وبينما كانت العساكر الإسلامية تجد بالسير باتجاه الإسكندرية جاءت الأخبار بأن الصليبيين جلوا عن الإسكندرية حين سمعوا بقدوم السلطان بالجيوش الإسلامية فسر الناس بذلك، واهتم السلطان بإعادة تعمير ما خربه الصليبيون وإعادة الطمأنينة إلى نفوس أهل الإسكندرية (2).

وقد ثارت جماعة من أمراء المماليك على السلطان والأتابك يلبغا وخالفوا أوامرهما، فوقعت بين الفريقين معركة هائلة كادت تدور دائرتها على السلطان وجنوده. ولكنهم انتصروا في النهاية، وتمكنوا من القبض على أعدائهم (3).

وقد ظل يلبغا العمرى مسيطرًا على مقاليد الأمور داخل الدولة المملوكية فيما كان السلطان الأشرف كالمحجور عليه ولم يكن له من السلطة إلا اسمها، ثم إن يلبغا تجاوز المدى وبدأ يتعسف ليس مع أمراء المماليك فقط، بل حتى مع مماليكه وأتباعه مما جعل القلوب والنفوس تنفر منه، وتسعى للخلاص منه، وكان الذى حدث أن البعض من مماليكه دبروا مؤامرة للخلاص منه، واستغلوا

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 2 / 970.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 194- 195.

(3) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 39.

فرصة خروجه للصيد مع السلطان وهاجموا خيمته هو والسلطان ففر يلبغا إلى القاهرة، في حين وقع السلطان الأشرف تحت سيطرتهم وانقاد لهم وأيدهم في محاولة الخلاص من يلبغا.

ولما وصل إلى يلبغا أن السلطان قرب إليه مماليكه ووافقهم على ما أتمروا به ضده أعلن خلع السلطان الملك الأشرف شعبان، وولى بدلاً منه آنوك بن حسين [1]، والتقى الفريقان عند شاطئ النيل، وتراشقا بالنشاب، وتراميا بقذائف النفط. وتمكن الملك الأشرف من العبور إلى القاهرة خفية وصعد إلى مقره بالقلعة، فالتفت حوله طوائف عدة من الأمراء والجند الموالين له، ففت ذلك في عضد الفريق الآخر - فريق يلبغا - فتخاذلوا. ثم قبض على يلبغا وقتل شر قتلة [2].

يقول المقريزي: "... وكان الأمير يلبغا - لأمر يريده الله تعالى - قد شَحَّتْ نفسُه وساءت أخلاقه، فاجتمع مماليكه الأجلاب إلى رؤوس النوب، وشكوا ما يلقوه من الأمير يلبغا وأنه يجفوهم، ويهينهم، ويبالغ في معاقبة أحدهم على الذنب

(1) آنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون، الملك المنصور بن الملك الأمجد ابن السلطان الملك الناصر بن المنصور قلاوون، أخو الملك الأشرف شعبان بن حسين، المعروف بسلطان الجزيرة، يعرف بذلك؛ لأن يلبغا العمرى الخاصكى لما وقع له مع مماليكه ما وقع من ركوبهم عليه ببر الجزيرة وفراره منهم، وانضمام مماليكه مع الملك الأشرف شعبان، وتعدية يلبغا إلى جزيرة أروى الوسطانية، ومنعه لتعدية الملك الأشرف ومماليكه إلى بر بولاق، ولما استقر يلبغا بالجزيرة، والأشرف ببولاق التكروري- ببر الجيزة- ومعه مماليك يلبغا، ووقع القتال بين الفريقين، واستفحل أمر الأشرف شعبان بانضمام مماليك يلبغا عليه، وضعف أمر يلبغا، أنزل يلبغا بآنوك هذا من الدور السلطانى بالقلعة وسلطنه، ولقبه بالملك المنصور، وخلع الأشرف شعبان، ليضم الناس عليه بذلك، ليتم له مراده، وآل أمره إلى أن قبض عليه وقتل، وعاد الأشرف إلى ملكه من غير مبايعة ثانية، فإن بيعة آنوك هذا كانت غير صحيحة. ولما طلع الأشرف شعبان إلى قلعة الجبل، رسم لأخيه آنوك هذا بأن يقيم على حاله كما كان عليه أولاً، ثم أنعم عليه بأمرة طبلخاناه، واستمر آنوك هذا على ذلك إلى أن قتل الأشرف أخذت منه الإمرة، واستمر بطالاً بقلعة الجبل، إلى أن توفي ليلة الجمعة سابع ذى القعدة سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة.

وكان ذا شكل حسن، حشمًا متواضعًا، كريم النفس، أسمر، كبير اللحية، كان يغضب من قولة: سلطان الجزيرة إلى الغاية. ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 223.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 200- 201.

اليسير، حتى أنه ضرب عدة منهم بالمقارع، وقطع ألسنة جماعة، وأنهم قد صاروا يدًا واحدة، يريدون قتله وقتل من لم يوافقهم على ذلك، فأشار الأكابر منهم عليهم بالتمهل قليلاً حتى يأخذوا ما عند الأمير يلبغا وحدثوه في شأنهم، ومضوا إلى الأمير يلبغا، وحدثوه في أمر المماليك، وسألوه الرفق بهم، فجبههم، ورد عليهم ردًّا جافيًا، وتهددهم، وحلف بالأيمان الحرجة أنه لابد من ضرب جماعة من مماليكه بالمقارع، وإشهارهم في الوطاق. فشق ذلك عليهم وخرجوا من بين يديه وقد توغرت صدورهم. وحدثوا إخوانهم من المماليك بما كان من الأمير يلبغا، واتففو جميعًا على الفتك به وتحالفوا على ذلك، ولبسوا سلاحهم، وكبسوا مخيم يلبغا وأحاطوا به ليأخذوه، فمضى إليه بعض خواصه منهم، وأعلمه الخبر، فبادر إلى الفرار على فرس وقصد بولاق التكرورى في نفر من خاصته، وركب إلى داره، فلبس آلة الحرب هو ومماليكه، وعاد إلى الجزيرة، وتقدم بطلب أجناد الحلقة ومن تأخر بالقاهرة من الأمراء، فأتوه في السلاح

وأما المماليك لما بلغهم فرار يلبغا نادوا من أراد مخدومه يلبغا فليتبعه، ومن أراد السلطان فليقم معنا. فتبع يلبغا طائفة وتأخر أكثرهم، فأسرع القوم إلى من فارقهم وأخذوهم وقيدوهم واقتسموا جميع ما معهم. وتجمعوا بأسرهم عند وطاق السلطان ونزلوا عن خيولهم، ومثلوا بين يديه وقبلوا الأرض، وأعلموه بما كان من يلبغا في حقهم، وما رده من الكلام الجافى عليهم، وسألوه نصرتهم عليه، فوعدهم بخير، وقوى عزايمهم، فحلفوا له، ثم ساروا به إلى بولاق التكروري، فلما كان يوم الخميس ركب الأمير يلبغا في عسكر موفور إلى الجزيرة، فبرزت إليه الشوانى من بر الجيزة، حتى صارت في وسط النيل، ورمته المماليك السلطانية منها بالسهام، والنفط، فمازال القوم يترامون نهارهم ثم أمر يلبغا فجيء إليه بالخليفة، وآنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون. وطلب يلبغا من الخليفة أن يفوض إليه السلطة عوضًا عن أخيه شعبان بن حسين، فامتنع الخليفة من ذلك، واحتج بأن الشوكة للأشرف شعبان فأمر يلبغا بالكوسات فدقت، وأقام شعار السلطنة كله، وقال: أنا أعينه وأؤيده. ومن الشوكة

غيري؟ فلم يجد الخليفة بُدًّا من سلطة آنوك، فأقاموه سلطانًا، ولقبوه بالملك المنصور، وأركبوه بالشعار السلطاني. واشتدت الحرب بين الفريقين يومًا... هذا وأسواق القاهرة طول هذه الأيام مغلقة، والأسباب متعطلة، وليس للناس شغل سوى التفرج في شاطئ النيل على المقاتلين من السلطانية واليلبغاوية، وصاروا يلهجون كثيرًا بقولهم: السلطان الجزيرة ما يساوى شعيرة، يريدون أن أمر آنوك لا يتم، ويهزؤون به... وتعصبت العامة للسلطان، وعملوا لهم رايات، وسبحوا النيل إليه، والعامة تحاذيه من البرين، وتستغيث بالدعاء له. حتى نزل شبرا، والتفت عليه جموعه، فسار يريد القلعة فتسلل أصحاب يلبغا عنه، طائفة بعد طائفة. فلم يجد يلبغا بُدًّا من الفرار، وتوجه يريد القلعة. وقد فَرَّ عنه من كان قد بقى معه من الأمراء، وفر مماليكه شيئًا بعد شيء. فأيقن بالزوال، ثم ركب فرسه ومضى إلى داره بالكبش و لم يبق معه إلا دون المائة فارس، والعامة تهزأ به وتسبه، وترجمه بالحجارة حتى وصل داره. وقدم السلطان إلى القلعة في عساكره، وعساكر يلبغا، ثم أمر بإحضار يلبغا، فأحضر إليه في الحال، مع عدة من الأمراء والمماليك المتوجهين إليه من قبل السلطان، فحبسا بالقلعة، فخشيت المماليك منه أن يفرج السلطان عنه، فيبيدهم، فصاروا بأجمعهم إلى أكابرهم والأعيان منهم ومازالوا بهم حتى طلبوا من السلطان أن يمكنهم منه، فخلاهم وإياه، فأخرجوه من السجن ومشوا به حتى قرب من باب السلسلة، قدم له فرس لركبه، فعندما أراد ركوبه، بدره من مماليكه من ألقى رأسه عن بدنه، واقتحم بقيتهم عليه بسيوفهم، حتى أتلفوا شلوه، وحملوا رأسه إلى السلطان، وبين يديه مشعل قد أضرمت ناره وعلا لهبه، فألقوا الرأس في النار، ثم أخرجوه وغسلوه، فعرفه من هنالك بسلعة كانت تحت أذنه... " [(1)].

ثم إن السلطان الملك الأشرف لم يستغل فرصة الخلاص من يلبغا وأتباعه وينفرد بالحكم ويمارس مهام سلطته، ولكنه ترك الأمر من جديد للأتابك أسندمر

---

(1) المقريزي، السلوك، 4 / 665.

الناصرى [1] الذى استبد بالأمر، وانضمت إليه مماليك يلبغا السابقون، وقد أثار استبداد هذا الأمير وتعاظمه حقد الأمراء عليه لاسيما كبار الأمراء المماليك الذين سلبهم أسندمر السلطة، أمثال: طغيتمر النظامي، وآقبغا جلب الأحمدي، وقجماس الطازي، فتآمروا عليه واستمالوا إليهم السلطان الملك الأشرف شعبان

(1) أسندمر بن عبد الله الناصري، الأمير سيف الدين، أتابك العساكر بالديار المصرية. أصله من مماليك الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، وممن وافق يلبغا العمرى الخاصكى عَلى قتل أستاذه السلطان حسن، واستمر المذكور من حزب يلبغا، وصال أمير مائة ومقدم ألف بديار مصر إلى أن وقع من أمر يلبغا مع مماليكه وانضمامهم عَلى الملك الأشرف شعبان، كان إسندمر هذا أيضًا ممن انضم مع يلبغا ووافقه، ووقعت خطوب وحروب آلت إلى قتل يلبغا، وإلى أن صار اسندمر المذكور أتابكًا بعده، وسكن بدار يلبغا بالكبش، وصار هو وثلاثة أمراء آخرين، هم أصحاب الحل والعقد في المملكة، وهم أسندمر هذا، وطغيتمر النظامي، وآقبغا جلب الأحمدي، وقجماس الطازي، فأقاموا عَلى ذَلِكَ مدة ثم وقع بينهم الخلاف، فصار أسندمر وحده، وانضم هؤلاء الثلاثة إلى الملك الأشرف شعبان، وانضم عَلى أسندمر جماعة من الأمراء ومن مماليك يلبغا، إلى أن كانت ليلة الأحد سابع شهر شوال سنة ثمان وستين وسبعمائة، ركب الأمراء جميعهم نصف الليل، ونزل السلطان معهم، ودقت الكوسات، وكان قصد الأمراء مسك أسندمر الناصرى هذا، ومسك بعض مماليك يلبغا الأشرار، فلم يركب أسندمر إلى طلوع الشمس، ثم ركب من الكبش بمن معه، فهرب أكثر وقبض أسندمر هذا عَلى عدة من الأمراء، وأرسل الجميع إلى سجن الإسكندرية.
وصار أسندمر هذا هو مدبر الممالك يقدم من شاء ويؤخر من شاء، ودام عَلى ذَلِكَ إلى يوم الجمعة سادس صفر من سنة تسع وستين وسبعمائة، ركبت مماليك يلبغا الأجلاب ودخلوا عَلى أسندمر فمسك منهم جماعة، وأراد سكون الفتنة بذلك، فأصبحوا يوم السبت أيضًا لابسين آلة الحرب، ودخلوا عَلى أسندمر وطلبوا منه خلع الملك الأشرف، وكان أسندمر قد تغير عَلى الأشرف لأمور صدرت منه في حقه، فوافقهم عَلى ذَلِكَ، فبلغ الأشرف فركب وركب معه نحو مائتين مملوك، وكانت مماليك يلبغا فوق ألف وخمسمائة مملوك، وانضاف إلى السلطان جماعة من أكابر الأمراء وجاؤوا مماليك يلبغا، فتلاقوا مع الأمراء والسلطان، وكان أسندمر أخذ جماعة وطلع من خلف القلعة كما فعل في تلك المرة الأولى، فانكسرت مماليك يلبغا قبل وصوله، فانهزم أسندمر أيضًا، ثم أمسك وجيء به إلى الملك الأشرف، فلما حضر بين يدى السلطان شفعت فيه الأمراء فأطلقه وخلع عليه عَلى عادته ونزل إلى بيته بالكبش، ورسم أيضًا لابن قوصون أن يكون أتابكًا رفيقًا لأسندمر، ونزل خليل ابن قوصون معه صفة الترسيم إلى بيته، فلما نزلا تحالفا وخامرا عَلى السلطان، وركبا بسوق الخيل من الغد، قاتلا السلطان ساعة، ثم انهزما، وأمسك أسندمر وخليل بن قوصون وجماعة من الأمراء وأرسلوا إلى الإسكندرية، وأطلق من كان بها من الأمراء المسجونين قبل تاريخه، ووقع السيف في مماليك يلبغا وتشتت شملهم، واستمر أسندمر هذا محبوسًا إلى أن مات في شهر رمضان سنة تسع وستين وسبعمائة بثغر الإسكندرية، رحمه الله تعالى.
ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 183.

إلا أن أسندمر تمكن من القضاء على هذه المؤامرة والقبض على مدبريها، في حين أحكم قبضته على السلطان، وصار تحت يده كالمحجور عليه[1].

ثم إن المماليك اليلبغاوية قويت شوكتهم وأرادوا التخلص من أسندمر ولكنه استمالهم إلى جانبه، ثم إنه وقع تحت سيطرتهم، فلما أرادوا منه التخلص من السلطان الملك الأشرف شعبان استجاب لهم وتحرك نحوه للقبض عليه وعزله من منصبه سنة 769هـ.

ولما وصل هذا النبأ إلى السلطان الملك الأشرف خرج بصحبة مماليكه وخاصته لملاقاتهم وتمكن من إنزال الهزيمة بهم، وفر إسندمر هاربًا هو وأتباعه فتم القبض عليه وجيء به إلى الأشرف، فعفا عنه بعد أن شفع فيه الأمراء وأبقاه في منصبه، ولكنه أشرك معه في الأتابكية خليل بن قوصون [2].

على أن أسندمر وخليل بن قوصون ما لبثا أن تحالفا وتآمرا على السلطان الأشرف شعبان، وانحاز إلى جانبهما عدد كبير من المماليك اليلبغاوية، فسار إليهم السلطان بمن معه من الأمراء والمماليك الأشرفية وأخمد فتنتهم بعد أن قتل عددًا كبيرًا منهم وقبض على كل من أسندمر وخليل بن قوصون وبعث بهما إلى الإسكندرية حيث ألقيا في غياهب السجون[3].

يقول المقريزي:

"... وركب الأمير خليل بن قوصون إلى الأمير أسنَدمر، فأخذه من داره وطلع به إلى القلعة ليقيد ويسجن، فشفع فيه جماعة من الأمراء، وقرروا عليه مالاً لينفق في مماليك السلطان، فقبل السلطان شفاعتهم، وخلع عليه، وأقره على حاله، فنزل إلى داره في ليلة الاثنين، ومعه الأمير خليل بن قوصون مرسمًا عليه، حتى يحضر من الغد بالمال.

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 205- 208.
(2) خليل بن قوصون، كان أحد الأبطال بالقاهرة وكان سبط الملك الناصر محمدًا بن قلاوون.
(3) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 208- 210.

فخدع أسندمر بن قوصون ووعده بأن يقيمه في السلطة، فإنه ابن بنت السلطان الملك الناصر محمدًا بن قلاوون، فانخدع ابن قوصون ومال إليه وتحالفا على ذلك، فبعث أسندَمُر فجمع إليه الأجلاب، وبذل فيهم المال، ووعدهم ومناهم، فما طلع نهار يوم الاثنين حتى ركب أسندَمر وابن قوصون في جمع كبير، ووقفا تحت القلعة، فعادت الحرب وركب الأمراء والأجناد، وخرج عامة الناس، فكان الأمراء إذا رأوا ابن قوصون بجانب أسندمر انضموا إليه، ظنًّا منهم أنه سلطاني. فأمر السلطان فدُقت الكوسات، ونزل إلى الإصطبل بآلة الحرب، فاجتمع إليه الأمراء والمماليك السلطانية والعامة، وبعث إلى أسندَمُر وابن قوصون ليحضرا إليه، فامتنعا، وصرحا بأنهما يريدان نزع السلطان من الملك وإقامة غيره في السلطة لتخمد الفتنة. فلما عاد جوابهما إلى السلطان، بعث ثانيًا يخوفهما عاقبة الغدر، فأظهرا أنهما أجابا، وهمّا بالحضور، ثم سَلا سيفيهما، ومرا ليفتكا بالسلطان، وقد ركب ووقف تحت الإصطبل، فتبعهما من معهما من الأجلاب، وهم شاهرون السلاح، ليفعلا فعلهما. فبادر السلطان بالنداء في العامة هؤلاء مخامرون فارجموهم. فصاحت العامة بأجمعهما مخامرون ورجموهم بالحجارة، ورمتهم المماليك السلطانية بالنشاب، فلم يكن غير ساعة حتى انكسر أسندمُر وابن قوصون، وقتل عدة من الأجلاب، فأخذتهم العامة في هزيمتهم، وأتوا بهم إلى السلطان أرسالاً وقد نزعوا ثيابهم وكشفوا رؤوسهم، ونالوا منهم ما شفى صدورهم. ثم قبضوا على خليل بن قوصون من ناحية المطرية، وأتوا به. ثم أخذوا أسندمر من نحو وادى السدرة تجاه قبة النصر... ثم الأشرف ظفر بهما ثانيًا وحبسهما بثغر الإسكندرية، وصفا له الوقت بعض شيء.

ونودى في آخر النهار بالأمان، فلا ينهب أحد شيئًا، فقد ظفر السلطان بغرمائه، فزينوا القاهرة ومصر، فزينتا أحسن زينة، وفرح الناس بزوال دولة الأجلاب.

وفى هذا المعنى يقول الأديب شهاب الدين بن العطار:

هلال شعبان جهـرًا لاح في صـفر ::: بالنصر حـتى أرى عيـدًا بشـعبان
وأهل كبش كأهل الفيل قد أخـذوا ::: رجمًا وما انتطحت في الكبش شاتان (1)

وبعد أن تخلص السلطان الملك الأشرف شعبان من أسندمر وخليل بن قوصون صفا له حكم البلاد، ولم يعد هناك من المماليك من ينازعه السلطة، وقبض على زمام الأمور في البلاد، وألزم جميع الأمراء والمماليك الاعتراف بسلطته، وإن كانت وقعت خلال حكمه هجمات للفرنجة والأرمن على بلاد الشام، ونهبوا المدن وقتلوا المسلمين. وفى عهده تفشى وباء جارف في القاهرة، وانتشر الجراد في دمشق وضواحيها، وثارت العامة على بعض الأمراء (2).

وفى عام 778هـ خرج السلطان الأشرف شعبان إلى الحج وبصحبته الخليفة والقضاة الأربعة وكبار الأمراء، فانتهز بعض أمراء المماليك الباقين في القاهرة فرصة غيابه وثاروا ضده وملكوا عليه ابنه عليًّا، في حين ثارت عليه المماليك المصاحبة بالقرب من العقبة بسبب الأموال التى طلبوها منه وأوقعوا به الهزيمة واضطروه إلى الفرار إلى القاهرة حيث دخلها مختفيًا عن أعين الناس، فدلت على مكانه إحدى النساء فقبض عليه الجند ثم سجن وخنق في ذلك العام، بعد أن قضى في السلطنة أربعة عشر عامًا (3).

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 208- 210.

(2) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 39.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 5 / 228- 230، ابن إياس، بدائع الزهور، 1/ 234.

يقول أبو المحاسن: "... وكان الملك الأشرف ملكًا جليلاً، شجاعًا، مهابًا، كريمًا، لينًا هينًا، محببًا للرعية. قيل: إنه لم يل الملك في الدولة التركية أحلم منه، ولا أحسن منه خُلقًا وخَلقًا. وكان محبًّا للعلماء والفقهاء وأهل الخير، مقتديًا بالأمور الشرعية، أبطل عدة مكوس في سلطنته، وكان محسنًا لأخوته وأقاربه وأولاد عمه، أنعم عليهم بالإقطاعات الهائلة، وجعل بعضهم أميرًا، وهذا شيء لم يعهد بمثله من ملك. وكان يفرق في كل سنة على الأمراء، أقبية بطرز زركش، والخيول المسومة بالسروج الذهب والكنابيش الزركش والسلاسل الذهب، وكذلك على جميع أرباب الوظائف. ولم يكن فيه ما يعاب غير أنه كان محبًّا لجمع المال، ولكنه كان يصرف غالبه في وجوه البر والصدقة،

المنصور علي بن شعبان 778 - 783 هـ:

هو ابن الملك السابق ولي في غيبة أبيه عام 778 هـ [1] وكان سنه سبع سنين،

وكان له محاسن كثيرة، وكانت أيامه بهجة، وأحوال الناس في أيامه هادئة مطمئنة، والخيرات كثيرة، ومشى شوق أرباب الكمالات في زمانه من كل علم وفن، وافتتحت " سيس " في أيامه وبلادها، وزالت دولة الكفر الأرمن.

وخلف الملك الأشرف من الأولاد ستة بنين وسبع بنات، ثم ولدت زوجته خوند سمرا بعد موته ولدًا سموه أحمد، فصار الذكور أيضًا سبعة، فالذكور هم: الملك المنصور علي، الذى تسلطن في غيبته ثم بعد موته، والملك الصالح أمير حاج، وقاسم، ومحمد، وإسماعيل، وأحمد المولود من بعده.

وكانت مدة ملكه أربعة عشر عامًا وشهرين وعشرين يومًا، فإنه تسلطن بعد خلع ابن عمه، الملك المنصور محمد بن المظفر حاجي، في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة، وعمره إذ ذاك عشر سنين، ومات في ليلة الثلاثاء خامس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة.

ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 16.

(1) السلطان الملك المنصور علاء الدين على ابن السلطان الملك الأشرف زين الذين شعبان ابن الأمير الملك الأمجد حسين ابن السلطان الملك الناصر محمدًا ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحي، وهو السلطان الثالث والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية. تسلطن في حياة والده حسب ما تقدم ذكره وذلك أن الأمير قرطاى وطشتمر اللفاف وأينبك البدري، لما ثاروا بمن معهم بالديار المصرية، وطلعوا إلى القلعة وأخذوا الأمير عليّ هذا من الدور السلطانية وسلطنوه في حياة والده، أرادوا بذلك انضمام الناس عليهم- فإنهم كانوا أشاعوا موت الملك الأشرف شعبان في العقبة- حتى تم لهم ما أرادوه، وسلطنوا الأمير على هذا من غير حضور الخليفة والقضاة، فإنهم كانوا صحبة السلطان الملك الأشرف بالعقبة. فلما زالت دولة الملك الأشرف، وقبض عليه، وقتل، ثم حضر الخليفة المتوكل على الله أبو عبد الله محمد من العقبة، وكان القضاة بالقدس الشريف توجهوا إليه من العقبة بعد واقعة الملك الأشرف وهروبه إلى مصر.

فلما كان يوم الخميس ثامن شهر ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وذلك بعد قتل الملك الأشرف شعبان بثلاثة أيام، اجتمع الأمراء القائمون بهذا الأمر بالقلعة، واستدعوا الخليفة ومن كان بمصر من القضاة ونواب من هو غائب من القضاة بالقدس، وحضر الأمير آقتمر الصاحبى نائب السلطنة بالديار المصرية، وقعدو الجميع بباب الآدر الشريفة من قلعة الجبل، وجددوا البيعة بالسلطنة للملك المنصور عليّ هذا بعد وفاة أبيه الملك الأشرف. وقبل له البيعة آقتمر الصاحبى المذكور، ولبسوه السواد، خلعة السلطنة، وكانت فرجية حرير بنفسجى مطرزة بالذهب، وبدائرها تركيبة زركش بحاشية حرير أزرق خطائى وشاش أسود خليفتي، وقبعًا أسود بعذبة خليفتيًا زركش. وركب بأبهة السلطنة وشعار الملك من باب الستارة، والأمراء مشاة بين يديه، إلى أن وصل إلى الإيوان وجلس على تخت الملك في يوم الخميس المذكور. وقبلت الأمراء الأرض بين يديه، وحلفوا له على العادة، وأخلع على الخليفة وعلى الأمراء وعلى من له عادة بلبس الخلع، ومد السماط. وكان عمر السلطان الملك المنصور يوم تسلطن نحو سبع سنين تخمينًا. وكان الملك المنصور عليّ

ولم يكن له من السلطنة سوى الاسم، والجلوس على التخت، وله نفقة كل يوم.

وقد أصبح الأتابكى أينبك البدرى [1]هو المسيطر على مقاليد الأمور داخل الدولة المملوكية، وصاحب الحول والطول فيها، ولقد نازعه السيطرة على السلطان الصغير الأمير قرطاي، ولم تمض إلا أيام يسيرة ووقعت الفتنة بين أينبك وقرطاي، وذلك أن قرطاى لما استقر أتابك العساكر صاهره أينبك فعظم قدره ثم غدر أينبك بصهره وتمالأ مع جماعة من المماليك، ودبر حيلة على مسك قرطاي، فوقع أن قرطاى صنع وليمة، فأهدى له أينبك مشروبًا يقال له: الشن، وجعل فيه بنجًا. فلما شربه قرطاى تبنج، فلما علم أينبك بذلك، ركب ومعه مماليكه، وهم ملبسون، ولما كان بكرة النهار أرسل قرطاى يسأل في نيابة حلب، فأجيب، ثم أمسك هو ومن كان معه من الأمراء وأخرج إلى غزة منفيًا... " [2].

وقد تأثرت الأمور ببلاد الشام بما يحدث بمصر من اضطرابات وتنازع للسلطة، فلم يرض أمراء المماليك الشامية بسيطرة أينبك على مقاليد الأمور وأعلنوا العصيان، مما اضطر أينبك إلى تجهيز الجيوش والخروج إلى بلاد الشام لإعادة الأمور إلى طبيعتها، ولكنه لم يستمر بالتقدم بالعساكر إذ وصلته الأنباء باتفاق العسكر أيضًا على الخروج على طاعته، وفر هاربًا، فألقى القبض

مليح الشكل حسن الوجه، حشيمًا، كثير الأدب، واسع النفس، كريمًا.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 5 / 236.

(1) أينبك بن عبد الله البدري، الأمير سيف الدين. كان في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين من جملة أمراء الطبلخاناه، وهو الذى كان أصل فتنة الأشرف التى كانت في غيبته، لما كان متوجهًا إلى الحج، وكان هو القائم في خلعه وسلطنة ولده الأمير علي، الملقب بالملك المنصور، ووافقه المقدور على ذلك بأن قتل الأشرف- حسبما سنذكره إن شاء الله تعالى في ترجمته- وصار أينبك هذا والأمير قرطاى العمرى هما صاحبا العقد والحل في المملكة، وولى أينبك أتابك العساكر دفعة واحدة من إمرة طبلخاناه، وصار قرطاى رأس نوبة النوب دفعة واحدة من إمرة عشرة- وكانت هذه الوظيفة معظمة تلك الأيام- واستبدا بالأمر وحدهما.

ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 246.

(2) ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 246.

عليه وسجن [1].

ثم إن السلطان لم يقبض على زمام الأمور في البلاد، ولم يتعلم من أخطاء من سبقوه ولا من خطئه هو، بل قام بتعيين الأمير طشتمر الدوادار [2] أتابكًا له فصار هو المتصرف في أمور السلطنة [3].

غير أن سيطرة طشتمر على مقاليد الأمور واستئثاره بالنفوذ لم يرض كثير من أمراء المماليك الذين سعوا لإسقاطه ولو بالقوة، فجمع الأمير برقوق عددًا كبيرًا من أمراء المماليك حوله، واتفقوا فيما بينهم على محاربة طشتمر وعزله من منصبه، وكان لهم ما أرادوا، حيث تمكن هؤلاء الثائرون من هزيمة عساكر ومماليك طشتمر، وإلقاء القبض عليه ووضعه في السجن، وبذلك حل برقوق مكان طشتمر وسيطر على مقاليد الأمور في الدولة[4].

واستمرارًا لجو الدسائس والمؤمرات والتنافس على السلطة والنفوذ بين أمراء المماليك، لم يرض كثير من أمراء المماليك باستيلاء برقوق على السلطة بمفرده وسعوا إلى إسقاطه هو الآخر، وتزعم هذه الحركة الأمير إينال [5]

---

(1) ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 246.

(2) طشتمر بن عبد الله العلائى الدوادار، الأمير سيف الدين.

كان من أجل الأمراء وأعظمهم، وتنقل في عدة وظائف جليلة. ولى الدوادارية الكبرى بالديار المصرية، وطالت مدته فيها. وهو أول دوادار صار أمير مائة ومقدم ألف. ثم نقل إلى نيابة دمشق فباشرها مدة، ثم عزل وطلب إلى الديار المصرية، واستقر بها أتابك العساكر.

واستمر إلى أن وثب الأمير زين الدين بركة، والأمير سيف الدين برقوق على الأمراء. وصارا هما صاحبا العقد والحل في مملكة الديار المصرية، أمسكا طشتمر هذا، ووجهاه إلى ثغر دمياط بطالاً، فأقام بالثغر مدة، ثم نقل إلى القدس الشريف، فدام به إلى أن مات في سنة ست وثمانين وسبعمائة.

ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 49.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، 1 / 240.

(4) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 5 / 308- 309.

(5) إينال بن عبد الله اليوسفى اليلبغاوي، الأمير سيف الدين، أتابك العساكر.

أصله من مماليك يلبغا العمرى الخاصكي، وترقى بعد موت أستاذه إلى أن صار من جملة أمراء الديار المصرية في دولة الملك المنصور على ابن الأشرف شعبان، وصار له شهامة في الدولة، وطمع أن يستبد بتدبير مملكة الملك المنصور وحده، فصبر إلى أن سافر الأمير بركة إلى البحيرة،

ونزل الأمير برقوق من السلسلة؛ ليسير إلى جهة قبة النصر، ركب من وقته بمن معه بآلة الحرب، وملك باب السلسلة- مكان برقوق- وبلغ برقوق الخبر؛ فعاد وحصل بينهما وقعة هائلة انتصر فيها برقوق، وقبض على إينال المذكور وقرر، فاعترف بأنه لم يركب إلا كرهًا في الأمير بركة لا غير. وفى هذا المعنى يقول الأديب شهاب الدين بن العطار:

ما بال إينال أتى ::: في مثل هذى الحركه
مع علمه بأنها ::: خالية من بركه

وقال غيره وأجاد:

بغى إينال واعتقد الأماني ::: تساعده فما نال المؤمل
ومد لأخذ برقوقٍ يديه ::: ولم يعلم بأن الخوخ أسفل

وكانت هذه الوقعة في يوم الاثنين رابع وعشرين شعبان سنة إحدى وثمانين وسبعمائة.
ثم حبس إينال المذكور بثغر الإسكندرية مدة إلى أن أفرج عنه برقوق، وولاه نيابة طرابلس، ثم نقله بعد مدة إلى نيابة حلب، عوضًا عن منكلى بغا الشمسي، كل ذلك في مدة يسيرة.
ولما كان نائب حلب ورد عليه مرسوم الملك الصالح حاجي، ومرسوم الأتابك برقوق العثمانى على يد يونس النوروزى الدوادار، يتضمن توجه العساكر الحلبية والشامية إلى الأمير خليل بن دلغادر؛ فامتثل بالسمع والطاعة، وتربص حتى قدمت عليه العساكر الشامية وهم: الأمير أشتقمر الماردينى نائب دمشق، والأمير أسنبغا اليلبغاوى نائب طرابلس، والأمير طشتمر القاسمى نائب حماة، والأمير طشتمر العلائى نائب صفد، والجميع بعساكرهم، وذلك في سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة؛ فتوجه الجميع إلى مرعش وواقعوا من بها، وأجلوهم عن ديارهم، ونهبوا أموالهم، وأقصوهم عن الممالك الإسلامية، ثم أخذوا في إصلاح الطرق والمسالك، وانتهى بهم السفر إلى مدينة ملطية، ونزلوا على الفرات. كل ذلك وبنو دلغادر يكاتبون الأمير إينال ويسألونه الدخول تحت الطاعة، وهو لا يسمع ذلك، ثم قدم عليهم المرسوم الشريف بعودهم، فعاد الجميع إلى محل كفالتهم، وأقام الأمير إينال في نيابة حلب إلى أن تسلطن الملك الظاهر برقوق، أو قبل سلطنته بقليل، عزل عن نيابة حلب بالأمير يلبغا الناصري، صاحب الوقعة- رفيق منطاش- ورسم له بالتوجه إلى دمشق أتابكًا بها؛ فتوجه إلى دمشق، ودام بها إلى أن خرج الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب على الملك الظاهر برقوق أرسل إليه الملك الظاهر تشريفًا بنيابة حلب ثانيًا، فأظهر إينال المذكور السمع والطاعة، وفى الباطن بخلاف ذلك، ثم إنه أظهر العصيان، وانضم إلى الناصري، وجرت أمور ووقائع إلى أن تولى نيابة صفد في سلطنة برقوق الثانية في سنة اثنتين وتسعين، وتصافا هو والظاهر برقوق، ثم طلب إلى القاهرة، واستقر أتابك العساكر بها، وعظم عند الظاهر برقوق في هذه النوبة محله وضخم، وصار له كلمة في الدولة.
ونزل الأمير إينال إلى داره، ومرض، ولزم الفراش إلى أن مات في رابع جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين وسبعمائة، واتهم بأنه سم، والله أعلم.
وكان أميرًا جليلاً، شجاعًا، مقدامًا، ذا شكل حسن وكرم وحشمة.
أنشأ مدرسته بالشارع خارج بابى زويلة، كملت عمارتها بعد وفاته، وأظنه دفن بها.
وإينال معناه باللغة التركية: شعاع القمر؛ فإن إى هو القمر، ونال الشعاع، وصوابه في الكتابة: إى

فاستغل الأمير إينال فرصة خروج برقوق للصيد في سنة 781هـ وغياب أعوانه وعيونه عن القلعة، فاستولى على الإسطبل السلطاني، وانقض على دار أسلحة برقوق واستحوذ على أكثر ما فيها من معدات الحرب. ولما بلغ برقوق خبر هذا التمرد الذى قام به إينال سار مع جماعة من مماليكه إلى القلعة وأوقع به الهزيمة واستعاد منه ما كان قد استولى عليه في غيابه (1).

ولم تكد أحوال القاهرة تهدأ بعد القضاء على تمرد إينال حتام قام نزاع جديد على السلطة بين برقوق والأمير بركة الجوبانى (2) واندلعت نيران الحرب الداخلية من جديد بين أمراء المماليك، ولكن تمكن برقوق في نهاية المطاف من القضاء على بركة وهزيمته وأسره(3).

كانت هذه الأحداث كلها تعلى من أسهم الأتابك برقوق وتعده لتوليه السلطنة كما يقول المقريزي: "... وكانت الفتن التى تقدم ذكرها، وثورات المماليك، وتغير دولهم، إنما هى توطئة لبرقوق، وتمهيد له حتى ملك البلاد، وقام بدولة الجراكسة، كما ستراه إن شاء الله تعالى، فإنه من يومه هذا استقر قراره

نال، لكن اصطلاح ما يكتب الآن عند من لا يعرف اللغة التركية أن يكتبه موصولاً، ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 246.

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 5 / 308- 309.

(2) كان بركة من مماليك يلبغا، وصار من بعده في خدمة أولاد الملك الأشرف شعبان إلى أن كانت قتلة الملك الأشرف شعبان. قام هو وخشداشه برقوق مع أينبك، فأنعم أينبك على كل منهما بإمرة طبلخاناه دفعة واحدة من الجندية، وندبهما بعد شهر للسفر مع الجاليش إلى الشام. فاتفق بركة هذا مع خشداشيته ووثبوا على أخى أينبك حتى كان من أمر أينبك ما ذكرناه، وصار بركة هذا أمير مائة ومقدم ألف هو وبرقوق، وأقام على ذلك مدة. ثم اتفق مع برقوق وخشداشيته على مسك الأمير طشتمر العلائى الدوادار فمسك طشتمر بعد أن قاتلهم. ومن يوم ذاك استبد برقوق بالأمر، وبركة هذا شريكه فيه، وصار برقوق أتابك العساكر وبركة أتابك رأس نوبة الأمراء، وحكما مصر إلى أن وقع الخلاف بينهما وتقاتلا، فانتصر برقوق على بركة هذا وأمسكه وحبسه بثغر الإسكندرية إلى أن قتله ابن عرام، . فكان بركة ملكًا جليلاً شجاعًا مهابًا، تركى الجنس، وفيه كرم وحشمة، وله المآثر بمكة المشرفة وبطريق الحجاز الشريف وغيره. رحمه الله تعالى.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 5 / 308- 309.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، 1 / 247.

بالإصطبل ورسخت قدمه في الدولة، وثبت أوتاده بها، وما زالت الأقدار تساعده، والأيام تساعده، حتى استبد بالمملكة، وانفرد بتدبير السلطة، وصعد من الإصطبل، فسكن القصر حتى نقل منه إلى القبر عزيزًا منيعًا، عالى القدر رفيعًا، فسبحان من يدبر الأمر كله، لا إله إلا هو ".

ثم إن برقوق أصبح هو المسيطر الوحيد في الدولة وأصبح هو صاحب السيادة المطلقة، ولم يكن للسلطان ولا للخليفة العباسى إلى جواره سلطة ولا رأى كما أنه استطاع أن يتخلص من جميع المنافسين له من أمراء المماليك الكبار، ثم إنه بدأ في تهيئة الأمور ليتولى السلطنة، وكانت أولى خطواته هى خلع المنصور على وتولية أمير حاج بن شعبان [1].

الصالح أمير حاج بن شعبان 783 - 784 هـ:

بويع الصالح أمير حاج [2] بالسلطنة عام 783 هـ، وكان من المسلم به أن

---

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 5 / 347- 349.

(2) السلطان الملك الصالح صلاح الدين أمير حاج ابن السلطان الملك الأشرف شعبان ابن الأمير الملك الأمجد حسن ابن السلطان الملك الناصر محمدًا ابن السلطان الملك المنصور قلاوون. وهو الرابع والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية.

تسلطن بعد وفاة أخيه الملك المنصور علاء الدين عليّ في يوم الاثنين رابع وعشرين صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة.

وخبر سلطنته أنه لما مات أخوه الملك المنصور عليّ تكلم الناس بسلطنة الأتابك برقوق العثماني، وأشيع ذلك، فعظمت هذه المقالة على أكابر أمراء الدولة وقالوا: لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك يلبغا وأشياء من هذا النمط. وبلغ برقوقا ذلك، فخاف ألا يتم له ذلك. فجمع برقوق الأمراء والقضاة والخليفة في اليوم المذكور بباب الستارة بقلعة الجبل وتكلم معهم في سلطنة بعض أولاد الأشرف شعبان، فقالوا له: هذا هو المصلحة وطلبوهم من الدور السلطانية. وحضر أمير حاج هذا من جملة الإخوة، فوجدوا بعضهم ضعيفًا بالجدري، والبعض صغيرًا، فوقع الاختيار على سلطنة أمير حاج هذا؛ لأنه كان أكبرهم، فبايعه الخليفة، وحلف له الأمراء وباسوا يده، ثم قبلوا له الأرض. ولقب بالملك الصالح، وهو الذى غير لقبه في سلطنته الثانية بالملك المنصور، ولا نعرف سلطانًا تغير لقبه غيره.

ولما تم أمر الملك الصالح هذا ألبسوه خلعة السلطنة، وركب من باب الستارة بأبهة الملك، وبرقوق والأمراء مشاة بين يديه، إلى أن نزل إلى الإيوان بقلعة الجبل، وجلس على كرسى الملك، وقبلت الأمراء الأرض بين يديه. ثم مد السماط وأكلت الأمراء. ثم قام السلطان الملك الصالح ودخل

يسيطر برقوق - كالعادة - على مقاليد الأمور، الأمر الذى ساء كثيرًا من أمراء المماليك الكبار، الذين بدؤوا يحيكون المؤامرات للتخلص منه، غير أن برقوق وقف على مدبرى هذه المحاولة فقبض عليهم وزج بهم في غياهب السجون، ثم خلا له الجو من المنافسين فبدأ يفكر جديًّا في إعتلاء السلطنة وزين له الكثير من أتباعه ومواليه هذه الفكرة، فما كان منه إلا أنه جمع الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء إلى اجتماع قام فيه القاضى بدر الدين بن فضل الله كاتب السر الشريف قائلاً: " يا أمير المؤمنين ويا سادات القضاة، إن أحوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان في البلاد وخرج غالب النواب في الشام عن الطاعة، وإن الوقت قد ضاق ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب " فاستقر الرأى على خلع السلطان الملك الصالح أمير حاج وتولية برقوق عرش السلطنة [1].

القصر، وخلع على الخليفة المتوكل على الله خلعة جميلة. ونودى بالقاهرة ومصر بالأمان والدعاء للملك الصالح حاجي. وخلع السلطان على الأتابك برقوق واستقر على عادته أتابك العساكر ومدبر الممالك لصغر سن السلطان، وكان سن السلطان يوم تسلطن نحو تسع سنين تخمينًا.

ثم في سابع وعشرين صفر المذكور جلس السلطان الملك الصالح بالإيوان للخدمة على العادة. ثم قام ودخل القصر، بعد أن حضر الخليفة والقضاة والأمراء والعساكر وقرئ تقليد السلطان الملك الصالح عليهم. وعند فراغ القراءة أخذ بدر الدين محمد بن فضل الله كاتب السر التقليد وقدمه للخليفة، فعلم عليه بخطه. وخلع السلطان على القضاة وعلى كاتب السر المذكور. وانفض الموكب. وأخذ برقوق في التكلم في الدولة على عادته من غير معاند، وفى خدمته بقية الأمراء يركبون في خدمته وينزلون عنده ويأكلون السماط.

وأما القضاة والنواب بالبلاد الشامية وأرباب الوظائف بالديار المصرية في هذه الدولة، فكان أتابك العساكر برقوق العثمانى اليلبغاوي، ورأس نوبة الأمراء أيتمش البجاسي، وأمير سلاح علان الشعباني، وأمير مجلس ألطنبغا الجوبانى اليلبغاوي، والدوادار الكبير آلابغا العثماني، والأمير آخور جركس الخليلي، وحاجب الحجاب مأمور القلمطاوي، اليلبغاوى وأستادار العالية بهادر المنجكي، ورأس نوبة ثاني- أعنى رأس نوبة في زماننا- قردم الحسني، وهؤلاء غير نائب السلطنة وهو الأمير آقتمر عبد الغني، وغير أيدمر الشمسي، وهما من أجل الأمراء وأقدمهم هجرة، يجلس الواحد عن يمين السلطان والآخر عن يساره. وكان الملك المنصور على مليح الشكل حسن الوجه، حشيمًا، كثير الأدب، واسع النفس، كريمًا.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 5 / 350.

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، 5 / 353- 355.

وبتولية الأتابكى برقوق العثمانى عام 784 هـ السلطنة تكون انتهت دولة المماليك البحرية، وبدأ عصر دولة المماليك الجراكسة، وبرقوق العثمانى هو مؤسسها، في حين حكم أمير حاج نحو سنة وسبعة أشهر.

* * *

الفصل السادس

الفصل السادس :

أصل المماليك الجراكسة

أصل المماليك الجراكسة:

تلك هى الدولة الثانية من دولتى المماليك، وأصل ملوكها من الجنس الجركسي، ولعل هذا الاختلاف اليسير في الجنسية بينهما هو السبب في أن يعتبرها المؤرخون دولة أخرى مغايرة للماضية. مع أن الحق في أنهما لا يفترقان في مظهر جوهري؛ لأن ملوكهما من معتوقى المماليك المشترين أو من أبنائهم، ولأنهما لم يتبعا في الحكم إلا نظامًا واحدًا في أصل حقيقته، على الرغم من أن النظام الوراثى للسلطة كان أكثر مراعاة في الدولة البحرية. وعلى الرغم من أن الثورات والفتن والمؤامرات الداخلية قد نشطت في الدولة الجركسية، وعلى الرغم من فساد الجند ومن اختلاط أجناسهم، وعدم العناية التامة بتربيتهم في الدولة الثانية، بالنسبة لما كان من ذلك في الدولة الأولي.

أما فيما عدا ذلك فهما فيه متشابهان، فقد امتد نفوذ مصر المستقلة في عهديهما، فملكت بلاد الشام والحجاز أكثر الأيام، وبسطت نفوذها أحيانًا على بلاد السودان والمغرب، وما وراء بلاد الشام نحو الشرق، وشغلت بمحاربة المغول والفرنجة والسلاجقة. ويتشابه ملوك هاتين الدولتين في حب الظهور بمظهر المحافظة على الدين والغيرة على الشريعة، فهابوا العلماء وقربوا أهل الصلاح والصالحين، واندفعوا إلى وقف بعض ممتلكاتهم على وجوه البر، وبنو المساجد والمدارس والمستشفيات والسبل، كما يتشابهون في النشأة العسكرية والصبر على الكفاح، كما أن نظام العمل وترتيب الدواوين وما إلى ذلك، كان يسير في الدولتين على وتيرة واحدة تقريبًا [1].

وترجع أصول تكوين دولة المماليك الجراكسة إلى أيام السلطان المنصور قلاوون حين عزم سنة 681 هـ / 1281م على تكوين فرقة جديدة من المماليك ليكون إخلاصها وولاؤها له ويكون اعتماده عليها من دون الفرقة المملوكية السابقة، وحرص السلطان على أن يكون أفراد هذه الفرقة الجديدة من عناصر

---

(1) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 41.

مختلفة غير المتعارف عليها من المماليك البحرية، وهم الخوارزمية والتركمان والتتار والأتراك، وآثر أن يكون أعضاء الفرقة الجديدة من الجراكسة [1] الذين يستوطنون المناطق الواقعة إلى الشمال من بحر قزوين وشرق البحر الأسود، وقد ساعده على الإكثار من هذه العناصر الجديدة أن أعدادًا كبيرة منهم كانت معروضة في أسواق الرقيق، وكانت أسعارها رخيصة بالرغم مما عرف عنها من الشجاعة والقوة، ولعل السبب في ذلك - في رخص أسعارها وتوفرها في الأسواق رغم ما عرف عنها من القوة والشجاعة والفروسية - يرجع إلى شدة هجمات المغول على مناطق سكناها منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، مما أدى إلى تشرذم وتفرق قبائل الجركس في بلاد القسم الشمالى الغربى من بلاد القوقاز، أى حوض نهر قوبان، والشاطئ الشرقى من البحر الأسود إلى أطراف بلاد الأبخاز جنوبًا [2].

طريق المماليك الجراكسة (البرجية) للسلطة:

وظل السلطان قلاوون يعمل على الإكثار من هؤلاء المماليك الجراكسة حتى بلغت عدتهم أواخر حكمه ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك، غير أن لفظة الجر كسى لم تطلق على فرقة المماليك البرجية إلا بعد سنوات عديدة [3].

وقد أسكن السلطان المنصور قلاوون مماليكه الجراكسة في أبراج القلعة، أى في مركز إقامة السلطان ودار الحكومة، مما جعل البعض يطلقون عليهم اسم " المماليك البرجية " كما حرص على أن يكونوا في عزلة عن بقية المماليك [4].

وقد اهتم سلاطين بنى قلاوون بهذه الطائفة من المماليك أيما اهتمام فيقول المقريزي: " وكانت الملوك تعنى بها غاية العناية، حتى إن الملك المنصور

---

(1) وينقسم الجراكسة إلى عناصر أهمها: السركس، والأركس، والكسا، والآص.

(2) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص 12، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 142.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 214، حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص 12.

(4) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 214.

قلاوون كان يخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك، ويمر بعرضه عليه ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته، فمتى رأى فيه عيبًا اشتدّ على المشرف والإستادار ونهرهما وحلّ بهما منه أى مكروه " [1].

وبلغت عناية السلطان المنصور قلاوون بهذه الطائفة من المماليك الذروة... " وكان يقول: كلّ الملوك عملوا شيئًا يذكرون به ما بين مال وعقار، وأنا عمّرت أسوارًا وعملت حصونًا مانعة ولى ولأولادى وللمسلمين، وهم المماليك " [2].

وسار الخليل بن قلاوون على نفس المنهاج في العناية بهذه الطائفة من المماليك وإن كان قد أدخل بعض التعديلات على سكنى هذه الطائفة فيقول المقريزي: "... وكانت المماليك الجراكسة أبدًا تقيم بهذه الطبقات لا تبرح فيها، فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاوون سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة في النهار ولا يبيتوا إلا بها، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها، ثم إنّ الملك الناصر محمدًا بن قلاوون سمح لهم بالنزول إلى الحمام يومًا في الأسبوع، فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدّام، ثم يعودون آخر نهارهم، ولم يزل هذا حالهم إلى أن انقرضت أيام بنى قلاوون... " [3].

وقد أحسن بنو قلاوون تربية وتعليم وتهذيب هذه الطائفة من المماليك فيقول المقريزي: "... وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة، أوّلها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره، عرضه على السلطان ونزله في طبقات جنسه وسلمه لطواشى برسم الكتابة، فأوّل ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كلّ طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار فإذا شبّ الواحد من

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 214.
(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 214.
(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 214.

المماليك علّمه الفقيه شيئًا من الفقه، وأقرأه فيه مقدّمه، فإذا صار إلى سنّ البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كلّ طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كلّ طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمى النشاب لا يجسر جند ولا أمير أن يحدّثهم أو يدنو منهم، فينقل إذن إلى الخدمة وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتدّ ساعده في رماية النشاب، وحسن لعبه بالرمح، ومرن على ركوب الخيل، ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف، أو أديب شاعر، أو حاسب ماهر... " [1].

وقد فرضت على المماليك الجراكسة القيود العسكرية الصارمة. فيقول المقريزي: "... هذا ولهم أزمّة من الخدّام، وأكابر من رؤوس النوب يفحصون على حال الواحد منهم الفحص الشافي، ويؤاخذونه أشدّ المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإن عثر أحد من مؤدبيه الذى يعلّمه القرآن، أو الطواشى الذى هو مسلَّم إليه، أو رأس النوبة الذى هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنبًا، أو أخلّ برسم، أو ترك أدبًا من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه... فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك، وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل، ويردعون من جاره أو تعدّى، وكانت لهم الإدارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة والمعالم من الذهب والفضة، بحيث تتسع أحوال غلمانهم، ويفيض عطاؤهم على من قصدهم... " [2].

وأكثر الأشرف خليل بن قلاوون من جلب وشراء المماليك الجراكسة حتى أقدم الأب على بيع ابنه إلى تجار الأشرف خليل فيقول المقريزي: "... وبلغت عدّة

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 214.
(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 214.

المماليك السلطانية في أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة، فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدّتها عشرة آلاف مملوك، وجعلهم طوائف، فأفرد طائفتى الأرمن والجركس وسماها البرجية؛ لأنه أسكنها في أبراج بالقلعة، فبلغت عدّتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة، وأفرد جنس الخطا والقبجاق وأنزلهم بقلعة عرفت بالذهبية والزمردية، وجعل منهم جمدارية وسقاة، وسماهم خاصكية، وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية، ... " [(1)].

وكان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون من أكثر السلاطين اهتمامًا بطائفة المماليك الجراكسة وأكثرهم إحسانًا إليها مما جعلهم يحبونه ويتعلقون به وينسبون إليه ويسمون في بعض الأحيان بالمماليك " الأشرفية " نسبة إليه، كما أنه أول من سمح لهم بالنزول من الأبراج والثكنات التى كانوا يقيمون فيها، والتحلل من بعض القيود العسكرية، كما أنه أجاز لهم الاختلاط بعامة الناس، ومن هنا بدأت المنافسة تقع بين المماليك الأتراك والجراكسة حيث بدأ الصراع على المناصب والإقطاعيات.

ومنذ ذلك الحين والجراكسة (أو البرجية) بدؤوا يشتركون في الحياة السياسية وانغمسوا في صراعاتها، فلما استغل الأمير " بيدرا " - وهو من الترك - فساد السمعة للسلطان خليل بين الناس، وتمكن بالاتفاق مع الأمير لاجين السلاحدار، وغيره من كبار الأمراء الترك على قتل السلطان وهو في إحدى نوبات الصيد، أملاً في اعتلاء عرش السلطنة، ولكن ثارت المماليك البرجية على قتل الخليل أشرف بن قلاوون، ولم تهدأ ثائرتها حتى استطاع الأمير طغجى البرجى من قتل الأمير " بيدرا " وغيره من أمراء الترك الذين اشتركوا في قتل الخليل أشرف بن قلاوون، ولم يكتفوا بذلك بل أصروا على تولية أخى الخليل وهو الناصر محمدًا بن قلاوون السلطنة عام 693 هـ / 1293م، بالرغم من أن سنه آنذاك لم يتجاوز التسعة سنوات، على أن يكون كتبغا المغولى نائبًا للسلطنة

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 214.

وسنجر الشجاعى التركى في منصب الوزارة [1].

ولما كان كتبغا يرغب في أن يكون له كامل النفوذ في الدولة بعد أن تخلص من سنجر الشجاعي، فإنه وجد في أن بقاء البرجية سوف لا يحقق هذه الرغبة، لذا سعى إلى التخلص منهم وتظاهر بأنه يخشى نشاط البرجية السياسى ضد سلطنة بيت قلاوون، وعمد إلى إخراج طوائف منهم من الأبراج السلطانية بالقلعة لتقيم في مناظر الميدان الصالحى بأرض اللوق، وطائفة ثانية في مناظر الكبش بجوار الجامع الطولوني، وأخرى في دار الوزارة برحبة باب العيد، كما سجن عددًا من البرجية الذين يخشى خطرهم، غير أنه أبقى على طائفة منهم تبلغ نحو أربعة آلاف وسبعمائة بالقلعة، ولكنه ضيق عليهم الخناق وأمر بعدم مغادرتهم الأبراج خشية انضمامهم إلى إخوانهم الذين طردوا من القلعة [2].

غير أن المماليك البرجية لم يستكينوا لهذا التشتيت، ولم يفقدوا نفوذهم جميعًا وثاروا عدة مرات ضد كتبغا، وفى عام 694 هـ / 1294م جمع البرجية شتات أمرهم واستولوا على الإصطبلات التى تحت القلعة واستولوا على ما بها من خيول وأحرقوا باب السعادة، ثم قصدوا باب السلاح بالقاهرة واستولوا على ما به من سلاح ثم توجهوا إلى القلعة لحصارها، ولكن محاولتهم لم تفلح، إذ تمكنت حامية القلعة من ردهم والقبض على عدد كبير منهم، حيث ضربت رقاب بعضهم وقطعت أيدى وأرجل البعض، وصلبت جماعة منهم على باب زويلة، وإمعانًا في إذلال هؤلاء الثائرين والتخلص من نفوذهم قام كتبغا بتوزيع عدد منهم على الأمراء فصاروا مماليك أمراء بعد أن كانوا أمراء سلطانية [3].

ثم إن كتبغا واصل سياسته القاضية بالتخلص من نفوذ البرجية والقضاء على شوكتهم فقام بإزاحتهم عن مناصب الدولة جميعًا وأحل محلهم طائفة من جنسه هم المغول الأويراتية الذين فروا من بلادهم سنة 695 هـ / 1295م، وحرم

---

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 821.

(2) حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص 17.

(3) المقريزي، السلوك، 1 / 805- 806، ابن كثير، البداية والنهاية، 13، 338.

كبراء البرجية من إقطاعاتهم التى كانت لهم، ثم إنه - بعد أن تخلص من البرجية - سعى إلى الانفراد بحكم البلاد، فقام بخلع الناصر محمدًا بن قلاوون ونفاه إلى الكرك، وأقام نفسه سلطانًا على البلاد [1].

ولم يستسلم البرجية للأمر الواقع بل سعوا للانتقام من المماليك الأتراك عمومًا وكتبغا على وجه الخصوص، ولكن أحداث التاريخ لم تمكنهم من كتبغا إذ استطاع حسام الدين لاجين من اقتناص السلطنة من كتبغا، وحاول قتله ولكن لم يتمكن من ذلك وفر كتبغا إلى صرخد، كما نجح لاجين - بالرغم من أنه كان روميًّا - أن يضم إلى جانبه المماليك الأتراك وينال تأييدهم، وينال معه سخط وكراهية البرجية [2].

ولم تتوقف محاولات البرجية على الانتقام من المماليك الأتراك بالخلاص من كتبغا، بل تحولوا إلى حسام الدين لاجين، الذي أصبح - بتقربه من المماليك الأتراك - من ألد أعداء البرجية، وسعوا إلى التخلص منه، وهذا ما حدث بالفعل عندما تمكن مقدم البرجية سيف الدين كرجى بمعاونة نوغاى الكرمانى من الهجوم على السلطان لاجين وقتله في العاشر من ربيع الآخر سنة 698 هـ [3].

ومنذ العام 698 هـ / 1298م أصبح البرجية قوة لا يستهان بها، لا سيما منذ سلطنة الناصر محمدًا بن قلاوون الثانية حيث صار الكثير منهم من كبار الأمراء، وعدد كبير منهم من ضمن أمراء الألوف، وتم تعين كثير منهم نوابًا في سورية وبلاد الشام، وفى مصر نفسها، ولعل أبرزهم في هذه الفترة قراسنقر الجركسى المنصورى [4].

وبعد أن تنفذ البرجية في المناصب العليا داخل الدولة المملوكية في مصر والشام، أصبحت لهم الكلمة العليا في الجيش المملوكي، بعد أن أبلوا بلاءً حسنًا

---

(1) ابن أبى الفضائل، النهج السديد، 2 / 418- 421، المقريزي، المواعظ والاعتبار، 3 / 22- 23.
(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، 4 / 34.
(3) ابن إياس، بدائع الزهور، 1 / 137- 138.
(4) العسقلاني، الدرر الكامنة، 3 / 246.

في صد هجمات المغول على سوريا بين سنتى 698 هـ و 702 هـ، وظهر دورهم جليًّا في موقعة شقحب سنة 707 هـ حيث أبلى قادة وجنود البرجية بلاءً حسنًا فيقول أبو المحاسن بن تغري بردي: "... فلما تم الترتيب زحفت كراديس التتار كقطع الليل، وكان ذلك وقت الظهر من يوم السبت ثاني رمضان المذكور. وأقبل " قطلوشاه " بمن معه من الطوامين، وحملوا على الميمنة فثبتت لهم الميمنة وقاتلوهم أشد قتال حتى قتل من أعيان الميمنة الأمير حسام الدين لاجين الأستادار، وأوليا بن قرمان، والأمير سنقر الكافوري، والأمير أيدمر الشمسي القشاش، والأمير آقوش الشمسي الحاجب، وحسام الدين على بن باخل ونحو الألف فارس، كل ذلك وهم في مقابلة العدو والقتال عمال بينهم. فلما وقع ذلك أدركتهم الأمراء من القلب ومن الميسرة، وصاح سلار: " هلك والله أهل الإسلام! " وصرخ في " بيبرس " الجاشنكير وفى البرجية فأتوه دفعة واحدة، فأخذهم وصدم بهم العدو وقصد مقدم التتار " قطلوشاه "، وتقدم عن الميمنة حتى أخذت الميمنة راحة، وأبلى سلار في ذلك اليوم هو وبيبرس الجاشنكير بلاء حسنًا، وسلموا نفوسهم إلى الموت. فلما رأى باقي الأمراء منهم ذلك ألقوا نفوسهم إلى الموت، واقتحموا القتال؛ وكانت لسلار والجاشنكير في ذلك اليوم اليد البيضاء على المسلمين - رحمهما الله تعالى - واستمروا في القتال إلى أن كشفوا التتار عن المسلمين... " [1].

ثم إن المماليك البرجية زادت تطلعاتهم السياسية وأصبحوا أكثر شراهة في أخذ المال[2] والتنافس على السلطة والإقطاعيات بينهم وبين المماليك التركية وبينهم

---

(1) النجوم الزاهرة، 8 / 160- 161.

(2) يقول المقريزي: "... فبدّلت الأرض غير الأرض، وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرًا، وأشحهم نفسًا، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم إعراضًا عن الدين، ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد، وألص من فأرة، وأفسد من ذئب، لاجرم أن خربت أرض مصر والشام، من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات، سوء الحكام، وشدّة عبث الولاة، وسوء تصرف أولى الأمر، حتى أنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه. " المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 214.

وبين بني جلدتهم، ودفعهم تهورهم وطيشهم السياسي إلى الاستخفاف بمقام السلطان الناصر محمدًا بن قلاوون، مما دفعه إلى الهروب إلى الكرك والتخلى عن السلطنة [(1)].

وبالرغم من أن الساحة السياسية كان بها سلار زعيم المماليك الأتراك، وبيبرس الجاشنكير زعيم المماليك البرجية، إلا أن سلار لم يجسر على أن يقدم نفسه لتولى منصب السلطنة لقلة ما حوله من المماليك الأتراك ولكثرة عدد المماليك البرجية ولخوفه من بأسهم، ورضخ لرغبة المماليك البرجية في تولية كبيرهم " بيبرس " الجاشنكير السلطنة [(2)].

بالرغم من أن المماليك البرجية وصلوا إلى عرش السلطنة بعد صراع مرير مع المماليك التركية، إلا أنهم لم يستطيعوا الحفاظ عليه، فلم يكن المماليك الأتراك ليقبلوا بسهولة هذا الوضع، إذ إن فيه ذهابًا لرياح دولتهم ومعها ماكان لهم من نفوذ وإقطاعيات، وساعدتهم على ذلك أن معظم نواب بلاد الشام كانوا من المماليك الأتراك، ولم يكن في بلاد الشام من أعلن تأييده ومبايعة " بيبرس " الجاشنكير إلا أقوش الأفرم الجركسى نائب دمشق، لما بينه وبين الجاشنكير من صلة القرابة [(3)].

وقد تكتل أمراء الشام الأتراك ضد تولية " بيبرس " الجاشنكير وسعوا إلى الجراكسة وإسقاطه وقالوا بينهم: " هؤلاء الجراكسة متى تمكنوا منا أهلكونا، وراحت أرواحنا معهم؛ فقوموا بنا نعمل شيئًا قبل أن يعملوا بنا... " [(4)] واتصلوا بالناصر محمدًا بن قلاوون الذى بدأ في التحرك ضد " بيبرس " بعد أن بدأ يضيق عليه الخناق ويرهقه بالمطالبة بالأموال التى كانت عنده، ووجد الناصر

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 180.

(2) المقريزي، السلوك، 1 / 25، 37، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8 / 227، العسقلاني، الدرر الكامنة، 1 / 502- 503.

(3) العسقلاني، الدرر الكامنة، 4 / 145، أبو المحاسن، المنهل الصافي، 1 / 137.

(4) أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافي، 1 / 290.

محمدًا قبولاً له في بلاد الشام فسار إليها فاستقبله الناس أحسن استقبال وساروا في ركابه، ففر من أمامه أقوش الأفرم - المؤيد الوحيد لبيبرس في بلاد الشام - وخرجت بذلك الشام عن سيطرة " بيبرس " [1].

وبدأ الناس في مصر يتململون من حكم " بيبرس " الجاشنكير، بالرغم من أنه حاول التقرب إلى عامة الناس منذ العام 700هـ - بعد إغارة الصليبيين على الإسكندرية - بأن ضيق على النصارى وفرض عليهم فروضًا أرهقتهم [2].

ولم ينل " بيبرس " الجاشنكير إلا سخط الناس عليه، ووقعت اضطرابات عنيفة بين عامة الناس في القاهرة، كما أن أمراء المماليك التركية في مصر قد شجعهم موقف بني جلدتهم في سوريا فبدؤوا يؤلبون الناس ضد " بيبرس " الجاشنكير والبرجية في مصر، وخرج الكثير من أمراء المماليك التركية من مصر وانضموا إلى جانب إخوانهم الأتراك في سوريا، وسعوا معًا جميعًا في

---

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 53- 64، .

(2) يقول المقريزي: "... كانت وقعة أهل الذمة: وهي أنهم كانوا قد تزايد ترفهم بالقاهرة ومصر، وتفننوا في ركوب الخيل المسومة والبغلات الرائعة بالحلى الفاخرة، ولبسوا الثياب السرية، وولوا الأعمال الجليلة، فاتفق قدوم وزير ملك المغرب يريد الحج، واجتمع بالسلطان والأمراء، واجتمع بالأميرين " بيبرس " وسلار، وقال: كيف ترجون النصر والنصارى تركب عندكم الخيول وتلبس العمائم البيض، وتذل المسلمين وتشبههم في خدمتكم، وأطال القول في الإنكار، فأثر كلامه في نفوس الأمراء، إلى أن استقر الحال على أن النصارى تتميز بلباس العمائم الزرق، واليهود بلبس العمائم الصفر، ومنعوا من ركوب الخيل والبغال، ومن كل ما منعهم منه الشارع صلى الله عليه وسلم، وألزموا بما شرطه عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه.

فالتزموا ذلك وأشهد عليه البطرك أنه حرم على جميع النصرانية مخالفة ذلك والعدول عنه، وقال رئيس اليهود ودانهم: أوقعت الكلمة على سائر اليهود في مخالفة ذلك والخروج عنه وانفض المجلس، وطولع السلطان والأمراء. مما وقع، فكتب إلى أعمال مصر والشام به.

ولما كان يوم خميس العهد وهو العشرون من شهر رجب: جمع النصارى واليهود بالقاهرة ومصر وظواهرها، ورسم ألا يستخدم أحد منهم بديوان السلطان ولا بدواوين الأمراء، وألا يركبوا خيلاً وبغالاً، وأن يلتزموا سائر ما شرط عليهم. ونودي بذلك في القاهرة ومصر، وهدد من خالفه بسفك دمه. فانحصر النصارى من ذلك، وسعوا بالأموال في إبطال ما تقرر، فقام الأمير " بيبرس " الجاشنكير في إمضاء ما ذكر قيامًا محمودًا، وصمم تصميمًا زائدًا. فاضطر الحال بالنصارى إلى الإذعان. السلوك، 1 / 319.

إعادة الناصر محمدًا إلى السلطنة وخلع " بيبرس " الجاشنكير والتخلص من سيطرة البرجية على السلطة [1].

وفى نهاية المطاف لم يجد " بيبرس " الجاشنكير بُدًّا من التنازل عن العرش، والانزواء بعيدًا عن الأنظار، فقام باغتصاب جميع الأموال والخزائن السلطانية وفَرَّ بها من القاهرة بمساعدة المماليك البرجية، وتنازل عن السلطنة إلى الناصر محمدًا بن قلاوون [2].

كان الناصر محمدًا بن قلاوون بعد عودته إلى عرش البلاد أشد حرصًا على الانتقام من المماليك البرجية لسابق استهانتهم بمقامه، وبتأييدهم " بيبرس " الجاشنكير ضده، فعمل على تعقب أتباع " بيبرس " الجاشنكير من الجراكسة، ونكل بهم بين القتل والحبس، مما دفع الكثير من كبار أمراء البرجية أمثال قراسنقر وآقوش الأفرم والزردكاش إلى الفرار من وجهه واللجوء إلى خربندا إيلخان المغول الذى رحب بهم وأكرم وفادتهم وأقطعهم الإقطاعيات الكبيرة، وبالرغم من فرار هؤلاء الأمراء من مصر وبلاد الشام إلا أن الناصر محمدًا بن قلاوون لم يتركهم ورصد لهم عيونًا تطلعه على أخبارهم أولاً بأول، وتعقبهم بالفداوية الذين حاولوا اغتيالهم في بلاد المغول [3].

ثم إن الناصر أخذ في عرض المماليك البرجية، وقطع رواتبهم، وسلبهم إقطاعياتهم التى كانت لهم، ومنح ما كان لهم من امتيازات وإقطاعيات إلى مماليكه من الأتراك، وأخرج العديد منهم للعمل في سورية، وقتل عددًا كبيرًا منهم [4].

وقد سعى الناصر محمدًا بن قلاوون حثيثًا في التخلص من نفوذ البرجية والقضاء على سيطرتهم، وعمل على الاعتماد على عنصر المماليك الأتراك

---

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 61.
(2) المقريزي، السلوك، 2 / 61، " بيبرس " الدوادار، التحفة المملوكية، ص 100.
(3) المقريزي، السلوك، 2 / 554- 556.
(4) المقريزي، السلوك، 2، 156.

وأكثر منهم، فخالف بذلك سياسة أبيه وأخيه الأشرف خليل في شراء المماليك الجراكسة.

يقول المقريزي: "... ثم شغف الملك الناصر محمدًا بن قلاوون بجلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توريز (وكلها من بلاد الترك) وبلاد الروم وبغداد، وبعث في طلبهم وبذل الرغائب للتجار في حملهم إليه، ودفع فيهم الأموال العظيمة، ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامّة الأصناف دفعة واحدة في يوم واحد، ولم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك في تنقل المماليك في أطوار الخدم حتى يتدرب ويتمرن، كما تقدّم، وفى تدريجه من ثلاثة دنانير في الشهر إلى عشرة دنانير، ثم نقله من الجامكية إلى وظيفة من وظائف الخدمة، بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة، فأتاه من المماليك شيء كثير رغبة فيما لديه، حتى كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذى يجلبه إلى مصر، وبلغ ثمن المملوك في أيامه إلى مائة ألف درهم فما دونها، وبلغت نفقات المماليك في كلّ شهر إلى سبعين ألف درهم، ثم تزايدت حتى صارت في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ومائتين وعشرين ألف درهم... " [1].

كان من نتيجة سياسة الناصر محمدًا بن قلاوون تجاه المماليك البرجية أنهم تواروا خلف الأحداث السياسية وخفت نجمهم ولم يعد لهم ذكر في كتب التاريخ أو التراث في فترة حكم أبناء الناصر محمدًا بن قلاوون كجك (742 هـ) وأحمد (742 - 743 هـ) وإسماعيل (743 - 746 هـ).

غير أن الجراكسة لم يطل بهم المقام على هذا الحال إذ إنهم سرعان ما استعادوا نفوذهم المسلوب، وثاروا في وجه السلطان شعبان بن الناصر محمدًا بن قلاوون (746 - 747 هـ / 1345 - 1346م)، الذى ضيق عليهم الخناق ومنعهم رواتبهم، فثاروا في وجهه وتمكنوا من خلعه وتولية أخيه السلطان

---

(1) المواعظ والاعتبار، 2 / 214.

حاجى وهو مازال صغير السن ولقبوه المظفر [1].

غير أن هذه الحادثة أعادت الصراع بين الترك والجراكسة إلى نقطة البداية، فقد استغل الجراكسة صغر سن السلطان المظفر حاجى وسيطروا على مقاليد الأمور داخل الدولة، فتم تعيين الأمير أغرلو الجركسى نائبًا للسلطنة، فقام أغرلو بالإكثار من عنصر الجراكسة وجلب منهم آلاف، كما ذكر المقريزي: "... طلب المماليك الجراكسة الذين قربهم المظفر بسفارة الأمير أغرلو، فإنه كان يدعى أنه كان جركسى الجنس، وجلبهم من أماكن حتى ظهروا في الدولة وكبرت عمائمهم وكلوتاتهم... " [2] واستأثر أغرلو بالحكم دون السلطان الصغير وقام بالتنكيل بعنصر الأتراك فقتل أعدادًا كبيرة منهم، حتى ضاقت منه الصدور وتحينوا الفرص للخلاص منه، وكان الذى حدث أنه أخذ على حين غرة وتم ذبحه، وعين الترك بدلاً منه الأمير التركى أرقطاى نائبًا للسلطنة [3].

ثم إن المماليك الترك عملوا على التنقيص والتقليل من شأن السلطان المظفر حاجى لميله للجراكسة واحتمائه بهم، مما جعله يرتمى في أحضان الجراكسة لحمايته من تسلط المماليك الترك، ولكن الجراكسة خذلوه ولم يقوموا بحمايته كما وعدوه وأسلموه للترك فقتلوه؛ لأن الجراكسة لم ينسوا للمظفر أنه هو الذى ذبح كبيرهم أغرلو الجركسى [4].

ثم بدأت حرب المنازعات والقوة بين الجراكسة والترك حول تولية خليفة للمظفر حاجي، فبينما أجمع الجراكسة على اختيار أمير حسين بن الناصر محمدًا وأصروا على توليته السلطنة، أجمع الترك على اختيار أخيه أمير حسين الذى لم يتعد عمره آنذاك الثانية عشرة من عمره، وكان الذى حدث أن تمكن

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 240- 241، أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 5.

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 240- 241.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، 2 / 240- 241، أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 5.

(4) أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 16.

الترك من تعيين أمير حسن سلطانًا على البلاد ولقبوه بالناصر، ولما كانت الغلبة للمماليك الترك فكانت لهم السلطة أيضًا، وأخذوا يتتبعون الجراكسة قتلاً وتشريدًا وصادروا معظم ممتلكاتهم ليملؤوا خزانة السلطان الجديد التى غدت خاوية، مما أثاروا حفيظة الجراكسة، فحاولوا خلع السلطان الناصر حسن ودبروا مؤامرة لذلك ولكنها فشلت، فازداد السلطان الناصر حسن من التنكيل بالجراكسة، ونفى العديد منهم خارج البلاد، في حين قام بتوزيع العديد منهم على الأمراء في البلاد، وبيع الكثير منهم وقطع رواتب البعض الباقى لتوفير النفقات أيضًا نتيجة الأزمة الاقتصادية التى كانت تمر بها البلاد [1].

وعلى ما يبدو أن سلاطين المماليك قد أضجرهم ذلك الصراع المرير بين شقى دولة المماليك الترك والجراكسة وصراعاتهم المريرة والمتكررة، فحاول السلطان الناصر حسن التخلص من سيطرة المماليك الترك والجراكسة بأن حاول الاعتماد على صف ثالث يكون ولاؤه له فوقع اختياره على أولاد الناس - وهم من أبناء الأمراء الذين ولدوا في مصر ولم يولدوا ولم يشتروا كرقيق - يقول أبو المحاسن بن تغري بردي: "... وكان يحب أولاد الناس دون المماليك ولهذا طالت مدته لولا أنه قدم مملوكه يلبغا؛ فكان ذلك هو السبب لزوال دولته.

و أمَّر من أولاد الناس جماعة كثيرة، وكان غالب نواب القلاع بالبلاد الشامية في زمانه أولاد الناس، وكان في زمانه من أولاد الناس... " [2].

ولما لامه بعض أمراء المماليك في تقدمة أولاد الناس على المماليك؛ فقال: "... والله لا لمحبة فيهم أقدمهم، لكن أفعل ذلك مصلحة لى وللرعية وللبلاد، فأما مصلحتي، فإنهم لا يخرجون عن طاعتي، ومتى أرادوا ذلك نهاهم أقاربهم وحواشيهم عن ذلك؛ خوفًا على أملاكهم وأرزاقهم، بخلاف المماليك؛ فإنهم لا رأس مال لهم في مملكة من الممالك. وأما للرعية، فإن عندهم شبع نفس، وعدم طمع، وأيضًا خوفًا منى لا يظلمون أحدًا. وللبلاد فلا شك أنهم أعرف بالأحكام

(1) المقريزي، السلوك، 2 / 747- 751، 665- 669.
(2) المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 35.

والسياسة والأخذ بخواطر الرعية من المماليك... " [1].

هذا التصرف أشعر المماليك الترك والجراكسة بحرج موقفهم وقرب زوال سلطتهم فأجمعوا أمرهم على التخلص من السلطان قبل أن يستولى أولاد الناس على مقاليد الأمور وتدور عليهم الدائرة، فتحرك يلبغا وأنكر على السلطان أمورًا أشاعها عنه. والذى حدث "... هو أن السلطان حسن كان قد خرج من القاهرة للصيد وكان قد تغير خاطره على مملوكه يلبغا المذكور، لكلام بلغه عنه؛ فركب في نفر قليل على أنه يكبس يلبغا في منزله.

و كان عند يلبغا خبرٌ من ذلك بطريق الدسيسة؛ فخرج يلبغا للقاء السلطان بجماعته وهم مستعدون للحرب؛ فلم يقدر السلطان حسن عليه، وهرب في جماعة يسيرة... " [2] ثم تقدم يلبغا بقواته من المماليك إلى القلعة وتمكن من قتل السلطان الناصر حسن في جمادى الأولى سنة 762 هـ / 2361م وأقام مكانه ابن أخيه محمد بن حاجى سلطانًا وهو في الرابعة عشرة من عمره [3].

وكان من الطبيعى أن يصبح السلطان الجديد ألعوبة في يد يلبغا والمماليك اليلبغاوية، ولم يكن من المنتظر أن يكون للسلطان الجديد سيطرة على الحكم، ولم يمض وقت طويل على ولايته حتى تغير عليه يلبغا وأشاع عنه الأباطيل، وفى نهاية الأمر خلعه من الحكم في الخامس عشر من شعبان 764 هـ / 1363م، وأقام بدلاً منه شعبان بن الناصر حسن وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره [4].

وفى ظل السيطرة المطلقة للأتابك يلبغا على مقاليد الأمور داخل الدولة المملوكية، لم يكن من المنتظر أن يكون للسلطان الجديد أى دور في الحياة السياسية اللهم إلا الاسم واللقب، ولم يكن هناك من المماليك من يجسر على

---

(1) المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 35.
(2) المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 35.
(3) ابن كثير، البداية والنهاية، 14 / 278.
(4) ابن كثير، البداية والنهاية، 14 / 278.

معارضته، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان إذ جاءت نهاية يلبغا على يد أتباعه ومواليه الناقمين عليه الذين أساءتهم قسوته وشدة بطشه حتى مع أقرب المقربين إليه، فاجتمعت كلمة هؤلاء مع السلطان شعبان على الخلاص من يلبغا وقتله في الثانى عشر من ربيع الآخر 768هـ [1].

وفى الوقت الذى ظن فيه الكثيرون أن السلطان شعبان - بعد الخلاص من يلبغا - سوف تكون له الكلمة العليا داخل الدولة المملوكية، نجد أن المماليك اليلبغاوية - وفيهم الكثير من الجراكسة - قد أحكموا سيطرتهم على السلطان شعبان، واستبدوا بالأمر دونه، بعد أن خلف أسندمر سلفه يلبغا في زعامة اليلبغاوية، ولم يكن أمام السلطان بُدٌّ من الإذعان لهذه السيطرة، ولما ضاق السلطان ذرعًا من تسلط أسندمر حاول الوقوف في وجهه، ولكنه لم يجد له نصيرًا سوى عامة الناس الذين أيدوه وناصروه ضد المماليك اليلبغاوية وقبضوا على العديد من هؤلاء المماليك وزجوا بهم في غياهب السجون ودقوا أعناق آخرين ونفوا منهم الكثيرين إلى خارج البلاد [2].

والملاحظ في الأحداث السابقة أنه بالرغم من قلة عدد المماليك الجراكسة بعدما دارت عليهم الدائرة في الأحداث السابقة إلا أنه كان يوجد تعاون كبير بين كبار الأمراء من المماليك الترك والجراكسة وبرزت منهم شخصيات أمثال برقوق الجركسي، وجركس الخليلي، وبركة الجوبانى التركي.

وقد حدثت في نهاية عصر دولة بنى قلاوون مجموعة من القلاقل والاضطرابات الشديدة التى عصفت رياحها بحكم بنى قلاوون، وفى خضم هذه الأحداث برزت شخصية برقوق بن آنص الجركسى الذى يعد المؤسس الحقيقى لدولة المماليك الثانية أو دولة الجراكسة أو البرجية الذى استطاع - بعد سلسلة من الدسائس - أن يصل إلى سدة الحكم وتولى السلطنة.

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 35.
(2) ابن خلدون، العبر، 5 /457- 458.

الفصل السابع

الفصل السابع:

دولة المماليك الجراكسة

دولة المماليك الجراكسة.

الظاهر برقوق ونهاية الدولة المملوكية الأولى:

كان السبب في سلطنة برقوق [1] أنَّ الملك آل إلى أطفال صغار، وسيطر عليهم الأمراء الأتراك والجراكسة وغدت البلاد مسرحًا للصراعات والفتن والدسائس بين المماليك الترك والجراكسة وبين كبار الأمراء على المناصب والإقطاعيات، وأصبح بمقدور الأقوى منهم السيطرة على مقاليد الأمور.

وبعد أن استقر الظاهر برقوق في سدة الحكم في الدولة المملوكية أخذ في التخلص من بقايا دولة المماليك البحرية وعمل على إبعاد فرقة المماليك الترك وفرقة المماليك الأشرفية - مماليك السلطان شعبان - فعزلهم من مناصبهم وحرمهم رواتبهم وجردهم من إقطاعياتهم التى كانت لهم وتركهم بطالين في شوارع القاهرة، وفى المقابل أحل بدلاً منهم بنى جلدته المماليك الجراكسة وأصبح اعتماده عليهم كبيرًا.

غير أن هذه السياسة لم ترض العناصر التركية الأخرى التى أيدت برقوق في الوصول إلى السلطة، وثارت ثائرتهم، وكانت أولى الثورات التركية ثورة

---

(1) الملك الظاهر برقوق هو برقوق بن آنص، السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق العثمانى اليلبغاوى الجاركسي، سلطان الديار المصرية، القائم بدولة الجراكسة.

جلبه خواجا عثمان من بلاده، وكان اسمه ألطنبغا، وقيل سودون. فلما اشتراه الأتابك يلبغا العمرى الخاصكى سماه برقوق، وكان قديمًا اسمه برقوق في بلاده؛ لأن إخوته وأقاربه ووالده قدموا إلى الديار المصرية، وكانوا خلقًا كثيرًا، فلم يلهج أحد منهم بذلك، ولا أحد من حواشيه، ممن كان من بلده، وهم جماعة كبيرة أيضًا.

ولما أخذه الأتابك يلبغا أعتقه، وجعله من جملة مماليكه إلى أن قتل يلبغا وكانت واقعة الأجلاب مماليكه وتشتت شملهم، أخرج برقوق فيمن أخرج منهم إلى البلاد الشامية، وخدم عند الأمير منجك اليوسفى نائب دمشق حتى طلب الملك الأشرف شعبان بن حسين اليلبغاوية إلى ديار مصر، وجعلهم في خدمة أولاده؛ فصار برقوق من جملة مماليك الأسياد إلى أن ثاروا مع الأمير أينبك بعد سفر الأشرف شعبان إلى الحجاز؛ فانتقل برقوق في هذه الواقعة من الجندية إلى إمرة طبلخاناة دفعة واحدة ثم إلى إمرة مائة وتقدمة ألف، وملك الإسطبل السلطاني، وصار أمير آخور. ثم ولى الإمرة الكبرى، ولا يزال يدبر الأمر والأقدار تساعده حتى ذهب من يعانده واستفحل أمره.

ووافقه أكابر الدولة على السلطنة، وخلع الملك الصالح حاجى بن الملك الأشرف شعبان بن حسين، وتسلطن. أبو المحاسن بن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 258.

الطنبغا السلطانى الأشرفى نائب أبلستين، غير أن هذه الثورة لم تجد المعاونة الكبيرة من المماليك الترك في سورية لا سيما المماليك اليلبغاوية زملاء برقوق فسهل الأمر على برقوق في القضاء عليها سريعًا. وفرار الطنبغا إلى بلاد المغول بعد أن يئس من معاونة المماليك الترك له قائلاً: " لا أكون في دولة حاكمها جركسى " ووقعت هذه الأحداث في العام 784 هـ / 1382م [1].

ثم تتابعت المؤامرات بغية الخلاص من برقوق، وفى هذه المرة تجمعت كل القوى السياسية في مصر للخلاص منه حيث اتفق المماليك الترك بزعامة قرط بن عمر مع الخليفة العباسى المتوكل على الله على قتل برقوق وأن يتولى الخليفة مقاليد الحكم في البلاد واتفق هؤلاء المتآمرون مع قبائل العربان في البحيرة والفيوم لمساعدتهم في هذه الخطة، ولكن برقوق اكتشف هذه المؤامرة قبل تنفيذها، فأمر بقتل قرط بن عمر في حين اكتفى بخلع الخليفة العباسى من منصبه وتعيين عمر بن إبراهيم مكانه وأطلق عليه لقب " الواثق بالله " [2].

وتواصلت الفتن والمؤامرات ضد برقوق، وفى سنة 488هـ / 1386م اجتمعت كلمة أمراء الترك في دمشق مع الفقهاء في الخلاص من حكم برقوق والعودة بحكم البلاد ليس للمماليك وإنما للعرب، يقول المقريزي: "... وفى أول ذى الحجة أحضر من دمشق بأربعة من الفقهاء في الحديد، اتهموا أنهم سعوا في

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 11 / 229.

(2) يقول المقريزي: " ونقل له عن الخليفة المتوكل على الله أبى عبد الله محمد أنه اتفق مع الأمير قرُط بن عمر التركمانى والأمير إبراهيم بن الأمير قطلو أقتمر العلاى أمير جاندار، وجماعة قرط من التركمان والأكراد، وهم نحو ثمانمائة فارس، على أن السلطان إذ نزل من القلعة إلى الميدان في يوم السبت للعب الكرة، وترجل الأمراء والمماليك كلهم، ومشوا في ركاب السلطان على العادة، عند قربه من الميدان، خرجوا جميعًا وقتلوا السلطان والأمراء، وأركبوا الخليفة، وصعدوا به إلى القلعة، ومكنوه من القيام بالسلطنة، فإن عارضه معارض، فر به قرط إلى الفيوم، ودعا عربان الصعيد للقيام بنصرته، وأن الخليفة قد كتب إلى بدر الدين بن سلام أن يقوم له في البحيرة بالدعوة، فاشتد حنق السلطان، واستل السيف ليضرب به عنق الخليفة، فقام الأمير سودن النائب وحال بينه وبينه، وما زال به حتى سكن بعض غضبه. فأمر بقرط وإبراهيم أن يسمرا، واستدعى القضاة ليفتوه بقتل الخليفة، فلم يفتوه بقتله، وقاموا عنه... " المقريزي، السلوك، 3 / 369.

نقض المملكة، والدعاء لإمام قرشي، فسجنوا. ثم أحضروا في يوم الأربعاء رابع عشرينه إلى بين يدى السلطان وتقدم كبيرهم - أحمد بن البرهان - فكلم السلطان عما سأله عنه، وصدع بالإنكار عليه، وأنه غير أهل للقيام بأمر المسلمين، وعدد له ما هو عليه من أخذ المكوس ونحو ذلك، وأنه لا يقوم بأمر المسلمين إلا إمام قرشي. فأمر به وأصحابه أن يعاقبوا حتى يعترفوا بمن معهم من أمراء الدولة، فتولى عقوبتهم الأمير حسام الدين حسين والى القاهرة، ثم سجنهم بخزانة شمايل " [1].

ثم كان التمرد الذى لم يستطع برقوق أن يقضى عليه إذ جمع يلبغا الناصرى [2] أمراء المماليك الترك وقرروا فيما بينهم خلع برقوق من السلطنة،

---

(1) السلوك، 3 / 470.

(2) يلبغا الناصرى سيف الدين كان من أتباع يلبغا الكبير الناصرى فنسبه كنسبه وأول ما اشتهر أمره أنه كان مقدمًا في أول دولة الصالح حاجى ابن الأشرف فقرر في نيابة حلب عوضًا عن إينال اليوسفى، وفى ولايته هذه وقعت له وقائع مع التركمان منها، مع ابن رمضان باذنة، وفى تلك الوقعة قلعت عينه وانكسر معه عسكر حلب، ثم لم ينتصر العسكر واستمر في إمرته وبنى بحلب جامعًا، كان أولاً مسجدًا بجوار دار العدل فجدد فيه منارة ووسعه، فلما تسلطن الظاهر برقوق عزله عن إمرة حلب وولاها السودون للظفرى، وتوجه يلبغا إلى القاهرة فسجن بالإسكندرية، ثم أفرج عنه وأعاده إلى إمرة حلب في سنة تسعين فوقعت له في هذه الإمرة الثانية، وقعة مع منطاش بملطية وكان أميرها قبل سلطنة برقوق، وكان ينتمى إلى بركة فلما تطلع يلبغا إلى إمرة حلب أمر بأن يواقع منطاش وتنتزع منه ملطية ففعل ذلك، ووقعت له وقعة كبيرة انكسر فيها منطاش، وأنبأ يلبغا عن شجاعة مفرطة واستمر في إمرة حلب فبلغه أن بريدًا قدم بعزله فركب فلاقاه وأظهر العصيان وحاصر القلعة والنائب بها ناصر الدين المهمندار إلى أن أخذها بالأمان، ثم كاتب يلبغا أمراء البلاد فأطاعوه، وانضم إليه منطاش بمن معه فبلغ ذلك الظاهر فجهز له عسكرًا كثيفًا فيه أيتمش الأتابك وجركس الخليلى أمير آخور ويونس الدوادار، وتذكار الحاجب الكبير وأحمد ابن يلبغا وعدة من مماليك السلطان، فوصلوا إلى دمشق وعليها يومئذٍ طرنطاى وعنده من أعيان الأمراء إينال اليوسفى، فاجتمعوا وراسلوا يلبغا في الصلح مع جماعة من أعيان الفقهاء.

والتقى العسكران في حادى عشر ربيع الأول 791 على بريد من دمشق فانكسر العسكر المصرى ووقع أكثرهم في قبضة الناصرية، فحبس أيتمش بقلعة دمشق وطرنطاى بقلعة حلب، وهرب يونس فألفاه بعض أمراء العرب ممن كان أساء إليه فقتله وتحظى بإحضار رأسه إلى الناصرى، ثم جمع الناصرى العساكر وتوجه من دمشق في حادى عشر جمادى الأولى فوصلوا إلى القاهرة في أوائل جمادى الآخرة فخامر أكثر العسكر على الظاهر، وكان ما كان من القبض عليه ودخل الناصرى

وقاموا بالقبض على عدد كبير من المماليك الجراكسة ممن كانوا ببلاد الشام، وتمكن هؤلاء الثائرين من الاستيلاء على معظم بلاد الشام التى أصبحت تحت سيطرتهم [1].

ومن دمشق أعلن يلبغا الناصرى عزل برقوق عن عرش السلطنة، وتولية الخليفة المتوكل على الله، ونال هذا الإعلان تأييد معظم نواب المدن والقلاع في بلاد الشام [2].

وكان لهذه الخطوة وقعها السيئ على برقوق، إذ إنه أسرع إلى القبض على الخليفة العباسى المتوكل على الله واعتقله في القلعة وضيق عليه ومنع غلمانه وأصحابه من الدخول عليه، فاستغل يلبغا الناصرى هذه الخطوة في التشنيع على برقوق، وإظهاره أمام الرأى العام بمظهر الخائن المعتدى على الخلافة العباسية - الغطاء الرسمى للدولة المملوكية - مما اضطر برقوق إلى إطلاق سراح الخليفة العباسى المتوكل على الله واسترضائه، وإن كان قد حدد إقامته وراقب حركته وسكناته [3].

ولم يجد برقوق بُدًّا من مواجهة يلبغا الناصرى عسكريًّا فقام بتجهيز جيش كثيف التقى بجيش يلبغا الناصرى عند خان لاجين، ودار بين الفريقين قتال عنيف، دارت في نهايته الدائرة على جند السلطان برقوق وحاقت به الهزيمة، وتمكن يلبغا الناصرى من السيطرة على مقاليد الأمور في بلاد الشام وتتبع الفارين من جيش السلطان وقبض على الكثير من أتباع برقوق وسجنهم في سجن قلعة دمشق [4].

القلعة وأعاد الصالح حاجى إلى السلطنة ولقبه المنصور وذلك في السادس من جمادى الآخرة، ثم قبض على الظاهر فسجنه بالكرك بعد أن صمم منطاش على قتله فمنعه منه... " الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة- (ج 2 / ص 172).

(1) العسقلاني، الدرر الكامنة، 4 / 441، المقريزي، السلوك، 3 / 501.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 11 / 259.

(3) المقريزي، السلوك، 3 / 210.

(4) ابن إياس، بدائع الزهور، 1 / 271.

ثم حدث أن العامة بدأت تضجر من حكم برقوق وتتشاءم منه، إذ إنه أرهقهم بكثرة الضرائب والمكوس التى فرضها عليهم - بعد أن كان قد ألغاها - من أجل تغطية نفقات الحروب التى يخوضها ضد منافسيه، يأتى ذلك في ظل تدهور الأمور الاقتصادية داخل البلاد وارتفاع الأثمان [1].

واستغل يلبغا الناصرى والمماليك الأتراك سوء الأحوال الذى يلازم برقوق وزحف على القاهرة بجنده، فلم يستطع الظاهر برقوق الصمود أمام تقدم القوات التركية، فأرسل إلى يلبغا الناصرى يعرض عليه الصلح مع تنازله عن السلطنة مقابل الإبقاء على حياته فكتب له يلبغا الناصرى أمانًا، واختفى بعدها برقوق عن الأعين حتى هدأت الأمور، ثم ألقى القبض عليه حيث وضع في سجن الكرك مكرما [2].

عودة الصالح أمير حاج بن شعبان 790 - 792 هـ:

كان الاتجاه السائد بعد التخلص من سيطرة الظاهر برقوق أن تؤول السلطنة إلى يلبغا الناصري، على أساس أنه صاحب الدور الرئيسى والنصيب الأكبر في أحداث خلع الظاهر برقوق، وحاز هذا الاتجاه تأييد معظم كبار أمراء المماليك، ولكن يلبغا تمنع عن قبول هذا المنصب لأنه كان يدرك مدى قوة المماليك الأشرفية الترك فضلاً عن معارضة المماليك الجراكسة الذين لم يكونوا على استعداد أن يقبلوا بسلطنته بعد خلع أستاذهم برقوق. ولذا فإن العيون اتجهت إلى اختيار أحد بقايا بيت بنى قلاوون، وأجمعوا أمرهم على تولية الصالح أمير حاج بن شعبان ولقبوه بالمنصور بدل الصالح، فاستدعوه وأركبوه بشعار السلطنة إلى الإيوان وأجلسوه على عرش السلطنة، في حين تولى يلبغا الناصرى الأتابكية، وشغل منطاش [3] وظيفة أمير مجلس [1].

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 11 / 273.

(2) المقريزي، السلوك، 3 / 520- 521، ابن إياس، بدائع الزهور، 1 / 273.

(3) منطاش: هو تمر بغا بن عبد الله الأفضلى المدعو منطاش، الأمير سيف الدين، المتغلب على الديار المصرية، وصاحب الوقعة المشهورة.

أصله من مماليك الملك الأشرف شعبان بن حسين ومن خاصكيته، ثم تأمر عشرة في أيام أستاذه إلى أن قتل الأشرف وتشتت مماليكه في البلاد، نفى منطاش هذا إلى البلاد الشامية، ودام بها إلى أن تسلطن الملك الظاهر برقوق طلبه إلى القاهرة، فقدمها مع من قدم من المماليك الأشرفية، واستمر بخدمة الملك الظاهر برقوق ودام عنده إلى سنة سبع وثمانين وسبعمائة، اشتراه الملك الظاهر برقوق من أولاد أستاذه بوجه شرعي، وأعتقه وولاه نيابة ملطية في سنته، فتوجه إليها وأقام بها إلى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة عصى على الملك الظاهر وخرج عن طاعته، وبلغ خبره الملك الظاهر برقوق، فأرسل بتوجه العساكر الحلبية صحبة نائبها الأمير يلبغا الناصرى وغيرهم لقتال منطاش المذكور والقبض عليه، فلما توجهت العساكر إليه خرج هو من ملطية وقصد القاضى برهان الدين أحمد صاحب سيواس، والتجأ إليه، فوافقه القاضى برهان الدين أحمد المذكور على العصيان، وضمه عنده بسيواس، فتوجهت العساكر الحلبية نحو سيواس في سنة تسعين وسبعمائة وحصروها، ووقع بين الفريقين حروب يطول الشرح في ذكرها، واستظهر العسكر الحلبي على أهل سيواس إلا أنهم لم يظفروا بأحد منها، ثم عادوا إلى حلب، ووعده بأنه يعود إلى قتاله في القابل، وقال: لا يعرف السلطان أمر منطاش إلا منى، فلم يأخذ برقوق كلامه بالقبول في الباطن، وأرسل يطلب الأمير ألطنبغا الجوباني نائب دمشق إلى القاهرة، فلما وصل الجوبانب إلى خانفاة سرياقوس أرسل الظاهر قبض عليه وبعثه لحبس الإسكندرية، ثم أرسل الظاهر أيضًا قبض على الأمير كمشبغا الحموى نائب طرابلس.

فلما بلغ الناصرى هذه الأخبار استوحش وخاف على نفسه من القبض عليه، ويفعل به كما بغيره، فلم يجد وبدًا من موافقة منطاش والعصيان على الملك الظاهر، وأرسل بطلب منطاش إليه فحضر منطاش ودخل تحت طاعة الناصري، وانضم عليهم خلائق من الأمراء وغيرهم، وتوجه الجميع نحو الديار المصرية، ووقع ما حكيناه وما سنحكيه في غير موضع إن شاء الله تعالى.

ولا زال أمر منطاش والناصرى في إقبال وأمر برقوق في إدبار حتى قبضا عليه وحبس بحبس الكرك، وصار الناصرى هو مدبر مملكة الملك المنصور حاجي وله الأمر والنهي. وصار منطاش المذكور كأحد الأمراء الأكابر، وليس له من الأمر شيء، فعظم ذلك على منطاش وأضمر الشر للناصري، وصار يمنعه من إثارة الفتنة، عدم موجوده وقلة أعوانه إلى أن زاد به الأمر دبر حيلة، وذلك بأنه تمارض فدخل الأمير ألطنبغا الجو بانى يعوده في العشر الأوسط من شعبان سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، فقبض عليه منطاش وعلى غيره ممن دخل من أمراء الناصرى لعيادته، ونهض منطاش من وقته، وأمر لجماعة من حواشيه بالطلوع إلى سطح مدرسة السلطان حسن وبالرمى على الناصرى بسكنه بباب السلسلة، كل ذلك والناصرى لا يكترث بذلك إلى أن عظم الأمر، وتناوشوا بالقتال وتراموا بالسهام، ثم قوى الرمى على باب السلسلة من مدرسة السلطان حسن، واستمر ذلك بينهم أيامًا، وكل يوم يقوى جانب منطاش إلى أن اجتمع عليه كثير من الجند، فلما رأى الأمير يلبغا الناصرى أن أمره لا يزداد إلا شدة ركب من الإسطبل بنفسه بجموعه، ونزل من باب السلسلة ومعه أعيان الأمراء، ولا يشك أحد في نصرته والتقى مع منطاش، فلم يثبت الناصرى غير ساعة وانكسر وانهزم إلى جهة بلبيس، وملك منطاش قلعة الجبل، وقبض على من استوحش منهم من الأمراء، ثم أحضر إليه الأمير يلبغا الناصرى ممسوكًا من بلاد الشرقية، فقيده وجهزه إلى ثغر

وبما أن يلبغا الناصرى كان هو المتحكم في مقاليد الأمور داخل الدولة فإنه

الإسكندرية، وصحبته الأمير ألطنبغا الجوباني، فحبسا بالثغر المذكور، واستقر منطاش أتابك العساكر ومدبر المماليك كما كان الناصرى وصار يمهد مملكته، ويقرب واحدًا ويبعد آخر، وقبض على خلائق من اليلبغاوية والبرقوقية ممن كان الناصرى أمنهم، وأنشأ خلائق ممن لا يؤبه إليهم، واستفحل أمره، ثم أرسل إلى دمشق بالقبض على نائبها الأمير بزلار العمرى واعتقاله، واستقرار جردمر المعروف بأخى طازفى نيابة دمشق، واعتمد غير ذلك من التولية والعزل إلى أن بدا له أن يرسل إلى الكرك بقتل برقوق على يد الشهاب البريدي، فتوجه الشهاب إلى الكرك، فلم يسمع له ذلك، ووقع ما ذكرناه في ترجمة الملك الظاهر برقوق من خروجه من حبس الكرك ومساعدة نائبها له الأمير حسن الكجكني، وقتل الشهاب البريدى وقدوم برقوق إلى دمشق، وخروج منطاش بالملك المنصور والعساكر المصرية لقتال الملك الظاهر برقوق.

وكان خروج منطاش من الديار المصرية في ثانى وعشرين ذى الحجة من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، ومعه عدة من أعيان الأمراء كالجاليش، ثم تبعه السلطان الملك المنصور حاجى بمن معه، والخليفة والقضاة وغيرهم، وسار الجميع إلى أن التقى منطاش مع الظاهر برقوق وحصل بينهما الوقعة المشهورة، فانكسر منطاش وانهزم إلى دمشق وانتصر الظاهر برقوق، واستولى على الملك المنصور والخليفة والقضاة، ودخل منطاش إلى الشام، واحتفل لقتال برقوق ثانيًا، فلم ينتج أمره، وعاد إلى دمشق وتحصن بها، وحصره الظاهر برقوق مدة أيام، ثم تركه وعاد إلى دمشق وتحصن بها، وحصره الظاهر برقوق مدة أيام، ثم تركه وعاد إلى الديار المصرية، وجلس على كرسى الملك، وأطلق الناصرى والجوباني وغيرهم ممن كانوا غرماءه في الأولى، ثم قبض عليهم منطاش وحبسهم حسبما ذكرناه، وأخلع على الجوبانى بنيابة دمشق، وندبه لقتال منطاش وأخرجه من دمشق، فتوجه الجوباني بالعساكر إلى نحو دمشق، وبلغ خبرهم منطاش، فخرج منها لقتاله، وتقاتلا، فقتل الجوباني في المعركة، ثم انهزم منطاش وتوجه إلى " نعير " لائذًا به، فوافقه " نعير " وتوجه معه وصحبتهم عنقاء بن شطى أمير آل مرا إلى حلب، وبها نائبها الأمير كمشبغا الحموي، فحاصروها مدة، ثم رجعوا إلى بلادهم بغير طائل. واستمر منطاش عند نعير سنين، والملك الظاهر برقوق يتتبعه، ويرسل في كل قليل يطلبه، ونعير يسوف به من وقت إلى وقت إلى أن طال الأمر على نعير فقبض عليه وأرسله إلى الأمير جلبان قراسقل نائب حلب، فاعتقله المذكور بقلعة حلب، وأرسل إلى الملك الظاهر برقوق يعرفه بذلك، فأرسل الملك الظاهر إلى منطاش من يعاقبه ويقرره على أموال الديار المصرية وعلى ذخائره، فلا زال تحت العقوبة حتى هلك بقلعة حلب، فقطعت رأسه وأرسلت إلى الديار المصرية، فعلقت على باب قلعة الجبل، ثم على باب زويلة، وله من العمر نحو أربعين سنة تقريبًا، وكانت قتلته في سنة خمس وتسعين وسبعمائة. وفى هذا المعنى يقول الشيخ زين الدين طاهر:

الملك الظاهر في عزه	:::	أذل من ضل ومن طاشا
ورد في قبعته طائعًا	:::	نعيرا العاصى ومنطاشا

أبو المحاسن ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافى 1 /334.

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، 1 / 275.

عمل على تولية أتباعه ومناصريه المناصب العليا داخل الدولة، وولى الترك - بنى جنسه - النيابات في مصر وبلاد الشام، ثم إنه عمل على تتبع المماليك الجراكسة واستئصال سلطتهم ومناصبهم، فقام بقتل العديد منهم ونفى البعض الآخر، ووزع الباقى على الأمراء الترك في سوريا وحط من شأنهم (1).

وكانت هذه الخطوة تنم عن قصر النظر السياسي، والجهل بطبيعة الجغرافيا السياسية، فقد كان توزيع المماليك الجراكسة على النيابات في الشام، ثم جاء نفى الظاهر برقوق هو الآخر إلى بلاد الشام، فسهل على المماليك الاتصال بزعيمهم وبالتالى تنسيق الجهود فيما بينهم لترتيب أمر العودة إلى مصر وإلى السلطة من جديد.

ثم إن يلبغا الناصرى جد في طلب الظاهر برقوق حتى عثر عليه، وانقسم هو وأمراء المماليك فريقين يرى الأول ضرورة قتل الظاهر برقوق، والتخلص منه، وكان أثر المؤيدين لهذا الاتجاه هو منطاش، الذى كان يرغب بقوة في الخلاص من برقوق، في حين رأى الفريق الثانى الاكتفاء بسجنه في الكرك، وكان أكبر المؤيدين لهذا الرأى هو يلبغا الناصري، الذى فرض رأيه على الجميع، حيث سجن الظاهر برقوق في الكرك مكرمًا حيث أوصى يلبغا نائب الكرك العناية بالظاهر برقوق والمحافظة عليه، واتفق معه أيضًا على أنه إذا ثار منطاش عليه - يلبغا - يفرج عن السلطان برقوق (2).

وعلى ما يبدو أن يلبغا خشى من ثورة المماليك الجراكسة عليه، ثم إنه أراد أن يستبقى على الظاهر برقوق حتى يكون غصة في حلق منطاش إذا ما أراد التمرد على يلبغا الناصري، ولا ننسى شخصية برقوق القوية التى تفرض على أعدائه قبل أنصاره احترامه. ويتضح ذلك جليًا في موقف عامة الناس الذين ندموا وكثر تأسفهم على خلع برقوق من السلطنة فيقول أبو المحاسن بن تغري بردي: "... فكثر الدعاء من العامة للملك الظاهر برقوق، وكثر الأسف على

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، 1 / 275.
(2) المقريزي، السلوك، 3 / 537.

فقده وثقلت أصحاب الناصرى على الناس ونفروا منهم، فصارت العامة تقول: راح برقوق وغزلانه، وجاء الناصرى وتيرانه... " [1].

ولم يمض وقت طويل على استيلاء يلبغا الناصرى على مقاليد الأمور في البلاد، حتى بدأت بوادر الشقاق تقع بين يلبغا ومنطاش حلفاء الأمس، إذ طمع منطاش في السلطة التى حرم منها بعد أن ظل يلبغا يبعده عن أى نفوذ أو دور حقيقى في الحياة السياسية أو الاجتماعية حتى ضاق ذرعًا من تصرفات يلبغا وبدأ يتطلع إلى تغيير الوضع القائم، وضم إليه المماليك الجراكسة الذين كانوا يتوقون للانتقام من يلبغا، وبالرغم من محاولات الخليفة المتوكل على الله التوفيق بين كلا الجانبين إلا أن الفتق كان أكبر من الراتق فوقعت بين الفريقين معركة حامية الوطيس في جهة الرميلة، حيث انهزم يلبغا الناصرى وقبض عليه بالقرب من سرياقوس ثم أمر به فقيد وحبس في الإسكندرية مع عدد من أتباعه ومواليه، وآلت إلى منطاش الوصاية والسيطرة على السلطان المنصور أمير حاج بن شعبان [2].

غير أن منطاش لم يستطع أن يسيطر على الأمور داخل البلاد، إذ إنه فشل في التوفيق بين الفصائل المتناحرة والمتنازعة فيما بينها، فبعد أن تخلص من يلبغا الناصرى كان عليه أن يفى بوعوده وعهوده التى قطعها على نفسه للمماليك الجراكسة بإطلاق سراح أستاذهم برقوق وإعادة أملاكهم وإقطاعياتهم التى كان يلبغا قد سلبهم إياها، ولكنه حنث بوعوده وأخذ بدلاً من ذلك في تقريب مماليكه وخشداشيته وأولاد الناس وأخذ يبذل لهم العطايا والهبات ويوزع عليهم الإقطاعيات، ولم يستجب لمطالب الجراكسة، بل سعى للتخلص منهم فدبر لهم مكيدة فدعا أكابرهم إلى القلعة بزعم استرضائهم وإعطائهم الهبات والعطايا، ثم

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 11 / 320، المقريزي، السلوك، 3 / 537.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 11/ 340، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، 5 / 488.

لما تمكن منهم قبض على كثير منهم وزج بهم في السجون [1].

وسرعان ما انفلت زمام الأمور من يد منطاش فقد ثار عليه نواب المدن في بلاد الشام بزعامة نزار العمرى الناصرى نائب دمشق، الذى حرض بقية نواب المدن الشامية على الثورة والخروج على طاعة منطاش ثأرًا لما حدث لكبيرهم يلبغا الناصرى [2].

ثم حدث أن الظاهر برقوق بدأ يسيطر على مقاليد الأمور في الكرك بعد أن آل إليه حكمها وبدأ يلتف حوله الناس، فشكل جيشًا، وراسل أمراء المماليك في بلاد الشام للوقوف إلى جانبه، ولما سمع الجراكسة في مصر وبلاد الشام بأمر الظاهر برقوق وسيطرته على الكرك أسرعوا إليه والتفوا حوله، ونال برقوق أيضًا تأييد عرب بنى عقبة المقيمين حول الكرك، وبدأ يعد العدة للتحرك نحو دمشق وبلاد الشام. وقد سعى منطاش لعرقلة هذا التحرك من جانب الظاهر برقوق، وحاول اغتياله، وأرسل إليه سرًّا من يقتله ولكن المؤامرة انكشفت، مما ضاعف من مكانه الظاهر برقوق لدى عامة الناس وزاد تعلقهم به [3].

وازداد موقف منطاش حرجًا بعد أن قامت ثورة كبيرة في مدينة قوص، قام بها المماليك الجراكسة الذين كان منطاش قد نفاهم إليها، وازداد موقف منطاش سوءًا بانضمام حاكم الوجه القبلى الأمير مبارك شاه [4] إلى هذه الثورة، وانضم إلى هؤلاء الثائرين كثير من الأعراب الناقمين على حكم منطاش، ولما حاول

---

(1) المقريزي، السلوك، 3 / 550- 551، ابن إياس، بدائع الزهور، 1، 280.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 11 / 343، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، 5 / 488.

(3) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 11 / 348- 349.

(4) الأمير الوزير سيف الدين مبارك شاه بن عبد الله المظفرى الظاهري، في شهر رمضان. كان يخدم الملك الظاهر برقوق، أيام جنديته تبعًا، فلما تسلطن رقاه وأمره، ثم جعله من جملة الحجاب، ثم ولى الوزارة، ثم الأستادارية، وغيرها من الوظائف ككشف الجيزية رواية الوجه القبلى ثم نكبه، وأقام بعد عزله سنين إلى أن مات.
السخاوي، الضوء اللامع، 3 / 286.
أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 11 / 343.

منطاش القضاء على هذه الثورة كان مصير الحملة التى أرسلها إليهم الفشل، بعد أن بددتها حشود الثائرين [1].

ولما أصبح منطاش يقاتل في أكثر من جبهة، وكان عليه أن يسترضى جنوده وأتباعه ومواليه ليضمن ولاءهم، ولما كانت هذه الأمور تحتاج إلى أموال طائلة، وبعد نفاد خزائنه فإنه اتجه إلى الاستيلاء على أموال الوقف الخاصة بالأيتام، واستولى على كثير من أموال أهل الذمة بغير وجه حق، وضيق على المماليك البحرية وفرض عليهم ضرائب باهظة، وتحت ضغط الضائقة المالية التى يمر بها منع الكتاب والفقهاء ورجال الدين من ركوب الخيل وفرض عليهم ركوب البغال من أجل استخدام هذه الخيول في حروبه، ولم يكتف بذلك بل أرهق جميع طوائف الشعب بالضرائب التى فرضها عليهم من أجل تغطية نفقات الحروب التى يخوضها في كل اتجاه [2].

وفى الوقت الذى كان منطاش يعد العدة للمواجهة العسكرية مع خصومه، نجد أن الظاهر برقوق تقدم بحشوده إلى الشام في محاولة منه للسيطرة عليها، مما جعل منطاش يعجل في الخروج بجيشه من مصر إلى الشام، حيث التقى الفريقان عند " شقحب " ودارت بينهما حرب دامية دارت دائرتها في بداية

---

(1) العيني، عقد الجمان، 3 / 364 يقول أبو المحاسن: "... وكان عدة الأمراء الذين بقوص زيادة على ثلاثين أميرًا، وعدة كبيرة من المماليك السلطانية الظاهرية فلما بلغ خبرهم الأمير مبارك شاه نائب الوجه القبلى اجتمع معه أيضًا نحو ثلاثمائة مملوك من الظاهرية واتفقوا على المخامرة أيضًا واستمال مبارك شاه عرب هوارة وعرب ابن الأحدب، فرافقوه، واستولوا على البلاد فلما خرجت تجريدة منطاش الأولى لهم انتهت إلى أسيوط، فقبض عليهم مبارك شاه المذكور، وأفرج عمن كان معهم من المماليك الظاهرية فلما بلغ منطاش ذلك أخرج أسندمر بن يعقوب شاه كما تقدم ذكره، وسار إليهم من الشرق، وتوجه إلى جهة الصعيد بمن معه، فلقيه الخارجون عن الطاعة، فواقعهم أسندمر بمن معه، فكسروه، فرسم منطاش بخروج نجدة لهم من الأمراء والمماليك وأجناد الحلقة وبينما هو في تجهيز أمرهم جاء الخبر أن أسندمر واقع مبارك شاه ثانيًا وكسره، وقبض عليه، وأرسله إلى منطاش، فقدم مقيدًا، فرسم منطاش بحبسه في خزانة شمائل.
النجوم الزاهرة، 11 / 348- 349.

(2) العسقلاني، الدرر الكامنة، 4 / 366، المقريزي، السلوك، 3 / 573.

الأمر على برقوق، غير أنه سرعان ما جمع شتات جيشه وكر على منطاش وأتباعه، وحمل عليهم حملة صادقة ضعضعت صفوف جيش منطاش الذى اضطر للهرب، ثم إن المنصور أمير حاج اضطر إلى خلع نفسه من السلطنة وأشهد الخليفة والقضاة على ذلك، ثم نهض الخليفة والقضاة وبايعوا الظاهر برقوق بالسلطنة في مكان المعركة، وعادوا بأجمعهم وعلى رأسهم السلطان الظاهر برقوق إلى القاهرة [1].

وبعد عودة الظاهر برقوق إلى الحكم فإنه - بالرغم من تظاهره بالتسامح مع خصومه - عمل على تصفية حساباته مع الترك والعرب، وأخذ في إحلال بنى جلدته الجراكسة محلهم، ولكن بخطى ثابتة ومحسوبة، فقد عفا عن المماليك اليلبغاوية ولكنه حدد إقامتهم ومنعهم من التحرك خارج نطاق معين، وجعلهم تحت نظره بصفة مستمرة، ولما وجد أن الشام بها بعض القلاقل بسبب وجود منطاش هناك حرًّا طليقًا ويعمل على تحريض الأمراء اليلبغاوية عليه استدعى الأمير يلبغا الناصرى وصالحه ثم عينه أمير سلاح، في حين قام بتعين الطنبغا الجوبانى اليلبغاوى في منصب رأس نوبة الأمراء ثم عينه نائبًا لدمشق [2]، وكل هذه التدابير من أجل إيقاع الفرقة والشقاق في صفوف المماليك اليلبغاوية الأشرفية.

ولما أثار منطاش القلائل في بلاد الشام وأعلن التمرد، فعمل على الاحتفاظ بالمماليك الجراكسة إلى جواره في مصر في حين جهز أغلب الجيش المتجهة إلى الشام لمحاربة منطاش من المماليك اليلبغاوية الأشرفية، وعين على رأس ذلك الجيش أمراءهم مثل الطنبغا الجوبانى نائب دمشق والأمير قرادمرداش الأحمدى اليلبغاوى نائب طرابلس، وجعل القيادة العليا لهذا الجيش للأمير يلبغا الناصري، وعمل على استثارتهم ضد منطاش بقوله ليلبغا - للأخذ بثأره -: هو

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 11 / 369- 379، العسقلاني، الدرر الكامنة، 4 / 365، المقريزي، السلوك، 3 / 335- 338.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 6.

غريمك، اعرف كيف تقاتله [1].

وعلى ما يبدو أن الظاهر برقوق أراد أن يضرب أكثر من عصفور بحجر واحد، أولاً: الخلاص من تمرد منطاش، ثانيًا: التخلص من كبار أمراء الأشرفية اليلبغاوية، ثالثًا: بث الفرقة والشقاق في صفوف المماليك الأشرفية اليلبغاوية وجعلهم يتقاتلون فيما بينهم من أجل مصلحته ويتخلص منهم نهائيًّا، ويكون ذلك بأيديهم أنفسهم.

وحاصل الأمر أن القوات السلطانية التى أرسلها السلطان برقوق استطاعت أن تكسب الجولة الأولى من الحرب مع منطاش، إذ استطاعت القوات السلطانية من مطاردة فلول أتباع منطاش إلى خارج دمشق بعد أن أنفض من حوله الجنود [2].

ثم كسبت الجنود السلطانية جولة أخرى من الحرب مع منطاش عندما تغلب الأمير كمشبغا الحموى اليلبغاوى نائب حلب على الأمير تمان تمر الأشرفى الذى استعان بأهل بانقوسا، ولكن ذلك لم يكن يغنى عنه شيئًا، إذ تمكن كمشبغا الحموى اليلبغاوى من إيقاع الهزيمة به وبأتباعه وتعرض أهل بانقوسا للانتقام ومدينتهم للهدم والتخريب، لمساعدتهم تمان تمر الأشرفى [3].

ولما وجد منطاش أن جانبه أصبح ضعيفا، وانفض من حوله أكثر أتباعه فإنه حاول البحث عن حليف عساه يقوى به جانبه ويؤيده في العصيان والخروج على السلطان الظاهر برقوق، ووجد ضالته في الأمير العربى نعير بن حيار أمير آل فضل، واتفق معه على الخروج على طاعة الظاهر برقوق، واتصلا ببعض المماليك الترك بدمشق للاتفاق معهم على تسهيل دخول المدينة وإعلان الثورة والخروج على طاعة الظاهر برقوق ولكن يلبغا الناصرى والطنبغا الجوبانى تمكنا من وأد هذا التمرد الذى بدأ في دمشق، وقتلا عددًا كبيرًا من

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 6.
(2) العسقلاني، إنباء الغمر، 1 / 306.
(3) العيني، عقد الجمان، 24 / 398.

الترك والعامة الذين قاموا بهذا التمرد [1].

وبعد أن تخلص يلبغا الناصرى من هذه الفتنة خرج بقواته لمواجهة قوات منطاش، في الوقت الذى كانت الإمدادات تتوالى من القاهرة على دمشق حيث حرص السلطان الظاهر برقوق على إرسال عدد كبير من الأمراء والمماليك اليلبغاوية إلى دمشق، كما أنه عمل على استدعاء عددًا كبيرًا من الأجناد الترك البطالين للخدمة وأرسلهم إلى يلبغا الناصري، وتقدمت هذه الجموع لمقاتلة منطاش، وحدث في ذلك الوقت أن انفض عدد كبير من الأمراء والمماليك من حول منطاش، فاضطر - أمام ملاحقة القوات السلطانية له - أن يفر بنفسه إلى مرعش والاختباء فيها [2].

ويمكن القول أن السلطان الظاهر برقوق نجح حتى هذا الوقت في القضاء على أكثر المماليك الأشرفية والترك بواسطة المماليك الترك اليلبغاوية، كما أن اليلبغاوية مات عدد كبير منهم في هذه المعارك المتصلة، ومع أنه كان من الممكن أن ينتظر السلطان الظاهر برقوق حتى يقبض يلبغا على منطاش وينتهى أمر الأشرفية، ثم يتخلص من باقى اليلبغاوية، إلا أنه انقلب فجأة على المماليك الترك جميعًا، إذ قبض على المماليك الأشرفية الذين لجئوا إليه وعفا عنهم منذ وقت قصير، في الوقت نفسه الذى قبض فيه على مماليك الطنبغا الجوبانى الذين عادوا إليه بعد أن قتل أستاذهم في المعركة التى دارت خارج دمشق في شعبان 792 هـ، أثناء قتال منطاش [3].

وجعل هذا الانقلاب المفاجئ الأمير يلبغا الناصرى يفهم نيات السلطان إذ كيف يقبض السلطان على أعدائه وأتباعه على السواء؟ وأدرك يلبغا أن السلطان برقوق لم يغير من سياسته العدائية للعنصر التركي، وأنه لاشك عازم على

---

(1) الخطيب، نزهة النفوس والأبدان، ص 35.

(2) القريزي، السلوك، 3 / 649- 654، العيني، عقد الجمان، 24 / 406، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، 9 / 249.

(3) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص 97.

التخلص من باقى اليلبغاوية بعد قضائه على الأشرفية. ولذا انقلب يلبغا الناصرى بدوره مرة أخرى على السلطان الظاهر برقوق، ولكنه لم يجرؤ على إعلان ثورته ولم يبدها لأحد بسبب قلة اليلبغاوية في سورية، ولذا بدأ يتقرب إلى منطاش بأن يتعمد عدم مقابلته في معركة حاسمة، وإذا سار منطاش لقتاله من طريق سار يلبغا من طريق آخر.

ثم حدث أن يلبغا الناصرى اتفق فعلاً مع منطاش، وكاتبه أن يتقدم إلى دمشق، وأنه لن يقف في طريقه على أن يظل الأمر بينهما سرًّا، فعاد منطاش من مرعش في أول رجب سنة 793 هـ / 1391م وهاجم حماة واضطر نائبها إلى الفرار إلى طرابلس، ثم تقدم منطاش إلى حمص وبعلبك واستولى عليهما، وفر نائب بعلبك إلى دمشق، وبدلا من أن يخرج يلبغا لقتاله من الطريق الذى سلكه منطاش خرج من طريق آخر حتى يتحاشى مواجهته ويسهل له دخول دمشق، حيث أصبحت دمشق له كلقمة سائغة فاستطاع دخولها ونهبها ودخل منطاش القصر الأبلق بدمشق ونزل أمراؤه في البيوت المجاورة للقصر الأبلق، واحتل باقى أتباعه جوامع المدينة.

وهكذا مكن يلبغا الناصرى منطاش من الاستيلاء على دمشق كلها ونهبها حتى يمكنه من الصمود طويلاً أمام السلطان برقوق، وغير يدارى يلبغا الناصرى موقفه أسرع بالعودة إلى دمشق، ورغم أنه حاصر القصر الأبلق وأحرق عدة أماكن بالمدينة فإنه مكن منطاش من الفرار، وأكثر من هذا فإنه برغم من أن بعض الفلاحين قام باعتقال منطاش وأرسلوا إلى يلبغا للحضور لاستلامه، ورغم أن القاهرة قد سمعت بهذا النبأ وزينت له فإن يلبغا الناصرى لم يبادر إلى اعتقاله بل سهل أمر فراره، وسرعان ما كذب هذه الأنباء وأعلن بأن منطاش هرب ولم يتمكن واحد من القبض عليه [1].

ولم يعد خافيًا على أحد في القاهرة أن يلبغا الناصرى أصبح يخون الظاهر

(1) المقريزي، السلوك، 3 / 666- 667، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، 9 / 262- 264، حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص 97.

برقوق، ولذلك قرر الظاهر برقوق الخروج بنفسه لمواجهة منطاش، وقبل أن يتحرك من القاهرة اتخذ عددًا من التدابير المهمة التى تضمن له الاطمئنان على استقرار الأحوال في مصر في غيبته، وكان أول شيء فعله هو أنه عزل أكثر المماليك اليلبغاوية الذين كان اعتمد عليهم في الوظائف المهمة في دولته، وولى بدلاً منهم مقدمى الجراكسة، ثم عاد وقبض على عدد آخر من المماليك الترك البطالين في القاهرة وأمر بضرب أعناقهم بالصحراء، ثم كانت الخطوة التالية أنه أعلن الخروج لمعاونة يلبغا الناصرى في حربه ضد منطاش [1].

ولما وصل السلطان الظاهر برقوق إلى دمشق في 22 من رمضان سنة 793 هـ / سبتمبر 1391م أعلن العفو عن جميع معارضيه مما قربه إلى عامة الناس، وجعلهم يلتفون حوله، كما سارع إليه العديد من خصومه السابقين، في حين كان يريد أن يقف على نيات يلبغا الحقيقية وصلاته بمنطاش [2].

وقد حاول السلطان الظاهر برقوق أكثر من مرة الوصول إلى منطاش، وأعياه الطلب في ذلك، وبعد مرور وقت طويل تحقق لدى السلطان أن منطاش لم يأت إلى دمشق إلا بمكاتبة يلبغا، وأن يلبغا تخاذل في القبض عليه حين احتل منطاش القصر الأبلق بدمشق، كما عرف السلطان الظاهر برقوق أنهما اجتمعا في هذه المرة ثلاث مرات بدمشق لتدبير الخطط وأن رسل الناصرى كانت ترد على منطاش كل ليلة بما يأمره به، كما عثر على خطاب من يلبغا إلى منطاش يأمره فيها بالهرب من وجه السلطان برقوق، ولما اجتمعت هذه القرائن والحقائق أمام السلطان قام بالقبض على يلبغا الناصرى وعدد من أتباعه ومواليه وسجنهم في قلعة حلب ثم أمر بهم فقتلوا في ذى القعدة سنة 793 هـ، نوفمبر 1391م [3].

---

(1) المقريزي، السلوك، 3 / 657- 659، أبو المحاسن ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 25- 27، حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص 97.

(2) المقريزي، السلوك، 3 / 672.

(3) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 32- 33، ابن إياس، بدائع الزهور، 1 /

وبعد مقتل يلبغا الناصرى لم يعد لمنطاش قوة حقيقية تسانده لا سيما بعد أن المماليك الترك والأشرفية لم يعد قوة ولا نفوذ يذكر، وعليه فقد قرر السلطان الظاهر برقوق العودة إلى القاهرة في السابع عشر من المحرم سنة 794 هـ / يناير 1392م، ولكن سرعان ما عاود منطاش نشاطه المناوئ للسلطان الظاهر برقوق في بلاد الشام، وهذه المرة بمعاونة بعض القبائل العربية، وهاجم مدينة حلب ولكن أهلها ردوهم على أعقابهم ولقنوهم درسًا قاسيًا، فاضطر منطاش للهرب إلى العراق، إلى أن استطاع الأمير جلبان الكمشبغاوى الجركسي[1] - عن طريق الحيلة - من القبض عليه وقطع رأسه وطيف به في مدينة حلب وإرساله إلى السلطان الظاهر برقوق حيث طيف به القاهرة ثم علقت رأسه على باب القلعة[2].

ثم كان على السلطان الظاهر برقوق أن يواجه ثورات العربان التى قامت ضده في مصر، وكانت أقواها ثورة الشريف جمال الدين محمود العنابى [3] التى قام

295- 0 296، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، 9 / 271، حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص 97.

(1) الأمير سيف الدين جلبان الكمشبغاوى الظاهري، المعروف بقرا سقل نائب حلب، ثم أتابك دمشق. كان من أكابر مماليك الملك الظاهر برقوق، وأول من نال منهم الرتب السنية صار أمير مائة ومقدم ألف في أوائل سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية، ثم رأس نوبة النوب، ثم ولى نيابة حلب بعد الأتابك قرا دمرداش الأحمدي؛ وهو الذى قام في أمر منطاش حتى أخذه وتسلمه من نعير، ثم أمسكه الظاهر وحبسه، وولى الوالد عوضه نيابة حلب، فحبس مدة ثم أطلق. واستقر أتابك دمشق، فدام على ذلك مدة، ثم قبض عليه برقوق ثانيًا، وحبسه بقلعة دمشق إلى أن أطلقه الأمير تنم بعد موت الظاهر برقوق، فدام من حزبه إلى أن أمسك وقتل مع من قتل. وكان جليل المقدار، عاقلاً شجاعًا، معدودًا من رؤساء المماليك الظاهرية.

أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 32- 33.

(2) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص 103.

(3) وكان قد حضر مع السلطان برقوق من الشام بعد فراره من سجن الكرك، وتنبأ للسلطان بأشياء صادف وقوعها فقربه السلطان لذلك وأجرى عليه الرواتب السنوية وأحضره مجلسة بعد أن أتى معه إلى القاهرة. يقول المقريزي: " الشريف محمود العُنابي، ... كان من العنابة خارج دمشق، فتوصل إلى السلطان وهو بها، وجاراه في أمور من المغيبات صادف وقوعها. وكان السلطان له تطلع إلى ذلك، فأكرمه، وقدم به معه إلى القاهرة، وأجرى عليه ألف درهم فضة في كل شهر،

سنة 796هـ / 1394م والتى حاول فيها الوثوب إلى السلطة مستغلاً قيام السلطان الظاهر برقوق بالاستعداد لمواجهة جحافل التتار التى كادت تقترب من دمشق، ولكن علم الظاهر برقوق بأطراف المؤامرة، فقام بالقبض على الشريف جمال الدين العنابى وشركائه، وظل يعذبهم حتى ماتوا تحت التعذيب (1).

وكانت ثانى الثورات التى قام بها العربان، تلك التى قام بها عرب هوارة في البحيرة والصعيد، في شهر ربيع الآخر 789هـ / مارس 1396م، وكان الذى حدث أن عرب هوارة رفضوا دفع المقرر السنوى الذى يدفعونه كل عام من الخيول، فقام السلطان الظاهر برقوق بالقبض على عدد كبير من شيوخ وكبار قبيلة هوارة، وألقى بهم في السجون مما أثار بقية أفراد القبيلة فقتلوا قطلوبغا الطشتمرى نائب الوجه القبلي، ثم اتجهوا إلى أسوان فلم يستطع واليها من

وصار إذا حضر مع القضاة يجلسه فوقهم بجانبه.

فلما كان يوم الثلاثاء خامس عشر: بعث الأمير شرف الدين موسى بن الأمير شمس الدين محمد بن عيسى العائدى من خزانة شمايل ورقة إلى الأمير علاء الدين على بن الطبلاوى والى القاهرة، وكان السلطان قد سخط على بنى عيسى وسجنهم بخزانة شمايل، فإذا في الورقة أن الشريف العنابى بعث إليه أن يأمر عربانه بالنزول قريبًا من القاهرة ليملكها بهم في غيبة السلطان فلم يقنع ابن الطبلاوى بهذا من ابن عيسى، وقال لقاصده: لما إذا قيل هذا للشريف ينكره، لكن حصل إلى خطة بذلك فسير إليه في يوم الخميس سابع عشر ورقة زعم أنها من الشريف إليه، وفيها: " إنك ترسل إلى عربان البحيرة، وعربان الصعيد بالركوب على الولاة والكشاف وقتلهم، ونهب البلاد ليشتغلوا عنا بأنفسهم، وابعث إلى عربك أن يكونوا بقرب القاهرة، فإذا عدَّى الغريم قطيا أركب أنا وأنت، ومعى خمسمائة مملوك، وتحضر عربانك وتأخذ القاهرة، والنصر لنا إن شاء الله تعالى. وتولى الأمير شهاب الدين بن قايماز الأتابكية، وأتولى أنا الخلافة، ونفعل ما ينبغى فعله ". فقام ابن الطبلاوى من وقته إلى الريدانية، وأوصل الورقة للسلطان، فكتم ذلك، وبعث يلبغا السالمى ليحضر العنابي، فلم يجده، وقيل: هرب، فألزم السلطان ابن الطبلاوى بتحصيله، فعاد إلى القاهرة، وبحث عنه حتى علم أنه عند شهاب الدين أحمد بن قايماز، فأكمن عدة من ثقاته حتى قبضوا على عبد العنابي، وضرب بالمقارع، حتى دله على أستاذه، فقبض عليه، وعلى ابن قايماز، وحملهما إلى الريحانية، فأمر بعقوبتهما حتى يعترفا على من معهما على ما قصداه، فعاد بهما، وسوط العنابى فاعترف أن الورقة بخطه، ثم عصره ليقر على أحد، فلم يعترف بشيء إلا أن معه طائفة من مماليك بركة، فأخذ خطه بذلك، وأن ابن قايماز معه، فأنكر ابن قايماز، وحاققه العنابي، فتمادى في الإنكار.

(1) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، 9 / 376، العسقلاني، إنباء الغمر، 1 / 366.

الصمود في وجه هذه الجموع ففر إلى بلاد النوبة يقول العسقلاني: " وفى شهر ربيع الآخر توجه نوروز الحافظى رأس نوبة إلى الصعيد، فأحضر على بن غريب أمير هوارة وأولاده وأهله وإخوته وأقاربه وتمام أربعة وثلاثين نفرًا من أكابر عربانه، فأمر السلطان بسجنهم فلما تسامع بذلك عربانه وثبوا على قطلوبغا الطشتمرى النائب بالوجه القبلي، فقتلوه وتجمعوا وتوجهوا إلى أسوان وتوافقوا مع أولاد الكنوز ودخلوا أسوان على حين غفلة، فهرب واليها حسين إلى النوبة فنهبوا بيته ونهبوا البلد، فلما بلغ السلطان ذلك ولى عمر بن إلياس النيابة بالوجه القبلى وأمره بالتوجه إلى أسوان وطلب العرب المذكورين وأرسل إلى عمر بن عبد العزيز الهوارى أن يساعده، فتوجها فلم يظفرا من العرب المذكورين بشيء... " [1].

وظلت هذه القبيلة على تمردها وعصيانها حتى استطاع الظاهر برقوق قمع هذه الثورة سنة 801هـ / 1399م [2].

ولم يمض وقت طويل على القضاء على ثورة عربان البحيرة والوجه القبلى حتى مرض السلطان برقوق مرض الموت في شوال 801هـ / يونيو 1399م، ولما شعر بدنو أجله عهد بالحكم من بعده لابنه فرج، وأشهد على ذلك الخليفة المتوكل وقاضى القضاة وسائر الأمراء وكبار أمراء المماليك، ولم يتركهم حتى حلفوا له على ولاية العهد من بعده لأبنائه، ثم توفى السلطان برقوق في ليلة الجمعة 15 من شوال سنة 801 هـ / 20 من يونيه سنة 1399م بعد أن تجاوز سنة الستين عامًا [3].

الناصر فرج بن برقوق 801 - 808 هـ:

حاول الظاهر برقوق أن يجعل مبدأ وراثة العرش في أسرته من بعده، كما كان الحال في دولة بنى قلاوون من قبل، وبالرغم من أن المماليك الجراكسة لم تكن

(1) العسقلاني، إنباء الغمر، 1 / 366.

(2) المقريزي، السلوك، 3 / 680، .

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 104.

تأبه لهذا الأمر إلا أنهم لم يعترضوا على تولية ابنه زين الدين أبي السعادات فرج بن برقوق [1] بل رحبوا بذلك ولقبوه بالناصر، ولما كان السلطان الجديد صغيرًا في السن فقد جعلوا أيتمش البجاسي [2] أتابكًا له، ولكن لصغر سن

---

(1) السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج ابن السلطان الملك الظاهر أبى سعيد برقوق ابن الأمير آنص، الجاركسى الأصل، المصرى المولد والمنشأ، سلطان الديار المصرية، والبلاد الشامية، والأقطار الحجازية؛ وهو السلطان السادس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، والثانى من الجراكسة، وأمه أم ولد رومية تسمى شيرين، ماتت في سلطنته. مولده في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، قبل خلع أبيه الملك الظاهر برقوق من السلطنة، وحبسه بالكرك، فأراد أن يسميه " بلغاك " يعنى " تخبيط " باللغة التركية، فسمى " فرجًا " جلس على تخت الملك بقلعة الجبل صبيحة موت أبيه يوم الجمعة النصف من شوال سنة إحدى وثمانمائة بعهد من أبيه إليه.

وفى سلطنته يقول الأديب المقرئ شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن حسن الأوحدي:

مضى الظاهر السلطان أكرم مالك	:::	**إلى ربه يرقى إلى الخلد في الدرج**
وقالوا ستأتى شدة بعد موته	:::	**فأكرمهم ربى وما جاء سوى فرج**

ولما كان صبيحة يوم الجمعة اجتمع بالقلعة الأمير الكبير أيتمش، والأمير تغري بردي أمير سلاح، وسائر أمراء الدولة، واستدعى الخليفة وقضاة القضاة، وشيخ الإسلام البلقينى فلما تكاملوا بالإسطبل السلطاني، أحضر فرج بن السلطان الملك الظاهر برقوق، وخطب الخليفة، وبايعه بالسلطنة، وقلده أمور المسلمين وأحضرت خلعة سوداء فأفيضت على فرج المذكور، ونعت بالملك الناصر وركب بشعار السلطنة، وطلع حتى جلس على تخت الملك بالقصر السلطاني، وقبل الأمراء كلهم الأرض بين يديه على العادة، ولبس الخليفة تشريفًا جليلاً ثم أخذ الأمراء في تجهيز السلطان الملك الظاهر برقوق. وعمره نحو العشر سنين، فدبر أمر الدولة الأمير الكبير ايتمش، ثم ثار به الأمير يشبك وغيره، ففر إلى الشام وقتل بها، ولم تزل أيام الناصر كلها كثيرة الفتن والشرور والغلاء والوباء، وطرق بلاد الشام فيها الأمير " تيمور لنك " فخربها كلها وحرقها، وعمها بالقتل والنهب والأسر حتى فقد منها جميع أنواع الحيوانات، وتمزق أهلها في جميع أقطار الأرض، ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء، فاشتد بها الغلاء على من تراجع إليها من أهلها، وشنع موتهم، واستمرت بها من ذلك الفتن، وقصر مدّ النيل بمصر حتى شرقت الأراضى إلا قليلاً، وعظم الغلاء والفناء، فباع أهل الصعيد أولادهم من الجوع، وصاروا أرقاء مملوكين، وشمل الخراب الشنيع عامة أرض مصر وبلاد الشام من حيث يصب النيل من الجنادل إلى حيث مجرى الفرات وابتلى مع ذلك بكثرة فتن الأميرين نوروز الحافظى وشيخ المحمودي، المواعظ والاعتبار، 4 / 448. المقريزي، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 104.

(2) أيتمش بن عبد الله الأسندمرى البجاسى الجرجاوي، الأمير سيف الدين أتابك العساكر بالديار المصرية، وعظيم الدولة الظاهرية.

أصله من مماليك أسندمر البجاسى الجرجاوي، وترقى بعد موت أستاذه أسندمر المذكور، إلى أن صار من جملة الأمراء بديار مصر بسفارة الأتابكى برقوق العثمانى اليلبغاوي.

ولما تسلطن الملك الظاهر برقوق قربه وأدناه، وجعله أمير مائة ومقدم ألف، ورأس نوبة النوب، ثم بلغ الملك الظاهر برقوق أن أيتمش هذا إلى الآن في رق ورثة الأمير جرجى نائب حلب، فطلب السلطان ورثة جرجى المذكور في يوم السبت ثامن شهر ذى القعدة سنة خمس وثمانين وسبعمائة، وجمع القضاة والأعيان واشترى الأمير أيتمش المذكور من ورثة جرجي؛ بحكم أن جرجى مات ولم يعتق أسندمر أستاذ أيتمش، بل كان في رقه؛ فأخذه الأمير بجاس من ورثة جرجي، بغير طريق شرعى وأعتقه، وصار أسندمر بعد موت أستاذه بجاس أميرًا، وفى زعمه أن أستاذه بجاس اشتراه من ورثة جرجى وأعتقه؛ فاشترى أسندمر المذكور أيتمش- صاحب الترجمة- وأعتقه، فحكمت القضاة بأن أسندمر البجاسى كان في رق جرجى إلى أن مات، وعتق بجاس له في غير محل، وأن أيتمش أيضًا في رق ورثة جرجى المذكور.

وأثبت ذلك القضاة، واشتراه السلطان من ورثة جرجى بمائة ألف درهم، وأعتقه في الحال، وأنعم عليه بأربعمائة ألف درهم، وبناحية سفط رشيد، زيادة على ما بيده، ثم خلع على القضاة والموقعين الذين سجلوا البيع والعتق، وانصرفوا، فلم يكن بعد أيام إلا وخلع الملك الظاهر عليّ أيتمش المذكور واستقر به أتابك العساكر بالديار المصرية.

وزادت حرمته في الدولة الظاهرية، واستمر على ذلك، إلى أن عصى الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب على الملك الظاهر برقوق في سنة إحدى وتسعين، ووافقه منطاش نائب ملطية، وشاع الخبر بذلك وفشا، جهز لهما الملك الظاهر برقوق عسكرًا- خمس مائة مملوك من المماليك السلطانية الظاهرية وغيرهم- ومقدمهم الأمير أيتمش صاحب الترجمة، وصحبه عدة من أمراء الألوف بديار مصر، وهم: الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، والأمير جاركس الخليلى أمير آخور، والأمير أيدكار حاجب الحجاب، والأمير يونس النوروزى الدوادار، وتوجه الجميع لقتال الناصرى ومنطاش. وهذه الوقعة تعرف بوقعة الخمسمائة. فلما بلغ الناصرى ذلك خرج من دمشق بمن معه نحو الديار المصرية، والتقوا مع العسكر السلطانى خارج دمشق، وكانت بين الفريقين وقعة عظيمة انتصر فيها الناصرى على الأمير أيتمش هذا، وقبض عليه، وقتل الأمير جاركسى الخليلى في المعركة، وفر أحمد بن يلبغا وأيدكار الحاجب إلى الناصرى وصارا من حزبه، ثم قتل يونس في عوده إلى القاهرة في خربة اللصوص، قتله عنقاء بن شطي، لما في نفسه منه، وحبس أيتمش ببرج قلعة دمشق مدة، إلى أن خلع الملك الظاهر من السلطنة، وحبس بالكرك، ثم خرج وملك الديار المصرية ثانيًا. كل ذلك وأيتمش في حبس قلعة دمشق؛ لأن دمشق دامت مع أعوان منطاش مدة أيام، بعد سلطنة برقوق الثانية، إلى أن أفرج عنه وعاد إلى الديار المصرية في سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، وخلع الملك الظاهر عليه باستقراره رأس نوبة الأمراء- وهذه الوظيفة مفقودة في عصرنا هذا- وعاد إلى حرمته وخصوصيته عند الملك الظاهر برقوق، ثم زادت عظمته في أواخر دولته، وأعيد بعد الأتابك كمشبغا الحموى إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية على عادته أولاً في سنة ثمانمائة؛ بحكم القبض على الأتابك كمشبغا الحموى وحبسه بالإسكندرية.

ولم يزل أيتمش على ذلك، إلى أن توفي الملك الظاهر برقوق بعد أن أوصاه: بأن يكون هو مدبر مملكة ولده الملك الناصر فرج. فلما وقع ذلك بعد موت برقوق، وسكن الأتابك أيتمش بالحدرة من باب السلسلة بالإسطبل السلطاني، وصار هو المتحدث في المملكة، والمشار إليه في الدولة، عظم

ذلك على الأمراء الأصاغر من مماليك برقوق وافترقت الأمراء، فصارت فرقة مع الأتابك أيتمش هذا، وهم أعيان أمراء الظاهر برقوق وخواص مماليكه، وفرقة بالقلعة عند السلطان، وهم أصاغر أمراء برقوق من مماليكه.

فالذين كانوا مع الأتابك أيتمش: والدى أمير سلاح، والأمير أرغون شاه أمير مجلس، والأمير أحمد بن يلبغا الخاصكى أحد أكابر مقدمى الألوف بالقاهرة، والأمير فارس حاجب الحجاب، والأمير يعقوب شاه أحد مقدمى الألوف، وعدة أخر من مقدمى الألوف والطبلخاناة والعشرات، والذين كانوا بقلعة الجبل عند السلطان كالأمير " بيبرس " الدوادار- وليس له من الأمر شيء- والأمير يشبك الشعبانى الخازندار- وهو يومئذٍ صاحب الحل والعقد- والأمير سودون قريب الملك الظاهر برقوق، وغيرهم من العشرات والطبلخاناة. وكثر الكلام بين الطائفتين إلى أن علم الأمراء الذين بقلعة الجبل الملك الناصر فرج أن يقول لأيتمش: أنا قد بلغت، وأريد أترشد.

فلما سمع أيتمش هذا الكلام من السلطان، أجاب بالسمع والطاعة؛ فألزمه الأمراء في الحال بأن ينزل من باب السلسة ويسكن في داره على عادته في أيام الملك الظاهر برقوق، ونزل من باب الدرج إلى داره بباب الوزير بعد أن نهاه والدى عن النزول من باب السلسلة في ذلك اليوم، وقال له: تربص إلى غد حتى ننظر في أمر نفعله مع هؤلاء الأجلاب. فلم يسمع أيتمش من والدى الكلام، ونزل إلى داره، ونقل قماشه من باب السلسلة، ثم بدا له أن يركب بمن معه من الأمراء على الأمراء الذين بقلعة الجبل عند السلطان، فركب من ليلته- وهى ليلة الاثنين عاشر صفر سنة اثنتين وثمانمائة- واشتد القتال بين الفريقين من عشاء ليلة الاثنين إلى الضحى من يوم الاثنين المذكور، وانهزم أيتمش بمن معه إلى قبة النصر، خارج القاهرة.

ولما أن ركب أيتمش، صف عسكره ثلاثة أطلاب: طلب معه- تجاه الطبلخاناه السلطانية من جهة داره بالقرب من باب الوزير- وطلب مع والدي- ووقف برأس سويقة منعم تجاه القلعة- وطلب مع فارس الحاجب- تحت مدرسة السلطان حسن تجاه باب السلسلة- ثم انهزم أيتمش بعد قتال شديد، ثم انهزم والدى بعده بوقت، ودام فارس الحاجب في موقفه- بعد أن أباد القلعيين شرًا إلى قريب العصر- وانهزم أيضًا، واجتمعوا كلهم بقبة النصر، وأقاموا يومهم بتمامه. واتفق رأيهم على التوجه إلى دمشق والانضمام على نائبها الأمير تنم الحسني، وساروا وهم زيادة على ألف فارس، ولحقوا بالأمير تنم؛ فخرج تنم المذكور إلى ظاهر دمشق وتلقاهم بالرحب والإكرام، وقام بنصرتهم، وأخذ في تجهيز عساكره، واستمال جماعة من النواب بالبلاد الشامية، فأذعنوا له إلا الأمير دمرداش المحمدى نائب حماة، فكتب إليه والدى بالحضور؛ فأذعن وحضر، وبقى الجميع عسكرًا واحدًا، وخرجوا من دمشق إلى جهة الديار المصرية.

وخرج السلطان الملك الناصر فرج بمن معه من الأمراء، والتقى الفريقان بظاهر غزة، فكانت الكسرة على الأمير تنم وحواشية وقبض عليهم الجميع، وعلى الأمير أيتمش- صاحب الترجمة- وحبس بقلعة دمشق، ثم قتل بعد أيام مع من قتل من الأمراء بقلعة دمشق ذبحًا في ليلة رابع عشر شعبان سنة اثنتين وثمانمائة، وسنه نيف على الستين. وكان أميرًا كبيرًا، مهابًا، حشمًا ووقورًا، ذا خبرة، وسياسة، وعقل، وتدبير، ومعرفة، وعظمة. بلغ في دولة الظاهر برقوق من وفور الحرمة ونفوذ الكلمة ما لم ينله غيره من أبناء جنسه. وطالت أيامه في السعادة وكثرت مماليكه، حتى بلغت

السلطان الجديد فقد قامت حرب مصالح بين الأمراء المماليك، حول من تكون له السيطرة على السلطان الجديد، فبدأ الأمير يشبك الخازندار ينازعه السيطرة على المناصب والإقطاعيات، فقامت بينهم المنازعات الشديدة، نجح على إثرها يشبك الخازندار من طرد أيتمش من البلاط السلطاني - بعد الوشاية لدى السلطان - ولكن تبع ذلك الصراع المرير بين أتباع أيتمش الذين رفضوا الخضوع لحزب يشبك الخازندار فقام بينهما حرب شديدة في سنة 802هـ / 1400م انتهت لمصلحة حزب يشبك الخازندار[1].

وفي تلك الأثناء بدأ خطر التتار في الشرق الأوسط يتزايد، حيث ظهر " تيمور لنك " واستولى في سرعة مذهلة على بلاد ما وراء النهر، وجعل سمرقند عاصمة لبلاده، وما لبث أن احتل خراسان وهرات وطبرستان وجرجان ثم زحف على مدينة تبريز واستولى عليها سنة 788هـ / 1386م وطرد حاكمها قرا محمد التركماني، ثم بدأ " تيمور لنك " يتطلع إلى الأملاك التابعة والخاضعة لسلطان دولة المماليك في بلاد الشام وبلاد الجزيرة، فاستطاع أن يستولى على ماردين وتبع ذلك الاستيلاء على فارس في مايو 1393م ثم إنه قدم بجحافله إلى بغداد سنة 795هـ / يوليو 1393م وضرب عليها الحصار لمدة شهرين كاملين، إلى أن نجح في دخول المدينة فقتل أكثر سكانها وخرب أسوارها وجوامعها وأسواقها [2].

عدة من في خدمته من المماليك قريبًا من الألف، وكان رأس نوبته أمير عشرة، وسلك في أتابكيته طريق السلف من أكابر الأمراء في نوع الأسمطة الهائلة، والحشم، والخدم، والإنعام على الناس، والعيشة الطيبة، هذا مع قلة الظلم والطمع ومع الميل إلى فضل الخير، والكرم.

وكان ذا شيبة نيرة، كث اللحية، مدور الوجه، أقنى الأنف، أحمر اللون، جميلاً، للقصر أقرب. وكان في الغالب لا يلبس على رأسه إلا قبعًا سلطانيًا أبيض صيفًا وشتاءً، ولا يلف على رأسه تخفيفة إلا نادرًا جدًّا. وكان حسن الخلق، حلو المحاضرة سليم الباطن، قليل الشر، وهو آخر عظماء الأمراء بالديار المصرية إلى يومنا هذا.

ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 230- 231.

(1) المقريزي، السلوك، 3 / 13.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 223، المقريزي،

ثم بدأ " تيمور لنك " يتطلع إلى مصر وبقية بلاد الشام، فأرسل في سنة 796 هـ/مارس 1396م إلى السلطان المملوكى يرعد فيها ويبرق ويقول لـه:{ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾} [الزمر: ٤٦]. اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه، مسلطون على من حل عليه غضبه، لا نرق لشاكي، ولا نرحم باكيًا، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا، ومن جهتنا. فقد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد، وذلت لنا أعزتها، وملكنا بالشوكة أزمتها، فإن خيل ذلك على السامع وأشكل وقال إن فيه عليه مشكل، فقل لـه:{إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةً} [النمل: ٣٤]، وذلك لكثرة عددنا وشدة بأسنا، فخيولنا سوابق، ورماحنا خوارق، وأسنتنا بوارق، وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال، وجيوشنا كعدد الرمال، ونحن أبطال، وأقيال، وملكنا لا يرام، وجارنا لا يضام، وعزنا أبدًا بالسؤدد مقام، فمن سالمنا سلم، ومن رام حربنا ندم، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل، وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أنتم خالفتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم، فالحصون منا، مع تشييدها لا تمنع، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا، ولا يسمع، وكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام، وضيعتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرشوة من الحكام، وأعددتم لكم النار، وبئس المصير،{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾} [النساء: ١٠]. فلما فعلتم ذلك وأردتم أنفسكم موارد المهالك. وقد قتلتم العلماء، وعصيتم رب الأرض والسماء، وأرقتم دم الأشراف، وهذا والله هو البغى والإسراف، فأنتم بذلك في النار خالدون، وفى غد ينادى عليكم{فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ} [الأحقاف: ٢٠] فأبشروا بالمذلة والهوان، يا أهل البغى والعدوان، وقد غلب عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة. وقد

السلوك، 3 /416.

سلطنا عليكم إله له أمور مقدرة، وأحكام مدبرة، فعزيزكم عندنا ذليل، وكثيركم لدينا قليل، لأننا ملكنا الأرض شرقًا وغربًا، وأخذنا منها كل سفينة غصبًا.

وقد أوضحنا لكم الخطاب، فأسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطاء، وتضرم الحرب نارها، وتضع أوزارها، وتصير كل عين عليكم باكية، وينادى منادى الفراق:{فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨} [الحاقة: ٨]، ويسمعكم صارخ الغناء، بعد أن يهزكم هزًا،{هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} [مريم: ٩٨]، وقد أنصفناكم إذ راسلناكم، فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين، وتعصوا رب العالمين، فما على الرسول إلا البلاغ المبين. وقد أوضحنا لكم الكلام، فأسرعوا برد جوابنا، والسلام... [(1)].

غير أن السلطان المملوكى قد ثبت أمام هذه التهديدات ورد على رسالة " تيمور لنك " يقول له فيها:{ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ} [آل عمران: ٢٦]، حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية، ونزعاتكم الشيطانية، فكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنابية، وسيرة الكفرة الملاكية، وأنكم مخلوقون من سخط الله، ومسلطون على من حل عليه غضب الله، وأنكم لا ترقون لشاك، ولا ترحمون عسيرة باك، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فذاك أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين، لا من صفات السلاطين، ويكفيكم هذه الشهادة الكافية وبما وصفتم به أنفسكم ناهية{قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦} [الكافرون: ١ - ٦]، ففى كل كتاب لعَنتم، وعلى كل لسان كل مرسل نعيتم، وبكل قبيح وصفتم، وعندنا خبركم من حين خرجتم، إنكم كفرة،{أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ} [هود: ١٨]، من تمسك بالأصول فلا يبالى بالفروع، نحن المؤمنون حقًا، لا يدخل علينا عيب ولا يضرنا ريب، القرآن علينا نزل، وهو سبحانه بنا رحيم لم يزل، فتحققنا نزوله، وعلمنا ببركة

(1) المقريزي، السلوك، 3 / 237- 238.

تأويله. فالنار لكم خلقت، ولجلودكم أضرمت، إذا السماء انفطرت. ومن أعجب العجب تهديد الرتوت بالتوت، والسباع بالضباع، والكماة بالكراع. نحن خيولنا برقية، وسهامنا عربية، وسيوفنا يمانية، وليوثنا مضرية، وأكفنا شديدة المضارب، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب، إن قتلناكم فنعم البضاعة، وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة ".{ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ } [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١]. وأما قولكم قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالقصَّاب لا يبالي بكثرة الغنم، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم،{ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ } [البقرة: ٢٤٩]. الفرار الفرار من الرزايا وحلول البلايا. واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية، وإن عشنا عشنا سعداء، وإن قتلنا قتلنا شهداء، ألا إن حزب الله هم الغالبون. أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين تطلبون منا طاعة. لا سمع لكم ولا طاعة، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء، ففى نظمه تركيك، وفى سلكه تلبيك، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أكفر بعد إيمان. أم اتخذتم إلهًا ثان. وطلبتم من معلوم رأيكم أن نتبع ربكم،{ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ } [مريم: ٨٩ - ٩٠]، قل لكاتبك الذى وضع رسالته، ووصف مقالته: وصل كتابك كضرب رباب، أو كطنين ذباب.{ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ } [مريم: ٧٩ - ٨٠] إن شاء الله تعالى.{ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ } [الشعراء: ٢٢٧] لقد لبكتم في الذى أرسلتم، والسلام " (1).

ثم إن السلطان المملوكى خرج بقواته من القاهرة إلى بلاد الشام في ربيع الآخر بعد أن وصلت إليه الأنباء بتحرك " تيمور لنك " باتجاه مدينة حلب، فوصل دمشق في يوم الإثنين من نفس الشهر، ثم رحل نحو حلب بعد أن علم

---

(1) المقريزي، السلوك، 3 / 237- 238.

أن جنود " تيمور لنك " قد بلغت البيرة على الضفة اليسرى لنهر الفرات، فأخذ جند مصر في عبوره ليلاً - وقيل إنهم كانوا ينفخون القرب ويجعلونها تحت بطون الخيل فيعبرون بها إلى الضفة اليسرى - وأوقعوا بهم وغنموا منهم الشيء الكثير، ولكنهم لم يلتقوا في معركة حاسمة. ثم رحل " تيمور لنك " بلا منازلة[1].

ويبدو أن " تيمور لنك " وجد أن الظروف غير ملائمة للدخول في معركة مكشوفة مع السلطان برقوق، لا سيما وأن طقتمش إيلخان بلاد الدشت والسراى وما جاورها هاجم بلاده، فاضطر إلى الاشتباك معه، ثم زحف شرقًا نحو الهند تاركًا بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه [2].

وبعد أن رحل " تيمور لنك " فإن السلطان الظاهر برقوق قد توجه إلى دمشق حيث استقبل رسل السلطان العثمانى التى أتت تعرض عليه التحالف مع دولة المماليك ضد " تيمور لنك "، والمساعدة في استعادة بغداد من أيدى التتار، وبالرغم من سرور الظاهر برقوق بهذه المبادرة إلا أنه رفض أن يكون شرف استعادة بغداد من أيدى التتار لغير دولة المماليك، ولكنه قدم الشكر للسلطان العثمانى على عرضه المساعدة في قتال التتار [3].

وما لبث السلطان المملوكى برقوق أن كتب تقليدًا بنيابة بغداد لأحمد بن أويس[4] وجرد حملة عسكرية كبيرة تحت قيادته، وزوده بالأمراء المماليك

(1) المقريزي، السلوك، 3 / 724- 731، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 724- 756، ابن إياس، بدائع الزهور، 2 / 302.

(2) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص 127.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، 2 / 302، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، 9 / 381، العسقلاني، إنباء الغمر، 1 / 367.

(4) أحمد بن أويس بن الشيخ حسن بن حسين بن آقبغا بن إيلكان، السلطان غياث الدين صاحب بغداد وتبريز وغيرهما من بلاد العراق.

ملك بعد موت أخيه الشيخ حسين بن أويس سنة أربع وثمانين وسبعمائة، واستمر بممالك العراق إلى سنة خمس وتسعين وسبعمائة، خرج من بغداد فارًّا من " تيمور لنك " لما استولى على بغداد، وقصد نحو البلاد الحلبية وصحبته نحو أربعمائة فارس من أصحابه.

وسبب استيلاء تيمور على بغداد هو أن تيمور أخذ شيراز وقتل متملكها شاه منصور وبعث برأسه إلى بغداد، وبعث بالخلعة والسكة إلى السلطان أحمد هذا فلبس الخلعة، وضرب السكة باسم " تيمور لنك " وأذعن لطاعته، ثم إن أهل بغداد كاتبوا تيمور يحثونه على المسير إليهم فتوجه إليها بعساكره، واستولى عليها بعد أمور ووقائع، وفر السلطان أحمد منها إلى جهة حلب.

وسبب مكاتبة أهل بغداد لتيمور أن ابن أويس المذكور كان أسرف في قتل أمرائه، وبالغ في ظلم رعيته، وانهمك على الفجور والخمر، وكان قدوم تيمور إلى بغداد والاستيلاء عليها بحيلة دبرها على أهل بغداد، وهو أن السلطان أحمد لما بلغه مجيئه أرسل بالشيخ نور الدين الخرسانى إلى تيمور فأكرمه.

وقال: أنا أترك بغداد لأجلك، ورحل يريد السلطانية، فبعث نور الدين كتبه بالبشارة إلى بغداد، وقدم في أثرها، وكان تيمور قد سار يريد بغداد من طريق أخرى، فلم يشعر ابن أويس- وقد اطمأن- إلا وتيمور قد نزل غربى بغداد قبل أن يصل الشيخ نور الدين، فدهش عند ذلك ابن أويس وقطع جسر بغداد ورحل بأمواله وأولاده من ليلة السبت رابع عشر شوال، وترك البلد، فحاصرها تيمور، وأرسل ابنه في إثر ابن أويس فأدركه بالحلة فتواقعا، وانتصر ابن تيمور، ونهب مال سلطان أحمد وسبى حريمه، وقتل وأسر.

ونجا ابن أويس في طائفة وهم عراة، وقصد حلب لائذًا بجناب الملك الظاهر برقوق سلطان مصر، فلما وصل إلى قريب حلب خرج للقيه نائبها الأمير جلبان قراسقل والأمراء والعساكر الحلبية، وأنزله بالميدان ظاهر حلب، ثم كتب النائب يخبر الملك الظاهر برقوق بقدوم السلطان أحمد إلى حلب، فورد الجواب للنائب المذكور بالإدرار عليه من أموال الديوان السلطانى ما يكفيه من النفقات وغيرها، وأن يبالغ في إكرامه، فامتثل ذلك، ولا برح محفولاً فيما أجرى عليه إلى أن برز المرسوم السلطانى بطلبه إلى القاهرة، فتوجه إليها، فلما وصلها نزل الملك الظاهر برقوق في جميع العساكر المصرية إلى لقائه، وذلك في يوم الثلاثاء سابع عشر ربيع الأول سنة ست وتسعين وسبعمائة، إلى الريدانية خارج القاهرة، وقعد بمسطبة مطعم الطيور إلى أن قرب منه ابن أويس، نزل السلطان عن فرسه ومشى عدة خطوات، فمشى إليه الأمير بدخاص حاجب الحجاب، ومن بعده الأمراء للسلام عليه، والأمير بدخاص يعرفه اسم كل أمير ووظيفته، وهم يقبلون يده، حتى أقبل الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، فقال له الأمير بدخاص: هذا ابن أستاذ السلطان، فعانقه ابن أويس ولم يدعه يقبل يده، ثم جاء من بعده الأمير بكلمش أمير سلاح، فعانقه أيضًا، ثم من بعده الأمير أيتمش رأس نوبة الأمراء، وهذه الوظيفة مفقودة الآن، فعانقه أيضًا، ثم الأمير سودون الشيوخونى النائب، فعانقه، وانقضى سلام الأمراء، فمشى عند ذلك السلطان ونزل عن المسطبة، ومشى نحو العشرين خطوة، فلما رأى ابن أويس ذلك هرول حتى التقيا، فأومأ ابن أويس ليقبل يد السلطان، فلم يمكنه، وعانقه، وبكوا ساعة، ومشى والسلطان يطيب خاطره ويعده بعوده إلى ملكه، ويده في يده حتى صعدا المسطبة وجلسا معًا على المقعد من غير كرسي، وتحادثا طويلاً، ثم قدم قباء من حرير بنفسجى بفرو قاقم وطرز ذهب وفرس من الخاص بسرج ذهب وكنبوش زركش وسلسلة ذهب، فركبه من حيث يركب السلطان، ثم ركب السلطان بعده، وسارا إلى أن قربا من قلعة الجبل، وقد خرج معظم الناس لمشاهدة ابن أويس المذكور إلى أن وصلا تحت الطبلخاناة، أومأ إليه السلطان بالتوجه إلى

المنزل الذى أعد له على بركة الفيل، فتوجه إليه، وجلس لأكل السماط، فمد الأمير جمال الدين محمود الأستادار بين يديه سماطًا جليلاً، فأكل، وأكل الأمراء بعده، وانصرفوا، ثم أرسل السلطان إليه بمائتى ألف درهم فضة، ومائتى قطعة قماش سكندري، وثلاثة أفراس بقماش ذهب، وعشرين مملوكًا وعشرين جارية، ثم دخل في الليل ثقل ابن أويس وحريمه.

وفى يوم الخميس عمل السلطان الخدمة بالإيوان المعروف بدار العدل على العادة، وحضر ابن أويس الخدمة، وأجلسه السلطان رأس ميمنته، ومد السماط وقام الأمراء من جلوسهم، فهَمَّ ابن أويس بالقيام معهم، فمنعه السلطان من ذلك، فاستمر في جلوسه حتى انتهى الموكب، ونهض متوجهًا إلى منزله والأمراء بين يديه، وقدامه جاووشيته، ونقيب جيشه، وتكرر طلوعه إلى القلعة إلى أن أخذ الملك الظاهر في أسباب السفر إلى البلاد الشمالية.

وتزوج الملك الظاهر بالخاتون تندو بنت حسين بن أويس ابن أخى القان غياث الدين أحمد هذا، ومبلغ الصداق ثلاثة آلاف دينار، وبنى بها ليلة الخميس عاشر الشهر المذكور ليلة سفره، وأصبح من الغد نزل السلطان من قلعة الجبل من باب السلسلة إلى الرميلة، وقد وقف القان ابن أويس وجميع الأمراء والعساكر، وقد لبسوا آلة الحرب ومعهم أطلابهم، فسار السلطان، وعليه قرفل بغير أكمام، وكلفته على رأسه، وتحته فرس بعرقية من الصوف سميك إلى باب القرافة، والعساكر قد ملأت الرميلة، فرتب بنفسه أطلاب الأمراء ومر في صفوفهم غير مرة حتى رتبها أحسن ترتيب، ثم مضى إلى قبر الإمام الشافعي رضى الله عنه فزاره، وتصدق على الفقراء بملغ له جرم، ثم توجه لزيارة السيدة نفيسة، وفعل كما فعل في زيارة الشافعي، وعاد إلى الرميلة، وأشار إلى الطلب السلطانى بالمسير، فتوجه إلى الريدانية في أعظم قوة وأبهج زى وأفخر هيئة، وجرى فيه من جنائب الخيل، ومن السلاح ما يقصر الوصف عن حكايته.

ثم مشى الملك الظاهر وإلى جانبه القان بن أويس المذكور، وهو على فرس بقماش ذهب، وقد دهش عقله مما رأى، وبجانب ابن أويس الأتابكى كمشبغا الحموي، ثم مشى أطلاب الأمراء على منازلهم، ونزل السلطان بخيمة بالريدانية، ونزل بن أويس بوطاق آخر، ثم سافرا من الغد إلى أن وصلا إلى دمشق في العشرين من جمادى الآخرة، فأقام ابن أويس إلى مستهل شعبان، وسافر من دمشق يريد بغداد، وقد قام له الملك الظاهر برقوق بجميع ما يحتاج إليه، وعند وداعه خلع عليه أطلسين، وسيف بسقط ذهب، وأعطى تقليدًا بنيابة السلطنة ببغداد، فأهوى بن أويس لتقبيل الأرض، فلم يمكنه الظاهر من ذلك إجلالاً له، واستقل ابن أويس بالمسير إلى أن وصل بغداد في سنة ست وتسعين وسبعمائة، فتسلمها على عادته، ومهد ممالكها، ثم أخذ يسير في رعيته بالظلم والعسف، وقتل جماعة من أمرائه، فوثب عليه من بقى من الأمراء بموافقة الرعية عليه، وكاتبوا نائب " تيمور لنك " بشيراز ليتسلما، فمضى إليها وتسلمها، ونزح عنها السلطان أحمد بن أويس.

وتوجه إلى قرا يوسف بن قرا محمد التركمانى صاحب الموصل، واستنجده، فسار معه إلى بغداد، فخرج أهل بغداد لقتالهما، والتقى الرفيقان، فانهزم سلطان أحمد وعاد إلى جهة دمشق وصحبته قرا يوسف وقعا الفرات، ومعهما جمع كثير من التركمان وغيره، ونزلا بالساجور بالقرب من حلب، فخرج إليهم نائب حلب الأمير دمرداش المحمدي، والأمير دقماق نائب حماة، وبقية العساكر، والتقوا على الساجور، وكان بينهم وقعة عظيمة، وحمل قرا يوسف بمن معه على العساكر الحلبية،

والخيل والجمال والسلاح والأموال، فتمكن هذا الجيش من دخول بغداد في أواخر جمادى الثانية سنة 796 / يونيه سنة 1394م بعد أن أوقعوا الهزيمة بجيش التتار بقيادة ميران شاه، ثم عمل على إصلاح ما تهدم من أسوار بغداد وترميم حصونها (1).

وما إن تخلص " تيمور لنك " من مشاكله مع جيرانه الشرقيين حتى عاد لمناوئة دولة المماليك من جديد، ففى العام 799 هـ أرسل إلى الظاهر برقوق يطلب منه إطلاق سراح أحد أقربائه وهو أطلمش المأسور لدى برقوق وقال له: "... إما أن يرسلوا قريبنا أطلمش وإن لم يفعلوا فدماء المسلمين في أعناقهم والسلام... "، غير أن السلطان برقوق اشترط إطلاق سراح من هم في بلاط التتار من المسلمين أولاً (2).

واتخذ " تيمور لنك " من هذه الحادثة مسوغا لمهاجمة البلاد الإسلامية، وكان ذلك في عهد الملك الناصر فرج وبدأ زحفه على الدولة المملوكية قبل أن يتمكن السلطان الجديد فرج من ترتيب أموره، وحاول الاتصال بالسلطان العثمانى بايزيد، والتحالف معه ضد الدولة المملوكية، ولكن السلطان العثمانى رفض المشاركة في قتل المسلمين وإهدار دمائهم، فتقدم " تيمور لنك " باتجاه بغداد فتصدى له القان أحمد بن أويس وساعده قرا يوسف التركماني، وتمكنا من إيقاع الهزيمة النكراء بتيمورلنك في عام 802 هـ / 1399م وأجبراه على

فانكسر العسكر الحلبى وتفرق شملهم، بعد أن أسر الأمير دقماق نائب حماة وجماعة من الأمراء وذلك في ثانى وعشرين شوال سنة اثنتين وثمانمائة، ثم عاد السلطان أحمد بن أويس وقرا يوسف إلى نحو بلاد الروم، ثم عاد بعد مدة إلى بغداد وملكها أيضًا، وحكمها مدة إلى أن قدمها " تيمور لنك " ثانيًا: بعد عوده من البلاد الشامية بمدة، فخرج منها ابن أويس هاربًا بمفرده، وجاء إلى حلب، فدخلها في يوم الاثنين خامس عشر صفر سنة ست وثمانمائة، وهو لابس لبادا في زى الفقراء. أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 /46- 48.

(1) المقريزي، السلوك، 3 / 731، العسقلاني، إنباء الغمر، 1 / 371.

(2) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، 9 / 452، العيني، عقد الجمان، 25 / 14.

الفرار بحشوده من أمام بغداد هاربا باتجاه حلب [1].

وبالرغم من أن " تيمور لنك " وصل إلى مدينة حلب بجموع قليلة بلغ تعدادها السبعة آلاف مقاتل هاربًا من قوات بغداد، واشتبك مع قوات نائب حلب ونائب حماة ودارت دائرة الحرب بين العسكرين فانهزم نائب حلب وحماة وقتل من عسكرهما عدد كبير منهم جانى بك اليحياوي، أتابك العسكر، وأسر نائب حماة دقماق المحمدى فاشترى نفسه منهم بالمال، وعاد نائب إليها مهزومًا [2].

ثم أصبح الطريق مفتوحًا أمام " تيمور لنك " لاجتياح ما تبقى من بلاد الشام لاسيما بعد هزيمته لقوات الدولة العثمانية وحلفائها أحمد بن أويس وقرا يوسف التركماني، ورفض السلطان فرج - بناء على مشورة من حوله - التحالف مع الدولة العثمانية، فأصبح العالم في الشرق الإسلامى متشرذمًا متفرقًا، [3] فتقدم " تيمور لنك " باتجاه ملطية في 25 من محرم سنة 803 هـ / أكتوبر 1400م وأبادها تقريبًا، ونهب مدينة سيواس وقتل أهلها ودفن بعضهم أحياء وحرق الكثير منهم - على عادة أسلافه -، ثم أسل إلى الناصر فرج رسالة تفيض تهديدًا ووعيدًا قال له فيها: "... لقد بدرت من والدك حركات مستهجنة من جملتها قتل رسلنا دون سبب، وحبسه أطلمش، الذى كان من رجال بلاطنا وعدم إرجاعه. ولما أسلم والدك وديعه الحياة فإن سؤاله وجزاءه قد أوكل إلى البارى يوم القيامة، وينبغى عليك أن ترحم نفسك وأهل مملكتك، وأن تعيد أطلمش إلينا حتى تنجى أهل مصر والشام من انتقام جيشنا الذى يتحرق للثأر. وإذا سلكت غير هذا الطريق بدافع من وسوسة شيطان اللجاج وعناد الخلاف، فإن جميع تلك الديار والبلاد سوف تصير خرابًا وبمجرد مرور عساكرنا المنصورة وعبورها فيها، وسيكون وزر ووبال دماء المسلمين وأموالهم في عنقك... " [4].

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 215.
(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 2 / 215.
(3) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 2 / 217.
(4) نقلاً عن حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص 173.

غير أن السلطان فرحًا لم يأبه بهذه التهديدات التى أرسلها " تيمور لنك " وقام بالقبض على رسله ووضعهم في السجون، فتحركت مكان الغيظ والشر في " تيمور لنك " فقرر التعجيل بمهاجمة الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام (1).

والذى حدث أن " تيمور لنك " زحف بقواته باتجاه بلاد الشام، وتمكن من الاستيلاء على مدينة البهنسا في رجب سنة 803 هـ / نوفمبر 1400م، وضربت السكة باسم " تيمورلنك " وأقيمت خطبة الجمعة باسمه أيضًا، وأردف بالاستيلاء على مدينة عنتاب - إلى الشمال من حلب - بعد أن فتحت أبوابها أمامه، فدخلها بمنتهى السهولة بعد أن فر نائبها إلى مدينة حلب (2)، ثم تقدم بجموعه الجرارة باتجاه مدينة حلب حيث تمكن من إيقاع الهزيمة النكراء بجيشها، وبطش بهم بطشًا شديدًا واستباح هو وجنوده المدينة وعاثوا بها فسادًا، وصارت المدينة لهم كالكلأ المباح، وذلك في شهر ربيع الأول سنة 803هـ، وقيل كانت القتلى أكوامًا مكدسة في شوارع المدينة. حينئذٍ طلب نائبها ومن معه الأمان، فأمنهم تيمور وامتلك زمام المدينة وقلعتها (3).

"... ثم رحل تيمور من حلب بعد أن أقام بها شهرًا، وتركها خاوية على عروشها، خالية من سكانها وأنيسها، قد خربت وتعطلت من الأذان والصلوات، وأصبحت خرابًا يبابًا مظلمة بالحريق موحشة قفرًا، لا يأويها إلا البوم والرخم. وسار تيمور قاصدًا جهة دمشق، فمر بمدينة حماة، وكان أخذها ابنه ميران شاه.

وكان من خبرها أن ميران شاه بن تيمور نزل عليها بكرة يوم الثلاثاء رابع عشر شهر ربيع الأول المذكور، وأحاط بها بعساكره، بعد أن نهب خارج مدينة حماة، وسبى النساء والأطفال، وأسر الرجال، واستمرت أيدى أصحابه يفعلون في النساء والأبكار تلك الأفعال القبيحة، وخربوا جميع ما هو خارج عن سور المدينة. هذا وقد استعد أهل حماة للقتال، وركب الناس سور المدينة، وامتنعوا

(1) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص 132.
(2) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص 132.
(3) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، 2 / 255.

من تسليم المدينة، وباتوا على ذلك فلما أصبحوا خادعهم ابن تيمور، ففتحوا له بابًا من أبواب المدينة، ودخل ابن تيمور المذكور مدينة حماة ونادى بالأمان؛ فقدم الناس عليه، وقدموا له أنواع المطاعم، فقبلها منهم، وعزم أن يقيم رجلاً من أصحابه عليها، فقيل له: إن الأعيان قد خرجوا منها، فخرج إلى مخيمه وبات به.

ثم رحل يوم الخميس عنها ووعد الناس بخير؛ ومع ذلك فإن قلعة حماة لم يتسلمها، بل كانت امتنعت عليه.

فلما كان ليلة الجمعة نزل أهل القلعة وقتلوا من أصحاب ابن تيمور رجلين كان أقرهما بالمدينة، فلما بلغ ذلك ابن تيمور رجع إليها واقتحم البلد، وأشعل النار بها، وأخذ أصحابه يقتلون ويأسرون وينهبون حتى صارت كمدينة حلب غير أنه كان رفق بأهل حلب، فإنه كان سأل قضاة حلب لما صاروا في أسره عن قتاله، ومن الشهيد. فأجاب محب الدين محمد بن محمد بن الشحنة الحنفى بأن قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذا، فقال: ((من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو الشهيد))، فأعجبه ذلك، وحادثهم، فطلبوا منه أن يعفو عن أهل حلب، ولا يقتل أحدًا؛ فأمنهم جميعًا وحلف لهم، فحصل بذلك بعض رفق بالنسبة إلى غيرهم... " [1].

"... أما أهل دمشق، فإنه لما قدم عليهم الخبر بأخذ حلب، نودى في الناس بالرحيل من ظاهرها إلى داخل المدينة، والاستعداد لقتال العدو المخذول، فأخذوا في ذلك؛ فقدم عليهم المنهزمون من حماة، فعظم خوف أهلها، وهموا بالجلاء، فمنعوا من ذلك، ونودي: من سافر نهب، فعاد إليها من كان خرج منها وحصنت دمشق، ونصبت المجانيق على قلعة دمشق، ونصبت المكاحل على أسوار المدينة، واستعدوا للقتال استعدادًا جيدًا إلى الغاية.

ثم وصلت رسل تيمور إلى نائب الغيبة بدمشق ليتسلموا منه دمشق، فهم نائب

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 227.

المدينة بالفرار، فرده العامة ردًّا قبيحًا وصاح الناس وأجمعوا على الرحيل عنها، واستغاث النساء والصبيان، وخرجت النساء حاسرات لا يعرفن أين يذهبن، حتى نادى نائب المدينة بالاستعداد. وقدم الخبر في أثناء ذلك بمجيء السلطان إلى البلاد الشامية، ففتر عزم الناس عن الخروج من دمشق ما لم يحضر السلطان... " [1].

وتقدم السلطان فرج بن برقوق بالقوات المصرية باتجاه دمشق ووصلها بالفعل في السادس من جمادى الأولى سنة 803 هـ / يناير 1401م "... وكان لدخوله يوم مهول من كثرة صراخ الناس وبكائهم والابتهال إلى الله بنصرته. وطلع السلطان إلى قلعة دمشق وأقام بها إلى يوم السبت ثامنه، فنزل من قلعة دمشق وخرج بعساكره إلى مخيمه عند قبة يلبغا ظاهر دمشق، وتهيأ للقاء تيمور هو بعساكره، وقد قصرت المماليك الظاهرية أرماحهم حتى يتمكنوا من طعن التمرية - التيمورية - أولاً بأول لازدرائهم عساكر تيمور... " [2].

وقد عسكر السلطان فرج بقواته في سهل قبة يلبغا على بعد ميلين من دمشق، أما " تيمور لنك " فإنه زحف بسرعة من بعلبك إلى قطنة - إحدى قرى دمشق - ثم عسكر على المرتفعات المشرفة على قبة يلبغا، في نقطة يشرف منها على تحركات الجيش المملوكي، وظل على هذا الحال مدة شهر اشتبك فيه الجيشان ثلاث مرات دون نتيجة حاسمة إلى أن تمكنت القوات المملوكية من رد الجموع التترية عن دمشق وكبدتها خسائر فادحة، فاضطر " تيمور لنك " إلى مراسلة السلطان فرج لطلب الصلح على أساس إطلاق سراح أطلمش، وسك النقود باسمه، وذكر اسمه في الخطبة، وكان رد السلطان فرج في غاية الود والكرم، ولبى معظم طلبات " تيمور لنك " بما فيها إطلاق سراح أطلمش في ظرف أيام معدودة، وما صاحب ذلك من الوعود بعلاقات ودية مع " تيمور لنك " [3].

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 227.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 227- 228.

(3) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص 138.

والحقيقة أن " تيمور لنك " ومن قبله أسلافه لم يكونوا يعرفون غير لغة القوة، فظن أن خطاب السلطان فرج الودى إليه ضعفًا، فسارع في مهاجمة غوطة دمشق ونجح في دخولها في سرعة مدهشة وشرع في مهاجمة دمشق ذاتها، وبدلاً من أن يتحد أمراء المماليك أمام هذا الخطر الداهم، إلا إنهم راحوا يتنافسون بينهم على المناصب والإقطاعيات وسادت بينهم الفتن والدسائس والوقيعة، وسعى أمراء المماليك إلى خلع السلطان فرج وحاولوا سلطنة الشيخ لاجين الجركسي، وتسلل عدد من الأمراء المماليك من الجيش في دمشق إلى مصر لتنفيذ خطتهم، فاضطر السلطان إلى اصطحاب عدد كبير من الأمراء وأسرع في العودة إلى القاهرة لمواجهة هذه الفتنة، تاركين دمشق لتواجه المصير المظلم، وكان ذلك في ليلة الجمعة 21 من جمادى الأولى سنة 803 هـ.

ولما علم " تيمور لنك " بتلك الأنباء قوى عزمه وضيق الخناق على دمشق، وزحف عليها بعساكره، غير أن الدمشقيين قاتلوه أشد قتال وردوه عن مدينتهم بعد أن أسروا عددًا كبيرًا من جنده، ثم أخذوا من خيوله عددًا كبيرًا وقتلوا من جيشه نحو الألف، وأظهروا صمودًا كبيرًا، فاضطر " تيمور لنك " المخادعة، فبعث إلى حاكم المدينة يطلب التفاهم على الصلح فبعثوا إليه وفدًا من أعيان المدينة برئاسة القاضي تقى الدين بن مفلح الحنبلى [1]، فلما "... توجه إلى

(1) تقى الدين بن مفلح الحنبلى 751- 803هـ، 1350- 1400م.

إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي، قاضي القضاة تقى الدين ابن العلامة شمس الدين الحنبلى الدمشقى قاضى قضاة الحنابلة بدمشق.

كان إمامًا فقيهًا، عالمًا فاضلاً، دينًا، ولى قضاة دمشق، وحمدت سيرته إلى أن امتحن في واقعة " تيمور لنك ".

ومات في شعبان سنة ثلاث وثمانمائة.

وهلكت أيضًا في هذه السنة المذكورة بدمشق وحلب وغيرهما من البلاد الشامية في محنة تيمور بالقتل والجوع والحريق خلائق، ولا يعلمها إلا الله، فإن والدى رحمه الله ولى نيابة دمشق قبل محنة تيمور بأيام قلائل، ثم وليها ثانيًا بعد أن خرج تيمور بعساكره عنها، فدخلها فوجدها خرابًا، وقد تحير أين يسكن بدمشق، إلى أن أشار عليه أهلها بأن يسكن بالقرمانية، فسكنها إلى أن شرع في

تيمور واجتمع به وعاد إلى دمشق وقد خدعه تيمور بتنميق كلامه، وتلطف معه في القول، وترفق له في الكلام، وقال له: هذه بلدة الأنبياء والصحابة وقد أعتقتها لرسول الله ﷺ صدقة عنى وعن أولادي، ولولا حنقى من سودون نائب دمشق عند قتله لرسولى ما أتيتها، وقد صار سودون المذكور في قبضتى وفى أسري؛ وقد كان الغرض في مجيئى إلى هنا، ولم يبق لى الآن غرض إلا العود، ولكن لا بد من أخذ عادتى من التقدمة من الطقزات. وكانت هذه عادته إذا أخذ مدينة صلحًا يخرج إليه أهلها من كل نوع من أنواع المأكول والمشروب والدواب والملابس والتحف تسعة؛ يسمون ذلك طقزات؛ والطقز باللغة التركية: تسعة، وهذه عادة ملوك التتار إلى يومنا هذا... "[1].

وانخدع ابن مفلح بهذه الخدعة ورجع إلى أهل دمشق يمنعهم عن مقاتلة التتار ويذكر لهم محاسن " تيمور لنك " وصفاته النبيلة، ثم سلم باب المدينة لجنود التتار وأصبحت المدينة في حوزتهم فنكث بوعوده وأمانه لأهل دمشق، يقول أبو المحاسن بن تغري بردي: "... فلما صار ابن مفلح بدمشق شرع يخذل الناس عن القتال، ويثنى على تيمور ودينه وحسن اعتقاده ثناء عظيمًا، ويكف أهل دمشق عن قتاله، فمال معه طائفة من الناس، وخالفه طائفة أخرى وأبَوْ إلا قتاله، وباتوا ليلة السبت على ذلك وأصبحوا نهار السبت وقد غلب رأى ابن مفلح على من خالفه، وعزم على إتمام الصلح، ونادى في الناس: إنه من خالف ذلك قتل وهدر دمه؛ فكف الناس عن القتال.

وفى الحال قدم رسول تيمور إلى مدينة دمشق في طلب الطقزات المذكورة، فبادر ابن مفلح، واستدعى من القضاة والفقهاء والأعيان والتجار حمل ذلك كل أحد بحسب حاله؛ فشرعوا في ذلك حتى كمل، وساروا به إلى باب النصر ليخرجوا به إلى تيمور، فمنعهم نائب قلعة دمشق من ذلك، وهددهم بحريق

عمارة دار السعادة، فتحول إليها بعد مدة طويلة.

أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 30.

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 239.

المدينة عليهم إن فعلوا ذلك، فلم يلتفتوا إلى قوله، وقالوا له: " أنت احكم على قلعتك، ونحن نحكم على بلدنا "، وتركوا باب النصر وتوجهوا، وأخرجوا الطقزات المذكورة من السور، وتدلى ابن مفلح من السور أيضًا ومعه كثير من أعيان دمشق وغيرهم وساروا إلى مخيم تيمور، وباتوا به ليلة الأحد وعادوا بكرة الأحد، وقد استقر تيمور بجماعة منهم في عدة وظائف ما بين قضاة القضاة، والوزير، ومستخرج الأموال، ونحو ذلك، معهم فرمان من تيمور لهم، وهو ورقة فيها تسعة أسطر يتضمن أمان أهل دمشق على أنفسهم وأهليهم خاصة؛ فقرىء الفرمان المذكور على منبر جامع بني أمية بدمشق وفتح من أبواب دمشق باب الصغير فقط، وقدم أميرمن أمراء تيمور، جلس فيه ليحفظ البلد ممن يعبر إليها من عساكر تيمور فمشى ذلك على الشاميين وفرحوا به، وأكثر ابن مفلح ومن كان توجه معه من أعيان دمشق الثناء على تيمور، وبث محاسنه وفضائله، ودعا العامة لطاعته وموالاته، وحثهم بأسرهم على جمع المال الذى تقرر لتيمور عليهم، وهو ألف ألف دينار، وفرض ذلك على الناس كلهم، فقاموا به من غير مشقة لكثرة أموالهم.

فلما كمل المال حمله ابن مفلح إلى تيمور ووضعه بين يديه فلما عاينه غضب غضبًا شديدًا، ولم يرض به، وأمر ابن مفلح ومن معه أن يخرجوا عنه، فأخرجوا من وجهه ووكل بهم جماعة حتى التزموا بحمل ألف تومان - والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب إلا أن سعر الذهب عندهم يختلف وعلى كل حال فيكون جملة ذلك عشرة آلاف ألف دينار - فالتزموا بها وعادوا إلى البلد، وفرضوها ثانيًا على الناس كلها عن أجرة أملاكهم ثلاثة أشهر، وألزموا كل إنسان من ذكر وأنثى حر وعبد بعشرة دراهم وألزم مباشر كل وقف بحمل مال له جرم، فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانيًا بلاء عظيم وعوقب كثير منهم بالضرب، فغلت الأسعار، وعز وجود الأقوات، وبلغ المد القمح - وهو أربعة أقداح - إلى أربعين درهمًا فضة، وتعطلت صلاة الجمعة من دمشق فلم تقم بها جمعة إلا مرتين حتى دعى بها على منابر دمشق للسلطان

محمود ولولى عهده ابن الأمير " تيمور لنك " وكان السلطان محمود مع تيمور، كون عادتهم لا يتسلطن عليهم إلا من يكون من ذرية الملوك.

ثم قدم شاه ملك أحد أمراء تيمور إلى مدينة دمشق على أنه نائبها من قبل تيمور.

ثم بعد جمعتين منعوا من إقامة الجمعة بدمشق لكثرة غلبة أصحاب تيمور بدمشق كل ذلك، ونائب القلعة ممتنع بقلعة دمشق، وأعوان تيمور تحاصره أشد حصار، حتى سلمها بعد تسعة وعشرين يومًا وقد رمى عليها بمدافع ومكاحل لا تدخل تحت حصر. يكفيك أن التمرية من عظم ما أعياهم أمر قلعة دمشق بنوا تجاه القلعة قلعة من خشب؛ فعند فراغهم من بنائها وأرادوا طلوعها ليقاتلوا من أعلاها من هو بالقلعة، رمى أهل قلعة دمشق نفطًا فأحرقوها عن آخرها، فأنشؤوا قلعة ثانية أعظم من الأولى وطلعوا عليها وقاتلوا أهل القلعة.

هذا وليس بالقلعة المذكورة من المقاتلة إلا نفر قليل دون الأربعين نفرًا، وطال عليهم الأمر، ويئسوا من النجمة، وطلبوا الأمان، وسلموها بالأمان.

قلت: لا شلت يدهم! هؤلاء هم الرجال الشجعان. رحمهم الله تعالى " (1).

ولما صارت المدينة وقلعتها في حوزة " تيمور لنك " انتقم منها أبشع انتقام وأنزل بأهلها أشد أنواع العقوبة، يقول أبو المحاسن: "... وكان تيمور لما اتفق أولاً مع ابن مفلح على ألف ألف دينار يكون ذلك على أهل دمشق خاصة، والذى تركته العساكر المصرية من السلاح والأموال يكون لتيمور، فخرج إليه ابن مفلح بأموال أهل مصر جميعها فلما صارت كلها إليه وعلم أنه استولى على أموال المصريين ألزمهم بإخراج أموال الذين فروا من دمشق، فسارعوا أيضًا إلى حمل ذلك كله، وتدافعوا عنده حتى خلص المال جميعه فلما كمل ذلك ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع ما في البلد من السلاح جليلها وحقيرها، فتتبعوا ذلك وأخرجوه له حتى لم يبق بها من السلاح شيء فلما فرغ ذلك كله قبض

(1) النجوم الزاهرة، 12/ 239- 240.

علـى ابـن مفلـح ورفقتـه، وألـزمهم أن يكتبـوا لـه جميـع خطـط دمشـق وحاراتهـا وسككها، فكتبوا ذلك ودفعوه إليه، ففرقه على أمرائه، وقسم البلد بينهم، فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم ونزل كل أمير في قسمه، وطلب من فيه، وطالبهم بالأموال، فحينئذٍ حل بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف وأجرى عليهم أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار، والتعليق منكوسًا، وغم الأنف بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق؛ فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يخلى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعًا، فكان المعاقب يحسد رفيقه الذى هلك تحت العقوبة على الموت، ويقول: ليتنى أموت وأستريح مما أنا فيه، ومع هذا تؤخذ نساؤه وبناته وأولاده الذكور، وتقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير، فيشاهد الرجل المعذب امرأته أو بنته وهى توطأ، وولده وهو يلاط به، فيصرخ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط، وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملأ من الناس.

ورأى أهل دمشق أنواعًا من العذاب لم يسمع بمثلها؛ منها أنهم كانوا يأخذون الرجل فتشد رأسه بحبل ويلوونه حتى يغوص في رأسه ومنهم من كان يضع الحبل بكتفى الرجل ويلويه بعصاه حتى تنخلع الكتفان ومنهم من كان يربط إبهام يدى المعذب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره ويفر في منخريه الرماد مسحوقًا، فيقر على ما عنده شيئًا بعد شيء، حتى إذا فرغ ما عنده لا يصدقه صاحبه على ذلك، فلا يزال يكرر عليه العذاب حتى يموت، ويعاقب ميتًا مخافة أن يتماوت. ومنهم من كان يعلق المعذب بإبهام يديه في سقف الدار ويشعل النار تحته، ويطول تعليقه، فربما يسقط فيها، فيسحب من النار ويلقوه على الأرض حتى يفيق، ثم يعلقه ثانيًا.

واستمر هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يومًا، آخرها يوم الثلاثاء ثامن وعشرين شهر رجب من سنة ثلاث وثمانمائة، فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى.

فلما علمت أمراء تيمور أنه لم يبق بالمدينة شيء خرجوا إلى تيمور، فسألهم: هل بقى لكم تعلق في دمشق؟ فقالوا: لا؛ فأنعم عند ذلك بمدينة دمشق أتباع الأمراء، فدخلوها يوم الأربعاء آخر رجب، ومعهم سيوف مسلولة مشهورة وهم مشاة، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الحور وغيرها، وسبوا نساء دمشق بأجمعهن، وساقوا الأولاد والرجال، وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال.

ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد، وكان يوم عاصف الريح، فعم الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد أن يرتفع إلى السحاب، وعملت النار في البلد ثلاثة أيام بلياليها آخرها يوم الجمعة.

وكان تيمور - لعنه الله - سار من دمشق في يوم السبت ثالث شهر شعبان بعد ما أقام على دمشق ثمانين يومًا، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بنى أمية من الحريق، وزالت أبوابه وتفطر رخامه، ولم يبق غير جدره قائمة. وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت أطلالاً بالية ورسومًا خالية، ولم يبق بها دابة تدب، إلا أطفال يتجاوز عددهم آلامًا، فيهم من مات، وفيهم من سيموت من الجوع... " [1].

ومن عجيب الأمر أن " تيمور لنك " بعث إلى السلطان فرج بن برقوق يطلب إليه الإفراج عن أطلمش قريبه - الذى كان أسيرًا لدى برقوق ولم يرض بإطلاقه - ويعتذر إليه عما بدر منه... فأطلقه مقابل أن يطلق تيمور سراح من عنده من الأسري، فأطلقهم ورحل بحملته عن بلاد الشام [2].

وبعد أن رحل " تيمور لنك " عن دمشق عين السلطان فرج بن برقوق الأمير نوروز الحافظى [3]نائبًا على بلاد الشام ليصلح ما أفسدته يد تيمور وجنوده.

---

(1) النجوم الزاهرة، 12 / 240- 241.

(2) العسقلاني، إنباء الغمر، 1 / 538، 604، 628.

(3) نوروز الحافظى الظاهرى برقوق. أول ما رقاه خاصكيًا ثم أمير آخور عوضًا عن بكلمش سنة ثمانمائة، وكان قبل ذلك أمرَّه رأس نوبة صغيرًا في رجب سنة سبع وسبعين وسبعمائة، ثم رام

وكان الذى حدث أن " تيمور لنك " انشغل عن الدولة المملوكية بالحرب مع الدولة العثمانية حيث استطاع " تيمور لنك " من إيقاع الهزيمة النكراء بصفوف الجيش العثمانى بقيادة بايزيد، بل وقع بايزيد نفسه في أسره، واحتل العاصمة الثانية للدولة العثمانية مدينة بروسة، وأعاد جميع الأمراء السلاجقة إلى أملاكهم التى استولى عليها العثمانيون، وكان ذلك في العام 805هـ / 1402م [1].

وما لبثت العلاقات الودية أن عادت بين " تيمور لنك " والسلطان فرج بن برقوق، بعد أن استجاب برقوق وقبض على خصوم " تيمور لنك " الذين فروا إليه [2] وتبادلت الرسائل الودية وعبارات الثناء والهدايا بين كلا الرجلين،

القيام على السلطان فنم عليه بعض المماليك فقبض عليه في صفر سنة إحدى وثمانمائة وقيد وحمل إلى الإسكندرية فسجن بها، ثم نقل لدمياط ثم أفرج عنه في التى بعدها، واستقر رأس نوبة كبيرًا وصار ناظر الشيخونية وحضر قتال أيتمش ثم وقعة " تيمور لنك "، ورجع مع المنهزمين واستقر يتنقل في الفتن كما ذكر في الحوادث إلى أن قتل في ربيع الآخر سنة سبع عشرة، وكان متعاظمًا عبوسًا مهابًا شديد البأس سفاكًا للدماء شؤوم النقيبة، ما كان في عسكر إلا انهزم ولا ضبط أنه ظفر في وقعة قط، وهو الذى عمر قلعة دمشق بعد رحيل " تيمورلنك". وكان جبارًا ظالمًا عسوفًا بخيلاً، وقد سمعت المقريزى يقول: أنه سمعه يقول: ما معناه إنه ليشق على ألا يكون في مماليك أستاذى الملك الظاهر رجلاً كاملاً في أمور المملكة وتدبير الرعية والرفق بهم. وقد أغفله ابن خطيب الناصرية مع أنه من شرطه، ولذا استدركه ابن قاضى شهبة إشارة ولم يترجمه.

وقال غيره: أنه لما قتل حملت رأسه إلى القاهرة على يد جرباش كباشه وعلقت أيامًا على باب زويلة؛ وكان أميرًا جليلاً كريمًا شجاعًا رئيسًا عفيفًا ضخمًا معدودًا من أكابر الملوك بلغت جوامك مماليكه وحواشيه بدمشق بعد عصيانه زيادة على عشرين ألف دينار في الشهر، وقيل: زيادة على ثلاثين، عارفًا بالحروب وعنده دهاء وتدبير، ولما كان عاصيًا هو والمؤيد على الناصر فرج كان هو الأكبر والمشار إليه، وكان محببًا لطائفة الجراكسة، وهو المطلوب عند خشداشيته الظاهرية ولذلك تخلف بدمشق لظنه أنهم لا يعدلون عنه إلى غيره. الضوء السخاوي، الضوء اللامع، 5 / 109.

(1) المقريزي، السلوك، 3 / 36، محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، 50- 51.

(2) وكان الأميرين قرا يوسف وأحمد بن أويس قد تعديا على بغداد وحاولا الاستيلاء عليها من يد حاكمها من قبل " تيمور لنك " طاهر بن أحمد بن أويس، فسير إليهما " تيمور لنك " ولده ميران شاه في مائة ألف فارس فهربا منه ولجآ إلى دمشق فقبض عليهما حاكمها وسلمهما إلى " تيمور لنك " بطلب من السلطان فرج بن برقوق.

واعتذر " تيمور لنك " عن اضطراره إلى اكتساح بلاده [1].

ثم جاءت وفاة " تيمور لنك " في آخر سنة 807هـ / يناير 1405م لتريح من شره البلاد والعباد.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن المماليك لم يكن شيء ليشغلهم عن المؤامرات والدسائس والفتن، والتصارع فيما بينهم على المناصب العليا والمال والحصول على الأموال والإقطاعيات، فما أن بدأت تهدأ جبهة بلاد الشام وتخمد نار الحرب مع التتار حتى بدأت الصراعات تعود بينهم من جديد، فقد اتفقت في سوريا الفئات المملوكية الثائرة على حكم فرج بزعامة الأمير جكم بن عبد الله بن عوض الظاهرى نائب الشام [2] وشيخ المحمودى

(1) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص 146، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، 2 / 257.

(2) جكم بن عبد الله من عوض الظاهري، الأمير سيف الدين، المتغلب على حلب، الملقب بالملك العادل.

كان من عتقاء الملك الظاهر برقوق ومن أعيان خاصكيته، ثم أمره عشرة، ثم طبلخاناة في العشرين من شهر من ربيع الآخر سنة إحدى وثمانمائة، ثم صار في دولة ابن أستاذه الملك الناصر فرج بن برقوق أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية، ولا زال يترقى حتى صار دوادارًا كبيرًا بعد ركوبه على الأمير يشبك الشعباني الدوادار ونصرته عليه...

وعظم جكم في الدولة وهابته الأمراء والأعيان، وحسنت سيرته، وأظهر العدل في الرعية، واستمر على ذلك إلى أن انتمى إليه جماعة من الأمراء، ثم وقع بينه وبين الأمير سودون طاز الأمير آخور وحشة، وأعلم سودون طاز السلطان بأحوالهم فأرسل للسلطان يطلبهم من جكم، فأبى جكم، وركب من الغد بمن معه إلى بركة الحبش، نزل الملك الناصر فرج إلى الإسطبل السلطاني... وواقع جكم ونوروز فكسرهما، وقبض على جكم وحبسه، واستمر جكم محبوسًا إلى أن أخذه الأمير دمرداش المحمدى نائب طرابلس لما ولى نيابة حلب، ممسوكًا معه إلى حلب، فصحب جكم معه إلى قلعة القصير، فحبسه بها، ثم أخذه منها في عوده إلى صاحب حلب في يوم عرفة واعتقله بحلب مدة، ثم أطلقه وطيب خاطره، فلم يكن إلا أيامًا يسيرة وهرب جكم إلى حماة، ثم خرج من حماة إلى أنطاكية إلى عند صاحب الباز عدو دمرداش، وبلغ دمرداش خبره فجمع لقتالهما، وخرج من حلب حتى وصل إلى أنطاكية، فتحصن جكم وابن صاحب الباز بأنطاكية، فلم يقدر دمرداش عليهما، وعاد إلى حلب.

ثم توجه جكم إلى طرابلس وملكها من نائبها الأمير شيخ السليماني، وأقام بها مدة، ثم توجه إلى حلب فخرج إليه دمرداش وتقاتلا فانكسر دمرداش وفر، ودخل جكم حلب، واستفحل أمره في حلب،

نائب طرابلس (1) والأمير الجركسى يشبك الخازندار (2) ومع أنهم جميعًا من

وخرج لقتال يغمور التركمانى حتى عدى الفرات، ثم عاد إلى حلب، وضرب الدهر ضرباته حتى خرج يشبك الشعبانى هاربًا من الديار المصرية إلى الشام ومعه جمع كبير، فتلقاه نائب دمشق الأمير شيخ المحمودى بالإكرام، وأنزله بدمشق، واتفقوا على كلمة واحدة، وأرسلوا الجميع إلى جكم يسألونه موافقتهم، فأجاب وخرج من حلب في شهر رمضان وقدم دمشق.

واتفق رأى الجميع على قصد الديار المصرية، فساروا نحوها، أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 394.

(1) الأمير شيخ المحمودي.

وتلقب بالملك المؤيد في مستهل شعبان من السنة المذكورة سنة خمس عشرة وثمانمائة، وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق، اشتراه من تاجر يسمى محمود اليزيدي، فأعتقه فلذلك يقال له: المحمودي، ثم جعله أمير عشرة ثم صاحب طبلخانة ثم مقدم ألف ثم ولى نيابة طرابلس فأسره تيمور لما أسر نواب البلاد الشامية، ثم هرب منه إلى أن آل أمره أن صار سلطانًا فخدم المستعين وعصى عليه نواب البلاد الشامية، فتوجه لقتالهم مرارًا كثيرة، وافتتح الشام وغيرها ثم عاد إلى مصر، وكان يعتريه ألم المفاصل فصار يُحمل على الأكتاف ويركب المحفة، وكان شجاعًا مقدامًا مهيبًا، وكانت أسواق ذوى الأدب نافقة عنده؛ لجودة فهمه وذوقه، وكان يحب العلماء والفضلاء ويجل قدرهم، وفى آخر سنة ثمان عشرة وثمانمائة أرسل المؤيد منبرًا حسنًا إلى المسجد الحرام، ودرجة الكعبة، ووصل ذلك في موسم السنة المذكورة، وخطب الخطيب على المنبر الجديد خطبة التروية يوم سابع ذى الحجة الحرام.

وكانت وفاة المؤيد شيخ المحمودى يوم الاثنين لتسع خلون من المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وكانت مدة سلطنته ثمانى سنين وخمسة أشهر.

العصامي، سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي، 2 / 300- 301.

(2) يشبك الشعبانى الأتابكى الظاهرى برقوق. رقاه أستاذه إلى التقدمة والخازندارية ثم صار بعده لالاه لابنه الناصر وانقلب على الأمراء والجلبان الظاهرية إليه فانضم عليه خلائق، وحينئذ قام بترشيد الناصر حتى يستبد بالأمور دون الأتابك أيتمش ورسم بنزوله من السلسلة لداره بالقرب من باب الوزير كما كان في أيام الظاهر فثارت الفتنة لذلك وانكسر أيتمش بمن معه وخرج إلى البلاد الشامية فاستقر " بيبرس " الدوادار أتابكًا عوضه ويشبك دوادارًا عوض " بيبرس " وأخذ أمره في التزايد والارتقاء وصار مدبر المملكة إلى أن وثب عليه جكم بن عوض وغيره فقاتلوه وقبضوا عليه وسجنوه بإسكندرية في شوال سنة ثلاث وثمانمائة، واستقر جكم عوضه في الدوادارية ثم وقع بينه وبين سودون طاز أمير آخور فقبض على جكم وحبسه مكان يشبك، وأعيد إلى الدوادارية، ثم ولاه الناصر بعد عوده إلى الملك أتابكًا، ثم استوحش منه فخرج عاصيًا ووافقه جماعة فخرج إليهم الناصر فهزموه، وآل الأمر إلى اختفاء يشبك، ثم ظهر بالأمان وأعيد إلى رتبته، وسافر إلى البلاد الشامية مع الناصر فلما وصلها قبض عليه هو وشيخ وحبسهما بقلعة دمشق فاحتالا، حتى خلصا فوافاهما نوروز على بلعبلك فقتل يشبك في يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر سنة عشر، وأرسل برأسه إلى الناصر، فطيف بها وعلقت أيامًا، وكان أميرًا جليلاً كريمًا وقورًا سيوسًا ضخمًا عالى

مماليك الظاهر برقوق، إلا أنهم اتفقوا جميعًا على الاستقلال بحكم سوريا، ومنع الدعاء للسلطان فرج على منابر دمشق والاكتفاء بذكر اسم الخليفة، والتقدم إلى القاهرة لخلع السلطان فرج، وظل فرج عاجزًا عن ردهم حتى تقدم هؤلاء الثوار في ذى الحجة سنة 807هـ لحصار القلعة ولم ينقذ فرج سوى انقسام الثوار على أنفسهم، فتمكن جيشه من هزيمتهم، ففروا إلى سورية، ولكنهم عادوا في ربيع الأول سنة 808هـ / فبراير 1405م، واشتركوا في خلع فرج الذى اختفى في بيت صديق له أذاع للناس أنه قضى عليه... ولم تكن هناك فرصة أمام الثوار لترشيح أنفسهم دون أن يحدث بينهم صراع دموى عنيف، لذا فقد اكتفوا مؤقتًا بسلطنة أخيه عبد العزيز [1]، وكان له من العمر عشر سنوات، ولكن صراعات الأمراء المماليك على المناصب والسلطة عجلت بعودة الناصر فرج من جديد إلى الحكم وأعاد نفسه إلى السلطنة وخلع أخاه منها بعد أن دامت غيبته نحو تسعة وستين يومًا، وذلك في جمادى الآخرة سنة 808هـ / أبريل

الهمة متجملاً في شؤونه كلها عفا الله عنه. الضوء السخاوي، الضوء اللامع، 5 / 164.

(1) المنصور عبد العزيز السلطان الملك المنصور عز الدين عبد العزيز ابن السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبى سعيد برقوق ابن الأمير آنص العثماني، سلطان الديار المصرية وهو السلطان السابع والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، والثالث من الجراكسة تسلطن بعهد من أبيه له بعد أخيه الملك الناصر فرج، وباتفاق الأمراء من أعيان مماليك أبيه، بعد ما اختفى أخوه الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق، بعد عشاء الآخرة من ليلة الاثنين سادس وعشرين شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة، وقد ناهز الاحتلام، بعد أن حضر الخليفة والقضاة والأعيان من الأمراء وطلب عبد العزيز من الدور السلطانية إلى الإسطبل السلطاني، وبويع بالسلطنة، وفوض عليه الخلعة الخليفتية، وركب فرس النوبة في الفوانيس والشموع، والأمراء مشاة بين يديه حتى طلع إلى القصر وجلس على تخت الملك، وقبلت الأمراء الأرض بين يديه، ولقب بالملك المنصور أبى العز عبد العزيز ودقت البشائر على العادة.

وأصبح نودى من الغد بالأمان والدعاء للسلطان الملك المنصور عبد العزيز. وأم الملك المنصور هذا أم ولد تترية، تسمى قنق باي، صارت خوند بسلطنة ولدها هذا، وعاشت إلى حدود سنة خمس وثلاثين وثمانمائة.

ولما تسلطن الملك المنصور هذا في الليلة المذكورة، أصبح الناس في هدوء وأمان وتحيرت الناس في أمر السلطان الملك الناصر فرج، ولم يشك أحد من أن الوالد أخذه ومضى إلى البلاد الشامية، لأنه كان عقد على الأخت قبل تاريخه بمدة يسيرة ولم يدخل بها، فاطمأن بذلك قلب من هو من أصحاب الملك الناصر. أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 318- 320.

1405م، واستمر فرج في السلطنة حتى 15 من محرم سنة 815 هـ / يناير 1412م [1].

ولم تكن عودة الناصر فرج إلى الحكم تعني أن ذلك جاء باتفاق الأمراء، بقدر ما كان صراع على السلطة والمناصب، فلم تخل سلطنته الثانية من تلك الصراعات المريرة، حتى لقد كاد زمام الأمور يفلت من أيدى فرج بسبب تمرد الأمراء المماليك، فلقد ثار عليه الأميران شيخ المحمودى ونوروز الحافظي، فزحفا على مصر من بلاد الشام بجيشيهما، فلم يستطع فرج من ردهم بل إنه هزم وكر على عقبيه راجعًا إلى مصر، فأغرتهم هزيمته أن يتتبعوه إلى القاهرة، فكان هذا سببًا أن يكر عليهم فهزمهم هزيمة نكراء، فروا على إثرها إلى بلاد الشام، بعد أن فنى كثير من الجيشين، وكانت كثرة الفتن والثورات التى قام بها أمراء المماليك سببًا في أن يشتط فرج مع المماليك ويعاملهم بقسوة شديدة، إذ إنه تعقب المماليك الجراكسة قتلاً وتشريدًا حتى لقد قيل: أنه قتل منهم في يوم واحد مائة جركسي، ثم عاد وقتل ستمائة وثلاثين جركسيًّا في سنة 814هـ / 1411م [2].

هذه القسوة جعلت القلوب تنفر من الناصر فرج، وهجره كثير من الجنود، وانحازوا إلى أعدائه في الشام، فقويت شوكتهم وتجمعوا تحت قيادة الأميرين شيخ ونوروز، فخلع السلطان الناصر فرج لقتالهم بجهة تدعى " اللجون " بالشام فهزم، وأفل نجمه. فخلع من السلطنة، وقبض عليه، ثم أعدم عام 815هـ. بعد أن حكم في هذه المدة نحو سبع سنوات[3].

سلطنة الخليفة المستعين بالله العباسى 815هـ:

وبعد مقتل الناصر فرج ونهاية حكمه وقع الخلاف بين الأمراء المماليك حول

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة 12 / 318- 322، العسقلاني، إنباء الغمر، 1 / 688- 690.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12 / 251، العسقلاني، إنباء الغمر، 2 / 30.

(3) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، 1 / 46.

من يتولى السلطنة، فمال فريق إلى جانب المؤيد شيخ، في حين رأى فريق آخر أحقية الأمير نوروز، وحلاً لهذه المشكلة اتفق الفريقان على حل وسط، وهو اختيار الخليفة المستعين بالله العباسي [1] ليتولى السلطنة في سنة 815هـ /

(1) الخليفة السلطان المستعين بالله العباسي، أمير المؤمنين، الخليفة المستعين بالله، أبو الفضل، سلطان الديار المصرية، ابن الخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله محمد بن المعتضد بالله أبي بكر بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن الحسن بن أبي بكر بن على القبى ابن الخليفة الراشد بالله منصور بن المسترشد بالله الفضل بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدى بالله أبي القاسم عبد الله بن القائم بأمر الله عبد الله بن القادر بالله أحمد بن الأمير إسحاق ابن الخليفة المقتدر بالله جعفر ابن المعتضد بالله أحمد ابن الأمير طلحة الموفق ابن الخليفة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد هارون بن المهدى محمد بن أبي جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم الهاشمى العباسي.
بويع المستعين بالله بالخلافة بقلعة الجبل بعد وفاة والده- بعهد منه إليه- في يوم الاثنين مستهل شعبان سنة ثمان وثمانمائة، وكان ذلك بعد موت أبيه بأربعة أيام، واستقر بالخلافة، وتجرد صحبة الملك الناصر فرج إلى البلاد الشامية غير مرة إلى أن خرج الملك الناصر فرج من الديار المصرية إلى البلاد الشامية- في سفرته الأخيرة- لقتال شيخ ونوروز ومن معهما في أواخر سنة أربع عشرة وثمانمائة، وكان المستعين بالله أيضًا صحبة الملك الناصر، وحضر معه القتال إلى أن انكسر الملك الناصر وتوجه نحو دمشق، وأحاط شيخ ونوروز على ثقل الملك الناصر فرج وعلى الخليفة هذا والقضاة، وتوجه الجميع إلى دمشق لقتال الناصر وقاتلوه وهزموه، وانحاز بقلعة دمشق فحاصروه بها أيامًا إلى أن ظفروا به وقتل فاجتمع رأى الأمراء الشاميين والمصريين على سلطنة الخليفة المستعين بالله لخمود الفتنة، فبايعوه بالسلطنة، فصار خليفة وسلطانًا، ولم يغير لقبه، واستقر الأمير شيخ المحمودى نظام مملكته، والأمير نوروز الحافظى نائب الشام وإليه مرجع البلاد الشامية في الولاية والعزل وغير ذلك، وصار المستعين بالله يعلم على المراسيم، وعاد إلى الديار المصرية وشيخ بخدمته، وسكن بقلعة الجبل، وسكن الأمير شيخ بباب السلسلة وصارت أمور المملكة بيد شيخ المذكور، والخليفة في السلطنة اسم والأمير شيخ معناه، وليت ذلك دام له، واستمر على ذلك إلى يوم الاثنين مستهل شعبان خلع من السلطنة بالأمير شيخ من غير أن يوافق المستعين على خلع نفسه، فأكره حتى خلع غصبًا، فكانت مدة إقامة المستعين بالله هذا في السلطنة إلى أن خلع نفسه، فأكره حتى خلع غصبًا، فكانت مدة إقامة المستعين بالله هذا في السلطنة إلى أن خلع ستة أشهر وخمسة أيام، واحتفظ به بقلعة الجبل، لكنه كان مكرمًا غير مهان.
واستمر في الخلافة إلى يوم الخميس سادس عشر ذى الحجة سنة ست عشرة وثمانمائة استدعى الملك المؤيد هذا اليوم المذكور داود بن المتوكل على الله من داره، فحضر إلى بين يدى الملك المؤيد بقلعة الجبل وقد حضر القضاة الأربعة، فعندما رآه المؤيد قام له وقد ألبسه خلعة الخلافة، وأجلسه بجانبه بينه وبين قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقيني، ثم دعا القضاة وانصرفوا، على أن المستعين هذا خلع واستقر داود في الخلافة عوضه ولقب بالمعتضد بالله.

1412م، وأعطيت بلاد الشام للأمير نوروز ابتداء من غزة إلى بلاد الفرات، أما الأمير شيخ فاختار أن يكون أتابكًا بمصر.

وهذا الخليفة هو الوحيد من بنى العباس الذى ملك مصر زمنًا، دفعته إلى ذلك أسباب قاهرة خارجة عن الإرادة، ونظرًا إلى حرج موقفه أمام الأتراك أصحاب السلطان ومعرفته مقدمًا ما سيؤول إليه أمره، احتاط واستبقى لنفسه منصب الخلافة يعود إليه مستقلاً به، إذا لم تفلح سلطنته، والواقع أنه لم يكن له من الأمر شيء، بل كان المستبد دونه بكل شيء هو الأتابكى شيخ المحمودي، وكان وجود هذا الخليفة في السلطنة من باب التمهيد لسلطنة شيخ، لذلك سرعان ما خلعه بعد ستة أشهر تقريبًا، ووثب بنفسه على السلطنة بحجة أن البلاد في حاجة إلى سلطان تركى يتولى بحنكته قيادتها، وذلك في العام 815هـ [1].

سلطنة المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى 815 - 824 هـ:

كان من المتوقع ألايرضى نوروز بأن يثب شريكه الفعلى في حكم دولة المماليك بشقيها - مصر والشام - على السلطنة في مصر، بل إنه أعلن الثورة

وكانت العادة أن يدعى على المنابر بذكر كنية الخليفة ولقبه، فمن حين منع المستعين بالله المذكور لم يذكر ذلك وإلى الآن، بل استمر الخطباء يقولون: اللهم اصلح الخليفة، من غير أن يذكره، ومنهم من يقول: اللهم أيد الخلافة العباسية ببقاء مولانا السلطان، واستمر المستعين بالله بعد ذلك بقلعة الجبل مدة يسيرة، وأرسل إلى الإسكندرية وسجن بها إلى أن مات الملك المؤيد في سنة أربع وعشرين وثمانمائة وتسلطن ولده الملك المظفر أحمد، ثم خلع بالملك الظاهر ططر، فلما كان يوم سادس وعشرين ذى القعدة رسم الظاهر ططر أن يفرج عن المستعين بالله من محبسه، وأن يسكن حيث شاء بالإسكندرية، ويخرج راكبًا لصلاة الجمعة، ويتوجه حيث شاء، وأرسل إليه بفرس بسرج ذهب. وكنبوش زركش، وبقجة قماش، ورتب له على الثغر في كل يوم ثمانمائة درهم، ولم يزل على ذلك إلى أن توفى بالثغر في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة بالطاعون وهو في أوائل الكهولية، وخلف ولدًا ذكرًا يسمى يحيى.
وكان المستعين رحمه الله خيرًا دينًا، حشمًا وقورًا كريمًا، وعنده تواضع وسؤدد، خليقًا للخلافة إلا أن المقادير لم تساعده، رحمه الله. أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 69.

(1) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 47.

بالشام ورفض الاعتراف بالسلطان الجديد " المؤيد شيخ، وامتنع عن ضرب السكة باسمه والدعاء له على المنابر، فما كان من المؤيد شيخ إلا أن عبأ الجند وحملهم إلى دمشق فاستطاع أن يقضى على تمرد نوروز وجز رأسه [(1)].

وقد تكررت حملات المؤيد شيخ على بلاد الشام لاستتباب الأمن هناك أو لإضافة أطراف كانت قد خرجت عن سيطرة الدولة المملوكية، ففى العام 821هـ / 1418م خرج المؤيد شيخ إلى طرسوس وخاض مع التركمان حربًا ضروسًا اضطر معها أميرها ابن قرمان [(2)]إلى الاعتراف بسلطة المماليك، على دولته وضرب العملة باسم المؤيد شيخ، والدعاء له على منابر دولته، ولكن ابن قرمان ما لبث أن انتقض، وأعلن الثورة وحاول الاعتداء على أملاك الدولة المملوكية مما اضطر المؤيد شيخ أن يجرد إليه حملة عسكرية كبيرة بقيادة ابنه الصارمى

---

(1) العيني، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص 259.

(2) هو محمد بك بن على بك بن قرمان ناصر الدين ويعرف بابن قرمان. كان أميرًا بقصرية ونكدة ولاريدة وما والاها من البلاد الحلبية وغيرها، ثم امتدت عينه إلى أخذ طرسوس وهى من معاملات حلب وطمع فيها لوقوع الاختلاف بين الأمراء المصرية فحاصرها وملكها، فلما استقر المؤيد جهز إليه عسكرًا فاستنقذوها منه وقرر بها نائبًا، ثم جمع ابن قرمان جيشًا وأخذها فجهز إليه المؤيد في سنة اثنتين وعشرين ابنه الصارمى إبراهيم في عسكرها بل لحربه ومعه الأمير ناصر الدين محمد بك بن دلغادر صاحب أبلستين، فطرق بلاده نهبًا وأسرًا وسلموا طرسوس بأمر المؤيد لابن دلغادر المذكور، واستقر في البلاد القرمانية أخوه على بن دلغادر، وفر صاحب الترجمة والتجأ لقلعة لارندة وحوصر مدة إلى أن رجع الصارمى إلى الديار المصرية وابن دلغادر إلى محل إقامته، فعاد إلى بلاده وجمع جمعًا كبيرًا ثم مشى على بلاد ابن دلغادر بغتة فثبت له وقاتله إلى أن انتصر وقتل مصطفى ابن صاحب الترجمة في الوقعة فحملت رأسه إلى القاهرة في سادس عشر رمضان منها، ثم حمل أبوه إليها مقيدًا فسجن بها حتى مات المؤيد في أوائل سنة أربع وعشرين فأطلقه ططر وولاه بلاده، فتوجه إليها وأقام بها مدة إلى أن سار لحرب خوندكار مراد بك بن عثمان متملك الروم أيضًا ونزل على بعض قلاع ابن عثمان وحصرها أيامًا إلى أن أصابه حجر مدفع من القلعة صرعه، فحمل ومات في صفر سنة ست وعشرين.

وأرخه شيخنا في السنة قبلها، وطوله ابن خطيب الناصرية وقال: إنه مات فيها يعنى سنة أربع وعشرين أو في التى بعدها من حجر أصابه وهو يحاصر إحدى القلاع؛ واستقر بعده ابنه إبراهيم الماضي.

السخاوي، الضوء اللامع، 4 / 194.

إبـراهيم [1] فـي العـام 822هـ / 1419م، فاسـتولى علـى قيصـرية وقونيـة،

(1) إبراهيم بن الملك المؤيد شيخ 800- 823هـ / 1397- 1420م.

إبراهيم بن شيخ، المقام الصـارمى صـارم الـدين بـن الملك المؤيـد، هو أبـو النصـر شيخ المحمودى الظاهري. مولده بالبلاد الشامية في أوائل القرن تقريبًا.

ولما تولى أبوه السلطنة كان إبراهيم المذكور سنه دون البلوغ.

وكان نبيلاً، فأنعم عليه بتقدمة ألف بالديار المصرية، وتجرد صحبة أبيه الملك المؤيد نحو البلاد الشامية، ثم عاد صحبته أيضًا، ولما كان سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة جرده والده السلطان الملك المؤيد لفتح البلاد القرمانية، وهز في خدمته عدة من أمراء الألوف والمماليك السلطانية وغيرهم، فكان من أعيان المقدمين الأمير قجقار القردمى أمير سلاح، والأمير ططر أمير مجلس، والأمير جقمق الأرغونى شاوى الدوادار الكبير، وغيرهم من أمراء الطبلخاناه والعشرات، واستقل بالمسير إلى أن وصل إلى البلاد الشامية توجه صحبته أيضًا نوابها في خدمته، ودخل البلاد القرمانية، فنزل أولاً على قيسارية ففتحها، ثم إلى بلاد نكدة وولى بها نوابًا عن السلطان، وأقام بتلك البلاد ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى حلب في أثناء شهر رجب ونزل بالقلعة، وأقام بحلب إلى العشر الأخير من شعبان، فورد عليه المرسوم الشريف من والده بالرجوع إلى الديار المصرية، فخرج من حلب وبخدمته العساكر المصرية ونواب البلاد الشامية بتجمل زائد وأبهة عظيمة، واستقل بالمسير إلى إن وصل إلى الديار المصرية، فقبل وصوله إلى القاهرة خرج والده الملك المؤيد شيخ إلى ملاقاته، وذلك في سابع وعشرين شهر رمضان، فتوجه السلطان إلى بركة الحجاج واصطاد، ثم مضى إلى مدينة بلبيس، فقدم عليه الحبر بنزول المقام الصارمى بالصالحية، فتقدم الأمراء وأرباب الدولة فوافوه بالخطارة، فسلم على الجميع راكبًا إلى أن عاين القاضى ناصر الدين محمد بن البارزي، كاتب السر الشريف، نزل له عن فرسه وتعانقا، لما يعلم من تمكنه عند أبيه، ثم عاد الجميع في خدمته إلى منزلة العكرشة والسلطان على فرسه، فنزل الأمراء القادمون صحبة الصارمي، ثم نزل المقام الصارمى أيضًا عن فرسه، وقبل الأرض ثم قام ومشى حتى قبل الركاب الشريف، فبكى السلطان لفرحته به، وبكى الناس لبكائه، فكانت ساعة عظيمة، ثم سارا بموكبيهما إلى خانقاه سرياقوس، وباتا بها ليلة الخميس تاسع عشرينه، وركب السلطان من الليل ورمى الطير بالبركة واصطاد، فقدم الخبر في الوقت بقدوم الأمير تنبك ميق العلائى نائب الشام، فوافى ضحى، وركب أيضًا في الموكب، فدخل السلطان إلى القاهرة من باب النصر، وقد زينت للمقام الصارمى وهو بتشريف عظيم، وخلفه الأسرى الذين أخذوا من قلعة نكدة في الأغلال، وهم نحو المائتين نفر، فكان يومًا مشهودًا، ونزل المقام الصارمى إلى داره، واستمر حاله أولاً أشهرًا، ثم توعك ولزم الفراش إلى خامس عشرين جمادى الأولى من سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة تحول في اليوم المذكور من الخروبية ببير الجيزة إلى الحجازية ببير بولاق، فنزل له والده وزاره بالحجازية، فأقام الصارمى إبراهيم بالحجازية إلى ثالث عشر جمادى الآخرة، فعادوا به إلى القاهرة وهو محمول على الأكتاف لعجزه عن الركوب في المحفة، فمات ليلة الجمعة خامس عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة.

وكان ملكًا شابًا حسنًا، شجاعًا مقدامًا، كريمًا ساكنًا، وعنده أدب وحشمة ملوكية، خليقًا للسلطنة،

وسك العملة في بلاد التركمان باسم السلطان المؤيد شيخ المحمودي، وظل إبراهيم الصارمى في هذه البلاد حتى استقرت أوضاعها وضم إليها مدنًا مهمة مثل أذنة وطرسوس، وعين عليها نائبًا من قبله (1).

وبعد أن نجح إبراهيم في تحقيق سيطرة الدولة المملوكية على مناطق التركمان، فإنه عاد إلى مصر وسط مظاهر الاحتفال والفرحة بعودته ظافرًا وفى ركابه العديد من الأسرى والغنائم التى اصطحبها معه، ولم يكد يستقر حتى وافته المنية في العام التالي، وربما كان السبب هو أن أباه المؤيد شيخ قد حسده على المكانة التى نالها بين عامة الناس وبين أمراء المماليك بعد الانتصارات التى حققها، والتى أدت إلى علو شأنه وارتفاع مكانته، فدبر له مؤامرة قضت عليه (2).

سلطنة المظفر أبي السعادات أحمد بن المؤيد شيخ 842 هـ:

ولم يلبث السلطان المؤيد شيخ المحمودى كثيرًا بعد وفاة ابنه إبراهيم إذ دهمه المرض، ووافته المنية في أوائل 824 هـ / 1421م، فاختير للخلافة ابنه أبو السعادات أحمد ولقبوه بالمظفر (3)، وكان مايزال

وكان يميل إلى الخير والعدل والعفة عن أموال الرعية، إلا أنه كان مسرفًا على نفسه، سامحه الله ومات وسنه نيف على عشرين سنة، وأمه أم ولد، ماتت قبل سلطنة والده، رحمه الله تعالى، وعفا عنه. أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 13- 14.

(1) العسقلاني، إنباء الغمر، 7 / 343- 356.

(2) العسقلاني، إنباء الغمر، 7 / 343- 356.

(3) أحمد بن شيخ، الملك المظفر أبو السعادات ابن السلطان الملك المؤيد وهو أبو النصر شيخ المحمودى الظاهري. تولى الملك المظفر السلطنة يوم مات أبوه الملك المؤيد بعهد منه، يوم الاثنين تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وعمر المظفر إذ ذاك سنة واحدة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وأمه خوند سعادات بنت الأمير صرغتمش، أحد أمراء دمشق، ولما استقر المذكور في السلطنة تولى الأمير ططر، أمير مجلس، تدبير ملكه، وأخذ ططر وأعطى، وقرب وأبعد في المملكة، مع طيش وخفة وإسراف مفرط، إلى أن حسن بباله أن يتجرد الملك المظفر إلى نحو البلاد الشامية، فتجرد به إلى أن وصل إلى حلب، بعد أن وقع له بدمشق أمور وحوادث مع الأتابكى ألطنبغا القرمشى وغيره، ثم مع الأمير جقمق الأرغون شاوى الدوادار، نائب دمشق، ثم عاد ططر من حلب إلى دمشق، وصحبته الملك المظفر المذكور وكان ططر قد تزوج بأم الملك المظفر هذا

رضيعًا لم يفطم، وجعل أمراء المماليك عليه الأمير ططر [1] وصيًّا

خوند سعادات، لمعنى من المعاني. فلما استقر بدمشق قبض على جماعة من الأمراء من المؤيدية، وأنعم باقطاعاتهم على إخوانه وحفدته، وصفا له الوقت.

وأخذ يدبر في خلع المظفر وسلطنة نفسه، وتسلطن ططر، ولقب بالملك الظاهر، وذلك في يوم تاسع وعشرين شهر شعبان من سنة أربع وعشرين وثمانمائة، ثم سافر بالملك المظفر عائدًا إلى ديار مصر بعد أن طلق أمه خوند سعادات، إلى أن وصل إلى القاهرة، حبسه بالدور مدة، ثم نقل الملك المظفر مع أخيه الصغير إلى الإسكندرية فسجنا بها إلى أن ماتا بالطاعون.

وكانت وفاة الملك المظفر بالإسكندرية في ليلة الخميس آخر جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، ودفنا بالثغر، ثم نقلا بعد مدة إلى القاهرة، ودفنا عند والدهما بالقبة من الجامع المؤيدي، يعنى المظفر وأخاه.

وكان الملك المظفر ذا شكل حسن إلى الغاية، إلا أنه كان بعينيه حَوَلٌ فاحش، حصل له ذلك عند سلطنته، وهو أنه لما تسلطن استوحش من مرضعته وبكى، فأجلست بجانبه، ثم دقت الكوسات على غفلة، فارتعب من ذلك وحصل بعينيه خلل، ولم يلتفت إلى هذا المعنى إذ ذاك لكثرة الغوغاء، ولم يفطن به إلا بعد مدة طويلة.

قلت: أفادته السلطنة الحول والحبس إلى أن توفي، فكل هذا من سوء تدبير والده، حيث جعل العهد في هذا الطفل، وهو أحد من نازع ابن أستاذه الملك الناصر فرج في الملك، مع ما كان الناصر عليه من الفروسية والكرم وكثرة مماليك والده الملك الظاهر برقرق، ولازال عليه المؤيد إلى أن خلعه من السلطنة وقتله، حسبما سنذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى، فكيف المؤيد بعد ذلك يسلطن ولده المظفر هذا مع صغر سنه وضعف حاله، فإن مماليكه ليست في الكثرة كمماليك برقوق، ولا سن هذا الملك الناصر فرج، ولا حرمته كحرمته، وما أظن هذا الأمر إلا من مهملات الضعف والغلبة. انتهى. أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 59 -60.

(1) ططر بن عبد الله الظاهري، السلطان الملك الظاهر أبو الفتح سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية.

كان من جملة مماليك الملك الظاهر برقوق، وممن انضم على الأمير ونوروز في الدولة الناصرية فرج، بعد موت الأمير جكم بن عوض. فإنه كان أولاً توجه إلى " جكم " وأقام عنده، فلما قتل جكم انضم على شيخ ونوروز ودام معهما، إلى أن قتل الملك الناصر فرج، ودخل الأمير شيخ المحمودى صحبة السلطان والخليفة المستعين بالله العباسى إلى الديار المصرية، قدم معه ططر المذكور وتأمر بعد سلطنة الملك المؤيد. ولا زال يترقى حتى صار أمير مائة. ومقدم ألف بالديار المصرية.

ولما توجه الملك المؤيد لقتال قانى باى المحمدى نائب الشام، في سنة ثمانى عشرة وثمانمائة، جعل ططر هذا نائب الغيبة بالديار المصرية، وسكن باب السلسلة إلى أن عاد الملك المؤيد إلى القاهرة، وأخلع عليه بعد مدة، في يوم الخميس العشرين من شهر رجب سنة عشرين وثمانمائة، باستقراره رأس نوبة النوب، عوضًا عن بردبك قصقا بحكم انتقاله إلى نيابة طرابلس.

واستمر ططر على ذلك إلى سنة إحدى وعشرين، استقر في إمرة مجلس، واستقر عوضه رأس نوبة النوب الأمير ألطنبغا من عبد الواحد المعروف بالصغير. فدام ططر على ذلك إلى أن مرض الملك المؤيد ومات، بعد أن أوصى إليه بالتكلم على ابنه الملك المظفر أحمد بن شيخ، هو والأتابك ألطنبغا القرمشى والأمير قجقار القردمي، وأن يكون التحدث في أمور الدولة للأمير الكبير ألطنبغا القرمشي، وكان القرمشى في التجريدة بالبلاد الشامية.

فلما مات الملك المؤيد، قبض ططر على قجقار القردمي، وصار هو المتكلم في المملكة. وأنعم على جماعة الملك المؤيد بإقطاعات الأمراء الذين في التجريدة، حتى تم له الأمر والتكلم، وأخذ وأعطى، حتى ورد عليه الخبر بعصيان الأمير جقمق الأرغون شاوى الدوادار نائب الشام، وأنه بعث يستميل الأمير الكبير ألطنبغا القرمشى بمن معه، وأنه مال إليه، وقدم دمشق بعد ما قتل يشبك نائب حلب، ووقع بينهما فتنة أدت إلى الحرب، وانكسر جقمق.

وكان ططر قد عزم على خروج الملك المظفر إلى البلاد الشامية، فعند ذلك أنفق في المماليك السلطانية لكل مملوك مائة دينار. وخرج بالسلطان والخليفة والقضاة والعساكر المصرية على العادة، في يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وثمانمائة. فعندما قارب ططر دمشق، خرج منها الأتابك ألطنبغا القرمشى لتلقيه، والتقيا، فأكرمه ططر، ومشى القرمشى على يمين السلطان الملك المظفر وططر عن يساره، حتى دخل الجميع إلى دمشق، في يوم الأحد خامس عشر جمادى الأولى. وطلعوا إلى قلعة دمشق، في ساعة استقرارهم بالقلعة، قبض الأمير ططر على الأتابك ألطنبغا القرمشي، وعلى الأمير ألطنبغا المرقبى حاجب الحجاب، وعلى الأمير جرباش، وعلى الأمير أردبغا أحد الألوف بدمشق، وعلى الأمير بدر الدين حسن ابن محب الدين الأستادار كان. ثم أصبح من الغد يوم الاثنين، أخلع على الأمير تنبك العلائى الظاهرى المعروف بميق باستقراره في نيابة دمشق، عوضًا عن جقمق الأرغون شاوي، وعلى الأمير إينال الجكمى رأس نوبة النوب باستقراره في نيابة حلب، عوضًا عن ألطنبغا الصغير الذى ولاه القرمشى بعد قتل يشبك المؤيدي، وعلى الأمير يونس الركنى أتابك دمشق باستقراره في نيابة غزة، عوضًا عن أركماس الجلبانى بحكم استقرار الجلبانى في نيابة طرابلس، عوضًا عن شاهين الزردكاش، ثم أرسل الأمير ططر بجماعة من الأمراء إلى قلعة صرخد في طلب جقمق نائب الشام.

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر، فيه قدم جماعة من الأمراء، الذين كانوا تسحبوا بعد وقعة قانى باى نائب الشام إلى قرا يوسف، خوفًا من الملك المؤيد شيخ وهم: الأمير طرباى نائب غزة كان، والأمير سودون بن عبد الرحمن نائب طرابلس كان، والأمير تنبك البجاسى نائب حماة كان، والأمير يشبك الجكمى الدوادار الثانى كان، والأمير جانبك الحمزاوى نائب طرسوس كان. فرحب بهم الأمير ططر وأخلع عليهم، ثم توجه ططر بالسلطان إلى حلب ودخلها وأقام بها نيفًا وأربعين يومًا، وعزل نائبها الأمير إينال الجكمى بالأمير تغري بردي الأقبغاوى المؤيدى المعروف بأخى قصروة، ثم خرج ططر من حلب عائدًا إلى دمشق في يوم الإثنين ثانى عشر شعبان، فدخل دمشق في يوم السبت عشرين شعبان في خدمة الملك المظفر أحمد بن شيخ.

وكان ططر قد تزوج بوالدة الملك المظفر خوند سعادات، بعد خروجه من الديار المصرية، فاستمر ططر بدمشق إلى يوم الأربعاء ثامن وعشرين شعبان المذكور، وطلع الأمراء إلى الخدمة على

وأتابكًا، وكان أمير مجلس وليس نائب السلطنة ولا أتابكيًّا، ولم يكن ططر هو أكبر الأمراء المماليك، ولكن كان هناك من كان أكبر منه سنًّا ومقامًا وأكثر منه مماليك وتابعين، وهو الأمير الطنبغا القرمشي [1]

العادة، فلما تكامل حضور الأمراء أمر الأتابك ططر بالقبض على من يذكر من الأمراء المؤيدية، فقبض عليهم وهم: الأمير عليّ باى المؤيدى الدوادار الكبير، وعليّ مغلباى الساقى المؤيدى أحد أمراء الطبلخاناة، ثم على الأمير إينال الأزعري حاجب الحجاب بالديار المصرية، ثم على إينال الجكمى نائب حلب، وقد استقر أمير سلاح، وعلى سودون اللكاشى أحد مقدمى الألوف بالقاهرة، وعلى جلبان أمير آخور أحد مقدمى الألوف بالقاهرة أيضًا، وهما ممن كانا في التجريدة صحبة ألطنبغا القرمشي، وعلى الأمير يشبك أنالى المؤيدى رأس نوبة النوب، وأنالى يعنى له أم باللغة التركية، وعلى الأمير أزدمر الناصرى أحد المقدمين بالقاهرة أيضًا.

ثم عزم الأتابك ططر على خلع الملك المظفر، فخلعه في تاسع وعشرين شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة، فكانت مدة ملكه سبعة أشهر وعشرين يومًا.

وتسلطن ططر، ولقب بالملك الظاهر أبى الفتح، وجلس على تخت الملك بالخلعة الخليفية في يوم الجمعة تاسع وعشرين شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة، الموافق له يوم نوروز القبط، وخطب له في يومه، وكتب بذلك إلى الأمصار، واستمر إلى يوم الإثنين ثالث شهر رمضان خلع على الأمير برسباى الدقمامي، أعنى الأشرف، واستقر دوادارًا كبيرًا، عوضًا عن على باى المؤيدي، وعلى الأمير طرباى باستقراره حاجب الحجاب، عوضًا عن إينال الأزعري، وعلى يشبك الجكمى الدوادار كان باستقراره أمير أخورًا كبيرًا، عوضًا عن تغري بردي الأقبغاوى المؤيدى المعروف بأخى قصروه.

أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 50- 51.

(1) ألطنبغا بن عبد الله القرمشى الظاهرى الأتابكي، الأمير علاء الدين. هو من مماليك الملك الظاهر برقوق، وتقلب مع الأمير شيخ المحمودى بالبلاد الشامية في أيام تلك الفتن، وصار من جملة أمراء دمشق لما ولي نيابتها الأمير شيخ المذكور ثم صار حاجب الحجاب بحلب لما وليها أيضًا الأمير شيخ، واستمر ملازمًا للأمير شيخ إلى أن تسلطن ولقب بالملك المؤيد جعله أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية، ثم ولاه الأمير آخورية، بعد انتقال الأمير قانى باى المحمدى منها إلى نيابة دمشق، فاستمر على ذلك مدة إلى أن استقر أتابك العساكر بالديار المصرية، بعد الأمير ألطنبغا العثماني، بحكم انتقال العثمانى إلى نيابة دمشق، بعد خروج نائبها قانباى المحمدى عن الطاعة، وذلك في سنة عشرين وثمانمائة.

وعظم ألطنبغا القرمشى هذا في الدولة، وضخم، وصار له حرمة وافرة وأبهة زائدة، وأقام على ذلك إلى سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، ندبه الملك المؤيد إلى التوجه إلى البلاد الشامية، مقدمًا على العساكر المجردين إليها؛ فخرج من القاهرة في عدة من الأمراء مقدمى الألوف، وهم: الأمير طوغان أمير آخور، والأمير ألطنبغا من عبد الواحد رأس نوبة النوب المعروفة بالصغير، والأمير أزدمر الناصري، والأمير جلبان، الذى هو الآن نائب دمشق، والأمير سودن اللكاشي.

وكــان قــد أرســل علــى رأس حملــة عسكرية لتأديـب بعـض الخـارجين فــي

وأسر المؤيد إلى الأمير ألطنبغا بالقبض على الأمير يشبك اليوسفي نائب حلب، عند وصوله إلى حلب- على ما قيل- وتوجهت العساكر إلى حيث قصدهم، ودخلوا حلب في سنة أربع وعشرين، وأقاموا بها، فاستوحش الأمير يشبك نائب حلب منهم في الباطن، ولم يجسروا عليه. فبينما هم كذلك، إذ ورد عليهم الخبر بموت الملك المؤيد، واضطربت الأمراء المجردون؛ فعزم الأمير الكبير ألطنبغا القرمشي على العود إلى الديار المصرية، وبرز بمن معه إلى ظاهر حلب، وخرجوا من باب المقام، وبلغ ذلك يشبك نائب حلب- وكان لم يخرج لتوديعهم- فلبس آلة الحرب، وركب في إثرهم بعسكره، فأدركهم بالسعدي.

فلما رآه الأمراء المصريون، رجعوا عليه، وتقاتلوا معه ساعة، فانكسر يشبك، وقطع رأسه في الوقت، وعاد الأمير ألطنبغا القرمشي بمن معه من الأمراء إلى حلب، ونزل بدار السعادة. ومن غريب ما اتفق أن الأمير يشبك المذكور، كان قد أخر سماط الغذاء حتى يعود من قتاله ويأكله، فقتل ودخل القرمشي بمن معه، ومد السماط بين أيديهم، فأكلوه.

واستمر القرمشي بحلب إلى أن ولي نيابة حلب للأمير ألطنبغا الصغير وعاد إلى دمشق، واتفق مع الأمير جقمق الأرغون شاوى نائب دمشق على قتال الأمراء المصريين؛ لمخالفتهم لما أوصى به الملك المؤيد قبل موته.

وكانت وصية المؤيد: أن يكون ابنه المظفر أحمد سلطانًا، وأن يكون الأمير ألطنبغا القرمشي هذا هو المتحدث في المملكة، فخالف ذلك الأمير ططر، وصار هو المتحدث، وأخذ وأعطى، وأخرج إقطاعات الأمراء المجردين صحبة الأمير ألطنبغا القرمشي، وتجرد بالملك المظفر إلى جهة البلاد الشامية، ثم وقع بين القرمشي وبين جقمق نائب الشام وحشة، ولبس كل منهما وتقاتلا ساعة، وانكسر جقمق، وتوجه منهزمًا إلى قلعة صرخد، ودام القرمشي بدمشق، إلى أن قارب الأمير ططر، والسلطان الملك المظفر دمشق خرج القرمشي إلى لقاء السلطان وخلع عليه وعاد في خدمة السلطان إلى دمشق، ودخلوها في شهر جمادى الأولى من سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وطلع الأمراء صحبة السلطان إلى قلعة دمشق؛ فعند ذلك أمر الأمير ططر بالقبض على الأمير ألطنبغا القرمشي صاحب الترجمة؛ فقبض عليه وعلى جماعة من الأمراء ممن كان مع القرمشي، وكان ذلك آخر العهد به، وقتل في الشهر المذكور، وصلى عليه، ودفن بتربة الأمير ألطنبغا الجوباني- المتقدم ذكره- في باب المصلى.

وكان أميرًا جليلاً محترمًا، وقورًا ساكنًا، عاقلاً، مقربًا عند الملك المؤيد شيخ إلى الغاية، وكان يسلك في أتابكيته طريق السلف من عظماء الأمراء في الحشم، وكثرة المماليك، والأسمطة الهائلة وغير ذلك. وكان دمث الأخلاق سخيًا، حلو المحاضرة، متواضعًا مع علو منزلته في الدولة المؤيدية وكان سليم الباطن، مقاصده جميلة، كثير الصدقة والبر للفقراء، فجع في ولده الأمير ناصر الدين محمد- أحد أمراء الطبلخاناة- قبل موته في سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة. وبالجملة لم تر عيني في الضخامة أميرًا من بعده مثله، رحمه الله تعالى. أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، 1 / 213- 214.

الشام، وكان المؤيد شيخًا قد عهد إليه الوصاية على بنه المظفر من بعده، ولكنه لما كان خارج البلاد فاستغل ططر الفرصة وتولى هو مقاليد الأمور، فثار الطنبغا القرمشي واستقل بما تحت يده من بلاد الشام، فترقى حينئذ ططر إلى منصب الأتابكية بمصر، وتزوج أرملة المؤيد شيخ أم السلطان الرضيع، وجهز حملة عسكرية كبيرة وخرج بها لتأديب الطنبغا القرمشي، وحمل معه في ركابه زوجته و السلطان الرضيع المظفر، فتمكن من القضاء على فتنة الطنبغا القرمشي [1].

سلطنة الظاهر ططر 824هـ:

بعد إن نجح ططر في القضاء على فتنة الطنبغا القرمشي صفا له الجو ولم يعد له منافسون يخشى جانبهم، كما أن السلطان ما يزال صغيرًا، وهو بطبيعة الأمر لم يكن له من الأمر شيء، فقام بطلاق أرملة المؤيد شيخ - أم السلطان الرضيع -، ثم أعلن نفسه من دمشق سلطانًا على دولة المماليك، وما يتبعها من أقاليم ومدن، وبايعه الخليفة والقضاة والأمراء على ذلك في العام 824 هـ / 1421م، وتم إعلان خلع السلطان الطفل المظفر أحمد، بعد أن قضى في السلطنة نحو من ثمانية أشهر، حيث ألقى في غياهب السجون حتى قتل وهو في العاشرة من عمره [2].

ولم يدم ملك الظاهر ططر طويلاً إذ دهمه المرض وهو في طريق عودته من الشام إلى مصر، وما لبث أن توفى في نفس عام توليته السلطنة، وقيل: إن أرملته زوجة المؤيد شيخ السابقة قد دست له من قتله [3].

سلطنة الصالح ناصر الدين محمد بن ططر 824 - 825 هـ:

بويع بالسلطنة بعد وفاة أبيه عام 824 هـ [4] وهو لم يتجاوز العشرة من عمره،

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 213- 214.
(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 59- 60.
(3) أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 2 / 50- 51.
(4) محمد بن ططر الصالح بن الظاهر أبى الفتح، وأمه ابنة سودون الفقيه. استقر وهو ابن تسع سنين

ولقبوه بالملك الصالح ناصر الدين، وجعلوا أتابكًا له الأمير جانى بك الصوفى [1]، وصار جانى هو المتصرف في شؤون المملكة، فحقد عليه الكثير

بعد موت أبيه بعهد منه في يوم الأحد خامس ذى الحجة سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وتولى الأتابك جانبك الصوفى تدبير المملكة فلم يلبث أن قبض على جانبك وصار التكلم لبرسباى الدقماق فدام أشهرًا ثم خلع هذا وتسلطن ولقب بالأشرف وذلك في يوم الأربعاء ثامن ربيع الآخر سنة خمس وعشرين، ولزم الصالح داره بالقلعة عند أمه من غير حافظ له بل كان يمشى في القلعة حيث شاء، وربما يجيء للناصرى محمد بن الأشرف بل كان يركب معه بالقاهرة ويكون على ميمنته كآحاد من في خدمته، وكانا متقاربين في السن، وعنده نوع بله وخفة وطيش، وقيل: إنه كان لبلهه يسمى الفرس البوز الفرس الأبيض فنهاه بعض أتباعه وقال له: قل فرسى البوز فاتفق أنه رأى في بعض الأيام سلطانية صينى بيضاء هائلة شفافة فسماها السلطانية البوز فليم فيه، فقال لأنه علمنيه إلى غير هذا، ولما كبر زوجه الأشرف ابنة الأتابك يشبك الساقى الأعرج واستمرت تحته حتى مات بالطاعون في ليلة الخميس ثانى عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين. السخاوي، الضوء اللامع، 4 / 42.

(1) جاني بك الصوفى جانبك بن عبد الله الصوفى الظاهري، الأمير سيف الدين، أتابك العساكر بالديار المصرية. هو من مماليك الظاهر برقوق، وممن صار أمير مائة ومقدم ألف في دولة الملك الناصر فرج بن برقوق، ثم استقر رأس نوبة النوب في دولة الملك المؤيد شيخ، ثم نقله إلى إمرة مجلس، ثم إلى إمرة سلاح إلى أن قبض عليه وحبسه بثغر الإسكندرية في رابع عشر شهر رجب سنة ثمانى عشرة وثمانمائة.

واستمر محبوسًا إلى سنة إثنتين وعشرين وثمانمائة أفرج عنه الملك المؤيد، وأنعم عليه بإقطاع ولده المقام الصارمى إبراهيم بعد موته، فلم تطل أيامه، ومات الملك المؤيد شيخ في أول سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وتسلطن من بعده ولده الرضيع أحمد المظفر، وصار الأمير ططر مدبر المملكة أخلع على جانبك المذكور باستقراره أمير سلاح، عوضًا عن فجقار القردمي بعد القبض عليه، ثم صار أتابك العساكر بالديار المصرية بعد سلطنة ططر في شهر رمضان سنة أربع وعشرين وثمانمائة.

ولما مات الملك الظاهر ططر أوصى أن يكون جانبك الصوفى هذا مدبر مملكة ولده الملك الصالح محمد، فسكن جانبك المذكور بباب السلسلة من الإسطبل السلطاني بعد موت الظاهر ططر، فلم تطل مدته غير أيام وتغلب عليه الأميران برسباي الدقماقى الدوادار وطرباي حاجب الحجاب، وكثر الكلام بينهم حتى ركب الأتابك جانبك الصوفى في يوم عيد الأضحى بآلة الحرب، ولبس الأمراء الذين بقلعة الجبل، ولم تقع حرب بين الفريقين، بل تراموا بالسهام ساعة، ثم خمدت الفتنة، ومشى جماعة من الأمراء بينهم في الصلح، فنزل الأتابك من باب السلسلة إلى بيت الأمير بيبغا المظفري أمير سلاح لعمل المصالحة، ومعه الأمير يشبك الحكمي أمير آخور، فلما صارا في وسط حوش بين بيبغا قبض عليهما، وقيدا، وحملا إلى ثغر الإسكندرية، فحبسا بها في شهر ذى الحجة سنة أربع وعشرين وثمانمائة. فاستمر الأمير جانبك في حبس الإسكندرية إلى أن فر من حبسه في

سنة ست وعشرين وثمانمائة، وورد الخبر بتسحبه على الملك الأشرف في يوم الجمعة سابع شهر شعبان من السنة، ولما سمع الملك الأشرف برسباى بفراره من حبس الإسكندرية قلق لذلك، وقبض على جماعة من الأمراء، وعاقب جماعة من خاصكيته، واستمر هذا البلاء بالناس سنين عديدة، والسلطان حثيث الطلب عليه، والناس في شدة وبلاء من الكبس عليهم في بيوتهم على غفلة، والقبض على من اتهم أنه يعلم به، واستمر ما بين هلاك الشخص وبينه إلا أن يقال: جانبك الصوفى عند فلان، فيؤخذ ويعاقب، وطال هذا الأمر، وعم هذا جانبك الصوفى من حبس الإسكندرية، إلى أن ظهر خبره أنه توجه إلى بلاد الشرق سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، ونزل عند الأمير ناصر الدين بك محمد بن دلغادر، فلما تحقق الملك الأشرف هذا الخبر أرسل الأمير شادبك الجكمي رأس نوبه إلى الأمير ناصر الدين بك بطلب جانبك الصوفى منه، وتمكينه من القبض عليه، وعوده به إلى الديار المصرية، فسافر شاد بك إلى ابن دلغادر المذكور وصحبته الهدايا والتحف حتى وصل إليه، وسأله فيما ندب بسببه، فصار يسوف به من وقت إلى وقت بعد أن أخذ جميع ما جاء به من الهدايا طائل، بعد ما قاسى من شدة البرد والثلوج ما لا مزيد عليه، فتأكدت الوحشة بين الملك الأشرف وبين ابن دلغار بسبب جانبك الصوفي، فجهز إليه عسكرًا من الديار المصرية، ومقدم العسكر الأتابك جقمق العلائي، أعنى الملك الظاهر وصحبته جماعة أخر من الأمراء، وساروا من الديار المصرية حتى وصلوا إلى حلب خرج معهم، نائبها الأمير تغرى برمش بعساكر حلب وجموع التركمان، ونزلوا بظاهر حلب، فجاءهم الخبر بمجيء الأمير جانبك الصوفى إلى عينتاب، وكان قد هرب إليه جماعة من أمراء حلب وغيرها قبل وصول العسكر المصرى إليها. وكان الأمير خجا سودون أحد مقدمي الألوف بديار مصر خرج من حلب قبل تاريخه ونزل بالقرب من عينتاب، فوقع بينه وبين أعوان جانبك الصوفى وقعة هائلة انهزم فيها عسكر جانبك، وقبض على الأمير قرمش الأعور، الذى كان أولاً أتابك حلب، ثم صار من جملة مقدمى الألوف بالقاهرة، ثم قبض عليه الأشرف وحبسه، ثم صار من جملة مقدمى الألوف بالقاهرة، ثم قبض عليه الأشرف وحبسه، ثم أطلقه، وجعله من جملة المقدمين بدمشق، فلما عصى الأمير تنبك البجاسى نائب الشام على الملك الأشرف وافقه قرمش هذا على العصيان، فلما انهزم تنبك البجاسى وقبض عليه فر قرمش واختفى إلى أن انضم على الأمير جانبك الصوفي، لما صار جانبك عند ناصر الدين بك بن دلغادر، وقبض أيضًا على الأمير كمشبغا المعروف بأمير عشرة، أحد أمراء حلب، وأمسك معهم جماعة من المماليك والتركمان، وجيء بالجميع إلى حلب وحبسوا بقلعتها، وكاتب الأمراء السلطان بذلك، فعاد المرسوم بقتلهم أجمعين، فقتلوا وعلقوا باب قلعة حلب في أوائل سنة أربعين وثمانمائة. ثم توجهت العساكر المصرية والحلبية من حلب إلى جهة إبلستين لقتال ناصر الدين بك بن دلغادر والأمير جانبك الصوفي. فساروا إلى أن وصلوا إلى مدينة سيواس، بعد أن أخرجوا ابن دلغادر وجانبك الصوفى من إبلستين وشتت شملهما، ولما وقع لابن دلغادر ما وقع من تغربه عن وطنه، وخراب غالب بلاده ندم ندمًا كثيرًا، وصار لا يمكنه استدراك فرطه، فإنه كان زوج الأمير جانبك الصوفى بإحدى بناته وولدت منه بنتًا، فضم إليه ولده سليمان بن ناصر الدين بك، ثم انعزل هو عنهما، فأخذهما الأمير تغرى برمش نائب حلب من دأبه، حتى ضيق عليهما واسع الفضاء، وطال الأمر على جانبك الصوفى فتوجه إلى ديار بكر عند بعض أولاد قرايلك والتجأ إليه، فلم تطل مدته عنده.

من الأمراء هذه المنزلة والمكانة، ونازعوه السيطرة على السلطان الصغير، وكان الذى تولى كبر هذه الحركة الأمير الأشرف برسباى الدقماقى الدوادار، وتمكن هؤلاء من انتزاع السيطرة من جانى بك، وألقوا القبض عليه وألقوه في السجن، وآل الأمر وفي المملكة الوصاية على السلطان الصغير للأمير برسباي. الذى شعر بالقوة والمنعة بعد أن تخلص من معظم المناوئين له، ووجد الفرصة سانحة للوثوب على السلطنة فلم يتأخر عن اغتنامها، فجمع الأمراء والخليفة والقضاة وأهل الحل والعقد في الدولة وخلع السلطان الطفل وتبوأ مكانه وأشهدهم على ذلك فأقروا فعله سنة 825 هـ [1].

الملك الأشرف برسباى 825 - 841 هـ:

تقلب الأشرف برسباى [2] في وظائف عدة وانتقل من الرق إلى السلطنة في

ومات في يوم الجمعة خامس وعشرين شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وسنه نيف على خمسين سنة تخمينًا، أو مناهز الستين.

ولما مات قطع رأسه وجيء به إلى الديار المصرية، فحمل على رمح ونودي عليه، وعلق على بعض أبواب القاهرة.

واختلفت الأقاويل في موته، فمنهم من يقول: أن ابن قرايلك قتله تقربًا لخاطر الملك الأشرف برسباي، وهو بعيد، ومنهم من يقول أنه مات بالطاعون، فلما رأى ابن قرايلك أنه قد فرط فيه الفرط بالموت قطع رأسه وبعث به إلى الأشرف، وهذا هو الأقرب. المتداول بين الناس، .

وكان جانبك الصوفى أميرًا جليلاً، معظمًا في الدول، طوالاً، جميلاً، مليح الشكل، إلا أنه كان قليل السعادة إلى الغاية، حبس بثغر الإسكندرية غير مرة، حتى إن مجموع أيام إمارته لو حصرت كانت نحو ثلاث سنين لا غير، وباقى عمره كان في الحبوس أو مشتتًا في البلاد، وطال خموله في الدولة الأشرفية لما كان مختفيًا، وقاسى خطوب الدهر ألوانًا، ورأى الأهوال. أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 375- 377.

(1) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، 3 / 5.

(2) الملك الأشرف برسباى بن عبد الله، السلطان الملك الأشرف أبو النصر الدقماقى الظاهرى الجاركسي، سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية. الثانى والثلاثون من ملوك الترك، والثامن من ملوك الجراكسة. أخذ من بلاد الجاركس، وأبيع بالقرم، ودام بمدينة قرم مدة إلى أن اشتراه بعض التجار، وقدم به إلى جهة البلاد الشامية.

فلما وصل به إلى مدينة ملطية اشتراه نائبها الأمير دقماق المحمدى منه، ودام عند الأمير دقماق المذكور مدة يسيرة، وأرسله إلى الملك الظاهر برقوق في جملة مماليك أخر مع تقدمة هائلة، فأخذه الملك الظاهر، فأقام من جملة مماليك الأطباق الكتابية مدة يسيرة، وأخرج له السلطان خيلاً، وأعتقه

في جملة مماليك أخر. وتنقلت به الأيام إلى أن صار ساقيًا في دولة الناصر فرج، ثم انحرف إلى جهة الأميرين شيخ ونوروز، وصار معهما إلى أن قتل الملك الناصر فرج، وقدم صحبة الأمير شيخ المحمودى إلى الديار المصرية، وصار من جملة الأمراء بها.

ولا زال يترقى إلى أن صار أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية، وتولى كشف الجسور بأعمال الغربية. ثم ولى نيابة طرابلس بعد عزل الأمير بردبك الخليلي في ثالث وعشرين ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، إلى أواخر شهر رمضان من السنة المذكور عزل عنها؛ ورسم بعزله والقبض عليه وحبسه بالمرقب، إلى أن أطلقه الملك المؤيد، وجعله أمير مائة ومقدم ألف بدمشق، فدام بدمشق إلى أن قبض عليه نائبها الأمير جقمق الأرغون شاوى الدوادار، بعد موت المؤيد وخروجه عن الطاعة، فدام في السجن إلى أن أطلقه الملك الظاهر ططر، وهو إذ ذلك مدبر مملكة الملك المظفر أحمد بن الملك المؤيد شيخ، ثم أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف، ثم جعله دوادارًا كبيرًا بعد مسك الأمير على باي.

كل ذلك في أيام قلائل في سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وعاد إلى الديار المصرية صحبة الملك الظاهر ططر، فلم يقم بالقاهرة إلا أشهرًا، ومرض الظاهر ططر ومات، وصار الأتابك جانبك الصوفى مدبر مملكة الملك الصالح محمد بن الملك الظاهر ططر. وصار الأمير برسباى هذا والأمير طرباى حزبًا واحدًا، وكثر الكلام بين الأميرين وبين الأتابك جانبك الصوفي، إلى أن لبس الأتابك جانبك آلة الحرب، وركب من باب السلسلة، ووافقه على الركوب الأمير يشبك اجلكمى أمير آخور. فلم يكن غير ساعة وخدع، وأنزل إلى بيت الأمير بيبغا المظفري- تجاه باب السلسلة- ومعه الأمير يشبك المذكور، وقبض عليهما، وحملا إلى ثغر الإسكندرية، وحبسا بها.

وصفا الوقت إلى الأمير برسباى وطرباي، وصار أمر المملكة لهما. واستمرا على ذلك مدة يسيرة، ووقع بينهما، وكثر الكلام في هذا المعنى، ... إلى أن أرسل برسباى بجماعة من الأمراء إلى طرباى، وقبض عليه هو والأمير تغري بردي المحمودي، وحمل إلى السجن من ساعته، وقد تضمخ بدمه، فوقعت هجة بالقصر، وتكسر لنصرة طرباي، ثم أخرج من الغد إلى الإسكندرية، وصفا الوقت للأمير برسباي، وأخذ في أسباب سلطنته، وبويع بالسلطنة ثم وافقه على ذلك جماعة الأمراء وغيرهم، وخلع الملك الصالح محمد بن ططر، فكانت مدة سلطنته أربعة أشهر وثلاثة أيام، ولما كان يوم الأربعاء، ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة طلب الخليفة المعتضد بالله أبو الفتح داود، والقضاة الأربعة إلى القلعة؛ فحضروا، وقد جمع الأمراء وأرباب الدولة، فبايعه الخليفة والقضاة، ثم الأمراء على مراتبهم، وفوضت عليه خلعة السلطنة، وجلس على تخت الملك، وقبلت الأمراء الأرض، ونعت بالملك الأشرف أبي العز، ثم غير كنيته بأبي النصر.

ونودى بذلك في القاهرة، وكتب بذلك إلى الأقطار، وتم أمره، وساس الملك أحسن سياسة بالنسبة إلى غيره، ونالته السعادة، وفتحت في أيامه عدة فتوحات، وجهز العساكر إلى أخذ قبرص في سنة ثمان وعشرين.

ثم جهز عسكرًا آخر في سنة تسع وعشرين أعظم من ذلك العسكر، حتى كانوا فيما بين اللموسون والملاحة إذا هم بجينوس بن جاك متملك قبرص قد أقبل بمجموعة، والتقى مع العساكر الإسلامية؛ فكانت بين الفريقين حروب شديدة، انجلت عن وقوعه في الأسر، بأمر من عند الله يتعجب منه. ولله

الحمد.
ولما وقع جينوس متملك قبرص في أسرهم وانهزم جيشه وأسرت جماعة من فرسانه، أكثر المسلمون من القتل والأسر، وانهزم بقية الفرنج، ووجد معهم طائفة من التركمان المسلمين قد أمدهم بهم على بك بن قرمان، فقتل كثيرًا منهم، ثم ركبوا عائدين بالأسرى والغنيمة وبصاحب قبرص إلى أن وصلوا إلى الثغور الإسلامية، ثم ساروا نحو القاهرة، فدخلوها في يوم الأحد سابع شهر شوال سنة تسع وعشرين وثمانمائة، ثم بعد ذلك جهز السلطان العساكر إلى جهة الشرق غير مرة، وفتح عدة قلاع بديار بكر وغيرها، وتجرد هو بنفسه في سنة ست وثلاثين وثمانمائة؛ فوصل إلى مدينة آمد من ديار بكر، وحصرها مدة طويلة، ثم عاد بعد أن بلغ بمدينة آمد الجهد.
فأول ما جهزه من العساكر إلى البلاد الشامية لما عصى الأمير تنبك البجاسي نائب دمشق سنة سبع وعشرين وثمانمائة، فتوجه إليه وقاتله حتى ظفر به، وحز رأسه، ثم جهز عسكرًا لغزو الفرنج في سنة سبع وعشرين نحو أربعة أغربة، ثم جهز عسكرًا ثانيًا لغزو قبرص في سنة ثمان وعشرين، ثم الغزوة الثالثة المتقدم ذكرها التي أخذ فيها جينوس ملك قبرص. ثم جهز عسكرًا إلى ديار بكر؛ لقتال الأمير عثمان ابن طرغى المدعو قرايلك في سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة؛ فتوجه العسكر المذكور لقتال قرايلك، فقاتلوه، وملكوا مدينة الرها، وصارت بيد الملك الأشرف إلى أن توفي. ثم سافر هو بنفسه إلى آمد في سنة ست وثلاثين، وعاد في أوائل سنة سبع وثلاثين بعد أن حصرها نحو خمسة وثلاثين يومًا، ثم رحل عنها لما بلغه عن أمرائه في الباطن.
ثم جهز عسكرًا في سنة تسع وثلاثين، ومقدم العسكر المذكور الملك الظاهر جقمق، فوصلوا إلى مدينة أرزنكان، ثم عادوا إلى ديار مصر في سنة أربعين وثمانمائة. ثم جهز عسكرًا آخر إلى أرزنكان في سنة إحدى وأربعين، ومقدمهم الأمير قرقماش الشعباني أمير سلاح، ومات الملك الأشرف والعسكر المذكور بتلك البلاد. وكان ابتداء مرضه من أوائل شعبان.
وقوى مرضه إلى أن توفي قبيل عصر يوم السبت ثالث عشر ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، وسنه نيف على الستين، بعد أن عهد بالسلطنة من بعده لولده الملك العزيز يوسف، وتسلطن ولده المذكور من يومه، ثم غسل الأشرف وصلى عليه بباب القلة من القلعة، ودفن بتربته التي أنشأها بالصحراء، قبيل المغرب، من يوم السبت المذكور، فكانت مدة سلطنته ست عشرة سنة، وثمانية شهور وخمسة أيام.
وكان- رحمه الله- ملكًا جليلاً، مهابًا، عارفًا، سيوسًا، حازمًا، شهمًا، فطنًا، له خبرة بالأمور، ومعرفة، وتدبير، محبًّا لجمع المال.
وكان يحب الاستكثار من المماليك حتى بلغت عدة من اشتراه من المماليك زيادة على ألفى نفر.
وكان يقدم ا لجراكسة على غيرهم من الأجناس، ويشره في جمع الخيول والجمال، وما أشبه ذلك.
وكان يتصدى للأحكام، ويباشر أحوال المملكة، غالبها بنفسه، وكان متواضعًا، حسن الخلق، غير سباب، لين الجانب، طوالاً، دقيقًا، ذا شيبة نيرة، وهيبة حسنة، متجملاً في حركاته، حريصًا على ناموس الملك.
وكان يميل إلى فعل الخير، ويكثر من الصوم، ولا يتعاطى شيئًا من المسكرات. وكانت أيامه في غاية الحسن من الأمن، والخير، ورخاء الأسعار، وعدم الفتن مع طول مكثه في السنة، وكان

خلال ذلك كله، وانتزع السلطنة وتلقب بالسلطان الأشرف، ومن أهم الأحداث في عهده غزوه لجزيرة قبرص، وكانت هجمات ملوك الجزيرة على سواحل المسلمين ودولة المماليك قد تعددت، ولم يستطع سلاطين المماليك فعل شيء إزاء هذه الاعتداءات إما لصغر سن هؤلاء السلاطين وعدم أهليتهم للتصرف في مثل هذه الأمور الجسام، أو لانشغال أمراء المماليك بالصراع على المناصب والإقطاعيات، وكانت أولى هجمات القبارصة على سواحل الدولة المملوكية - بعد طرد الصليبيين من آخر معاقلهم في بلاد الشام عكا سنة 690هـ / 1291م - تلك التى كانت سنة 767هـ / 1365م عندما هاجم بطرس لوزجنان ملك قبرص ثغر الإسكندرية وأوقع به القتل بين الناس والتخريب في المنشآت، ونهب الكثير من خيرات المدينة /، ثم فر هاربًا بما استطاع حمله.

وفى ظل عدم مقدرة المماليك الرد على هذه الهجمة، تكررت الهجمات على ثغور المسلمين فكانت إغارة القبارصة على طرابلس الشام عام سنة769هـ / 1367م، ثم تلتها الهجمة على الإسكندرية عام 770هـ / 1368م، ثم على طرابلس عام 804 هـ / 1401م، ثم مرة أخرى على طرابلس الشام عام 806هـ / 1403م، وفى كل تلك الهجمات كان القبارصة يهاجمون الشواطئ الإسلامية وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم، ويخربون ما استطاعوا تخريبه، ويحملون في طريق عودتهم الأسرى من المسلمين (1).

ومع بداية عهد الأشرف برسباي، قام القبارصة بتهديد شواطئ الإسكندرية

الأشرف- رحمه الله- مغرمًا بإنشاء العمائر، من ذلك: مدرسته الأشرفية التى أنشأها بخط العنبريين بين القصرين بالقاهرة على الشارع الأعظم، وعمر أوقافها، وجعل فيها عدة صوفية حنفية، وولى مشيختها للعلامة الشيخ كمال الدين ابن الهمام الحنفي، ثم بدا له بَعْدُ عمل صوفية ومدرس من كل مذهب.

وفى الجملة هو أعظم ملوك الجراكسة بعد الملك الظاهر برقوق، رحمهما الله تعالى.

أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 251- 255 باختصار.

(1) المقريزي، السلوك، 3 / 149، 175، سعيد عبد الفتاح عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص 84- 85.

وكثـر عبـث الإفـرنج بسـواحل المسـلمين، وأخـذوا مركبًـا لتجَّـار مـن مينـاء الإسكندرية فيها بضائع بنحو مائـة ألـف دينـار، فشق ذلك علـى الملك الأشرف إلى الغاية " [1].

وكان رد الأشرف برسباى علـى ذلك أن أرسل أكثر من حملـة علـى قبـرص، كانـت الأولـى منهـا عـام 827هـ / 1224م، وكانـت هذه الحملـة بمثابـة حملـة استطلاعية، الغرض منها استكشـاف طبيعـة الجزيـرة تمهيدًا لغزوهـا الفعلـي، حيث هاجمت الحملـة ثغر ليماسول وأشعلت النـار فيه ثم عـادت أدراجهـا إلـى مصر [2].

ثم كانت الحملـة الثانيـة فـي العـام التـالى مباشـرة فـي صـيف 828هـ / 1225م، حيـث قصـدت هـذه الحملـة مـوانئ قبـرص الشـمالية وأوقعـت الهزيمـة بـالقوات القبرصية، وتوغلت داخل الجزيـرة القبرصية، ثـم مـا لبثت أن غـادرت المدينـة قبل أن يتم الملك جانوس استعداداته لملاقاة القوات المملوكية [3].

ثم كانت الحملة الكبيرة التى هاجمت قبرص، تلك التى كانت في العام 829هـ / 1426م، فقد توجهت مباشرة إلى مينـاء ليماسول وهاجمتـه واستولوا عليـه بعد قتال دام ستة أيام، ثم توغلت إلى الـداخل القبرصـي، والتقـوا بـالقوات القبرصـية عند مدينـة خيروكيتـا - إلـى الشمال الشرقى مـن مينـاء ليماسـول - وأوقعـوا بهـا الهزيمة الساحقة، ووقع الملك جـانوس أسيرًا فـي قبضـة المماليك، ثـم واصـلت القـوات المملوكيـة زحفهـا ووصـلت إلـى نيقوسـيا عاصـمة الجزيـرة فاقتحموهـا وصلوا الجمعة في كنيستها، ثم غادروا المدينة بعد أن أشعلوا النيران في معظم

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 14 / 249- 250.
(2) أبـو المحاسـن بـن تغـري بـردي، المنهـل الصــافى والمسـتوفي بعـد الـوافي، 1 / 251- 255، العيني، عقد الجمان، 25 / 572.
(3) العسقلاني، إنباء الغمر، 8 / 70، أبـو المحاسن بـن تغري بردي، المنهل الصـافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 251- 255.

أحيائها [1].

ثم عادت الحملة المملوكية إلى مصر بعد أن حققت مرادها وكسرت العزيمة القبرصية عن مهاجمة الدولة المملوكية، وفى قبضتها الكثير من الأسرى منهم الملك جانوس ملك قبرص، ومن الغنائم ما لا يحصى ولا يعد، ولم يطلق جانوس من أسر المسلمين إلا بعد أن اعترف بسيادة سلطان المماليك على مملكته، ودفع فدية كبيرة في العام 830 هـ/ 1427م، وظلت سيطرة المماليك على تلك الجزيرة حتى سقوط دولة المماليك سنة 923هـ / 1517م [2].

وكان لهذا الانتصار الذى حققه الأشرف برسباى على الفرنجة رنة فرح كبيرة في العالم الإسلامي. يقول أبو المحاسن بن تغري بردي: "... ثم ركبوا عائدين بالأسرى والغنيمة وبصاحب قبرص إلى أن وصلوا إلى الثغور الإسلامية، ثم ساروا نحو القاهرة، فدخلوها في يوم الأحد سابع شهر شوال سنة تسع وعشرين وثمانمائة، وتكمل من دخولهم من الغد في يوم الاثنين، ونزلوا بالميدان من موردة الجبس، ثم مضوا سائرين في اليوم المذكور بمتملك قبرص والأسرى والغنائم، وقد اجتمع لرؤيتهم من الخلائق عالم لا يحصى عددهم إلا الله - عز وجل - ومروا بهم من الميدان على باب اللوق حتى خرجوا من المقس، ودخلوا من باب القنطرة إلى بين القصرين، وشقوا قصبة القاهرة إلى باب زويلة ومضوا إلى صليبة جامع ابن طولون، وأقبلوا من سويقة منعم إلى الرميلة إلى القلعة من باب المدرج.

وكانوا في مسيرهم هذا البعيد قد قدموا الفرسان من الغزاة والمجاهدين أمام الجميع ومن وراء الفرسان الرجالة من عشران البلاد الشامية، ومطوعة البلاد،

---

(1) المقريزي، السلوك، 4 / 718، - 722، العيني، عقد الجمان، 25 / 583، سعيد عبد الفتاح عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص 121- 126.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 251- 255، المقريزي، السلوك، 4 / 718، - 722، العيني، عقد الجمان، 25 / 583، سعيد عبد الفتاح عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص 121- 126.

وزعر القاهرة، ومن وراء هؤلاء الغنائم محمولة على رؤوس الرجال، وظهور الخيل، والبغال، والحمير، وفيها تاج الملك، وأعلامه، ورايته منكسة، وخيله تقاد من وراء الغنائم، والأسرى من الرجال، والنساء، والصبيان، وهم نحو ألف إنسان، ومن وراء الجميع جينوس الملك، وهو على بغل مقيد بالحديد، وأركب معه اثنان من خاصته، وركب الأميران إينال اجلكمى أمير مجلس عن يمينه، وتغرى بردى المحمودى رأس نوبة النوب عن يساره، حتى وصل الجميع إلى القلعة، أنزل جينوس عن مركبه، ثم كشف رأسه، وخر على وجهه إلى الأرض فقبلها، ثم قام ومشى إلى أن دخل إلى الحوش السلطاني، وهو يرفل في قيوده، وقبل الأرض أيضًا بين يدى السلطان.

وكان السلطان جالسًا في المقعد على باب البحرة، تجاه باب الحوش، وعنده أكابر الدولة من الأمراء والأعيان، وكان الشريف بركات بن عجلان أمير مكة حاضرًا، ورسل ابن عثمان متملك الروم، ورسل صاحب تونس من بلاد الغرب، ورسل صاحب عدن وغيرهم. كل هؤلاء اتفق حضورهم في هذا اليوم بالمقعد المذكور.

ولقد عاينت جينوس المذكور لما دخل من الحوش، ورأى تلك الأبهة والعظمة أغمى عليه، واستلقى على الأرض كالميت، ثم أفاق، وأعلامه منكسة أمامه، وعرضت الغنائم والأسرى على السلطان، ثم قدم جينوس بقيوده مكشوف الرأس، فخر على وجهه يعفره في التراب، ثم قام وقد أظهر من الخوف ما لا مزيد عليه، ثم أمر السلطان بتوجهه إلى منزل قد أعد له بالحوش، فكان هذا اليوم من الأيام التى لم نعهد بمثلها، ولا شاهدنا مثل هذا اليوم الذى عظم الله قدره بنصر المسلمين، وأعز الله فيه دينه، فلله الحمد على هذه النعمة.

ولما كان جينوس بين يدى الملك الأشرف على تلك الهيئة المذكورة، صارت دموع الأشرف تذرف، وهو يلهج بحمد الله وشكره.

ثم إن السلطان رتب له من الرواتب ما يكفيه في اليوم، إلى أن أطلقه وأعاده إلى

ملكه بعد أن ضرب عليه الجزية، واستمرت إلى يومنا هذا.

وفى هذا المعنى يقول صاحبنا الأديب البليغ زين الدين عبد الرحمن بن الخراط، أحد كتاب الإنشاء بالديار المصرية قصيدة أنشدها بين يدى السلطان بحضور أركان الدولة، وفرغ عليه بعد فراغها بالحضرة الشريفة، أولها:

بشراك يا ملك المليك الأشرف ::: بفتوح قبرص بالحسام المشرفي
فتح بشهر الصوم تم له فيا ::: لك أشرف في أشرفٍ في أشرف
فتح تفتحت السموات العلا ::: من أجله بالنصر واللطف الخفي
والله حف جنوده بملائكٍ ::: عاداتها التأييد وهو بها حفي
الأشرف السلطان أشرف مالكٍ ::: لولاه أنفس ملكه لم تشرف
هو مكتف بالله أحلم قادرٍ ::: راضٍ لآثار النبوة مقتفي
حامى حمى الحرمين بيت الله والـ ::: قبر الشريف لزائر ومطوف

والقصيدة ثلاثة وسبعون بيتًا، كلها على هذا النمط [1].

وفى عهد الأشرف برسباي، وقعت عدة أحداث كان أهمها طاعون سنة 833هـ، وآخر في العام 841هـ، وقد قام بعدة حملات إلى الشرق. يقول أبو المحاسن - مجملاً هذه الأحداث -: ".. ثم بعد ذلك جهز السلطان العساكر إلى جهة الشرق غير مرة، وفتح عدة قلاع بديار بكر وغيرها، وتجرد هو بنفسه في سنة ست وثلاثين وثمانمائة؛ فوصل إلى مدينة آمد من ديار بكر، وحصرها مدة طويلة، ثم عاد بعد أن بلغ بمدينة آمد الجهد، ثم جهز عسكرًا إلى ديار بكر؛ لقتال الأمير عثمان بن طرغى المدعو قرايلك في سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة؛ فتوجه العسكر المذكور لقتال قرايلك، فقاتلوه، وملكوا مدينة الرها، وصارت بيد الملك الأشرف إلى أن توفى.

ثم سافر هو بنفسه إلى آمد في سنة ست وثلاثين، وعاد في أوائل سنة سبع وثلاثين بعد أن حصرها نحو خمسة وثلاثين يومًا، ثم رحل عنها لما بلغه عن أمرائه في الباطن، ثم جهز عسكرًا في سنة تسع وثلاثين، ومقدم العسكر

---

(1) المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 254.

المذكور الملك الظاهر جقمق - وكان إذ ذاك أتابك العساكر - وصحبته أمراء أخر، فوصلوا إلى مدينة أرزنكان، ثم عادوا إلى ديار مصر في سنة أربعين وثمانمائة.

ثم جهز عسكرًا آخر إلى أرزنكان في سنة إحدى وأربعين، ومقدمهم الأمير قرقماس الشعبانى أمير سلاح، ومات الملك الأشرف والعسكر المذكور بتلك البلاد... "[1].

ولما مرض الأشرف برسباى اضطرب عقله واختلت أحكامه، حتى إنه أمر بقتل أطبائه الذين كانوا يشرفون على علاجه لاستعجاله في طلب الشفاء ومات سنة 841هـ / 1438م[2].

الملك العزيز يوسف بن برسباى 841 - 842هـ:

تولى الملك العزيز يوسف بن برسباى [3] السلطنة بعد أبيه بعهد منه، وجعل الأمير جقمق وصيًّا عليه، ولم يكن سن السلطان الجديد يتجاوز الرابعة عشرة من عمرة، وكان من المتعارف عليه - من تاريخ دولة المماليك - ألا يكون للسلطان الطفل من أمره شيء وكان المسيطر على مقاليد الأمور الأمير جقمق، فما لبث أن خلع هذا الطفل وعين نفسه مكانه، ولم يستطع أحد أن يعارض ذلك [4].

الملك الظاهر جقمق العلائى 842 - 857 هـ/1438 - 1453م:

---

(1) المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 251- 255 باختصار.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 255.

(3) الملك العزيز، يوسف بن برسباي.

يوسف بن برسباى الدقماقي، السلطان الملك العزيز أبو المحاسن بن السلطان الملك الأشرف أبى النصر. ولد سنة سبع وثمانمائة. وولى السلطنة في سادس عشر ذى الحجة سنة إحدى واربعين وثمانمائة. ثم خلع في سادس عشر ربيع الآخرة سنة أثنتين وأربعين وثمانمائة، وسجن بالإسكندرية، ونظر في فنون العلم والأدب. مات في محرم سنة ثمان وستين وثمانمائة. السيوطي، نظم العقيان في أعيان الأعيان، 1 / 61.

(4) السخاوي، الضوء اللامع، 3 / 278.

ولى جقمق [1] السلطنة عام 842هـ / 1438م وتلقب بلقب الظاهر، وبدأ يقبض

(1) جقمق بن عبد الله العلائى الظاهري، السلطان الملك الظاهر أبو سعيد، سلطان الديار المصرية، والبلاد الشامية، والأقطار الحجازية، والرابع والثلاثون من ملوك الترك، والعاشر من الجراكسة... جلبه خواجا كزلك من بلاد الجاركس أو غيرها إلى الديار المصرية في سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية، فاشتراه أمير على بن الأتابك إينال، ورباه وأدبه، ثم أرسله إلى الحجاز الشريف صحبة والدته، ... فتوجه جقمق هذا معها وحج وعاد في صحبتها، ... واستمر جقمق عند أخيه جاركس بطبقة الزمان مدة يسيرة وأعتقه الملك الظاهر برقوق، وأخرج له خيلاً وقماشًا، ثم جعله خاصكيًا، كل ذلك بسفارة أخيه جاركس، ودام على ذلك حتى مات الملك الظاهر برقوق في سنة إحدى وثمانمائة صار في دولة ولده الملك الناصر فرج ساقيًا، ثم نقل إلى إمرة عشرة، ثم أمسك وسجن بواسطة عصيان أخيه جاركس المذكور، فاستمر إلى أن شفع فيه والدى رحمه الله وجمال الدين الأستادار، فأطلقه الملك الناصر إلى حال سبيله.
وضرب الدهر ضرباته إلى أن صار في الدولة المؤيدية شيخ أمير طبلخاناة، وخازندارا، ... ثم صار في الدولة المظفرية أحمد بن شيخ أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية. واستمر على ذلك حتى تجرد الأمير ططر وهو إذ ذاك مدبر مملكة الملك المظفر أحمد إلى البلاد الشامية أمره بالإقامة بالقاهرة مع جملة من أقام بها من أمراء الألوف... ولما وصل ططر إلى القاهرة أخلع على جقمق هذا باستقراره في نيابة قلعة الجبل مضافًا إلى تقدمته، فدام على ذلك إلى سنة خمس وعشرين وثمانمائة نقل إلى حجوبية الحجاب بالديار المصرية، بعد القبض على الأمير طرباى بمدة، واستمر على ذلك إلى أن خلع عليه الملك الأشرف برسباى باستقراره أمير آخورا، عوضًا عن الأمير قصروه من تمراز بحكم انتقاله إلى نيابة طرابلس، بعد عزل الأمير إينال النوروزى وقدومه إلى القاهرة على تقدمة ألف بها، وذلك في أواخر صفر سنة ست وعشرين وثمانمائة، وولى الحجوبية من بعده الأمير جرباش الكريمى الظاهرى المعروف بقاشق.
فاستمر في وظيفته إلى سنة سبع وثلاثين أخلع عليه باستقراره أمير مجلس، ... واستمر جقمق المذكور أمير سلاح إلى أن نقل إلى الأتابكية بالديار المصرية، بعد الأتابك إينال الجكمى، بحكم انتقاله إلى نيابة حلب...
واستمر على ذلك إلى أن مات الملك الأشرف برسباى في سنة إحدى وأربعين، بعد أن عهد إلى ولده الملك العزيز يوسف، وجعل الأتابكي جقمق المذكور مدبر مملكته. فلما تسلطن الملك العزيز، وأقام مدة يسيرة، شرع جماعة من أطراف المماليك الأشرفية يأمرون في الدولة وينهون، فعظم ذلك على أعيان الدولة من المؤيدية والناصرية والظاهرية والسيفية، وخاف كل واحد على نفسه، كل ذلك والأتابك جقمق سامع لهم ومطيع إلى أن زاد أمرهم وتفرقت كلمتهم، وانضم فرقة منهم على الأتابك جقمق كبيرهم الأمير إينال الأبوبكرى الأشرفى الدوادار الثاني، فعند ذلك انتهز الفرصة من كان تخوف قبل تاريخه من المماليك الأشرفية، وتوجهوا إلى دار الأتابك جقمق، وكان سكنه تجاه الكبش على بركة الفيل بالدار الملاصقة لقصر بكتمر الساقي، فاجتمع عليه خلائق لا تدخل تحت الحصر من الأمراء والخاصكية وطوائف من المؤيدية والناصرية والظاهرية والسيفية، وكانوا هم الطالبين له والراغبين في تقدمه لحسن سيرته ولاستنقاذ مهجهم من أيدى هؤلاء الأجلاب

الأشرفية، وصاروا معه يدًا واحدًا على كلمة واحدة، ثم انفض الموكب بعد أن علم كل أحد بزوال مملكة الملك العزيز يوسف وذهاب دولته.
واستمر أمر الأتابك جقمق يقوى، ودولة الملك العزيز تضعف، إلى أن خلع الملك العزيز في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة. وكانت مدته أربعة وتسعين يومًا، ولما كان يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول حضر الخليفة أمير المؤمنين المعتضد بالله والقضاة الأربع إلى الإسطبل السلطانى عند الأمير الكبير جقمق، وقد اجتمع عنده سائر الأمراء وأعيان الدولة، ثم تكلم بعض من حضر من الأمراء بأن قال: السلطان الملك العزيز صغير، والأحوال ضائعة، ولا بد من سلطان ينظر في مصالح المسلمين، وينفرد بالكلمة في الممالك، فقال الأتابكي جقمق: هذا لا يتم إلا برضا الجماعة، فصاح الجميع بلسان واحد: نحن راضون بالأمير الكبير، ومد الخليفة يده فبايعه، ثم بايعه القضاة والأمراء على مراتبهم، ثم قام من فوره ولبس الخلعة الخليفتية السوداء، وتقلد بالسيف على العادة، وركب فرس النوبة، والأمراء مشاة بين يديه، وحمل الأمير قرقماش القبة والطير على رأسه إلى أن طلع إلى القصر الكبير من قلعة الجبل، وجلس على تخت الملك، وقبل الأمراء الأرض بين يديه.
وكان جلوسه على تخت الملك في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة، وتم أمره وزال ملك الملك العزيز يوسف بن الملك الأشرف برسباى، واستمر السلطان بعد ذلك إلى شهر رمضان من السنة ترادفت عليه الأهوال فيه بورود الخبر بعصيان الأمير تغرى برمش نائب حلب، ثم عقبه البريد بعد مدة يسيرة بعصيان الأمير إينال الجكمي نائب دمشق، ثم فرار الملك العزيز من وسط الدور السلطانى من قاعة البربرية في ليلة الاثنين سلخه.
سببه أن العزيز لما حبس بقاعة البربرية من الدور السلطاني، وكانت دادته سر النديم الحبشية عنده ومعها عدة جوارٍ له، ثم مكنت مرضعته من الدخول إليه وكان القائم في حوائجه، وفي قبض ما رتب له من أوقاف والده في كل شهر طواشي هندى يسمى صندل، لم يبلغ العشرين من العمر، من عتقاء أمه خوند جلبان، وكان عنده نباهة وفطنة، فاحتوى على جميع أحواله لانفراده بخدمته، وكان بخدمته، وكان أرجف بقتل العزيز غير مرة أو بكحله، ثم أشيع بنقله إلى حبس الإسكندرية، فصار صندل يخبر العزيز بما سمعه، فداخل العزيز الخوف واتسع خياله إلى أن بلغه أيضًا أن بعض القضاة أتى بقتله لصيانة دم الرعية، فرمى العزيز نفسه على صندل المذكور وقال له: تحيل في فراري، وابق على مهجتي، فانفعل صندل، وكان للعزيز طباخ من أيام أبيه، فكلمه صندل في إخراج العزيز، فوافقه على ذلك، فأمر العزيز جواريه أن ينقبن في البربرية يخرج منه إلى المطبخ، وساعدهم الطباخ من الخارج، حتى انتهى.
وكان صندل أعلم بذلك جماعة من الأشرفية، وكان ذلك مرادهم، فلما كان وقت الإفطار من يوم الاثنين المذكور، والناس في شغل بأكلهم، خرج العزيز من النقب المذكور عريانًا مكشوف الرأس، فألبسه الطباخ من خلقاته ثوبًا ملوثًا بسواد القدور، وأخذه معه، ونزل كأنه من بعض صبيانه، وهو يمر على الخدام من غير أن يتفطن به أحد، فوافا الأمراء وقد خرجوا بعد الفطر من عند السلطان، وصاروا جملة واحدة، فلما رأى الطباخ ذلك ضرب العزيز ظهره ضربة وصاح عليه كأنه من بعض صبيانه، ليرد بذلك الوهم عنه، فمشت حيلته؛ ونزل من باب المدرج حتى وصل تحت

الطبلخاناة، وإذا بصندل الطواشي، وطوغان الزرد كاش، ومشده ازدمر في آخرين من الأشرفية فقبلوا يده.
وكان صندل كان قد أخبر العزيز أنه إذا نزل مماليك أبيه الأشرفية يركبون معه لقتال الملك الظاهر أو يتوجهون به إلى الشام، فلما رأى غير ذلك ندم، وطلب العود إلى مكانه، فلم يمكنه ذلك، والتزم له طوغان الزرد كاش أن يمضي إلى بلاد الصعيد، ويأتي بمن هناك من المماليك الأشرفية الذين في التجريدة لقتال هوارة صحبة الأمير يشبك السودوني، وهم نحو سبعمائة فارس، ومضى من ليلته حتى وصل إليهم، فلم ينتج أمره، وقبض عليه وحمل إلى القاهرة، وحبس وعوقب، ثم وسط بعد أيام.
واختفى العزيز هو وطواشيه صندل، وأزدمر مشده، وطباخه، وصار يتنقل من مكان إلى آخر، والسلطان في طلبه، وعوقب جماعة بسببه، وهجم على جماعة من البيوت، ومرت بالعزيز شدائد في اختفائه، وفر الأمير إينال الأبو بكرى الأشرفى أحد مقدمى الألوف، بسببه، ثم قبض على جماعة من الخاصكية للقبض على الأمير قراجا الأشرفي، أحد مقدمى الألوف أيضًا بالغربية، فانه كان قد توجه لعمل جسورها، فقبض عليه وحبس بالإسكندرية.
واستمر العزيز مختفيًا إلى أن خرجت تجريدة لقتال الأمير إينال الجكمي نائب الشام، ولقتال الأمير تغري برمش نائب حلب، ومقدم العساكر الأمير أقبغا التمرازى المتولي نيابة الشام، عوضًا عن الجكمي، وصحبته الأمير قراخجا، وقد استقر أمير آخورا، والأمير تمرباى الدوادار، وقد صار رأس نوبة النوب، وعدة من أمراء العشرات والخاصكية.
وتزايدت الهموم والمحن على السلطان في هذه المدة من سائر الجهات، وبقي في حيرة، وصار تارة يشتغل بتجهيز العساكر لقتال العصاة من النواب بالبلاد الشامية، وتارة في طلب العزيز وفى الفحص عنه، ولا زال على ذلك إلى يوم الأربعاء ثالث وعشرين شوال من سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ظفر بسر النديم دادة الملك العزيز بعد ما كبس عليها عدة بيوت، وعوقب جماعة، وقاست الناس في هذه المدة أهوالاً بسبب العزيز وحواشيه، ثم ظفر السلطان بالطواشى صندل الهندى فتحقق منهما أن العزيز وإينال لم يخرجا من القاهرة، وأنهما لم يجتمعا قط، فهان عليه الأمر قليلاً، فإنه كان في ظن السلطان أن الأمير إينال أخذ العزيز على خيوله التى هيأها لسفر الحجاز، ومضى به إلى الأمير إينال الجكمي نائب الشام.
قلت: ولو كان إينال فعل ذلك لكان تم أمر الملك العزيز، فما شاء الله كان. ثم اجتهد السلطان في طلب العزيز، وطرق الناس بهذا السبب أهوالاً ومحن إلى ليلة الأحد سابع عشرينه قبض على الملك العزيز، فاستراح بالقبض عليه وأراح، وهو أنه لما نزل من القلعة واختفى كان معه طواشيه صندل وأزدمر مشده، وطباخه إبراهيم لا غير، وصار العزيز ينتقل بهم من موضع إلى موضع لكثرة ما يكبس عليه، وصار كل يوم في رجيف ومحنة، حتى وقع بين أزدمر وصندل الطواشي، وطرد صندل، ففارق صندل العزيز ومضى إلى حال سبيله بعد أن أنعم عليه العزيز بخمسين دينارًا، ثم أن أزدمر طرد أيضًا إبراهيم الطباخ، وبقى مع العزيز وحده ليكونا أخف على من يختفيا عنده، هذا والسلطان يستحث في طلبهما حتى ضيق عليهما المسالك، واستوحش من قبولهما كل أحد حتى أرسل العزيز إلى خاله الأمير " بيبرس "، أحد أمراء العشرات وأعلمه بمجيئه ليختفى عنده،

فواعده " بيبرس " المذكور أن يأتيه ليلاً، ثم خاف " بيبرس " عاقبة ذلك، فأعلم جاره الأمير يلباى الإينالى المؤيدي، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، بذلك، وقال:يقبح بى أن يكون إمساك العزيز على يدي، ولكن أفعل أنت ذلك، وأعلمه بطريقه التى يمر منها في قدومه، فترصد له يلباي المذكور، ومعه أناس قلائل جدًّا، بزقاق حلب خارج القاهرة، حتى مر به الملك العزيز بعد عشاء الآخرة ومعه أزدمر، هما في هيئة مغربيين، فوثب يلباي على أزدمر ليقبض عليه، فدفع عن نفسه، فضربه يلباى أدمى وجهه وأعانه عليه من معه حتى أوثقوه، وأخذوا العزيز وعليه جبة صوف حتى طلعوا بهما إلى القلعة من باب السلسلة، وخاف العزيز حين أخذ مملوك من المؤيدية بأطواقه إلى أن أوقف بين يدى الملك الظاهر جقمق، فكادت نفسه تزهق فرحًا، فأوقفه الظاهر ساعة، ثم أدخله إلى قاعة العواميد من الدور، عند زوجته خوند الكبرى مغل بنت القاضى ناصر الدين محمد بن البارزي، وأمرها أن تجعله في المخدع، ولا تبرح عن بابه، وأن تتولى أمر أكله وشربه، فأقام على ذلك مدة، ونقل إلى الأسكندرية وحبس بها، على ما سيأتى في ترجمته إن شاء الله تعالى.

فعند ذلك خف عن الملك الظاهر بعض ما كان يجده من أمر العزيز، والتفت إلى البلاد الشامية حتى ورد عليه الخبر بعد ذلك في يوم الخميس تاسع ذى القعدة من السنة بواقعة الأمير إينال الجكمي وبالقبض عليه، فدقت البشائر لذلك، وهان عليه أمر تغري برمش نائب حلب، فإنه كان يجزع من اجتماعهما معًا، فلم تكن إلا أيامًا يسيرة، وورد عليه الخبر في يوم الجمعة رابع وعشرين ذى القعدة بكسرة تغري برمش ثم بالقبض عليه، فرسم بقتله، وقتل الجكمي، وصفا الوقت للملك الظاهر جقمق في مدة يسيرة، وظفر بأعدائه بعد أن كانت دولته قد أشرفت على الزوال فلما صفا وقته وزال عنه الضد والمعاند أخذ يقرب جماعة من الأندال والأوباش، وأنعم عليهم بالإمريات والإقطاعات والوظائف السنية، ولكن المعطي هو الله؛ لأن قلوب الملوك بيده سبحانه وتعالى يقلبها كيف يشاء فسبحان المتفضل بالنعم على مستحقى النقم، قلت: ولا يحمد على المكروه إلا الله سبحانه وتعالى.

واستمر الملك الظاهر جقمق في سلطنة الديار المصرية من غير معاند، وطالت مدته، وصفت حتى إنه لم يحتج فيها لمساعد، وأخذ ينتهز الفرصة فيما ذكره يطول، ولسان الحال عنه يقول:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ::: فعقبى خافقة سكون

ولا زال على ذلك، والدهر مطاوعه، والمقادير تساعده، إلى أن مرض في أواخر ذى الحجة سنة ست وخمسين وثمانمائة، وطال مرضه إلى أن خلع نفسه من السلطنة في الساعة الثانية في يوم الخميس الحادى والعشرين من محرم سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وسلطن ولده الملك المنصور عثمان، ودام متمرضًا بقاعة الدهيشة من القلعة إلى أن توفى ليلة الثلاثاء ثالث صفر سنة سبع المذكورة، وذلك بعد خلعه باثني عشر يومًا، وصلى عليه من الغد بمصلاة باب القلعة من قلعة الجبل، وحضر ولده السلطان الملك المنصور الصلاة عليه، وصلى عليه الخليفة القائم بأمر الله أبو البقاء حمزة إمامًا، ودفن من ساعته بتربة الأمير قانى باى الجاركسى الأمير آخور التى أنشأها عند دار الضيافة بالقرب من قلعة الجبل.

وكانت جنازته مشهودة بخلاف جنائز الملوك، وذلك لعدم اضطراب الدولة، فإنه كان قد تسلطن ولده الملك المنصور قبل وفاته بأيام، ومات وسنه نيف على الثمانين سنة.

وكانت مدة ملكه من يوم تسلطن بعد خلع الملك العزيز يوسف، أربع عشرة سنة وعشرة شهور ويومين، وكانت وفاته بعد خلعه باثني عشر يومًا كما ذكرناه.
وكان سلطانًا ديِّنًا، خيِّرًا، صالحًا، متفقهًا، شجاعًا، عفيفًا عن المنكرات والفروج، لا نعلم أحدًا من ملوك مصر في الدولة الأيوبية والتركية على طريقته من العبادة والعفة؛ لم يشهر عنه في حداثة سنه ولا في كبره أنه تعاطى مسكرًا، ولا اكتشف حرامًا قط، وأما حب الشباب فلعله كان لا يصدق أن أحدًا يفعل ذلك لبعده عن معرفة هذا الفعل، وكان غالب أوقاته على طهارة كاملة، وكان متقشفًا في ملبسه ومركبه إلى الغاية، لم يلبس الأحمر من الألوان في عمره، ولم أراه منذ تسلطن أنه لبس كاملية بمقلب سمور غير مرة واحدة، وأما الركوب على السرج الذهب والكنبوش الزركش فلم يفعله قط، وكان ما يلبسه في أيام الصيف وما على فرسه لا يساوى عشرة دنانير، وكان معظمًا للشريعة، محبًّا للفقهاء وطلبة العلم، معظمًا للسادة الأشراف، وكان يقوم لمن دخل عليه من الفقهاء والصلحاء كائنًا من كان، وكان إذا قرأ عنده أحد فاتحة الكتاب وجلس على الأرض تعظيمًا لكلام الله تعالى، وكان كريمًا جدًّا، مسرفًا مبذرًا، أتلف في مدة سلطنته من الأموال ما لا يدخل تحت حصر كثرة، وكان لا يلبس إلا القصير من الثياب، ونهى الأمراء وأكابر الدولة وأصاغرها عن لبس الثوب الطويل، وأمعن في ذلك حتى أنه ضرب جماعة كثيرة بسبب ذلك، وقص أثواب جماعة أخر من أعيان الدولة في الموكب السلطاني بحضرة الملأ من الناس، وكان كثيرًا ما يوبخ من يلبس الثوب الطويل، ومن لا يحف شاربه من الأتراك.
وفى الجملة: أنه كان آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، إلا أنه كان قد قيض الله له أعوان سوء وحاشية ليست بذاك، وكان رحمه الله سريع الاستحالة، وعنده بطش وحدة مزاج، وبادرة مع طيش وخفة، فكانوا- أغنى حاشيته -، وأخذه على الصدق والنصيحة، فلهذا كان يقع منه تلك الأمور القبيحة، من ضرب العلماء، وبهدلة الفقهاء والرؤساء وسجنهم بحبس المقشرة مع أرباب الجرائم، حتى أنه حبس بها جماعة كبيرة من الفقهاء والأعيان.
وأما غير الأعيان فخلائق لا تحصى من بياض الناس.
وكل ذلك كان لعدم تثبته في أحكامه، وعظم بادرته وسلامة باطنه، فإنه كان يصدق ما ينقل إليه بسرعة، ولا يتروى في أحكامه حتى يأتيه من يخبره بالحق، فلهذه الخصال كانت الرعية قد سمته وطلبت زواله، وكانت الدعوى عنده لمن سبق، لا لمن صدق، على قاعدة الأتراك.
وبالجملة كانت محاسنه أكثر من مساوئه، وكان حاله أحسن من حال غيره من ملوك مصر السالفة من حيث الدين وعفة الذيل، فإنه كان قد قمع المفسدين والجبابرة من كل طائفة، وكسدت في أيامه حال أرباب الملاهى والمسكرات، وتصولح غالب أمرائه وجنده، وبقى أكثرهم يصوم الأيام الكثيرة في كل شهر، ويعف عن المنكرات، وكل ذلك مراعاة لخاطره، وخوفًا من بطشه لما يرون من تشديده على من يفعل القبائح والمنكرات، وهذا بخلاف الملوك السابقة فإنهم كانوا كثيرًا ما يفعلون ذلك، فكان يصير كل قبيح جهارًا، ومن عظم حرمته وشدة بطشه قال بعض الفضلاء: تابت هذه الدولة عن الموت في هدم اللذات والأيام الطيبة، وأن الذين يتعاطون المسكرات في أيامه وهم القليل من الناس صاروا يتعاطون في خفية، ويرجفهم في تلك الحالة صغيرة الصافر.
وأبطل من تقشفه أشياء كثيرة من شعار المملكة، مثل: سوق المحمل، والنزول إلى الصيد

على زمام الأمور، ولكن - كما كانت عادة أمراء المماليك - فقد نازعوه السلطة ولم يقبلوا بسلطنته وانفراده بمقاليد الأمور، وكان أول من نازعه الأمير قرقماش الشعبانى [(1)] أتابك العسكر الذى أعلن الثورة وأظهر التمرد، مما دعا

بالجوارح، وكخدمة الإيوان، الحكم بباب السلسلة بالإصطبل السلطاني، ونوابة خاتون التى كانت تدق بقلعة الجبل عند الصباح والمساء، أشياء كثيرة من هذا النمط، وكل ذلك كان يكرهه مما يقع فيه من المفاسد، لا يفعل ذلك توفرة للأموال، فإن المال كان عنده كل شىء، على أنه كان يحب جمعه من حلاله وحرامه، ثم يصرفه على قدر اجتهاده في أى جهة كانت.

وكانت صفته قصيرًا، للسمن أقرب، أبيض اللون مشربًا بحمرة، صبيح الوجه، منور الشيبة، فصيحًا في اللغة التركية، وفى العربية لا بأس به بالنسبة لأبناء جنسه، وكان له اشتغال وطلب قديمًا، وكان يستحضر مسائل جيدة، ويبحث مع العلماء الفقهاء، ويلازم مشايخ القراءات، ويقرأ عليهم دوامًا، وكان يقتنى الكتب النفيسة، ويعطى فيها الأثمان الزائدة عن ثمن المثل، وكانت أيامه آمنة، رحمه الله تعالى.

أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 382- 390 باختصار.

(1) قرقماش الشعبانى الظاهرى برقوق ثم الناصرى ويعرف بقرقماش أهرام ضاغ يعنى جبل الأهرام لتكبره. أصله من كتابية الظاهر ثم ملكه ابنه فأعتقه وعمله خاصكيًا ثم صار في دولة المؤيد من الدوادارية الصغار ثم تأمر بعده عشرة ثم دوادارًا ثانيًا مع إمرة طبلخاناة، ودام إلى سنة ست وعشرين فأنعم عليه بتقدمه وتوجه لمكة مع على بن عنان كالشريك له في إمرتها وأقام بها نحو سنة تخمينًا، وطلب إلى القاهرة على إمرته إلى أن خلع عليه في منتصف شوال سنة تسع وعشرين بالحجوبية الكبرى فباشرها بحرمة زائدة وعظمة وبطش في الناس بحيث هابه كل أحد؛ وسافر مع السلطان إلى آمد، فلما رجع وذلك في سنة سبع وثلاثين استقر به في نيابة حلب بعد قصروه المنتقل لنيابة الشام، فباشرها على عادته ثم صرف حين ظهر جانبك الصوفى من الروم، وقدم القاهرة مسرعًا على النجب في سنة تسع وثلاثين على أقطاع جقمق العلائى ووظيفته إمرة سلاح إلى أن تجرد في جماعة أمراء إلى أرزنكان سنة إحدى وأربعين، فكان حضورهم بالطلب حين ترشح جقمق للسلطنة فقام معه حتى تسلطن ذاك، وعمل هذا عوضه أتابكًا، فلم يلبث إلا أيامًا، ووثب عليه، وآل أمره إلى أن جرح في وجهه بالنشاب وفر عنه غالب أصحابه، ثم انهزم، واختفى من يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين، ولم يلبث أن قبض عليه في يوم الجمعة سادسه، ثم قيد، وجهز إلى الإسكندرية من الغد، فحبس بها إلى خامس رجب، وعقد له مجلس بالقصر، وأقيمت البينة عند القاضى المالكى على منصوب عن قرقماش هو الشهاب بن يعقوب نقيب شيخنا بحكم غيبته الإسكندرية بخروجه على السلطان بعد مبايعته، وخلفه له وإشهاره السلاح، فحكم عليه بموجب الشهادة، فقيل له: فما يجب عليه قال: يتخير السلطان في ذلك فجهز بريدًا بأن يقرأ عليه المحضر، ويعذر له فيه فقرئ عليه، وأمر بقتله بسيف الشرع فضربت عنقه وذلك بالإسكندرية في يوم الاثنين ثانى عشرة، وهو ابن نيف وخمسين سنة؛ وكان أميرًا ضخمًا متعاظمًا متكبرًا ظالمًا مع تدبير ومكر وشجاعة وإقدام، وكونه يتفقه ويتحفظ بعض المسائل ويظهر التدين، ولتكبره وتعاظمه

السلطان الظاهر جقمق أن يستعد لمقاتلته، والتقى به في معركة شديدة في جهة الرميلة، واستطلاع جقمق أن يوقع الهزيمة في صفوف خصمه الأمير قرقماش الشعباني، الذى فر من أرض المعركة ولكن الظاهر جقمق تمكن من الوصول إليه والقبض عليه، ثم قتله بعد ذلك [1] ولم يكن هذا التمرد الذى شهده عهد الظاهر جقمق، بل شهد أيضًا تمرد الأمير إينال الجكمى [2] نائب الشام، الذى

وعدم بشاشته، سر العامة بإمساكه وإتلافه، السخاوي، الضوء اللامع، 3 / 276.

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، 2 / 199.

(2) إينال بن عبد الله، الأمير سيف الدين، أتابك العساكر بديار مصر، ثم نائب الشام. أصله من مماليك الأمير جكم من عوض المتغلب على حلب، وتنقل بعد موت أستاذه في عدة خدم إلى أن اتصل بخدمة الملك المؤيد شيخ في حال إمرته. ولما تسلطن المؤيد قرب إينال المذكور وجعله خاصكيًا، ثم ساقيًا، ثم بلغ المؤيد عنه ما أوجب ضربه ونفيه إلى البلاد الشامية، فأقام بدمشق إلى أن خرج الأمير قانى باى المحمدى، نائب دمشق عن طاعة المؤيد، فلم يوافقه إينال المذكور، بل صار من حزب السلطان، وقاتل قتالاً شديدًا.

فلما بلغ المؤيد ذلك، طلبه إلى القاهرة، وأنعم عليه بإمرة عشرة، ثم جعله أمير طبلخاناة وشاد الشراب خاناه، ثم صار بعد موت المؤيد أمير مائة ومقدم ألف بديار مصر، ثم صار رأس نوبة النوب. ولما سافر الأمير ططر بالسلطان الملك المظفر أحمد بن الملك المؤيد شيخ إلى البلاد الشامية استقر بإينال المذكور في نيابة حلب، عوضًا عن الأمير ألطنبغا الصغير، بحكم تسحبه عنها، فتوجه إلى حلب، وأقام بها نحو أربعين يومًا، وعزل بالأمير تغري بردي- قريب قصروه- وعاد إلى دمشق، وصار أمير سلاح. فلم يقم إلا مدة يسيرة، وقبض عليه مع من قبض عليهم من المؤيدية، وحبس مدة إلى أن أطلقه الملك الأشرف برسباي، ورسم له بالحج فحج، وعاد إلى القدس بطالاً إلى أن طلبه الملك الأشرف برسباى في سنة سبع وعشرين وثمانمائة، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، وخلع عليه بإمرة مجلس، ودام على ذلك إلى أن مات الأمير إينال النوروزي، نقل عوضه إلى إمرة سلاح، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وثمانمائة.

فاستمر على ذلك سنين إلى أن استقر أتابك العساكر بالديار المصرية، بعد أن شغر الأتابكية، بعد الأمير سودون بن عبد الرحمن أشهرًا، فدام أتابكًا إلى أن عزل الأمير قرقماش الشعبانى عن نيابة حلب، استقر الأتابك إينال هذا عوضه في نيابة حلب، وخرج إليها معظمًا مبجلاً، وولى أتابكًا، عوضه الأمير جقمق العلائى أمير سلاح، واستقر قرقماش الشعبانى نائب حلب أمير سلاح. وكان قبل خروج الأمير إينال إلى محل كفالته، ورد الخبر على الأشرف بمضر قصروه نائب الشام، فوعد الأشرف الأمير إينال المذكور بنيابة الشام، بل قال له: إن مات قصروه قبل وصولك إلى حلب أدخل إلى دمشق ولا تتوجه إلى حلب، فسار إينال إلى حلب. وباشر نيابتها من يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وثمانمائة إلى يوم الأربعاء رابع وعشرين ربيع الآخر من السنة، ونقل إلى نيابة دمشق بعد موت الأمير قصروه. واستمر في نيابة دمشق إلى أن عصى على

أعلن الثورة وأظهر العصيان، واستقل بحكم بلاد الشام، واتخذ من دمشق مقرًا له، إلا أن الظاهر جقمق استطاع القضاء على هذا التمرد أيضًا [(1)].

ومن الأحداث اللافتة في عهد جقمق أيضًا، تجمع عدد كبير من العبيد السود في ناحية الجيزة وسلطنوا منهم واحدًا، وعاثوا في تلك المناطق فسادًا، فبطش بهم السلطان جقمق بطشًا شديدًا، وجمعهم وساقهم إلى أسواق بلاد الروم حيث بيعوا هناك [(2)].

ومن أهم الأحداث السياسية في عصر جقمق العلاقة مع التتار، حيث كانت دولة المغول قد تصدعت بعد وفاة " تيمور لنك " سنة 808هـ / 1405م، إلى أن استطاع ابنه شاه رخ أن يعيد بناء ما تهدم، ويستعيد الكثير من أملاك أبيه الضائعة، وأراد أن يفتح صفحة جديدة مع سلاطين المماليك، فأرسل أكثر من رسالة إلى السلطان برسباي، يبدى فيها جميعًا رغبته في إقامة علاقة ودية مع دولة المماليك ويستأذنه في كسوة الكعبة المشرفة وحفر بئر ماء في مكة المكرمة [(3)]، غير أن ذلك كان يقابل بالرفض من قبل سلاطين المماليك، خوفًا

الملك الظاهر جقمق، وخرج عن طاعته، وأرسل الملك الظاهر لحربه الأمير أقبغا التمرازي، بعد ما ولاه عوضه نيابة دمشق، وأضاف إليه عدة من الأمراء والخاصكية، وتوجهوا الجميع لقتاله، والتقوا معه بالقرب من شقحب، والتحم القتال بين الفريقين، فكانت الكسرة أولاً على عسكر السلطان، ثم كروا عليه ثانيًا، وقد اشتغل غالب عسكره بالنهب، وحملوا عليه، فانكسر، ولوى رأس فرسه إلى جهة دمشق، وجد في السير إلى أن وصل إلى قرية حارستا من قرى دمشق، فنزل بها.
وكان السيفى جانبك دوادار الأمير برسباى حاجب حجاب دمشق في إثره، فنزل إينال عن فرسه، وأراد الراحة؛ فطوقه جانبك المذكور مع أهل البلد، وقبض عليه، وحمله إلى قلعة دمشق، فحبس بها إلى أن ورد المرسوم من الملك الظاهر جقمق بقتله، فقتل بقلعة دمشق في ليلة الاثنين ثانى وعشرين شهر ذى القعدة سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة. وكان أميرًا جليلاً، كريمًا، شجاعًا مقدامًا، حسن الخلق، متواضعًا، محببًا للناس، حلو المحاضرة، مليح الشكل، معتدل القامة، ضخمًا، مدور الوجه، بشوشًا، قليل الشر، كثير المروءة.
أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 240- 241.

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، 2 / 199.

(2) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، 1 / 49.

(3) المقريزي، السلوك، 4 / 833، الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، 3 / 334.

من أطماع شاه رخ في بلاد الحجاز وتاريخ أسلافه غير المطمئن، كما أن سلاطين المماليك لم تكن لديهم الرغبة في أن يشاركهم أحدٌ كائنًا مَنْ كان في شرف كسوة الكعبة المشرفة.

ثم تتالت الرسائل التى بعث بها شاه رخ إلى برسباى وبها طلبات قد تكون مستحيلة مثل: السماح له بزيارة البيت المقدس، وطلب إقامة الخطبة باسمة على منابر دولة المماليك، وسك العملة باسمه، هذه المطالب جعلت برسباى يسيء إلى رسله أكثر من مرة، مما أغضب شاه رخ، وجعله يأخذ اتجاهًا عدائيًّا للدولة المملوكية، فأخذ يستعدى عليها دولا أخرى مثل الدولة العثمانية، وأمراء التركمان، وحاول تكوين تحالف مضاد لها، فما كان من السلطان الأشرف برسباى إلا أن لاطفه وأرسل إليه بهدية ورسالة. يقول أبو المحاسن: "... خرج قاصد شاه رخ، الشريف تاج الدين، من الديار المصرية إلى جهة مرسله، وصحبته الأمير أقطوه الموساوي، وعلى يده هدية من السلطان إلى شاه رخ المذكور، وكتاب جواب كتابه يتضمن منعه من كسوة الكعبة، بأن العادة قد جرت قديمًا وحديثًا ألا يكسو الكعبة إلا ملوك مصر، والعادة اعتبرت في الشرع في مواضع، وأن للكسوة أوقافًا تقوم بعملها، لا يحتاج، إلى مساعدة في ذلك، وإن أراد الملك وفاء نذره، فليبع الكسوة ويتصدق بثمنها في فقراء مكة، فهو أكثر ثوابًا، حيث يتعدى نفع ذلك إلى جماعة كبيرة، وأشياء من هذه المقولة... "[1].

وفى عهد الظاهر جقمق العلائى كانت العلاقة بين دولتى المماليك والتتار علاقات ودية إذ وافق السلطان جقمق في سنة 848 هـ / 1444م على السماح لشاه رخ بكسوة الكعبة بشرط أن تكون الكسوة من الداخل، أى تحت كسوة السلطان المملوكي، ولكن قوبل هذا السماح للمغول بكسوة الكعبة بالسخط من قبل عامة الناس وخاصتهم. "... وعظم ذلك على أمراء الدولة والمصريين إلى

---

(1) النجوم الزاهرة، 15 / 364- 365، ووردت على هذا النحو في، المقريزي، السلوك، 4 / 932.

الغاية... " ولم ينس المسلمون فظائع التتار التى كانت منهم، وبالرغم من أن السلطان الظاهر جقمق قد اعتذر عن ذلك للشعب المصرى وعامة المسلمين الساخطين عليه "... واعتذر الملك الظاهر بقوله: " إن هذه قربة، ويجوز أن يكسو الكعبة كائن من كان " (1).

إلا أن المصريين بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة لم يقبلوا هذا الاعتذار ولم يقبلوا أيضًا أن يكون لملك المغول كسوة على كعبتهم المشرفة - وإن كانت متواراه - ولم يستطع جقمق مواجهة هذا السخط الذى ساد بين المسلمين فأمر بنزع كسوة شاه رخ من على الكعبة سنة 856هـ / 1452م ولم يبق سوى الكسوة التى كانت ترسل من مصر (2).

ومن الأحداث اللافتة في عهد جقمق محاولة غزو جزيرة رودس (3) - على غرار غزو جزيرة قبرص -، ولعل السبب المباشر لغزو تلك الجزيرة، هو تكرار غارات القراصنة المسيحيين على الشواطئ الاسلامية وأخرها الغارة التى وقعت سنة 843هـ / أغسطس 1429م على شواطئ مدينة رشيد في إقليم البحيرة، وما تخلف عن هذه الغزوة من قتل ونهب وسلب في صفوف عامة الناس. ولما كانت جزيرة قبرص قد سقطت في أيدى المسلمين فانصرف الاتهام مباشرة إلى الإسبتارية المقيمين في جزيرة رودس.

وعلى إثر هذه الهجمة أرسل السلطان جقمق ثلاث حملات عسكرية على

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة،، 15 / 364- 365.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة،، 15 / 364- 365.

(3) أصبحت جزيرة رودس قاعدة للفرسان الإسبتارية منذ العام 710هـ / 1310م وهم فرسان المنظمة التى نهضت بدور كبير في خدمة الحركة الصليبية ببلاد الشام حتى إذا ما دالت دولة الصليبيين بالشام غادروها إلى قبرص، ومنها إلى رودس، ليواصلوا نشاطهم العدوانى ضد المسلمين في حوض البحر المتوسط، . وقد أحس الإسبتارية في رودس بالخطر عندما قامت قوات السلطان الأشرف برسباى بغزو جزيرة قبرص فأسرع مقدم الاسبتارية واسمه- فلوفيان- إلى محاولة كسب ود السلطان برسباى عن طريق تقديم الهدايا، والتعهد بدفع جزية سنوية لسلطنة المماليك. على أنه يبدو أن عهد برسباى لم يتسع للقيام بغزو رودس، فتأجل المشروع لعهد جقمق. سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص 284- 285.

جزيرة رودس، الأولى كانت عام 844 هـ / 1440م، والثانية في العام 847هـ / 1443م، والثالثة كانت عام 848هـ / 1444م، وبالرغم من أن هذه الحملات لم تؤد الغرض المطلوب منها وهو السيطرة على الجزيرة وإخضاعها، واقتصرت أعمالها الحربية على حصار مدينة رودس مدة أربعين يومًا وبعض الأعمال القتالية، إلا أنها نجحت في تهديد الإسبتارية ومنعهم عن التعرض لموانئ المسلمين، وأجبرتهم على عقد الصلح مع دولة المماليك فيما بعد. وعن هذه الحملات يقول أبو المحاسن: "... ثم في يوم السبت خرجت الغزاة من القاهرة، فنزلت في المراكب من ساحل بولاق؛ وقصدوا الإسكندرية ودمياط، ليركبوا من هناك البحر المالح، والجميع قصدهم غزو رودس. وكانوا جمعًا موفورًا، ما بين أمراء وخاصكية ومماليك سلطانية ومطوعة. وكان مقدم الجميع في هذه السنة أيضًا الأمير إينال العلائى الدوادار الكبير، ..... هذا خارج عمن سافر من المطوعة. وأضاف إليهم السلطان أيضًا جماعة كبيرة من أمراء البلاد الشامية، كما فعل الملك الأشرف في غزوة قبرص... ورسم لهم السلطان أن يتوجه الجميع إلى طرابلس، ليضاف إليهم العسكر الشامي، ويسير الجميع عسكرًا واحدًا، ففعلوا ذلك، وسافر الجميع من ثغر دمياط وثغر الإسكندرية، في يوم الخميس حادى عشر شهر ربيع الآخر؛ وكان لخروجهم من ساحل بولاق يوم عظيم، لم ير مثله إلا نادرًا.

وساروا من ثغر الإسكندرية ودمياط إلى طرابلس، ثم من طرابلس إلى رودس، حتى نزلوا على برها بالقرب من مدينتها في الخيم، وقد استعد أهلها للقتال، فأخذوا في حصار المدينة، ونصبوا عليها المجانيق والمكاحل، وارموا على أبراجها بالمكاحل والمدافع، واستمروا على قتال أهل رودس في كل يوم. هذا ومنهم فرقة كبيرة قد تفرقت في قرى رودس وبساتينها ينهبون ويسبون. واستمروا على ذلك أيامًا، ومدينة رودس لا تزداد إلا قوة، لشدة مقاتليها ولعظم عمارتها، وقد تأهبوا للقتال وحصنوا رودس بالآلات والسلاح والمقاتلة، وصار القتال مستمرًا بينهم في كل يوم، وقتل من الطائفتين خلائق كثيرة. هذا وقد

استقر الأمير يلخجا الناصرى في المراكب، ومعه جماعة كبيرة من المماليك السلطانية وغيرهم، لحفظ المراكب من طارق يطرقهم من الفرنج في البحر، وكان في ذلك غاية المصلحة. وصار يلخجا مقدم العساكر في البحر، كما كان إينال مقدم العساكر في البر. وبينما يلخجا ورفقته ذات يوم، إذ هجم عليهم الفرنج في عدة كبيرة من المراكب، فبرز إليهم يلخجا ومن معه، وقاتلوهم قتالاً عظيمًا، حتى نصر الله المسلمين، وانهزم الفرنج وغنم المسلمون منهم.

كل ذلك وقتال رودس مستمر في كل يوم، والعساكر في غاية ما يكون من الاجتهاد في قتال رودس، غير أن رودس لا يزداد أمرها إلا قوة، لعظم استعداد أهلها للقتال. ولما كان في بعض الأيام، وقع للمسلمين محنة عظيمة، قتل فيها جماعة كبيرة من أعيان الغزاة من الخاصكية وغيرهم؛ وهو أن جماعة من المسلمين الأعيان نزلوا في كنيسة تجاه رودس، وبينهم وبين العسكر الإسلامى رفقتهم مخاضة من البحر المالح، وبينهم أيضًا وبين مدينة رودس طريق سالكة. فاتفق أهل رودس على تبييت هؤلاء المسلمين الذين بالكنيسة المذكورة، إلى أن أمكنهم ذلك، فخرجوا إليهم على حين غفلة وطرقوهم بالسيوف والسلاح، وكان المسلمون في أمن من جهتهم، وغالبهم جالس بغير سلاح، وهم أيضًا في قلة والفرنج في كثرة. فلما هجموا على المسلمين، ووقعت العين في العين، قام المسلمون إلى سلاحهم، فمنهم من وصل إلى أخذ سلاحه، وقاتلهم حتى قتل، ومنهم من قتل دون أخذ سلاحه، ومنهم من ألقى بنفسه إلى الماء ونجا، وهم القليل.

على أنه قتل من الفرنج جماعة كبيرة، قتلتهم فرسان المسلمين قبل أن يقتلوا لما عاينوا الهلاك، أثابهم الله الجنة.

ولما وقعت الهجمة، قام كل واحد من المسلمين إلى نجدة هؤلاء المذكورين، فلم يصل إليهم أحد حتى فرغ القتال؛ إلا أن بعض أعيان الخاصكية مع رفقته لحق جماعة من الفرنج قبل دخولهم إلى رودس، ووضعوا فيهم السيف، وكان عدة من قتل في هذه الكائنة نيِّفًا على

عشرين نفسًا. ودام القتال بعد ذلك في كل يوم بين عساكر الإسلام وبين فرنج رودس أيامًا كثيرة، ومدينة رودس لا تزداد إلا قوة. فعند ذلك أجمع المسلمون على العود، وركبوا مراكبهم، وعادوا إلى أن وصلوا إلى ثغر الإسكندرية ودمياط، ثم قدموا إلى القاهرة. فكانت غزوة العام الماضي، أعني غزوة قشتيل التي أخربوها وسبوا أهلها، أبهج من هذه الغزوة، فلله الأمر من قبل ومن بعد. وكان وصول الغزاة المذكورين إلى القاهرة في يوم الخميس ثاني عشر شهر رجب من سنة ثمان وأربعين المذكورة... " (1).

سلطنة المنصور عثمان بن جقمق 857هـ / 1453م:

وفي العام 856هـ / 1452م تعرض الظاهر جقمق للمرض، ولما قوى عليه المرض وشعر بنهاية أجله خلع نفسه من السلطنة، وعهد إلى ابنه عثمان بالسلطنة (2)، فتسلطن عثمان في حياة أبيه، الذى وافته المنية في صفر سنة 857هـ / 1453م (3).

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 15 / 343- 351، 360- 363.

(2) المنصور عثمان بن جقمق السلطان الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان ابن السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبى سعيد جقمق العلائى الظاهري؛ وهو الخامس والثلاثون من ملوك مصر الأتراك، والحادى عشر من الجراكسة.

تسلطن بعد أن خلع أبوه الملك الظاهر جقمق نفسه عن الملك، وحضر الخليفة القائم بأمر الله حمزة، والقضاة الأربعة، وجميع الأمراء، وأعيان الدولة بقاعة الدهيشة من قلعة الجبل، وبايعوه بالسلطنة... ولبس الخلعة على العادة، وركب من الدهيشة وعليه السواد الخليفتى بشعار الملك وأبهة السلطنة، وسار وبين يديه الأمراء وأعيان المملكة إلى أن نزل بالقصر السلطاني، وتم أمره في السلطنة، ولقب بالملك المنصور، وعمره يومئذٍ نحو الثمانى عشرة سنة تخمينًا. وجلس على تخت السلطنة في قلعة الجبل، وباشر الأمور إلى أن توفى والده بعد ولايته باثنى عشر يومًا، فوقعت فتنة بين الأمراء، فخلع عثمان بن جقمق، فقاتل بعد الخلع قتالاً شديدًا، ثم حبس فتسحب من الحبس، فظفر به، وقبض عليه، وأرسل إلى سجن الإسكندرية، فسجن إلى سنة أربع وستين، فأطلقه السلطان خشقدم وأمر بإكرامه وهو بالإسكندرية. وكانت مدته نحو أربعين يومًا.

أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 15 / 360- 363.

(3) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 15 / 360- 363، ابن إياس، بدائع الزهور، 2 /

وبالرغم من أن المنصور عثمان قد بلغ سن الرشد إلا أنه لم يستطع الوقوف في وجه الأمراء المماليك، ولم يلبث في الحكم سوى ثلاثة وأربعين يومًا فقط، إذ أجمع أمراء المماليك على خلعه، وتولى بدلاً منه الأمير إينال [(1)].

الأشرف إينال العلائى 857 - 865هـ / 1453 - 1461م:

هو أبو النصر سيف الدين إينال العلائى الظاهري، ولى السلطنة بعد خلع الملك المنصور عثمان سنة 857هـ / 1453م [(2)].

.299

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 15 / 360- 363، ابن إياس، بدائع الزهور، 2 / 299.

(2) السلطان الملك الأشرف إينال.

إينال بن عبد الله العلائى الظاهري، ثم الناصري، المعروف بالأجرود، الأمير سيف الدين أتابك العساكر بالديار المصرية.

ملكه الملك الناصر فرج بعد موت أبيه، وأعتقه وجعله خاصكيًا، ثم صار من جملة الدوادارية في الدولة المؤيدية شيخ، ثم تأمر بعد موته إمرة عشرة، واستمر إلى أن أنعم عليه الملك الأشرف برسباى بإمرة طبلخاناه، ثم ولاه رأس نوبة ثانية بعد قانى باى البهلوان، ثم نقل إلى نيابة غزة بعد عزل الأمير تمراز القرمشي، وخلع عليه في يوم الثلاثاء ثامن عشرين شوال سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة.

وفى اليوم المذكور قبض على الأمير قطج- أحد أمراء الألوف- وحمل إلى الإسكندرية، وأخرج الأمير جرباش الكريمى قاشق إلى دمياط، فتوجه الأمير إينال هذا إلى غزة وباشر نيابتها إلى أن سافر الملك الأشرف برسباى إلى آمد في سنة ست وثلاثين وثمانمائة.

وعاد إلى الرها، طلب إينال هذا وعينه لنيابة الرها؛ فامتنع من ذلك، ورمى بسيفه، وأفحش في الكلام حتى تركه السلطان وأخلع على الأمير قراجا الأشرفي، وهو إذ ذاك مشد الشراب خاناه بنيابة الرها، وعلى القاضى شرف الدين الأشقر نائب كاتب السر بكتابة السر بالرها، ثم تغير ذلك كله في عصر يومه، واستعفى القاضى شرف الدين المذكور بعد أن بذل خمسمائة دينار للخزانة الشريفة، وعزل قراجا المذكور، واستقر الأمير إينال هذا في النيابة المذكورة، وأنعم عليه بتقدمة ألف بالديار المصرية، زيادة على نيابة الرها. وولى نيابة غزة عوضه الأمير جانى بك الحمزاوي- أحد مقدمى الألوف- بعد أن أنعم بإقطاعه على إينال المذكور، فباشر إينال هذا نيابة الرها سنوات، ثم عزل بالأمير شاد بك الجكمى رأس نوبة ثاني، وقدم إلى مصر على تقدمته، فأقام بها مدة، ثم نقل إلى نيابة صفد، فاستمر بصفد إلى أن طلبه الملك الظاهر جقمق، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بديار مصر.

وولى نيابة صفد بعده الأمير قانى باى البهلوان أتابك دمشق، ثم استقر دوادارًا كبيرًا بعد موت

ومن أهم الأحداث السياسية في عهد الملك الأشرف إينال هى ثورة المماليك الظاهرية الجقمقية، بسبب الهوان الذى وقع عليهم بسبب سوء معاملة الأشرف إينال لهم وبسبب ماجرى لابن أستاذهم المنصور عثمان بن جقمق وخلعه من السلطنة، وانضموا إلى المماليك الأجلاب وأيدهم في هذه الثورة الخليفة العباسى القائم بأمر الله حمزة بن المتوكل يقول أبو المحاسن بن تغري بردي: "... فلما وقع ما ذكرناه تحققوا خروجهم على أستاذهم، وثار ما عندهم من الكمائن التى كانت كامنة في صدورهم من الملك الأشرف إينال لما فعل بابن أستاذهم الملك المنصور عثمان، وحبس خجداشيتهم، وتقريب أعدائهم الأشرفية مماليك الأشرف برسباي، فانتهزوا الفرصة، وانضافوا إلى المماليك الأجلاب، وعرفوهم أن الأمر لا يتم إلا بحضرة الخليفة ولبس السلاح.

فساق قانى باى المشطوب أحد المماليك الظاهرية من وقته إلى بيت الخليفة القائم بأمر الله حمزة، وكان في الخليفة المذكور خفة وطيش، فمال إليهم، ظنًّا أنه يكون مع هؤلاء وينتصر أحدهم ويتسلطن، فيستفحل أمره ثانيًا أعظم من

الأمير تغري بردي المؤذى البكلمشى في سنة ست وأربعين وثمانمائة، فباشر الدوادارية إلى أن خلع عليه باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية، بعد موت يشبك السودونى في سنة تسع وأربعين وثمانمائة، تقريب التى قبلها تخمينًا، واستقر بعده في الدوادارية الأمير قانى باى إجلاركسي.

واستمر الأمير إينال المذكور في الأتابكية بديار مصر، إلى أن تسلطن بعد أمور جرت بينه وبين الملك المنصور عثمان بن جقمق، في يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة، ولقب بالملك الأشرف أبى النصر إينال. وكانت صفته- رحمه الله- للسمرة أقرب، طويلاً، غالب طوله من وسطه ونازل، قصير البشت، رقيق الوجه نحيف اليد، لحيته في حنكه، وهى شعرات بيض، ولهذا كان لا يعرف إلا بإينال الأجرود، وفى كلامه رخو، مع خنث كان في لهجته، ولهذا لما لبس السواد خلعة السلطنة كان فيها غير مقبول الشكل، لكونه أسمر اللون، والخلعة سوداء، فلم تبتهج الناس برؤيته؛ ولذلك أسباب: السبب الأول، ما ذكرناه من صفته وسواد الخلعة، والسبب الثانى وهو الأغلب، لقرب عهد الناس من شكل الملك المنصور عثمان، الشكل الظريف البهي، والفرق واضح، لأن المنصور كان سنه دون العشرين سنة من غير لحية، وهو في غاية الحسن والجمال- أحسن الله دونه- والأشرف إينال هذا سنه فوق السبعين، وقد علمت صفته مما ذكرناه، فلا لوم على من لا يعجبه شكل الأشرف إينال ولا عتب.

أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 244.

الأول. وسببه أنه كان لما ولاه الظاهر جقمق الخلافة بعد أخيه المستكفى بالله سليمان صار تحت أوامر الظاهر، لأنه هو الذى استخاره وولاه الخلافة. فلما ثار إينال على المنصور عثمان وطلبه وجاء إلى عنده، قوى أمر إينال بمجيء الخليفة عنده. فلما تسلطن عرف إينال له ذلك، ورفع محله أضعاف ما كان أولاً، وزاده عدة إقطاعات، وصارت له حرمة وافرة في الدولة إلى الغاية. فلما كانت هذه الفتنة ظن في نفسه أنه يوافقهم، فإذا تسلطن أحد منهم رفع محله زيادة على ما فعل إينال، ويصير الأمر كله بيده، وما يدرى بأن لسان الحال يقول له: الرجزصير من أمرهم.

فلما وقع ما ذكرناه تحققوا خروجهم على أستاذهم، وثار ما عندهم من الكمائن التى كانت كامنة في صدورهم من الملك الأشرف إينال لما فعل بابن أستاذهم الملك المنصور عثمان، وحبس خجداشيتهم، وتقريب أعدائهم الأشرفية مماليك الأشرف برسباي، فانتهزوا الفرصة، وانضافوا إلى المماليك الأجلاب، وعرفوهم أن الأمر لا يتم إلا بحضرة الخليفة ولبس السلاح. فساق قانى باى المشطوب أحد المماليك الظاهرية من وقته إلى بيت الخليفة القائم بأمر الله حمزة، وكان في الخليفة المذكور خفة وطيش، فمال إليهم، ظنًّا أنه يكون مع هؤلاء وينتصر أحدهم ويتسلطن، فيستفحل أمره ثانيًا أعظم من الأول. وسببه أنه كان لما ولاه الظاهر جقمق الخلافة بعد أخيه المستكفى بالله سليمان صار تحت أوامر الظاهر، لأنه هو الذى استخاره وولاه الخلافة. فلما ثار إينال على المنصور عثمان وطلبه وجاء إلى عنده، قوى أمر إينال بمجيء الخليفة عنده.

فلما تسلطن عرف إينال له ذلك، ورفع محله أضعاف ما كان أولاً، وزاده عدة إقطاعات، وصارت له حرمة وافرة في الدولة إلى الغاية. فلما كانت هذه الفتنة ظن في نفسه أنه يوافقهم، فإذا تسلطن أحد منهم رفع محله زيادة على ما فعل إينال، ويصير الأمر كله بيده، وما يدرى بأن لسان الحال يقول له الرجز:

خير الأمور الوسط ::: حب التناهى غلط
ما طار طير وارتفع ::: إلا كما طار وقع

ولما حضر الخليفة عندهم، تكامل لبسهم السلاح، وانضافت إليهم خلائق من المماليك السيفية، وأوباش الأشرفية، وغيرهم من الجياع الحرافيش. فلما رأت الأجلاب أمر الظاهرية، حسبوا العواقب، وخافوا زوال ملك أستاذهم، فتخلوا عن الظاهرية قليلاً بقليل، وتوجه كل واحد إلى حال سبيله، فقامت الظاهرية بالأمر وحدهم؛ وما عسى يكون قيامهم من غير مساعدة، وقد تخلى عنهم جماعة من أعيانهم وخافوا عاقبة هذه الفتنة؟!. هذا وقد تعبأ السلطان لحربهم، ونزل من القلعة إلى باب السلسلة من الإسطبل السلطاني.

وتناوش القوم بالسهام، وأرادوا المصافقة، فتكاثر عليهم السلطانية، وصدموهم صدمة واحدة بددوا شملهم، بل كانوا تشتتوا قبل الصدمة أيضًا. وهجموا السلطانية في الحال إلى بيت الأمير خشقدم أمير سلاح، وأخذوا الأمراء المرسم عليهم، وأخذوا فيمن أخذوا الخليفة معهم، وطلعوا بهم إلى السلطان.

فلما رأى السلطان الخليفة وبخه بالكلام الخشن، وأمر بحبسه بالبحرة من قلعة الجبل، وخلعه من الخلافة بأخيه يوسف في يوم الخميس ثالث شهر رجب المذكور. ثم سفر الخليفة القائم بأمر الله المذكور في يوم الاثنين سابع رجب إلى سجن الإسكندرية فسجن بها مدة سنين، ثم أطلق من السجن، وسكن بالإسكندرية إلى أن مات بها في أواخر سنة اثنتين وستين وثمانمائة، ولما انتهت الوقعة وخلع السلطان الخليفة، أمسك جماعة من المماليك الظاهرية وحبسهم بالبرج من قلعة الجبل، ونفى بعضهم واختفى بعضهم، وأخرج قوزى الساقى الظاهرى وكان تأمر عشرة ومعه عشرين مملوكًا من المماليك الظاهرية إلى البلاد الشامية، مع أن قوزى المذكور لا في العير ولا في النفير. وسافروا في يوم الجمعة تاسع شهر شعبان، وسكن الأمر كأنه لم يكن، لحسن سياسة السلطان في تسكين أخلاط الفتن.. " [1].

(1) النجوم الزاهرة، 15 / 365- 374.

وفى عهده كثر اعتداءات المماليك الأجلاب [1] على الناس وقيامهم بالسلب والنهب بين عامة الناس حتى اضطر السلطان للمناداة في الناس بعدم تعرض المماليك الأجلاب لممتلكات الناس: "... نودى بالقاهرة من قبل السلطان بعدم تعرض المماليك الأجلاب إلى الناس والباعة والتجار، فكانت هذه المناداة كضرب رباب أو كطنين ذباب. واستمروا على ما هم عليه من أخذ أموال الناس والظلم والعنف حتى غلت الأسعار في سائر الأشياء من المأكول والملبوس والغلال والعلوفات، وصاروا يخرجون إلى ظواهر القاهرة، ويأخذون ما يجدون من الشعيروالتبن والدريس بأبخس الأثمان، إن أعطوا ثمنًا، وإن شاؤوا أخذوه بلا ثمن، وكل من وقع له ذلك معهم لم يعد ثانيًا إلى بيع ذلك الصنف إلا أن يكون محتاجًا لبيعه، فعزت لذلك هذه الأصناف بحيث إنها صارت أقل وجودًا من أيام الغلاء، فصار هذا هو الغلاء بعينه، وزيادة على الغلاء عدم الشيء. ثم شرعوا في نهب حواصل البطيخ الصيفى وغيره. ثم تزايد أمرهم، وشرعوا يفعلون ذلك مع تجار القماش وغيره، فغلت جميع الأسعار مع كثرتها عند أربابها، فضر ذلك بحال الناس قاطبة، رئيسها وخسيسها، وهذا أول أمرهم.

ومن ثم دخل في قلوب الناس من المماليك الأجلاب من الرجيف والرعب أمر لا مزيد عليه، لعلمهم أنه مهمًا فعلوا جاز لهم، وأن السلطان لا يقوم بناصر من قهر منهم... " [2].

وصار من قوة المماليك الأجلاب أن صارت مقاليد الأمور بأيديهم وتعطل القضاء و لم تعد تنفع أحكام الحكام، وصار هؤلاء الأجلاب هم المدبرون لأمر

---

(1) المماليك الأجلاب- أو المشتريات- هم المماليك الذين كان قد اشتراهم السلطان أو الأمراء كل حسب مقدرته ورتبته وكان هو المسؤول عن حمايتهم والصرف عليهم وإغداق الأموال مقابل أن يكونوا عونًا له في الأزمات، وكان الأشرف إينال قد أكثر من شراء هؤلاء الأجلاب وترك لهم الحبل على الغارب، فعاثوا فسادًا في البلاد ولم يردعهم ولم يوقفهم عند حدهم وكانت هذه أحد النقاط السوداء في عهده.

(2) النجوم الزاهرة، 15 / 380- 385.

السلطنة... وقد انحل أمر حكام الديار المصرية أرباب الشرع الشريف والسياسة أيضًا، لعظم شوكة المماليك الأجلاب، وصار من له حق عند كائن من كان من الناس قصد مملوكًا من المماليك الأجلاب في تخليص حقه، فما هو إلا أن أعلم ذلك المملوك بقصده خلص من غريمه في الحال؛ فإن هؤلاء المماليك صاروا في أبواب أعيانهم شكل رأس نوبة ونقباء، ولبعضهم دوادار، فيرسل خلف ذلك الرجل المطلوب، ويأمره بإعطاء حق ذلك المدعى حقًا كان أو باطلاً بعد أن يهدده بالضرب والنكال، فأن أجاب وإلا ضرب في الحال ونكل به. وعلم بذلك كل أحد، فصار كل أحد يستعين بهم في قضاء حوائجه، وترك الناس الحكام، فقوى أمر الأجلاب، وضعفت شوكة الحكام، وتلاشى أمرهم إلى الغاية والنهاية... " [1].

وحدث في مصر آنذاك غلاء فاحش، وترادف معه وقوع الطاعون فيها، وساءت أحوال الناس لذلك، وقد كثر الوباء بالديار المصرية، وانتشر بها وبظواهرها، هذا مع الغلاء المفرط في الأسعار وظلم المماليك الأجلاب، فصارت الناس بين ثلاثة أمور عظيمة: الطاعون، والغلاء، والظلم، وهذا من النوادر وقوع الوباء والغلاء معًا في وقت واحد فوقع ذلك وزيد ظلم الأجلاب... " [2].

وقد توفى الأشرف عام 865هـ / 1461م، ويذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى حسنات وسيئات عهده فيقول: "... وكان له محاسن ومساوئ، والأول أكثر، فأما محاسنه، فكان ملكًا جليلاً، عاقلاً رئيسًا سيوسًا، كثير الاحتمال، عديم السر، غير سباب ولا فحاش في حال غضبه ورضاه. وكان عارفًا بالأمور والوقائع والحروب، شجاعًا مقدامًا، كثير التجارب للخطوب والقتال، عظيم التروى في أفعاله، ثابتًا في حركاته ومهماته، له معرفة تامة بملوك الأقطار في البلاد الداخلة في حكمه، وفى الخارجة عن حكمه أيضًا، عارفًا بجهات ممالكه شرقًا

(1) النجوم الزاهرة، 15 / 380- 385.
(2) النجوم الزاهرة، 15 / 380- 385.

وغربًا، وفهمًا بفنون الفروسية وأنواعها، لا يحب تحرك ساكن ولا إثارة فتنة، وعنده تؤدة في كلامه واحتمال زائد، يؤديه ذلك إلى عدم المروءة عند من لا يعرف طباعه. ومن محاسنه أنه منذ سلطنته ما قتل أحدًا من الأمراء ولا من الأجناد الأعيان، على قاعدة من تقدمه من الملوك، إلا من وجب عليه القتل بالشرع أو بالسياسة، وأيضًا أنه كان قليلاً ما يحبس أحدًا أو ينفيه، سوى من حبس في أوائل دولته من أعيان الأمراء كما هى عوائد أوائل الدولة.

ثم بعد ذلك لم يتعرض لأحد بسوء، إلا أنه نفى جماعة عندما ركبوا عليه ثانيًا في حدود سنة ستين، وخلع الخليفة القائم بأمر الله حمزة بسبب موافقته لهم على قتاله، ثم حبسه بالإسكندرية، وهو معذور في ذلك، ولو كان غيره من الملوك لفعل أضعاف ذلك، بل وقتل منهم جماعة كثيرة. وبالجملة فكانت أيامه سكونًا وهدوءًا ورياقة وحضور بال، لولا ما شان سؤدده من مماليكه الأجلاب، وفسدت أحوال الديار المصرية بأفعالهم القبيحة، ولولا أن الله تعالى لطف بموته، لكان حصل الخلل بها، وربما خربت وتلاشى أمرها. هذا ما أوردناه من محاسنه، بحسب القوة الباعثة.

وأما مساوئه، فكان بخيلاً شحيحًا مسيكًا، يبخل ويشح حتى على نفسه. وكان عاريًا من العلوم والفنون المتعلقة بالفضائل. كان أميًّا لا يعرف القراءة والكتابة حتى كان لا يحسن العلامة على المناشير والمراسيم إلا برسم الموقع له بالنقط على المناشير، فيعيد هوعلى النقط بالقلم.

هذا مع طول مكثه في السعادة والرياسة والولايات الجليلة ثم السلطنة. ومع هذا لم يهتد إلى معرفة الكتابة على المناشير ولا غيرها، فهذا دليل على بلادة ذهنه وجمود فكره. ولعله كان لا يحسن قراءة الفاتحة ولا غيرها من القرآن العزيز فيما أظن. وكانت صلاته للمكتوبات صلاة عجيبة، نقرات ينقر بها، لا يعبأ الله بها. وكان مع هذه الصلاة العجيبة لا يحب التملق، ولا إطالة الدعاء بعد الصلاة، بل ربما نهى الداعى عن تطويل الدعاء.

ولم يكن بالعفيف عن الفروج، بل ربما اتهمه بعض الناس بحب الوجوه والملاح والصباح من الغلمان والله تعالى أعلم بحاله إلا أنه كان يعف عن تعاطى المنكرات المسكرات. وكان في الغالب أموره وأحكامه مناقضة للشريعة، لا سيما لما أنشئت مماليكه الأجلاب؛ فإنهم قلبوا أحكام الشريعة ظهرًا لبطن، وهو راض لهم بذلك، وكان يمكنه إرداعهم بكل ممكن، ومن قال غير ذلك فهو مردود عليه، وأحد أقوال الرد عليه قول من يقول: فكيف سطوة السلطنة مع عدم قوته لرد هؤلاء الشرذمة القليلة مع بغض العالم لهم، وضعفهم عن ملاقاة بعد العوام؟! فكيف أنت بهم وقد ندب لهم طائفة من طوائف المماليك؟! ومثل هذا القول فكثير.

وأيضًا رضاه بما فعله سنقر قرق شبق الزردكاش عند عمارته لمراكب الغزاة، لأن سنقر فعل أفعإلا لا يرتضيها من له حظ في الإسلام، وكان يمكنه رده عن ذلك بكل طريق، بل كان يخلع عليه في كل قليل، ويشكر أفعاله؛ فرضاه بفعل مماليكه الأجلاب، وبفعل سنقر هذا وأشباه ذلك هو أعظم ذنوبه. وما ساء منه الناس وأبغضته الخلائق وتمنوا زوال ملكه إلا هذا المعنى، ومعنى آخر وهو ليس بالقوى وهو ثقل وطأة ولده وزوجته ومملوكه بردبك الدوادار. قلت: والأصح عندى هو الذنب الأول.

وأما هؤلاء فكان ثقلهم على مباشرى الدولة أي على من يسعى عندهم في وظيفة من ولاية أو عزل، أو أمر من الأمور، فعلى هذا كان ضررهم خصوصًا لا عمومًا، وأيضًا لا يشمل ضررهم إلا لمن جاء إلى بابهم أو قصدهم في حاجة دنيوية، فهو أحق بما يحل به، لأنه هو الساعى في إيذاء نفسه، والمثل يقول: " من قتلته يداه لا بكاء عليه ". نعم وكان من مساوئه مخافة السبل في أيامه بالقاهرة والأرياف، حتى تجاوز الحد، وعمرت الناس على بيوتهم الدروب لعظم خوفهم من دق المناسر وقطاع الطريق بالأرياف، مع أنه كان قاطعًا للمفسدين، غير أن الحمايات كانت كثيرة في أيامه، وهذا أكبر أسباب خراب الديار المصرية وقراها، ومن يوم تجددت هذه الحمايات فسدت أحوال

الأرياف قبليها وبحريها؛ وهذا البلاء ما كثر وفشا في الدولة إلا بعد الدولة المؤيدية شيخ، واستمرت هذه السنة القبيحة إلى يومنا هذا. والعجب أنه ليس لها نفع على السلطان ولا على بلاده، وإنما هى ضرر محض على السلطان والناس قاطبة، والملك لا يلتفت إلى إزالتها، مع أنه لو منع ذلك لم يضر أحد من الناس، وانتفع الناس جميعًا بمنعها، وعمرت غالب البلاد، وتساوت الناس، وبالمساواة تعمر جميع الممالك، غير أن الفهم والعقل والتدبير منح إلهية، فلا يفيد الكلام في ذلك، ولله در القائل: الوافر

لقد أسمعت لو ناديت حيًا ::: ولكن لا حياة لمن تنادي

ونار لو نفخت بها أضاءت ::: ولكن أنت تنفخ في الرماد

وقد خرجنا عن المقصود. ولما كثر فساد المماليك الأجلاب عمل بعض الظرفاء بليقًا، ذكر فيه أفعال الأجلاب ومساوئهم، واستطرد إلى أن قال في آخره:

حاشا لله دوام هذى النقمه ::: ونحن أفضل برية من أمه

نبينا ما حد مثلو

أزاح عنا كيد الكفار ::: وقد رمينا بيد الأشرار

فكل حد ماسك ديلو

متى يزيح عنا هذى الدوله ::: ويحكم الناس من لوصوله

وترتاح البرية في عدلو

فالله بجاه سيد عدنان ::: عوض لنا منك بإحسان

هذا الجميل إنتا أهلو

فوالله العظيم لم تمض عليه سنة بعد ذلك، بل ولا ستة أشهرحتى مرض ومات. فهذا ما ذكرناه من محاسن الملك الأشرف إينال ومساوئه، ونرجو الله تعالى أن يكون ذلك على الإنصاف لا على التحامل... [1].

---

(1) النجوم الزاهرة، 15 / 400- 406.

المؤيد أحمد بن إينال 865هـ / 1461م:

لما مرض الأشرف إينال 865هـ / 1461م وأحس بدنو أجله، جمع الأمراء المماليك الكبار، والخليفة والقضاة وتنازل عن الحكم لابنه أحمد [1] وأشهدهم على ذلك، ثم ما لبث أن مات بعد ذلك بقليل في نفس العام.

وتميز عهد المؤيد - رغم قصر مدته بالأمن والأمان فقد كبت المماليك الأجلاب وردعهم، فإنه من يوم تسلطن الملك المؤيد أحمد هذا حصل الأمن في جميع الأعمال برًّا وبحرًا، شرقًا وغربًا، من غير أمر يوجب ذلك، ووقع رعب السلطان في قلوب المفسدين حتى صار أحدهم لا يستطيع أن يخرج من داره فكيف يقطع الطريق، فانطلقت الألسن بالدعاء للملك المؤيد هذا، وتبارك كل أحد بقدومه واستيلائه على الأمر، ومالت النفوس إلى محبته ميلاً زائدًا خارجًا عن الحد؛ فإنه أول ما تسلطن قمع مماليك أبيه الأجلاب عن تلك الأفعال التي كانوا يفعلونها أيام أبيه، وهددهم بأنواع النكال إن لم يرجعوا، فرجع الغالب منهم عن أشياء كثيرة مما تقدم ذكرها، وعلم الناس من السلطان ذلك؟، فطمع كل أحد في الأجلاب فانحط قدرهم، حتى صار أحدهم لا يستطيع أن يزجر غلامه، ولا خدمه، فزاد حب الناس للملك المزيد لذلك، فكل من أحبه فهو معذور، لما قاست الناس منهم أيام أبيه من تلك الأفعال القبيحة. على أن الملك المؤيد أيضًا كان له في أيام والده مساوئ كثيرة من جهة حماياته البلاد والمراكب بساحل النيل، وأشياء أخر غير ذلك، فقاست الناس من حماياته أهوالاً، فلما تسلطن ترك ذلك كأن لم يكن، وأقبل على العدل وإرداع المفسدين، فبدل في أيامه الجور بالعدل، والخوف بالأمن، والراحة بعد التعب ولله الحمد...

---

(1) أحمد بن إينال العلائي، الملك المؤيد أبو الفتح بن الملك الأشرف. ولد بعد ثلاثين وثمانمائة. وترقى في سلطنة أبيه إلى أن صار أميرًا كبيرًا. ثم ولى السلطنة في مرض أبيه وذلك وهو السلطان السابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والثالث عشر من الجراكسة وأولادهم. تسلطن في يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الأولى من سنة خمس وستين وثمانمائة الموافق لأول برمهات.

.[1]

وقد جعل المؤيد له معينًا في الحكم الأتابكى خشقدم. وبالرغم من أن المؤيد قد ناهز الأربعين عامًا إلا أنه لم يستطع تدبير الأمور، ولم يقبض على زمام السلطة، ولم ينجح في إرضاء مماليك أبيه الذين ثاروا عليه لأنه، لم يوزع عليهم الإقطاعيات الكبيرة ولأنه أبقى الوضع السياسى والاقتصادى الذى كان على عهد أبيه على ما هو عليه، ولم يعين له أتابكًا يكون المتصرف في أمور الدولة كما كان العهد في الفترات السابقة، وكما هو المتبع مع السلاطين السابقين حين يتركون أبنائهم تحت وصاية أحد الأتابكة الذى يسيطر على مقاليد الأمور، ويعدد أبو المحاسن بن تغرى بردى المآخذ التى أخذها كبار أمراء المماليك على المؤيد فيقول: "... وكان الباعث لهذه الفتنة... فإن الملك المؤيد لما تسلطن لم يحرك ساكنًا ولم يتغير أحد مما كان عليه، فشق ذلك على الظاهرية، وقال كل منهم في نفسه: كأن الملك الأشرف إينال ما مات، فإن الغالب منهم كان أخذ ما بيده من الإقطاعات، وحبس ونفى في أول سلطنة الأشرف إينال، كما هى عادة أوائل الدول، وبقى منهم جماعة كثيرة بلا رزق ولا إمرة ولم يجدوا عندهم قوة ليخلعوا الملك المؤيد هذا ويسلطنوا غيره وحدهم، فكلموا الأشرفية في هذا المعنى غير مرة، وترفقوا لهم، فلم يقبلوا منهم ذلك، لنفرة كانت بين الطائفتين قديمًا وحديثًا، وأيضًا فلسان حال الأشرفية يقول عندما سألوهم الظاهرية: نحن الآن في كفاية من الأرزاق والوظائف، فعلام نحرك ساكنًا، ونخاطر بأنفسنا؟ فعجزوا فيهم الظاهرية، وقد ثقل عليهم الملك المؤيد، وكثر خوفهم منه، فإنه أول ما تسلطن أبرق وأرعد، فانخزى كل أحد، وحسبوا أن في السويداء رجالاً، ولهذا قلت فيما تقدم: لو فعل ما فعل لمشى له ذلك، لمعرفتى بحال القوم وشجاعتهم. وكان دخول المؤيد السلطنة بحرمة وافرة، لأن سنه كان نحو الثلاثين سنة يوم تسلطن، وكان ولى الأتابكية في أيام أبيه، وأخذ وأعطى، وسافر أمير حاج المحمل، وحج قبل ذلك أيضًا وسافر

(1) النجوم الزاهرة، 15 / 400- 406.

البلاد، ومارس الأمور في حياة والده. وهذا كله بخلاف من تقدمه من سلاطين أولاد الملوك، فإن الغالب منهم حدث السن يريد له من يدبره، فإنه ما يعرف ما يراد منه، فيصير في حكم غيره من الأمراء فتتعلق الآمال بذلك الأمير، وتتردد الناس إليه، إلى أن يدبر في سلطنة نفسه، بخلاف المؤيد هذا، فإنه ولى السلطنة وهو يقول في نفسه إنه يدبر مع مملكة مصر ممالك العجم زيادة على تدبير مصر.

وكان كما زعم؛ فإنه تقدم أنه: كان عارفًا عاقلاً مباشرًا، حسن التدبير، عظيم التنفيذ شهمًا، وكان هو المتصرف في الأمور أيام أبيه في غالب الولايات والعزل وأمور المملكة، فلما تسلطن ظن كل أحد أن لا سبيل في دخول المكيدة على مثل هذا، لمعرفة الناس بحذقه وفطنته. وكان مع هذه الأوصاف مليح الشكل، وعنده تؤدة في كلامه، وعقل وسكوت خارج عن الحد، يؤديه ذلك إلى التكبر، وهذا كان أعظم الأسباب لنفور خواطر الناس عنه؛ فإنه كان في أيام سلطنته لا يتكلم مع أحد حتى ولا أكابر الأمراء إلا نادرًا، ولأمر من الأمور الضروريات، وفعل ذلك مع الكبير والصغير، وما كفى هذا حتى صار يبلغ الأمراء أنه في خلوته يسامر الأطراف الأوباش الذين يستحى من تسميتهم، فعظم ذلك على الناس، وقال هذا وغيره: إنه لا يلتفت إلى المماليك ويزدريهم، وهو مستعز بمماليك أبيه الأجلاب وأصهاره وحواشيه وخجداشية أبيه وبالمال الذي خلفه أبوه، وكان مع هذا قد قمع مباشرى الدولة وأبادهم، وضيق عليهم، ودقق في حسابهم كما هو في الخاطر وزيادة، فما أحسن هذا لو كان دام واستمر!! فنفرت قلوب المباشرين أيضًا منه، وحق لهم ذلك، فأخذ أمره في إدبار، لعدم مثابرته على سير طريقه الأول من سلطنته، فلو جسر لكسر، لكنه هاب فخاب، ولكل أجل كتاب [1].

ثم أجمع أمراء المماليك أمرهم على خلع السلطان المؤيد من السلطنة، وجمعوا

---

(1) النجوم الزاهرة، 15 / 405- 409.

حشودهم، والتقى الفريقان في موقعة نكراء بالقرب من الرميلة، واستمرت الحرب بين الفريقين مدة ثلاثة أيام، وانجلت المعركة عن هزيمة المؤيد وفراره واختبائه، ثم ألقى القبض عليه وألقى في السجن ولم يمض على ولايته سوى أربعة أشهر تقريبًا، ويعلق أبو المحاسن بن تغرى بردى على ذلك بقوله: "... وقد علمت وعلم كل أحد أيضًا بأن الذى وقع لهم من زوال ملكهم في أسرع وقت إنما هو بدعوة مظلوم غفلوا عنها، لم يغفل الله عنها، ولله در القائل الوافر:

أرى الدنيا تقول بملء فيها ::: حذار حذار توبيخى وفتكي
و لا يغرركم مني ابتسام ::: فقولى مضحك، والفعل مبكي

قلت: " على قدر الصعود يكون الهبوط، وكما تدين تدان، وما ربك بظلام للعبيد، والجزاء من جنس العمل " [(1)].

الظاهر سيف الدين خشقدم الناصري 865 - 872هـ / 1461 - 1467م:

لم يكن خشقدم [(2)] هو المحرك الرئيسي للفتنة والثورة ضد السلطان

(1) النجوم الزاهرة، 15 / 405- 409 وكانت مدة تحكم المؤيد من يوم تسلطن إلى يوم خلع من السلطنة بالملك الظاهر خشقدم أربعة أشهر وستة أيام بغير تحرير، وبتحرير الأوقات والساعات: وخمسة أيام. ولما نكب الملك المؤيد وخلع من السلطنة على هذا الوجه كثر أسف الناس عليه إلى الغاية والنهاية؛ فإنه كان سار في سلطنته سيرة حسنة جميلة، وقمع أهل الفساد وقطاع الطريق بجميع إقليم مصر، وأمنت السبل في أيامه أمنًا زائدًا، واطمأنت النفوس من تلك المخاوف التى كانت في أيام أبيه، وزالت أفعال الأجلاب بالكلية مما أردعهم في أوائل سلطنته بالآخراق بالوعيد وأبعدهم عنه. ثم سلك الطريق الجميلة في الرعية، فعظم حب الناس له، وانطلقت الألسن له بالدعاء والابتهال سرًّا وعلانية، وسر بسلطنته كل أحد من الناس، ومالت القلوب إليه، لولا تكبر كان فيه وعدم التفات إلى الأكابر، حسبما تقدم ذكره، وهذا كان أكبر الأسباب لتوغر خواطر الأمراء منه، وإلا فكان أهلاً للسلطنة بلا نزاع. فلو أنه سار مع الأمراء سيرة والده الأشرف من الملق، وأخذ الخواطر مع إرادة الله تعالى، لدامت أيامه مقدار المواهب الإلهية، لأنه كان ملكًا عارفًا سيوسًا، فطنًا عالى الهمة يقظًا، لولا ما شان سؤدده من التكبر، ومصاحبة الأحداث، ولله در القائل: الطويل.

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها؟ ::: كفى المرء فخرًا أن تعد معايبه

(2) هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم بن عبد الله الناصرى المؤيدي، وهو السلطان الثامن والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والأول من الأروام بعد أن تسلطن من الجراكسة وأولادهم ثلاثة عشر ملكًا، أعنى أول دولة الظاهر برقوق وهو القائم بدولة

السابق المؤيد أحمد بن إينال بل شاركه الفتنة نائب الشام جانم [1]،

الجراكسة ابتداء. وأما من سلف من ملوك الترك الجراكسة والأروام ففيهم اختلاف كثير، لعدم ضبط المؤرخين هذا المعنى. والذى تحرر منهم من دولة الملك الظاهر برقوق إلى يومنا هذا، فأول الجراكسة برقوق، وأول الأروام خشقدم، هذا وبينهما إحدى وثمانون سنة لا تزيد ولا تنقص يومًا، ... تسلطن يوم خلع الملك المؤيد أبو الفتح أحمد ابن السلطان الملك الأشرف إينال الأجرود، ولقب بالملك الظاهر، وكنى بأبى سعيد، أصله رومى الجنس، جلبه خواجا ناصر الدين إلى الديار المصرية في حدود سنة خمس عشرة وثمانمائة، أو في أوائل سنة ست عشرة، وسنه يوم ذلك دون البلوغ، فاشتراه الملك المؤيد شيخ، وجعله كتابيًّا سنين كثيرة، ثم أعتقه وجعله من جملة المماليك السلطانية، إلى أن مات الملك المؤيد فصار خشقدم هذا خاصكيًّا في دولة ولده الملك المظفر أحمد بن شيخ، بسفارة أغاته الأمير تغري بردي قريب قصروه. ودام خاصكيًّا مدة طويلة إلى أن صار ساقيًا في أوائل دولة الملك الظاهر جقمق. ثم أمره الملك الظاهر إمرة عشرة، وجعله من جملة رؤوس النوب في حدود سنة ست وأربعين، فدام على ذلك إلى سنة خمسين، فأنعم عليه الملك الظاهر أيضًا بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق واستمر بدمشق إلى أن تغير خاطر الملك الظاهر جقمق على الأمير البردبكى حاجب الحجاب بسبب عبد قاسم الكاشف الذى نعتوه الناس بالصلاح، ونفاه إلى ثغر دمياط بطالاً، فرسم السلطان الملك الظاهر جقمق بطلب خشقدم هذا من مدينة دمشق، ليكون عوضًا عن تنبك المذكور في حجوبية الحجاب، وعلى إقطاعه أيضًا دفعة واحدة، وذلك في صفر سنة أربع وخمسين وثمانمائة. وكان مجيء خشقدم هذا إلى الديار المصرية بسفارة الأمير تمربغا الظاهرى الدوادار الثاني، وقيل على البذل على يد أبى الخير النحاس.

وأنعم السلطان بتقدمة خشقدم هذا الذي بدمشق على الأمير علان جلق المؤيدي، فاستمر خشقدم المذكور على الحجوبية إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق، فخلع عليه بإمرة سلاح عوضًا عن الأمير تنبك البردبكى الذى كان أخذ عنه الحجوبية بعد أن وقع لتنبك المذكور دورات وتنقلات، فدام على وظيفة إمرة سلاح إلى أن سافر مقدم العساكر السلطانية إلى بلاد ابن قرمان.

ثم عاد واستمر على حاله إلى أن تسلطن الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف إينال، فخلع عليه باستقراره أتابك العساكر عوضًا عن نفسه، وذلك في يوم الجمعة سادس عشر جمادى الأولى سنة خمس وستين. فلم تطل أيامه، وثار القوم بالملك المؤيد أحمد وقاتلوه حتى خلعوه حسبما، وتسلطن الملك الظاهر خشقدم هذا. ووقع في سلطنته نادرة غريبة، وهى أن الملك الظاهر برقوقا كان أول ملوك الجراكسة بالديار المصرية إن كان الملك المظفر " بيبرس " الجاشنكير غير جاركسى وكانت سلطنة برقوق في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة، ولقب بالملك الظاهر، وكانت سلطنة الملك الظاهر خشقدم هذا في يوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة، فتوافقا في اللقب والشهرة والتاريخ والشهر، وذلك أول ملوك الجراكسة، وهذا أول دولة الأورام، فبينهما إحدى وثمانون سنة لا تزيد يومًا ولا تنقص يومًا، لأن كلا منهما تسلطن بعد أذان الظهر في تاسع عشر شهر رمضان.

(1) جانم الأشرفى برسباى بل هو قريبه ولذا استقدمه من جركس ثم عمله خاصكيًا ثم أشركه مع غيره في إمرة الطبلخاناه، ثم قدمه في سنة ست وثلاثين ثم عمله أميراخور إلى أن تجرد صحبة العسكر إلى أرزنكان، وكان قدومهم بعد موت قريبه فقبض عليه الأتابك وحبسه بالإسكندرية مدة ثم نقل

ولذلك فقد كانت أفئدة البعض من أمراء المماليك معه وحاولوا توليته السلطنة، وكاتبوه بذلك، ولكنهم ملكوا عليهم بصفة مؤقته سيف الدين خشقدم لحين عودة جانم من الشام، ولكن خشقدم ثبت في السلطة ولم يتزحزح عن الكرسي، واستمال قلوب أمراء المماليك إليه بالنفقة حينًا وبالتهديد مرة وبالوعيد مرة حتى انصرفت معظم القلوب من حول جانم وانجذبت نحو خشقدم، فلما قدم جانم من الشام وجد القلوب منصرفة عنه ووجد أن معظم من كاتبوه بالمجيء إلى مصر لتولى السلطنة قد

منها إلى البلاد الشامية ثم أطلق في سنة إحدى وخمسين وأرسل لمكة بطالاً ثم للقدس ثم حبس بقلعة الكرك إلى أن أطلقه الأشرف إينال وقدمه بالقاهرة ثم أعطاه نيابة حلب ثم الشام، فلما تسلطن المؤيد خاف من غائلته لقوة شوكته وكاتب أعيان دمشق بالقبض عليه متى أمكنهم، واتفق مجيء ولده الأشرف يحيى القاهرة شافعًا في بعض الأمراء فوعد بذلك بعد مدة وكان ذلك سببًا لمشيه سرًا مع الأمراء حتى أذعن جمهورهم لوالده وأخذ عليهم في ذلك العهود والمواثيق واستكتب خطوطهم ورجع وعنده أن الأمر قد تم لأبيه وضم أبوه ذلك لما كان يراه من المنامات وما يبشره به من يعتقد صلاحه، فبادر بعد أن وقعت هجة نهب فيها جميع ماله من خيول وقماش ومتاع وغير ذلك إلى الميدان على أقبح وجه، وتوقف في دخوله القاهرة كذلك فحسنه له بعض مفسدى أتباعه فما أمكنته المخالفة ووصل مطرودًا منهوبًا إلى الصالحية، فبلغه استقرار الظاهر خشقدم فسقط في يده وما أمكن كل منهما إلى المخادعة لصاحبه، حتى استقر به على حاله في نيابة دمشق، وعاد اليها بعد وصوله لخانقاه سرياقوس على رغمه وتلافى أمره مع عوام دمشق بالإحسان والمغالطة وسلوك العدل، وكذا استعمل مع السلطان ما يقتضى استجلاب خاطره، فلم ينجر معه بل أرسل له بعد مديدة بالعزل وأن يتوجه للقدس بطالاً فلم يجب وخرج من دمشق بمماليكه وحشمه إلى جهة الشرق ووقعت له أمور فيه إلى أن توجه لصاحب آمد حسن بك فقام معه وقدم إلى معاملة حلب فلم ينتج أمره، فعاد إلى الرها إلى أن دس عليه فيها من قتله من مماليكه في ربيع الأول سنة سبع وستين، وأرسل حسن بك بولده الأشرف يحيى مع قاصد له لاستعطاف السلطان عليه، فأمر بتوجهه للقدس بطالاً ووبخ القاصد فاعتذر وساعده الأمراء حتى رضى عنه وألبسه خلعة، وجهز معه أخرى هائلة لمرسله مع هدية، وكان جانم دينًا متعبدًا مقتفيًا أثر السنة محبًا في الفقهاء والصالحين منور الشيبة قصير القامة كثير الأفضال والمؤاساة مجتهدًا في أحكامه متحريًا في أحواله بحيث عدت حركته وانقياده مع من لم يتدبر العاقبة محنة لما نشأ عنها من السفك والنهب مع حدة وبادرة وسرعة حركة، ولكن محاسنه كثيرة، وما رأيت أحدًا من ثقات أصحابه كالزين قاسم والبرهان القادريين إلا ويذكر عنه أوصافًا جميلة وأنه لا مال له معهم بل هو فيه كأحدهم، وأما خطيب مكة الكمال أبو الفضل النويرى فله معه اليد البيضاء خصوصًا حين ورد عليه الشام فإنه ما رجع إلا ملكًا، وبالجملة فقد عاش سعيدًا ومات شهيدًا رحمه الله وإيانا. السخاوي، الضوء اللامع، 2 / 15.

انصرفوا عنه لجانب خشقدم، فرضى بما أغدقه عليه خشقدم من الهدايا والأموال وعاد أدراجه إلى الشام، ثم ما لبث أن دبر مؤامرة أودت بحياته وتخلص منه إلى الأبد [1].

ومن الأحداث المهمة في تاريخ الظاهر خشقدم إرسال حملة عسكرية لجزيرة قبرص... وفى يوم خامس عشر ذى القعدة عين السلطان تجريدة إلى قبرص نجدة لمن بها من العساكر الإسلامية... كما ثارت المماليك الأشرفية بزعامة جرباش المحمدى الناصرى المعروف بكرد أمير سلاح [2] ضد سيطرة خشقدم وقيامه بعزل الكثير من رؤسائهم، ومروا به من باب النصر من شارع القاهرة، وبين يديه جماعة من أمراء الأشرفية وغيرهم، وعليهم آلة الحرب، وقد لقبوه بالملك الناصر على لقب أستاذه الناصر فرج بن برقوق، ولكن ظهر على الأشرفية وغيرهم اختلال أمرهم لاختلاف كلمتهم من سوء آرائهم المفلوكة، ولعدم تدبيرهم.

وأما الملك الظاهر خشقدم فإنه لما بلغ الملك الظاهر والظاهرية أمرهم طلعوا بأجمعهم إلى القلعة، وانضم عليهم أيضًا خلائق، لعظم شوكة

---

(1) السخاوي، الضوء اللامع، 2 / 15، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، 1 / ص 51.

(2) جرباش كرد.

جرباش بن عبد الله المحمدى الناصري، الأمير سيف الدين، أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية، المعروف بكرد.

أصله من مماليك الملك الناصر فرج بن برقوق، وتنقل في الدول حتى صار في الدولة الأشرفية برسباي رأس نوبة الجمدارية، ثم أمير عشرة ورأس نوبة، وتزوج ببنت أستاذه الملك الناصر فرج خوند شقرا، واستمر على ذلك إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق إلى إمرة طبلخاناة وجعله أمير آخورا ثانيًا، عوضًا عن الأمير دولات باي المحمودى بحكم انتقاله إلى الدوادارية الثانية، بعد الأمير أسنبغا الطياري المنتقل إلى تقدمة ألف بالديار المصرية.

فاستمر المذكور في هذه الوظيفة من سنة اثنتين وأربعين إلى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة أنعم عليه بتقدمة ألف بالديار المصرية، عوضًا عن الأمير تنم بن عبد الرزاق المؤيدى أمير مجلس، بحكم انتقال تنم إلى إقطاع الأمير قراقجا الحسنى بعد وفاته.

أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافي، 1 / 380.

السلطنة من خجداشية السلطان المؤيدية وغيرهم، وأخذوا السلطان ونزلوا به من القصر إلى مقعد الإسطبل السلطانى أعلى باب السلسلة، وعليهم السلاح، ودقت الكوسات بالقلعة، وشرعوا في القتال. وبينما هم في تناوش قتال جرباش، وقد رأى جرباش أن أمره لا ينتج منه شيء، تدارك فرطه، وقام من وقته، وركب وطلع إلى القلعة طائعًا إلى السلطان، وقبل الأرض واعتذر بالإكراه، فقبل السلطان منه عذره، ثم رسم السلطان بنفى الأمير الكبير جرباش المحمدى الناصرى المعروف بكرد إلى ثغر دمياط بطالاً، وفى النفس من ذلك شيء، وانهزمت الأشرفية الكبار، وانهزم جميع من كان انضم على جرباش المذكور، وتوجه كل منهم إلى حال سبيله، فتجاهل السلطان عليهم، وزعم أنه قبل أعذارهم إلى أن تم أمره، فمد يده يمسك وينفي، ويكتب إلى التجاريد والسخر، إلى أن أبادهم. ثم في يوم الجمعة سابع وعشرين ذي الحجة المذكور أخفوا الأمراء الممسوكين، ونزلوا بهم إلى حبس الإسكندرية " [1].

الظاهر أبو النصر بلباى س872 هـ / 1467م:

جاءت وفاة الظاهر خشقدم المفاجئة، لتضع الدولة المملوكية في حيرة فيمن يتولى خلافته، إذ إن خشقدم لم يعهد لأحد من بعده، فأجمع أمراء المماليك لا سيما المماليك الأجلاب على اختيار الظاهر سيف الدين بلباى المؤيدى [2]ولم

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 4 / 473.

(2) وهو السلطان التاسع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم، والرابع عشر من الجراكسة وأولادهم. تسلطن في آخر نهار السبت عاشر شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، ... أصله جاركسى الجنس، جلبه الأمير إينال ضضع من بلاد الجاركس إلى الديار المصرية في عدة مماليك، فاشتراه الملك المؤيد شيخ قبل سنة عشرين وثمانمائة، وأعتقه وجعله من جملة المماليك السلطانية، وأسكنه بالقلعة بطبقة الرفرف. ثم صار خاصكيًا بعد موت أستاذه، ودام على ذلك إلى أن صار من أعيان الخاصكية. وأنعم الأشرف برسباى عليه بثلث قرية طحورية من الشرقية، ثم نقله الملك العزيز يوسف ابن السلطان الملك الأشرف برسباى إلى نصف بنها العسل بعد أيتمش المؤيدي. ثم صار ساقيًا في أوائل دولة الملك الظاهر جقمق، فلم تطل أيامه في السقاية، وأمره عشرة وجعله من

يستطع أحد من الأمراء الكبار المماليك، أن يعترض على هذا الاختيار، لكونه أولاً من المقربين إلى الظاهر خشقدم وثانيًا أنه كان أتابك العسكر، ثم إنه ثالثًا كان من المقربين إلى المماليك الأجلاب أصحاب الكلمة والنفوذ في دولة المماليك آنذاك، وعليه فقد بايع الخليفة والقضاة الأربعة الظاهر أبو النصر يلباى دون تردد (1).

وفى عهد هذا السلطان كثرت الفتن واضطربت أمور الدولة، وكانت بدايتها أنه قام بقتل ونفى كثير من أمراء المماليك الكبار، مما أسخطهم عليه، ثم ورد

جملة رؤوس النوب، فدام على ذلك إلى أن تسحب الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباى من قلعة الجبل واختفى إلى أن ظفر به يلباى هذا في بعض الأماكن، وطلع به إلى الملك الظاهر جقمق، فأنعم عليه الملك الظاهر جقمق بقرية سرياقوس زيادة على ما بيده، وصار أمير طبلخاناه. ودام على ذلك إلى أن تسلطن الملك المنصور عثمان ابن السلطان الملك الظاهر جقمق، فقبض على يلباى هذا وعلى اثنين من خجداشيته: دولات باى الدوادار الكبير ويرشباى الأمير آخور الثاني، وذلك في سنة سبع وخمسين، وحبس بثغر الإسكندرية إلى أن أطلقه الملك الأشرف إينال من سجن الإسكندرية، وأطلق خجداشيته المذكورين، ووجهه إلى دمياط بطالاً ثم أحضره إلى القاهرة بعد أيام قليلة، فاستمر بطالاً مدة يسيرة. وقتل الأمير سونجبغا اليونسى الناصرى ببلاد الصعيد، وكان سونجبغا هو الذى أخذ إقطاع يلباى هذا بعد مسكه، فأعاده الملك الأشرف إينال إليه، وصار على عادته أولاً أمير طبلخاناه إلى أن مات الأمير خير بك المؤيدى الأشقر الأمير آخور الثاني، فنقل يلباى هذا إلى الأمير آخورية الثانية من بعده، فدام على ذلك إلى أن أنعم عليه الملك الأشرف إينال بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، فدام على ذلك إلى أن نقله الملك الظاهر خشقدم إلى حجوبية الحجاب بالديار المصرية، عوضًا عن " بيبرس " خال العزيز، بحكم انتقاله إلى وظيفة رأس نوبة النوب، بعد انتقال الأمير قانم إلى إمرة مجلس بعد انتقال قرقماش إلى إمرة سلاح، بحكم انتقال جرباش إلى الأتابكية، عوضًا عن الملك الظاهر خشقدم، وذلك في يوم الأربعاء سابع شوال. فاستمر يلباى هذا على الحجوبية إلى أن نقله الملك الظاهر خشقدم إلى الأمير آخورية الكبرى، بعد توجه برسباى البجاسى إلى نيابة طرابلس، بعد القبض على الأمير إياس المحمدى الناصري، وذلك في يوم الخميس سابع عشر المحرم سنة ست وستين. فدام يلباى هذا في هذه الوظيفة إلى أن نقل إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية بعد موت الأتابك قانم دفعة واحدة، بعد أن كان يجلس في مجلس السلطان خامس رجل، وذلك في يوم الاثنين ثامن عشر صفر سنة إحدى وسبعين وثمانمائة. واستمر على ذلك إلى أن مرض الملك الظاهر خشقدم، وثقل في مرضه، وتكلم الناس فيمن يتسلطن فيما بينهم، فرشح جماعة، فاختارت الأجلاب يلباى هذا، كونه أتابك العساكر وأيضًا خجداش أستاذهم، فتسلطن. أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 20.

(1) النجوم الزاهرة، 5 / 20.

الخبر بعصيان الأمير بردبك نائب الشام [1]، وأنه قتل جميع النواب الذين بعثهم إليه السلطان بلباي، وجاء هذا الخبر والديار المصرية غير مستقيمة الأحوال لعدم المدبر. والطرق مخيفة، والسبل غير آمنة. وما ذاك إلا أن الملك الظاهر بلباى لما تسلطن وتم أمره غطاه المنصب، وصار كالمذهول، ولزم السكات وعدم الكلام، وضعف عن بت الأمور، وردع الأجلاب، بل صارت الأجلاب في أيامه كما كانت أولاً وأعظم، فلم يحسن ذلك ببال أحد، وصار الأمير خيربك الدوادار الثانى [2] هم صاحب الحل والعقد في مملكته، وإليه جميع أمور

---

(1) بردبك الجمالى الظاهرى جقمق ويعرف بالبجمقدار؛ ترقى حتى صار في أيام الظاهر خشقدم مقدمًا ثم حاجبًا كبيرًا؛ وسافر أمير الحاج ثم باشر المجردين إلى جزيرة قبرص حتى سخط عليه لعوده بدون إذن فصرفه عن الحجوبية وأنفده لنيابة حلب ثم أعطاه نيابة الشام بعد برسباى البجاسى ثم كان فيمن خرج لدفع سوار فنسب لمواطأته معه حتى خذل عسكر السلطان، وتخلف هو عنده وجاء الخبر بذلك في أيام الظاهر بلباى فصرفه عن النيابة بخشداشه رأس نوبة النوب أزبك عقب مجيئه من تجريدة العقبة، ولم يلبث أن فارق بردبك سوارًا وسافر قاصدًا الديار المصرية فأرسل إليه بلباى من رجع به إلى القدس بطالاً فأقام به إلى أن أنعم عليه الأشرف قايتباى برجوعه إلى الشام على نيابتها، واستمر حتى مات مسمومًا فيما قيل إما في صفر أو الذى قبله سنة خمس وسبعين، واستقر بعده في النيابة برقوق الظاهري. السخاوي، الضوء اللامع، 1 / 477.

(2) خير بك الظاهرى خشقدم. أصله من مماليك سودون قرقاش فاشتراه الظاهر في أيام إمرته وعمله بعد مدة خازنداره ولما تسلطن جعله من جملة الخازندارية الصغار، ثم أمره عشرة ودام به على الخازندارية إلى أن نقله إلى الدوادارية الثانية في شوال سنة سبعين عوض جانبك كوهيه، وسافر فيها أمير المحمل بعد أن تزوج ابنة الجمالى ناظر الخاص بن كاتب حكم واستولدها وحجت معه، وصار هو والشهبانى حفيد العينى المرجع بحيث كانا كفرسى رهان، بل كان عند موت أستاذه عظيم الممالك الظاهرية الخشقدمية والمتكلم عنهم، ولذا كانت ولاية الظاهر بلباى برأيه وتدبيره، ولم يكن له معه في مدته سوى الاسم، ثم نقله الظاهر تمربغا للدوادارية الكبرى، فكافأه بالوثوب عليه، وأخذ أتباعه ممحاة الملك والدرقة منه، وسلموهما لصاحب الترجمة، وأجلسوه موضع السلطان، وقيل: إنه سلطنوه، وقبلوا له الأرض، ولقبوه بالعادل، ونزل إلى الاسطبل السلطانى بخجداشيته الاجلاب مترقبًا من يجيئه من غيرهم، ممن كان متواعدًا معه، فخذلوه فغير نقابة والتفت إلى جهة الظاهر حين علم العجز والغلبة كل ذلك ليلاً وكف عنه الظاهر من رام قتله، ولكن حبسه بالخزانة الصغيرة من المقعد وما تحرك إلا والأشرف قايتباى سلطانًا، وبادر لحبس خير بك بالركب خاناه، وأخذ في جلب الأموال من قبله، ثم أرسل به إلى الإسكندرية فسجن بها إلى أن أنعم عليه بالتوجه لمكة فأقام بها مدة على خير من اشتغال ونحوه ثم شفع فيه ليكون ببيت المقدس فأجيبت وبلغ أصهاره ضعفه، فتوجه إليه ناظر الجيش وأخوه ومعهما أختهما زوجته لتقيم عنده،

المملكة. وشاع ذلك في الناس والأقطار، وسمته العوام: " أيش كنت أنا؟ قل له " يعنون أن السلطان لما يسأل في شيء يقول: " أيش كنت أنا، قل لخيربك " فبهذا وأشباهه اضطربت أحوال الديار المصرية. هذا مع ما ورد من البلاد الحلبية من قتل أكابر أمراء البلاد الشامية، ونهب للبلاد الحلبية، وأخذ قلاع أعمالها، ابتدأ السلطان بالنفقة على المماليك السلطانية لكل واحد مائة دينار، ففرقت هذه النفقة على أقبح وجه؛ وهو أن القوى يعطى، والغائب يقطع، والمسن يعطى نصف نفقة أو ربع نفقة، ومنع أولاد الناس والطواشية من الأخذ، وعاداتهم أخذ النفقة، فأحدث الظاهر بلباى هذا الحادث، وكثر الدعاء عليه بسبب ذلك، وتفاءل الناس بزوال ملكه لقطعه أرزاق الناس، فكان كذلك. ومنع السلطان أيضًا أمراء الألوف وغيرهم من النفقة، ولم يعط إلا من كتب منهم إلى السفر لا غير، فبهذا المقتضى وأمثاله نفرت القلوب من الظاهر بلباي، وعظمت الوقيعة في حقه، وكثرت المقالة في بخله، وعدت مساوئه، ونسيت محاسنه إن كان له محاسن وصارت النفقة تفرق في كل يوم سبت وثلاثاء طبقة واحدة أو أقل من طبقة، حتى تطول الأيام في التفرقة. وبالجملة فكانت أيام الملك الظاهر بلباى نكدة، قليلة الخير، كثيرة الشر، وعظم الغلاء في أيامه، وتزايدت الأسعار، وهو مع ذلك لا يأتى بشيء، وجوده في الملك وعدمه سواء؛ فإنه كان سالبة كلية، لا يعرف القراءة ولا الهجاء، ولا يحسن العلامة على المناشير والمراسم إلا بالنقط، مع عسر في الكتابة. وكان الناس قد أهمهم أمر الجلبان أيام أستاذهم الملك الظاهر خشقدم، فزادوا بسلطنة الملك الظاهر يلباى هذا همًّا على همهم " [(1)].

وقد ساءت الأمور في عهد هذا السلطان واضطربت أمور الدولة، فقام الأمراء

فكان وصولهم إلى بلد الخليل في أوائل ربيع الآخر سنة تسع وسبعين وثمانمائة فطرقهم الخبر بأنه على خطر فأسرعوا إليه فأدركوه بآخر رمق، فأقاموا عنده يومًا أو يومين ومات، وقد كنت في ركبه متوجهًا إلى مكة حال عزه فرأيت منه إكرامًا ومزيد أدب وحسن عشرة وفهم عفا الله عنه. السخاوي، الضوء اللامع، 2 / 113.

(1) النجوم الزاهرة، 5 / 20- 22.

بخلعه من السلطنة ولم يمض على سلطنته سوى شهرين [1].

الظاهر تمربغا الرومى الناصرى 872هـ / ديسمبر 1467 - يناير 1468م:

بعد خلع الظاهر بلباى أجمع أمراء المماليك على اختيار الظاهر أبي سعيد تمربغا الناصرى [2]، وقد استبشر الناس في بداية حكمه لما له من

(1) النجوم الزاهرة، 5 / 20- 22.

(2) يقال: إنه رومى الأصل من مماليك الظاهر جقمق أعتقه ورباه صغيرًا ورقاه إلى أن جعله خاصكيًا ثم سلحدارًا ثم خازندارًا، ثم إلى أن صار أتابكًا للعساكر ثم تسلطن، وكان له فضل وتودد إلى الناس، وحذق ببعض الصنائع بحيث كان يعمل القبى الفائقة بيده ويعمل السهام عملاً فائقًا، ويرمى بها أحسن رمى مع الفروسية التامة. ما زال به الأمر حتى خلعوه ونفوه إلى الإسكندرية، وكانت مدة ولايته ثمانية وخمسين يومًا. ثم إن السلطان قايتباى اعتذر إليه من وثوبه عليه، وأكرمه وأحسن مثواه، وأرسله إلى دمياط على أحسن حال، فقبل عذره ولم يقع لملك من الإكرام بعد الخلع ما وقع له لكونه جديرًا بذلك. العصامي، سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي، 2 / 303.

يقول السخاوي: "... تمربغا الظاهر أبو سعيد الرومى الظاهرى جقمق. قدم به بعض تجار الروم البلاد الشامية في سنة اثنتين وعشرين فملكه شاهين الزردكاش نائب طرابلس ثم تنقل إلى أن ملكه الظاهر وهو أميراخور فأحسن تربيته وأدبه وهذبه ثم اختص به وقربه وجعله خاصكيًا وسلحدارًا في أول سلطنته ثم نقله إلى الخازندارية ثم أمره عشرة، وحج أمير الأول غير مرة ثم أمير المحمل ورقاه إلى الدوادارية الثانية عوضًا عن دولات باى فباشرها بحرمة وافرة ومهابة ودام على ذلك مدة فاشتهر اسمه وبعد صيته، وارتقى في الوجاهة لأزيد من منصبه فلما تسلطن ابن أستاذه نقله إلى الدوادارية الكبرى وصار هو المدبر للمملكة؛ وأظهر في أيام المحاصرة من الشجاعة والإقدام والفروسية ما علم؛ ولم يلبث أن انقضت تلك الأيام فكان فيمن سجن بالإسكندرية ثم نقل منها إلى الصبيبة فاستمر بها سنين ثم أطلق وأذن له في التوجه إلى الحج مع الركب الشامى، فأقام بمكة أيضًا سنين، فلما استقر الظاهر خشقدم استقدمه للجنسية ولأياد له سابقة عليه فقدمه، وعمله رأس نوبة النوب، ثم أخرجه إلى الإسكندرية في جملة جماعة قبض عليهم ثم أعيد بعد أيام قلائل على ما كان عليه بل ولى إمرة مجلس أيضًا، فلما تسلطن بلباى صار أتابك العساكر، ثم صار بعده سلطانًا في آخر يوم السبت سابع جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين بعد خلعه وسر جمهور الناس به لمزيد عقله وتؤدته ورياسته وفصاحته وفهمه، ولم يلبث أن خلع في يوم الاثنين سادس رجب منها بالأشرف قايتباى ثم أرسل إلى دمياط ليقيم به بدون ترسيم فأقام به إلى أول العشر الثالث من ذى القعدة، فحضر إليه محمد بن عجلان وعيسى بن سيف ومن انضم إليهما من الأعراب حمية له فأخذوه وحضروا به إلى جهة الصالحية، ليدبر أمر عوده إلى المملكة أو لغير ذلك فسار وهم في خدمته مع أبى الفتح ناظر دمياط ودولات باى، وتنم الظاهريين خشقدم وثلاثة مماليك تقريبًا إلى قطيا ثم منها إلى جهة غزة فأمسك وأرسل نائبها أرغون شاه يعلم السلطان بذلك ويسأل في إرسال من يتسلمه منه ثم ركب بعساكره وهو معه إلى أن وصل به إلى بلبيس، فتسلمه منه الدوادار الكبير

عقل راجح، وسياسة حكيمة، ولكن أمراء المماليك الخشقدمية بزعامة الأمير خير بك الدوادار ثاروا عليه وغدروا به، وخلعوه من السلطنة، وقبضوا عليه ولم يكن قد مضى على حكمه أكثر من ثمانية وخمسين يومًا، ونادوا بالأمير خير بك سلطانًا على البلاد ولكن الأمور لم تستقر له ولم يتول الأمر[1].

وهكذا تعاقب السلاطين على عرش دولة المماليك في سرعة مما يدل على حالة عدم الثبات والاستقرار، وبعضهم لم يظل في منصبه إلا أيامًا معدودات، بل إن أحدهم - في تلك الفترة القلقة - لم يبق في منصب السلطنة سوى ليلة واحدة. ويقصد بذلك الأمير " خير بك " (872 هـ / 1468م) الذى تسلطن في المساء، وتم عزله في الصباح التالي، مما جعل المعاصرين يطلقون عليه اسم: سلطان ليلة، وطوال تلك الليلة ظل

يشبك من مهدي، وتوجه به إلى اسكندرية ليكون بها في بيت العزيز يوسف بدون ترسيم ولا تحفظ وأنه يحضر الجمعة والعيدين مع الجماعة، وأرسل هو يبالغ في الترقق والتعطف ويعتذر عن صنيعه وأنه إنما حمله عليه ما كان يطرق سمعه من الأمر بسجنه بالإسكندرية والتضييق عليه فرام التوجه إلى الطور ليتوصل منه في البحر إلى مكة، واستمر مقيمًا بالثغر على أعز حال وأكرم هيئة مما لم يسبق إليه غيره، إلى أن مات في يوم الجمعة ثامن ذى الحجة سنة تسع وسبعين بعد توعكه عدة أشهر، ودفن هناك بحوش لنائبها إذ ذاك الأمير قجماس بجانب مدرسته ثم عمل على قبره قبة لطيفة نافذة لها، ورتب هناك قراء. ووجد عنده من النقد نحو تسعة عشر ألف دينار، فيما قيل سوى ماله هناك من أثاث ومتاجر وغير ذلك؛ هذا مع كونه من قريب أرسل يشتكى الفقر والفاقة بحيث جهز له السلطان فيما قيل ألف دينار وغير ذلك، وكان ملكًا لائقًا فقيهًا فاضلاً يحفظ المنظومة للنسفي؛ ويستحضر كثيرًا من المسائل الفقهية مع مشاركة حسنة في فنون كالتاريخ والشعر وحذق وذكاء وعقل تام وجودة رأى وتدبير وفصاحة اللغتين العربية والتركية وطهارة لسان وحشمة وأدب وتجمل زائد في ملبسه ومركبه ومأكله ومشربه ومسكنه، وله في ذلك اختراعات تنسب إليه، وعلى ذهنه الكثير من الصنائع كعمل القوس والسهام عارفًا برمى النشاب معرفة تامة إليه انتهت الرياسة فيه بل وفى غيره من أنواع الفروسية والملاعيب.

لكنه كان غير عفيف فيما يقال قائمًا في أغراض نفسه جدًّا مع إثارة فتن ومكر وخداع ومزيد تكبر ودخول فيما يقصر أمثاله عن دونه، وتعرض للخلاف بين الحنفية والشافعية؛ وربما نسب إليه التكلم بما لا يليق مما أظنه السبب في سرعة انقضاء حكمه، السخاوي، الضوء اللامع، 1 / 500.

(1) السخاوي، الضوء اللامع، 1 / 500، 2 / 1، العصامي، سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي، 2 / 303.

خيـر بـك يتصـرف " بمـا اقتضـى لـه الاختيـار ولسـان حالـه يناديـه: كـلام الليل يمحوه النهار " [1].

الأشرف أبو النصر قايتباى (872 - 901هـ / 1468 - 1496م):

كـان الأشـرف قايتبـاي[2] متغيبًـا عـن الـبلاد، حيـث كـان بـالقوات فـي بـلاد الشـام، فلمـا علـم بتوليـة الظـاهر تمربغـا الناصـرى السـلطنة، عـاد بقواتـه، وقـد حـاول الأميـر خيـر بـك - الـذى كـان قـد تـولى السـلطنة لليلـة واحـدة بعـد عـزل الظـاهر تمربغـا الناصـرى - أن يتصـدى لـه بمـن معـه مـن المماليـك الأجـلاب ولكـن الأشـرف قايتبـاى تمكـن مـن هـزيمتهم وردهـم علـى أعقـابهم، وقـد زيـن لـه الكثيـر مـن أمـراء المماليك أمـر توليـة السـلطنة، ولمـا تـم أمـر الأتابـك قايتبـاى مـن قتـال الأجـلاب وانتصـر، طلـع مـن بـاب السلسـلة، وجلـس بمقعـد الإسـطبل. وكـان لهـج بعـض الأمـراء عنـد طلـوع قايتبـاى إلـى الإسـطبل بـأن قـال: " الله ينصـر الملـك الناصـر قايتبـاى "، وسـمع بعـض النـاس ذلـك. ولمـا جلـس الأتابـك قايتبـاى بمقعـد الحراقـة بتلـك

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص 286- 287.

(2) وهو السلطان الحادى والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والخامس عشر من الجراكسة وأولادهم، وأصل الملك الأشرف قايتباى هذا أنه جاركسى الجنس، جلب من بلاده إلى الديار المصرية في حدود سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، فاشتراه الملك الأشرف برسباي، ولم يجر عليه عتقا، وجعله بطبقة الطازية من أطباق قلعة الجبل إلى أن ملكه الملك الظاهر جقمق، وأعتقه وجعله خاصكيًّا، ثم دوادارًا صغيرًا. ثم امتحن بعد خلع ابن أستاذه الملك المنصور عثمان. ثم تراجع أمره عند الملك الأشرف إينال، وصار دوادارًا صغيرًا كما كان أولاً. ثم أمره إينال، إمرة عشرة، فدام ذلك إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر خشقدم بإمرة طبلخاناة، وجعله شاد الشراب خاناه بعد جانبك الأشرفى المشد، فدام في المشدية أيامًا كثيرة. وتوجه إلى تقليد نائب حلب، ثم بعد عوده بمدة أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية. فاستمر على ذلك إلى أن جعله الملك الظاهر بلباى رأس نوبة النوب بعد خروج الأمير أزبك الظاهرى إلى نيابة الشام، وأنعم عليه بإقطاعه أيضًا. فلم تطل أيام قايتباى هذا، ونقله الملك الظاهر تمربغا إلى الأتابكية عوضًا عن نفسه لما تسلطن، فلم تطل أيامه أيضًا في الأتابكية، وتسلطن، ولما استقر جلوسه بالقصر، وخلع عليه خلعة السلطنة أمر بحبس الأمير خير بك الدوادار بالركبخاناة، وكذلك الأمير أحمد العينى أمير مجلس، واختفى الأمير خشكلدى البيسقى رأس نوبة النوب، ثم ظهر فرسم بنفيه.

العظمة الزائدة كلمه بعض الأمراء في السلطنة، وحسنوا له ذلك، فأخذ يمتنع امتناعًا ليس بذاك، إلى أن قام بعضهم وقبل الأرض له، وفعل غيره كذلك، فامتنع بعد ذلك أيضًا، فقالوا: " ما بقي يفيد الامتناع، وقد قبلنا لك الأرض. فإما تذعن وإما نسلطن غيرك ". فأجاب عند ذلك. فقال بعض الظرفاء: " جلوسه بالمقعد والملك الظاهر تمربغا بالقصر كان ذلك إجابة منه، وإلا لو لم يكن له غرض في ذلك كان طلع إلى القصر عند السلطان دفعة واحدة " [1].

ومن الأحداث المهمة في عهد الأشرف قايتباي: تهديد أمراء الدولة التركمانية التى تقع على حدود دولة المماليك الشمالية، والتى كانت تحظى بتأييد ومباركة الدولة العثمانية آنذاك، وقد ثار شاه سوار أمير دلغادر [2] بمهاجمة شمال الشام والبلاد الحلبية، في بداية عهد الأشرف

---

(1) أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5 / 39- 40.

(2) سوار بن سليمان بن ناصر الدين يك بن دلغادر التركمانى ويسمى فيما قيل محمد ويقال له: شاه سوار نائب الأبلستين ومرعش. خرج عن الطاعة ومشى على بعض البلاد الحلبية محتجًا بأنه لآبائه وأجداده فقرر الظاهر خشقدم في سنة إحدى وسبعين عوضه أخاه شاه بضع على عادته قبل، فاستعان في استرجاعها منه بتملك الروم ابن عثمان وخرج إليه نواب الشام وحلب وغيرهما، فكسرهم بمباطنة نائب الشام بردبك البجمقدار معه ثم جهز له الأشرف قايتباى تجريدة هائلة فانكسرت وفنى من الأمراء المصريين ونحوهم من لا يحصى كثرة سوى من أسر، فأردفها بأخرى فخذلت أيضًا ثم بثالثة كان باشها الدوادار الكبير يشبك من مهدى حسبما شرح ذلك كله في الحوادث، فعلم حينئذ من نفسه العجز عن المقاومة مع ما دبره الباش من الاحتيال حتى نزل إليه بعد أن ظهر لصاحب الترجمة تخلف غير واحد من أعيان العسكر الأمن، فلما نزل أكرمه الباش وكف الناس عنه لا سيما الغوغاء وشبههم واستصحبه معه إلى الديار المصرية، فسر السلطان فمن دونه بإحضاره لكثرة ما تلف بسببه من العدد والعدد والأموال التى تفوق الوصف مع صغر سنه وكونه من جنس التركمان، وقرب عهده برياسة وإمرة؛ وبالغ في توبيخه عن مقالاته التى كانت تحكى عنه وبما صدر منه في حق العساكر؛ ثم أمر الوالى سرًّا بإتلافه فتسلمه وأركبه وهو مطوق بحديد به قصبة في رأسها جرس كبير من نحاس على هجين، كل ذلك بقصد الإزراء به إلى أن جيء به لباب زويلة فعلق بكلاليب شكت في كتفه فلم يلبث أن مات في يومه، وذلك في يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الأول سنة سبع وسبعين قبل الغروب بدون ساعة فأنزل وغسل وكفن وصلى عليه بباب المحروق، ثم دفن بجانب تربة يشبك جن بالقرب من تربة الظاهر خشقدم وهو ابن بضع وأربعين، وكان فيما قيل يكثر التلاوة من المصحف بطول الطريق ويصوم الاثنين والخميس مع

قايتبـاي، الـذى شـعر بمـدى الخطـر الـذى يمثلـه الخطـر التركمـانى علـى الدولـة المملوكيـة، فأرسـل إلـيهم ثـلاث حمـلات عسـكرية، بـاءت الأولـى بالفشـل، ولـم تحقـق الحملـة الثانيـة الهـدف المرجـو منهـا لـذا فقـد جـرد حملـة عسـكرية كبيـرة بقيـادة الأميـر يشـبك الـدوادار[1]، تمكـن مـن إخمـاد الفتنـة

فهم في الجملة ومشاركة في بعض المنطق ومعاناة النظر في النجوم قد نبذه الشيب ببعض شعرات في لحيته من الجانبين بعمامة مدورة وفوقانى مفتوح مزنر بقصب بمقلب لطيف على جارى عادة تفصيل التركماني، ووجهه حسن أبيض اللون ظاهر الحرمة مستدير اللحية بشعر أسود جميل الهيئة محترم الشكل وتألم غير واحد من المقدمين لإتلافه والله يحسن العاقبة. السخاوي، الضوء اللامع، 2 / 155.

(1) يشبك بن مهدى الظاهرى جقمق ويعرف بالصغير. كان ممن حج في سنة إحدى وخمسين هو وجماعة من إخوته كتغري بردي القادرى صحبة أمير الأول الطواشى عبد اللطيف مقدم المماليك واغاة طبقتهم واتفق في تلك السنة تناوش بعرفة بين جماعة الشريف والعرب الجالبين للغنم، فكان فيما قاله لى ممن حجز بينهما بعد قتل جماعة من الطائفتين أكثرهم من العرب واستفتى القاضى سعد الدين بن الديرى، وكان قد حج في تلك السنة عن تحركهم للقتال في هذا اليوم فأفتاهم بما خفف به عنهم وبعد انتهاء الوقوف قال: أنه وجد أعجميًّا أو نحوه وهو يبكى وينتحب ويلتمس من يرجع معه لعرفة ليأمن على نفسه في أخذ ما كان ستره من ماله بالأرض حين الوقعة خوفًا عليه ويكون له النصف منه، وأنه توجه في طائفة معه حتى أخذه وهو شيء كثير وأنهم سمحوا له بما وعدهم به فلم يأخذوا منه شيئًا فالله أعلم.

ثم كان ممن قام بحفظ السبيل في دولة ابن أستاذه بل هو أنهض القائمين بذلك وأبدى حينئذ من الفروسية والشجاعة ما ذكر به من ثم، ولذا كان ممن أمسك في أول ولاية الأشرف إينال ثم نفى إلى قوص ثم أعيد وصار بَعْدُ أحد الدوادارية الصغار وصاهر الأمين الأقصرائى على ابنة أخته أخت الإمام محب الدين ثم أرسله الظاهر خشقدم في أول سنة إحدى وسبعين كاشف الصعيد بأسره ونائب الوجه القبلى بكماله إلى أسوان بعد أن كانت هذه النيابة متروكة مدة، وأنعم عليه معها بإمرة عشرة فباشر بحرمة وافرة بحيث مهد البلاد وأبطل أجواق مغانى العرب التى جرت عادة الكشاف باستصحابها معهم وجرت هناك حروب وخطوب بينه وبين عرب هوارة وأنكى فيهم وجرح بل أشرف على التلف، وعين الظاهر لذلك تجريدة رأسها قرقماش أمير سلاح واشتد بأسه وكثرت أمواله وتزايدت وجاهته ثم كان ممن قام مع الأشرف قايتباى في السلطنة وشد عزمه لقبولها وهو الرسول منه إلى الظاهر تمربغا يأمره بالتوجه من القصر إلى البحرة، وحينئذ استقر به في الدوادارية الكبرى عوضًا عن خير بك الظاهرى خشقدم وعول عليه في كل أمر وصار هو المرجع وبالغ في نصحه بحيث أنه رام حين ورد عن العسكر المجهز لسوار ما ورد التوجه لدفعه، فمنعه السلطان لمسيس حاجته إليه فساعد في النفقة للتجريدة بحمل عشرين ألف دينار سوى ما أعطاه لبعض الأمراء وسوى ما قرره على أعيان المباشرين والرؤساء والخدام من الطواشية، وهو شيء كبير كل على حسب مقامه، ولمزيد وثوقه به كان هو المتوجه لمسك الظاهر تمربغا لما خرج

والقبض على الزعيم التركماني سوار وأتى به مقيدًا في الأصفاد إلى مصر، حيث شنق هو وأخوته الأربعة وعلقوا على باب زويلة، وولى السلطان على بلاده مكانه أخاه عليًا [1].

ولم تقتصر المتاعب التي واجهت السلطان الأشرف قايتباي على التركمان فقط، بل كانت هناك إغارة ملك العراقيين " حسن الطويل " على أملاك الدولة في بلاد الشام، فساق إليه جيشًا كبيرًا بقيادة الأمير يشبك الدوادار أيضًا فرده على أعقابه سنة 877هـ / 1472م، كذلك خرج بعض أمراء شرق الشام على طاعة السلطان، ووقعت بسبب ذلك فتنة عمياء، بمدينة حماة، فخف لها الأمير يشبك الدوادار لإخمادها سنة 885هـ، فنجح في ذلك نجاحًا تامًّا، إلا أن انتصاراته المتوالية أغرته على أن يمعن في الفتح، وانتهز فرصة الفوضى التي عمت قبيلة الشاه البيضاء عقب وفاة أميرها حسن الطويل سنة 883هـ / 1478م، فقام بحملة ضدها سنة 885هـ / 1480م وسار إلى شرق الفرات، ولكن حاكم الرها - وهو أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل - استطاع أن

والتوجه به إلى الإسكندرية ثم كان هو باش العسكر المتوجه لدفع سوار واحتال حتى أحضره في طائفة، وكان أمرًا مهولاً أفرده إمامه الشمس بن أجا بالجمع فبالغ، وأضيف إليه الوزارة فقطع ووصل ورفع وخفض وكذا أضيف إليه الإستادارية، وبقوة بأسه كان فصل النزاع في عود الكنيسة التى زعم اليهود قدمها ببيت المقدس وهدمها المسلمون، فأعيدت واعتذر هو عندى بأن قيامه ليس محبة فيهم ولكن للوفاء بعهدهم، إلى غير ذلك من الحوادث كهدمه السبيل الذى أنشأه أمير سلاح جانبك الفقيه عند رأس سويقة منعم وغير خاطر السلطان عليه حتى نفى واستقر بعده في إمرة سلاح وأضيف إليه النظر على خانقتى سعيد السعداء والبيبرسية والصالح وما لا ينحصر، وبالجملة فصارت الأمور كلها لا تخرج عنه وارتقى لما لم يصل إليه في وقتنا غيره من أبناء جنسه، ... ولم يزل على عظمته إلى أن سافر باشا لعسكر هائل إلى حلب بعد اجتماع سائر العساكر الشامية وما أضيف إليها بها واقتضى رأيه المسير للبلاد العراقية فقطع الفرات وتوجه إلى الرها فكان ضرب عنقه صبرًا على يد أحد أمراء يعقوب بن حسن باك في رمضان سنة خمس وثمانين وجيء بجثته في أثناء ذى القعدة فتلقاها السلطان وجميع المقدمين فمن دونهم ودفنت بتربته، السخاوي، الضوء اللامع، 5 / 160- 161.

(1) الصيرقي، إنباء الغمر، ص 18، ابن إياس، بدائع الزهور، 3 / 59، 76- 78.

ينـزل الهزيمـة بالمماليـك أثنـاء حصـارهم مدينـة الرهـا، وقتـل أمامهـا هـو وكثيـر مـن جنـوده، وعـذبت عـدة مـن أمـراء مصـر المـرافقين لـه فـي الحملـة، وكـادت الـبلاد الحلبيـة والشـامية يفلـت زمامهـا مـن يـد السـلطان الأشـرف قايتبـاى بعـد هـذه الهزيمـة لـولا أن تـدارك السـلطان هـذا الخطـر وبعـث حملـة جديـدة بقيـادة الأتـابكى أزبـك بـن ططـخ [(1)]، فكـان لهـا الأثـر الحميد في إعادة الأمن إلى نصابه في تلك البلاد [(2)].

ثـم تجـدد التـوتر علـى الحـدود مـع التركمـان إذ أغـرى العثمـانيون الأميـر علـى دولات - أخـو سـوار - والـذى كـان عينـه السـلطان الأشـرف قايتبـاي،

---

(1) أزبك بن ططخ الأشرفى ثم الظاهرى جقمق. جلبه الخواجا ططج من بلاد جركس فاشتراه الأشرف برسباى في سنة إحدى وأربعين وكان مراهقًا ثم انتقل لولده العزيز واشتراه الظاهر جقمق، وأعتقه أستاذه ورقاه بحيث جعله ساقيًا ثم عمله أمير عشرة في سنة اثنتين وخمسين عوضًا عن تمراز البكتمرى المؤيدى المصارع ثم من رؤوس النوب، ثم زوجه ابنته من مطلقته خوند مغلى ابنة الناصر ابن البارزى وعمل لها مهمًا حافلاً جدًّا... فلما مات الظاهر دام فيما كان فيه من أمر الطبلخانات والخازندارية الثانية التى كان استقر فيهما بعد انتقال قراجا عنهما في أيام المنصور ولم تطل مدته حتى قبض عليه الأشرف إينال لكونه ممن قاتل مع ابن أستاذه في القلعة وحمل إلى الإسكندرية، فأودع بها مدة ثم نقل إلى صفد فأودع بها ثم أطلق في أوائل سنة ثمان وخمسين ووجه إلى القدس بطالاً، ولم يلبث أن فرج الله عنه وأحضره الأشرف، واستمر في الترقى إلى أن صار أحد المقدمين؛... فلما كان في أواخر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين أرسله الظاهر بلباى لنيابة الشام عوضًا عن برد بك البجمقدار المتخلف عند سوار وما كان بأسرع من استقرار الأشرف المشار إليه في المملكة فرسم بإحضاره وكان وصوله في عشر صفر من التى تليها وارتجت الديار المصرية لذلك حتى كان لقدومه من السرور ما لم يعهد نظيره غالبًا وبرز الأكابر والأعيان فمن يليهم لملاقاته إلى قطيا فما فوقها ودونها بل نزل إليه السلطان الزبدانية ليلاً وابتهج به أتم ابتهاج وجلس معه ساعة بل ووضع بين يديه النمجاة وقال له: أنت أحق منى فدعا له واستقر به في الأتابكية عوضًا عن جانبك قلقسين لتخلفه في القبض عليه عند سوار وبالغ الأمير في الامتناع لكونه حيًّا؛ ورسخت قدمه فيها وتكرر سفره قبل ذلك وبعده للبحيرة لعمل مصالحها غير مرة وللقبض على الأخذ لملاقاة الحجيج في سنة اثنتين وسبعين وللتجار مرارًا متعددة وكذا للحج.
وبالجملة فهو من أحسن الأمراء له أوراد وأذكار وتهجد وتعبد وتواضع وحفظ لقدماء أصحابه وللمملكة به جمال. السخاوي، الضوء اللامع، 1 / 453- 436.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، 3 / 171، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، 1 / 53، سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 260.

أغروه بمهاجمة ممتلكات المماليك في بلاد الشام والبلاد الحلبية الثورة ضدهم، فلم يجد السلطان بُدًّا من محاربته، فساق إليه جندًا من مصر ومن حلب، فكسروه شر كسرة، ولكن بعد أن أثخن فيهم قتلاً، وكانت هذه الحادثة بدء النزاع بين المماليك والعثمانيين، الذى كبر ونما في المستقبل حتى أفضى إلى سيطرة العثمانيين على ممتلكات دولة المماليك [1].

* * *

(1) ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، 1 / 72- 30، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، 1 / 53.

الفصل الثامن

الفصل الثامن :

خاتمة الدولة المملوكية

تدهور الأحوال في نهاية عهد الأشرف قايتباي:

انشغل الأشرف قايتباى كثيرًا بتأمين حدود دولته الشمالية من تقدم التركمان المستمر، وتهديدهم للبلاد الشامية والحلبية، والمد العثمانى الذى تنامي، حتى غدا خطرًا داهمًا ليس لحدود الشام فقط بل لكيان دولة المماليك ككل، حتى لقد خاض معهم أكثر من حرب، كانت الغلبة في معظمها للجند المملوكية، منها تلك الحملة التى كانت بقيادة الأتابك أزبك بك، والتى وقعت سنة 893هـ وأوقعت الهزيمة النكراء بالجند العثمانيين فولوا مدبرين، واستولت القوات المملوكية على مدينتى " أذنة " و " أطنة "، وكذلك الحملة التى خرجت عام 895هـ وتوغلت في البلاد العثمانية بآسيا الصغري، واستولت على " قيسارية " ثم تصالح الطرفان على تبادل الأسرى [1].

كما أن الحروب الكثيرة التى خاضها الأشرف قايتباى قد كلفت خزانة الدولة الكثير من الأعباء المالية، مما جعله يتعسف في جمع المال وفرض الضرائب، وتطبيق سياسة الاحتكار، مما أوغر صدور عامة الناس منه، وبالرغم مما قيل أن ذلك كان لتوفير الأمن للدولة والإنفاق على الجيش، وإقامة المنشآت فإن هذا لايقوم سببًا، ويعتبر مسجده في القاهرة والوكالات التى أقامها، من أجمل المنشآت التى تتميز بفنونها الإسلامية الأصيلة، . هذا إلى عنايته بإصلاح أثار أسلافه وترميمها، كما يتضح من النقوش والكتابات العديدة المثبتة في مدارس ذلك العصر ومساجده، فضلاً عن القلعة التى مازالت تحمل اسم قايتباى بالإسكندرية.

وقد عرف عن قايتباى حب التنقل والأسفار فطاف بالشام وأعالى الفرات ومصر العليا والدلتا، بالإضافة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وبيت المقدس، وأينما ذهب كان يخلد اسمه بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس، وغيرها من المؤسسات الحيوية، وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى

(1) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 54.

القول بأنه لا يوجد سلطان آخر من سلاطين المماليك - عدا الناصر محمدًا بن قلاوون - فعل ما فعله قايتباى من عنايته بالفنون، وبخاصة فن العمارة [(1)].

وزادت الاضطرابات داخل دولة المماليك أواخر حكم الأشرف قايتباي، وزاد الطين بلة الطاعون الذى ضرب أرجاء دولة المماليك لا سيما مصر وبلاد الشام سنة 897هـ / 1492م وحصد الناس حصدًا حتى لقد كان يموت في اليوم الواحد أكثر من عشرة آلاف نفس، وكان من بين الذين أزهق الطاعون أرواحهم زوجة الأشرف قايتباى وابنته، وانعدمت الأقوات وانخفض النيل وانتشر طاعون المواشي، وكأن رائحة الموات كانت في كل مكان وفى كل شيء [(2)].

الناصر محمداً بن قايتباى 901 - 904 هـ:

لما تقدم السن بالسلطان الأشرف قايتباى واستبد به الضعف والمرض، ولم يعد قادرًا على السيطرة على مقاليد الأمور، اجتمع القضاة والأمراء والخليفة - والسلطان يعانى سكرات الموت - وأجمعوا على اختيار ابنه محمد لخلافته في السلطنة، وبعد اختيار السلطان الجديد الناصر محمدًا وتوليه مقاليد الحكم بيومين فاضت روح الأشرف قايتباى إلى بارئها في ذى القعدة سنة 901هـ / 1496م [(3)].

تولى أبو السعادات ناصر الدين محمد بن قايتباى السلطنة قبل وفاة أبيه بيومين، ولم يتجاوز عمره الرابعة عشرة من عمره، وقد تصارع الأمراء المماليك على من يكون الوصى عليه، وكانت حربًا محمومة، حسمها لصالحه الأمير قانصوة، وتولى منصب الأتابكية والوصاية وصار هو المتحكم في مقاليد الأمور والحكم في داخل الدولة المملوكية[(4)].

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص 290- 291.
(2) ابن إياس، بدائع الزهور، 3 / 287.
(3) ابن إياس، بدائع الزهور، 3 / 323- 324.
(4) ابن إياس، بدائع الزهور، 3 / 335.

وبدأ قانصوة خمسمائة يطلق يده في كل الأمور ولما لم يجد منافسة من أحد زين له أتباعه الوثوب على السلطنة، فجمع كبار أمراء المماليك والقضاة الأربعة والخليفة المتوكل على الله أبو العز، وأعلن أمامهم خلع الناصر محمدًا بن قايتباى وتوليه السلطنة، وأشهدهم على ذلك فبايعوه من وقته، وتلقب بلقب الملك الأشرف سنة 902هـ / 1497م [1].

ولكن لم يهنأ السلطان الجديد كثيرًا بهذا المصب، إذ تعصب كثير من الجنود ومماليك الأشرف قايتباى للملك الناصر محمدًا بن قايتباى ولم يوافقوا على خلعه من السلطنة وثاروا على السلطان الملك الأشرف، ووقعت بين الفريقين حرب أهلية شعواء، انهزم فيها قانصوه وجنوده ففر واختفى بعد أن وقعت القاهرة فريسة للسلب والنهب، وعاد الخليفة والقضاة وأمراء المماليك إلى مبايعة الناصر محمدًا من جديد [2].

وقد تركت هذه الفتنة في أعقابها فتنا أخرى متعددة، قتل فيها كثر من رؤوس هذه المؤمرات ومدبريها، ووقع فيها أنواع شتى من فساد الجنود وعبثهم، حتى اضطروا الناصر إلى تغيير لقبه والتلقب " بالأشرف " حتى يتساوى المماليك الأشرفية وغيرهم ويصبح الجميع منسوبين للسلطان، ومع ذلك تمخضت هذه الحوادث عن انقسام الأمراء والجند معسكرين: معسكر يتزعمه الأمير " أقبردى " ومعسكر يتزعمه الأمير " قانصوه " وهو خال السلطان، وقد بزغ نجمه في هذا العهد، ومن عجيب الأمر أن فريق قانصوه المذكور كان يدافع عن السلطان، بينما كان هو طامعًا في الخفاء في أن يقفز إلى كرسى السلطنة... والفريق الآخر يناوئ حزب قانصوه وهو حزب الناصر محمد، بينما الناصر نفسه يعطف سرًّا على فريق أقبردي... وتقاتل الفريقان وتراميا بالنشاب والرصاص وقذائف النفط، وظل الحال كذلك والبلاد في قبضة هذه الفتنة الأهلية العمياء ويصيبها القحط، ويصيب أبناءها القتل، ويفنيها الخراب أكثر من

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، 3 / 335 وما بعدها.
(2) ابن إياس، بدائع الزهور، 3 / 354.

شهر، حتى انهزم أقبردى الدوادار وفر إلى الشام، وقد غضب الناس من السلطان الناصر محمد بسبب طيشه وميله لسفك الدماء، في الوقت الذى زاد فيه فساد المماليك الأجلاب، وبينما الأمور لم تهدأ إذ عاجل أحد الأمراء المماليك السلطان الناصر وقتله سنة 904 هـ / 1498م وهو لا يزال في السابعة عشرة من عمره [1].

الظاهر قانصوة 904 - 905 هـ:

هو أبو سعيد قانصوة الأشرفي، أصله من مماليك قايتباي، وأخو سريته أم ولده السلطان الناصر محمد بن قايتباي، وقد علا نجمه بسرعة وصار هو المتصرف في شؤون الدولة في عهد ابن أخته، وظل يدبر الأمر لنفسه حتى وثب على السلطنة ونالها، ولم يمض بين إقامته مملوكًا في أطباق القلعة، وبين تسميته سلطانًا سوى ست سنوات.

وأول ما عنى به هو إرسال حملة تأديبية على بلاد حلب وبلاد التركمان، حيث انتشر فيها نفوذ غريمه أقبردى الدوادار وأعوانه، فعادت الحملة ومعها عدد كبير من أسراهم، وأدب عرب غزالة الضاربين بجهات البحيرة، بحملة قادها الأمير طومان باي، الدوادار، فهزم جموعهم وشتت شملهم، وقبض على كثير منهم، واستاقهم إلى القاهرة مكبلين في الأصفاد.

ومن أهم أحداث عهده خروج الأمير قوصروه نائب الشام عن طاعته، فَهَمَّ بتأديبه ولكنه فوجئ بعصيان داخلى عنيف، بزعامة الأميرين جان بلاط الأتابكى وطومان باى الدوادار، فوقع بينهما وبين السلطان موقعة انتهت بانخذال السلطان واختفائه بعد أن حكم أقل من عامين وذلك سنة 905هـ [2].

الأشرف جان بلاط بن يشبك 905 - 906 هـ:

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، 3 / 354 وما بعده، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 56.

(2) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 57.

بويع بالسلطنة عام 905هـ، على إثر اختفاء الظاهر قانصوة، وهو أبو النصر جان بلاط بن يشبك الأشرفي، فلما ملك دبر له ملكه الأمير طومان باي، وقد سعى منذ بداية حكمه للقبض على الظاهر قانصوة حتى نال ما أراد وألقى القبض عليه ووضعه في السجن، وشهد عهده القصير خروج نائب الشام قوصروه على طاعته، وكذلك خروج الأمير دولات باى نائب حلب، ومن سوء تدبيره أن أرسل إلى هذين المتمردين الأتابكى طومان باى في حملة عسكرية ضخمة، فما إن وصل طومان باى بقواته إلى الشام حتى أعلن هو الآخر العصيان، وانضم إليهما، وأعلن بنفسه بينهم سلطانًا وتلقب بالعادل، ثم عاد بالحملة إلى مصر زاحفًا عليها، ولم يستطع الأشرف جان بلاط التصدى له فتحصن بالقلعة، وانتهى أمره بالقبض عليه وسجنه، ثم قتل في العام 906هـ، بعد أن قضى في السلطنة نحو نصف العام تقريبًا، وتولى العادل طومان باى السلطنة مكانه [1].

العادل طومان باى 906هـ:

هو أبو النصر طومان باى الأشرفي، من مماليك الأشرف قايتباي، ذهب في عهد سلفه إلى بلاد الشام لتأديب العصاة فألفهم حوله، وسار على رأسهم ضد سلطانه الأشرف جان بلاط، بعد أن تسلطن هناك باسم العادل في أواسط عام 906هـ / 1501م، وانتهى أمره بأن أصبح سلطانًا على مصر والشام.

ولكن لم تدم أيام العادل طومان إذ إنه انقلب عليه شركاء الأمس الذين ساعدوه في الوصول إلى منصب السلطنة وخلع الأشرف جان بلاط، فقد أمر بالقبض على قوصروه ثم أمر بخنقه في الحال، ثم لاحق بقية أمراء المماليك الكبار بالقتل والسجن حتى نفرت منه النفوس، وثار عليه الجنود وأمراء المماليك، فانكسر أمامهم وفر من أمامهم، وظل مختفيًا حتى قبض عليه وأعدم [2].

---

(1) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 57.

(2) العصامي، سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي، 2 / 307، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 57.

الأشرف قانصوه الغورى 906 - 922 هـ:

بعد القضاء على طومان باى أجمع أمراء المماليك على اختيار قانصوة الغورى[1] لحاجة في نفوسهم، فقد ظنوا فيه الضعف، حتى يسهل لهم خلعه، وكانت الأمراء متوفرة، وبعضهم يشير إلى بعض في الجلوس على تخت الملك فاتفقوا على تولية قانصوه الغوري؛ لأنهم رأوه سهل الإزالة أى وقت أرادوا إزالته أزالوه؛ لأنه كان أقلهم مالاً وأضعفهم حالاً وأوهنهم قوة، وأشاروا أن يتقدم فأبى فألزموه بذلك، فقال: أقبل ذلك بشرط ألا تقتلوني، فإذا أردتم خلعي من السلطنة فأخبرونى بما تريدون وأنا أوافقكم على ذلك وأترك لكم الملك وأمضى حيث أريد، فعاهدوه على ذلك فقبل.

ثم تولى قانصوه الغورى السلطنة: ولقبوه الملك الأشرف أبا النصر قانصوه الغوري، وذلك في سنة 906هـ ست وتسعمائة، وفرح العسكر بولايته لأنهم سئموا تعدد السلاطين وسرعة تقضِّي ملكهم، بل فرح العامة وأمنوا على أنفسهم

---

(1) قانصوه الغوري: قانصوه بن عبد الله الجركسى السلطان الملك الأشرف، المشهور بالغوري، وسماه ابن طولون جندب، وجعل قانصوه لقبًا له قال: والغورى نسبة إلى طبقة الغور قال ابن الحنبلي: إحدى الطبقات التى كانت بمصر مدة تعليم المؤدبين.

قال ابن طولون: كان يذكر أن مولده في حدود الخمسين وثمانمائة ترقى في المناصب حتى صار نائب طرسوس، فانتزعها منه جماعة السلطان أبى يزيد بن عثمان، فهرب منها، وعاد إلى حلب، فلما انتصر عسكر مصر على الأروام عاد إلى طرسوس مرة ثانية، ثم أخذها الأروام مع ما والاها، فهرب منها أيضًا إلى حلب، ثم نصر عسكر مصر ثانيًا، فعاد إليها مرة ثالثة، ثم أعطى نيابة مطلبه، فلما مات الملك الأشرف قايتباى رجع إلى مصر، ووقعت له أمور في دولة الملك الناصر ابن قايتباي، ثم أعطاه تقدمة ألف، ثم في دولة جان بلاط أعطاه رأس نوبة النوب، ثم توجه صاحب الترجمة صحبة العسكر المصرى إلى الشام بسبب عصيان " قصروه " نائبها، فخامر أمير العسكر طومان باي، واتفق مع قصروه على أن يكون سلطانًا، وأمسكوا جماعة من الأمراء، وجعل من الأمراء، وجعل صاحب الترجمة دوادارًا كبيرًا، ثم توجهوا إلى الديار المصرية، وحاصروا الأشرف جان بلاط، ثم أمسكوه، وتولى السلطنة طومان باى واستمر صاحب الترجمة دوادارًا إلى أن وقع بينه وبين طومان باي، فاتفق مع العسكر على أن يركبوا عليه، واختفى هو في حيلة، فهرب السلطان طومان باى ليلة الجمعة مستهل شوال سنة ست وتسعمائة، فتولى السلطنة بعده صاحب الترجمة في يوم عيد الفطر، ولما تسلطن أخذ يتتبع رؤوس الأمراء، وذوى الشوكة، فيقتلهم شيئًا شيئًا النجم الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، 1 / 185.

وأموالهم في الجملة... " [1].

ثم إنه أخذ يتتبع أمراء المماليك الكبار الذين كانوا ينازعونه السلطنه، فصار يأخذ منهم واحدًا بعد واحد، ويتغافل عنهم، ثم يحصل حيلة أخرى، وعلة أخرى لأحدهم، فيأخذه بها، ويوقع بين الاثنين، ويأخذ هذا بذاك، وذاك بذا، ويدس لهم الدسائس من الطعام والسم ونحوه، حتى أفنى قرانصتهم ودهاتهم إلا قليلاً منهم. واتخذ مماليكًا جددًا، واستجلب جلبًا وأعد عددًا، وصاروا يظلمون الناس ويعاملون الخلق عسفًا وغشمًا، وهو يغضى عنهم ويتغافل، فأظهروا الفساد، وأهلكوا العباد، وأكثروا العناد، وطغوا في البلاد، وصار يصادر الناس، ويأخذ أموالهم بالقهر والبأس وكثرت العوانية في أيامه؛ لكثرة ما يصغى إليهم، وصاروا إذا شاهدوا أحدًا توسع في دنياه، وأظهر التجمل في ملبسه ومثواه، وشوا به إلى السلطان، فيرسل إليه يطلب القرض، ويصفى أمواله، ويسلمه إلى الصوباشى ليأخذ ماله، ويهلك أهله وعياله.

وجمع من هذا الباب أموالاً عظيمة، وخزائن واسعة ذهبت في آخر الأمر سدى وتفرقت بيد العدا، وتمزقت بددًا.

وأما الميراث فبطل في أيامه، وصار إذا مات أحد يأخذ ماله جميعه للسلطنة، ويترك أولاده فقراء إلا أن اعتنى به اعتناء كبيرًا جعل له نزرًا يسيرًا من مال أبيه، وأخذ لنفسه باقيه. وكثر ظلمه في آخر أيامه، فاستجاب الله فيه دعاء المظلومين، وقُطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين... [2].

وقد كثرت الفتن الداخلية في عهد قانصوه الغوري، فقد ثار عليه العربان، واشتدت الفتن في بلاد الحجاز وبين أمرائها، حتى اعتدوا على حجاج مصر والشام، وازداد تهديد وعبث عربان البلاد في نواحيها، وثار في وجهه الأمير مصر باي، فقضى عليه، وبالرغم من أن قانصوه الغورى قد أثبت قوة ورباطة

---

(1) العصامي، سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي، 2 / 307.
(2) العصامي، سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي، 2 / 307- 308.

جأش وشجاعة في التعامل مع هذه الأزمات و الثورات الداخلية، واستطاع بكثير من السياسة والدهاء، وبعض المكر والخديعة أن يقضى عليها جميعًا إلا أنه كانت هناك الأخطار الخارجية التى كانت تفوق طاقته وقدرته.

وللأشرف قانصوه الغورى مآثر جميلة وعمائر حسنة جليلة. فمما عمره بمكة المشرفة باب إبراهيم بعقد كبير، جعل علوه قصرًا، وجعل في جانبه مسكنين لطيفين، وبيوتًا ممتدة حول باب إبراهيم، ووقف الجميع على جهات خير، ولا يصح وقف ذلك؛ لأنه في المسجد، وكذلك السكنان؛ لأن أكثرهما في المسجد الحرام، وما أمكن العلماء أن ينكروا عليه ذلك في أيام سلطنته؛ لعدم إصغائه إلى كلام أهل الشرع، وبنى أيضًا ميضأة خارج باب إبراهيم على يمين الخارج، وقد أبطلت؛ لأن روائحها تصل إلى المسجد فيتأذى المصلون، فأبطلت وأغلق بابها قريبًا في سنة 980 تسعمائة وثمانين بأمر شريف سلطاني، و هى الآن مفتوحة ينتفع بها المسلمون عامرة.

ومن أثره الترخيم الواقع في الحجر الشريف، عمل بأمره في أيامه، واسمه مكتوب فيه وفرغ من عمارته سنة 917 سبع عشرة وتسعمائة، وبنى بركة بدر وعدة خانات وآبار في طريق الحاج المصري، وبنى خانًا في عقبة أيلة والأزلم، ومدرسة أنشأها علو سقف الجملون بالقاهرة، وأنشأ مجرى الماء من مصر العتيقة إلى قلعة الجبل، ومن آثاره بناء سور جدة وكانت العربان تهجم في أيام الفتن وتنهبها، ونهبت مرارًا أيام الوقائع بين الشريف بركات وأخيه هزاع، وبعد هزاع جازان، فأرسل الغورى أحد أمرائه المقدمين، وهو الأمير حسين الكردي، وجهز معه عسكرًا من الترك والمغاربة واللوند في خمسين غرابًا لدفع ضرر الفرنج في بحر الهند، فلما وصل إلى جدة بنى سورها وهدم كثيرًا من بيوتها وأخذ حجارتها، وبنى بها السور في شدة وبأس، واستخدم عامة الناس في حمل الحجر واللبن حتى التجار المعتبرين وسائر المنتسبين، وضيق على الناس بحيث يحكى أن أحدهم تأخر قليلاً عن المجيء، فلما جاء أمر أن يبنى عليه فبني، واستمر قبره جوف البناء إلى يوم الجزاء إلى غير ذلك من

الظلم الشديد والجور العتيد، وبنى السور جميعه في أقل من سنة.

وكان ظلومًا غشومًا أكولاً يستوفى الخروف مع عدة أرغفة ونفائس له معدة. واستمر حاكمًا بجدة إلى أن تقوى بالمال، وتأثل وجمع جنودًا من كل صنف، ثم توجه إلى الهند سنة إحدى وعشرين وتسعمائة ثم رجع إلى مكة [1].

الصدام بين المماليك والبرتغاليين:

من المعروف أن حركة التتار التوسعية أدت منذ القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى إلى انسداد طريق التجارة المألوفة بين الشرق والغرب، وبخاصة طريق الخليج، والطريق البرى المار بسمرقند. ولم يبق طريق أمن بعيد عن سيطرة التتار سوى طريق البحر الأحمر ومصر، وكان أن استغل سلاطين المماليك تلك الفرصة وفرضوا الضرائب الباهظة على الغلات الأسيوية - وبخاصة التوابل والفلفل والبخور - التى حرص الغرب الأوروبى على استيرادها من الشرق. وجاء ذلك مصحوبًا بنظام احتكارى عنيف طبقه سلاطين المماليك على تجارة التوابل بوجه خاص، حتى غدت تباع لتجار الأوربيين في الإسكندرية ودمياط بأسعار تفوق أربعين مرة أسعارها المستوردة به من بلدان الشرق الأقصى [2].

وعندما ضاق الغرب الأوروبى ممثلاً في التجار والمستهلكين بذلك الوضع، بدأ التفكير في البحث عن طريق آخر غير طريق مصر ودولة لمماليك، وكان أن تمكن الأوربيون من الدوران حول إفريقية والوصول إلى سواحل الهند واكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح، واستطاعوا أن يوفروا للسوق الأوروبية التوابل وغيرها من حاصلات الشرق الأقصى بثمن يعادل ربع ثمنها في الإسكندرية ودمياط [3].

---

(1) العصامي، سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي، 2 / 307-.
(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص 297.
(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص 297.

وحدث أن اقتصاد دولة المماليك بدأ ينهار وحدث خلل في الميزان الاقتصادى للدولة، بسبب تكدس الحاصلات من الشرق الأقصى في الموانئ المصرية، بعد أن تعطلت التجارة عبر البحر الأحمر ومصر، فأعد السلطان قانصوه الغورى حملة عسكرية كبيرة وأرسلها في البحر الأحمر سنة 911هـ / 1505م بقيادة حسين الكردى نائب جدة، واستطاعت هذه الحملة أن تنزل الهزيمة بالبرتغاليين قرب الشواطيء الغربية للهند 914هـ / 1508م ولكن البرتغاليين انتقموا لأنفسهم بسرعة فحطموا أسطول المماليك في العام التالى سنة 915هـ / 1509م وذلك في موقعة ديو البحرية.

ولم ييأس السلطان الغورى بعد الهزيمة التى حلت بأسطوله في موقعة ديو، وإنما قام بعدة محاولات أخرى للقضاء على النفوذ البرتغالى في الهند، ولكن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح منذ بدايتها. ولقد كانت حلقة من حلقات الصراع بين القديم والجديد.

وهكذا ذبلت تجارة مصر مع الشرق الأقصي، والغرب الأوروبى جميعًا، وبذبول هذه التجارة ذبلت دولة السلاطين كلها. وجاء ذلك في الوقت الذى اشتد خطر العثمانيين على دولة المماليك في مصر والشام [1].

العثمانيون ونهاية دولة المماليك:

كان الأتراك العثمانيون يعيشون في بداية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى في إقليم خراسان، ثم اضطروا تحت ضغط التتار إلى التحرك غربًا حتى استقروا في آسيا الصغري، وقد أتاح انهيار سلطنة سلاجقة الروم بقونية سنة 707هـ / 1307م فرصة طيبة للعثمانيين، فاخذوا يتوسعون في آسيا الصغرى على حساب بقية الإمارات والقبائل التركية، فضلاً عن بقية الممتلكات والبقايا البيزنطية والمسيحية فاستولوا على بروسة سنة 726هـ / 1326م وعلى نيقية سنة 730هـ / 1330 م، ثم عبروا إلى الشاطيء الأوربى واستولوا على

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص 297- 299.

غاليبولى سنة 755هـ / 1354م. وأخذت الدولة العثمانية تتوسع توسعًا مناسبًا وسريعًا على حساب الدولة البيزنطية من ناحية، وعلى حساب القوى الإسلامية في آسيا الصغرى من ناحية أخري، دون أن يعوق تقدمها عائق حتى نهاية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى [1].

وقد تعرضت الدولة العثمانية لهزة عنيفة تمثلت في اجتياح " تيمور لنك " لمعظم أسيا الصغرى وأنزل هزيمة ساحقة بالجيوش العثمانية في موقعة أنقرة سنة 805هـ / 1402م ووقع السلطان العثمانى بايزيد الأول في الأسر حيث مات في الأسر في العام التالي، ولكن الدولة العثمانية عادت أقوى مما كانت حيث تمكن السلطان محمد الأول العثمانى من إحياء الدولة والتوسع على حساب القوى المجاورة من جديد ولم يستطع الغرب الأوروبى وقف توسع العثمانيين المسلمين في البلقان، حتى سقطت القسطنطينية في قبضة محمد الفاتح سنة 857هـ/ 1453م، وبذلك انتهت الدولة البيزنطية - أو دولة الروم - من صفحة التاريخ، وحل سلاطين آل عثمان محل أباطرة الروم في مدينة الإمبراطور قسطنطين العظيم [2].

والحقيقة أن العلاقات بين المماليك والعثمانيين لم يكن يشوبها أى توتر أو نزاع، بل كان هناك نوع من التكامل والتحالف، في فترة ذبول الحروب الصليبية، لأن لانتصار أحدهما على الصليبيين والفرنجة كأنه نصر له نفسه وتبودلت الرسائل والهدايا والبشارات بالانتصارات على الصليبيين والفرنجة في حوض البحر المتوسط، كما حرص المماليك على إرسال التهانى إلى الدولة العثمانية كلما اعتلى عرشها سلطان جديد، أوكلما أحرزت الجيوش العثمانية نصرًا جديدًا [3].

غير أن العلاقات الودية بين كلا الدولتين لم يكتب لها أن تستمر طويلاً، فقد قنعت الدولة العثمانية بما حققته من انتصارات في البلقان، وبدأت تنظر إلى

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص 300.
(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص301.
(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص 301.

حدودها الجنوبية، وبدأت تنظر إلى الإمارات الجنوبية التى كانت خاضعة لسيطرة المماليك وهما إمارتا قرمان ودلغادر، وهما إمارتان تركمانيتان مشمولتان بحماية سلطنة المماليك، واعتمدت عليهما هذه السلطنة في شؤون الأمن و الدفاع عن مصالحها في شمال الشام وشرقى آسيا الصغري. وبدأت الدولة العثمانية تتدخل في شؤون هاتين الإمارتين وتنازع الدولة المملوكية السيطرة عليهما، مما أوقع الخلاف بين كلا الدولتين.

ثم زادت شقة الخلاف بين كلا الدولتين واتسع الفتق على الراتق، فقد آوى كل طرف منهما الأمراء المعارضين من الجانب الآخر، فرحبت سلطنة العثمانيين ببعض كبار الأمراء الفارين من القاهرة والشام، ورحب السلطان قايتباى بأخ السلطان بايزيد الثانى - اسمه جب - هارب من وجهه، وزاد الخلاف بينهما أكثر عندما رفض السلطان المملوكى طلب السلطان العثمانى بالقيام ببعض الإصلاحات في مكة المكرمة - مثلما طلب من قبل طلب شاه رخ -. وأصبحت العلاقات بينهما على شفا الحرب، وإن لم تقع فعليًّا.

وأصبح العداء سافرًا بين كلا الدولتين بعد أن نجح السلطان العثمانى سليم الأول (918 - 926هـ/ 1512 - 1520م) في القضاء على الدولة الصفوية سنة 920هـ / 1514م والتى كانت لها علاقات جيدة مع دولة المماليك، واستولى على إقليم الجزيرة ومدينة الموصل، وغيرها من الأقاليم التى كانت لها علاقات جيدة مع دولة المماليك، وتبع ذلك قيام السلطان سليم الأول بالقضاء على إمارة دلغادر المشمولة بحماية المماليك سنة 921هـ / 1515م [(1)].

وبذلك يكون العداء بين الدولتين قد أصبح سافرًا، ووجد السلطان الغورى نفسه مضطرًا للحرب مع العثمانيين، فجهز حملة عسكرية كبيرة لمقاتلتهم و خرج على رأسها، حيث التقى بهم عند مرج دابق [(2)]. وكان أن دارت المعركة وأبلى

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص305.

(2) مرج دابق: يعرف بمرج دابق يقع شمال مدينة حلب فيه وقعت الحرب بين السلطان سليم الأول العثمانى والسلطان المملوكى قانصوه الغورى سنة 922 / هـ وانتهت بغلبة السلطان العثمانى

المماليك بلاء حسنًا، وحاربوا بشجاعة نادرة، حتى لقد فكر السلطان العثمانى سليم في التقهقر للخلف لإعادة ترتيب صفوفه، ولكن وقعت الخيانة في صفوف الجند المماليك، إذ أشاع الأمير خاير بك بين صفوف الجنود أن السلطان الغورى يأمرهم بعدم التقدم، ثم انسحب من الميدان بجنوده بعدما أشاع أن السلطان الغورى قد خر صريعًا، فتفرقت صفوف المماليك، وعبثًا حاول السلطان الغورى جمع شتات المماليك، فذهب صيحاته أدراج الرياح، ثم مالبث أن مات في أرض المعركة، فتقدمت القوات العثمانية في سهولة نحو بلاد الشام فسيطرت على حلب ودمشق وغيرها من كبريات المدن الشامية ثم شرع في الزحف نحو مصر [1].

الملك الأشرف أبو النصر طومان باى 922 - 923هـ / 1516 - 1517م:

كان من مماليك قايتباي، وترقى في المناصب حتى ناب عن قانصوه الغورى في أثناء قتال العثمانيين في الشام، فلما جاء الخبر بهزيمة قوات المماليك في مرج دابق ومقتل السلطان قانصوه الغوري، اجتمعت كلمة أمراء المماليك على اختيار طومان باى لمنصب السلطنة، ولم يكن أمامه وقت كثير، فأخذ يستعد جديًّا لمقابلة السلطان سليم الأول الذى كان يتعقب فلول المماليك الفارين من وجهه بعد موقعة مرج دابق، وكان أن فكر في الخروج لملاقاة العثمانيين في بلاد الشام قبل أن يتمكنوا من دخول مصر، ولكن أمراء المماليك تعللوا بالأعذار وطالبوه بأموال ونفقات باهظة ليستجيبوا لطلبه، ولما لم يجد تعاونًا من المماليك في تلك الظروف الحرجة اضطر أن يجمع من استطاع جمعه من الزعر والصبيان والشطار والمغاربة وخرج إلى الريدانية [2] في طريقه

ودخوله سورية وانتزاعها من حكم المماليك.

(1) ابن زنبل الرمال، آخرة المماليك، ص 132، ابن طولون مفاكهة الخلان، 2 / 24، سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص 309.

(2) الريدانية، كانت من ضواحى القاهرة وفيها جرت الوقعة بين جيش المماليك والجيش العثمانى سنة 922 / هـ (1517 / م) وقد دخلت الآن في حدود مدينة القاهرة وأصبحت تضم من أحيائها العباسية ومصر الجديدة.

لمواجهة العثمانيين.

وفى تلك الأثناء كان السلطان العثمانى سليم الأول قد استولى على غزة وواصل التقدم نحو مصر وعبر صحراء سيناء نحو مصر، وكانت خطة طومان باى تقوم على مواجهة في الصحراء وجيشه مجهد فيسهل التغلب عليه، لكن لم يجد استجابة من المماليك الذين آثروا البقاء في القاهرة والاحتماء بالخنادق، وحدث أنه لما التقى الفريقان في الريدانية أظهر طومان باى شجاعة كبيرة، ولكن لم تجد نفعًا أمام تخاذل أمراء المماليك وتقاعسهم عن الدفاع عن مصر، فتراجع للخلف والدفاع عن أحياء القاهرة ولكن وقعت الخيانة في صفوفه، فقد هاجم العربان والبدو مؤخرة جيشه، فوقع بين شقى رحي، فلم يجد بُدًّا من الهرب، حيث قبض عليه حيث شنق في الثانى والعشرين من ربيع الأول سنة 923هـ / الثالث والعشرين من إبريل سنة 1517م، وهنا صاح السلطان العثمانى فرحا: " الآن ملكنا مصر " (1).

وتلك الأيام نداولها بين الناس:

كان إعدام طومان باى هو الفصل الختامى في حياة الدولة المملوكية، ونهاية لدورها التاريخى وهى في شيخوختها بعد أن فقدت شبابها وحيويتها، لتفسح المجال للاعب جديد في مجال التاريخ والحضارة الإنسانية ليقوم بدوره، ولدولة جديدة تقوم بدورها المقدر لها، ومهمتها المنوطة بها وهى حماية العالم العربى من أطماع الصليبيين الجدد (الاستعمار) إلى أجل قد أجل لها.

* * *

(1) زنبل الرمال، آخرة المماليك، ص 132، ابن طولون مفاكهة الخلان، 2 / 24، سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص 309، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، 1 / 62- 63.

الخاتمــــة

الخاتمة

كون المماليك في مصر عصبية متينة لا عهد للأمة الإسلامية بها، هى عصبية الرق، بعد أن تفتتت عصبية الدين ملـلاً ونحـلاً، وعصبية الدم قبائل وشعوبًا؛ وساعد على تقوية عصبية الرق وتمتينها عدة عوامل، أهمها الحياة القاسية التى عاشها المماليك في صغرهم؛ فقد اختطف أكثرهم وانتزعوا من أسرهم صبية، وذاقوا مرارة الغربة والشتات والرعب، وتجرعوا قسوة الخصاء والنخاسة، ومهانة الاستخدام لدى الأمراء والأغنياء، وتناقض الدين الجديد الذى لقنوه مع واقع الأسياد الذين انتحلوه، فجففت هذه المحن قلوبهم من الرحمة واللين، والوفاء والشفقة، وملأتها حقدًا على غيرهم، سواء من الأسياد، أو من الشعوب العربية الخانعة لهؤلاء الأسياد. فلما استولوا على السلطة كونوا من بنى (رقهم) جيشًا ضاريًا قويًّا، وتمسكوا بالحكم، ودافعوا عنه بشدة؛ وكان منهجهم في ذلك القتل بالشبهة، والاستئثار بالأموال والإقطاع وسائر الخيرات، وترك العامة لمصيرهم المظلم جوعًا وفاقة وجهلاً ومرضًا؛ واستعانوا بطائفة من الفقهاء في الميادين المتعلقة بشؤون العامة، قضاء وحسبة وأوقافًا ووعظًا وتدريسًا، وتنفيذًا للشريعة مواريث وأنكحة وحدودًا وتعازير.

فكان الحكم في هذا العهد بين طائفتى المماليك والفقهاء، المماليك في السلطة والسياسة والمال والقوة العسكرية، والفقهاء في الشرع وأحكامه، وتوظيف استنباطاته لترويض العامة وحملهم على طاعة ولى الأمر.

كما استحدث المماليك أسلوبًا شيطانيًّا لضمان ولاء الفقهاء وضبطهم والتحكم فيهم، أسلوبًا مبنيًّا على التفرقة وتسليط بعضهم على بعض، وإخضاع بعضهم ببعض، فعينوا لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة قاضى قضاة له نواب في المناطق النائية. ووزعوا قضاء العسكر والحريم والأوقاف والنظارة والحسبة على فقهاء السنة، وحرضوهم على بقايا التشيع التى تركها الفاطميون في المنطقة؛ فكان الرجل ينتقد الفساد المستشري، فيتهم بشتم الصحابة أو التشيع، وتقام عليه الحجة بعدول، ثم يحال على القاضى المالكى الذى يجيز قتل ثلث

الأمة استصلاحًا.

ثم أذكوا نار التحاسد والبغضاء بين فقهاء السنة أنفسهم، وألقوا إليهم الأموال، فتكونت من بعضهم طبقة من الأثرياء لا هَمَّ لهم إلا التنافس على ثلاثة مكاسب دنيوية:

1- أيهم أكثر ولاء للمماليك واستنباطًا للأحكام التي تضفي الشرعية على نظامهم وتصرفاتهم، فيزداد قربًا منهم وتمكينًا لديهم.

2- وأيهم يكون أكثر أموالاً وأتباعًا من غيره.

3- وأيهم يؤلف الكتب ويهديها إلى كبار رجال السلطة فترتفع منزلته عندهم.

ثم استحدث المماليك سلاحًا آخر لضبط العلماء، هو عبارة عن مجالس تأديبية منهم، لمحاكمة بعضهم بعضًا؛ فكان الفقيه إذا أظهر تأففًا أو إنكارًا لمنكر، أو بدا منه ما يشير إلى صحوة ضمير، استغلت خلافاته الفقهية الاجتهادية مع منافسيه وخصومه من الفقهاء، وانتحلت له تهمة مخالفة الشرع، وعقد له مجلس من قضاة المذاهب وفقهائها، ثم عوقب تشهيرًا أو جلدًا أو سجنًا؛ وقد ذهب ضحية هذه الأساليب القمعية أعيان من الفقهاء المجتهدين الأفذاذ، على رأسهم ابن تيمية رحمه الله.

إن عصر المماليك هذا كانت له آثار سلبية مدمرة، في عدة ميادين اجتماعية واقتصادية وثقافية، إلا أن منجزاته في مجال الدفاع عن أرض الإسلام كانت إيجابية ورائعة وليس لها مثيل؛ ذلك أن الحياة القاسية التى عاناها المماليك في صباهم، والتربية الدينية والعسكرية التي نُشِّئوا عليها، كونت منهم مقاتلين أشداء، وفرسانًا أقوياء، ومدافعين عن سلطانهم مستميتين؛ واجهوا المغول وألحقوا بهم الهزائم، وأوقفوا زحفهم، وواجهوا بقايا الصليبيين في الشام، وأجلوهم عن المنطقة نهائيًّا.

وفي الوقت الذى انحسر فيه النفوذ العربى عن السلطة في مشارق الوطن ومغاربه، وانكفأ العرب في غمار العامة المستضعفين، قيض الله للأمة هذه

الطائفة من الأعاجم الغرباء، قاتلوا أعداءها وجاهدوهم، فأبلوا في ذلك البلاء الحسن.

وإذا ما استعرضنا الوضع العسكرى في ظروف قيام دولة المماليك، تبين لنا أن البلاد كانت بين مطرقة المغول شرقًا، وسندان الصليبيين غربًا؛ فنصارى أوروبا برغم هزيمتهم على يد صلاح الدين، بقيت لهم في الساحل الفلسطينى حصون ومستعمرات كثيرة، مثل طرابلس وصور وحيفا وصيدا وغيرها؛ كما ظلت الحملات الصليبية تتوالى على الشام ومصر وسواحل إفريقية؛ فكانت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ملك ألمانيا هنرى السادس سنة 594 هـ - 1197 م، والحملة الرابعة بجنودها من ألمانيا وفرنسا وإنجلترا سنة 598 هـ - 1202م، والحملة الخامسة بقيادة لويس التاسع وجان دى بريين ملك بيت المقدس (616 هـ - 1219م)، والحملة السادسة بقيادة ملك صقلية فريدريك الثاني، بعد أن دعاه الملك الكامل محمد ليسلم إليه ثانية بيت المقدس، نظير أن يساعده ضد أخيه المعظم عيسى (624 هـ - 1227 م)؛ ثم استرجع بيت المقدس منهم الناصر داود في 6 جمادى الأولى سنة 637 هـ - 1241 م، والحملة السابعة التى قادها لويس التاسع على مصر سنة 646 هـ - 1248م وانتهت بهزيمته وأسره، على يد القائد المملوكى " بيبرس " البندقداري.

وفى أول عهد المماليك أيضًا (19 محرم 656 هـ - 12 /2/ 1258م)، دخل المغول بقيادة " هولاكو " بغداد واقتحموا أسوارها، وأحاطوا بقصر الخليفة المستنصر العباسى يرشقونه بالنبال، فلم يشعر الخليفة بسيطرتهم على مقر الخلافة إلا بعد أن أصيبت بسهم من النافذة، جاريته " عرفة " التى كانت ترقص أمامه وتضاحكه، كما ذكرذلك ابن كثير في البداية والنهاية. وبدلاً من أن يناصر حكام المسلمين بعضهم في هذه المحنة، أرسل سلطان دمشق الناصر بالهدايا إلى " هولاكو " ببغداد، والتمس منه المساعدة على استخلاص مصر من المماليك، فكان جواب " هولاكو " أن غزا ديار بكر وآمد، وحران والبيرة وحلب وفتحها قهرًا، ثم حاصر دمشق فهرب الناصر، وسلمها أعيان الفقهاء إلى

المغول، نظير وعود كاذبة لم يوف بها.

هذا هو الوضع العسكرى الذى وجد المماليك أنفسهم فيه؛ ولكنهم كانوا أهلاً لمقارعته ومغالبته. فما أن استتب الأمر للمملوك قطز حتى أخذ في جمع الأموال والأقوات وتجييش الجيوش والتحريض على الجهاد؛ ثم توجه لقتال المغول ببطولة نادرة، فهزمهم ب" عين جالوت " يوم الجمعة 25 رمضان 658 هـ - 1260م، ثم ضم عقب ذلك الشام من الفرات إلى سلطنة مصر. وواصل خلفه " بيبرس " بنفس الشجاعة والإقدام مقاومته المغول، وجحافل الصليبيين، وحلفاءهم الأرمن والحشاشين الباطنية، فافتتح ما يقرب من ستين بلدًا وحصنًا. وكانت معاركه ضد الصليبيين 21 معركة، وضد التتار 9 معارك، وضد الأرمن 5 معارك، وضد الحشاشين ثلاث معارك، انتصر فيها كلها.

وفى عهد خلفه قلاوون استرد حصن المرقب، وأسقطت إمارة طرابلس الصليبية. وفى عهد ابنه الأشرف فتحت عكا سنة690 هـ، واستردت صور وحيفا وعتليت وأنطرسوس وصيدا؛ وانتهى بذلك الوجود الصليبى في الشام. وفى بداية القرن الثامن الهجرى (2 رمضان 702 هـ)، حقق الجيش المملوكى نصرًا آخر مؤزرًا على المغول في مرج الصفر عند قرية شقحب قرب دمشق، فتوقف بذلك المد المغولى عند العراق وفارس. وبعد إجلاء الصليبيين عن الشام، اتخذوا من جزر قبرص وأرواد ورودس، قواعد لتوجيه العدوان على الشواطئ الإسلامية، بقيادة بطرس الأول ملك قبرص، وفرسان رودس والبندقية، في سنتى 767 هـ، 768 هـ؛ فتصدى لهم المماليك وردوهم. ثم عقدت بين الطرفين معاهدة صلح سنة 772 هـ - 1370م. وكانت أهم نتائج جهاد المماليك دحر الأعداء المتكالبين على الأمة من شرقها وغربها، وتوحيد الشام بمصر؛ وهذا بحق أعظم إنجاز تحقق في تلك العصور.

جمع المماليك بين طرفى نقيض، الرق والإمارة؛ وتعايشت في نفوسهم نزعتا الشعور بالاضطهاد الذى نالهم في صباهم، والاعتزاز بالجاه الذى نالوه في

كبرهم، فولَّدَ ذلك لديهم حقدًا واستكبارًا على الأمة التى استعبدتهم صغارًا، وخضعت لهم كبارًا. واحتفظوا - نتيجة هذا الشعور - بمميزاتهم الشخصية والعرقية، ولغتهم الأجنبية ومجالسهم العائلية، فلم يختلطوا بالعامة ولم يثقوا بهم، وعاشوا حياة مزدوجة، حياة السكر والعربدة والفساد وارتكاب المنكرات، واغتصاب الأعراض والأموال في خفى أمرهم، وحرصوا على الظهور أمام العامة بمظهر حماة الدين؛ فشيدوا المساجد والمدارس وأكثروا من الأوقاف الخيرية والدينية والثقافية، وأرسلوا الهدايا والأموال وأغطية الكعبة في المحامل المهيبة إلى الحرمين الشريفين، وتزوجوا بنات الفقهاء والعلماء والقضاة. ولكن نفقات أعمال البر لديهم كانت كلها من الأموال المغتصبة، والممتلكات المصادرة، والأراضى الزراعية التى انتزعوها من أصحابها وحولوها إقطاعًا.

وقد استعانوا في ضبط مملكتهم بثلاث فئات: فئة الجيش الذى وزعت عليه أحسن الأراضى الزراعية إقطاعًا، والذين بأيديهم العقوبات السلطانية، التى استحدثت لها أساليب للتعذيب لا تخطر على ذهن بشرى سوي؛ فالتوسيط والعصر واستئصال الأعضاء جزءًا من أهون ضروبها وأنواعها. وقد ذكر ابن تغرى بردى في " النجوم الزاهرة 323/9 " أن الرجل كان ينعل بالحديد كما تنعل الخيل والحمير، أو يعلق بيديه وتعلق عليه الأثقال حتى تنخلع أعضاؤه ويموت.

كما ذكر ابن كثير في " البداية والنهاية 265/14 " أن المماليك عندما أوقعوا بقرية حوران، أمروا بقطع رؤوس القتلى وتعليقها في أعناق الأسرى، ثم ساقوهم إلى الأمير، فكان الأسير إذا أعيى قطع رأسه وعلق في عنق صاحبه، حتى إنه علق في عنق أب شيخ كبير رأس ولده الذى قطع أمام عينه.

وفئة الفقهاء الذين بيدهم العقوبات الدينية، التى تطبق فقط على المستضعفين من العامة؛ وقد جعلت لهذه الفئة الرواتب المغرية، وأطلقت أيديها في أموال الأوقاف والأيتام، والصدقات والقضاء والحسبة والرشوة؛ فأصبح تعلم الفقه وعلومه وسيلة أمام أبناء المستضعفين والفقراء للخروج من الفاقة، فكثر عدد

الفقهاء والمتفقهة وترفت أحوالهم ونعموا بطيب العيش.

والفئـة الثالثـة هـى طبقـة الإداريـين والمحاسـبين المـاليين؛ وكـانوا ينتقـون مـن أهـل الذمـة يهـودًا ونصـارى، ثقـة فـي ولائهـم وكفـاءتهم وقـدرتهم علـى ابتـداع أسـاليب جلـب الأمـوال مـن العامـة بـدون رحمـة؛ وقـد أطلقـت أيـديهم كـذلك فـي أمـوال الأمـة فـازدادوا غنـى وثـراء. أمـا الجمـاهير المغلوبـة علـى أمرهـا، الشـعب المقهـور، الخـائف الجـائع، الـذى لا ينظـر إليـه بـأى نظـرة تميـزه عـن الحيـوان إلا بكونـه مصـدرًا لجمـع الأمـوال السـلطانية، فإنـه أخـذ يبـادل الطبقـة الحاكمـة مماليـك وفقهـاء وإداريـين احتقـارًا باحتقـار، وازدراء بـازدراء، وإذ أطلـق عليـه حكامـه لقـب " الفلاحـين " أطلـق علـى السـلاطين وجنـودهم لقـب " المماليـك والجلبـان والأجـلاب "، وعلـى الفقهـاء والقضـاة لقـب " أهـل العمامـة "، لأن عمـائمهم كانـت أكبـر مـن عمـائم غيـرهم، وكانـت تتناسـب فـي حجمهـا تناسـبًا طرديًّـا مـع رتـبهم ومنـزلتهم لـدى الحكام، وعلى الإداريين من أهل الذمة لقب " أرباب الأقلام ".

أما أساليب جمع الأموال فكانت تبدأ من المصادرة المباشرة، والعقوبات المالية التى يبيع لها الناس بناتهم في السوق، كما ذكر ابن كثير في " البداية والنهاية 269/14 "، وتمر عبر ما سموه " الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية "، التى تشمل فرض دينار على كل مواطن ذكرًا أو أنثى، فقيرًا وغنيًّا، وأجرة شهر عن الأملاك والأوقاف والغيطان والسواقي، وزكاة الأموال معجلة، وثلث أموال الأجانب المقيمين، ناهيك عن عصابات المماليك والجلبان التى تجوب الأسواق للنهب والتخريب، فـي فترات المجاعة والكوارث الطبيعية. حتى الدعارة نظموها وجعلوها تحت إشراف قَيِّمَة مَسؤولة عنها، أطلقوا عليها لقب " ضامنة المغانى "؛ ومن المضحك المبكى أنها هى نفسها جعلوها أيضًا مسؤولة عن الواعظات والقارئات ومحترفات النياحة في المآتم، وفرضوا على كل واحدة منهن ضريبة لخزانة السلطان؛ واتخذت للدعارة بيوت خاصة وأحياء وشوارع معينة، فكان الذى يخطئ الطريق ويمر منها يرغم على ارتكاب

الفاحشة، فإن رفض فدى نفسه بمال.

وكان من نتيجة هذا الوضع ازدياد نفوذ الجوارى والإماء والمغنيات والداعرات في قصور السلاطين، إلى حد كنّ فيه يشاركن في أمور الدولة، ويرفعن ويخفضن، وتقدم إليهن الهدايا والرشاوى، حتى إن الأمير الحاج ملك، نائب السلطنة، كان إذا سأله أحد شيئًا قال له: " يا ولدي، رح باب الستارة، أبصر طواشي، أو توصل لبعض المغاني، تقض حاجتك ". أما عن الحياة الثقافية، فقد اعتورت اللغة العربية هنات وهنات، واختلطت باللغات الأعجمية السائدة، وعمت الركاكة الشعر والنثر، وإن كان المتأدبة والأدباء أكثر في هذا العصر من غيره، لأن الأدب لم يعد حرفة للتكسب بقدر ما صار نوعًا من الظرف والكياسة؛ إلا أن العلوم الدينية نفقت سوقها وكثر مريدوها، فكان هذا العصر أزهى عصورها وأكثرها علماء وفقهاء وجهابذة، من أمثال ابن كثير، وابن القيم، والزركشى ومن في طبقتهم؛ وما ذلك إلا رد فعل للنكبة التى أصابت المسلمين بالغزوين الصليبى والمغولي، حيث قتل العلماء وأحرقت المكتبات، وضاعت مئات آلاف الكتب القيمة حرقًا على يد المغول، أو نقلاً إلى أوروبا على يد الصليبيين؛ كما كان للمكانة العظمى التى حظى بها العلماء في السلم الاجتماعى أثر بليغ في ازدهار الثقافة الإسلامية ونضجها، باستثناء ما يتعلق بالأحكام السلطانية وسياسة الحكم، أو أبحاث الإمامة العظمى، فإنها لم تتطور، وظلت أسيرة الولاء للحاكم، وتبرير أعماله وإضفاء الشرعية على نظامه، دفعًا للفتن وتجنبًا للمحظور الأكبر، بارتكاب المحظورات الصغرى كما يعبر عنه لدى بعض الفقهاء.

ولعل هذا هو سبب تغاضى أنظمة العصر الحديث، عن عملية إحياء التراث الفقهى لعصر المماليك وطبعه ونشره، وعدم التعرض له بالمصادرة والمنع؛ ذلك أن تجاهل هذا التراث للقضايا السياسية إلا من زاوية الحث على طاعة

أولـى الأمـر ولـو جـاروا أو فسقوا، والصـحوة الإسـلامية الحاليـة العطشـى إلـى الثقافـة الإسـلامية، ممـا شـجع الحكـام علـى التسـامح معـه، وشـجع دور النشـر ومحققى التراث على الإقبال عليه [1].

---

(1) انظر مقدمة كتاب تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك.

الخاتمة

دولة المماليك ما لها وما عليها

إن كل دولـة لابـد وأن يكـون لهـا أيـاد بيضـاء يـذكرها بهـا التـاريخ، ولهـا مـن المساوئ ما تذكر به أيضًا، فهى دائمًا وأبدًا تجمع بين الحسن والقبيح، والمقبول وغير المقبول، ودولة المماليك شأنها شأن جميع الدول قد كان لها من الحسنات الكثير، واكتسبت سيئات أخري.

أولاً: مالها:

1- الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد أخطار التتار والصليبيين:

فسيذكر لها التاريخ أنها التى ردت المد التتري عن ديار الإسلام، وأنه هى التى ألقت بآخر الصليبيين إلى البحر المتوسط ليعود من حيث جاء.

التتار:

لـم يتعـرض الإسـلام لأوقـات عصـيبة مثـل تلـك التـى تعـرض لهـا زمـن الغـزو المغـولى فـي القـرن الثالـث عشـر المـيلادى / السـابع الهجـري، إذ دمـرت الجيـوش المغوليـة مـدن المسـلمين، وأتـت علـى كثيـر مـن النـاس قـتلاً وأسـرًا وتشـريدًا وتعـذيبًا، وقوضـت معـالم المدنيـة بكـل مكـان فـي غيـر شـفقة ورحمـة، واجتـاحوا الـبلاد التـى مـروا بهـا وقضـوا علـى الأخضـر واليـابس، وأسـقطوا الخلافـة العباسـية وقتلـوا الخليفـة، واسـتباحوا بغـداد والعـراق، ثـم زحفـوا نحـو بـلاد الشـام ومصـر، وأشـاعوا الرعـب والخـوف ونشـروا المـوت فـي كـل مكـان حتـى شـعر المسـلمون أنهـم أصـبحوا كاليتـامى وأيقنـوا أن السـاعة قـد قامـت، ولكـن قـيض الله للإسـلام والمسـلمين ابـن الإسـلام البـار " سـيف الـدين قطـز " المملـوكى الـذى دافـع عـن الإسـلام والمسـلمين ورد التتـار علـى أعقـابهم بعـد أن أوقـع بهـم الهزيمـة النكـراء، فـي موقعـة " عـين جـالوت "، ومازالـت تتـردد فـي أصـداء التـاريخ صـرختـه المدويـة: " واإسلاماه "، والتى يشعر المسلمون الآن بالحنين والحاجة إليها.

وقد ظلت الدولة المملوكية هى الحصن الذى يحتمى به، والملاذ الذى يلوذون به - بعد الله - المسلمون من هجمات التتار، ففى العهود التالية تكررت هجمات المغول على ديار المسلمين وكانت دولة المماليك هى الصخرة التى تتحطم عليها هجماتهم [1].

الصليبيون:

ورثت دولة المماليك عند قيامها دولة الأيوبيين ومعها الحروب الصليبية ومحاولة القضاء على الإمارات الصليبية في المشرق، وكان الصليبيون قد أسسوا وملكوا مدنًا عدة على سواحل البحر الأبيض المتوسط داخل بلاد الشام وحلب، وأصبحت هذه المدن عبارة عن مستعمرات لهؤلاء الأوربيين فعمل سلاطين المماليك على استردادها ومواصلة حرب التحرير التى بدأت منذ عهد السلطان عماد الدين زنكي، ثم ابنه نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبى والدولة الأيوبية من بعده.

وقد خاض المماليك حرب تحرير ضد الممالك والمستعمرات الصليبية في بلاد الشام، فالظاهر " بيبرس " حاربهم واسترد منهم العديد من الحصون والقلاع فاسترد صفد عام 664هـ، وأنطاكية عام 666هـ، وقيسارية عام 675هـ، والمنصور قلاوون الذى استرد حصن المرقب وجبلة وطرابلس عام 688هـ، والأشرف خليل بن قلاوون الذى استرد بيروت وعكا ومدن الساحل، وأنهى الوجود الصليبى في بلاد الشام عام 691هـ، وهذا التاريخ يعتبر نهاية أطوار أو حلقات الحروب الصليبية.

ويذكر التاريخ لدولة المماليك دفاعها عن البلاد الإسلامية ضد الهجمات الصليبية مثل تلك التى قام بها القبارصة على ميناء الإسكندرية عام 767هـ، والشيء الذى يعد غرة في جبين دولة المماليك أيضًا هو فتحهم لجزيرة قبرص وإخضاعها للحكم الإسلامى عام 829هـ.

---

(1) قد فصلنا تلك الوقائع في أماكنها أثناء الكتاب، ولكن ذكرنا هذه للتدليل فقط.

ولم يقف جهد المماليك عند ذلك بل كثيرًا ما كانوا يمدون يد العون إلى كل من لجأ إليهم واستنجد بهم من ملوك المسلمين وأمرائهم، فعاون الظاهر " بيبرس " الخليفة المستنصر بالله لرد عرش العباسيين من التتار، وساعد السلطان برقوق القان أحمد بن أويس صاحب بغداد ضد التتار أيضًا، وبعث الغورى عمارة بحرية لمعاونة ملوك الهند والعرب على الفرنجة العابثين بسواحلهم، وذلك حينما جاءت رسلهم في طلب النجدة.

2- المحافظة على استقلال البلاد وبسط نفوذها :

على الرغم من أن طبقة المماليك طبقة طارئة على البلاد المصرية، وعلى الرغم من أنها طبقة متجددة تجددًا خارجيًّا باستمرار، اكتسبت بالإقامة والاستقرار صفة المصرية، واتخذ سلاطينها وأمراؤها هذه البلاد لهم موطنًا لا يعرفون لهم موطنًا سواه، ولا بدع فقد جلبوا إليه وأنشؤوا فيه صغارًا، وشبوا تحت سمائه وفوق أرضه، وملأ هواؤه صدورهم حياة وحركة، وحاطتهم نعمه أينما ساروا، واتسع لهم صدره بما لم يتسع به لهم صدر غيره، وآل إليهم حسب تقلبات الأحوال، حكمه، ونيطت بهم حمايته.

فلا غرابة إذن أن نصبوا أنفسهم ذادة عنه ومدافعين، وحاطوا استقلاله بكل ضرب من ضروب الصيانة، وغزوا باسمه في كل مكان يحيط به، ونشروا رايته على كثير من الآفاق المجاورة، وأدخلوا في حوزته عددًا ضخمًا من البلاد. وأحسنوا سمعته بين دول العالم، إذ ذاك بصفة عامة، وبين دول المسلمين خاصة، فانتشر صيت مصر شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، وامتد ملكها في بعض أيامهم بل في معظم أيامهم إلى بلاد المغرب غربًا، والنوبة جنوبًا، وبلاد الحجاز والشام وحلب وضفاف الفرات شرقًا، وإلى قبرص وغيرها من جزر البحر المتوسط شمالاً.

وحافظوا على استقلالها وبطشوا بكل من بغى عليه، واعتدى على أى طرف في هذا الوطن. لذلك شغلوا جزءًا كبيرًا من زمنهم بالحروب الخارجية.

وحافظوا بصفة خاصة على بلاد الشام وحلب كأنما اعتبروهما جزءا من مصر لا يتجزأ، وعنوا بهما عنايتهم بالبلاد المصرية، ونسقوهما من الناحية الإدارية نسقا مشابها للنسق الإدارى المصرى تقريبًا، فكانت مدنهما نيابات مصرية يعين السلطان لكل منهما نائبًا، فمنها نيابة صفد وطرابلس وحلب وحماة ودمشق وغزة وغيرها. وكان نائب دمشق يعتبر أكبر نواب السلطان بعد نائب السلطنة وكافلها المقيم في القاهرة.

ومن أجلهما إعتركوا مع التتار والفرنجة، وردوا كلا منها مرارًا عنهما. ومع ذلك لم يقتصر نزاعهما الخارجى على التتار والفرنجة فحسب، بل كان هناك أمراء التركمان وملوك فارس وملوك بغداد وأمراء الأرمن وعربان الحجاز، وغير هؤلاء وهؤلاء، كثيرًا ما طمعوا في ملاك الدولة، ووثبوا أو تحفزوا للوثوب عليها، فهب لهم أمراؤها وردوهم على أعقابهم داحرين [1].

3- الأوقاف وأعمال البر:

من الأعمال التى تسابق إليها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأعيانهم إقامة الأوقاف ورصد الأموال الوفيرة على ضروب البر والإحسان. وسواء أكانوا مدفوعين إليها بعامل من الإيمان الصحيح بالله والعطف الحق على الفقراء والرغبة الخالصة في عمل الخير، أم كانوا مدفوعين إليها بعامل حب الظهور والرغبة في المباهاة والسمعة والصيت فحسب، أو بعامل الملق إلى الشعب وغض طرفه عن مساوئهم وأنواع ظلمهم، أو بعامل الخوف على ذراريهم من الفاقة بعدهم إذ تؤول أملاكهم إلى السلطان أو بأى عامل آخر من العوامل الاجتماعية أو الاقتصادية. فسواء أكان هذا أم ذاك فقد نشط المماليك إلى إنشاء الأربطة والسبل والمدارس والمساجد وأوقفوا عليها الدور والأراضى والأموال. وكثيرًا ما كانوا ينتهزون فرصة عيد أو موسم أو جمعة أو أى ظرف آخر مناسب ويفيضون بالخير الكثير على الفقير والمحتاج من مال وطعام

(1) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 262.

وكسوة في البلاد المصرية أو الأماكن المقدسة أو غيرها [1] ومساجدهم ومدارسهم وخانقاواتهم وبيمارستاناتهم وأوقافهم الكثيرة تشهد بذلك.

* * *

ثانيا: ما عليها:

1- إهمال حقوق الشعب:

لم يكن هم المماليك إلا الاحتفاظ بحكم البلاد فحسب، . واستقلالها، وتسخير أهلها في مصالحهم الخاصة وجبى الضرائب منهم، . فهم إذا كانوا قد دافعوا عنها، ودفعوا كثيرًا من أعدائها في الخارج، فما فعلوا ذلك إلا خوفًا على سلطانهم هم أن يضيع، وخشية نفوذهم أن ينهار، وحرصا على نعيمهم أن يزول ورهبة على دولتهم أن تدول.

فهم عبارة عن شراذم من الأفراد جمعتهم ظروف واحدة، وغاية واحدة، ففرضوا أنفسهم حكاما للبلاد، دون أن يكون لأهلها رأى فيما فرضوه. ولم يرضوا لأنفسهم أن يندمجوا في شعبها، بل حفظوا على جنسيتهم، وظلوا طبقة ممتازة لها تعاليمها الخاصة وتقاليدها الخاصة. وهم جيش الدولة وموظفوها. ولم يشركوا أفراد الطبقات الأخرى من الشعب في شيء من ذلك كله إلا قليلاً، مع أن للشعب حقوقا فيه طبيعية، ولكن الخطة التى انتهجوها في معاملة الشعب وإقصاء أفراده عن كل نفوذ وسلطة، جعلت هذه الحقوق مجهولة من الشعب إلى درجة أنه لم تكن تحوم له حولها آمال. ولم يقع على نفسه يومًا أن له حقوقا في هذه النواحي، وهذا موت أدبى شنيع. وتلك هى الجناية التى جناها المماليك على الشعب المصري[2].

ويتجلى إهمال حقوق الشعوب في عدة مظاهر منها إهمال حقوقه في التعليم والجيش وملكية الأرض والوظائف العامة والتقاضى وغيرها من الحقوق الشرعية والطبيعية لكل الشعوب.

ففى الوقت الذى كان يحرص المماليك على تربية وتعليم مماليكهم الصغار

---

(1) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 263.

(2) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 269.

تربية دينية وثقافية ورياضية عسكرية ممتازة، لم يحظ الشعب ولو بقسط بسيط من هذه التربية، بل لقد كان محرما عليهم. ولكن الشيء المتاح لعامة الشعب هو تلقى الدروس والتعلم من خلال دروس العلم والفقه التى تلقى في المساجد التى يقيمها سلاطين وأمراء المماليك من باب التصدق والتفضل على الشعب! وهذا الشيء وإن كانوا يستفيدون منه إلا أنه يسيء لكرامتهم.

أما الجيش والجندية، فقد حرم المماليك على عامة الشعب الانخراط في الجيش، ولم يكن يسمح لفرد من أفراد الشعب من غير طبقات المماليك أن يندمج في عدادها وينغمر في غمارها ويصبح عضوا من أعضاء هذا الجيش، وكيف يتسنى لفرد أن يندمج هذا الاندماج وهو لم يثقف ثقافة عسكرية، ولم يتدرب التدريب الرياضى المناسب الذى يؤهله لهذه العضوية؟!.

ومن غريب الأمر أن المماليك كانوا يفضلون الجنود الأتراك و الجراكسة الجدد الطارئين من الخارج والوافدين مع تجار الرقيق، على ناشئة البلاد وشباب الشعب المقيمين في داخل هذا الوطن، وكأنما كانوا يظنونهم طبقة عاملة لا تصلح لحرب أو ضرب، أو تفيد في قتال أو نزال، وكأنما ظنوها خلقت وليس في طبيعتها همة تقدرها على الثبات في ميادين الوغى، أو أنها طبيعة متأبية على الفنون العسكرية، تلك الفنون التى كانت وقفًا على الجنس التركى في ذلك الحين...

أما ملكية الأرض فقد كانت قائمة على نظام الإقطاع القائم على تقسيم الأرض الزراعية أقساما أو إقطاعات أو " دوائر وتفاتيش " بلغة عصرنا، ثم يختص السلطان نفسه بنسبة خاصة من هذه الإقطاعات، ويمنح البقية لأمرائه وجنوده فحسب. أما عامة الشعب فقد حرموا ملكية الأرض أو إيجارها.

والإقطاعات لا تورث، بل ترد إلى يد السلطان إذا مات أصحابها، ليعود السلطان بدوره فيهبها لمن يشاء، ولمن يستحقها من جديد. ومن هنا نفهم السر في أن الأمراء كانوا يستغلون إقطاعاتهم إلى أقصى حدود الاستغلال لمصلحتهم الخاصة لكى يحوزوا من المال البعيد عن الإقطاع الشيء الكثير، وكثيرًا ما كانوا يستعينون على استبقاء ما في أيديهم من ممتلكات بوقفها، حتى لا تمتد

إليها يد السلطان في حياتهم أو بعد مماتهم، وحتى ينتفع بها ذرا ريهم، وأفراد الشعب على كل حال محرومون من ملكية أو الانتفاع من أراضى بلادهم الزراعية، إلا ما قد يصيبهم من الأجر على العمل، أو المعونة من مال الأوقاف.

وللحق فإن العمل بنظام الإقطاعات لم يكن من ابتداع دولة المماليك ولكنه - على الأرجح - منذ عهد الدولة الأيوبية.

وكان نظام الإقطاع ذا أثرين سيئين بارزين، أولهما إغراء الأمراء بالإسراف والمباهاة وحب الظهور، والإمعان في الترف والملاذ، لكى تمتص هذه الأمور ثراءهم قبل أن تنتهى حياتهم فيؤول للسلطان، ولما يمتعوا به، وثانيهما فقر الشعب فقرًا أورثه الهم والخمول والشقاء [1].

وفى مجال الوظائف العامة نجد أننا إذا استثنينا وظائف القضاء وما إليهما، وجدنا وظائف الدولة عسكرية، لا يتولاها إلا الأمراء، سواء في ذلك إمارات الجند وغيرها، حتى ما كان منها أبعد عن الجندية وأدنى إلى غيرها مثل الحسبة، فلم يكن لفرد من الشعب مهمًا سمت همته أن يصل إلى منصب منها إلا نادرًا جدًّا، وفى أحوال فردية، وبذلك حرم الشعب الهيمنة على إدارة شؤونه، كما أن تصرف الموظف في شؤون وظيفته كان منوطًا برأى السلطان، إذ كانت الوظائف ذات مساس وثيق به، وكلها تسهر على خدمته ورعايته وتنفيذ إراداته.

أما العمل في مجال القضاء والكتابة فلا يتفق والطبيعة التى نشأ عليها أمراء المماليك. ويندر أن نجد لأحدهم اجتهادًا في فقه، أو برز في أدب، أو مشاركة في علم، والدولة في حاجة إلى قضاة يحكمون بين الخصوم بما أنزل الله، حتى لا تتعطل مصالح الناس، وفى حاجة إلى كتاب نابهين في العربية لضبط أمورها وحسابها - وكانت قد اتخذت العربية أداة لتفاهمها الرسمى - لهذا لجأت مضطرة إلى استخدام القضاة والمنشئين والكتاب من البارزين من بين أبناء الشعب، في

---

(1) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 278.

مناصب القضاء والكتابة، وهؤلاء هم المتخرجون في المساجد، ويعرفون " بالمتعممين ".

وهؤلاء وهؤلاء - إن جاز لنا أن نعتبرهم ممثلى الشعب في هذه الدولة - لا ننسى أن تعينهم في وظائفهم كان رهنًا بمشيئة السلطان وحده، لهذا غلب عليهم الخضوع له، وأن حوادث نفوذهم فردية، وأن آرائهم استشارية فحسب، وممن برزوا منهم وكان لهم رأى مسموع: عز الدين بن عبد السلام في عهد " بيبرس "، وسراج الدين عمر البلقينى في عهد برقوق، وأمين الدين يحى الأقصرائى في عهد قايتباي، وزكريا الأنصارى في عهد الغوري. ومن رجال القلم محيى الدين بن عبد الظاهر في أيام " بيبرس "، وشهاب الدين بن فضل الله، وأخوه علاء الدين، وعلاء الدين بن الأثير في أيام الناصر بن قلاوون، وناصر الدين محمد البارزي، وتقى الدين بن حجة الحموى في أيام المؤيد شيخ.

ويجب أن نقول إن المماليك إلى جانب حرمانهم الشعب حقوقًا كثيرة كانوا ينظرون إلى طبقاته على اعتبار أنها طبقات منحطة، لا تصلح لحكم أو رياسة، ولعلهم كانوا يصدرون في ذلك لا عن عقيدة، ولكنها شهوة الحكم وحب الاستئثار به، وجهتهم هذه الوجهة، وكانوا يطلقون على عامة الشعب " الفلاحين أو الزعر " [(1)].

2- **كثرة الضرائب وتعدد أنواعها :**

لم يترك سلاطين المماليك ناحية يستطيعون فيها فرض ضريبة إلا سلكوها، وكثيرًا ما فرضوا ضرائب ظالمة فيها الشطط الكثير، وفرضوها دون أن تدعو إليها مصلحة عامة، بل كثيرًا ما ما فرضوها للمصلحة الخاصة، ولكى يسد بها السلطان أفواه الثائرين عليه من الجنود، وكثيرًا ما انتهز السلاطين فرصة الحرب لفرض الضرائب الفادحة بدعوى الإنفاق عليها. ومنهم من تطلع في هذه المناسبة - أو في غيرها - إلى مال الأوقاف، ومنهم من أثقل على على أرباب المناصب بالمصادرات وفرض الغرامات الباهظة، عند وقوعهم في خطأ ما. فكانت هذه الغرامات لونًا من ألوان الضرائب المستورة التى أثقل بها كاهل الناس. ومن الحق

(1) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 280.

أن نذكر أن بعض السلاطين - مثل الناصر بن قلاوون - كان يلغي بعض الضرائب المفروضة أو يخفف منها فيلهج الناس بالثناء عليه، ويضجون له بالدعاء، ولكنها حوادث فردية ونادرة الحدوث.

ومن أمثلة الضرائب التى كانت تفرض:

– ضريبة تفرض على الغلال التى تنتجها الأرض الزراعية.

– ضريبة تؤخذ على السماسرة أو الدلالين.

– ضريبة تؤخذ على البغال والحمير والمواشي.

– ضريبة تؤخذ ممن يدخلون السجون ولو لساعة واحدة بريئًا كان أو مجرمًا.

–ضريبة تؤخذ على الأسواق وبيوت الدعارة.

– ضريبة تؤخذ على بيع الفراريج، ويحذر البيع أو الشراء إلا عن طريق أناس يحددهم المماليك.

– ضريبة تؤخذ لجباة لضرائب الذين يعملون لحساب الدولة.

– ضريبة تؤخذ من مزارع قصب السكر، ومن المعاصر ورجال المعاصر.

– ضرائب تؤخذ على الأفراح التى يغالى أربابها في إقامتها وفى نفقاتها.

– ضرائب تؤخذ على المراكب، ومن المسافرين فيها وكل من ركب فيها حتى الفقير والمحتاج والسائل.

– ضرائب تؤخذ من القينات وتجبى من أهل الدعارة ومرتكبى المنكرات والمحرمات.

وغيرها الكثير من أنواع الضرائب والمغارم التى فرضت على الشعب، ولا يتسع المجال لسردها [1].

وبالإجمال فقد كانت الضرائب فادحة وثقيلة، وكانت تفرض على بعض الناس دونما بعض، وأنها لم يكن في فرضها منفعة عامة أحيانًا كثيرة، ولم يكن الأمر

---

(1) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 283.

مقصورًا على ذلك، بل إن الطرق نفسها التى كانت تجبى بها الضرائب طرق شاذة سقيمة ظالمة، إذ كان الجباة يصبون جام غضبهم ويطلقون سواط عذابهم على الناس لاستخراج المال منهم أضعافًا مضاعفة، فمن سجن إلى تشريد إلى تعذيب إلى وعيد إلى مطاردة، وهكذا حتى أضطر بعضهم إلى الاختفاء... وحسبنا أن نقول إن الجمهور لم يكن يدفع ضريبة ما هو يعتقد أن واجبه الوطنى يقضى عليه بدفعها، فيدفعها إذن عن طيب خاطر ونفس راضية، بل كان يشعر دائمًا أن كل ضريبة هى غرم عليه ومغنم للسلطان وأتباعه.

3- الظلم والجور في معاملة الناس:

تفنن سلاطين وأمراء المماليك في ظلم الناس، مثل سوء معاملة الناس وازدرائهم واعتبارهم مثل الحيوانات، وتسخيرهم في الأعمال الحكومية بدون أجر، ومثل التماس التهمة عند البريء، وإغفال الجانى حسب الأمور وما تدعو إليه، ومثل العنت والشدة في الحكم على المتهم، ومثل القسوة في تنفيذ الأحكام والعقوبات.

وذكر المؤرخون أن سبب إنشاء المنصور بن قلاوون البيمارستان المنصورى أنه جاء تكفيرا لذنب اجترحه في حق عامة الناس، فقد كان أمر الجنود والمماليك أن يضعوا السيف في رقاب العوام، لأنهم خالفوا أمره في بعض ما أمر به، فاستعمل السيف في قتلهم ثلاثة أيام وقتل منهم عددًا لا يحصي، وذهب البريء منهم مع المسيء، والصالح مع الطالح، وما زالوا حتى ضج الناس وعلا الصراخ وعمت الشكوي، وطفح الكأس، فشفع فيهم القضاة وعلماء الدين فعفا عنهم المنصور. ثم ندم على ما فعل وتقرب لله بهذا المستشفي.

وحينما اعتزم الملك المؤيد شيخ أن يبنى مسجده الشهير بجوار باب زويلة عام 822هـ بث أعوانه في القاهرة يجمعون له الرخام قوة واقتدارًا من كل منزل به أثارة منه. فظلموا في ذلك كثيرًا من أعيان الناس.

وقد أطلقت أيدى أمراء المماليك يعملون ما شاء لهم في عامة الناس وحق لهم مصادر أموال الناس، وأخذ ما حلى لهم بالأسعار التى يريدون، حتى إن أحد أمراء المماليك وهو قرقماش سرق من منزله بزقاق الكحل فقبض على جيران الحارة

أجمعين وسلمهم إلى والى القاهرة فعاقبهم أشد عقوبة، وغرمهم أضعاف ماسرق. ومن بينهم أسر عريقة كأسرة البقري. وغيرها الكثير والكثير من أنواع المظالم.

ومن أنواع التعذيب التى شهدها عصر المماليك، التسمير في الأخشاب وهو مثل الصليب، ومنها الاعتقال والسجن والقيد في الحديد والضرب بالمقارع، ومنها ضرب الجسد عاريًا، ومنها قيد الأرجل والضغط عليها وإيلامها بآلات تسمى " المعاصير " و " الكسارات " وكذلك كانت تعصر الأصداغ والأيدي، ومنها إحراق الأصابع بالنار، ومنها وضع خوذة حديدية أو نحاسية في النار ثم تثبت على رأس المتهم، مع ملاحظة أن أنواع التعذيب هذه كانت تقع لأهون التهم والجرائم وربما أخذوا الناس بالظن، وربما لم تكن لذلك سبب أو جناية، وربما للتسلية والتمتع بتعذيب الخصوم، ومن أشهر السجون في عصر المماليك الجب الذى كان بالقلعة، وكان مهولاً مظلمًا كثير الخفافيش، كريه الرائحة يقاسى فيه المسجون ما هو كالموت أو هو أشد منه، وحبس المعونة بالقاهرة، وهو منذ أيام الفاطميين، وسجن خزانة شمايل بالقاهرة وسجون القاهرة والإسكندرية ودمشق والكرك وقوص وغيرها الكثير من السجون التى مورس فيه التعذيب على أعلى مستوى[1].

4- كثرة الفتن والقلاقل والاضطرابات بين المماليك حول السلطنة وولاية الحكم مما أدى إلى عدم استقرار الحكم في أغلب الأوقات وأصعبها :

ولم يكد يخلو عهد سلطان من سلاطين المماليك من مؤامرة لخلعه أو التآمر عليه ومنذ اللحظة الأولى لقيام دولة المماليك كانت المؤامرات، وربما كانت المؤامرات أسبق من عهد المماليك، مثل مؤامرة شجرة الدر على زوجها معز الدين أيبك أول سلاطين المماليك، ومؤامرة " بيبرس " على السلطان المظفر قطز، وبين غدر ومؤامرة الأمير طومان باى بالسلطان الناصر بن قايتباى وقتله، في آخر عصر دولة المماليك، كلها مؤامرات وفتن وربما الحديث عن تاريخ دولة المماليك هو حديث عن تاريخ المؤامرات والفتن.

---

(1) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص294.

5- كثرة الخيانات بين صفوف المماليك:

وربما كانت الخيانة هى السبب المباشر في هزيمة القوات المملوكية أمام القوات العثمانية، بسبب خيانة الأمير خير بك والأمير جان باى.

* * *

وأخيراً

فما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمني ومن الشيطان:

والنقص في أصل الطبيعة كامن ::: فبنو الطبيعة نقصهم لا يجحد
وكيف يعصم من الخطأ ::: من خلق ظلوما جهولا!!!

وأسأل كل من قرأ هذا الكتاب وانتفع به أن يسأل الله لي غفران الذنوب وتقبل صالح الأعمال، وأن يرزقني الشهادة في سبيله وأن يدخلني الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب، ومرافقة نبيه محمد ﷺ في أعلى جنان الخلد.

ولمن أراد التواصل معي لإسداء النصح والتبصير بالأخطاء، فرحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي:

جمهورية مصر العربية - محافظة البحيرة - إيتاي البارود - عزبة الحكر.

وعبر الهاتف
0453433959
0459118428
0103844932

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته
ورضوانه

د/ رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

المصادر و المراجع

المصادر و المراجع

* **السيوطي**: السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت 911هـ / 1505 م):

1- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ط القاهرة 1327 هـ.

2- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة، ط القاهرة، 1251 هـ.

3- نظم العقيان في أعيان الأعيان.

* **أبو شامة** (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن شهاب الدين الشافعى الدمشقى ت 665هـ / 1268 م):

1- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ط القاهرة 1287 م.

2- الذيل على الروضتين، تحقيق عزت العطار الحسينى الدمشقي، بعنوان " تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ط القاهرة 1947 م.

* **الكرمانى** (أبو العباس أحمد بن يوسف ت 1019 هـ / 1610 م):

أخبار الدول وآثار الأول، ط القاهرة 1290 هـ.

* **ابن خلدون** (عبد الرحمن بن خلدون المغربى ت 808 هـ / 1405 م):

العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ ابن خلدون، ط القاهرة 1284 هـ.

* **جمال سرور**:

الظاهر " بيبرس " وحضارة مصر في عصره، ط القاهرة 1960 م.

* **على إبراهيم حسن**:

دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمدًا بوجه خاص، ط القاهرة 1944 م.

* **الكندى** (أبو عمر محمد بن يوسف ت 350 هـ / 961 م):

الولاة والقضاء، ط بيروت 1908 م.

* **المقريزى** (تقى الدين أحمد بن على ت 845 هـ / 1442 م):

1- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (خطط المقريزي)، ط القاهرة 1334 هـ.

2- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب.

3- السلوك لمعرفة دول الملوك.

* **ابن إياس** (أبو البركات محمد بن أحمد ت 930هـ / 1523 م):

تاريخ مصر المعروف باسم: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط القاهرة 1412 هـ.

* **على مبارك**:

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ط بولاق 1305- 1306 هـ.

* **صدر الدين أبو الحسن** (على بن ناصر بن على الحسينى ت في أوائل القرن السابع الهجري):

أخبار الدولة السلجوقية، ط لاهور 1923 م.

الأصفهانى (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ت 597 هـ / 1201 م):

دولة آل سلجوق، ط القاهرة 1900 م.

* **سعد زغلول**:

الإسلام والترك في العصور الوسطي، ط عالم الفكر، 1979 م.

* **الجبرتي**:

عجائب الآثار في التراجم والأخبار.

* **الزركلي**:

الأعلام.

* **العصامي:**

سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي.

* **جوزيف نسيم:**

العدوان الصليبى على مصر، ط الإسكندرية 1968 م.

* **ابن واصل** (جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم الشافعى ت 697 هـ / 1297 م):

مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب.

* **الحنبلي:**

شذرات الذهب، في أخبار من ذهب، ط مكتبة القدس بالقاهرة، 1351 هـ.

* **أبو الفداء:**

المختصر في أخبار البشر، ط دار المعرفة ببيروت.

* **ابن كثير:**

البداية والنهاية، ط مكتبة السعادة بمصر، 1351 هـ- 1358 هـ.

* **أبو المحاسن** (جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى ت 874 هـ / 1465 م):

المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافي.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

* **عثمان بن سليمان السويفى الشافعي:**

حاشية البجيرمى على الخطيب.

* **الخليل بن أحمد:**

العين.

* **الخرشي:**

شرح مختصر خليل.

* **الصاحب بن عباد:**

المحيط في اللغة.

* **لسان الدين بن الخطيب** (الوزير محمد بن عبد الله ت 776هـ / 1374 م):

نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، ط القاهرة 1967م.

* **النويري:**

نهاية الأرب في فنون الأدب.

* **القلقشندي:**

صبح الأعشى في صناعة الإنشا.

* **اليونيني:**

ذيل مرآة الزمان.

* **محمد بن شاكر الكتبي:**

فوات الوفيات، تحقيق، إحسان عباس، ط1، دار صادر- بيروت.

* **مصطفى طه بدر:**

محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على يد المغول، ط القاهرة، 1947 م.

* **فؤاد عبد المعطى الصياد:**

المغول في التاريخ، ط القاهرة 1980 م.

* **الذهبي:**

1- العبر في خبر من غبر.

2- تاريخ الإسلام.

3- سير أعلام النبلاء.

* **نجم الدين إبراهيم بن على الحنفى الطَّرَسوسي**:

تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق، عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي

* **بارتولد**:

تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم، ط الكويت، 1404 هـ / 1981 م.

* **نشوان الحميري**:

الحور العين.

* **ابن تيمية**:

مجموع الفتاوى ابن تيمية.

* **الصفدي**:

الوافى بالوفيات.

* **اليافعي**:

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان.

* **ابن عرب شاه**:

عجائب المقدور في أخبار تيمور.

* **بروكلمان**:

تاريخ الشعوب الإسلامية (الترجمة العربية).

* **ابن أيبك الدوادارى** (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري):

الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية. (وهو الجزء الثامن من حوليته: كنز

الدرر وجامع الغرر).

* **ابن سعيد المغربي**، (على بن موسى ت 673 هـ = 1275 م):

العيون الدعج في حلى دولة بنى طغج. من كتاب المغرب في حلى المغرب، نشر كنوت تلكوست.

* **ابن الأثير**:

الكامل في التاريخ، ط بولاق، 1290 هـ.

* **ابن أبي الفضائل** (مفضل بن أبى الفضائل)، (ت 672 هـ / 1273 م):

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ط باريس، 1912م.

* **العينى** (بدر الدين محمود العينى ت 855 هـ):

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان.

* **قاسم عبده قاسم**:

1- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي- عصر سلاطين المماليك، ط دار الشروق بالقاهرة، 1994 م.

2- عصر سلاطين المماليك / التاريخ السياسي والاجتماعي، ط دار عين، بالقاهرة، 1427هـ / 2007م.

* **ابن عبد الظاهر**:

الزاهر.

* **سعيد عبد الفتاح عاشور**:

1- الحركة الصليبية، ط القاهرة، 1963 م.

2- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ط دار النهضة بالقاهرة، 1990م.

3- قبرص والحروب الصليبية.

* **السيد عبد العزيز سالم:**

طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط الإسكندرية، 1967 م.

* **أنور زقلمة:**

المماليك في مصر.

* **ابن الفرات** (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت 807 هـ / 1405 م):

تاريخ ابن الفرات المعروف باسم الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك.

* **حسن أحمد محمود:**

الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ط القاهرة 1963 م.

* **مصطفى مسعد:**

الإسلام والنوبة في العصور الوسطى.

* **ابن أبي دينار** (أبو عبدالله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيرواني):

المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، ط3 تونس 1387هـ.

* **ابن القنفد القسطنطيني** (أبو العباس أحمد بن حسين بن على بن الخطيب، ت 810 هـ/ 1407م):

الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركي، تونس 1968م.

* **ابتسام مرعى خلف الله:**

العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، ط دار المعارف بالقاهرة، 1405هـ / 1985م.

* ابن حبيب:

تذكرة النبيه.

* " بيبرس " الدوادار:

زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، عصر سلاطين المماليك، تحقيق د. زبيدة محمد عطا، ط دار عين، القاهرة.

* ابن حجر العسقلاني:

إنباء الغمر بأنباء العمر.

* العيني:

السيف المهند في سيرة الملك المؤيد.

* الصيرفي:

نزهة النفوس والأبدان.

* ابن طولون:

مفاكهة الخلان في حوادث الزمان.

* سليمان بن صالح الخراشي:

ابن تيمية لم يكن ناصبيًّا.

* ابن أيبك الدواداري:

الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر.

* محمد فريد:

تاريخ الدولة العلية العثمانية.

* محمود رزق سليم:

عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ط القاهرة 1381هـ

/1962م.

* **حكيم أمين:**

قيام دولة المماليك الثانية، ط دار الكتاب العربى للطبع والنشر.

* **السخاوي:**

الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع.

* **العسقلاني:**

الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة.

* **الخضري:**

تاريخ الدولة العباسية.

* **السبكي:**

طبقات الشافعية الكبري.

* **صدر الدين أبو الحسن:**

أخبار الدولة السلجوقية.

* **عبد المنعم ماجد:**

التاريخ السياسى لسلاطين المماليك.

* **فايد حماد عاشور:**

1- الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين في العصر الأيوبي.

2- العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ط دار المعارف بالقاهرة.

* **على محمد الصلابي:**

الدولة العثمانية. عوامل النهوض وأسباب السقوط، ط دار الدعوة بالإسكندرية، 2007م.

* **رجب محمود إبراهيم بخيت:**

1- تاريخ الدولة الأيوبية، ط دار الإيمان بالمنصورة، 2008 م.

2- الشيعة... التاريخ الكامل، ط دار الإيمان بالمنصورة، 2009م.

3- تاريخ المغول، ط دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع بالمنصورة.

4- تاريخ الإسلام في الأندلس، ط دار الإيمان بالمنصورة.

* * *

الفهـــرس

الفهـــرس

* * *